أساليب الخطاب في القرآن الكريم

دراسة تحليلية

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى المكتبة الوطنية
(٢٠١٦/١١/٥٠٨٥)

الربيعي، أحمد حاجم
أساليب الخطاب في القرآن الكريم/أحمد حاجم الربيعي - عمان:
دار غيداء للنشر والتوزيع ٢٠١٦
(   ) ص.
ر. ا. : (٢٠١٦/١١/٥٠٨٥)
الواصفات: /العلوم القرآنية//الإعجاز البلاغي/
يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعتبر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية آخرى.

ISBN 978-9957-96-346-0



دار غيداء للنشر والتوزيع

تلاع العلي - شارع الملكة رانيا العبدالله
تلفاكس : 5353402 6 962+
ص.ب : 520946 عمّان 11152 الأردن
www.darghaidaa.com

مجمع العساف التجاري - الطابق الأول
خلوي : 95667143 7 962+
E-mail: darghidaa@gmail.com
E-mail: info@darghaidaa.com

أساليب الخطاب في القرآن الكريم

دراسة تحليلية

الاستاذ الدكتور

احمد حاجم الربيعي

الطبعة الأولى

٢٠١٧م- ١٤٣٨هـ

المحتويات

المقدمة..

الفصل الاول

بناء السور القرآنية

أولاً: افتتاحيات السور ....
ثانياً: موضوعات السور: أ- السور المكية:...
١- الإيمان بالله ....
٢- الإيمان بملائكته ....
٣- الإيمان برسله...
٤- الإيمان بكتبه...
٥- الإيمان باليوم الآخر..
٦- الترهيب والترغيب...
٧- استخدام البراهين العقلية ....
٨- التحلي بالأخلاق الحميدة ....
ب- السور المدنية: ....
١- مسؤولية المؤمن من الإسلام ....
٢- موقف الكفار والمشركين ....
٣- موقف المنافقين..
٤- موقف أهل الكتاب...
٥- تحديد فرائض الإسلام: الصلاة. والزكاة. والصوم. والحج. والجهاد..........
٦- الأحكام والمعاملات: الطعام والشراب. المال والذهب والفضة. حقوق المرأة. الكبائر والذنوب ....
ثالثاً: محور السور ....
رابعاً: خواتيم السور ....
خامساً: الوحدة الموضوعية ....

الفصل الثاني

اللغة والتركيب

أولاً: اللغة أ- اختيار الألفاظ ....
١- اختيار الاسماء...
٢- اختيار الأفعال ....
ب- معجم ألفاظ الخطاب القرآني...

١- خطاب الملائكه..
٢- خطاب الجن. ....
٣- خطاب الإنس: أ- خطاب الأنبياء. ....
ب- خطاب المؤمنين ....
ج- خطاب الكفار والمشركين ....
د- خطاب المنافقين...
هـ- خطاب أهل الكتاب ....
٤- خطاب سائر الخلق..
ثانياً: التركيب اللغوي...
أ- الخبر والإنشاء ....
١- أسلوب الخبر ....
٢- أسلوب الإنشاء: الإنشاء الطلبي. والإنشاء غير الطلبي ....
ب- أحوال الجملة ....
١- التعريف والتنكير...
٢- الذكر والحذف..
٣- التقديم والتأخير ....
٤- القصر ....
٥- الفصل والوصل ....
٦- الإيجاز والإطناب ....

الفصل الثالث

الصورة الفنية

أولاً: وسائل تشكيل الصورة...
١- التشكيل بالتشبيه ....
٢- التشكيل بالتمثيل ....
٣- التشكيل بالاستعارة ....
٤- التشكيل بالكناية...
٥- التشكيل بالقصة...
ثانياً: أنماط الصورة القرآنية..
١- الصورة المفردة: أ- الصورة الحسية ....
١- الصورة البصرية...
٢- الصورة السمعية...
٣- الصورة الذوقية..
٤- الصورة الشمية. ....
٥- الصورة اللمسية ....

ب- الصورة الذهنية (الخيالية) ....
٢- الصورة الكلية (المركبة) ....

الفصل الرابع

الإيقاع الصوتي والدلالي: نظم تحقيق الإيقاع

أولاً: نظام الفاصلة ....
الفاصلة والقافية. الفاصلة والسجع. الفاصلة والقرينة. الفواصل الداخلية ....
أحكام مراعاة الفاصلة...
ثانياً: نظام التكرار ....
أ- تكرار الحروف...
ب- تكرار الألفاظ...
١- تكرار الاسم...
٢- تكرار الفعل...
٣- التكرار الاشتقاقي...
٤- تكرار الصدارة ....
٥- تكرار الفاصلة...
٦- التجنيس (الجناس)...
٧- التصدير..
٨- الترديد..
٩- التذييل. ....
ج- تكرار العبارة (الجملة) ....
ثالثاً: نظام التغيّر. ....
رابعاً: نظام التساوي. ....
خامساً: نظام التوازي. ....
سادساً: نظام التوازن..
سابعاً: نظام التلازم. ....
الخاتمة ....
المصادر والمراجع ....

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الذي علم القرآن، خلق الإنسان، علمه البيان، والصلاة والسلام على نبينا محمد أفصح الإنس والجان، وعلى آله وصحبه خير الأنام.

القرآن الكريم خطاب الله تعالى إلى خلقه، يحتوي منهجاً قيماً للإنسانية، لا عوج فيه ولا زيغ ولا انحراف، يواكب الفطرة الإنسانية، ويلبي حاجات الفرد والمجتمع، وقد تكفل الله بحفظه من أي تحريف أو تحوير، ليبقى للخطاب عالميته وختاميته للرسالات السماوية التي سبقته، بيد أن فهم هذا الخطاب لا يتوقف على ثبوت صحته فحسب، بل يشمل إمكانية العقل على فهم محتواه، ومدى تطبيقه أو تفعيله عملياً في حياة الفرد والمجتمع على السواء.

والخطاب كما يراه بعض المنظرين هو مجموعة الآثار اللسانية ذات المستويات المتعددة، أو هو مجمل العمليات التي تبرز الذات الإلهية المخاطبة. وعناصر الخطاب هي: المخاطِب بكسر الطاء وهو الله سبحانه وتعالى، وقد وردت كثير من الآيات التي تدل على صفاته، وأهمها وحدانيته وعدم الإشراك به، والمخاطَب بفتح الطاء وهو المتلقي، أو الخلق الموجّه إليهم الخطاب على حسب أجناسهم كالملائكة والجن والإنس مثل: الأنبياء والمؤمنون والكفار والمنافقون وأهل الكتاب.

ويوجّه الخطاب أيضاً إلى الحيوان والنبات والجماد، ويتميز الخطاب القرآني من غيره من الخطاب الإنساني بتوجهه إلى هذه المخلوقات غير المدركة فتستجيب له، وأما نص الخطاب فإنه متنوّع في لغته ومفرداته وتركيبه، وفي صوره وإيقاعه، والوسائل المستخدمة لإيصاله إلى المتلقي عن طريق الوحي والرسول والكتاب، والسياق الذي يمارس في الخطاب فعله، ويؤسس سلطته، يتناسب والخطاب مع زمان نزوله ومكان متلقيه، والعقلية التي تستطيع استيعابه وفهمه.

وقد شهد القرن الحاضر تطوّراً في الدراسات القرآنية من مستوى تفسير النص إلى مستوى تحليل الخطاب، وفي مقدمة هذا التطوّر ظهور ما يعرف بالتفسير الموضوعي، وقد سهّل لنا هذا التطوّر تقدّم الخطاب القرآني في مواجهة قضايا العصر وتحدّياته، ومن هذه التحديات اتجاه الدراسات القرآنية في الغرب نحو الدراسات الانثربولوجية أكثر من الدراسات اللسانية، وقد تزايدت هذه الدراسات بدوافع سياسية مثل دعوات الإرهاب، واتجهت لإثبات وجود العنف ظاهرة أساسية في الخطاب القرآني، ومهما توشّحت هذه الدراسات بالعلمية والواقعية فإن دوافعها السياسية ظاهرة للعيان، وسيكون بمقدور دراساتنا في الخطاب القرآني التصدّي لمثل هذه التخرّصات والتأويلات المغطاة تحت ستار العلم والواقعية.

وقع اختياري على الموضوع بعد دراستي (القصص القرآني في الشعر الأندلسي) فوجدت الخطاب في القصص جزءاً من الخطاب القرآني، مع اختلاف في بعض العناصر،

ومرّت السنوات والخطاب القرآني يتراءى لي، وكلمّا عكفت على قراءة القرآن ازدادت همتي لدراسته، حتى حلّ رمضان عام ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م فبدأت بجمع الآيات على وفق أساليب الخطاب، وقد جعلت نص الخطاب هو الأساس الذي تنطلق منه العناصر التي تضيء النص وتوضّحه.

وبعد انتهاء البحث في رمضان عام ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م وجدت فيه مولد دراسة جديدة في القرآن الكريم، وهي إنتقالة من الدراسات التقليدية في الشرح والتفسير الى عرض جديد، واستنطاق لنصوصه الخطابية، دراسة لا تقوم على كل آية لوحدها، بل تقوم على مجمل الموضوع الذي قد يتم في آية أو عدّة آيات، ووجدت ذلك التناسق الجميل بين الموضوعات، وإنّ كل آية جاءت موافقة للسياق- وإنْ كانت مكررة- فإنها تتناول جانباً معيناً من الموضوع لا نجده في الآيات الأخرى.

وقد اتبعت منهجاً في الدراسة يتوافق وأساليب الخطاب، وهي على النحو الآتي:

بناء السور القرآنية، واللغة والتركيب، والصورة الفنية، والإيقاع الصوتي والدلالي.

وأخيراً لا يسعني إلاّ أن أتقدم بجزيل الشكر لأخي الأستاذ نعمة كاظم حمادي على رفدي ببعض المصادر الأساسية، وانتفاعي بمشورته العلمية، وكذلك لابنتي رحاب لجهدها في طبع الدراسة وتزويدي ببحوث من الإنترنيت تخص الدراسة.

ولئن وفقت في إتمام هذه الدراسة وإبرازها للقارئ لينتفع بها، ويتدبر كتاب الله تعالى، فإني أرجو رضا الله تعالى، وهو أني قدمت عملاً يخدم كلام الله تعالى، ويفتح مجالات لدراسات أخرى، وليكن هذا بلا شك انتصاراً للحق على الباطل.

المؤلف

الفصل الأول

بناء السورة القرآنية

الفصل الأول

بناء السورة القرآنية

القــرآن الكــريم ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾. [١] ينيــر للبشــرية طريق الهداية، ويسلك بهم الى معالم الخير، ويرتفع بهم عن وهاد الحياة الوعرة الى سموّها ورفعتها، وقد تنوّعت معانيه وتعددت موضوعاته، فكانت سوره أزاهير رياض يتمتع القارئ بحلاوة تلاوة ألفاظها، ويلتذ السامع بجرس فواصلها، ولا يتسرب الملل اليهما من تكرار القراءة وسماعها، وتلك من معجزات كلام الله تعالى، فكل كلام إذا أعيد مرة أو مرتين فإنه يمل، إذ لا يجد فيه القارئ والمتلقي تلك الإثارة التي يجدانها في القرآن الكريم.

والبناء رصف أو ترتيب لموضوعات السورة بحيث ينسجم ما قبلها مع ما بعدها، وتتلاحم أجزاؤها، فلا نجد اختلافاً أو تفاوتاً في ذلك البناء، ولمّا كان لبنية السور من أثر واضح في الخطاب القرآني فإننا نجد أنفسنا معنيين بدراسة تلك الأجزاء أو المكوّنات التي تتشكل منها السورة، ونبدأ بالافتتاح الذي يطالعنا أول السورة، ثم الموضوعات التي تتضمنها ولها النصيب الأكبر في التأثير، وتدور حول محور لا يستقر في مكان معين أو محدد من السورة، وتتفاعل هذه الموضوعات وتتقارب من بعضها حتى تشكل وحدة موضوعية، وتنتهي بعد ذلك بخاتمة تتضح فيها العبرة من نزولها، وهي الهداية الى الصراط المستقيم.

أولاً: افتتاحيات السور القرآنية:

الافتتاحيات أو الفواتح جمع فاتحة، وهي مبتدأ كل شيء، وفي لسان العرب: الفتح نقيض الإغلاق، وفاتحة الشيء أوله، وافتتاح الصلاة التكبيرة الأولى، وفواتح القرآن أوائل السور، والواحدة فاتحة، وأم الكتاب يقال لها فاتحة القرآن.[٢] وفواتح السور وخواتمها أمر توقيفي، وكذلك ترتيب الآيات في السورة، وترتيب السور في المصحف.

والسورة التي نريد تحليلها لمعرفة بنيتها باعتبارها نصّاً أدبياً مقدساً أول ما نبدأ بافتتاحيتها أو مقدمتها التي أول ما تواجه القارئ والمتلقي، وقد رأى أهل البلاغة والنقد ما ينبغي للكاتب أن يتألق في ثلاثة مواضع من كلامه حتى يكون أعذب سبكاً واصح معنى، الابتداء والتخلص والخاتمة. ومن ذلك قيل حسن الابتداء: ((وهو أن يتأنق في أول الكلام، لأنه أول ما يقرع السمع، فإن كان محرراً أقبل السامع على الكلام ووعاه، والاّ أعرض عنه

---

(١) هود ١.

(٢) ابن منظور: لسان العرب: مادة فتح.

ولو كان الباقي في نهاية الحسن، فينبغي أن يؤتى فيه بأعذب اللفظ وأجزله، وأرقّه وأسلسه، وأحسنه نظماً وسبكاً، وأصحّه معنى، وأوضحه وأخلاه من التعقيد والتقديم والتأخير)). [١]

ويربط حازم القرطاجني بين الجانب النفسي والجانب الذوقي في قبول أول ما يصل الى السمع من مطالع وابتداءات قائلاً: ((لأنها أول ما يقرع السمع فهي رائد ما بعدها الى القلب، فإذا قبلتها النفس تحركت لقبول ما بعدها، وإن لم تقبلها كانت خليقة أن تنقبض عما بعدها. وعلى نحو ما يشترط فيها من جهة المسموع يشترط فيها من جهة المفهوم، فإن النفس تكون مترقبة لما يرد عليها في استئناف كل فيقبضها ما تستقبله من كراهة المسموع أو المفهوم أولاً عن كثير من نشاطها بما يرد بعد)). [٢]

وقد وجدنا افتتاحيات سور القرآن الكريم قد استحوذت على فكر المتلقي، وذلك من خلال مراعاتها الجانب النفسي لديه، فقد تأتي هذه الفواتح مرة مثيرة للانتباه والتأمل، ومرة فيها زجر ونهي عن سلوك معين، وأخرى فيها ترغيب وتحبيب لأمر آخر وعلى وفق تغيّر زمان ومكان نزولها، فإن لكل زمان ومكان أحوال مختلفة. ومن هذه الإفتتاحيات:

١- تسبيح الله وتحميده وتبريكه:

وتتزين افتتاحيات السور المكية والمدنية بتسبيح الله تعالى لجلال عظمته في ملكه، وقد تأتي إخباراً عن تسبيح جميع الكائنات الموجودة في السماوات والأرض، وفي جميع الأزمنة، الماضي والحاضر والمستقبل، وتأتي أيضاً بصيغة الأمر. قال تعالى في سورة الإسراء: ((سُبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى)) وفي سورة النحل: ((أتى أمر الله فلا تستعجلوه سُبحانه وتعالى عمّا يشركون)) وفي سورة الحديد: ((سبّح لله ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم)) وفي سورتي الحشر والصف: ((سبّح لله ما في السموات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم)) وفي سورة الجمعة: ((يسبّح لله ما في السموات وما في الأرض الملك القدّوس العزيز الحكيم)) وفي سورة التغابن: ((يسبّح لله ما في السموات وما في الأرض له الملك وله الحمد وهو على كلّ شيء قدير)) وفي سورة الأعلى: ((سبّح اسم ربّك الأعلى)).

وفي تحميده وهو أحق بالحمد والثناء عليه، فقد أفاض علينا بنعمه الوافرة، ألا يستحق الشكر والحمد، ومثل هذه الافتتاحات إضاءات تنير طريق من أضل رؤية آلاء الله ونعمه. قوله تعالى في سورة الأنعام: ((الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون)). وفي سورة السجدة: ((الحمد لله الذي له ما في السماوات وما في الأرض وله الحمد في الآخرة وهو الحكيم الخبير)). وفي سورة فاطر: ((الحمد لله فاطر السموات والأرض جاعل الملائكة رُسلاً أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع يزيد في الخلق ما يشاء إنّ الله على كلّ شيء قدير)).

---

(١) التهانوي: كشاف اصطلاحات الفنون ٣٨٨/١ ط.

(٢) حازم القرطاجني: منهاج البلغاء ٢٨٦.

والتبريك من البركة وهي النماء والزيادة، فالدعاء لله تعالى أن يزيد من نعمه وآلائه بعد الشكر والثناء. قال تعالى في سورة الفرقان: ((تبارك الذي نزّل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا)). وفي سورة الملك: ((تبارك الذي بيده الملك وهو على كلّ شيء قدير)).

٢- تمجيد كتاب الله المبين:

القرآن الكريم كتاب الله تعالى الذي أنزله على نبيه محمد (صلى الله عليه وسلم) لينذر الكافرين الذين كذبوه بعذاب أليم وهو النار، ويبشر المؤمنين الذين اتبعوه بالجزاء الأوفى وهو الجنة، لما في هذا الكتاب من دلائل على توحيد الله تعالى، والدعوة الى إتّباعه والتمسك به، وبيان قدرة الله تعالى في خلق السماوات والأرض وما فيها من مخلوقات، وكأن هذه الابتداءات تخبرنا أن مستودع إيماننا بالله تعالى يبدأ من إيماننا بأن القرآن الكريم هو كلام الله تعالى، وأن ما يرد فيه هو الحبل الموصول بيننا وبين خالقنا.

ومما يلاحظ أن الآيات الفواتح التي تمجّد القرآن الكريم تسبقها ما يسمّى بحروف التهجّي (الر، الم، حم، ص، ق...) وأصبحت ملازمة لها. قال تعالى في سورة هود:

((الر كتاب أحكمت آياته ثم فصّلت من لدن حكيم خبير)). وفي سورة يوسف: ((الر تلك آيات الكتاب المبين. إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون)). وفي سورة إبراهيم: ((الر كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور بإذن ربّهم الى صراط العزيز الحميد)).

وقد تتكرر بعض الافتتاحات في أكثر من سورة، وتنفصل حروف التهجي لوحدها في آية، لأن الله تعالى يريد أن يثير الانتباه الى ما تتضمنه الآيات من وضوح وإبانة بحيث لا يعطي مجالاً للتردد في فهمها وقبولها، لأنها تدبير العزيز الحكيم. قال تعالى في سورة البقرة: ((الم. ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين)). وفي سورة الرعد: ((الم تلك آيات الكتاب والذي أُنزل من ربّك الحق ولكن أكثر الناس لا يؤمنون)). وفي سورتي الشعراء والقصص ((طسم. تلك آيات الكتاب المبين)). وفي سورتي الزخرف والدخان ((حم. والكتاب المبين)). وفي الجاثية والأحقاف ((حم. تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم)).

وقد تتفق آيات الفواتح وتختلف في حروف التهجي كما في سورتي الحجر والنمل ((الر تلك آيات الكتاب وقرآن مبين)). و((طس. تلك آيات القرآن وكتاب مبين)). وفي سورتي الزمر وغافر ((حم. تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم)). و((حم. تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم)). وهذا الاختلاف في اللفظ يعود الى توافقه مع معاني الآيات التي تليه، بحيث نتبيّن مثلاً صفة الحكيم تنسجم والأفعال التي تليها، وكذلك صفة العليم تتسق والأوامر التي تتبعها وهكذا.

وللعلماء في حروف التهجي التي تقع في فواتح الآيات التي تمجّد القرآن الكريم آراء منها:

أ- إن المعنى المقصود من هذه الحروف غير معلوم لنا بل هو مما استأثر الله تعالى به، لاختبار عباده حتى يميز المؤمن من غيره، بعد أن أقام لهم الدلائل في غير تلك

الفواتح من كتابه، فالذين آمنوا يؤمنون بهذه الفواتح وإن لم يفهموها. والذين لا يؤمنون يتبعون المتشابه ابتغاء إثارة الفتنة في تأويله. قال أبو بكر الصدّيق (رضي الله عنه): ((في كل كتاب سر، وسر الله في القرآن أوائل السور))[1] وقال علي بن أبي طالب (رضي الله عنه): ((إن لكل كتاب صفوة وصفوة هذا الكتاب حروف التهجّي)) [2]

ب- إن لهذه الحروف معنى مقصوداً معلوماً لأن القرآن كتاب هداية والهداية لا تتحقق إلاّ بفهم المعنى خصوصاً أننا أمرنا بتدبّر القرآن، واستنباط العظة منه، وهذا لا يكون إلاّ بفهم المعنى.

ج- إن المقصود منها إفهام المخاطب بأن القرآن مؤلف من حروف التهجي المعروفة جاء بعضها مقطعاً منفرداً كفواتح السور، وجاء بعضها متصلاً بالآيات وذلك ليتبين أن هذا القرآن وإن نزل بهذه الحروف التي يعرفونها ومع ذلك فهو معجز، يتحداهم أن يأتوا بمثله.

د- ويرى آخرون ان في حروف التهجي إعجاز عددي، فإن الأعداد التي تقابل تلك الحروف يكون حاصل جمعها أو ضربها أو تقسيمها ينتج العدد سبعة، ولعل السر في ذلك أن الله الذي خلق سبع سماوات وسبع أرضين في سبعة أيام قادر على أن يعجز بلغاء العرب بهذا القرآن الكريم المكتوب بلغتهم.

٣- خطاب مباشر للنبي محمد (صلى الله عليه وسلم):

وقد تبدأ فواتح السور بخطاب مباشر موجّه للنبي محمد (صلى الله عليه وسلم) وهو في الوقت نفسه موجّه لجماعة المؤمنين أيضاً، وهم معنيون بالخطاب، ليتدبروا معانيه، ويأخذوا بما فيه من أمر ونهي. قال تعالى في سورة المزمل: ((يا أيها المزّمل. قم الليل الاّ قليلا)). وفي سورة المدثر: ((يا أيها المدّثر. قم فأنذر)). وفي سورة الانشراح: ((ألم نشرح لك صدرك)). وفي سورة العلق: ((اقرأ باسم ربّك الذي خلق)) وسورة الفيل: ((ألم تر كيف فعل ربّك بأصحاب الفيل)).

٤- القسم بمظاهر الكون:

ويتصدر بعض افتتاحات السور القسم باللفظ أو بواو القسم، إذ يقسم الله تعالى بمظاهر الكون التي خلقها، فالقسم بها يدل على عظمتها، ويدل على عظمة قدرة الخالق لها، إذ لا يمكن للإنسان أن يحيط بعلمها، ومع ذلك فقد سخرها الله تعالى لخدمته، وجعلها تعمل على وفق نظام هندسي، لا تختل فيه الموازين الدقيقة لنظام هذا الكون العجيب. قال تعالى في سورة القيامة: ((لا أقسم بيوم القيامة)). وفي سورة البلد: ((لا أقسم بهذا البلد)).. والقسم بالواو ورد كثيراً، ومنه ما ورد في سورة النجم: ((والنجم إذا هوى. ما ضلّ صاحبكم وما

---

(١) الزركشي: البرهان في علوم القران ١٧٤/١.
(٢) المصدر نفسه ١٧٣/١.

غوى)). وفي سورة البروج: ((والسماء ذات البروج. واليوم الموعود. وشاهد ومشهود)). وفي سورة الفجر: ((والفجر. وليال عشر. والشفع والوتر. والليل إذا يسر)). وفي سورة الشمس: ((والشمس وضحاها. والقمر إذا تلاها)). وسورة الليل: ((والليل إذا يغشى. والنهار إذا تجلّى)). وفي سورة التين: ((والتين والزيتون. وطور سينين. وهذا البلد الأمين)). وغيرها.

٥- فرض الأحكام الشرعية:

وتعد افتتاحيات بعض السور بآيات الأحكام والتشريع مفاتيح لقواعد التشريع أو مقدمات للأحكام الشرعية، فأسلوب القرآن في عرضه لمثل هذه القضايا لا يهجم على الموضوع مرة واحده، وإنما يتبسط في تبيانها، ويمهد لها في أول السورة، مستخدماً أساليب كالأمر والنهي والخبر، مما يجعل تلك المقدمات تبدو منطقية، قادرة على إقناع المخاطب فتدفعه الى العمل بها، وهو على قناعة تامة أنها فرضت لتنظيم شؤون حياته.

ومن ذلك مثلاً سورة النساء التي دعيت باسمهن، فقد ورد فيها كثير مما يتعلق بشؤونهن، ومن تلك الأحكام الشخصية: صداق الزواج، وميراث الزوجة، وتحريم الزواج من المحارم، والطلاق، والنشوز، والنفقة، والعدة وغيرها، مما يستدعي بآية الافتتاح التي يبدو فيها أسلوب الأمر واضحاً في تقوى الله الذي خلقنا من أصل واحد وهو آدم (عليه السلام) ثم خلق حواء، فبدأ بأصل إنشاء الأسرة، وعن طريق الزواج يتكون منها الأبناء ذكوراً وإناثاً، قال تعالى في سورة النساء: ((يا أيها الناس اتّقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث فيها رجالاً كثيراً ونساء فاتّقوا الله الذي تساءلون به والأرحام انّ الله كان عليكم رقيبا)).

ويوجّه الله سبحانه وتعالى أوامره الى الناس كافة مؤمنين وكافرين بالخوف منه، وتحذيرهم من أمر قد يقع عليهم فيصيبهم بضرر شديد، وهو أن الساعة آتية بغتة، وحدوثها من علم الغيب الذي لا يعلمه إلاّ الله سبحانه وتعالى، ويصف في القرآن الكريم مشهدها، وهو ((مشهد يحفل بالفزع والخوف، ويزدحم بالأحداث المروّعة، فهو انقلاب تام على كل نظام معهود)).[١]

إن هذا الأمر الإلهي في افتتاح سورة الحج يؤول الى أن يضع الإنسان حدّاً لتذبذبه في الإيمان، فهو مرّة يجادل في آيات الله، ومرّة يشك في البعث والنشور، وأخرى يعبد الله على حرف، فكان هنا الابتداء ضربة لازمة لعله يصحو بعدها. قال تعالى: ((يا أيها الناس اتقوا ربّكم إنّ زلزلة الساعة شيء عظيم. يوم ترونها تذهل كلّ مرضعة عمّا أرضعت وتضع كلّ ذات حمل حملها وترى الناس سُكارى وما هم بسُكارى ولكنّ عذاب الله شديد))..

نبّه القرآن الكريم المسلمين في الأحكام الخلقية الى مسألة خطيرة تسود في مجتمعهم وهي مسألة موالاة الكافرين والمنافقين والإطمئنان الى آرائهم، مع العلم أنهم يعلنون

---

(١) د. احمد حاجم الربيعي: القصص القرآني في الشعر الأندلسي ٣٦.

ويبطنون عداوتهم للمسلمين، وكان الدافع الى تلك الموالاة صلة القربى والنسب، ولم يتنبه المسلمون الى أن بقاء هذه المودة مع الفرق الواضح بين الإيمان والكفر قد يؤدي الى انتقال أسرار المسلمين وتحرّكاتهم الى قريش، مع بيان قوة المسلمين وضعفهم.

ويأتي النهي في افتتاح سورة الممتحنة عن موالاة الكفار وإلقاء المودة اليهم، وهم أعداء الله وأعداء المؤمنين، وهم الذين كفروا بما جاء من الحق، وهم الذين أخرجوا الرسول(صلى الله عليه وسلم) والمؤمنين من ديارهم، وكان سبب نزول الآية ان حاطب بن أبي بلتعة كتب كتاباً الى مشركي قريش يخبرهم بمسيرة النبي اليهم لفتح مكة سنة ثمان للهجرة، وقد نزل الوحي يخبره بالكتاب، وأرسل من يلحق بالمرأة التي تحمله، قال تعالى ((يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوّي وعدوّكم أولياء تلقون اليهم بالمودّة وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم إن كنتم خرجتم جهاداً في سبيلي وابتغاء مرضاتي تسرّون إليهم بالمودّة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ومن يفعله منكم فقد ضلّ سواء السبيل))..

وتتوجّه آيات الافتتاح الى الجوانب الخلقية في المجتمع الإسلامي، لتعرض لنا وبأسلوب الخبر صورة بشعة عما كان يدور في الجاهلية من ابتذال وانحلال أخلاقي، ومن ذلك جريمة الزنى التي تترعرع في بيئة تتدهور فيها القيم والمبادئ، فجاء الإسلام ليقفل باب الشر هذا، ويضع الأحكام التي تبين الحدود الواضحة، وتحذر من التقرّب منها، وتفرض العقوبة الرادعة التي تطهر الإنسان والمجتمع من هذه الآفة المقيتة، فكانت سورة النور تسليطا للنور على ذلك الانحلال، فقد أنزلها الله تعالى دواء ناجعاً من هذه العلة، وفرض العمل بآياتها فرضاً ملزماً، مما يعطي أهمية بالغة لما بعدها. قال تعالى: ((سورة أنزلناها وفرضناها وأنزلنا فيها آيات بيّنات لعلكم تذكرون))..

٦- الإخبار عن أمور غيبية:

إنّ المتأمل في آيات الافتتاح يجد بعضها قد بدأت بجمل خبرية، وهذه الجمل قد تكون اسمية، وقد تكون خبرية، وفائدة الخبر الإعلام عن أمر قد حدث في الماضي، أو يحدث في الحاضر والمستقبل، أو أخبار عن حقائق ثابتة تحدث في جميع الأزمنة.

والخبر أمّا أن يكون ابتدائياً موجّهاً لمخاطب خالي الذهن فلا يحتاج الى تأكيد، لأنه قد يأتي قويا مؤثرا، كما ورد في سورة النحل: ((أتى أمر الله فلا تستعجلوه.)).. إذ جاء الخبر حاسماً، يوحي بصدور الأمر وتوجّه الإرادة، وهذا يكفي لتحققه في الموعد الذي قدّره الله تعالى، فينهاهم عن استعجاله زمنياً، لأن الأمر قد قضى بقيام الساعة في موعدها، وكذلك الحساب والعقاب والثواب، أمّا زمن وقوعه ونفاذه فسيكون في موعده المقدّر.

وفي سورة (محمد) حيث تبدأ ببيان حقيقة الذين كفروا والذين آمنوا بخبر ابتدائي من جملة اسمية كقوله تعالى: ((الذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله أضلّ أعمالهم. والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما أُنزل على محمد وهو الحق من ربّهم كفّر عنهم سيّآتهم وأصلح بالهم)). فيقيم موازنة طبيعية بين فريقين، فريق الإيمان وفريق الكفر، ثم يعلل الأسباب التي أدت الى فوز فريق الإيمان على فريق الضلال ،وهو أن المؤمنين اتبعوا الحق

من ربهم، وان الكافرين اتبعوا الباطل، وكأنّ هذا الافتتاح هجوم أدبي على الكافرين وتمجيد علني للمؤمنين.

وفي سورة الفتح جاء الخبر طلبياً مؤكداً بـ (أن) لأنها نزلت بعد حادثة عظيمة، وهي حادثة (صلح الحديبية) وكان في نفوس المسلمين شيء من بنود الصلح، ولاسيما في صدّهم عن المسجد الحرام ومنعهم من أداء العمرة، حزن المسلمون لرجوعهم بغير عمرة، فأخبرهم النبي(صلى الله عليه وسلم) بأنهم سوف يطوفون معتمرين، فالرؤية صادقة، فنزلت السورة مخترقة حاجز الزمن المستقبل، وهو من الغيب الذي لا يعلمه الاّ الله تعالى، وستضاف هذه الأنباء المستقبلية على قضية الإيمان، فإذن لابد أن تتحقق لأن القائل هو الله تعالى، وهو الذي أكد ما يحدث أنه فتح مبين، وكانت سورة الفتح وإن كانت الأفعال فيها تقع في الزمن الماضي فإنها تدل على ثبات وقوع الفعل، لتطمين المؤمنين بأن الفتح واقع لا محالة، وليزدادوا إيمانا على إيمانهم، قال تعالى: ((إنّا فتحنا لك فتحاً مبينا. ليغفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخّر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيما. وينصرك الله نصراً عزيزا)).

فهذه البشرى التي أنزلها الله تعالى قبل وقوع الحدث ((هل يستطيع محمد أن يتنبأ بنتيجة معركة حربية ستحدث... ويحدد من الذي سينتصر، ومن الذي سيهزم، وما الذي يجعله يدخل في قضية غيب كهذه، كيف يخبر الكفار بما تخفيه صدورهم، ولم تهمس به شفاههم، ويقول لأعداء الإسلام ما سيقع لهم، ويتحدى في قضايا الغيب، وماذا يمكن أن يحدث لقضية الإيمان كله لو لم يصدق القرآن في كل حرف قاله، ولكن القائل هو الله والفاعل هو الله)). (١)

ثانياً: موضوعات السور المكية والمدنية:

إن تنوّع الموضوعات التي تتضمنها السور القرآنية يؤدي الى تنوّع أساليب الخطاب في القرآن الكريم، إذ تخاطب هذه السور العقل البشري الذي تختلف مستوياته في الفهم والإقناع، وهذا أمر طبيعي، وهو ما يتميز به كل إنسان عن آخر، وكذلك يتعلق هذا التنوع بطبيعة القرآن نفسه فضلاً عن العقل البشري، فالقرآن الكريم نزّل منجّماً متفرّقاً مراعياً مستويات العقل الإنساني في الاستجابة ورد الفعل، والظروف الطبيعية المحيطة به، أو البيئة التي يعيش فيها، وهذا التنجيم مرّ بمرحلتين، المرحلة المكية ثم المرحلة المدنية، ومن الطبيعي أن تختلف السور وموضوعاتها التي نزلت في كل مرحلة، وان لكل سورة اسلوبها الخطابي في التأثير، ولذلك رأينا من الصواب أن نتعرض لتلك الموضوعات على وفق السور التي نزلت في تلك المرحلتين وأن نبدأ بالسور المكية.

أ- السور المكية:

تهدف السور المكية الى مخاطبة العقل قبل العاطفة، وتستخدم أساليب متعددة لإيصال الفكرة، وتؤكدها بالأدلة العقلية والمنطقية، لأنها تخاطب العقول التي أشركت بالله،

---

(١) محمد متولي شعراوي: المنتخب من تفسير القران الكريم ٩/١.

وانكرت البعث والحساب والجنة والنار، ومن هذه الخصائص التي تتميز بها السور المكية:

١- الدعوة الى الإيمان بالله تعالى وتوحيده:

تبدأ قضية الإيمان بالله تعالى وتوحيده من نبذ الكفر والشرك به، وهما أظهر سمات هذه القضية، وأول ملامحها مسألة الخلق، فحينما نصل الى معرفة الخالق والمخلوق تنتهي هذه المسألة، وتتضح لنا قاعدة ينطلق منها مبدأ التوحيد، وهي أن الأشياء المصنوعة مثل الأدوات التي نستخدمها في حياتنا اليومية لم توجد هكذا وإنما صنعها صانع، وكل من يستخدم هذه الأدوات على يقين أنها صنعت بفعل صانع، فأي صنعة مهما كانت ضئيلة لا تصنع إلاّ تقليداً لمثال يسبقها أو انموذج تحتذيه، ولكن المخلوق الذي خلقه الله تعالى لم يسبقه مثال، فأبدع في خلقه. قال تعالى: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾. [١]

وما دام أنهم يعلمون أنهم لم يوجدوا هكذا في الطبيعة، وأنّ لهم خالق، وأن الله هو خالق كل شيء في الكون، فإن هذا الاعتراف ينبغي أن يؤدي الى الإيمان بالله تعالى. قال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴾. [٢]ولكنهم بعد هذا الإقرار بالله خالق الكون كله، صنعوا تماثيل أو أصنام يعبدونها من دون الله الخالق الذي يعترفون بكل جوارحهم ان الله وحده هو الخالق. قال تعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ۖ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾. [٣]

ومن الممكن أن نسأل ما جزاء من يعبد هذه الآلهة، وما جزاء من يخالف ذلك؟ والجواب كما نجده في كتاب الله تعالى ان هذه الأصنام لا تستطيع أن ترى أو تسمع أو تتكلم، فضلاً عن ذلك لا تستطيع أن تدرأ عن نفسها الأذى والضرر، فكيف تعاقب من يخالفها، كما أنها لم تشرّع لهم منهجاً محدداً يبين نوعية تلك العبادة، وإنما كان تقليداً لما وجدوا عليه آباءهم عاكفين. قال تعالى: ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾. [٤]

إن منطق الاستدلال على توحيد الله تعالى قد استخلصه القرآن الكريم من أجوبتهم، مستخدماً الأسئلة المنطقية التي تنتهي الى الاعتراف بحقيقة هذه العبادة، كما في قوله تعالى:

---

(١) الزخرف ٨٧.
(٢) الزخرف ٩.
(٣) الاحقاف ٤.
(٤) الشورى ٢١.

﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴾. [(١)]

إن ((مسألة إيمانهم وإقرارهم بأن الله سبحانه وتعالى هو الخالق، ولما لم يجدوا في المعركة مناخاً اعترفوا بكل شيء، ولكن قالوا ما نعبد هذه الآلهة إلاّ لتقربنا الى الله زلفى، (ما نعبدهم) إذن عبدتموهم، والممنوع ان يعبد مخلوق، إذن فالعذر الذي تعتذرون قد ورطكم في الذنب الذي نهيتم عنه، وإنكم عبدتم بالفعل، فلو قالوا (ما نعظمهم) إلاّ ليقربونا الى الله زلفى، أكانوا ينالون شيئاً من المعذرة؟ لا فمن قال إن هؤلاء شفعاء عند الله ولا يشفع عند الله إلاّ بإذنه، فهل أذن لهؤلاء أن يشفعوا؟ كلا لم يأذن لهؤلاء أن يشفعوا)). [(٢)]

٢- الإيمان بملائكة الله:

يخبرنا الله تعالى في كتابه المجيد عن خلق يختلف عنا تماماً، لا نراه ولا نسمعه ولا نحس به وهو عالم الملائكة، ويجب أن نؤمن بوجوده وإن كنا لا نراه، لأن الله قد أخبرنا به بقوله تعالى: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾. [(٣)]ولا ينبغي أن نتهم قوله تعالى، فليست العين وحدها حكماً لذلك، لأن وجود الشيء وإدراكه شيء آخر، إذ اننا لم نر الروح ولكن ندركها بعقولنا، ونرى تأثيرها بحواسنا، ولاسيما أثرها الواضح في حركة المادة وحيويتها، كالإنسان والحيوان والنبات، وتتحول هذه المادة بعد خروج الروح منها الى حالة السكون والذبول والتفسخ.

والملائكة خلق الله تعالى خلقهم من نور، يسبّحون لله وبحمده في كل وقت وحين، ولا يفترون عن عبادته وتسبيحه، وقد أخبرنا تعالى عن هيآتهم، فمثلاً عن أجنحتهم وهي مثنى، أي في كل جانب اثنان من الأجنحة، ومجموعها أربعة، وآخرون ثُلاث أي في كل جانب ثلاثة أجنحة، ومجموعها ستة، وآخرون رُباع أي في كل جانب أربعة أجنحة ومجموعها ثمان، وقد يزيد في الخلق والله أعلم. قال تعالى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَـٰثَ وَرُبَـٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾. [(٤)]

والكفار والمشركون وإن كانوا يؤمنون بوجود الملائكة فإنهم يقولون إنها (بنات الله) وحاشى لله، فقد جعلوا الملائكة جنساً بشرياً وهو التأنيث، ونسبوها لله وحاشاه لم يلد ولم

---

(١) الزمر ٣.
(٢) محمد متولي شعراوي: القران الكريم معجزة ومنهج ٢/ ٣٥-٣٦.
(٣) البقرة ٢٨٥.
(٤) فاطر ١.

يولد، ومنهم من راح يعبدها لأنها مقربة من الله. قال تعالى: ﴿ أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴾.[1] وقوله تعالى ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَٰؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴾.[2]

وتزداد عظمة الله تعالى في خلقه أنه لم يكن عبثاً، فهؤلاء الملائكة قد أوكل اليهم الأعمال، ولكل ملك عمل يختص به، فمثلاً جبريل (عليه السلام) وهو الروح الأمين، فقد جعله الله تعالى رسولاً بالوحي الى الأنبياء والمرسلين. ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾.[3]ومن الملائكة ميكال فقد جعله الله تعالى على الأرزاق والمطر ﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ ﴾.[4] والملك إسرافيل صاحب الصور (البوق) الذي ينفخ في النفخة الأولى عند قيام الساعة، والنفخة الثانية يوم القيامة. قال تعالى: ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾[5] والملك عزرائيل وهو ملك الموت الذي يقبض الأرواح. قال تعالى: ﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾.[6]

ومن الملائكة المقربين من الله تعالى، وهم الحافون حول العرش يسبحون لله تعالى، ومنهم حملة عرش الرحمن وهم ثمانية. قال تعالى: ﴿ وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾.[7] وقال تعالى: ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ

---

(١) الاسراء ٤٠.
(٢) سبأ ٤٠.
(٣) البقرة ٩٧.
(٤) البقرة ٩٨.
(٥) الزمر ٦٨.
(٦) السجدة ١١.
(٧) الزمر ٧٥.

﴿ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴾.[(١)] وقال تعالى: ﴿ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَاۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴾.[(٢)].

وهناك الملكان الكاتبان اللذان يكتبان أعمال الإنسان وهي الحسنات والسيئات في كتابه، قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾.[(٣)] وهناك ملائكة الجنة (الخزنة) الذين يتلقون أصحاب الجنة بالسلام والترحيب، ومنهم الملك (رضوان) قال تعالى: ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴾.[(٤)] وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾.[(٥)] وهناك ملائكة النار وهم خزنتها ومنهم (مالك) وهم زبانية غلاظ شداد، يطيعون الله ما أمرهم، فيأخذون بأيدي أصحاب النار ويعنفونهم، ويعيدونهم كلما أرادوا الخروج منها. قال تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾.[(٦)] وقال تعالى ﴿ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾.[(٧)] وقوله تعالى ﴿ وَنَادَوْاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴾.[(٨)]

وكان الاختبار الأول: إنّ الله سبحانه وتعالى من خلال الخطاب الموجّه الى الملائكة أراد إخبارهم بإرادته العلية أن يخلق في الأرض خلقاً يخلف بعضهم بعضاً، وكان إخباره من أجل التنويه، وكما يخبر بالأمر العظيم قبل حدوثه، فقالت الملائكة سائلين على وجه الاستعلام عن الحكمة في ذلك وليس على وجه الاعتراض والتنقّص لآدم وبنيه. قال تعالى:

---

(١) النساء ١٧٢.
(٢) الحاقة ١٧.
(٣) الانفطار ١٠-١٢.
(٤) الزمر ٧٣.
(٥) الواقعة ٢٦.
(٦) الزمر ٧١.
(٧) التحريم ٦.
(٨) الزخرف ٧٧.

﴿وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾. [(١)]

وذكر المفسرون: ((ان الملائكة علموا بما رأوا ممن كان قبل آدم من الجن والحن، فقد ذكر قتادة: قال عبد الله بن عمر: كانت الجن قبل آدم بألفي عام سفكوا الدماء، فبعث الله اليهم جنداً من الملائكة فطردوهم الى جزائر البحور)).[(٢)] وقول الملائكة (ونحن نسبّح لك ونقدّس لك) أي نعبدك دائماً لا يعصيك منا أحد، فإن كان المراد بخلق هؤلاء أن يعبدوك فها نحن لا نفتر في العبادة لا ليلاً ولا نهاراً. أما قوله (قال اني أعلم مالا تعلمون) أي أعلم من المصلحة الراجحة في خلق هؤلاء ما لا تعلمون، أي سيخرج منهم الأنبياء والمرسلون والصديقون والشهداء والصالحون.

والاختبار الثاني في خطاب الأمر الإلهي الذي نتبين منه مقدار إخلاص الملائكة في تسبيحهم لله وطاعتهم النقية من أية شائبة حينما أمرهم الله تعالى بالسجود لآدم، وهو سجود تشريف لله في بديع خلقه وإكرام لإرادته، وليس سجود عبادة، فأطاعوا الله وسجدوا، ولم يقولوا أنهم من نور وآدم من طين، إلاّ إبليس فقد كان من الجن أي من نار، فامتنع عن السجود، وعصى أمر الله تعالى.

﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ قَالَ ءَأَسۡجُدُ لِمَنۡ خَلَقۡتَ طِينٗا﴾.[(٣)]

وقوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمۡ لَكُمۡ عَدُوُّۢۚ بِئۡسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلٗا﴾.[(٤)]

والاختبار الثالث لإثبات أن طبيعة خلق الملائكة تختلف عن طبيعة خلق الإنسان، فالملائكة خلقوا من نور، وطبيعة النور خالصة في العبادة والطاعة لله، وطبيعة الطين وهو ثقيل قد نفخ فيه الله تعالى من روحه حتى يخف ويتحرك، وأصبح الإنسان في حالة صراع بين الروح والمادة، بين النور والظلام، بين الخير والشر، بين طاعة الله ومعصيته، ومن يتغلب على الجانب المادي ويتجه نحو الجانب الروحي فإنه يصبح في مصاف الملائكة، ومن يتغلب عليه الجانب المادي ويبتعد عن الجانب الروحي فإنه يصبح في مصاف الحيوانية. ولذلك كان الإنسان وما زال في حالة اختبار بين اختيار أحد الطريقين الإيمان أو الكفر، الخير أو الشر، وينال الجزاء على اختياره.

ومما ورد في القصص ما رواه الثعلبي، ولا نعرف مدى صحة روايته، ولكننا نسوقها في مدى اعتراض الملائكة على تصاعد ذنوب بني آدم الكثيرة الى السماء في زمن النبي إدريس (عليه السلام)، ((قال المفسرون: إن الملائكة لمّا رأوا ما يصعد الى السماء

---

(١) البقرة ٣٠.
(٢) ابن كثير: قصص الانبياء ٩.
(٣) الاسراء ٦١.
(٤) الكهف ٥٠.

من أعمال بني آدم وذنوبهم الكثيرة، وذلك في زمن إدريس النبي- عليه السلام- عيّروهم بذلك وأنكروا عليهم، وقالوا: هؤلاء الذين جعلتهم خلفاء في الأرض، واخترتهم فهم يعصونك، فقال تعالى: لو أنزلتكم الى الأرض، وركّبت فيكم ما ركبت فيهم لفعلتم مثلما فعلوا، قالوا سبحانك ربنا ما كان ينبغي لنا أن نعصيك، قال الله تعالى: اختاروا ملكين من خياركم أهبطهما الى الأرض، فاختاروا هاروت وماروت، وكانا أصلح الملائكة وأعبدهم... قال قتادة: فما مرّ عليهما شهر حتى افتتنا)). (١)

وتستمر الرواية الى الاختبار وهو محورها، إذ يفتتن الملكان ببعض الكبائر، ولما أرادا الصعود الى السماء فلم تطعهما اجنحتهما، علما ما حلّ بهما، فقصدا الى النبي إدريس- عليه السلام- ليشفع لهما عند الله، ففعل فخيّرهما الله تعالى بين عذاب الدنيا أو عذاب الآخرة، فاختارا عذاب الدنيا لأنه ينقطع، فهما ببابل يعذبان. (٢)

ويضرب الله تعالى بهذه مثلاً لأهل الكتاب إذ جاءهم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بالقرآن وهو مصدق لما جاءهم من التوراة والإنجيل، فانصرفوا عنه الى كتب السحر الذي تتلوه الشياطين في زمن النبي سليمان (عليه السلام) وما فيه من أعمال تعلموها من الملكين هاروت وماروت اللذين يحذران الناس من فتنتهما وينهونهما عن الكفر، ولكن الشياطين أخذوا ما يضر ولا ينفع، أو ما يفرق بين المرء وزوجه، ولا يكن ذلك إلاّ بإرادة الله وحده. قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾. (٣)

٣- الإيمان برسل الله وأنبيائه:

إنّ الإيمان بالأنبياء والرسل يتعلق أولاً بالإيمان بالله تعالى، لأنه يصطفيهم من البشر لتبليغ رسالته، وليكونوا منذرين ومبشرين، وأن ما يجئ به الرسل كان وحياً يتلقونه من الله

---

(١) الثعلبي: قصص الانبياء ٣٠.
(٢) ينظر: المصدر نفسه ٣١.
(٣) البقرة ١٠١-١٠٢.

تعالى بواسطة أمين الوحي جبريل (عليه السلام). قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾.(١)

ويتجلى الخطاب الإلهي للأنبياء بأن الله تعالى هو الموجّه لهم نحو طريق الخير والهداية، وهو الذي يتعهدهم بالحفظ والصون من الأذى لإتمام رسالاتهم، وقد خاطب نبينا آدم (عليه السلام) بقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾.(٢)

ونتبيّن المنهج الأول لدور الخطاب الإلهي الموجّه لآدم (عليه السلام) في تصحيح المسيرة التي انحرفت عن الصواب، وهي الانصياع لغواية الشيطان عدو الله وعدو الإنسان، والإحساس بالذنب، والعودة الى الصواب بالاستغفار، وقبول التوبة، والخروج من الجنة، ووضع الإنسان في حالة الاختبار، فأما أن يتّبع هدى الله فيبقى في أمن وجزاء أوفى، وأما أن يبقى على الضلال فيكفر بالله، ويكذب بآياته، فيصبح من أهل النار.

وأما النبي نوح (عليه السلام) فقد بعثه الله تعالى لقوم يعبدون الأصنام، وشرّعوا في الضلالة والكفر، فدعاهم الى عبادة الله وحده لا شريك له، وأنه لا إله غيره، ولم تنجح معهم دعوته ليلاً ونهاراً بل استمرّوا على ضلالتهم، وتوعدوه بالرجم والإخراج، فجاء القرار من الله تعالى بقطع دابر القوم الفاسدين، وأنه لن يؤمن من قومه غير القلة التي آمنت به، بعدما يئس من صلاحهم وفلاحهم، فكان الخطاب الإلهي حاسماً لحالة التردد بين الدعوة لإنزال البلاء عليهم والأمل الضعيف في إقناعهم الى إتخاذ طريق الإيمان. فقال تعالى: ﴿ وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا

(١) النساء ١٣٦.
(٢) طه ١١٦-١٢٤.

وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُواْ مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴾.(١)

ونتبين من الآيات حالة الامتثال لأوامر الله تعالى التي توجّه النبي الكريم لإنقاذ الفئة المؤمنة القليلة من الكثرة الكافرة، وأنه واقع تحت نظر الله تعالى وسمعه، فلا يمكن أن تتوقف مسيرة الإيمان، فقد تدخلت الإرادة الإلهية في إنهاء الصراع بين الحق والباطل، وأن الباطل لابد أن ينـدحر، فكان الطوفان جارفاً لكل الطواغيت وعبدة الأصنام، ولابد للفئة المؤمنة أن ينجيها الله تعالى بإيمانها وتوحيدها له.

وآتى الله تعالى إبراهيم (عليه السلام) الرشد وهو فتى يافع، فأحس بضلال قومه وهم يعبدون الأصنام ويدعونها آلهة، وإن هذه التي يدعونها آلهة ليست كذلك، فهي حجارة لا تضر ولا تنفع. وان هذا الكون البديع له صانع واحد يدبّره بقدرته، وينقل الله تعالى من خلال الخطاب القرآني تمرّد الخليل على عبادة التماثيل، ومن خلال الحوار مع أبيه وقومه أثبت لهم أنها لا تستطيع أن تدافع عن نفسها، فكيف تدبّر الكون، وترزق الخلق، وتحيي وتميت. قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُواْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُواْ فَأْتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴾.(٢)

---

(١) هود ٣٥-٣٨.

(٢) الانبياء ٥١-٧٠.

وتتدخل العناية الإلهية في مثل هذا الموقف الصعب، وجمع قومه حطباً كثيراً، وأشعلوا فيه ناراً وألقوه فيها، فجاء الخطاب الإلهي الى النار (يا نار كوني برداً وسلاماً) فأصبحت ناراً بلا احتراق ولا ضرر، ((النار من طبيعتها أنها تحرق، يلقى إبراهيم في النار، وإلقاء إبراهيم في النار ليس المقصود منه نجاة إبراهيم منها، وإلاّ لو كان المقصود نجاة إبراهيم، لما مكّن الله الكفار من القبض عليه، أو كان أرسل سحابة مثلاً تغيم وتطفئ النار، ولكن المراد ان إبراهيم يطرح في النار وتظل ناراً، ولكن ناموس الإحراق يتعطل فيها، وإلاّ فلو انطفأت بالمطر لقالوا: إن لم يكن هذا المطر قد جاء، لكنا قد حرقناه، لا امسكوه وخذوه وكتفوه، وارموه في النار، والنار تظل ناراً، ومع ذلك لا تحرق، هذا هو خرق الناموس، ما دام الحق هو خارق الناموس)). [1]

ويتولى الله تعالى عنايته بالرسل، ويجري اختباراً للنبي موسى (عليه السلام) قبل التكليف كما صنع لآدم (عليه السلام) في الجنة حين اختبره في الشجرة المحرمة، وبعد أن سار بأهله قاطعاً الصحراء، فأبصر من جانب الطور ناراً تتأجج، فقال لأهله انتظروا إني رأيت ناراً لعلي أجد على النار من يهدينا الى الطريق، أو آتي منها جمرة أشعل منها ناراً تتدفأون بها، وعندما اقترب منها جاءه الخطاب الإلهي يعلمه بأنه هو الله رب العالمين، ويريه معجزة العصا التي تنقلب ثعباناً، واليد التي يضمها الى جناحه تخرج بيضاء من غير سوء، ويكلفه بالذهاب الى فرعون انه طغى وأدّعى الإلوهية. قال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾. [2]

ويبين الشيخ شعراوي هذه المعجزة بقوله: ((لما ذهب عند الطور في أول لقاء كان معه عصا... فقال الله له: وما تلك بيمينك يا موسى، قال هي عصاي أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي ولي فيها مآرب أخرى. وهل كان الله لا يعلم ذلك حتى يسأله؟ لا. بل هو سؤال للإيناس وإزالة الوحشة وتخفيف سلطان الهيبة، كما تذهب الى صديقك وترى ابنه قد هابك، وتريد أن تتألفه فتقول: ماذا في جيبك يا ولد؟ كان يكفي في الإيناس أن يقول: هي عصا، ولكن موسى كان يريد أن يطيل زمن الإيناس، فلما رأى انه زاد اختصر وقال (ولي فيها

---

(١) الشيخ محمد متولي شعراوي: القران الكريم معجزة ومنهج ١٥٤/٢.
(٢) القصص ٢٩-٣٢.

مآرب أخرى) والله سبحانه وتعالى يقول: هذا هو مدى علمك بالعصا ورسالتها عندك. أما العصا فلها رسالة ثانية عند الله. قال (ألقها يا موسى. فألقاها فإذا هي حية تسعى) المنطق أن يخاف موسى، ولكن الله قال له (لا تخف سنعيدها سيرتها الأولى) ولو لم يخف موسى لقلنا: انه سحر)).[1]

ورسل الله تعالى الذين تقع المعجزات على أيديهم يبلغون بها عن طريق الوحي، ودليل صدقها إمارتها أو العلامة التي تدل عليها، والمعجزة من جنس العمل، لئلا يقال لو تعلمها لعملها، وكل المعجزات السابقة تأتي من نوع حسي، والنوع الحسي وإن أعطى يقيناً فإنه قد يقع مرة أو مرتين، ويبقى بعد ذلك خبراً من الأخبار، فمثلاً فلق البحر للنبي موسى (عليه السلام) أو البشرى التي حملتها الملائكة للنبي زكريا (عليه السلام) بأن يكون له ولد وهو على الكبر وزوجته عاقر، وكذلك البشرى التي أتت لمريم (عليها السلام) ولم يكن لها زوج.

وأما معجزة المسيح عيسى بن مريم (عليه السلام) في خلقه فإنها من خوارق العادات أيضاً فمريم هذه المرأة الطاهرة التي وهبت نفسها لخدمة بيت الله، جاءها الخطاب الإلهي عن طريق الروح الأمين جبريل (عليه السلام) بأنها سيكون لها غلام زكي، وليجعل الله تعالى في خلقه آية للناس، مثلما خلق الله تعالى آدم (عليه السلام) من غير ذكر وأنثى، وخلق حواء من ذكر وهو آدم، وخلق عيسى من أنثى وهي مريم.

ولكن المسيحية التي عرفت برهبانيتها جاء من أدخل اليها الأفكار الرومانية الوثنية، فصدرت عنها أفكار بعيدة عن الدين، فقال تعالى: ((يضاهئون قول الذين كفروا من قبل)) فقالوا عيسى إبن الله، وعيسى ثالث ثلاثة، وحاشا لله، وكل تلك الآراء لابدّ أن يجابهها الإسلام بالعقل والمنطق، فحين يقولون ان عيسى يختلف عن الرسل في أنه جاء من أم فحسب، فيرد عليهم السامع لقد وقعتم في فتنة المسيح، ومن الأولى أن تقعوا في فتنة آدم (عليه السلام) لأنه جاء من دون أب وأم. قال تعالى: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾.[2]

ونجد في خطاب الله تعالى الى النبي عيسى (عليه السلام) تذكيراً بنعمه تعالى عليه، وإحسانه له، وجعله آية للعالمين، وأيّده بروح القدس وهو جبريل (عليه السلام) في حال مدافعته عنه لمن كفر، وأنزل عليه الفهم والخط، وأعطاه معجزة إبراء المرضى، وإخراج الموتى أحياء بإذن الله، ولكن الذين كفروا كذّبوه وقالوا هذا سحر ساحر. قال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ

---

(١) محمد متولي شعراوي: القران الكريم معجزة ومنهج ١٩/٢.
(٢) آل عمران ٤٦.

بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾.[1]

وعندما نزل الوحي على النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) أول مرة يأمره (إقرأ)، فكان جوابه طبيعياً دالاً على بشريته الأمية التي لم تعرف القراءة والكتابة، فقال: (ما أنا بقارئ) فيصر الوحي قائلاً: (إقرأ) ويصر الرسول (صلى الله عليه وسلم) (ما أنا بقارئ)، فإذن هناك حوار بين ملك وإنسان، أو بين أمر وعجز عن أداء ذلك الأمر، والعجز طبيعي لأنه لا يملك وسيلة للقراءة، ولأنه لم يتعلمها، ولم يجلس الى معلم يعلمه، فكيف يؤديها.

ونحن إزاء موقفين متباينين، أمر من الأعلى، ونفي من الأدنى، ولابد أن ينتهي هذا الخلاف على وفق منطق الأقوى، لأن الأقوى يستطيع أن يجعله أن يؤدي الأمر وإن لم يتعلمه، فقال: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾.[2] ((إنّ أول بقارئ لم يكن معلماً من مثله بل معلم من أعلى منه، وما دام معلماً من أعلى منه فأنت لماذا تنفي؟ أنا لا آمرك أن تقرأ لأنك تعلمت، وإنما آمرك أن تقرأ لأني أردت لك أن تقرأ وأنت لن تقرأ باسم ما تعلمت أو باسم ما ارتضيت، وإنما تقرأ (باسم ربك الذي خلق)... والأكرم أفعل تفضيل من كريم، فإذا كان الكريم سبحانه وتعالى قد أمد خلقه بالأسباب التي توصلهم الى أن يتعلموا، ويتواضعوا على رسم الأصوات بحروف تقرأ، تلك صفة الكريم، فما هو مدلول الأكرم هو أن يجعلك تتعلم وإن لم تتلق ذلك)).[3]

ولما جهد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) من مسألة نزول الوحي عليه، إذ يقول: ((أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشده عليّ فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول)).[4] أراد الله أن يطمئنه على شيئين، إن نزول الوحي ليس منتظماً، فقد ينزل متصلاً مدة، وقد ينقطع مدة، وإن ذلك الثقل والإحساس بالإعياء عند نزوله سيرفع عنه، لأن ماديته لا تتحمل ذلك، قال تعالى ﴿ وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ وَلَلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴾.[5] وبعد ذلك ما اشتكى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) الوحي، لأن الله تعالى

---

(١) المائدة ١١٠-١١١.
(٢) العلق ١-٥.
(٣) محمد متولي شعراوي: المنتخب من تفسير القران ٨/٣.
(٤) البخاري: صحيح البخاري: باب بدء الوحي.
(٥) الضحى ١-٥.

ربىّ فيه طاقة الشوق الى الوحي، وهو الأمر الشاق، فجعله لا يشعر به، ثم رأى ثمرته حلوة بعد ذهاب التعب.

ولما نزل النبي (صلى الله عليه وسلم) من غار حراء الى الوادي ليعود الى مكة بعد انتهاء شهر رمضان نودي باسمه فأخذ يتلفت يميناً وشمالاً وأماماً وخلفاً فلم يجد أحداً، ونظر الى السماء فإذا بالملك جبريل (عليه السلام) الذي جاءه بحراء أمامه على كرسي، فجثا رعباً على الأرض وأتى خديجة أم المؤمنين، فقال: زمّلوني، زمّلوني، فصبوا عليه ماء ودثروه، فجاء الخطاب اليه قائلاً: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴾.[1]

خطاب يتضمن جملة آيات ((وهذه الآيات تشتمل على نوعين من التكليف مع بيان ما يترتب عليه: أما النوع الأول: فهو تكليفه (صلى الله عليه وسلم) بالبلاغ والتحذير (قم فأنذر) فإن معناه: حذر الناس من عذاب الله إن لم يرجعوا عما هم فيه من الغي والضلال، وعبادة غير الله المتعال، والإشراك به في الذات والصفات والحقوق والأفعال. وأما النوع الثاني: فتكليفه (صلى الله عليه وسلم) بتطبيق أوامر الله- سبحانه وتعالى- والإلتزام بها في نفسه ليحرز بذلك مرضاة الله، ويصير أسوة لمن آمن بالله..)).[2]

وقررت قريش مواجهة الدعوة الإسلامية أول الأمر بالسخرية والاستهزاء منها، والقصد من ذلك تخذيل الرسول (صلى الله عليه وسلم) والمسلمين، وتوهين قواهم المعنوية، فاتهموه بأنه رجل مسحور، وشاعر مجنون، وكاهن يأتيه الشيطان، وساحر كذاب، ومفتر متقوّل، وقد أكثروا الاستهزاء والسخرية منه، والطعن به، فجاء الخطاب الإلهي يطمئن رسوله الكريم: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾.[3] وقوله تعالى: ﴿ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾.[4] فثبته الله تعالى وبين له ان هذا الضيق سيذهب عنه، وان هذا الفعل سينقلب عليهم وبالاً.

٤- الإيمان بالكتب السماوية:

يصطفي الله تعالى رسلاً من الناس منذرين ومبشرين، وينزل عليهم آيات بيّنات من السماء يتلونها على الناس لتبليغهم رسالة ربهم، ويخبرونهم بأنهم ليسوا إلاّ رسل الله، لا يبلغونهم إلاّ كلام الله تعالى، ينقلونه اليهم كما نزل ولا دخل لهم فيه، فلا ينقصون منه شيئاً

---

(١) المدثر ١-٥.
(٢) صفي الرحمن المباركفوري: روضة الانوار في سيرة المختار ص٣٠ ط .
(٣) الحجر ٩٨-٩٩.
(٤) الحجر ٩٥-٩٦.

ولا يزيدون فيه، وهذا الذي جاؤوا به لهدايتهم، وإخراجهم من الظلمات الى النور، وكان الخطاب الإلهي لنبيه الكريم (صلى الله عليه وسلم) والمسلمين أن يؤمنوا بالله تعالى وما أنزل على النبيين جميعاً من آيات معززة بالمعجزات الحسية، أو صحف أو زبر، أو كتب فهي حق، والكفر بها باطل، ولا فرق بين ما جاء به الأنبياء، لأن مصدره واحد وهو الله سبحانه وتعالى.

﴿ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾.[1]

وينبغي أن نعلم أن الرسالة التي أراد الله أن يرسلها الى الخلق جميعاً بعد اصطفاء الأنبياء والمرسلين واحدة، ولكن طريقة إرسالها تختلف وفقاً لطبيعة الزمن الذي تنزل فيه، والأمة التي ترسل اليها، وهي (الإيمان بالله وحده لا شريك له) وان السبل التي تدعو الناس الى ترك الشرك وتوحيد الله تعالى قد وردت في هذه الرسالة، وكان جبريل (عليه السلام) هو الملك الرسول الذي ينقلها للأنبياء جميعاً، وقد مرّت طريقة إرسالها بمراحل متداخلة كما نستنتجها من الآيات الآتية التي يخاطب الله تعالى فيها النبي الكريم (صلى الله عليه وسلم):

﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴾.[2] وقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾.[3] وقوله تعالى:

﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴾.[4]

نستشف من الآيات السابقة ان الرسل الأولين قد نزلت عليهم آيات بيّنات واضحة مدعمة بالمعجزات الإلهية التي يراها أقوام ذلك الزمان بحواسهم، ويتدبرونها بعقولهم، وان هذه المعجزات خرق للنواميس أو العادات الطبيعية، وبعد تطور البشرية العقلي نزلت على الرسل الزُبر ومفردها زِبر وزبور: أي الصحف، ومنه قوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴾.[5] وقوله تعالى زبر الأولين﴿ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾[6]ومنها

---

(١) آل عمران ٨٤.
(٢) آل عمران ١٨٤.
(٣) النحل ٤٣-٤٤.
(٤) فاطر ٢٥.
(٥) الاعلى ١٨-١٩.
(٦) الشعراء ١٩٦.

الزبور الذي نزل على النبي داوود (عليه السلام) أي الصحف التي جمعت فصارت كتابا. قال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾.[1]. والكتاب المنير: أي الكتاب الواضح المبين، وفي هذا الكتاب تفصيل دقيق للعبادة والأحكام والأوامر والنواهي والحلال والحرام، وفيه من الأمثال والقصص والعظات والعبر، ويريد به الكتب السماوية التي نزلت على المرسلين كالزبور والتوراة والإنجيل والقرآن الكريم. وان هذا الترتيب الذي ورد (البيّنات، والزبر، والكتاب المنير) دلالة على تطور نزولها لما تقتضيه الإرادة الإلهية في هذا الترتيب، والله أعلم.

ولكن هذه الآيات البينات أو المعجزات لم تردع الناس عن غيّهم وإن آمن بها قليل، فالنار التي نزلت على قربان ابني آدم (عليه السلام) فاختارت الصالح منه، ولم يتعظ قابيل بتلك الآية التي بينت إرادة الله تعالى، فباء بإثم أخيه هابيل فقتله، قال تعالى:

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْـَٔاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾.[2]

وكانت ناقة الله معجزة لثمود قوم النبي صالح (عليه السلام) فهي آية الله تعالى لهم، إذ أنزلها تعالى من السماء، تأكل في أرض الله فلا يتكلفون شيئاً في طعامها وشرابها، وتسقيهم جميعاً من لبنها، ولكن هذه المعجزة الحية التي يرونها أمامهم في كل مكان قد أغاظت أشرارهم فاختاروا أحدهم لقتلها، فباؤوا بذلك غضباً من الله وعذابا أليما. قال تعالى:

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَـٰلِحًا ۗ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَـٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.[3]

وتستطرد المعجزات أيضاً مع نزول الصحف أو الزُبر على الأنبياء، إذ لم يكتف الكافرون والمشركون بالصحف والزبر التي تنزل من السماء، بل يطالبون بمعجزات حسية خارقة للعوائد المعروفة عندهم حتى يؤمنوا بما جاء به المرسلون، وكانت النار التي ألقي فيها النبي إبراهيم (عليه السلام) وتحولها برداً وسلاما عليه آية حسية تكفي لتحوّل الناس من عبادة الأصنام الى عبادة الله الواحد. وكذلك معجزة النبي موسى (عليه السلام) العصا التي تتحول الى ثعبان قد دعت سحرة فرعون الى الإيمان بالله تعالى، ولكنها لم تردع فرعون من ادعاء الإلوهية وقومه من إتباعه، فطالبوه بالمعجزات الحسية فنزلت تترى: الجفاف، ونقص الثمرات، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، وكان آخرها فلق

---

(١) النساء ١٦٣.
(٢) المائدة ٢٧.
(٣) الاعراف ٧٣.

البحر الذي أغرق من يطالب بهذه المعجزات فرعون وأتباعه. قال تعالى: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾.[1]

وكانت معجزات الله تعالى للمسيح عيسى (عليه السلام) وهي الكلام في المهد، وتشكيل الطين ليكون طيراً، وإبراء الأكمه والأبرص، وإخراج الموتى أحياء كلها بإذن الله تعالى، قد دعت بعض الناس الى أن يؤمنوا بها ، وبعضهم الى أن يكفروا بها، ومع ذلك طلب الحواريون معجزة أخرى، وهي إنزال مائدة من السماء يأكلون منها لتطمئن قلوبهم، قال تعالى:

﴿ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ ۖ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾.[2]

ولم تسلم التوراة التي أنزلت على النبي موسى (عليه السلام) من التحريف أي الحذف والإضافة، والدليل على ذلك أن التوراة التي بين أيدينا تخلو من ذكر اليوم الآخر والبعث والنشور والحساب والجنة والنار، والتوراة الأصل تقرّ بالآخرة ولا تخلو من ذكرها، مما يعني ان التوراة التي كتبها اليهود في الأسر البابلي هي غير التوراة التي كتبت في ألألواح التي نزلت على النبي موسى (عليه السلام)، فقد أضيفت اليها أسفار الخليقة والطوفان من التراث السومري وما جرى في العهد البابلي. وتعرّض الإنجيل الأصل الى التحريف أيضاً، فبعد أن رفع الله تعالى المسيح (عليه السلام) الى السماء بمدة كتبه الحواريون، وقد اختلفت رواياتهم اختلافات واضحة، ومما يستدل على تحريفها أنها حوت بعض الأقوال من الوثنية الرومانية، وذلك لتقريب المسيحية الي الشعب الروماني، واختلف في طبيعة المسيح هل هو إنسان أم إله، والقبول بمبدأ التثليث الذي يرى أن المسيح ابن الله وحاشاه.

ولعل من أهم علامات التحريف في التوراة طمس الحقائق ومنها اسم النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) الذي ورد مكتوباً فيه، فقد روى البخاري قال: ((حدثنا محمد بن سنان، قال حدثنا فليح قال حدثنا هلال عن عطاء عن يسار، لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص، قلت أخبرني عن صفة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في التوراة، قال: أجل والله انه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن: يا أيها النبي انا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وحرزاً للأميين أنت عبدي ورسولي سميتك (المتوكل) ليس بفظ ولا غليظ ولا صخّاب في الأسواق، ولا يدفع بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ولن يقبضه الله تعالى حتى

---

(١) الاعراف ١٣٣.
(٢) المائدة ١١٢-١١٣.

يقيم به الملّة العوجاء بأن يقولوا لا إله إلاّ الله، ويفتح بها أعيناً عمياً وآذاناً صمّاً وقلوباً غلفاً. قال عطاء: ثم لقيت كعباً فسألته عن ذلك فما اختلف حرفاً)). [١]

ومن أهم علامات التحريف أيضاً في الإنجيل محو اسم النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) فقد أكد القرآن الكريم على وجوده في التوراة والإنجيل، كما ورد على لسان النبي عيسى (عليه السلام) في قوله تعالى: ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُ ﴾ [٢]

والنبي محمد (صلى الله عليه وسلم) لم يأت لهدم الأسس الصحيحة لليهودية والمسيحية، ولم يأت لإلغاء التوراة والإنجيل الصحيحين كما نزلا على النبي موسى وعيسى (عليهما السلام) وإنما ((جاء خاتماً للمرسلين، وداعياً الى الله على طريقهم، وهو يكشف النقاب عما أصاب أهل الكتاب، وما اعترى كتبهم من ألوان التشبيه والتبديل، ولذلك كانت دعوته اليهم وجداله معهم ليردهم الى الحقيقة الناصعة من التوحيد الكامل لله وتنزيهه عن مشابهة خلقه، وإثبات صفات الألوهية والربوبية له وحده)) [٣]

والقرآن الكريم هو كلام الله تعالى ألمنزل على النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) المنقول عنه بالتواتر، المتعبد بتلاوته. وقد سلم من التحريف والتشويه وتعهد الله تعالى بحفظه، وقد ورد ذلك بقوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾. [٤] وكان ابتداء نزول القرآن في ليلة القدر من شهر رمضان، وفي أثناء اعتزاله الناس في غار حراء، قال تعالى: ﴿ شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِ ﴾ [٥]

وقد نزل القرآن الكريم منجّماً أي مفرّقاً، ولم تنزل الكتب السماوية قبله منجمة. ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا ﴾. [٦]

ويعد القرآن الكريم بذاته معجزة أعجزت العرب الفصحاء البلغاء عن أن يأتوا بمثله وإن أعانهم الجن على ذلك: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ﴾. [٧] ثم تحداهم على أن يأتوا بأحاديث مشابهة له: ﴿ أَمۡ

---

(١) القرطبي: الجامع لأحكام القران ٢٧٣٥/٣.
(٢) الصف ٦.
(٣) د. عبد الفتاح عاشور: منهج القران في تربية المجتمع ٥٨٢.
(٤) الحجر ١٩.
(٥) البقرة ١٨٥.
(٦) الفرقان ٣٢.
(٧) الاسراء ٨٨.

يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ بَل لَّا يُؤۡمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلۡيَأۡتُواْ بِحَدِيثٖ مِّثۡلِهِۦٓ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ ﴾.[١] ثم تحدّاهم على أن يأتوا بعشر سور وهي أقل من ذلك: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾.[٢] ثم تحداهم بأقل من ذلك وهي سورة واحدة: ﴿ وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾.[٣]

ويبدو تأثير القرآن واضحاً في النفوس التي لم تألف مثل أسلوبه، فألفاظه فصيحة لا تنبو عن السمع، وعباراته مطابقة لمقتضى الحال، والقارئ والسامع يحسّان بطلاوته ورقته، فيزداد القارئ شغفاً في تلاوته بعد تذوق حلاوة ألفاظه التي تقرع السمع، وعباراته التي ينفتح لها القلب، وينشرح لها الصدر، وتستبشر النفس بهذا النور. ويهيم السامع على وجهه، ويهجر لذة النوم ليستمع الى تلاوة القرآن ليلاً، أو في صلاة الفجر، فتطرب نفسه الى تناسق حركاته وسكناته، وتآلف حروفه وألفاظه، مما يولد جرساً صوتياً تهتز له أوتار القلوب.

ونستدل على ذلك التأثر بالقرآن الكريم في قصة خروج أبي جهل وأبي سفيان وابن شريق ليلاً ليسمعوا القرآن الكريم من رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وهو يصلي الليل في بيته، ((فأخذ كل واحد منهم مجلساً يستمع منه، وكل لا يعلم بصاحبه، حتى إذا أصبح الصباح تفرقوا، فجمعهم الطريق فتلاوموا وقال بعضهم لبعض، لا تعودوا فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئاً، ثم انصرفوا. وفعلوا هذا الفعل في الليلة الثانية والثالثة حتى إذا جمعهم الطريق في فجر الليلة الثالثة، قالوا: لا نبرح حتى نتعاهد الاّ نعود ثم تفرقوا. فطاف ابن شريق على أبي سفيان فسأله عما سمعه من محمد، فقال: يا أبا ثعلبة والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها. فقال الأخنس: وأنا والذي حلفت به، ثم ذهب إلى أبي جهل فاعترف له بقصورهم عن إدراك ما جاء به محمد (صلى الله عليه وسلم) والمنزلة العالية التي نالها بالنبوة)).[٤]

وهذا هو ((الوليد بن المغيرة جاء الى النبي (صلى الله عليه وسلم) فقرأ عليه القرآن، فكأنه رقّ له. فبلغ ذلك أبا جهل، فأتاه فقال: يا عم إنّ قومك يرون أن يجمعوا لك مالاً ليعطوكه فإنك أتيت محمداً لتتعرض لما قبله. قال: لقد علمت قريش اني من أكثرها مالاً. قال: فقل فيه قولاً يبلغ قومك انك منكر له وانك كاره له. قال: وماذا أقول فوالله ما فيكم رجل أعلم بالشعر مني، ولا برمزه ولا بقصيده مني، ولا بأشعار الجن. والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا، ووالله إنّ لقوله لحلاوة، وإنّ عليه لطلاوة، وإنّه لمنير أعلاه مشرق أسفله، وإنّه ليعلو وما يُعلى وإنّه ليحطم ما تحته. قال: لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه.

---

(١) الطور ٣٣-٣٤.
(٢) هود ١٣.
(٣) البقرة ٢٣.
(٤) ابن كثير: البداية والنهاية ٦٤/١.

قال: فدعني حتى أفكر، فلما فكر، قال: هذا سحر يؤثر، فنزلت الآية (ذرني ومن خلقت وحيدا))). [١]

والقرآن الكريم كتاب الله تعالى يحمل في طياته الشفاء والرحمة للمؤمنين، ويتضمن من الأمثال والعظات ما يهدي العُمي عن ضلالتهم الى الصراط المستقيم، وفيه من التيسير ما يقنع الكافر بذنبه فينقله من موقع الخطأ الى الصواب، وفيه من التفصيل ما يغني عن الطلب، وفيه من الحديث ما تقشعر له الجلود وتلين القلوب الى ذكر خالقها: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾. [٢]

٥- الإيمان باليوم الآخر (الحياة الآخرة):

اليوم الآخر أو الحياة الآخرة تبدأ من اليوم الأول بعد موت الإنسان الذي يتوفاه الله تعالى بعد انقضاء أجله المحدد له في الحياة الدنيا، فلفظ الدنيا: أي القريبة أو الحاضرة، وهي صفة للحياة الأولى، ولفظ الآخرة: أي الأخيرة، وهي صفة للحياة الثانية أو التالية للحياة الأولى، ولفظ الآخر: صفة لليوم التالي، وجئ بلفظ اليوم لأن الزمن ينعدم في الآخرة، وما يجري في تلك الحياة من حساب وعقاب وثواب يساوي يوماً مجرداً من الزمن الأرضي، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوۡمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلۡفِ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾. [٣]

كان الكفار والمشركون من قريش تسود بينهم فكرة ان الحياة الدنيا هي المدة الزمنية التي يتمتع فيها الإنسان بكل ما يملك من مال وبنين وجاه وسلطان، فإن مات تحول الى عظام ورفات وتراب، ولم تطرأ عليه فكرة البعث في الحياة الآخرة بعد الموت، ولم يعرف الحساب والجنة والنار وهو يرى الآباء والأجداد يذهبون ويخلفهم الأبناء ولا يعودون، وكيف يعود من مات، وإن ما يعدهم الرسول (صلى الله عليه وسلم) بالحياة بعد الموت، والتحول الى عظام وتراب أمر مستحيل. قال تعالى: ﴿وَلَئِنۡ أَطَعۡتُم بَشَرٗا مِّثۡلَكُمۡ إِنَّكُمۡ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمۡ أَنَّكُمۡ إِذَا مِتُّمۡ وَكُنتُمۡ تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخۡرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ۞ هَيۡهَاتَ هَيۡهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ﴾. [٤] وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا

---

(١) السيوطي: لباب القول في أسباب النزول – الحديث رقم ١١.
(٢) الزمر ٢٣.
(٣) الحج ٤٥.
(٤) المؤمنون ٣٤-٣٧.

﴿ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ ۞ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۡ وَجَعَلَ لَهُمۡ أَجَلٗا لَّا رَيۡبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورٗا ﴾.[١]

إنّ الرد على إنكار الحياة الآخرة وبعث الخلق من جديد أو إعادة خلقهم بعد أن تحوّلوا عند الموت الى عظام ورفات وتراب، وكأن في ذلك استحالة على الله من وجهة نظرهم، وكان الرد عليهم في تلك المحاجة بضرب الأمثال، واستخدام الدلائل العقلية التي تعيدهم الى الصواب، قال تعالى: ﴿ أَوَلَمۡ يَرَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلٗا وَنَسِيَ خَلۡقَهُۥۖ قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ ﴿٧٨﴾ قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ ﴾.[٢]

يتناول سياق هذه الآيات ((حكاية هذا الإنسان فيما ضربه من مثل، فكان الرد عليه من الأمثال في الاستدلال على البعث والنشور، وما يترتب عليهما من خلق وإعادة وإنشاء، وذلك بمبدأ تكوينه الأولي، وصيرورته السابقة، دون احتذاء أمثلة، بل هو تكوين إبداعي جعل طريقه الطبيعي النطفة المهينة التي لا يحسب لها الإنسان حساباً وهي من عجائب الكون ومعاجز الحياة لأنها تحتوي على آلاف الكائنات الحية المعبّر عنها بالخلايا، وهذه الآلاف تتداخل وتتعادل لتكون هذا الجنين ابتداء من تكوينه البدائي وانتهاء بتكوينه المركب المعقد الذي يحير العقول، فإذا استوى الإنسان... إذا به يطالب ربه بالبرهان على نشوره، فيتجاوز بالغرور حده متوغلاً في العقوق، فينكر قدرة الله على الإحياء، وإعادة الأرواح في الأجسام، أو الأجسام من التراب فيكون الرد عليه بمنتهى البداهة والعفوية، وبغاية البساطة والسلامة ان من قدر على الإيجاد قادر على الإعادة)). [٣]

وتتعدد مشاهد الحياة الآخرة في القرآن الكريم، فقد عنى بها في معظم سوره، وصوّر مشاهدها في مواقف البعث، والحساب، والنعيم، والعقاب، وأظهرها في صور تدبّ بها الحياة وتتفاعل فيها الشخوص الآدمية، من خلال رسم الصورة وحركتها وإيقاعها مع الشخوص الطبيعية الأخرى، فتخلع عليها الحياة، وتقاس فيها المواقف بالمشاعر والوجدان. [٤]

ومن أبرز سمات هذه المشاهد ((انها حاضرة اليوم تراها العين، وتحسها النفس، والفارق السحيق بين العالمين فارق قريب، بل لا فارق هناك في بعض الأحيان، بل ربما كانت (الآخرة) هي الحاضرة، وكانت (الدنيا) ماضياً بعيداً يتذكره المتذكرون)). [٥]

---

(١) الاسراء ٩٨-٩٩.
(٢) يس ٧٧-٧٩.
(٣) د. محمد حسين الصغير: الصورة الفنية في المثل القرآني ٣٢٥-٣٢٦.
(٤) ينظر: د. احمد حاجم الربيعي: القصص القرآني في الشعر الاندلسي ٣٣.
(٥) سيد قطب: مشاهد القيامة في القران ٣٩.

ويبدأ مشهد الحياة البرزخية وهو مشهد مؤثر في المتلقي بوقوع الإنسان فرداً في حالة الاحتضار والاستعداد للموت، وإعلانه الاستغفار والتوبة من الذنوب التي اقترفها في حياته، وبعد قبض الروح فإذا به يطلب الرجوع الى الدنيا ليتدارك ما فرّط من حياته في اللهو والعبث، وليعمل عملاً صالحاً يفيده في الآخرة التي أدرك حقيقة وجودها، ولكنه يصطدم بكلمة رادعة (كلا) فترده عن كلمته التي قالها، وهي من المحال أن يتحقق طلبه، لأن أمامه برزخ (حاجز) يمنعه الى يوم القيامة من العودة الى الدنيا. قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾.[1]

وفي تفسير الزمخشري: ((إذا أيقن بالموت واطلع على حقيقة الأمر، أدركته الحسرة على ما فرط فيه من الإيمان والعمل الصالح فيه، فسأل ربه الرجعة وقال: (لعلي أعمل صالحا) في الإيمان الذي تركته. والمعنى: لعلي آتي بما تركته من الإيمان واعمل فيه صالحاً. (كلا) ردع من طلب الرجعة، وإنكار واستبعاد... (هو قائلها) لا محالة لا يخليها ولا يسكت عنها لاستيلاء الحسرة عليه، وتسلط الندم. أو هو قائلها وحده لا يجاب ولا تسمع منه. (ومن ورائهم برزخ الى يوم يبعثون) والضمير للجماعة أي أمامهم حائل بينهم وبين الرجعة الى يوم البعث)).[2]

ومشهد قيام الساعة يشمل الخلق جميعاً، ويرادفه من المسميات التي لها وقع صعب على السامع مثل: الوعد الحق، والواقعة، والحاقة، والقارعة، والنبأ العظيم، والطامة الكبرى، والصاخة، والغاشية، وغيرها. ((ويحفل هذا المشهد بالفزع والخوف، ويزدحم بالأحداث المروعة، فهو انقلاب تام على كل نظام معهود، يبدأ بنفخة الصور الأولى فتضطرب الأجرام السماوية التي وضعت بترتيب وتناسق وحركة منتظمة على وفق قانون إلهي محدد، وتحدث الفوضى في السماء، فإذا هي تمور وتدور بأجرامها وأفلاكها كأنها الرحى، ويحدث الانفطار ويتسع الى الانشقاق والانفراج، وتكشط السماء وتطوى كطي السجل للكتب.

وتضطرب الأرض وتفقد توازنها لأنها جزء من المجموعة الشمسية، فترجف وترج كما يرج الطفل في مهده، ويتكسر كل شيء عليها، وتتحرك الجبال من قواعدها، وتتحول الى أتربة متطايرة في السماء كأنها السحاب، وتهتز الأرض بقوة كأنها الزلزال وتدك دكاً عنيفاً، فتمتد منه لتلقي ما في جوفها من أموات أو معادن وغيرها.

وينتقل هذا الفزع الى الإنسان لأنه مرتبط بما يحدث في السماء والأرض، فإذا بالناس حشود دون نظام ،يسوقها هول لا يقاس بالحجم أو بالحركة، وإنما يقاس بما يرتسم على وجوههم من ذهول، فالمرأة الحامل يسقط حملها دون إرادتها، والمرضعة ينساب

---

(١) المؤمنون ٩٩-١٠٠

(٢) الزمخشري: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل ٢٠٢/٣-٢٠٣.

طفلها من بين يديها ولا تعلم به، والناس تحسبهم سكارى وما هم بسكارى، ولكنه الفزع الذي يجعلهم لا يعلمون الى أين المفر)). [١]قال تعالى:

﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾. [٢]

وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴾. [٣]

وفي هذه الآيات ((لن نجد مصوّراً بارعاً يرسم لنا ولو جزءاً يسيراً من هذه الصورة القرآنية التي تتناسق فيها الأحداث، وتعرض على وفق ترتيب منطقي، وهي: النفخة الأولى، الدكة الواحدة للجبال والأرض، وانتهاء المخلوقات عليها، وانشقاق السماء الواهية الذي يؤدي الى انتثار النجوم والكواكب والشمس والقمر واختفاء ضوئها. انه عرض لمشهد عجيب)). [٤]

ومشهد القيامة ترادفه المسميات مثل: يوم الدين، واليوم المشهود، ويوم الحسرة، ويوم البعث، ويوم الفصل، ويوم الحساب، ويوم الوقت المعلوم، ويوم التلاق، ويوم التناد، ويوم الأشهاد، ويوم الآزفة، ويوم الجمع، ويوم الوعيد، ويوم التغابن، واليوم الموعود. ويحفل هذا اليوم بأحداث عظيمة تبدأ بنفخة الصور الثانية، فيبعث الله الخلق من قبورهم، وينشرون حفاة عراة كما خلقهم الله تعالى أول مرة، فإذا بهم ينظرون ان وعد الله بالآخرة حق، وان ما جاء به المرسلون صدق، وإذا بزجرة قوية تأتيهم تسوق الناس جميعاً الى الحشر في أرض مستوية يقال لها (الساهرة) ويعرضون في صفوف أمام عرش الرحمن الذي تحمله ثمانية من الملائكة. قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴾. [٥]

وفي مشهد الحساب نرى الأمم وقد تجمعت صفوفاً في ساحة العرض، وتدعى كل أمة بمن يقودها، فتجثم على الركب لتأخذ كتبها التي كتبها الملائكة الكاتبون في الحياة الدنيا.

---

(١) د. احمد حاجم الربيعي: القصص القراني في الشعر الاندلسي ٣٦-٣٧.
(٢) النحل ٨٧-٨٨.
(٣) عبس ٣٣-٣٧.
(٤) د. احمد حاجم الربيعي: القصص القراني في الشعر الاندلسي ٣٩.
(٥) الكهف ٤٧-٤٨.

﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَاتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾.(١) وينادى على كل واحد منهم ويقال له: ﴿ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾.(٢) ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ﴾.(٣) ويذهل المجرمون من هذا الموقف. ﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ۚ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾.(٤)

وفي خضم الحساب وأهواله قرّبت الجنة للرائين بحيث يتنسم طيبها ويرى نعيمها، فتهفوا اليها النفوس الطامحة الطافحة بالإيمان، وتتحسر عليها النفوس اليائسة التي تعلم ما قدمت أيديها من السيئات، قال تعالى: ﴿ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ۝٩٠ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴾.(٥) وبعد انتهاء الحساب ينال أهل الحشر الجزاء ﴿ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴾.(٦).

وتسوق الملائكة الكافرين الى جهنم جماعات متتابعة بحسب ترتيب درجات كفرهم سوقاً فيه عنف وزجر وإهانة، ففتحت أبوابها، وقال لهم خزنتها من الملائكة وقد رأوا كثرتهم، ألم يأتكم أنبياء ورسل ينذرونكم حساب هذا اليوم العظيم، فأجابوا بالإيجاب، فحقت عليهم بعد الاعتراف كلمة العذاب. قال تعالى: ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ۝٧١ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾.(٧)

وتتقدم الملائكة المؤمنين الذين يخافون ربهم الى الجنة جماعات متتابعة بحسب درجاتهم في قوة الإيمان وكثرة الطاعات حتى إذا جاؤوها وفتحت أبوابها قال لهم خزنتها سلام عليكم، فقد طهرت أنفسكم من دنس المعاصي، فادخلوا فيها خالدين، فحمدوا الله تعالى وشكروه على صدق وعده لهم، فأورثهم أرض الجنة يتخذون منازلها سكناً لهم، وكان ذلك

---

(١) الانفطار ١٠-١٢.
(٢) الاسراء ١٤.
(٣) آل عمران ٣٠.
(٤) الكهف ٤٩.
(٥) الشعراء ٩٠-٩١.
(٦) الشورى ٧.
(٧) الزمر ٧١-٧٢.

جـزاء العـاملين عمـلاً حسـناً قـال تعـالى: ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ (٧٣) وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴾.[١] وقـــال تعالى لأصحاب الجنـة وهم يسرون ويفرحـون بدخولهم اليها: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ مُسْلِمِينَ (٦٩) ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴾.[٢].

٦- الترهيب والترغيب:

الترهيب والترغيب وسيلة فعّالة في التأثير، فالترهيب هو إخافة المخاطب من الجزاء على ذنوب أو سيئات يقترفها في الحياة الدنيا، وكأن الترهيب تحذير من الوقوع في السيئة واحاطتها به فلن يستطيع أن يتخلص منها، ويصوّر القرآن الكريم حال الكافرين والمذنبين بعد الحساب لينالوا الجزاء وهو نار جهنم، ويستمر الحق سبحانه وتعالى في وصف النار وحركتها واستعارها، وكأنها تتغذى على الأجساد التي ترمى لها، وينتقل الى وصف زبانيتها وغلظتهم وقسوتهم في المعاملة، وكذلك وصف أصحاب النار الذين حادوا عن منهج الله تعالى، فيصور الإذلال والخيبة على وجوههم.

ويأتي الترغيب بعد الترهيب في أغلب السور أو يردفه مباشرة، ليحفّز المخاطب الى ما ينتظره من نعيم إن استقام في حياته الدنيا، واتّقى الله خالقه، فينقل اليه صورة الجنة وما فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ومن طعام وشراب، وأنهار وعيون، وحور عين، وما لم ينله في الدنيا يجده في الآخرة.

إن أسلوب الترهيب والترغيب ليس سهلاً، فإن المخاطِب وهو الله سبحانه وتعالى قد أختار الألفاظ المؤثرة في السامع، تلك الألفاظ التي تهز وجدانه وكيانه، وتحدث فيه انفعالاً قد يسمو به عن الخطيئة الى الإيمان، وتقديم الترهيب على الترغيب ليس مطّرداً، فقد وجدنا بعض السور يتقدم فيها الترغيب على الترهيب، وهذه المسألة أيضاً أجدها أسلوبية، ففي السور التي يتقدمها الترهيب لردع المشركين الذين تحجّرت عقولهم، ولا تتحرك إلاّ برؤية الأشياء الحسية أو سماعها، وتصوير نار جهنم هو نقل حي للمخيلة، وكأنه قد داخلها، وان الخلاص منها يؤدي الى الجنة حيث النعيم والرخاء، وبالمقابل نجد السور التي تبدأ بالترغيب الذي هو حث يشمل الصالحين ويشمل المذنب وغير المذنب على الاستمرار والبقاء على فعل الخير. كما في قوله تعالى عن النبي زكريا (عليه السلام): ﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا

(١) الزمر ٧٣-٧٤.
(٢) الزخرف ٦٩-٧٠.

رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾.[1] وان الخروج عن الصراط المستقيم يؤدي به الى النار، وهو لا يرغب بمثل هذه النهاية التي تنتهي اليها حياته الأبدية.

وإزاء ذلك نجد أن ((الحق سبحانه وتعالى حينما يعرض لنا عذاباً في الآخرة أو نعيماً في الآخرة لا يعرض لنا حقيقة العذاب ولا النعيم، ولكن يعرض لنا حقيقة العذاب في تصوّرنا وإمكانيات أدائنا اللغوي، فإذا كانت لله ألفاظاً توضع لمعان فيبقى معنى ذلك أن يوجد المعنى أولاً ثم يوضع له اللفظ، وإذا كانت الآخرة غيباً بما فيها فالمعنى غير موجود. إذن تصوير هذا العذاب هو الحقيقة عند الله، بل هو في نظرنا نحن. إن هذه الصورة هي ما يجد فيها السامع أنها منتهى العذاب)).[2]

إن محاولة جمع صورتين متناقضتين يعد من الأساليب المثيرة للفكر الذي يحاول أن يجد الفروق الواضحة بينهما، ومن خلال تصوير عذاب أصحاب النار ونعيم أهل الجنة يتبين المتلقي مقدار الألم والمعاناة التي يحسّها الكافر والمذنب، وكأن هذا الألم ينتقل نفسياً اليه، أو أن الأحاسيس الوجدانية تجد ثقل هذه المعاناة فتلجأ الى العقل الذي يحذرها من الوقوع في الغلط نفسه لئلا تتعرض الى المصير نفسه، وتتحرك المشاعر الوجدانية وبتأييد من العقل في حالة تسلّم الصور الخيالية التي رسمت لأصحاب الجنة، ويكون ذلك التضافر حافزاً للعمل على الوصول الى ذلك النعيم، وبالوسائل المطلوبة، ويتضح ذلك التناقض في قوله تعالى:

﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾
إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى
فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ
ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى
مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ
وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا
ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾.[3]

وفي السور التي يتقدم فيها الترغيب نجدها هادئة محفزة الى فعل الخير، وتدعو السابقين إليه بالبقاء والدوام عليه، وبعد ذلك تحذرهم من سوء العاقبة أو المصير الذي يؤول اليه الكفار من عذاب يصطرخون منه، وتوسلات للعودة الى الدنيا والعمل فيها صالحاً غير

---

(١) الانبياء ٩٠.
(٢) محمد متولي شعراوي: القران الكريم معجزة ومنهج ١٨٢/٣.
(٣) الدخان ٤٠-٥٧.

الذي كانوا يعملون. ويأتي الخطاب الإلهي بتذكيرهم بالآيات التي أنزلها على الأنبياء لتنذرهم. قال تعالى:

﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٣٢) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٣٣) وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ (٣٤) الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ (٣٥) وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ (٣٦) وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ﴾.(١)

ويؤكد سبحانه وتعالى في آيات الترهيب والترغيب ان هذه الآيات تنحو نحو التذكير لمن له عقل يدرك أن العقاب والثواب في الآخرة حق، فتكون له عظة يعتبر بها وحافزاً نحو العمل الصالح، وتأتي آية التذكير في نهاية الترهيب والترغيب. مثل قوله تعالى:

﴿ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ (٢٤) مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ (٢٥) الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ (٢٦) ۞ قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (٢٧) قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ (٢٨) مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (٢٩) يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ﴾.(٢)

والترهيب بنار جهنم والترغيب بنعيم الجنة وإن كانا من موضوعات الآخرة فحسب، فإنهما ينظمان حركة الإنسان في الدنيا أيضاً، ففي الآخرة يكون الجزاء على إتّباع المنهج الإلهي أو عدم إتباعه، والجزاء على الشيء ليس هو الموضوع الأساس، بل تصوير المعاناة بعد الجزاء، أو النعيم ونقل المشاعر والأحاسيس في أثنائه هو ما يراد من الترهيب أو الترغيب، ولو أدرك الإنسان موقفه الضائع واتبع المنهج الإلهي لانتهى شقاؤه في الدنيا والآخرة، ولا نريد الشقاء الجسدي وحده، وإنما الشقاء الروحي والجسدي والنفسي.

٧- استخدام البراهين العقلية لتثبيت الدعوة:

العقل الإنساني يمتلك حدوداً واسعة من التصوّر، ولكن ما يثبت فيه لا يتجاوز حدود الحواس التي تؤكد ذلك التصوّر وتثبّته في العقل، وما لا تراه الحواس يبقى في حدود الخيال. وهناك من الحقائق الكونية ما لا يمكن أن يصل اليها العقل بالحواس لأنها قاصرة

---

(١) فاطر ٣٢-٣٧.
(٢) ق ٢٤-٣٥.

عن إدراكها، وهذه الحقائق موجودة وإن لم يدركها العقل من قبل، وقد أخبرنا القرآن الكريم بها وهو الحق من الله تعالى، وهذه الحقائق تدخل الى العقل تصوراً فحسب، لأنها لم تدخل بعد في حدود الحواس، ولكن الله تعالى يكشف لأولي الألباب عن تلك الحقائق الكونية وعلى مراحل ليبين أن هذا القرآن هو الحق، وان الإنسان سيصل اليها بعد مئات من السنين بنشاط ذهني متقدم، وسيجد أن القرآن الكريم قد أشار اليها وسبقه في ذلك، ونتبيّن ذلك في قوله تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾.(1)

إن قدرة الله تعالى تفوق كل الحدود والتصورات التي قد ترد على الخواطر، وإن علم الخلق لا يقاس بعلم الخالق الذي لا حدود له، بل يستمد الخلق من فيض علمه، ونستدل على ذلك في خلق آدم (عليه السلام) حينما أراد الله أن يخلقه، قالت الملائكة إنّ الله تعالى لا يخلق خلقاً الاّ كنّا أعلم به من ذلك المخلوق، لعلو مرتبتها على جميع المخلوقات، فابتلوا بهذا القول، فأثبت الله لهم العكس مما يظنون، فعلّم آدم جميع مسميات الأشياء، كما في قوله تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾.(2)

والسؤال الذي يتبادر الى أذهاننا كيف بدأ آدم وحواء الكلام؟ وكيف تفاهما بينهما؟ ونحن نعلم ان الجنس البشري يبدأ أولاً بالسمع فيسمع الكلام ثم يردده فيتعلمه، وليس هناك كلام سابق على آدم وحواء حتى يسمعانه ويرددانه، وهما أول الخلق، فلابد إذن من متكلم يتكلم أمامهما حتى يسمعا كلامه، فيتعلما لغة التخاطب والتفاهم. ((وهنا يأتي قول الله سبحانه وتعالى (وعلم آدم الأسماء كلها) ليشرح لنا ما حدث، فالله سبحانه وتعالى علم آدم الأسماء... أي اللغة التي يتحدث بها ويتفاهم بها ويتكلم بها، ومن معجزات القرآن ان ذلك لا يزال هو المتبع حتى الآن رغم مرور هذا الوقت الطويل. وهذا التقدم الضخم في العالم، فنحن الآن حين نريد أن نعلّم طفلاً أن يتكلم فإننا نبدأ بأن نعلم الأسماء... أول شيء نقول له هذا قلم، وهذه كراسة، وهذا أسد، وهذا كوب... وبعد أن يتعلم الأسماء تصبح الاشتقاقات من الأسماء)).(3)

وأن أول استخدام للمنطق ورد في الخطاب الإلهي الموجّه للملائكة يأمرهم في السجود لآدم (عليه السلام)، فامتنع ابليس من السجود، وقايس بينه وبين آدم في أصل

---

(1) فصلت ٥٣.
(2) البقرة ٣١-٣٣.
(3) محمد متولي شعراوي: المنتخب من تفسير القران الكريم ٤٧/١ وينظر ٢٥/٣، ٣٠.

الخلق، وانه أفضل منه لأنه من نار وآدم من طين، وقد كرّم الله تعالى آدم وشرّفه، فقد خلقه بيده، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، وعلمه الأسماء كلها. قال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾.(١)

وأورد ابن كثير مسألة قياس إبليس بقوله: ((قال الحسن البصري: قاس إبليس وهو أول من قاس. وقال محمد بن سيرين: أول من قاس إبليس، وما عبدت الشمس والقمر إلاّ بالمقاييس... ومعنى هذا انه نظر نفسه بطريق المقايسة بينه وبين آدم، فرأى نفسه أشرف من آدم فامتنع من السجود له، مع وجود الأمر له ولسائر الملائكة بالسجود. والقياس إذا كان مقابلاً بالنص كان فاسد الاعتبار، ثم هو فاسد في نفسه، فإن الطين أنفع وخير من النار، لأن الطين فيه الرزانة والحلم والأناة والنمو، والنار فيها الطيش والخفة والسرعة والإحراق)).(٢)

وتستخدم في مسائل الاستدلال على الآراء بالبراهين العقلية ألفاظ تؤدي الغرض المطلوب في تلك المماحكات التي تجري بين الخصمين أو الخصوم، إذ يسعى كل خصم الى إثبات صحة رأيه، ومن تلك الألفاظ (حاج محاجة، وجادل مجادلة وجدال، وبرهن برهاناً، وبيّن بينة، ودلّ دليل) وقد نزلت سورة باسم (المجادلة) لأنها تبدأ بالجدال حول ظهار المرأة، وكان الجدال طريقة تستخدم فيها ألفاظ تركب على وفق قياس معين، وكلما كان هذا القياس دقيقاً وواضحاً فإنه يؤدي الى التفوق على الخصم، ولكنه لا يؤدي أحياناً الى التسليم والاقتناع.

ونستدل على ذلك في محاجة النبي نوح (عليه السلام) لقومه يدعوهم فيها الى الإيمان بالله تعالى، ونبذ عبادة الأصنام، وانه يملك البيّنة أو الدليل على صدق رسالته اليهم، وكانت حججهم التي يتذرعون بها، وتمنعهم من الإيمان به هي: أنه بشر مثلهم يريد أن يترأس عليهم، ولو شاء الله لأنزل ملكاً رسولاً، وانه لم يتبعه الاّ أراذل قومهم حسب تعبيرهم، وإن أراد أن يصدقوه فليطرد هذه الفئة القليلة من المؤمنين. ولما وجدوه ثابتاً في موقفه ولم يستجب لما يريدون، استكبروا وجعلوا أصابعهم في آذانهم حتى لا يسمعوا دعوته، وما كان جوابهم له انه أكثر من جدالهم، وطلبوا منه أن يأتي بما أوعدهم من عذاب الله إن كان من الصادقين. قال تعالى: ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى

---

(١) ص٧١-٧٦.
(٢) ابن كثير: قصص الانبياء ١١.

ٱللَّهِۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِيٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًاۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمْۖ إِنِّيٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾.[1]

ويظهر في خطاب النبي نوح (عليه السلام) مع قومه تلطف وترفق بهم، ولهذا الأسلوب تأثير في الدعوة الى الحق، فيخبرهم انه على معرفة بالله تعالى من خلال النبوة والرسالة، وإنهم إن لم يفهموها ولم يهتدوا اليها كيف يجبرهم على الإيمان بها وهم كارهون، ولا يريد أجراً على تبليغه إياهم فأجره على الله، وطالت المجادلة بين الطرفين زماناً جيلاً بعد جيل، وازداد الكافرون عناداً، فأخذهم الطوفان وهم ظالمون.

ويحدثنا القرآن الكريم عن حضارات كانت قائمة ثم بادت، ومنها حضارة عاد ومدينتهم (ارم) ذات الأبنية والأعمدة والقصور والمصانع، وكان قوم عاد عرباً يسكنون الأحقاف في اليمن بأرض تطل على البحر بين عمان وحضرموت، وكانوا أول من عبد الأصنام بعد الطوفان فبعث الله اليهم رجلاً منهم، وهو النبي هود (عليه السلام) فدعاهم الى عبادة الله وحده، وترك الشرك بالله تعالى من خلال عبادة الأصنام التي سمّوها بأسماء من عندهم، فأبوا ترك ما يعبدون وآباؤهم.

ومن خلال المحاجّة بينه وبينهم بيّن لهم أن الله قد اختاره رسولاً أميناً يبلغهم برسالة ربه، فيذكرهم بنعم الله عليهم، فأعطاهم بسطة في الخلق، وأمنا ورغداً في العيش، فكانت حججهم أن النبي بشر يأكل ويشرب مثلما يفعلون، وانه يعدهم بأمر لا يصدقونه وهو البعث والنشور، وانه مصاب بسوء من آلهتهم انتقاماً لقدسيتها، فكيف يتبعونه، فاستكبروا فأبادتهم الريح العقيم. قال تعالى: ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَاۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌۖ أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍۚ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾.[2]

إذن فالقرآن الكريم حين يعرض لهذا الانحراف عن الإيمان بالله تعالى يكشف عن عناصر الانصراف عن منهج الله تعالى وعن الفطرة الإنسانية، فإذا ما تمّ الفساد في المجتمع، وانتهى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ماذا يكون الموقف؟ لابد أن تتدخل السماء بإرسال رسول نذير يدفعهم الى القضاء على الفساد، ويعيدهم الى فطرة الإيمان

---

(١) هود ٢٨-٣٢.
(٢) الاعراف ٧٠-٧٢.

الأولى، ولما كانت دعوة الرسول قد وصلت الى حالة لا ينفع فيها الوعظ والجدال واستخدام الحجج والبراهين لإثبات الموقف الصحيح، فإن العقاب الإلهي ينزل بهؤلاء القوم الذين ضلّوا وأضلوا، وكانت الريح الصرصر العاتية قد تركتهم أجساداً ممددة لم يبق منهم باقية.

ويعد النبي إبراهيم (عليه السلام) من الأنبياء الذين اتخذوا الجدال منهجاً لإثبات الحقيقة بالبراهين والأدلة الحسية، وكانت حياته سلسلة من المحاجّات مع أبيه وقومه والنمرود والملائكة المرسلين الى قوم لوط. فقد شبّ وهو يتأمل في الكون، وتتراآى له عظمته بسمائه الزاخرة بالكواكب والنجوم، والأرض ذات الفجاج الفسيحة، والوديان التي تجري فيها الأنهار، والجبال الشامخة الى عنان السماء، وهذه المخلوقات كالنبات والحيوان والإنسان كلها تسير وفق أنظمة دقيقة لا يسودها الخطأ فيختل نظامها، ولا تعمها الفوضى فتضطرب وتنحل، وإن لهذا الكون الواسع مدبر خالق، تفوق قدرته قدرة البشر، ولما حلّ عليه الليل أبصر كوكباً مضيئاً في السماء (قال هذا ربي) فلما انحسر ضوؤه تبدد ظنه لآن الرب لا تأخذه سنة ولا نوم، ثم نظر الى القمر وهو اكبر (قال هذا ربي) فلما غاب أحس بالخوف لئن لم يهده الله تعالى الى معرفته ليكونن من الضالين، ولما طلع النهار رأى الشمس بازغة وهي أكبر من كل شيء (قال هذا ربي) فلما غابت سقط ظنه بها، وقال إنني بريء ممن يشرك بالله في عبادتها، وأعلن توجهه الى الله الذي خلق السماوات والأرض.

قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ٧٥ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ٧٦ فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ ٧٧ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ٧٨ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٧٩ وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۗ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾.(١)

وجادله بعض قومه ممن يعتمدون على الكواكب والنجوم في تسيير حياتهم اليومية، واتخاذها طالعاً في معرفة نزول المطر وحلول الجدب، وانتشار الأمراض وحدوث الكوارث وغيرها فيما يسمعون منه وهو يثير الشكوك في تلك العبادات، وكان ينظر اليه وهو الفتى الذي تمرّد على الآلهة السماوية والأرضية معاً، وحاجوه في صدق عبادتها، وبيّنوا لولاها لأصبح اليوم سرمداً، ولحلّ الظلام محل الضياء، ولم يلتفت اليهم وقد هداه الله تعالى الى الحقيقة، ولم يعد يخاف تلك المعبودات، وينبغي عليهم أن يخافوا الله لشركهم تلك المخلوقات إياه.

---

(١) الانعام ٧٥-٨٠.

وبدت على النبي إبراهيم (عليه السلام) نوازع التمرد مبكرة على خضوع قومه للأصنام، فقد استوعب منذ صباه حقيقة الأصنام التي يعبدونها، ووقف أمامها طويلاً يتأملها، فإذا هي حجارة لا تنفع ولا تضر، عديمة الإحساس جامدة على صورة واحدة، ولربّما مدّ يديه اليها فلم تردّه ولم تردعه، فأيقن أنها ليست الإله الخالق، وإنما هناك إله واحد يدبر هذا الكون، فهرع الى أبيه يسأله ويحاوره عن هذه التماثيل التي يعبدونها، ويقدمون لها القرابين والنذور، فكان جواب أبيه: لقد وجد آباءه لها عابدين، فرد عليه إبراهيم انه وآباءه في عبادتهم لها ضالون. قال تعالى: ﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنۡ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَۖ وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا ﴿٤٧﴾ وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدۡعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا ﴾.[١]

ولو تبيّنا أسلوب النبي إبراهيم (عليه السلام) في المحاورة أو المحاجة مع أبيه لوجدناه يتسم بألطف عبارة وأحسن إشارة، واتضح فيه بطلان عبادة الأصنام، وقد نما ذلك الإحساس عنده منذ الصّبا، ولم يجده في أبيه وقومه، ووجد من الأنسب أن يبدأ بتنبيه أبيه وهو الأقرب إليه، ولعله يلتفت الى هذه الظاهرة التي أعماهم الشيطان عنها، فلم يبصروا حقيقتها بحواسهم، ولم تدركها عقولهم بعد، فعبادة الأحجار دلالة على تحجر العقول، ويستحضر أمامه الخوف عليه من الرحمن ولم يقل الجبّار لأن رحمته تسبق غضبه، ولا يريده أن يكون بهذا للشيطان تبعاً، وكان الرد من أبيه عنيفاً وهو أما أن يرجمه لخروجه عن العبادة المتوارثة، وأما أن يهجره مبتعداً عنه، وكان من حسن وفاء الابن أن سلّم على أبيه، واستغفر الله له عسى أن يهديه الى الصواب.

وينتقل إبراهيم (عليه السلام) الى المرحلة الثانية وهي تنبيه قومه الى سوء عبادة الأصنام، ويعلم أن الكلام وحده لا ينفع في دعوته الى نبذها ما لم يكن مدعماً بالبرهان الحسي على بطلانها، واختيار موعد مناسب لإعلان دعوته وبيان تجربته، فاختار أحد الأعياد التي يخرج فيه الناس الى الساحات والمتفرجات العامة، ودعوه الى الخروج معهم فاعتذر بعد أن رفع نظره الى السماء على عادتهم فقال إني مريض، فتركوه وبقي وحده، فتوجّه الى المعبد الكبير وبيده فأساً كبيرة، وأنهال على الأصنام ضرباً فكسرها، ولم يبق منها إلاّ الصنم الكبير، فوضع على يده الفأس وكأنه متّهماً إياه بهذا الفعل، قال تعالى: ﴿ إِذۡ

---

(١) مريم ٤١-٤٨.

جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلۡبٖ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَاذَا تَعۡبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفۡكًا ءَالِهَةٗ دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظۡرَةٗ فِي ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٞ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ مُدۡبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمۡ فَقَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمۡ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيۡهِمۡ ضَرۡبَۢا بِٱلۡيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقۡبَلُوٓاْ إِلَيۡهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعۡبُدُونَ مَا تَنۡحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ﴾.(١) وقوله تعالى: ﴿ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصۡنَٰمَكُم بَعۡدَ أَن تُوَلُّواْ مُدۡبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمۡ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرٗا لَّهُمۡ لَعَلَّهُمۡ إِلَيۡهِ يَرۡجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُواْ سَمِعۡنَا فَتٗى يَذۡكُرُهُمۡ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبۡرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُواْ فَأۡتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعۡيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلۡتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ هَٰذَا فَسۡـَٔلُوهُمۡ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يَضُرُّكُمۡ ﴿٦٦﴾ أُفّٖ لَّكُمۡ وَلِمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾.(٢)

إن الفطرة التي جبل عليها إبراهيم (عليه السلام) دعته الى الاستخفاف بهذه الأصنام التي تقدم لها الأطعمة والقرابين والحلي وغيرها، فقال على سبيل السخرية ألا تأكلون؟ مالكم لا تنطقون؟ أي لا تجيبون عن سؤالي لكم. وقالوا (أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم. قال بل فعله كبيرهم هذا) فأدركتهم حيرة. ومثل هذا الأسلوب في المحاجّة أفحم القوم وجعلهم مطرقين رؤوسهم، وكأنهم تلقوا ضربة قوية على تلك الرؤوس الحجرية، وأجابوا متيقنين: (لقد علمت ما هؤلاء ينطقون) وهنا يتغلغل أسلوبه المقنع الى عقولهم وهو كيف يعبدون ما لا ينفع ولا يضر، وكيف يعبدون ما ينحتون بأيديهم، وكيف يعبد المخلوق أو المصنوع باليد، ومثل هذه النقاط المثيرة في الجدل تفحم الخصم وتجعله مستسلماً، ولكن الفئة الغاشمة تترك أسلوب الحوار بعد الهزيمة أحياناً وتلجأ الى أسلوب القوة للقضاء على الخصم، فقررت إحراق إبراهيم في النار.

وفي موقف آخر من مناظرات إبراهيم (عليه السلام) مناظرته للنمرود ملك بابل وهو في رداء العظمة والكبرياء، وادعاء الإلوهية، فاستدعى إبراهيم الى قصره بعد نجاته من النار التي صارت برداً وسلاماً، ليسأله عن السر الذي يملكه بحيث يجعل النار تغيّر طبيعتها، فكان جوابه عبادة الله وحده لا شريك له، ونبذ عبادة الأصنام، وكان النمرود ينكر وجود الخالق سبحانه وتعالى، ولكنه تمسّك بصفة من صفاته، وهي الإحياء والإماتة، وادّعى أنه يُحيي ويُميت، وبطريقة ساذجة، وهي أنه يدعو رجلين حكم عليهما بالموت،

(١) الصافات ٨٤-٩٦.
(٢) الانبياء ٥٧-٦٧.

فيعفو عن أحدهما وكأنه قد أحياه، ويأمر بقتل الثاني فكأنه أماته، ولكن إبراهيم الخليل (عليه السلام) بادره بالسؤال متجاوزاً هذه الصفة الى صفة أخرى أفحمته وأعجزته عن الجواب، وهي أن الله تعالى يأتي بالشمس من المشرق، هل يقدر النمرود أن يأتي بها من المغرب؟

قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾.[١]

ويشرح ابن كثير هذه المسألة بقوله: ((إنّ هذه الشمس مسخّرة كل يوم، تطلع من المشرق كما سخّرها خالقها ومسيّرها وقاهرها، وهو الذي لا إله إلاّ هو خالق كل شيء، فإن كنت كما زعمت من أنك الذي تُحيي وتُميت فأتِ بهذه الشمس من المغرب فإن الذي يُحيي ويُميت هو الذي يفعل ما يشاء ولا يمانع ولا يغالب، بل قد قهر كل شيء، ودان له كل شيء، فإن كنت كما تزعم فافعل هذا، فإن لم تفعله فلست كما زعمت، وأنت تعلم وكل أحد أنك لا تقدر على شيء من هذا، بل أنت أعجز وأقل من أن تخلق بعوضة أو تنتصر منها... فبيّن ضلاله وجهله وكذبه فيما ادّعاه..)).[٢]

وأما جدال إبراهيم (عليه السلام) مع الملائكة فإنه يتضح فيه مقدار حلمه وأناته، فقد رحّب بهم، وأرتاع منهم وأوجس خيفة عندما رأى أيديهم لا تمتد الى الطعام الذي قدمه اليهم، (قالوا لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط) أبن أخيه لإنزال العقاب عليهم، وكانت زوجة إبراهيم تستمع اليهم فبشروها وهي على الكبر بولادة إسحاق، فعجبت كيف تلد وهي عجوز وزوجها شيخ كبير، ولكن أمر الله تعالى نافذ، وبعد أن اطمأن إبراهيم (عليه السلام) بذهاب الروع عنه ومجيء البشرى اليه، راح يجادلهم في قوم لوط، ويرجو أن يمهلوا مدة لعلهم يقلعوا عن غيّهم، وينيبوا الى ربّهم، ولكن الأمر الإلهي كان حاسماً، وهو أعلم بهم، طالباً الإعراض عن الجدال فيهم، فقد وجب العقاب وهو غير مردود. قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا ۖ قَالَ سَلَـٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَـٰهَا بِإِسْحَـٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَـٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَـٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَـٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَـٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾

---

(١) البقرة ٢٥٨.

(٢) ابن كثير: قصص الانبياء ١٤٣.

﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ ۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴾.[1]

المحاجّة هنا عقيمة لأن الله تعالى لم يضع عدة خيارات يمكن للمجادل أن يقف على أحدها، ويختار منها ما يريد، ولكن إبراهيم (عليه السلام) عرض خيارات عدة أمام الملائكة لتأجيل العقاب، وهي خيارات غير فاعلة أمام أمر الله النافذ، وهو إنزال العقاب الإلهي على قوم لوط، وهو قرار غير مردود، كما أن الملائكة غير مفوضين بالحوار للوصول الى الحل الأوفق، بل هم رسل الله تعالى طائعين له طاعة خالصة، فلا يمكن أن يغيّروا حكمه من خلال ذلك الجدال.

ولم يملك النبي موسى (عليه السلام) قوة الجدال مثلما كان يملكه النبي إبراهيم (عليه السلام) فحينما خاطبه الله تعالى أن يذهب الى فرعون لأنه طغى، فطلب من الله تعالى أن يرسل معه أخاه هارون. قال تعالى: ﴿ وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾.[2] وقوله تعالى: ﴿ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴾.[3]

وجاء الخطاب الإلهي للنبي موسى (عليه السلام) أن يذهب وأخوه بآيات الله المعجزات الى فرعون لأنه طغى، وأن يتحدثا إليه بكلام ليّن رقيق لعله يتذكر إنسانيته ويخاف خالقه، واستخدام مثل هذا الأسلوب في مبتدأ الكلام له تأثير كبير في السامع، لأنه يدخل الى القلب مباشرة قبل العقل، ولكن معرفة النبي موسى (عليه السلام) بطغيان فرعون وجبروته جعلته يتذكر تجاوزه الحد في البطش والإساءة، ولكن الله تعالى طمأنه بأنه معهما يسمع ما يقال ويرى ما يحدث. وعندما دخل موسى عليه أبلغه رسالة ربه في الإنابة إليه، وإن عاقبة الكاذبين المدّعين الألوهية العذاب المهين، فبادره فرعون بالسؤال (من ربكما يا موسى) فأجابه جواباً شاملاً دون تردد (ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى) ثم أردفه بالسؤال عن حال أو مصير الأمم في القرون الأولى، فأجابه إجابة غير العارف بعلم الغيب (علمها عند ربي في كتاب) لا يغيبون عن علمه ولا ينساهم. قال تعالى: ﴿ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا

---

(١) هود ٦٩-٧٦.
(٢) القصص ٣٤-٣٥.
(٣) طه ٢٤-٢٨.

رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكَۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾
إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعْطَىٰ كُلَّ
شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٖۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا
يَنسَى ﴾.(1)

وفي آيات أخرى نجد فرعون يحاول أن يغير نسق الخطاب بتغيير موضوع الرسالة التي حملها النبي موسى (عليه السلام) اليه، فقد بادره بالسؤال (ألم نربّك فينا وليداً ولبثت فينا من عمرك سنين. وفعلت فعلتك التي فعلت وأنت من الكافرين). أي تربيت فينا منذ ولادتك حتى أصبحت شابا، ثم قتلت رجلاً من المصريين، وعدت من الجاحدين لهذه النعم التي أوليناك. فمال موسى (عليه السلام) عن المباشرة بتبليغ الرسالة الى الجواب دفاعاً عن نفسه وهو أنه فعل فعلته هذه ولم يكن قد عرف هداية الله تعالى بعد، وفرّ خوفاً منهم، فوهبه الله تعالى الحكمة والرسالة، وتلك النعمة التي يمنّ بها فرعون عليه تقابلها عبودية بني إسرائيل وقيامهم بأعماله وخدمته دون أجر. فسأله فرعون (وما رب العالمين) فأجابه موسى دون تردد (رب السماوات والأرض وما بينهما) فاتجه فرعون الى من حوله من الوزراء والحاشية يسألهم هل تسمعون ما يقول، فأكمل موسى (ربكم ورب آبائكم الأولين) قال فرعون: إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون، فقال موسى مؤكداً (رب المشرق والمغرب وما بينهما) فقال فرعون: إن إتخذت إلهاً غيري فإنك من المسجونين. قال تعالى:

﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدٗا
وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذٗا وَأَنَا۠ مِنَ
ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمٗا وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٞ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ
عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآۖ إِن كُنتُم
مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِيٓ أُرْسِلَ
إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٞ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ
مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴾.(2)

وننتقل الى أسلوب آخر وهو خطاب السحرة لفرعون، ونستشف فيه شيئاً من التحدي لقوة فرعون الغاشمة، ولا مبالاتهم لما يفعله بهم بعد عصيانهم لعبادته وقد غمرهم الإيمان

---

(١) طه ٤٢-٥٢.
(٢) الشعراء ١٦-٢٩.

بالله تعالى، فالعصا التي ألقاها موسى (عليه السلام) أمام حبال السحرة وعصيهم تحوّلت الى حيّة ضخمة ذات شكل مخيف، هرب الناس منها سراعاً، فأقبلت على ما ألقوه من الحبال والعصي فجعلت تلقف سريعاً ما صنعوا، والناس ينظرون اليها متعجبين، ورأى السحرة ما هالهم وجعلهم في حيرة من أمرهم، وفكروا في هذا الأمر الذي لم يخطر على بالهم، ولم يدر في خلدهم، ولم يقع في صناعتهم، وتحققوا بما عندهم من العلم إن هذا ليس بسحر ولا شعوذة، ولا خيال ولا ظلال، ولا تمويه ولا ضلال، بل هو حق ومعجزة لا يقدر عليها إلاّ الله سبحانه وتعالى الذي كشف غشاوة الغفلة عن قلوبهم، وأنارها بالهدى والبرهان، فخرّوا له ساجدين، معلنين دون خوف الإيمان برب العالمين. قال تعالى: ﴿ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾.[1]

ويبين ابن كثير أوجه هذا الجدال الذي دار بين فرعون والسحرة بقوله: ((وذلك لأن فرعون لما رأى هؤلاء السحرة قد أسلموا وأشهروا ذكر موسى وهارون في الناس على هذه الصفة الجميلة، أفزعه ذلك ورأى أمراً بهره وأعمى بصيرته وبصره، وكان فيه كيد ومكر وخداع، وصنعة بليغة في الصّد عن سبيل الله، فقال مخاطباً السحرة بحضرة الناس (آمنتم له قبل أن آذن لكم) أي هلاّ شاورتموني فيما صنعتم من الأمر الفظيع بحضرة رعيتي؟ ثم تهدد وتوعّد وأبرق وأرعد وكذب فأبعد، قائلاً: (انه لكبيركم الذي علمكم السحر) وقال في الآية الأخرى ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ﴾[2] وهذا الذي قاله من البهتان الذي يعلم كل فرد عاقل ما فيه من الكفر والكذب والهذيان... فإن الناس كلهم من أهل دولته وغيرهم يعلمون أن موسى لم يره هؤلاء يوماً من الدهر، فكيف يكون كبيرهم الذي علمهم السحر؟ ثم هو لم يجمعهم ولا علم باجتماعهم، حتى كان فرعون هو الذي استدعاهم واجتباهم من كل فج عميق..)).[3]

وكان الجدال بين النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) وكفار قريش حاسماً، ويتركز على جملة مفاهيم جاهلية أبطلها الإسلام، وأولها الشرك بالله تعالى المتمثل بعبادة الأصنام والأوثان، وإلغاء أساس الإيمان بالله تعالى وهو التوحيد الذي هو جوهر الأديان السماوية ومنها الإسلام، وأصل مهمات الرسل الذين اختارهم الله تعالى لإيصال رسالته الى هؤلاء الكافرين والمشركين، والثانية هي نفي البعث والنشور، وإلغاء فكرة الحياة الآخرة بعد

---

(١) طه ٧٠-٧٣.
(٢) الشعراء ٤٩.
(٣) ابن كثير: قصص الانبياء ٣٢٨.

الموت، وقد أعطى القرآن الكريم بصيغ متعددة وأساليب مختلفة أدلة وبراهين تثبت وجود هاتين المسألتين، ويتمثل فيها بيان عظمة الخالق وقدرته على تدبير الكون، ومطالبة الجاحدين لنعم الله بالبراهين التي تناقض ذلك.

والمسألة الأولى وهي الشرك بالله من خلال عبادة الأصنام والأوثان، فإنهم عبّروا عن هذه المعبودات بأنها الوسائط التي تقربهم الى الله زلفى، ولكنها تنقض مبدأ التوحيد الذي قامت عليه الأديان والرسل، وكان الخطاب الإلهي ردّا حاسما على آراء المشركين:

﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ ۖ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ ۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴾.[1]

وكان كلام الحق حجة بالغة وهي أنه كلما زاد عدد المدبرين للكون فلابد أنهم يختلفون في تدبيره، فمنهم من يريده على شاكلة، وآخر يريده على شاكلة أخرى، وهذا الاختلاف يقودهم الى الصراع والقتال، والدمار والفساد لهذا الكون الدقيق المنتظم في حركته، فأي آلهة يتحدثون عنها، وأين البراهين والأدلة التي تثبت أنها تستطيع أن تدبر نفسها فحسب، فكيف تدبر مثل هذا الكون العظيم.

وقد يكون معبود الإنسان الغافل هواه، إذ يعكف على ما يحب وينسى ذكر الله تعالى، وينشغل به حتى ينسيه الشيطان إنسانيته، ويتحول الى صفة الحيوانية، فهو كالأنعام الضالة التي يسوقها الراعي الى مأواها، فكيف يستجيب مثل هذا لدعوة الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) وكيف يرى آيات الله البينات التي ترتسم أمامه، ونعمه التي لا تعد ولا تحصى، فيضرب مثلاً بالظل كيف يمتد ويتحرك مع حركة ضوء الشمس، ولو أراد الله لجعله ساكناً مما يعني توقف الأرض عن الدوران، ولولا الشمس ما وجد الظل، ولولا الظل ما كانت الشمس دليلاً عليه، ثم بعد ذلك يقبضه الله شيئاً فشيئاً حتى يزول مع حركة الشمس وغروبها.

ورتّب الله سبحانه وتعالى الزمن للإنسان وجعله على أقسام منتظمة، فالليل بظلامه يتلبس الإنسان ويستره كما يستر الثوب الجسد، ويجعله قاطعاً لعمله وينام فيه ليستريح جسده، وجعل النهار نشوراً أو إنبعاثاً من النوم للعمل والسعي ابتغاء الرزق، ويرسل الرياح مبشرة بنزول الغيث ليُحيي الأرض الميتة بعد سقيها بالنبات والأنعام والإنسان. ومن الممكن أن تكون هذه الآيات والنعم كافية ليتذكر الإنسان خالقه، فأبى أكثر الناس كفراً وجحوداً بها. قال تعالى: ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ

---

(١) الانبياء ٢١-٢٤.

ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾.[١]

ويأتي الإثبات بوحدانية الله تعالى في الخطاب الإلهي من خلال صيغ الأسئلة التي يطلب من الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) أن يوجهها الى المشركين، وفيها توجيه الى نعم الله تعالى التي لو أراد أن يعطلها أو يبطلها ماذا سيحدث في الكون، ومن الذي يتضرر من تعطيلها الخالق أم المخلوق؟ إذاً سيجأر المخلوق بالتضرّع والدعاء لخالقه أن يعيدها الى ما كانت عليه. ويوم القيامة يحاسبهم الله بالسؤال أيضاً أين شركائي الذين عبدتموهم واستعبدوكم وتزعمون أنهم الحق؟ فيوقف على كل امة شهيداً منهم عند السؤال وهم من الأنبياء، فيقول لهم هاتوا برهانكم على صدق معبوداتكم، حين ذلك سيعلم المشركون ان الحق لله تعالى وان افتراءهم أوقعهم في الضلال المبين. قال تعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴾.[٢]

وقد تأتي صيغ الأسئلة الموجهة الى المشركين مع أجوبتهم عنها بإقرار وإثبات الحق، وأجوبتهم صادقة ولكنهم لا يلتزمون بما يقولون، وهذا قمة التدهور العقلي، فكيف يكون مع الله آلهة، إذاً لأتجه كل إله مع ما خلق، ولتنافس الآلهة فيما بينهم، ولعلا بعضهم على بعض، ولحدث صراع يؤدي الى الفساد ودمار الكون والبشرية، وحاشا لله الواحد عما يشركون. قال تعالى: ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ

(١) الفرقان ٤٣-٥٠.
(٢) القصص ٧١-٧٥ وينظر النمل ٦٠-٦٤.

﴿ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ
إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾.(1)

والمسألة الثانية في الجدال والتحدي هو نفي البعث والنشور، فكيف يبعث من تحوّل جسده بعد الموت الى عظام ورفات، ومرّت عليه مئات السنين، وكانت حجة الكافرين أن أعيدوا لنا آباءنا إن كنتم صادقين. قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾.(2)

وهناك محاجات ومجادلات مع أهل الكتاب وردت في السور المدنية آثرنا إيرادها في العهد المدني، بعد هجرة الرسول (صلى الله عليه وسلم) والمسلمين إلى المدينة واختلاطهم باليهود فيها، وقد وقف اليهود إلى جانب قريش مع علمهم ان الإسلام دين الحق.

٨- الدعوة الى التحلي بالأخلاق الفاضلة:

استأثرت الدعوة الى الأخلاق الفاضلة بجزء كبير من السور القرآنية، فالدين الإسلامي ليس دين عبادات وتشريع فحسب بل هو ثورة على الرذيلة والفساد، وتحرير الإنسان من التحلل الخلقي الذي ينخر جسد المجتمع، وبذلك ((يكون المسلم المتخلق بمكارم الأخلاق صالحاً لتلقي الإشراقات الروحية والفيوضات الإلهية التي تجعله يسيطر على بدنه، ويسمو بنفسه فوق حسه، ويستجيب لعقله أكثر مما يستجيب لعاطفته، ويحسن الوفاق بين لبه وقلبه)).(3)

والصفات الخلقية التي يمكن للإنسان أن يتحلى بها الصدق، والأمانة، والطاعة، والعدل، وحسن المعاملة، وبر الوالدين، وحفظ العهد، والتواضع، والعفة، والحياء، والكرم، والوفاء وغيرها من الصفات التي تحصن الفرد من الانحلال والوقوع في الرذيلة، وبما أن الفرد لبنة في الأسرة، والأسرة لبنة في المجتمع فإن تعرّض الفرد الى الفساد يعني تعرّض المجتمع كله الى الانهيار. ولذلك طلب الله تعالى التثبّت من أقوال الفرد الفاسد وأفعاله لئلا

---

(١) المؤمنون ٨٤-٩١.
(٢) الجاثية ٢٤-٢٦ وينظر الحج ٦٦-٦٩.
(٣) د. احمد لشرباصي: اخلاق القران – المقدمة.

يؤدي عمله الى الفساد الاجتماعي، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ﴾.(١)

ولم يشأ الله تعالى أن يرسل آدم (عليه السلام) الى الأرض دون تدريب واختبار لمعرفة قدرته على استقبال منهج الله استقبالاً نظرياً، وحينما يأتي وقت التطبيق العملي تتملكه الشهوات، ويغويه الشيطان، وتستولي عليه الغفلة والنسيان، فيخرج من رحمة الله، ولكن لابد من فترة تجريبية يجريها في الجنة، يستقبل فيها بعض الأوامر والنواهي من ربه، وتحذير من الشيطان عدو الله وعدوه، وحينما يخطئ آدم (عليه السلام) في تلك الفترة بتقرّبه وزوجه من تلك الشجرة وأكلهما منها فإنه لا يعاقب، وإنما يصوّب خطؤه، ويرد الى المنهج الصحيح. قال تعالى: ﴿ وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوّٞ لَّكَ وَلِزَوۡجِكَ فَلَا يُخۡرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلۡجَنَّةِ فَتَشۡقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعۡرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظۡمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضۡحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسۡوَسَ إِلَيۡهِ ٱلشَّيۡطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ وَمُلۡكٖ لَّا يَبۡلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنۡهَا فَبَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيۡهِ وَهَدَىٰ ﴾.(٢)

ومما يجب أن نلاحظه وهو ((أن آدم عصى وإبليس عصى، فما الفرق بين معصية ومعصية؟ لماذا عصى آدم فتلقى من ربه كلمات؟ ولماذا حينما عصى إبليس طرد من رحمة الله واستحق اللعنة الى يوم الدين؟ هنا رمزية تلفتنا الى قاعدة إيمانية يجب أن لا تغيب عن ذهن المسلم، ما هي القاعدة؟ القاعدة أن إبليس ردّ على الله أمره، وجاء بحيثية المخطئ للأمر فكأنه واجه الله برد أمره... ومعني رد الأمر على الأمر هو الخيانة العظمى في قمة الإيمان. أما آدم فلم يرد على الله أمراً ولكنه ذهب الى نفسه فاتهمها بالتقصير وبالغفلة وبالنسيان)).(٣)

وينقل إلينا القرآن الكريم صوراً من المعصية لدى أبناء الأنبياء وزوجاتهم، والنبي هو المنذر من عذاب الله تعالى والمبشر برحمته ومغفرته ونعيمه، وهو الرسول الذي اختاره الله لتبليغ رسالته، ومن المفترض أن تصل رسالته الى أهله قبل غيرهم، وهم زوجته وأبنائه حتى يتفهموا مضمونها، ويتقبلوا تطبيقها، ولكن نوازع النفس وشيطانها تحول دون الإيمان بما أنزل إليه. وقد وجدنا في ابن نوح (على أبيه السلام) صورة واضحة لمعصية الابن لأبيه، فقد جاء أمر الله بالطوفان، فنزل الماء من السماء بغزارة، وتفجّرت الأرض عيوناً، صعد النبي نوح (عليه السلام) الى السفينة وبعض أهله ومن آمن معه، وامتنع الابن

---

(١) الحجرات ٦.
(٢) طه ١١٦-١٢٢.
(٣) د. محمد متولي شعراوي: القران الكريم معجزة ومنهج /٢٧-٢٨.

من الصعود إليها إباء عن امتثال أمر أبيه، وظنّ إن أحد الجبال يعصمه من الماء، والأب يترفق إليه ويرغبه في الصعود إليها والابن يأبى والماء يرتفع، وأمواجه تعلو حتى أخذته بين ثناياها فكان من المغرقين، وتنطلق العاطفة الأبوية في هذا الموقف العصيب، وينادي نوح (عليه السلام) ربه إن ابنه من أهله، وليس من الكافرين الذين استحقوا العقاب، وإن وعد الله تعالى بنجاة المؤمنين حق لا جدال فيه، فجاءه الخطاب الإلهي إن ابنه ليس من أهله وانه عمل غير صالح، وأن لا يسأل عن أمر لا علم له به وهو من الغيب، وكان جوابه تعالى عظة له لئلا يكون من الجاهلين، واستغفر ربه راجياً رحمته لئلا يكون من الخاسرين. قال تعالى:

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ
ٱلۡقَوۡلُ وَمَنۡ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ (٤٠) ۞ وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٜىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٞ
رَّحِيمٞ (٤١) وَهِيَ تَجۡرِي بِهِمۡ فِي مَوۡجٖ كَٱلۡجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبۡنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعۡزِلٖ يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا وَلَا
تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ (٤٢) قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن
رَّحِمَۚ وَحَالَ بَيۡنَهُمَا ٱلۡمَوۡجُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ (٤٣) وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ
وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ (٤٤) وَنَادَىٰ نُوحٞ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ
أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ (٤٥) قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا
لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ (٤٦) قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ
وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾.[1]

وتتجلى الطاعة لله تعالى والانقياد له لدى الإنسان من خلال إيمانه بالله، وهو ضرورة عقلية تدل على التصديق بأنه أهل لأن ينظم لنا حركة الحياة، وان هذه العقيدة تقودنا الى طاعته وقبول أوامره ونواهيه، لأنه الخالق والحكيم والقادر، ولذلك فإن المسلم حينما يسلم زمامه لتوجيهات ربه فإنه ينطلق من عقيدة قد اختمرت في قلبه ونضجت في عقله، فلا يناقش كيف ولماذا. والإيمان لا يأتي من خلال المشاهدة التي تراها العين وتثبتها الحواس الأخرى، وإنما تتم من خلال الإيمان بالأمور الغيبية التي لا تقع تحت الحواس.

وجاء أمر الله تعالى الى إبراهيم (عليه السلام) أن يسكن زوجه هاجر وابنه إسماعيل في واد غير ذي زرع عند البيت الحرام، فامتثل وتركهما هناك إيماناً بأن الله لن يتركهما، وبعد أن شبّ الغلام وصار يسعى كأبيه في العمل والعبادة، جاء الخطاب الإلهي في المنام لإبراهيم (عليه السلام) أن يذبح ابنه إسماعيل، ومن المعروف أن رؤيا الأنبياء وحي، وهو

---

(١) هود ٣٩-٤٦.

اختبار من الله تعالى للأب وابنه، فأجاب أمر الله وسارع الى طاعته، ثم عرض الأمر على ولده ليكون على علم به، وأهون عليه من أن يأخذه قسراً ويذبحه قهراً، فأجابه إجابة الابن الحليم المطيع لأمر الله وطلب أبيه. قال تعالى:

﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾[1]

والمقصود هنا (إن هذا لهو البلاء المبين) اختبار طاعة الله أو معصيته، إذ كيف يذبح الأب ولده الذي جاءه على الكبر، وليس له ذرية آخرون عوضاً عنه، وكانت فرحة الأب تكبر كلما جاء ورآه يكبر ويشب، ويسعى ويعمل، وعملية الذبح وما فيها من ربط وشد واستسلام وخضوع تبعث الخوف، ونزول السكين وخروج الدم، ومنازعة الموت من أجل الحياة تثير الأسى والشجن، وتؤدي الى المفارقة والغياب. ولكن عباد الله المؤمنين طاعتهم للآمر الناهي سبحانه وتعالى تفوق الغاية والكيفية، فلم تعمل السكين إذ تعطّلت عن فعلها بأمر الله، وجاهد الأب في حركتها فلم يفلح، فجاءه الخطاب الإلهي برضى الله تعالى عنه لطاعته واستجابته للأمر وفداه تعالى بكبش سمين يذبح عنه، وصار ذلك الذبح سنة للمسلمين عند الولادة والحج.

ويرشدنا الله تعالى الى المنهج القويم في استقبال الحياة، ونبذ المنهج المنحرف الذي يؤدي الى الفساد والدمار، وإن هذا الانحراف لا يترك سدى، فالله تعالى يقف بالمرصاد لكل من ينحرف عن منهج الحق، يتركه يعلو ثم يهوي به من علو دون أسس تسنده، فيؤدي سقوطه الى الإنهيار دفعة واحدة، ولن يبقى له أثر يرى.

وهكذا لم تنفع مواعظ النبي لوط (عليه السلام) في قومه، ودعوته إياهم الى عبادة الله وحده لا شريك له، فنهاهم عن تعاطي المحرمات من الفواحش والمنكرات التي تهين الإنسان وهي إتيان الذكور دون الإناث، ومثل هذه الفاحشة لم يأت بها أحد قبلهم من العالمين، وكانوا يشيعونها في ناديهم على الملأ من الناس دون حياء، ولم يستجيبوا لنبيهم، ولم يتركوا ما نهوا عنه، بل استمرّوا على غيّهم وضلالهم، وهمّوا بإخراجه من قريتهم، فدعا عليهم وسأل الله تعالى أن ينصره على القوم المفسدين. قال تعالى:

﴿ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ

---

(١) الصافات ١٠٢-١٠٨.

بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾.[1]

ويمكننا أن نتصوّر مقدار الضيق والحرج الذي بدا على النبي لوط (عليه السلام) حين استضافه رسل رب العالمين وهم من الملائكة، قيل: جبريل وميكائيل وإسرافيل، وهم على أجمل صورة اختباراً من الله تعالى لقوم لوط، وإقامة الحجة عليهم، فخشي أن يخزيه قومه في ضيفه، وهو في حيرة من أمره، بين حق الضيافة وبين خشيته عليهم من الفاسدين، وقد نهوه عن تضييف رجل، فجاء بهم ولم يعلم أحد من بيته إلاّ امرأته التي هرعت الى قومها تخبرهم أن لوطاً استضاف رجالاً ما رأيت مثل جمال وجوههم قط، فجاؤوا إليه فقال لهم (هؤلاء بناتي هنّ أطهر لكم) ويريد أن زوجاتهم وهن مثل بناته أحق شرعاً بهم، لأن النبي بمنزلة الأب، فأجابوه (لقد علمت مالنا في بناتك من حق وانك لتعلم ما نريد) إلاّ الذكور، فاستحقوا بقولهم وفعلهم عذاب الرجم، تمطر السماء عليهم حجارة من جهنم.

ويعرض القرآن الكريم صورة أخرى في الخروج على القيم الخلقية، والفساد الإجتماعي الذي يتمثل في الربح المادي الحرام، وبخس الناس حقوقهم، وتطفيفها لصالح فئة فاسدة في المجتمع لا تأبه لحاجات الناس وعوزهم، وهم أهل مدين، قرية قريبة من معان، وتطل على بحيرة قوم لوط، وكانوا كفّارا يقطعون سبيل المارة من الناس، فيهددونهم ويتوعدونهم إن لم يدفعوا لهم العشور (ضريبة المرور) وينقصون الكيل والميزان، وقد تصدّى لهم النبي شعيب (عليه السلام) وكان مفوّهاً ويدعى (خطيب الأنبياء) في دعوته إياهم الى الإيمان بالله، والاكتفاء ببقية الله، وهي الربح الذي يزيد على رأس المال، ونسبت لله لأنها الربح الحلال الذي باركه الله. وأما الربح الذي يأتي من نقص الميزان فهو حرام لا يجدي وإن كثر وزاد، وكان يحذّرهم من سوء العاقبة، ومما أصاب قوم نوح وهود وصالح ولوط وهذا الأخير قريب منهم زماناً ومكاناً، ولكنهم راحوا يسخرون منه، كيف يتركون ما يعبد آباؤهم، وكيف ينتهون من عمل يدرّ عليهم المال الوفير؟ وكان يتلطف معهم مظهراً لهم رغبته في الإصلاح قدر استطاعته، وكان جوابهم لا نفهم ما تقول. قال تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ

(١) هود ٧٧-٨٣.

ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِيٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴾. وقوله تعالى: ﴿ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَٰمِلٞۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٞ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٞۖ وَٱرْتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٞ ٩٣ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٖ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾.(١)

ونتبيّن من هذه الآيات ان العقاب لا ينزل على قوم إلاّ بعد استنفاد السبل والوسائل التي يبثها الرسول لقومه، وبأسلوب رقيق وحوار لطيف يدخل الى القلوب قبل العقول، وبعد أن يقرّوا بذنوبهم قولاً وفعلاً، فيتم استئصال الفساد قبل أن يستشري بين المجتمعات، لأنه يسري بين الناس كما يجري الماء في مجاريه، ولهذا نجد أن ((ليس بين الفضائل والرذائل، ولا بين الطاعات والمعاصي إلاّ نفار النفس وأنسها فقط، فالسعيد من أنست نفسه بالفضائل والطاعات، ونفرت من الرذائل والمعاصي، والشقي من أنست نفسه بالرذائل والمعاصي، ونفرت من الفضائل والطاعات، وليس ها هنا إلاّ صنع الله تعالى وحفظه)). (٢)

ومن الآفات الإجتماعية التي تؤدي الى الفرقة والتباعد الغيرة والحسد، إذ تؤدي هاتان الآفتان الى القيام بأفعال قد تؤذي الفرد، وتستجمع قلوب الآخرين ضده، ويتحول ذلك الى أذى بدني ونفسي ليس سهلاً إصلاحه. وقد وجدنا تلك الآفتين الغيرة والحسد في نفوس أخوة يوسف (عليه السلام) من أخيهم، وقد تعدّى الى الكيد به، لأن الشيطان قد وجد في هذه الثغرة منفذاً الى قلوبهم. قال تعالى:

﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبٗا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ٤ قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٥ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴾.(٣)

كان للنبي يعقوب (عليه السلام) اثنا عشر من البنين، وكان يوسف (عليه السلام) هو الذي اختاره الله تعالى للنبوة منهم، ومن العلامات على ذلك ان الله تعالى قد أراه في المنام أحد عشر كوكباً وهم أخوته، والشمس والقمر وهما يمثلان أبويه، يسجدون له، فهاله ذلك، فلما استيقظ قصّ رؤياه على أبيه، فعرف الأب أنه سينال المنزلة العالية في الدنيا والآخرة، وأمره بكتمانها عن أخوته كيلا يحسدوه، ويكيدوا له الحيل والمكر به، فإن كتمها يخصه الله

(١) هود ٨٤-٩٤.
(٢) ابن حزم: الاخلاق والسير في مداواة النفوس ١٨.
(٣) يوسف ٤-٦.

تعالى بأنواع من اللطف والرحمة، ويتم نعمته عليه بالوحي كما أوحى تعالى الى أبيه يعقوب وجديه إبراهيم وإسحاق.

ولكن أخوة يوسف (عليه السلام) وجدوا في محبة أبيهم له ولشقيقه بنيامين دافعاً لأن يحقدوا عليه، ويحسدوا مكانته لدى أبيه وهم عصبة، ويرون أنهم أحق بهذه المحبة، فتشاوروا على قتله أو إبعاده الى أرض لا يعود إليهم، وليخلو لهم وجه أبيهم، وتتوفر محبته لهم ثم يتوبوا بعدها، وجاءت لأحدهم فكرة وهي أن لا يقتلوه بل يلقوه في بئر حتى يلتقطه بعض الرحالة، ورأوا هذا الرأي هو أفضل من قتله وتحمّل إثمه. قال تعالى:

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾ إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴾.[1]

ويعرض القرآن الكريم صورة المرأة في جميع أطوارها على وفق فلسفة واحدة وهي أن المرأة مكملة للرجل، وان لكل منهما حقوقاً وواجبات تقتضيها طبيعة كل منهما، فلا يمكن أن يتعدى أحدهما على الآخر لهضم حقوقه، أو دفع واجباته، ويسود بينهما الإحترام المتبادل، والتقدير لدور كل منهما. كما في قوله تعالى:

﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُواْ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ وَسْـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾.[2] وقوله تعالى:

﴿ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴾.[3] أي كل واحد منهما له وظيفة يؤديها، لأن واقع الحال أنهما جنسان مختلفان كما في النبات والحيوان، وحتى الجماد ففي نواته إلكترونان سالب وموجب، وان هناك أشياء مشتركة تجمع النوعين، ويفسد هذا النظام حينما يسلب أحدهما حقوق الآخر وواجباته، فيحدث الفساد ويمتد الى جميع النظم الأخرى.

وتعتقد المرأة العقيدة التي تقنع بها، ويعتقد الرجل العقيدة التي يراها مناسبة له، ولا يمكن للرجل أن يفرض عقيدته على المرأة إن لم تقنع بها، وقد أوضح القرآن الكريم هذه المسألة في أقوى صورها، فالرسل الذين جاؤوا ليحملوا الناس على منهج الله تعالى فلم يستطع بعضهم أن يحملوا زوجاتهم أولاً على الإيمان به، وقد ضرب الله تعالى لذلك مثلاً

---

(١) يوسف ٧-١٠.
(٢) النساء ٣٢.
(٣) الليل ١-٢.

في قوله تعالى: ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴾.[(١)]

ومن البديهي أن الرسول يهدي أهل بيته قبل أن يهدي الناس الآخرين الى المنهج الحق، ولكننا على وفق هذا المبدأ أن الرسل لم يقصّروا في هداية زوجاتهم بالنصح والإرشاد الذي قد يفوق ما لغيرهن، لأن الرسل تبدأ رسالاتهم من بيوتهم أولاً، ويبدو أن هاتين المرأتين قد أغلقتا مسامعهما وانصرفتا كلياً عن السمع، وتعدتا الى الخيانة إذ وقفتا في صف الكافرين، وأعانتاهم على زوجيهما، فكانتا مثالاً سيئاً في الخيانة، وحطباً رديئاً لنار جهنم يوم القيامة.

ونجد في هذا الجانب من غير زوجات الأنبياء امرأة عزيز مصر التي راودت يوسف (عليه السلام) وهو في بيتها، وكانت في غاية الجمال والجاه والمال، فوسوس إليها الشيطان أن تغلق الأبواب على يوسف، وأن ترمي بنفسها إليه لتقضي وطرها، ولكن يوسف النبي سليل الأنبياء قد عصمه الله تعالى عن الوقوع في الفاحشة، وحماه من مكر النساء، فقال (معاذ الله انه ربي) أي سيّدي ويعني زوجها صاحب المنزل، فقد أحسن إليه وأكرم مقامه فكيف يخونه؟ قال تعالى:

﴿ وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾.[(٢)]

فضرب بذلك مثلاً في العفة والنزاهة والبعد عن الفاحشة، وقد اعترفت المرأة نفسها بعفته حينما لامتها نساء المدينة على شغفها بيوسف (عليه السلام) كما في قوله تعالى: ﴿ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴾.[(٣)] فكان تمسكها بالغواية والخيانة دعاها الى تسويغ سلوكها في المراودة، وطلبها فعل السوء، واعترافها بهذا الفعل دلالة على جرأتها دون خوف أو وجل، وتهديدها له إن امتنع عن تنفيذ ما تطلبه فإنه أما أن يسجن وأما أن يكون من العبيد الأذلاء المطيعين لأسيادهم، وتلك منتهى الوقاحة في مقابلة العفة بالخيانة.

ويقابل هذا السلوك الشائن سلوك آخر تبلغ فيه المرأة منتهى العقل والعفة، وهذه المرأة هي امرأة فرعون التي تتمتع بحرية في اعتقادها الذي يخالف إلوهية فرعون،

---

(١) التحريم ١٠.
(٢) يوسف ٢٣-٢٤.
(٣) يوسف ٣٢.

وإتباعها المنهج الحق وهو الإيمان بالله تعالى رب العالمين، فكانت مثالاً للمرأة المؤمنة التي وقفت بإصرار أمام الكفر والطغيان والاعتقادات الفاسدة. قال تعالى:

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.(١)

ومن الممكن أن نسأل كيف وقفت هذه المرأة في وجه فرعون؟ وهل وقفت بالمداراة أم بالكتمان، ولمَ لمْ تتأثر باعتقاده الفاسد، ولم يستطع أن يجبرها على معتقده؟ إن هذا الأمر يعود الى قوة إرادتها، فقد علمت بعقلها الراجح ان هذا الإنسان الذي يأكل ويشرب وينام ويمرض لا يمكن أن يكون إلهاً، وان ادعاءه الفاسد لا يمكن أن يؤثر فيها قيد أنملة، وإن الإله الحق هو الله الخالق، وهو المدبّر، وهو القادر على كل شيء.

ويضرب الله مثلاً عن المرأة الطاهرة مريم ابنة عمران (عليها السلام) وقد أحصنت شرفها، فوهبها الله تعالى غلاماً زكياً. قال تعالى:

﴿ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ ۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾.(٢)

ولنتأمل العفة والحياء اللتين تشعان من وجه مريم (عليها السلام) فقد اتخذت حجاباً بينها وبين الرجال الذين يدخلون الى مكان العبادة، وقد يكون الحجاب ستراً أو لباساً يمنع النظر اليها صيانة لشرفها، ولما تمثل الملك جبريل (عليه السلام) بشراً صحيحاً، استعاذت بالله منه، فهو في نظرها رجل غريب يدخل الى معتكفها القصي عن الرجال، وكيف يجرؤ على اختراق حصنها المنيع، فأخبرها أنه رسول من الله ليهب لها غلاماً طاهراً، فعجبت كيف تحمل دون زوج، ولم يمسها رجل، ولم تكن امرأة من البغايا، فكان جوابه إن هذا الفعل هيّن على الله تعالى، وعندما جاءها المخاض كان القلق يساورها كيف تقنع أهلها بحملها وطفلها الذي جاء من غير زوج معروف، فتمنت الموت قبل أن تحين ساعة الولادة، أو لم تخلق أبداً، لأنها تعلم أن الناس لن تصدقها، وإنهم سيتهمونها بالزنا حين تأتي والغلام بيدها وحاشاها.

---

(١) التحريم ١١.
(٢) مريم ٧٦-٨٢.

ونجد في ملكة سبأ الرأي السديد، فقد عرفت بلقيس كيف تحكم قومها بالرأي والمشورة، دون أن تفطن الى النقص في عبادتها للشمس دون خالقها، فتنبه لذلك الهدهد الطائر الصغير، وأخبر النبي سليمان (عليه السلام) عن هذه الملكة وقومها وديانتهم وعرشها الفخم، فأراد أن يختبر صدقه أرسل معه كتاباً يلقيه عليهم يدعوهم الى الإسلام، وأن ينتظر ليعرف ماذا يفعلون، دعت الملكة قومها الى مجلسها للمشاورة في هذا الكتاب الذي جاءها من سليمان (عليه السلام) وإنها لن تقطع أمرا دون معرفة آرائهم، فتكلم أحدهم وقال نحن أصحاب قوة وبأس شديد في القتال، ولكن الأمر إليك ماذا تأمرين، ففكرت بحكمة وعلمت أن صاحب الكتاب لم يخادع في قوله، ولم يتردد في أمره، وحين تكون الغلبة للملوك فإن السطوة والبطش يقعان على المغلوبين، فتلحق قراهم الفساد والدمار والخراب، لذا لجأت الى التعقل والاستجابة لتنقذ بلادها وقومها من البوار. قال تعالى: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ (٢٠) لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ (٢١) فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (٢٢) إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣) وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ (٢٤) أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (٢٥) ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ (٢٦) ۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ (٢٧) ٱذْهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ (٢٨) قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّيٓ أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ (٢٩) إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ (٣٠) أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣١) قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِي فِيٓ أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ (٣٢) قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ (٣٣) قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾.(١)

إن ما يثير العجب أن هذا الطائر الصغير استطاع بفترة زمنية قصيرة أن يصف نظام مملكة وصفاً كاملاً ودقيقاً، فقد وصف قوة شخصية الملكة، وبين إن تلك القوة جاءت من مشورتها لعقلاء قومها، ووصف أبهتها من فخامة عرشها، ولاحظ ديانتهم الفاسدة بسبب عبادتهم الشمس دون الله الخالق، وعلل التعارض بين حسن الإدارة وسوء العبادة بسبب طاعتهم للشيطان الذي أغواهم وأعماهم عن رؤية الحق، وكانت تلك الإحاطة إرادة من الله تعالى، ودافعاً لأن يدعوهم النبي سليمان (عليه السلام) الى عبادة الله الواحد القهار.

---

(١) النمل ٢٠-٣٤.

وأعطى الإسلام للمرأة دوراً هاماً في إصلاح المجتمع، فلم تكن سكناً للرجل وحاضنة لأولاده فحسب، بل مهمتها سامية تقوم على تربية أبنائها، وإذا كان الرجل قصارى عمله في مزرعته، أو مصنعه لإنتاج الأدوات، فإن المرأة جل عملها صنع كيان الإنسان، وهو أكرم مخلوق، وبصبرها وحنانها تصل به الى مرتبة النضج والوعي. وكانت نساء النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) وبناته القدوة الحسنة للنساء المسلمات، فقد تربين التربية الصالحة، ونشأن في بيت النبوة، وتلقين التوجيه والإرشاد من الله تعالى، فكان الخطاب الإلهي يوجّه إليهن مباشرة، لصيانتهن من القول البذيء والبهتان الذي يمسهن، فيأتي الأمر من الله تعالى بإسدال أثوابهن الى الأرض.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾.(١)

ولم يفارق التوجيه الإلهي نساء النبي، لأنهن أمهات المؤمنين، ولا يتم ذلك إلاّ بتطهيرهن من الرجس أو الآثام والذنوب التي تشينهن، ويتم ذلك من خلال المكاشفة وقبول الأمر بالرضى وليس بالفرض دون إرادتهن، فكان الخطاب الإلهي لهن صريحاً وواضحاً، والله يعلم أن الرضى يملأ قلوبهن، ويطغى على ذاتهن، ولكن لا بد من عرض الأمر ليكون حجة على المتلقي، وكان الاختيار معروضاً بين قبول الدنيا وزينتها، ويقابله السراح الجميل أو الطلاق المرضي، وبين قبول الآخرة ويقابله البقاء والأجر العظيم، والاختيار الثاني وهو عقاب الفاحشة لنساء النبي غير عقاب النساء الأخريات، فهو عقاب مضاعف، ويقابله أجرهن في الآخرة مضاعف أيضاً، وهذه خصيصة امتازت بها نساء النبي دون غيرهن من النساء، لأنهن لسن كأحد من النساء، فينبغي أن لا تلين قلوبهن لكلام الرجال، ولا يتصنعن الحديث ليسمعهن أحد، لأن الذي في قلبه مرض يتصيّد ذلك مما يؤذي رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وأن يمكثن في بيوتهن ولا يخرجن إلاّ لحاجة، ولا يتبرجن في إظهار محاسن الزينة كما في الجاهلية. ويقابل ذلك إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وطاعة الله ورسوله، فهنّ أهل بيت النبي، ثم يبيّن الله سبحانه وتعالى أسباب هذه الأوامر والنواهي ليذهب الرجس أو الآثام عن زوجاته أهل بيته ويطهرهن من كل الذنوب والآثام. قال تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ ۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ

(١) الاحزاب ٥٩.

مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ
وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ
تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا
خَبِيرًا ﴾.[1]

ويصف الله تعالى المؤمن الذي تجتمع فيه العبادة والأخلاق، إذ يجد أن العبادة وحدها لا تؤدي الى صنع مؤمن متكامل ما لم تجتمع معها الأخلاق الحسنة، فالخشوع في الصلاة، وإيتاء الزكاة، والدوام على الصلاة، يقابلها الابتعاد عن اللغو، ومراعاة الأمانة والعهد، والحفاظ على الشرف، فهؤلاء هم المؤمنون حقاً، يرثون الفردوس الأعلى من الجنة. قال تعالى:

﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾
وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ
أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ
وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ
ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾.[2]

وتتوالى بعد ذلك الصفات الحسنة التي يتصف بها عباد الله المؤمنون، وتتجلى أوصافهم في مشيتهم الوئيدة على الأرض بسكينة ووقار، وإذا خاطبهم السفهاء قالوا سلاماً للمفارقة والترك لا للتحية والاستقبال، ويبيتون ليلهم قائمين بالصلاة، ويرفعون أيديهم بالدعاء ليصرف عنهم عذاب جهنم، وهم لا يسرفون ولا يبخلون فكانوا بين ذلك وسطاً، وهم لا يشركون بالله تعالى، ولا يقومون بكبائر الذنوب كالقتل والزنى وغيرها من المحرمات. قال تعالى:

﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾
وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۖ إِنَّ
عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟

---

(١) الاحزاب ٢٨-٣٤.
(٢) المؤمنون ١-١١.

﴿ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴾. [1]

وتزخر الآيات بالصفات الحسنة والفضائل الخلقية التي ينبغي أن يتحلى بها المؤمن وهي: عدم الشرك بالله لئلا يكون الإنسان محتقراً وذليلا، والإحسان بالوالدين فلا ينهرا ولا يزجرا وإنما يقال لهما قولاً لطيفاً، ويظهر لهما اللين والحنان والدعاء بالرحمة، لأن الله تعالى أعلم بخفايا النفس، فإن كان من الصالحين فإنه للتائبين غفورا، وأن يعطي ذا القربى حقه من الزكاة والصدقات، والمسكين الغريب المنقطع عن بلده، والفقير المحتاج، وأن لا يبذر أمواله تبذيرا، إن المبذرين أتباع الشياطين، وكان الشيطان لنعم ربه جاحداً وناكرا. وإن تعرض عن إعطائهم فقل لهم قولا كريماً، ولا يمنع يده من العطاء ولا يطلقها الى أبعد حد فيقعد ملوماً من الناس ونفسه، فتملأه الحسرات على نفادها، وإن الله هو الذي يرزق عباده وفق خبرته وبصيرته بهم، والمؤمن لا يقتل أولاده خوف الفقر لأن الله تعالى يرزقهم ويرزقه، لأن قتلهم خطيئة كبيرة، ولا يقرب الزنى لئلا يقع فيه فهو طريق للفساد الاجتماعي، ولا يقتل النفس التي حرمها الله إلاّ بالحق أي في حالة القصاص، ويمنع عند دفع الديّة، وأن لا يقتل غير القاتل إسرافاً في القتل كما تفعل الجاهلية. ولا يقرب مال اليتيم فيأكل منه، إلاّ لحاجة أو لزيادته بالعمل، حتى يبلغ سن الرشد، ويوفي بالعهد لأن صاحبه مسؤول عنه يوم القيامة، والإيفاء بالكيل والعدل في الميزان اللذين لا جور فيهما، فهما أحسن مالا وعاقبة، ولا يتبع الظن فيما ليس له به علم، لأن شواهد اليقين السمع والبصر والفؤاد لتصديقه، وينبغي ترك التبختر بطراً فأنه لن يستطيع أن يخرق الأرض عمقاً، ولن يبلغ بطوله الجبال، وكل هذه السيئات ينهى الله عنها كراهة لها. قال تعالى:

﴿ لَّا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ
وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا
قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ
أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ
وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ ۖ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا
تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا
تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا
بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا

(١) الفرقان ٦٣-٦٨.

ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ
جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّي ٱلْقَتْلِۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ
حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥۚ وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِۚ
ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ
مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًاۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ
سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴾.[1]

ب- السور المدنية:

تهدف السور المدنية إلى مخاطبة العقل والعاطفة معاً، وتستخدم أساليب متنوعة لإيصال الفكرة، وهذا التنوع يأتي من تنوع العقلية المدنية تبعاً لتعدد المخاطبين أو المتلقين للخطاب الإلهي، فمن المخاطبين في المجتمع المدني الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) والمؤمنون والكفّار، والمنافقون، وأهل الكتاب. وقد تميز الخطاب بخصائص معينة، وهي كما يأتي:

١- مسؤولية المؤمنين في الإسلام:

المؤمن من آمن بالله وحده لا شريك له، وآمن بملائكته ورسله وكتبه واليوم الآخر وقضائه وقدره، ويجب أن يعلم المؤمن أن الله تعالى يريده أن يكون فاعلاً في الحياة، ذا نفع لنفسه ولغيره، فإن عمل أي عمل عليه أن يتقي الله فيه فيتقنه، لأن الإتقان مطلوب فيه لله أولاً ولمن يقدم اليه العمل ثانياً، وإن وقع فيه نقص أو خلل فإن الله تعالى يدرك كل شيء، ولذلك فإن عمل المؤمن موصول بالله دائماً، وإن الله تعالى يقدر الجزاء.

وحين يوجّه المؤمن حركته نحو فعل الخير سيجد العون والتأييد من الله تعالى كما في قوله تعالى: ((يد الله فوق أيديهم)). ومن ينظر في السور المدنية يجد أن الخطاب الإلهي موجه الى المؤمنين مباشرة (يا أيها الذين آمنوا...) فحدد بذلك مسار المؤمن، وحدد مسؤوليته تجاه نفسه ومسؤوليته تجاه من حوله.

وموقف المؤمن يتحدد تجاه نفسه بطاعة الله تعالى ورسوله، والعمل بكل ما يصدر عن الله من أوامر ونواهي، لأنها نزلت لتهذيبه، وتعديل مسيرته في الحياة، وتوجيهه نحو الأفضل ليكون قدوة صالحة في المجتمع، فمن ذلك مثلاً صفة القسط أو العدل التي ينبغي للمؤمنين أن يتصفوا بها حقاً، لأنهم شهداء لله بالحق في كل زمان ومكان، ولو على أنفسهم

---

(١) الاسراء ٢٢-٣٨.

أو على الوالدين والأقربين، إن يكونوا أغنياء أو فقراء، وترك المحاباة فيهم، لأن اتّباع هوى النفس يميل به عن صفة العدل، وإن الميل أو الإعراض عنها يعلمه الله. قال تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾.(١)

وينهى الله تعالى المؤمنين عن السؤال في أمور غيبية لا يعلمها إلاّ الله، أو في أمور لم تنزل فيها الآيات بعد، وحين تنزل فيها الآيات تكن معلومة، فمثلاً من الأسئلة التي سبقت نزول الآيات هل آباء المؤمنين الذين توفوا قبل الإسلام في الجنة أم في النار؟ وهل فلان كذا أم كذا؟ ومثل هذه الأسئلة والأجوبة عنها قد تؤذي المؤمنين، وقد تشغل تفكيرهم عن أعمالهم ودعوتهم الى الله. قال تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾.(٢)

ومن التوجيهات الإلهية التي تحصّن المؤمن من الظن به، أو الطعن في عفته وشرفه، وصيانته من القول الزور والبهتان وهو النهي عن الدخول الى بيوت غير بيته بقصد الزيارة، أو العيادة، أو أي غرض آخر حتى يستأذن من أهلها، ويسلّم عليهم فيدخل مرحّباً به، ومن دخلها خفية أو دون استئذان فإنه تجاوز أمر الله تعالى، ويتحمل تبعات ذلك. قال تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾.(٣)

ويشمل هذا النهي أيضاً الدخول الى بيوت النبي (صلى الله عليه وسلم) إلاّ بعد أن يؤذن لهم الى طعام، وهذه الدعوة ينبغي عدم التعجيل في الحضور قبل موعدها، فلا يمكن للمؤمن أن يدخل والطعام لم ينضج بعد منتظراً نضوجه، مما يدعو ذلك الانتظار الى الحديث والتضييق على أهل بيت النبي(صلى الله عليه وسلم) من الحركة لأداء أعمالهن، ولكن الدعوة الصحيحة تأتي مع إتمام الطعام ثم تناوله والانتشار بعده، غير مستأنسين لحديث يطول بعد الطعام مما يؤذي النبي (صلى الله عليه وسلم) وهو يستحي أن يطلب الانصراف منهم، والله تعالى لا يستحي من قول الحق. وكذلك إذا طلب المؤمن حاجة ينتفع بها من أمهات المؤمنين فليكن كلامه من وراء حجاب، ذلك أكثر صيانة وأطهر للقلوب،

---

(١) النساء ١٣٥.
(٢) المائدة ١٠١.
(٣) النور ٢٧.

ودفعاً لكلام الزور الذي يؤذي رسول الله، وكذلك حرّم نكاح أزواج النبي (صلى الله عليه وسلم) من بعده، لأنهن أمهات المؤمنين، وهذا الأمر عند الله عظيم. قال تعالى:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَـٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَـٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴾[1]

وفي سورة (الحجرات) نجد جملة من الأوامر والنواهي الموجّهة للمؤمن، وكأن هذه السورة نزلت لهذا الغرض، فالحجرات تعني الحواجز والموانع من الجدر والأبواب، ويجري الحديث من ورائها، ومن هذه الأوامر أن لا يقطع المؤمن أمراً ويجزم فيه دون التثبّت منه، وكان بعض المؤمنين يجزمون في أمور أمام رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بغير إذنه وقبل أن يحكم فيها، تتضح بعدها خلاف ما يجزمون، فيندمون على ذلك التسرّع دون برهان أو يقين، ويأتي اليقين من خلال الوحي. قال تعالى:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾.[2]

ومن الأخلاق والأدب خفض الصوت أمام الكبير احتراماً لكبره أو لمقامه، والاحترام هنا ليس لهذا المخاطب فحسب بل للمتكلم لأنه من خلال خفضه الصوت فكأنه يحترم ذاته، وكان بعض المؤمنين من الأعراب يرفعون أصواتهم عالياً في الحديث أمام رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ويجهرون له في تفاصيل الحديث الذي يقتضي الخفض، وكان الجهر دون قصد لأنهم اعتادوا مثل هذا الأسلوب في الكلام مع بعضهم، والخشية هنا أن تبطل أعمالهم وتذهب سدى. والذين يخفضون أصواتهم عند رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقد اختبر الله تعالى قلوبهم فوجدها خالصة، فطهرها وصفّاها لتظهر منهم التقوى. والذين ينادون الرسول (صلى الله عليه وسلم) بصوت عال من وراء حجرات زوجاته فإنهم لا يعرفون حسن الأدب، ولو انتظروا حتى يخرج الرسول اليهم لكان ذلك خيراً لهم. قال تعالى:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَـٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ

---

(١) الاحزاب ٥٣

(٢) الحجرات ١.

ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ ۝٣ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلۡحُجُرَٰتِ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ۝٤ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخۡرُجَ إِلَيۡهِمۡ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾.[(١)]

ومن الأمور التي ينهى عنها الله تعالى النجوى أو الحديث الخفي بين اثنين وثالثهم يرى ولا يسمع شيئاً، والله تعالى يسمع ويرى ما يدور بينهما من حديث. وكان المنافقون حين يمر بهم أحد المؤمنين يتصنعون حديثاً سريّاً بكلام خفي مما يوهم المؤمن أن هذا الحديث يخصه في دينه أو خلقه أو عرضه فيؤذيه، وجاء الخطاب الإلهي بمنع هذه النجوى، وإذا كانت فلتكن المناجاة بالبر والتقوى، لأن النجوى من الشيطان الذي يريد للمؤمن أن يحزن وينشغل عن عبادة الله. قال تعالى:

﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ وَلَا خَمۡسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمۡ وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمۡ أَيۡنَ مَا كَانُواْۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ۝٧ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُواْ عَنِ ٱلنَّجۡوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ وَيَتَنَٰجَوۡنَ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوۡكَ بِمَا لَمۡ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ لَوۡلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُۚ حَسۡبُهُمۡ جَهَنَّمُ يَصۡلَوۡنَهَاۖ فَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ۝٨ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيۡتُمۡ فَلَا تَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ۝٩ إِنَّمَا ٱلنَّجۡوَىٰ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ لِيَحۡزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيۡسَ بِضَآرِّهِمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾.[(٢)]

وتنتقل سورة المجادلة الى قضية أخرى وهي التوسعة في المجالس، فإن أكثر المسلمين يرغبون في الجلوس حول رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أو بالقرب منه، فيزدحمون حوله مما لا يعطون مجالاً لأهل العلم والحفظ، وطريقاً للسائل ممن يريد مخاطبته، فجعل الله تعالى التوسعة وهي أن تنهض قليلاً لتفسح المجال لآخر في الجلوس، والأمر هنا يعني الانتشار في الفراغات، وترك الجلوس العشوائي الذي يؤدي إلى خلق فراغات لا تكفي لجلوس الفرد، وقد جعل الله تعالى التوسعة أمراً يدل على التقوى والخلق الرصين. قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴾[(٣)]
فلفظ انشزوا أي انهضوا لفسح مكان للآخرين.

---

(١) الحجرات ٢-٥.
(٢) المجادلة ٧-١٠.
(٣) المجادلة ١١.

أما مسؤولية المؤمن تجاه من حوله كالمنافقين مثلاً، فإن الله تعالى يحذّره من اتخاذ جماعة منهم يختص بهم فيستبطنهم أمره، ويثق بمودّتهم، ويفضي إليهم بأسراره، ولم يتخذ من المؤمنين الآخرين صحبة مثل صحبتهم، وهؤلاء المنافقون لا يقصّرون في جلب الخبال والفساد الى دينكم، وقد أحبوا مشقتكم الشديدة، ولا يستطيعون أن يكتموا البغضاء مما خفي في صدورهم وهو أكبر من ذلك، وقد بيّن الله تعالى تلك العلامات للمؤمن حتى يعقلها. والموازنة بين المؤمن والمنافق مختلفة، فالمؤمن المصادق لهم يحبهم وهم لا يحبونه، والمؤمن يؤمن بالكتب السماوية المنزلة، والمنافق لا يؤمن بالكتب كلها ومنها القرآن الكريم، وإذا التقى المنافق بالمؤمن عضّ عليه أنامل أصابعه من شدة غيظه، فإن أصابت المؤمن حسنة ساءتهم، وإن أصابته سيئة يفرحون لذلك، وعليه أن يصبر ويتقي الله، فلن يضرّه كيدهم وتدبيرهم السوء، لأن الله تعالى يعلم بهم. قال تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمۡ لَا يَأۡلُونَكُمۡ خَبَالٗا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمۡ قَدۡ بَدَتِ ٱلۡبَغۡضَآءُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَمَا تُخۡفِي صُدُورُهُمۡ أَكۡبَرُۚ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَٰٓأَنتُمۡ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمۡ وَلَا يُحِبُّونَكُمۡ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ عَضُّواْ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَنَامِلَ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۚ قُلۡ مُوتُواْ بِغَيۡظِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمۡسَسۡكُمۡ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡ وَإِن تُصِبۡكُمۡ سَيِّئَةٞ يَفۡرَحُواْ بِهَاۖ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔاۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ﴾.[(١)]

ويتناول القرآن الكريم موقف المؤمن من موالاة الآباء والإخوان أو غيرهم من الكفار والاطمئنان إليهم، واتخاذهم أولياء يرجعون إليهم في كل أمر، فإن هؤلاء أحبوا الكفر وآثروه على الإيمان، وأقاموا عليه، فلا يمكن أن يخلصوا لمن يواليهم وإن كان ابناً أو أخاً، ويأتي الخطاب الإلهي صريحاً أن هؤلاء أعداء الله وأعداؤكم لا تتخذوهم أولياء توادّوهم وتطلبون النصح منهم، وتجعلون بين أيديهم أسراركم، وقد كفروا بما جاءكم من الحق، فأخرجوكم من دياركم، وقد خرجتم جهاداً في سبيل الله، وها أنتم تسرّون إليهم أخبار النبي (صلى الله عليه وسلم) والله أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم، فإن يظفروا بكم يأسروكم ويمدّوا أيديهم إليكم بالأذى، وألسنتهم بالسوء والبذاءة، ويودّون لو أنكم تعودون كافرين مثلهم. قال تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾.[(٢)] وقوله تعالى:

---

(١) آل عمران ١١٨-١٢٠.
(٢) التوبة ٢٣.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ۙ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَـٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴾. (١)

أما موقف المؤمن من أهل الكتاب (اليهود) فإنه ينطوي على أخذ الحيطة والحذر مما يقولون، وكان جماعة مالفصل أول من اليهود حين يمر بهم النبي (صلى الله عليه وسلم) يقولون له: (السام عليك يا أبا القاسم) يوهمون أنهم يريدون السلام عليك، وهم إنما يريدون السام وهو الموت بلغتهم، والنبي يعلم ذلك، فيقول (وعليكم). ولذلك ينهى الله تعالى المؤمنين أن يقولوا للنبي (صلى الله عليه وسلم) راعنا أي أنظرنا وترفق بنا حتى نتمكن من حفظ ما نسمعه منك من الوحي، فيستغل خبثاء اليهود هذا اللفظ (راعنا) فيرددونه أمام النبي، وهم يريدون به معنى قبيحاً في لغتهم، ففي العبرية (راعي) معناها شرير، وإذا أضيفت الى ضمير المتكلمين (راعينو) أي شريرنا، وكان هذا اللفظ يوافق في الظاهر اللفظ العربي الرعاية. قال تعالى:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُواْ ۗ وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾.(٢)ويأتي التحذير أيضاً من إطاعة اليهود والامتثال لما يريدون بالمسلم كذباً فائدة ظاهرة وباطنها شر يصيبه، أو أذى يلحق به، أو رغبة قوية تعيده الى الكفر والشرك بالله بعد الإيمان. قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ كَـٰفِرِينَ ﴾. (٣)

ويتكرر التحذير من اليهود والنصارى واتخاذهم أولياء وأخلاّء يسرّون إليهم بالمودّة، ويطلعونهم على أسرار دولتهم، فينقلونها هؤلاء الى كفار قريش الذين يعدّون عدّتهم لمحاربة الإسلام، والاستفادة من هذه المعلومات، فيوظفونها في القتال، ومن يتولى أهل الكتاب بعد هذا التحذير فهو منهم، أي لا يختلف عنهم. قال تعالى:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾. (٤)

---

(١) الممتحنة ١-٢.
(٢) البقرة ١٠٤.
(٣) آل عمران ١٠٠.
(٤) المائدة ٥١.

وفي السورة نفسها يبيّن القرآن الكريم أن هؤلاء الأولياء من أهل الكتاب والكفار قد اتخذوا دين الإسلام سخرية وهزواً ولعباً، لأنهم يريدون هدمه، ولاسيما أن هؤلاء قد غضب الله عليهم لأنهم يئسوا من الفلاح في الآخرة، كما يئس الكفار من إعادة الموتى الى الحياة الدنيا، ولذلك يوصي الله تعالى بتقواه في هذه الموالاة. قال تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾. [1]وقوله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُواْ مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴾. [2]

٢- موقف الكفار والمشركين من الإسلام:

الكافر في أصل اللغة من كفر يكفر فهو كافر وكفّار، والجمع كافرون وكُفّار وكفرة، والكافر: الزارع لأنه يكفر أو يغطي البذر بالتراب، كما في قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا .. ﴾. [3]والكافر: جاحد النعمة لأنه يسترها، كما في قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴾[4] أي جاحدون. وليل كافر أي ليل مظلم، لأنه يستر بظلمته كل شيء، والكافر الذي يغطي على وجود الله تعالى أو يجحد نعمته الظاهرة.

وكان العرب قبل الإسلام يعبدون الأصنام والأوثان، ومع تعدد آلهتهم يقرون بوجود الخالق سبحانه وتعالى، فهو خالق الكون، والمحيي والمميت، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ [5]﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾[6] ولكنهم اتخذوا الأصنام الأصنام والأوثان وسائط تقرّبهم الى الله زلفى، وهم بهذا الاعتقاد يمكننا أن نعدهم مشركين، كما في قوله تعالى: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾[7] أي ما يوحّدون الله تعالى

---

(١) المائدة ٥٧.
(٢) الممتحنة ١٣.
(٣) الحديد ٢٠.
(٤) القصص ٤٨.
(٥) لقمان ٢٥ والزمر ٣٨.
(٦) الزخرف ٨٧.
(٧) يوسف ١٠٦.

إلاّ وجعلوا له شريكاً من خلقه، وأما إطلاق تسمية الكفار عليهم كما ورد في القرآن الكريم من باب إطلاق صفة العموم، فالمشرك هو كافر أيضاً، أو جاحد لنعم الله تعالى وفضله.

لقد وجد كفار قريش في الدعوة الى الإسلام خطراً على كل معتقداتهم ونظام حياتهم ((وجدوها ثورة على الظلم الاجتماعي، والتخلف العقلي، وهدماً لكل ما ورثوه من تقديس لآلهتهم، وتعظيم لأصنامهم. وكان من الممكن أن يترك محمد وصحبه لو اقتصر أمرهم على أنفسهم. فقد شاع من قبل بزوغ الإسلام التحنّف والحنفاء الذين هجروا الشرك، وراحوا يبحثون عن الدين الحق، فمنهم من تنصّر ومنهم من بقي حائراً الى أن أدركه الإسلام، ومع ذلك لم يلحق هؤلاء الحنفاء أذى، ولم يقربهم أحد بسوء، وانطلقوا يتعبّدون كما يشاؤون دون خوف أو تضييق أو تنكيل أو تعذيب أو تشريد، لكن القرآن كان غير ذلك، لقد اختطفت أنواره القلوب وسيطرت على الأرواح)). (١)

أرادت قريش أن تعالج هذه المشكلة التي نشأت في ديارها موطن الحج، وهي قيام الرسول (صلى الله عليه وسلم) بدعوة الناس كافة الى الإيمان بالله وحده، وإيقاف هذه الدعوة والقضاء عليها بوسائل عدة منها:

أ- السخرية والاستهزاء:

والقصد من تلك السخرية تخذيل الرسول (صلى الله عليه وسلم) والمسلمين، وتوهين قواهم المعنوية، فكانوا يتهمونه بأنه شاعر أو كاهن أو ساحر أو مجنون، وغير ذلك من التهم، وكانوا يسخرون من ضعفاء المسلمين، فيقولون: جاء ملوك الأرض، ويكيلون لهم السباب والشتائم. كما في قوله تعالى:

﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ ۗ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾. (٢)

ب- منع الاستماع الى النبي (صلى الله عليه وسلم):

قرر كفار قريش أن يثيروا الضوضاء ويطردوا الناس كلما رأوا النبي (صلى الله عليه وسلم) يقوم بالدعوة الى الله تعالى، وأن لا يتركوا فرصة واحدة يستمع فيها الناس إليه، ويتأثروا بقراءة القرآن في صلاته، أو أكثر ما يتلوه آناء الليل وأطراف النهار. قال تعالى:

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾. (٣)

---

(١) د. عبد الفتاح عاشور: منهج القران في تربية المجتمع ٦٢٩-٦٣٠.
(٢) الرعد ٣٢-٣٣.
(٣) فصلت ٢٦.

وكان المشركون يحذرون من يدخل الى مكة من الاستماع الى النبي (صلى الله عليه وسلم) وكان من جملة الداخلين الطفيل بن عمرو الدوسي، ((وكان رجلاً شريفاً لبيباً، فمشت إليه قريش تحذره محمداً، وأن قوله كالسحر يفرّق بين المرء وأهله، بل بين المرء ونفسه، وأتهم يخشون عليه وعلى قومه مثل ما أصابهم بمكة... وذهب الطفيل يوماً الى الكعبة وكان محمد هناك، فسمع بعض قوله فإذا هو قول حسن، فقال في نفسه: (واثكل أمي والله أني لرجل لبيب شاعر ما يُخفى عليّ الحسن من القبيح، فما يمنعني أن أسمع من هذا الرجل ما يقول، فإن كان حسناً قبلته، وإن كان قبيحاً تركته) وأتبع محمداً الى بيته أظهره على أمره، وما دار بنفسه، فعرض محمد عليه الإسلام، وتلا عليه القرآن، فأسلم وشهد شهادة الحق، ورجع الى قومه يدعوهم الى الإسلام، فلبى بعضهم وأبطأ بعض، وما زال الطفيل بهم يدعوهم سنين متعاقبة حتى أسلم أكثرهم، وانضموا الى النبي بعد فتح مكة)). (١)

جـ- إثارة الشبهات والأكاذيب:

وقد أكثر الكفار من الأكاذيب التي تقول إنّ القرآن الكريم أظغاث أحلام يراها محمد(صلى الله عليه وسلم) أو أساطير الأولين أختلقها هو وأصحابه لينشغل الناس بها، قال تعالى:

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾. (٢)

وكانت حجج كفار قريش إذا قيل لهم اتّبعوا ما أنزل وهو الإيمان بالله ورسله وكتبه، قالوا نتبع ما وجدنا عليه آباءنا من عبادة الأصنام والأوثان، حتى وإن كان آباؤهم لا يعقلون أساس عقيدتهم وضلالهم، فشبههم الله تعالى بالغراب الذي ينعق فيردد دعاء ونداء، أما معنى الكلام ومضمونه لا يفهمونه، فهم صُم بُكم عُمي فكيف يفهمون. قال تعالى:

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾. (٣)

والحجة الثانية إنكار البعث بعد الموت، فلم يكن عندهم إلاّ التعجب والاستغراب، كيف يعاد الى الحياة من صار عظاماً وتراباً. قال تعالى:

---

(١) محمد حسنين هيكل: حياة محمد ١٧٢.
(٢) الانفال ٣٠-٣١.
(٣) البقرة ١٧٠.

﴿ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾.[1]

ولما فشل المشركون من قريش في إغراء النبي (صلى الله تعالى وسلم) بالمال والجاه والمنصب إن ترك هذا الدين ودعوته، فكروا في المساومات منها: أن يعبد آلهتهم سنة، ويعبدون إلهه سنة، فنزلت سورة (الكافرون)، ومنها آتِ بقرآن غير هذا أو بدّله، ومنها طرد الفقراء من المؤمنين، وغير ذلك من التنازلات، وكان آخرها التفريق بين الله ورسوله، أي يظهرون الإيمان بالله ويكفرون برسله، وهو خلاف ما أمرهم الله به، أي أنهم يتخذون طريقاً وسطاً بين الإثنين، وهي عبادة جزئية، وكما نعلم أن قريش تؤمن بوجود الله أصلاً، ولكنها تشرك به، وقد كان كذلك رسوله محمد (صلى الله عليه وسلم) والرسل من قبل، وهذا الأمر كفر واضح وعذابه مهين لهم. قال تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾.[2]

د- استعجال بالعذاب والعقاب:

أوعد النبي (صلى الله عليه وسلم) المشركين بعذاب الله إن استمروا على عنادهم، فلما أبطأ العذاب طفقوا يستعجلون به على سبيل السخرية، وتظاهروا إن هذا الوعيد لا يؤثر فيهم، قال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾.[3] ويبلغ تحدّيهم واستعجالهم بالعذاب حدّاً كبيراً، لولا أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) فيهم، ولولا المتقين المستغفرين بينهم لعذبهم الله تعالى في الدنيا. وكيف لا يعذبهم الله وهم يصدّون المؤمنين عن المسجد الحرام، وما كانت صلاتهم فيه إلاّ صفيراً وتصفيقاً قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ

---

(١) الرعد ٥.
(٢) النساء ١٥٠-١٥١.
(٣) الحج ٤٧.

مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾. [١]

هـ- طلب المعجزات:

ولم يتوقف المشركون من قريش عن طلب الآيات تعجيزاً وعناداً، فاقترحوا على النبي(صلى الله عليه وسلم) أن يجعل لهم الصفا ذهباً، أو يسيّر الجبال عن مكة، أو يُجري في أرضهم الأنهار، أو يبعث من مضى من الآباء، وأبدوا رغبتهم في الإسلام إذا أتى بتلك المعجزات، فكان جوابه أن الأنبياء ليس لهم القدرة على إحداث المعجزات لأنهم رسل بشر يوحى إليهم، وإنما هي إرادة الله تعالى شاء أظهرها أو شاء أخّرها، وبحسب سنّة الله أن القوم إذا طلبوا معجزة ينبغي أن يؤمنوا بها، وإن لم يؤمنوا أنزل عليهم الهلاك، وهذه السنّة لا تتبدل ولا تتغير، وقد علم أن معظم قريش سيؤمنون فيما بعد، ولذلك لم يأت بما طلبوه. قال تعالى:

﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾. [٢]

د- الموقف الأخير من المشركين:

ولم تنقطع المناوشات بين الفئتين المؤمنة والمشركة ((وكانت العداوة سافرة بين المسلمين ومشركي قريش، لا يكتمها المشركون ولا يوارون فيها، ولا يخفون أنهم عقدوا النية على الإيقاع بمحمد وأصحابه، وفض العرب من حوله، وإيذاء كل من يدخل منهم في دينه، فلم تكن بين المسلمين والمشركين حالة غير حالة الحرب إلاّ في أيام صلح الحديبية، ثم عادت الحرب سجالاً بين الفريقين حتى تم فتح مكة)). [٣]

وقد تحققت الرؤيا التي أراها الله تعالى لرسوله (صلى الله عليه وسلم) بفتح مكة، فقد ارتفعت رايات الإيمان وهي تكبّر (الله أكبر) في العام الثامن للهجرة لتحطم الأصنام والأوثان، وتقضي على الكفر والشرك في بيت الله الحرام، وتعلن القبائل العربية انضواءها تحت راية الإسلام.

وفي موسم الحج الأكبر سنة تسع للهجرة نزلت سورة (التوبة) لتعلن براءة الله ورسوله من المشركين كافة، فإن تابوا فإن الله غفور رحيم، وإن أعرضوا عن التوبة فإن

---

(١) الانفال ٣٢-٣٤.
(٢) الرعد ٣١.
(٣) العقاد: حقائق الاسلام واباطيل خصومه ٢١٢.

الله أمر بقتالهم، ووجيب ذلك بعد انتهاء الأشهر الحُرم الأربعة، إلاّ الذين كانوا على عهد وميثاق مع الرسول(صلى الله عليه وسلم) الى انتهاء ذلك العهد. قال تعالى:

﴿ بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢﴾ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾. [(١)]

وبنزول هذه السورة تحدد الموقف الأخير في الصلة القائمة بين المؤمنين والمشركين، وهو موقف يتفق ومنهج القرآن الكريم في مسايرته لطبيعة المجتمع، وتثبيت أركانه، واستقرار دعائمه، وأخذ وضعه اللائق في الحياة.

٣- موقف المنافقين من الإسلام:

ظهر المنافقون وهم جماعة أخفوا كفرهم وأعلنوا إسلامهم بعد هجرة الرسول (صلى الله عليه وسلم) الى المدينة، واستقبال أهلها له، وإحلاله المقام الأول في الأمر والنهي، والتخطيط والتدبير لجعلها حصناً منيعاً للإسلام، فقد شعرت هذه الجماعة بخسارة مركزها ومصالحها، ولم تستطع أن تقف بوجه النبي (صلى الله عليه وسلم) والمدينة كلها تحت طاعته، فانضوت في الإسلام نفاقاً أي تظهر الإسلام وتخفي الشرك، وكان على رأس المنافقين عبد الله بن أُبي الذي يثير الفتن والقلاقل للمسلمين، وقد أنزل الله تعالى فيهم سورة (المنافقون).

ولقد وصفهم الله تعالى بالمخادعين الذين يدّعون أنهم مصلحون في الأرض، وهم المفسدون فيها، قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴾. [(٢)]

يشكل المنافقون حينذاك خطراً أكبر من خطر المشركين في مكة، لأنهم كانوا يقيمون بين ظهراني المسلمين في المدينة، فهم ينقلون أخبار المسلمين الى الكفار، وهم يدبرون الدسائس والمكائد لهم، وهم لا يخرجون لقتال المشركين إذ يعتذرون بأعذار كاذبة، ويرشدون الكفار على المواضع التي يمكن الدخول منها الى المدينة، وهم يثيرون الكفار

---

(١) التوبة ١-٢.
(٢) البقرة ٨-١٢.

ويحفزوهم على قتال المسلمين وكان عبد الله بن أُبي إذا لقي أحد الصحابة يسلم عليه سلاماً يبالغ فيه، حتى انه يطلب من جماعته أن تفعل مثلما يفعل، ومثل هذا النفاق يعرفه الصحابة عنهم، ولكنهم لا ينزلون بهم العقاب لأنهم يحسبون أنفسهم من المسلمين.

ومن الصفات التي يتصف بها المنافقون أنهم إذا أصابت الرسول (صلى الله عليه وسلم) والمسلمين حسنة تؤذهم، وإن أصابتهم مصيبة يقولون أخذنا احتياطنا للأمر وابتعدنا عن الخطر ويعودوا وهم فرحون، لأنها أصابت غيرهم ولم تصبهم، فكان الخطاب الموجّه للرسول قل لهم لن يصيبنا إلاّ الذي كتبه الله تعالى علينا، وهو الذي يتولى أمرنا وعليه يتوكل المؤمنون. قال تعالى:

﴿ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴾. [(١)]

ومن هؤلاء المنافقين من يستمع الى حديث الرسول (صلى الله عليه وسلم) فإذا انفضّوا يغمزونه بخبث بأنهم لا يأبهون لما يقول، فقد طبع الله تعالى على قلوبهم فاتبعوا أهواءهم الخبيثة. قال تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾. [(٢)]

ولعل من أهم الأعمال التي يقوم بها المنافقون هي إثارة الفتن بين المسلمين، أو إثارتها بين المسلمين واليهود، وتلك من أسس بناء حياتهم التي تقوم على خلق النزاع بين الأطراف المختلفة. ومن أفعالهم الشائنة اللمز في الصدقات، فإنهم يغتابون النبي (صلى الله عليه وسلم) ويعيبون على طريقة توزيعه الصدقات التي تتجمع لديه، وهو حينما أعطى المؤلفة قلوبهم انتقدوه وودّوا أن تكون لهم، وإنهم حين يعطون منها رضوا، وحينما تعطى لغيرهم يسخطون. قال تعالى:

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴾. [(٣)]

---

(١) التوبة ٥٠-٥٢.
(٢) محمد ١٦.
(٣) التوبة ٥٨-٥٩.

ولم يكف المنافقون تلك اللّمزات والانتقادات فقد راحوا يشيعون أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) يستمع الى كل ما يقال سواء كان صدقاً أم كذباً فيصدّقه، وهذا يعني بحسب قولهم ان كل ما يصدر عن الرسول من أمر أو رأي هو غير دقيق، وإنما يجري على حسب الأهواء، وينبغي عدم إطاعته، وكان خطاب الله تعالى قد بيّن أنه استماع للخير وليس للشر. قال تعالى:

﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾.(١)

وتستطرد إشاعاتهم الى البهتان في أعراض المسلمين، ويطلقون الأكاذيب لإشغال المسلمين عن أعدائهم، وإثارة العداوة والبغضاء بينهم، وكان من جرّاء إشاعة البهتان وإطلاق الأكاذيب حادثة الإفك التي نالت أم المؤمنين عائشة (رضي الله عنها) زوج الرسول المصون، وكانت في ركب مع النبي (صلى الله عليه وسلم) بعد عودته من غزوة، التمست عقدها فلم تجده، وبحثت عنه فتركها الركب دون علم بغيابها، وبقيت في مكانها لعلهم يشعرون بخفة هودجها فيعودون إليها، وصادف أن أحد الصحابة وهو صفوان بن المعطّل (رضي الله عنه) قد بقي في مؤخرة الجيش، فرآها نائمة فأسمعها صوته، فنهضت وخمرت وجهها، وقرّب لها راحلته، فركبت وأمسك بزمام الناقة، يمشي أمامها حتى وصل الجيش في أحد المنازل، ولما رأى ذلك رأس المنافقين عبد الله بن أُبي وجد متنفساً من كرب النفاق والحقد، فاتهمها بالفجور إفكاً، وأخذ ينشر الأكاذيب ويشيعها في المدينة مما يؤذي رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فنزل الخطاب الإلهي يبرئ أم المؤمنين من إفك المنافقين:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُمۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْۚ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِۚ وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴾.(٢)

أقام المنافقون تحالفاً وثيقاً مع كفار قريش ومع أهل الكتاب، وهؤلاء هم يشكلون مثلث أعداء الله ورسوله، وقد بيّن القرآن الكريم الأساس الذي يجمع هذه الفئات ويوحدها هو العداء للإسلام، فالمنافقون يجعلون الكفار أولياء عليهم، ويطلبون القوة والمنعة والنصرة منهم، والقوة والمنعة لله تعالى، وقد أمر الله تعالى المؤمنين إذا سمعوا آيات الله يكفر بها أو يُستهزأ بها فينبغي ترك المستهزئين حتى يغيّروا حديثهم لأن من يرضى بذلك فهو منهم. قال تعالى:

---

(١) التوبة ٦١.
(٢) النور ١١-١٢.

﴿ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴾.(١)

وأما ارتباط المنافقين باليهود فهو لخوفهم من أن تصيبهم هزيمة أو شدّة من شدائد الدهر التي تحيط بهم، وكأنهم يتوقعون الهزيمة وأن لهم أنصار من أهل الكتاب يقفون معهم في الشدّة، لأن الله تعالى لا محالة يأتي بالنصر للمؤمنين بالفتح، أو أمر بقتالهم فيندمون على ما اتفقوا عليه. قال تعالى: ﴿ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴾.(٢)

ويتعدى ارتباط المنافقين باليهود الى درجة كبيرة، وجاء الخبر بقتل رجلين من بني كلاب ((ذهب النبي (صلى الله عليه وسلم) الى بني النضير في نفر من الصحابة، ليعينوه في ديّتهما حسب الميثاق، فقالوا: نفعل يا أبا القاسم، أجلس ها هنا حتى نقضي حاجتك، فجلس الى جنب جدار ينتظر، وخلا بعضهم ببعض، وركبهم الشيطان، فقالوا: أيكم يأخذ هذه الرحى فيلقيها على رأسه؟ فانبعث أشقاهم عمرو بن جحّاش، ونزل جبريل (عليه السلام) يخبر النبي (صلى الله عليه وسلم) بما أرادوا، فقام مسرعاً وتوجّه الى المدينة، ثم لحقه أصحابه، فأخبرهم بالمؤامرة وقرر إجلاءهم)).(٣) وأعطاهم مدة عشرة أيام فمن وجد بعدها تضرب عنقه، فتجهزوا للرحيل، ولكن رأس المنافقين عبد الله بن أُبي أرسل إليهم من يخبرهم أن يثبتوا ولا يخرجوا، فإن ألفين سيدخلون معهم حصونهم، ويموتون دفاعاً عنهم، فقالوا للرسول: إنا لا نخرج فاصنع ما بدا لك، فحاصرهم الرسول (صلى الله عليه وسلم) ولم يدافع عنهم أحد من المنافقين، وبعد ستة أيام استسلموا مخذولين. قال تعالى:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴾.(٤)

ويشعر المنافقون أنهم مقحمون في الحروب التي تقوم بين المسلمين والكفار، وهم لا يرغبون في الخروج للقتال، وعندما أجبروا على القتال في معركة أحد فلم تهمهم إلاّ

---

(١) النساء ١٣٨-١٤٠.
(٢) المائدة ٥٢.
(٣) صفي الرحمن المباركفوري: روضة الانوار في سيرة النبي المختار ٢٠٧.
(٤) الحشر ١١-١٢.

أنفسهم، ولا يهمهم أمر الرسول (صلى الله عليه وسلم) ولا أمر المسلمين، وكانوا يظنون غير الصحيح أن النبي (صلى الله عليه وسلم) غير صادق فيما يخبر به كما يظن به أهل الجاهلية، إعلاماً بأن هؤلاء المنافقين هم في نطاق الكفار، فيقولون هل الأمر بيدنا؟ ولا يعلمون أن الأمر كله بيد الله تعالى، ولو كان بيدهم ما قتل أحد منهم، ولو كانوا في قعر بيوتهم لخرج اليهم الموت الذي كتب عليهم، ابتلاء من الله لما في صدورهم، وتطهيراً لقلوبهم من وساوس الشيطان. قال تعالى:

﴿ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾.(١)

وفي غزوة الأحزاب (الخندق) التي كانت بتحريض من اليهود لقبائل العرب ضد المسلمين، جاء الخبر أن بني قريظة من اليهود وهم يسكنون في جنوب المدينة قد نقضت العهد، ولم يحل بينهم وبين المسلمين سوى النساء والأطفال، اشتد خوف المنافقين، وقال بعضهم: (كان محمد يعدنا بكنوز كسرى وقيصر وأحدنا لا يأمن على نفسه أن يذهب الى الغائط) وخرجت طائفة منهم تستأذن النبي (صلى الله عليه وسلم) مدعية كذباً أن بيوتهم قديمة متهاوية وهي ليست كذلك، ولو دخل الكفار الى المدينة لأنظمّوا إليهم وقد عاهدوا الله من قبل أنهم يثبتون ولا يفرّون. قال تعالى:

﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَءَاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴾.(٢)

وفي غزوة بني المصطلق خرج المنافقون مع النبي (صلى الله عليه وسلم) ورئيسهم عبد الله بن أُبي، وكانوا من قبل لا يخرجون، فتشاجر مهاجري مع أنصاري على ماء بئر، وقد فضّ الرسول (صلى الله عليه وسلم) ذلك النزاع بقوله: (أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم؟) فعاد الناس الى رشدهم، ووجد المنافقون فرصة لإثارة الفتنة بين الطرفين، فقالوا لأهل المدينة لا تنفقوا على فقراء المهاجرين حتى يتفرقوا، ويقولون أيضاً: لئن رجعنا الى

---

(١) آل عمران ١٥٤.
(٢) الاحزاب ١٢-١٥.

المدينة ليخرجنّ الأعز منها الأذل، والأعز يعنون أنفسهم، والأذل ويعنون المهاجرين لأنهم غرباء فيها، والعزة لله جميعاً. قال تعالى:

﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ۝٧ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾. (١)

وسمع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بتجمّع الروم بعد خسارتهم في معركة مؤتة، واستعدادهم للقضاء على قوة المسلمين في عقر دارهم المدينة المنوّرة، فاستعد لذلك وحثّ الموسرين من المسلمين على تجهيز المعسرين لتجهيز حملة تبوك، وتكلّم المنافقون فلمزوا من أنفق كثيراً ومن أنفق القليل، وسخروا من رسول الله (صلى الله عليه وسلم) من جرأته على لقاء الروم، ولما سئلوا عن ذلك قالوا: كنا نخوض ونلعب، وخرج المعذرون من المنافقين والأعراب واستأذنوا النبي (صلى الله عليه وسلم) في التخلّف متخذين أعذاراً شتّى فأذن لهم، وعلمت الروم بنزول الجيش في تبوك فخارت عزائمهم، ولم يجرؤوا على اللقاء فتفرّقوا داخل بلادهم، وبقي الرسول (صلى الله عليه وسلم) عشرين يوماً يستقبل الوفود ثم عاد الى المدينة، وفي الطريق اليها توجّه مع نفر من أصحابه الى منطقة (عقبة) فخرج عليه اثنا عشر رجلاً من المنافقين من جيشه يريدون اغتياله، واقتربوا منه وهم ملثمون، فبعث اليهم حذيفة ليضرب وجوه رواحلهم بمحجن معه فضربها، فأرعبهم الله وأسرعوا بالفرار حتى لحقوا بالجيش، فأخبر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) حذيفة بأسمائهم وبما أرادوه، فسمي صاحب سر رسول الله، ونزلت الآيات تفضح المنافقين وتكشف سرائرهم. قال تعالى:

﴿ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ۝٤٢ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾. (٢)

٤- موقف أهل الكتاب (اليهود والنصارى):

توجّه الخطاب القرآني الى أهل الكتاب بلطف ولين يذكّرهم بالله تعالى، ويقلب أمامهم صفحتين، صفحة مشرقة من تاريخهم يوم كانوا دعاة هدى وأعلام حق وإيمان، وصفحة مظلمة يوم أن انحرفوا عن دين الله وطمسوا حقائقه، وحرّفوا كلمة الله، فيدعوهم الى العودة

---

(١) المنافقون ٧-٨.
(٢) التوبة ٤٢-٤٣.

الى الصفحة المشرقة، ليستضيئوا بها معالم الطريق نحو الإيمان بالله وبرسوله الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل، وهي دعوة التوحيد. قال تعالى:

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾.(١)

وكان ردّهم على تلك الكلمة السواء في قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾.(٢) وهذا هو المنهج السليم.

أ- موقف اليهود:

من الممكن أن يكون اليهود قوة تساند المسلمين في المدينة بحكم الجوار وحكم الإيمان بالله إلهاً واحداً لا شريك له، ولأنهم كانوا ينتظرون مبعث نبي يكون خاتم الأنبياء، ويوعدون قبيلتي الأوس والخزرج به كلما اختلفوا معهم. ولما ظهر النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) من العرب، وهاجر الى المدينة المنورة، وعقد معاهدة إخاء بين المهاجرين والأنصار، وميثاق أمن ودفاع بين المسلمين واليهود، كانت نظرة اليهود الى أنهم شعب الله المختار جعلتهم يكفرون بهذا النبي العربي الذي ينبغي أن يكون منهم.

وقد روى ابن إسحاق بسند عن ابن عباس ((إنّ يهود كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله (صلى الله عليه وسلم) قبل مبعثه، فلما بعثه الله من العرب كفروا به، وجحدوا ما كانوا يقولون فيه، فقال لهم معاذ بن جبل وبشر بن البراء بن معرور أخو بني سلمة: يا معشر يهود اتقوا الله وأسلموا فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد ونحن أهل شرك وتخبروننا انه مبعوث، وتصفونه لنا بصفته، فقال سلام بن مشكم أحد بني النضير: ما جاءنا بشيء نعرفه، وما هو بالذي كنا نذكره لكم)). (٣) قال تعالى:

﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾.(٤)

ومما يؤكد إصرار اليهود على معاداة النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) مع معرفتهم انه رسول الله ما أخبرتنا به أم المؤمنين السيّدة صفية بنت حُيي بن أخطب عن قومها

---

(١) آل عمران ٦٤.
(٢) البقرة ١٣٥-١٣٦.
(٣) ابن هشام: سيرة ابن هشام ٣٦/٢.
(٤) البقرة ٨٩.

اليهود: ((لم يكن أحد من ولد أبي وعمي أحب اليهما منّي، ولم ألقهما في ولدهما ولم أهش اليهما إلاّ أخذاني دونه، فلما قدم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قباء- قرية بني عمرو بن عوف- غدا اليه أبي وعمي أبو ياسر بن أخطب مغلسين، فوالله ما جاءانا إلاّ مع مغيب الشمس، فجاءانا فاترين كسلانين ساقطين يمشيان الهوينى، فهششت إليهما كما كنت أصنع فوالله ما التفت إلي واحد منهما، فسمعت عمي أبو ياسر يقول لأبي: أهو هو؟ قال: نعم والله، قال: تعرفه بنعته وصفته؟ قال: نعم والله. قال: فماذا في نفسك منه؟ قال: عداوته والله ما بقيت)). [1]

وقد هال اليهود ما رأوا من ترابط المسلمين مهاجرين وأنصار، وصاروا بعد اجتماعهم أمة واحدة مستقلة تتبع تنظيم الرسول (صلى الله عليه وسلم) وتؤدي ما عليها من حقوق وواجبات، مما يجذب القلوب إليهم حتى تغيّرت معاملتهم للمسلمين، وبدأوا حملة من التشكيك في الرسول (صلى الله عليه وسلم) وإثارة الدسائس لتفرقة الصفوف، والتحالف مع كفار قريش على حرب المسلمين للقضاء عليهم. قال تعالى:

﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾. [2]

ورأت طائفة من اليهود أن تظهر للنبي محمد (صلى الله عليه وسلم) أنها آمنت به رسولاً نفاقاً وكذباً وتكفر في دواخلها، فيحدث ارتياب وشك لدى المسلمين فيقولون ان اليهود أعلم به منا، وان دينهم هو الحق، وقد بذل اليهود كل السبل لإثارة الشك في الإسلام، ولعل ذلك يؤدي الى النفور عنه. قال تعالى:

﴿ وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾. [3] قال القرطبي في تفسير معنى الآية: ((إن اليهود قال بعضهم لبعض: أظهروا الإيمان بمحمد أول النهار ثم اكفروا به آخره، فإنكم إن فعلتم ذلك ظهر لمن يتبعه إرتياب في دينه، فيرجعون عن دينه إلى دينكم، ويقولون: إن أهل الكتاب أعلم به منا)). [4]

ووصل الأمر الى منتهاه حينما حاول اليهود فتنة النبي (صلى الله عليه وسلم) قال ابن عباس: ((اجتمع قوم من الأحبار منهم ابن صوريا وكعب بن أسد وشاس بن عدي وقالوا: اذهبوا بنا الى محمد فلعلنا نفتنه عن دينه فإنما هو بشر، فأتوه فقالوا: قد عرفت يا محمد انا أحبار اليهود وإن اتّبعناك لم يخالفنا أحد من اليهود، وإن بيننا وبين أناس من قومنا

---

(١) ابن هشام: سيرة ابن هشام ٢٦/٢.
(٢) البقرة ١٠٩.
(٣) آل عمران ٧٢.
(٤) القرطبي: الجامع لاحكام القران ١٣٥٣.

خصومة فنحاكمهم إليك، فاقض لنا عليهم حتى نؤمن بك، فأبى رسول الله (صلى الله علي وسلم)) [(١)]قال تعالى:

﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾. [(٢)]

كان النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) يصلي في مكة إلى بيت المقدس كما أمره الله، غير أنه كان يتجه إلى بيت المقدس ويجعل الكعبة أمامه، ولما هاجر الى المدينة واتّجه الى بيت المقدس صارت الكعبة خلفه، فانتهزها المشركون وقالوا: ترك قبلة أبيه إبراهيم (عليه السلام) واستغلها اليهود وقالوا: اتجه الى قبلتنا، وأرادوا أن يمكروا به، وأن يقنعوه بالجلاء عن المدينة، وذكروا له أن من سبقه من الرسل ذهبوا جميعاً الى بيت المقدس، وكان مقامهم، فإن كان رسولاً حقاً فجدير به أن يصنع ما صنعوا، ويعتبر المدينة موقعاً وسطاً بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى، ولم تنطل الخدعة عليه إذ كان دائم التوجّه الى الله تعالى ليجعل البيت الحرام قبلته، ويترقب الوحي، وفي شعبان من السنة الثانية للهجرة نزل قوله تعالى:

﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾.[(٣)]وقوله تعالى:

﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾. [(٤)]

ويوضح الشيخ شعراوي هذه المسألة بقوله: ((وهي مسألة مثار جدل بين بعض الناس واستخدام من المضلين يحاولون بها أن يقولوا أو يدّعوا أن هناك نوعاً من التناقض... فالله سبحانه وتعالى يقول إنّ لله المشرق والمغرب، ويقول فأينما تولّوا فثمّ وجه الله، ومع ذلك يأتي فيأمرنا بأن نتجه الى بيت الله الحرام في صلاتنا، وإذا كان الله سبحانه وتعالى موجوداً في كل مكان وزمان... فلماذا تغيّرت القبلة ؟... أراد الله أن يضع إعجازاً في هذه النقطة والإعجاز هنا أن الله تحدّى الكفار في أمر اختياري يمكن أن يفعلوه، ويمكن أن لا

---

(١) المصدر نفسه ٢٢١٠.
(٢) المائدة ٤٩-٥٠.
(٣) البقرة ١٤٢.
(٤) البقرة ١٤٤.

يفعلوه، وزاد على ذلك وصفهم بلفظ منفر وهو السفهاء... ويأتي فعلاً هؤلاء السفهاء ويسألون ما ولاّهم عن قبلتهم التي كانوا عليها، فيشهدون بذلك على صدق القرآن)). [١]

وكان انتصار المسلمين في معركة بدر في رمضان من العام الثاني للهجرة دليلاً على قوة الدولة الإسلامية الناشئة، ولكن هذا النصر قوبل بالحزن العميق من اليهود، حتى ((قال كعب بن أشرف: هؤلاء أشراف العرب وملوك الناس والله لئن محمد أصاب هؤلاء القوم لبطن الأرض خير من ظهرها، وذهب الى مكة يحرّض على محمد، وينشد الأشعار، ويبكي أصحاب القليب، ورجع الى المدينة فجعل يشبب بنساء المسلمين، وكان لا بد من قتل كعب، فقتله المسلمون)). [٢]

وكشّر يهود بني قينقاع عن أنياب الشر حين قدمت إمرأة من المسلمين الى السوق ومعها حلية، فجلست الى صائغ منهم، وجعلوا يريدون كشف وجهها وهي تأبى، فجاء يهودي خبيث من خلفها وهي لا تعلم فأثبت طرف ثوبها بشوكة، فلما قامت سقط حجابها فضحكوا عليها، فصاحت وا مسلمين، فوثب رجل من المسلمين على الصائغ اليهودي فقتله، وشدّت اليهود على المسلم فقتلوه، ولما طلب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) منهم أن يكفوا أذاهم، وأن يحفظوا العهد أو ينزل بهم ما نزل بقريش، استخفّوا بوعيده وقالوا: يا محمد لا يغرنّك من نفسك أنك قتلت نفراً من قريش كانوا أغماراً لا علم لهم بالحرب أنك لو قاتلتنا لعرفت إنا نحن الناس. وكان لابد لمن ينقض العهد أن يلقى جزاء الغدر والخيانة، فحاصرهم الرسول (صلى الله عليه وسلم) في الخامس عشر من ذي القعدة، فاضطروا الى التسليم، فأجلاهم الى (أذرعات) في الشام.

وعندما قرر الرسول (صلى الله عليه وسلم) إجلاء بني النضير حين حاولوا الغدر به، فبعث إليهم محمد بن مسلمة يقول لهم: أخرجوا من المدينة فقد نقضتم العهد بغدركم، وقد أجلكم عشراً فمن وجد بعدها ضربت عنقه، وتجهزوا للرحيل ولكن رأس المنافقين عبد الله بن أُبي وعدهم بالنصر أن لم يخرجوا من حصونهم، فحاصرهم الرسول (صلى الله عليه وسلم) وبعد ست ليال أستسلموا، فأخذوا يخربون بيوتهم، ويحملون معهم الأبواب والشبابيك وبعض المتاع، فنزل بعضهم بخيبر وآخرون ساروا الى أذرعات. قال تعالى:

﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمۡ لِأَوَّلِ ٱلۡحَشۡرِۚ مَا ظَنَنتُمۡ أَن يَخۡرُجُواْۖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمۡ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَۚ يُخۡرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيۡدِيهِمۡ وَأَيۡدِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴿٢﴾ وَلَوۡلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴾. [٣]

(١) محمد متولي شعراوي: القران الكريم معجزة ومنهج ٦٨/٣-٦٩.
(٢) ابن هشم: سيرة ابن هشام ١٤١/٦-١٤٢.
(٣) الحشر ٢-٣.

وما إن استقر اليهود بخيبر حتى بدأوا يدبّرون المؤامرات ويتحركون من وراء الأستار، فذهبوا الى قريش يحرّضونهم على غزو المدينة، وانطلق رؤساؤهم حيي بن أخطب وسلام بن أبي الحقيق وغيرهم يطوفون في القبائل، ويحركونهم وفق خطة واحدة لغزو المدينة، وإزاء ذلك وافقوا على الشرك بالله. قالت قريش: أنتم أهل الكتاب، وأنتم أقرب الى محمد منّا، فلا نأمن مكركم فاسجدوا لألهتنا حتى نطمئن إليكم ففعلوا. وقال أبو سفيان لكعب: انك تقرأ الكتاب وتعلم نحن أميون لا نعلم فأيّنا أهدى طريقاً نحن أم محمد؟ فقال: ماذا يقول محمد؟ قال: يأمر بعبادة الله وحده، وينهى عن الشرك، قال: وما دينكم؟ قالوا: نحن ولاة البيت، نسقي الحجيج، ونقري الضيف، ونفك العاني، وذكروا أفعالهم، فقال: أنتم أهدى سبيلا. [(١)]قال تعالى:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴾.[(٢)] واجتمعت الأحزاب، قريش والقبائل، وحاصرت المدينة، ولم تستطع الدخول إليها لوجود الخندق، ثم شتت الله تعالى شملهم.

واستغل يهود بني قريضة حصار الأحزاب للمدينة، فنقضوا عهدهم مع النبي (صلى الله عليه وسلم) وقد أوقع نعيم بن مسعود بينهم وبين الأحزاب الشك والخلاف فباءت فتنتهم بالفشل، وعاد الرسول من الخندق فنزع السلاح والثياب، فنزل جبريل (عليه السلام) يأمره بالنهوض الى بني قريضة، وقال: إني سائر أمامك أزلزل بهم حصونهم، وأقذف في قلوبهم الرعب، فأعلن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) من كان سامعا مطيعاً فلا يصلين العصر إلاّ ببني قريضة، فنزل على مقربة منهم فتحصّنوا بحصونهم، وبعد حصار دام خمساً وعشرين ليلة انهارت معنوياتهم، ونزلوا على حكم الرسول، فاعتقل الرجال وعزل النساء والأطفال، وطلب منهم أن يختاروا رجلاً يحكم فيهم، فاختاروا سعد بن معاذ، فقال سعد: لقد آن لسعد أن لا تأخذه في الله لومة لائم، فحكم فيهم أن يقتل الرجال، وتسبى الذرية، وتقسم الأموال، فقال رسول الله: لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سماوات. قال تعالى:

﴿ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴾. [(٣)]

وفي محرم سنة سبع للهجرة توجه الرسول (صلى الله عليه وسلم) الى خيبر لأنها تشكل خطراً دائماً لتأليب الأحزاب وتهديد المسلمين، ولم يشعروا به إلاّ في الصباح، فهربوا

---

(١) د. عبد الفتاح عاشور: منهج القران في تربية المجتمع ٦/٤.
(٢) النساء ٥١-٥٢.
(٣) الاحزاب ٢٦-٢٧.

الى حصونهم، فقال النبي (صلى الله عليه وسلم): الله أكبر خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين. وكانت حصون خيبر منيعة، وكان اليهود ينقلون نساءهم وأطفالهم من حصن الى حصن والبروز للقتال، واستمر حصارهم فيسقط الحصن تلو الحصن، حتى سقطت عن آخرها، فسلموا وصالحوا على أن يعطوا نصف ثمارها مقابل بقاءهم، ثم أجلاهم عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) حين سلكوا طريق الشر والحنث، فاستسلمت بعدها (فدك) دون قتال، وقبلت (تيماء) الجزية دون قتال أيضاً، أما يهود (وادي القرى) فإنهم قاتلوا ثم أذعنوا الى الصلح، وبذلك سقط نفوذ اليهود وبقيت قلوبهم مملوءة بالحقد الى أن جاء عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) فأجلاهم جميعاً عن الجزيرة العربية.

ب- موقف النصارى:

انتشرت النصرانية في الجنوب عن طريق الحبشة، وفي الشمال عن طريق الشام وشبه جزيرة سيناء الآهلة بالأديرة والصوامع، فأخذت النسطورية طريقها الى الحيرة، وأخذت اليعقوبية طريقها الى سائر قبائل الشام. [1]ولم يصل الى مكة أو المدينة من النصارى إلاّ أفراد قلائل لا شأن لهم يذكر، وعلى العكس من اليهود الذين أقاموا في المدينة بانتظار ظهور نبي خاتم الأنبياء، فشكلوا قوة اجتماعية واقتصادية لها تأثير واضح في الحياة العربية.

وكان أول اتصال بين النصرانية والإسلام بدأ بإرسال النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) كتب الى ملوك الأمم النصرانية تدعوهم الى دين الإسلام، وهذا يعني ظهور قوة دينية سياسية جديدة، أو خطر جديد يهدد سلطانهم، ويفنّد دعوتهم الكاذبة في الإلوهية. وكانت غزوة تبوك أول اختبار للقوة الإسلامية التي أدت الى انسحاب الروم الى داخل أراضيهم، وقد أصيبوا بالخوف والذعر من جرأة اختراق جيش المسلمين لدفاعاتهم الحدودية، وتلاحم المقاتلين وتوحدهم حول الإيمان بالله واحداً لا شريك له.

وقد يأتي أفراد من النصارى الى النبي (صلى الله عليه وسلم) في مكة فيسألونه ويجادلونه، ويعرض عليهم الإسلام، فيؤمنون ويعلنون إسلامهم، ويقنعون بما جاء به القرآن الكريم، ويعرضون عن كفار قريش، ويتجاهلون ما يقولون. قال تعالى:

﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴾. [2]

---

(١) د. حسن ابراهيم: تاريخ الاسلام السياسي والثقافي والاجتماعي ٧١.
(٢) القصص ٥٢-٥٥.

وذكر القرطبي في تفسيره أن ((قدم على النبي (صلى الله عليه وسلم) عشرون رجلاً وهو بمكة أو قريب من ذلك من النصارى حين ظهر خبره من الحبشة، فوجدوه في المسجد، فكلموه وسألوه ورجال من قريش في أنديتهم حول الكعبة، فلما فرغوا من مسألتهم... دعاهم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) الى الله عز وجل، وتلا عليهم القرآن، فلما سمعوه فاضت أعينهم من الدمع ثم استجابوا له، وآمنوا به وصدّقوه، وعرفوا منه ما كان يوصف لهم في كتابهم من أمره، فلما قدموا من عنده اعترضهم أبو جهل في نفر من قريش، فقالوا خيبكم الله من ركب، بعثكم من وراءكم من أهل دينكم ترتادون لهم فتأتونهم بخبر الرجل، فلم تطل مجالستكم عنده حتى فارقتم دينكم، وصدقتموه بما قال لكم، وما نعلم ركباً أحمق منكم، فقالوا: سلام عليكم لا نجاهلكم، لنا أعمالنا ولكم أعمالكم، لا نألوا أنفسنا خيراً، فيقال إنهم النفر النصارى من أهل نجران، ويقال إن فيهم نزلت الآيات)).[(١)]

ومن النصارى من يعرف الحق ولكنه يصرّ على ما معه من الباطل، وهو الاعتقاد بأن عيسى (عليه السلام) ابن الله وهو اعتقاد فاسد، فكان الرد من الله تعالى مخاطباً نبيه الكريم، إن خلق عيسى كخلق آدم من تراب، ثم قال له كن فيكون، ولم تختلف عملية خلقه عما سبقه، وإن أصرّ هؤلاء على الباطل فادعهم الى المباهلة أو الابتهال بالدعاء الى الله لإنزال غضبه على الكاذبين، فأبوا وخافوا من غضب الله. قال تعالى:

﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾.[(٢)]

وينقل إلينا القرآن الكريم بعض المواقف عن أهل الكتاب، فيميز النصارى من اليهود، فاليهود والكفار أشد عداوة للمؤمنين بالله تعالى، والنصارى أقرب مودّة لهم، وذلك لأن منهم قسيسين ورهبان لا يستكبرون على غيرهم، وإذا سمعوا ما أُنزل على النبي (صلى الله عليه وسلم) من القرآن الكريم تفيض أعينهم من الدمع، لمعرفتهم أنه كلام حق من الله تعالى، ويعلنون إيمانهم به، ويدعون ربهم أن يجعلهم من الشاهدين على غيرهم. قال تعالى:

﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا

---

(١) القرطبي: الجامع لاحكام القران ٢٢٥٢/٣.
(٢) آل عمران ٥٩-٦١.

يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾. (١)

قال القرطبي في تفسيره: ((وقيل أن جعفراً وأصحابه قدموا على النبي (صلى الله عليه وسلم) في سبعين رجلاً عليهم ثياب الصوف، فيهم اثنان وستون من الحبشة، وثمانية من أهل الشام، وهم: بحيرا الراهب وإدريس وأشرف وأبرهة وثمامة وقتم ودريد وأيمن، فقرأ عليهم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) سورة (يس) الى آخرها، فبكوا حين سمعوا القرآن وآمنوا، وقالوا: ما أشبه هذا بما كان ينزل على عيسى، فنزلت فيهم (لتجدن أشد الناس) يعني وفد النجاشي، وكانوا أصحاب الصوامع... وقال مقاتل والكلبي: كانوا أربعين رجلاً من أهل نجران الحرث بن كعب واثنان وثلاثون من الحبشة، وثمانية وستون من أهل الشام)). (٢)وليس كل من قال إنا نصارى أقرب مودّة، فالتاريخ يشهد شهادة صدق على ما لقيه المؤمنون من ألوان العذاب والحرمان والقتل، إذا ما سنحت لهم فرصة إلاّ انتهزوها لاستئصال الإسلام وأهله، وقد ثبت ذلك في الحروب الصليبية، ومحاكم التفتيش في الأندلس، وحملات التبشير في العصر الحديث، وهذه كلها أدلة تثبت مقدار الجهل والتعصب اللذين يؤديان الى العداء الدائم، وهو تصديق لقوله تعالى:

﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾. (٣)

٥- تحديد فرائض الإسلام:

ارتبط مفهوم الفرائض بالعبادات كالصلاة والزكاة والصوم والحج، وهي في الحقيقة وسائل تربوية لتقويم المجتمع وتهذيبه، وإن أساس الخلق قام على العبادة، قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾. (٤)والعبادة تعني الخضوع والتذلل لله تعالى وهي أسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة، والمركبة من عنصرين، وهي غاية الخضوع لله تعالى مع غاية المحبة له سبحانه. (٥)

أ- الصلاة:

---

(١) المائدة ٨٢-٨٣.
(٢) القرطبي: الجامع لاحكام القران ٣/٢٢٥٢-٢٢٥٤.
(٣) البقرة ١٢٠.
(٤) الذاريات ٥٦.
(٥) ينظر: د. يوسف القرضاوي: العبادة في الاسلام ٤٦-٥٠.

الصلاة صلات بين الخالق والمخلوق، أو بين العبد والمعبود وهو الله سبحانه وتعالى، وهي في الأصل الدعاء. قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴾.[١] ثم أصبحت ركناً مهماً من أركان الإسلام، لأنها تطهّر الإنسان ظاهراً وباطناً من الرجس، وماء الوضوء يروي شجرة الأخلاق، والذكر فيها ينير روح التجرّد لله وحده، وقد جعل الله تعالى الصلاة صفة للمتقين:

﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴾.[٢]

فاختيار القرآن الكريم لفظ (يقيمون) وبصيغة الجمع له مغزاه ((فإن الإقامة هي الاعتدال والمداومة، اعتدال في الأداء، ومداومة على هذا الأداء، حتى ترسخ صورة القيم التي يريد القرآن أن يبثها في كيان المجتمع عن طريق هذه الفريضة، إنها برهان على تناسق المجتمع من خلال إقرار الصلاة ورفع شعارها)).[٣]

ويؤكد الخطاب القرآني إقامة الصلاة ويربط بها إيتاء الزكاة، لأن ما يقدمه المؤمن لنفسه من عمل خير لا يضيع عند الله بل يجده أمامه حاضراً يوم القيامة. قال تعالى:

﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴾.[٤]

وقد يظن أصحاب المناهج والدراسات الاجتماعية ان الدعوة الى الأخلاق تقضي على أسباب الفواحش والمنكرات التي تهدم المجتمع، ولم يتنبهوا الى أن الصلاة منهج متكامل يسعى الى تربية الفرد وإيصاله الى قمة السمو الأخلاقي، وتقضي على أسباب الفساد. قال تعالى مخاطباً النبي (صلى الله عليه وسلم):

﴿ ٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَصۡنَعُونَ ﴾.[٥] ولذلك كان أمر الله بالصلاة نافذاً وموجّهاً وموجّهاً الى النبي(صلى الله عليه وسلم) والى المؤمنين أن يأمروا أهلهم بالصلاة، وأن يصطبروا عليها، ويداوموا عليها في أوقاتها خمس مرّات في اليوم لإدامة الصلة مع الله

---

(١) الاحزاب ٥٦.
(٢) البقرة ١-٣.
(٣) د. عبد الفتاح عاشور: منهج القران في تبية المجتمع ١٩١.
(٤) البقرة ١١٠.
(٥) العنكبوت ٤٥.

حيث المحبة والرحمة. قال تعالى: ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾.(١)

والصلاة تؤلف بين المصلّين، وتخلق لديهم شعوراً جماعياً ينفي حالة التفرّد والتغرّب، والتعرّض لكيد الشيطان ((وكان اجتماع الناس خمس مرّات في المسجد للصلاة له أثر كبير في رفع مستواهم الأدبي والأخلاقي... وضلع عظيم في تشييد صرح عظمتهم ومجدهم، فالصغير يقلّد الكبير، والعالم يرشد الجاهل، والغني يواسي الفقير، والكل يسعى لمرضاة الله... وقد قيل إن للأخلاق تأثيراً في جميع أطوار الحياة، فأخو الفضائل يرفع من حوله، وأخو الرذائل يحط من فضائلهم، وينتقص من أخلاقهم)).(٢)

وأداء الصلاة كان مشرعاً لدى الأمم التي سبقت الإسلام، فقد كان النبي إبراهيم (عليه السلام) من المقيمين لها وأهله، فقد أسكن من ذريته عند البيت الحرام لإقامة الصلاة فيه، ليكونوا أسوة لغيرهم في هذه الفريضة. قال تعالى:

﴿ رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَوٰةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾.(٣) وقوله تعالى:

﴿ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ﴾.(٤)

وهاهو النبي إسماعيل (عليه السلام) كان أكثر امتثالاً لأمر الله في فرض الصلاة على أهله وأكثر طاعة لأبيه إبراهيم (عليه السلام) في إعمار البيت الحرام، وإقامة الصلاة فيه، قال تعالى: ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ ۚ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا (٥٤) وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَوٰةِ وَالزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴾(٥)

وكان أول ما طلب من النبي موسى (عليه السلام) أن يتبوّأ لقومه بمصر بيوتاً ظاهرة على البيوت، وأن يجعلها أماكن للعبادة وإقامة الصلاة. قال تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾.(٦)

وكان الحكيم لقمان صاحب الوصايا والإفتاء، وقد أدركه النبي داود (عليه السلام) وأخذ عنه العلم، يوصي الناس بالفضائل التي تجعل صاحبها يضع كل شيء في محله، ومن

---

(١) طه ١٣٢.
(٢) دز يحيى احمد الدرديري: اركان الاسلام الخمسة واثرها في الافراد والجماعات ٨٢.
(٣) ابراهيم ٣٧.
(٤) ابراهيم ٤٠.
(٥) مريم ٥٤-٥٥.
(٦) يونس ٨٧.

تلك الوصايا لابنه إقامة الصلاة. قال تعالى: ﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴾. (١)

وكان عهد الله تعالى وميثاقه من بني إسرائيل أن لا يعبدون إلاّ الله، وأن يحسنوا الى الوالدين، وذي القربى، واليتامى، والمساكين، والقول الحسن، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، فكانت إقامة الصلاة إحدى دعائم هذا الميثاق الموثق. قال تعالى:

﴿ وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ لَا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَانٗا وَذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنكُمۡ وَأَنتُم مُّعۡرِضُونَ ﴾. (٢)

وبيّن القرآن الكريم الشروط لمن يقيم الصلاة، وهي: الطهارة أو النظافة، وأولها الوضوء، لأن من شروط صحة الصلاة هو الوضوء بالماء فإن لم يكن فالتيمم بالتراب، ومثل هذه التهيئة للصلاة مع النية علامة على طهارة القلب والروح والبدن. قال تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾. (٣)

وقد منع من أداء الصلاة من كان على سكر بسبب تناول الخمر، فذهب عقله ولم يع ما يقول، وكذلك من كان على جنابة أو مريضاً أو على سفر أو جاء من الغائط أو لامس امرأته، فإن لم يجد ماء فالتيمم بتراب طاهر. قال تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغۡتَسِلُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾. (٤)

---

(١) لقمان ١٧.
(٢) البقرة ٨٣.
(٣) الانعام ٦.
(٤) النساء ٤٣.

والحفاظ على أداء الصلاة والدوام عليها من الموجبات على المسلم لأنها ركن مهم من أركان الدين، وهي أول ما يحاسب العبد عليه. قال تعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾.(1)ويصف تعالى المحافظين على أداء الصلاة في أوقاتها بأنهم رجال لا يشغلهم عن ذكر الله تعالى تجارة أو بيع، لأنهم يخافون يوم الحساب:

﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾. (2)

وكانت الصلاة عند المشركين هي الطواف حول البيت الحرام صفيراً وتصفيقاً بالأيدي، وتعريّاً للأجساد، وهي صورة مزرية يقابلها منع المؤمنين برب هذا البيت من أداء الصلاة فيه:

﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾. (3)

أما المصلّون الذين يغفلون عن أدائها أو يؤخرون وقتها عمداً أو نفاقاً فإن لهم واد في جهنم يعذبون فيه عذاباً شديداً لأنهم يتظاهرون بالإحسان وهم على خلاف ذلك. قال تعالى:

﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾. (4)

ولم تكن في نية المنافقين أن ينفقوا في سبيل الله، ولن تقبل نفقاتهم التي تعطى تظاهراً ورياء وهم كفروا بالله ورسوله، ولن تقبل صلاتهم وهم كسالى يتثاقلون في القيام إليها. قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾. (5)

ب- الزكاة:

الزكاة من زكّى يزكّي تزكية وزكاة، وزكى نفسه: مدحها، ويزكيهم: يطهرهم، فالزكاة: مبلغ من المال يؤدى لمن يحتاج إليه على وفق شروط محددة، وهي وسيلة من

---

(1) البقرة ٢٣٨.
(2) النور ٣٧.
(3) الانفال ٣٥.
(4) الماعون ٤-٧.
(5) التوبة ٥٤.

وسائل تطهير النفس، وتنقيتها من الذنوب والآثام، ورفعها الى أعلى درجات السمو والارتقاء. قال تعالى مخاطباً نبيه الكريم (صلى الله عليه وسلم): ﴿ خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾. [1] ويفسر البيضاوي ذلك بقوله: ((وتزكّيهم بها أي تنمّي بها حسناتهم، وترفعهم الى منازل المخلصين)) [2]

وتتوالى الآيات التي يدل فيها لفظ الزكاة على تطهير النفس، وذلك لقيمة المال لدى الإنسان وحبه له، وكان إخراجه تطهيراً للنفس من هذا الحب الذي يطغى ويردى، وبذل المال دون التمسك به دليل قوة أخلاقية وعظمة نفسية، استمدت فهمها من وظيفة المال في الحياة، وهي أن المال يخدم الإنسان، ولا يمكن للإنسان أن يكون خادماً له. قال تعالى:

﴿ وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن رِّبٗا لِّيَرۡبُوَاْ فِيٓ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرۡبُواْ عِندَ ٱللَّهِۖ وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن زَكَوٰةٖ تُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُضۡعِفُونَ ﴾.[3]وقوله تعالى في وصف المؤمنين:

﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴾. [4]وقوله تعالى في وصف أبي بكر الصديق (رضي الله عنه):

﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلۡأَتۡقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِي يُؤۡتِي مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ ﴾. [5] فقد أنفق الصديق كل ما يملك في شراء العبيد من أسيادهم الكافرين، وتحريرهم من رق العبودية. وفي معركة تبوك ((جاء بكل ماله، وهو أربعة آلاف درهم، فقال النبي (صلى الله عليه وسلم): هل أبقيت لأهلك شيئاً؟ فقال: أبقيت الله ورسوله)). [6]

وقد فرضت الزكاة في الأديان التي سبقت الإسلام، فكان الأنبياء إبراهيم وإسحاق ويعقوب (عليهم السلام) أمثلة يقتدى بها في فعل الخير وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة. قال تعالى: ﴿ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ نَافِلَةٗۖ وَكُلّٗا جَعَلۡنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِمۡ فِعۡلَ ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِۖ وَكَانُواْ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴾. [7]

---

(١) التوبة ١٠٣.
(٢) البيضاوي: تفسير البيضاوي (انوار التنزيل واسرار التاويل) ٣٥٨/١.
(٣) الروم ٣٩.
(٤) الحج ٤١.
(٥) الليل ١٧-٢١.
(٦) صفي الرحمن المباركفوري: روضة الانوار في سيرة المختار ٣١٤.
(٧) الانبياء ٧٢-٧٣.

وها هو النبي عيسى (عليه السلام) يتكلم في مهده مفنداً كل المزاعم التي تؤلهه، فهو عبد الله، سينزل عليه الكتاب، ويجعله نبياً، وتحوطه بركة الله أينما توجّه، وأوصاه بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة مدة حياته. قال تعالى: ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾. [1]

وتجب الزكاة في أربعة أصناف: زكاة الأنعام، وزكاة الزرع، وزكاة الذهب والفضة، وزكاة التجارة. وعلى وفق شروط خمسة: الإسلام، والحرية، وبلوغ النصاب، وتمام الملك، ومضي الحول أو السنة بتمامها. ولكل صنف من هذه الأصناف نسب معينة تدفع في سبيل الله، وللفقراء، والمساكين، والعاملين عليها، والمؤلفة قلوبهم، والرقاب، والغارمين، وابن السبيل.

ويضرب الله تعالى مثلاً للذين ينفقون أموالهم في سبيل الله مثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة، ويضاعف الله لمن يريد أن يزيد حسناته على أن لا يتبع ذلك العطاء منّاً أو أذى لمن أعطى فيبطل عمله. قال تعالى: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾. [2]

ج- الصوم:

الصوم الإمساك والامتناع، والصوم الإمساك عن الطعام والشراب والكلام والسير، وكل ممسك فهو صائم. والصيام تجربة إنسانية تهدف الى تحريك المشاعر الوجدانية، والإحساس بآلام الآخرين وحاجاتهم المادية والروحية، وتقوية النفس على تحمّل حالات القهر والذل، والقدرة على رفض الهوى والضلال.

ولم يكن الصوم بدعاً فقد كتب على الأمم السابقة للإسلام، كما في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾. [3]

وعندما أحست مريم (عليها السلام) بالخوف والحرج من حملها جاءها الخطاب الإلهي أن تأكل وتشرب وتقرّ عينها فتطيب نفسها ولا تحزن، فإن سألها أحد عن حملها تشير الى ما

---

(١) مريم ٣٠-٣١.
(٢) البقرة ٢٦٢.
(٣) البقرة ١٨٣.

يفهم أنها نذرت صوماً عن الكلام لله تعالى: ﴿ فَكُلِي وَٱشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴾. (١)

ويجب صيام رمضان على كل مسلم عاقل، بالغ، قادر على الصوم، ويبدأ برؤية هلال شهر رمضان أو إكمال عدة شعبان ثلاثين يوماً، ويبدأ الصوم من طلوع الفجر إلى غروب الشمس، ولا بد من النيّة قبل الفجر لصيام الفرض، وقد أجاز الله تعالى لمن كان مريضاً أو على سفر أن يفطر ثم يقضي تلك الأيام بعد رمضان صوماً، وفي ذلك تيسير وتخفيف من الله تعالى.

﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾. (٢)

ولم يجعل الله تعالى الصوم غاية وإنما عدّها وسيلة شرّعها ((تربية للإرادة، وتهذيباً للنفس، وتعويداً على الصبر، وتدريباً على التحمّل، وتذكيراً للغني بأخيه الفقير، وترغيباً في المواساة والتعاون والتراحم)). (٣)

وبيّن الله تعالى أحكام الصيام، ومنها تأجيل النكاح إلى ليل الصيام أو الوقت الذي يفطر فيه الصائم، وكان ممنوعاً قبل ذلك، وكأنما الصائم يخون نفسه بالجماع ليلة الصيام، فجاء الأمر بالسماح وتيسير طلب الولد الصالح، وتاب الله على كل من قام بذلك من قبل وعفا عنهم، وحدد زمن تناول الطعام والشراب الى الفجر حيث يختلط بياض النهار بسواد الليل. قال تعالى:

﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَٱلْـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ۚ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾. (٤)

---

(١) مريم ٢٦.
(٢) البقرة ١٨٥.
(٣) عبد الله محمد شحاته: فقه العبادات ٣٥٨.
(٤) البقرة ١٨٧.

وفريضة الصوم وهي إحدى شعائر الإسلام تتمكن من سلوك الإنسان وفكره، وقوله وفعله حتى تقدمه للإنسانية فرداً نقياً، فيشكل لبنة من البناء السليم للمجتمع الإسلامي. والصوم كما يقول الشيخ محمد عبده: ((يعد نفوس الصائمين لتقوى الله تعالى، ويظهر ذلك من وجوه كثيرة أعظمها شأناً، وأنصعها برهاناً، وأعظمها أثراً، وأعلاها خطراً أنه موكول الى نفس الصائم لا رقيب عليه فيه إلاّ الله تعالى، وسرّ بين العبد وربه لا يشرف عليه أحد غيره سبحانه، فإذا ترك الإنسان شهواته ولذّاته التي تعرض له في عامة الأوقات لمجرد الامتثال لأمر ربه، والخضوع لإرشاد دينه مدة شهر كامل في السنة... لا جرم أنه يحصل له من تكرار هذه الملاحظة المصاحبة للعمل ملكة المراقبة لله والحياء منه سبحانه أنه يراه حيث نهاه)). (١)

ويتحول الصوم الى وسيلة عقاب وتهذيب في آن واحد لكل نقض في العبادات الأخرى، ففي فريضة الحج وفي حالة الإحرام ينبغي إيصال الهدي الى محل الذبح، وبعد إتمام هذا المنسك يحق للحاج أن يحلق رأسه، فإن لم يحلقه بعد إتمام الذبح لمرض أو أذى في الرأس فعليه فدية من صيام أو صدقة أو شاة تذبح. وكذلك إن تمتع الحاج بعمرة منتظراً الحج فعليه ما تيسر من الهدي للذبح، فإن كان فقيراً فعليه ديّة وهي صيام عشرة أيام، ثلاثة أيام في الحج، وسبعة أيام بعد عودته الى أهله. قال تعالى:

﴿ وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِۖ وَلَا تَحْلِقُواْ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْيُ مَحِلَّهُۥۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍۚ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِي ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِي ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾. (٢)

وبيّن الله تعالى كذلك عقوبة الصيد للحاج المحرم بحج أو عمرة، فعليه جزاء عدد ما صاد من الأنعام، فيكون هدياً بالغ الكعبة للذبح، أو كفارة طعام مساكين، أو عدل ذلك صيام يوم عن كل مقدار مد من الطعام ليذوق جزاء عمله. قال تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَۚ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴾. (٣)

أما العقوبات الأخرى التي تكفر بالصيام فهي القتل الخطأ، فمن قتل مؤمناً دون قصد فعليه أن يعتق عبداً مؤمناً ودية من المال تسلم الى أهل المقتول، فإن كان المقتول مؤمناً

---

(١) د. يحيى احمد الدرديري: اركان الاسلام الخمسة ١١٦.
(٢) البقرة ١٩٦.
(٣) المائدة ٩٥.

وأهله من الأعداء فتحرير عبد مؤمن، وإن كان من قوم بينهم معاهدة وميثاق فدية مسلمة الى أهله وتحرير عبد مؤمن، فإن كان القاتل فقيراً ولم يجد ما يدفع جزاء عمله فعليه صيام شهرين متتابعين دون إفطار يوم واحد بينهما ليتوب الله عليه ويغفر ذنبه. قال تعالى: ﴿ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾.(١)

ويكفّر الصيام أيضاً عن اليمين، فلن يؤاخذ الله تعالى عن اليمين الذي يجري على اللسان دون قصد يمين، وإنما يؤاخذ عن اليمين الذي يوثق بالقصد والنيّة، فكفارته إطعام عشرة مساكين من معتاد ما يأكل في بيته، أو كسوتهم أو عتق إنسان مملوك، فإن لم يقدر على ذلك لفقره فعليه صيام ثلاثة أيام كفارة اليمين، على أن لا يحلف دون سبب قوي لذلك. قال تعالى:

﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ ۖ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾.(٢)

ويستخدم الصيام أيضاً للتكفير عن عادة الظهار الجاهلية التي يقول فيها الرجل لزوجته (أنت عليّ كظهر أمي) فتحرم زوجته عليه، وهو قول ينكره الشّرع والعقل، فإن أراد العودة الى زوجته فعليه عتق رقبة إنسان مملوك قبل أن يدخل بها، فإن كان فقيراً ولم يجد مالاً لتلك الكفارة فعليه صيام شهرين متتابعين دون إفطار بينهما، قبل أن يدخل بها أيضاً، أو إطعام ستين مسكيناً تلك حدود الله التي فرضها. قال تعالى:

﴿ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٣) فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ۗ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤) إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ۚ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾.(٣)

د- الحج:

الحج في الأصل القصد، وفي العرف قصد بيت الله الحرام في مكة للنسك والتعبد، وهي فريضة جمعت مبادئ التربية والتهذيب، وركن مهم من أركان الإسلام يحمل معاني الخير والطهر، إذ يعيد النقاء للعبد كما خلقه الله تعالى، وهو نقاء الفطرة وإشراق السريرة،

---

(١) النساء ٩.
(٢) المائدة ٨٩.
(٣) المجادلة ٤-٥.

وإخلاص لله يملأ حياته، ويدفعه الى بذل نفسه وماله في سبيل إعلاء كلمة الحق. قال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾. (١)

والبيت هو المسجد الحرام، وكان موجوداً منذ أن خلق الله الأرض وهبوط آدم (عليه السلام) عليها، وقد غمرت قواعده الرمال، فخفيت معالمه، فجاء الوحي لنبينا إبراهيم (عليه السلام) يدله على مكان البيت، ومادام قد دله على المكان فهذا دليل على وجوده قبل تكليف النبي إبراهيم (عليه السلام) بالنبوة والحج. قال تعالى: ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴾. (٢)

والكعبة الشريفة هي العلامة التي تبيّن مكان البيت الحرام، ولكن ليس هي الأحجار التي بنيت منها الكعبة، ومن هنا إننا لا نسجد للكعبة لذاتها، ولكننا نسجد لله متجهين الى بيته الذي علامته الكعبة، وهذه هي الحقيقة التي يعرفها المسلمون، ولا يعرفها غيرهم. ((ولكن بناء الكعبة لا يرتفع إلاّ عدة أمتار، أما أنت على ارتفاع ألوف ومع ذلك فصلاتك صحيحة، لأنك لا تسجد للحجر الذي بنيت منه الكعبة المشرّفة ويرتفع بضعة أمتار، هذا الحجر هو العلامة التي تدلك على المكان، ولكنك تسجد لله سبحانه وتعالى متجهاً الى بيته، وما دمت أخذت الاتجاه الصحيح وهو الذي تم تحديده بالكعبة المشرّفة فصلاتك صحيحة، وأنت إذا كنت تعمل في منجم تحت الأرض وجاء وقت الصلاة... هل تخرج من المنجم الى سطح الأرض أبداً، تقف في مكانك وتتجه الى القبلة وتصلي لله، وصلاتك صحيحة لأنك تسجد لله)). (٣)

والبيت الحرام يمثل الأمن والأمان لمن يدخله، ويريد الله تعالى إن من يدخل بيته أمّنوه ولا تؤذوه، ذلك أنه لا يصح أن يهاجم أي إنسان وقد دخل بيت الله، فهو أمر تكليف، ثم يبيّن سبحانه وتعالى دعاء إبراهيم (عليه السلام) بعد بناء الحج، وطلب معرفة مناسك الحج وقبول أدائها من العبد الحاج. قال تعالى:

﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾. (٤)

---

(١) آل عمران ٩٧.
(٢) الحج ٢٦.
(٣) محمد متولي شعراوي: القران الكريم معجزة ومنهج ٢/١٢٦-١٢٧.
(٤) البقرة ١٢٥-١٢٨.

وكان المشركون يفخرون بأن دينهم أفضل من دين محمد (صلى الله عليه وسلم) فهم ولاة البيت، وهم يسقون الحجيج، ويعمرون البيت ويديمون إصلاحه، ويقرون الضيف وغير ذلك من أعمال الخير، فكان الخطاب الإلهي يبين من خلال الموازنة بين الطرفين، هل تتساوى سقاية الحاج وعمارة البيت مع من آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله؟ بالطبع لا يمكن أن يتساوون عند الله. قال تعالى:

﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.(١)

ويبين الله تعالى شروط تمام الحج وعدم نقضه، فقد حدد أسبابه وأوقات التهيؤ له، والشروع في مناسكه، فمن أوجبه على نفسه أن يتجنب الرفث أو الكلام البذيء أو الفاحش، والفسوق أو المعصية وعمل الذنوب، ولا جدال أو خصام أو مماراة وملاحاة مع الآخرين، وما يفعله من خير يعلمه الله. قال تعالى:

﴿ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾.(٢)

والحاج في حالة الإحرام يستحب له أن يغتسل ويتطيب ويتجرد عن المخيط، ويلبس إزاراً ورداء أبيضين، ثم يحرم عقب الصلاة فيقول: لبيك اللهم عمرة أو حجّاً أو بهما، وهو ثلاثة أنواع: التمتع والإفراد والقران.

ولذا كان الخطاب الإلهي لسيدنا إبراهيم (عليه السلام) أن يرفع صوته بالنداء داعياً الناس الى حج بيت الله الحرام رجالاً مشاة على أقدامهم، وركباناً على إبل ضامرة يأتون من كل طريق بعيد، يأتون الى مكان يعود عليهم بمنافع دنيوية كالتجارة وعقد المعاملات للبيع والشراء، ومنافع أخروية تعود الى العبادة وعمل الخير والبذل والعطاء. قال تعالى:

﴿ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴾.(٣)

يقول الشيخ شلتوت: ((وإذا عرفنا أن كلمة (منافع) لا تعني في هذا المقام خصوص المنافع الروحية التي يحققها أداء الأفراد لمناسكهم، وإنما تعني كل ما ينفع المسلمين أفراد

---

(١) التوبة ١٩.
(٢) البقرة ١٩٧.
(٣) الحج ٢٧-٢٩.

وجماعات روحياً ومعنوياً وأخروياً عرفنا الأثر العظيم الذي يجب أن يحصل عليه المسلمون في بناء مجتمعهم من عبادة الحج، ولا ريب أن أول ما ينفعهم باعتبارهم أمة واحدة... هو ما يحقق لهم عملياً وحدتهم ويسمو بمجتمعهم)). [1]

هـ- الجهاد:

لو كان الدين الإسلامي دعوة الى الرهبانية والزهد لهان الأمر، ولما كان يشكل خطراً، ولكنه رسالة تحرير الإنسان من الذل والهوان وعبادة الأوثان، ولابد لهذه الرسالة أن تصطدم بقوى الكفر، وأن تنتصر عليها لينفتح أمامها الطريق الى الشعوب حتى تتطلع الى اشراقة الحق ونور التوحيد.

وقد حدد القرآن الكريم علاقة المسلم بالآخرين في كل مرحلة بما يناسبها، ويتدرّج مع أطوار الدعوة، فيلزم المؤمنين في كل مرحلة باتخاذ سلوك خاص تجاه المعتدين، الى أن استقر الأمر وأصبح كله لله، فهو يأمر بالصفح والصبر على إيذاء المشركين في مكة في مدة زمنية طال أمدها، وكان كلما جاء من أصحاب الرسول (صلى الله عليه وسلم) شاكياً متألماً ثائراً على الباطل يطلب الأذن لقتال الأعداء، يقول: اصبروا فإني لم أؤمر بقتال.

وبعد الهجرة الى المدينة المنوّرة وصار للمسلمين مجتمع يقوده الرسول (صلى الله عليه وسلم) فأصبح المسلم لا يثور لضرّ أصابه ببدنه، وإنما يثور لما يصيب دينه بضرر.

قال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾. [2]

وبعد أن تطوّر الإذن بالقتال الى مرحلة الوجوب مع تغيّر الظروف وجاوز قريشاً الى القبائل المتحالفة معها، فأخذ الرسول (صلى الله عليه وسلم) يرتب الحراسة والبيات مع السلاح، فأنشأ أول سرية عسكرية، وكان لواؤها أبيض، فتجوب حول المدينة، وإذا بروّاد لها يهاجمون عِيراً لقريش في موضع (نخلة) بين مكة والطائف، وفي آخر يوم من رجب من العام الثاني للهجرة، أثار المشركون ضجة أن المسلمين انتهكوا حرمة الشهر الحرام، والأشهر الحرم هي: رجب، وذو القعدة، وذو الحجة، ومحرّم. فنزل قوله تعالى:

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ

---

(١) محمود شلتوت: منهج القران في بناء المجتمع ١٣٠.
(٢) الحج ٣٩-٤٠.

﴿ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾.[1]

وكانت القافلة الراجعة من الشام التي يقودها أبو سفيان في غاية الحذر من تحرّكات المسلمين، فحوّل اتّجاهه عن بدر الى ساحل البحر، وأعلم قريش بخروج المسلمين فلما بلغهم الخبر استعدّوا سراعاً، وحشّدوا من حولهم القبائل، ووصلوا الى الجحفة، وبعد ذلك بلغتهم رسالة تخبرهم بنجاة القافلة، وتطلب منهم العودة الى مكة، ولكن أبا جهل أبى ذلك استكباراً إلاّ لمقاتلة المسلمين، فتقدم جيش المسلمين الى بدر، ونزل الى أقرب ماء من العدو، وفي صباح يوم الجمعة السابع عشر من رمضان من السنة الثانية للهجرة تراى الجمعان، وكانت معركة بدر بحق سميت معركة الفرقان، بين الإيمان والكفر، بين الحق والباطل، وقطعت صلة القرابة لتقيم صلة الدين، وجاهد فيها المسلمون جهاداً فقاتلت الملائكة معهم، وكان النصر حليف المؤمنين. قال تعالى: ﴿ كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ﴿٥﴾ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٦﴾ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾.[2]

وكانت المعركة تدبيرا من الله في الزمان والمكان والكيفية وهي تقليل عدد العدو في الأعين، وكذلك تقليل عدد المسلمين في أعينهم، ليقضي الله أمراً كان مفعولا. قال تعالى:

﴿ إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَٰدِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾.[3]

وهاهي قريش تستعد للانتقام من المسلمين مما أُصيبت به في بدر، فجهزت جيشاً قوامه ثلاثة آلاف مقاتل، فتحرّك الجيش بقيادة أبي سفيان حتى وصل الى جبل أحد قرب

---

(١) البقرة ٢١٧.
(٢) الانفال ٥-١٠.
(٣) الانفال ٤٢-٤٣.

المدينة، وتحرك جيش المسلمين في نحو ألف مجاهد نحو الجبل جاعلاً ظهره إليه، ووضع خمسين رجلاً من الرماة على جبل عينين، وأمرهم أن لا يتركوا مكانهم حتى يأتي أمره، وأبلى المسلمون بلاء حسناً ووقعت الهزيمة بالمشركين حتى لاذوا بالفرار، فنزل الرماة من الجبل ليصيبوا غنيمة، وانتهز خالد مع سريته هذه الفرصة فأصبح خلف المسلمين، ورجع الكفار فأصبح المسلمون مطوّقين بين شقي العدو، ووقعت الهزيمة والقتل، وتفرّق المسلمون من ساحة المعركة، فمنهم من عاد الى المدينة، ومنهم من صعد الجبل مع رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، وعاد جيش المشركين يتوعدهم بمعركة في العام القادم، وكانت هذه المعركة اختبارا للمؤمنين ومحقا للكافرين. قال تعالى:

﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾.[1]

وفي معركة الأحزاب (الخندق) خرج عدد من اليهود الى قريش يحرّضونهم على غزو المدينة، ووعدوهم بالعون والنصر، فأجابت قريش وأجابت معهم قبائل العرب الأخرى، وتحرّك هؤلاء جميعاً تحت خطّة منسقة يصلون فيها جميعاً الى أطراف المدينة، وبلغ الخبر الى الرسول(صلى الله عليه وسلم) فأشار الصحابي سلمان (رضي الله عنه) بحفر خندق من جهة الشمال، لأن الجهات الأخرى حصينة، تحيط بها الحرّات أو المرتفعات.

وأقبلت قريش في شوال من السنة الخامسة للهجرة في أربعة آلاف يرأسهم أبو سفيان، وأقبلت معها القبائل في ثلاثة آلاف مقاتل يحمل لواءهم طلحة العبدري، وكان قدوم هذا الجيش العرمرم الى المدينة قد زلزل القلوب، ووقف عند حافة الخندق، وقد حاول عبوره فلم يفلح، وجرى تراشق بالنبال، وحدث خلاف بينهم وبين حلفائهم اليهود فتخاذلوا، ثم أرسل الله عليهم ريح أطارت خيامهم وكفأت قدورهم فانسحبوا خائبين. قال تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾.[2] وقوله

(١) آل عمران ١٤٠-١٤٢.
(٢) الاحزاب ٩-١١.

تعالى: ﴿ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴾.[1]

وفي العام الثامن للهجرة كان الفتح الأعظم لمكة المكرمة، إذ أظهر الله دينه، وطهّر بيته، وهدى الناس أفواجاً الى الإيمان. وأصل هذا الفتح أن قبيلة خزاعة قد دخلت في تحالف مع المسلمين في عهد الحديبية، وقد أغارت عليهم قبيلة بكر المتحالفة مع قريش، وطاردوهم حتى المسجد الحرام وقاتلوهم فيه، وأعانتهم قريش على ذلك، فبلغ الرسول (صلى الله عليه وسلم) الخبر، فتجهز لذلك واستنفر القبائل من حول المدينة، فأصبح جيشه عشرة آلاف من المقاتلين، ووزع الكتائب التي ستدخل من جهات مكة، وخرج أبو سفيان مترقباً لعله يرد الجيش عن مكة ولكنه أسلم وصارت داره أمناً لمن يدخل فيها، وكذلك من يدخل المسجد الحرام، ومن يغلق عليه بابه فهو آمن. ولما فرغ الرسول (صلى الله عليه وسلم) من الطواف حول الكعبة، دعا عثمان بن طلحة فأخذ منه مفتاح الكعبة وأمر بفتحها، ثم أمر بإخراج ما فيها من الأصنام فكسرت، وما فيها من الصور فمحيت، ثم دخل إليها وصلى فيها ركعتين، ثم خرج وأعاد المفتاح الى عثمان بن طلحة. وكانت قريش قد ملأت المسجد الحرام، فقال: يا معشر قريش ما ترون اني فاعل بكم؟ قالوا: خيراً أخ كريم وابن أخ كريم. قال: لا تثريب عليكم اليوم. اذهبوا فأنتم الطلقاء. فجلس وأخذ الناس يبايعونه.

وحان وقت الظهر فأمر بلال أن يؤذن على ظهر الكعبة، وكان ذلك بمثابة إعلان عن ظهور الإسلام، فأغاظ ذلك المشركين، وخلال إقامة الرسول في مكة أمر بهدم الأصنام الكبرى مثل: عزّى، وسواع، ومناة، وغيرها، وبذلك تحققت الرؤيا التي أراها الله تعالى للنبي محمد (صلى الله عليه وسلم) أن الفتح آت، وأن الحق منتصر، وأن الباطل مندحر. قال تعالى:

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾.[2]

(١) الاحزاب ٢٢.
(٢) الفتح ٢٢-٢٧.

وبعد سلسلة من الغزوات مثل: حنين، والطائف، وتبوك، ومطاردة المشركين في كل مكان من أرض الجزيرة العربية، جرى تحطيم الأصنام وهدم معاقل الوثنية، وارتفعت راية الإسلام في كل البقاع، وظهرت قوة المسلمين أمام الروم في تبوك، نزلت سورة التوبة فحددت منهج الإسلام في تعامله مع المشركين وأهل الكتاب. قال تعالى:

﴿ بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾.[1]وقوله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾.[2]

ومع بيان ذلك الأمر الإلهي ((استقر أمر الكفار مع الرسول بعد نزول براءة على ثلاثة أقسام: محاربين له، وأهل عهد، وأهل ذمة، ثم آلت حال أهل العهد والصلح الى الإسلام، فصاروا معه على قسمين: محاربين وأهل ذمة، والمحاربون له خائفون منه، فصار أهل الأرض معه ثلاثة أقسام: مسلم مؤمن به، ومسالم له آمن، وخائف محارب... فكان القتال محرّماً، ثم صار مأذوناً فيه، ثم مأموراً به لمن بدأهم بالقتال، ثم مأموراً به لجميع المشركين)) [3]

٦- الأحكام والمعاملات:

يتناول القرآن الكريم الأسس التي تنظّم المجتمع الإسلامي في المعاملات الاجتماعية، وسن القوانين التي تحفظ حقوق الإنسان، ووضع الحدود التي ينبغي للمسلم أن لا يتعداها لئلا يقع في دائرة القصاص أو العقوبة المحددة وفق الأحكام التي نص عليها الله سبحانه وتعالى ((ليحسم في هذا الأمر، وأن يقطع الطريق على الرغبة البشرية الخفية في التساهل مراعاة للاعتبارات والظروف، وتأليفاً للقلوب حين تختلف الرغبات والأهواء)). [4]ومن هذه الأحكام التي وردت في القرآن الكريم وما يوجب فيها من الحلال والحرام:

أ- أحكام الطعام والشراب:

---

(١) التوبة ١.
(٢) الفتح ٢٨-٢٩.
(٣) ابن قيم الجوزية: زاد المعاد في هدى خير العباد ٨١/٢.
(٤) سيد قطب: في ظلال القان ٧٤٨/٢.

بيّن الله تعالى الأحكام التي تخص الطعام والشراب في أربع سور تقريباً لها علاقة بالطعام وهي: البقرة، والمائدة، والأنعام، والنحل، فأرشدنا الى الحلال، ونهانا عن المحرّم منه، وكان خطابه للمؤمنين أن يأكلوا الطيبات من الطعام، وإزاء هذا العطاء وجب الشكر والحمد للمعطي، فحرّم الحيوان الميّت التي خرجت روحه بغير ذبح على الوجه الشرعي، والحيوان الذي ذبح ولم يذكر عليه اسم الله، والدم، ولحم الخنزير، واستثنى من ألجأته الضرورة أو الحاجة الى أكل شيء من هذه المحرمات غير متعد لحدود الله تعالى بقصد سد الجوع، والله غفور رحيم. قال تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ١٧٢ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ ٱللَّهِۖ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴾.(1)

وقد جعل الله تعالى الحرام مقروناً بالضرر والحلال مقروناً بالفائدة، وخالق الإنسان يعلم ما يضره وما ينفعه. ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمۡۖ قُلۡ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ﴾(2) و﴿ ٱلۡيَوۡمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حِلّٞ لَّكُمۡ وَطَعَامُكُمۡ حِلّٞ لَّهُمۡ ﴾(3)وأن لا يحرّم الطيّب من هذا الطعام الذي أحلّه الله تعالى، وأن لا يتجاوز المؤمن الحدود التي وضعها الله له. قال تعالى:
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ٨٧ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ ﴾.(4)وكذلك قوله تعالى:

﴿ وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلۡسِنَتُكُمُ ٱلۡكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٞ وَهَٰذَا حَرَامٞ لِّتَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ١١٦ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾.(5)

وإذا عدنا الى الماضي فإن الطعام كان حلالاً لبني إسرائيل قبل التوراة، إلاّ ما حرّموا على أنفسهم، ولم يحرّمه الله تعالى عليهم، فلما نزلت التوراة لم يرد فيها مثل ذلك التحريم، وقد خالفوها وبقوا على ما حرّموا، وقد أشار القرآن الكريم لذلك:

(1) البقرة ١٧٢-١٧٣ وينظر: سورة الانعام ١١٨-١٢١ وسورة النحل ١١٥.
(2) المائدة ٤.
(3) المائدة ٥.
(4) المائدة ٨٧-٨٨.
(5) النحل ١١٦-١١٧.

﴿ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسۡرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ مِن قَبۡلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوۡرَىٰةُۗ قُلۡ فَأۡتُواْ بِٱلتَّوۡرَىٰةِ فَٱتۡلُوهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٩٣ فَمَنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾.[1]

وقد بيّن الله تعالى ما حرّم على اليهود كل حيوان ذي ظفر أي ليس منفرج الأصابع، أو كل حيوان له مخالب، ومن البقر والغنم حرّم شحومها إلاّ ما علق في ظهورها من الشحم، أو ما علق بالحوايا أي المصارين والأمعاء فإنه حلال، وكذلك حلال ما اختلط الشحم بالعظم مثل إلية الظأن، وكان هذا التحريم جزاء فسادهم وكبرهم وظلمهم. قال تعالى:

﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٖۖ وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ وَٱلۡغَنَمِ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتۡ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلۡحَوَايَآ أَوۡ مَا ٱخۡتَلَطَ بِعَظۡمٖۚ ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِبَغۡيِهِمۡۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴾.[2]

وكان ظهور السيد المسيح (عليه السلام) رحمة للعالمين وتصديقاً لما بين يديه من التوراة، وأحلّ لهم ما حرّم عليهم في التوراة تخفيفاً من الله تعالى، فضلاً عما يحمله من معجزات إلهية تدل على ثبوت نبوته. قال تعالى: ﴿ وَمُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيۡكُمۡۚ وَجِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾.[3]

أما المشركون فإنهم يفترون على الله كذباً في ادعائهم تخصيص أنعام لا تذبح وتوزّع للناس وإنما خصصت لخدام الأصنام وكهنتها، وكانوا يزعمون أن الله قد أذن لهم بذلك، وهذه دعوة باطلة، وأنعام حرّمت ركوبها والحمل عليها، بل تترك كالسائبة والبحيرة والحامي، وأنعام تذبح ولا يذكر عليها اسم الله. وكل هذه المزاعم افتراء وكذب على الله. قال تعالى:

﴿ وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنۡعَٰمٞ وَحَرۡثٌ حِجۡرٞ لَّا يَطۡعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعۡمِهِمۡ وَأَنۡعَٰمٌ حُرِّمَتۡ ظُهُورُهَا وَأَنۡعَٰمٞ لَّا يَذۡكُرُونَ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا ٱفۡتِرَآءً عَلَيۡهِۚ سَيَجۡزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴾.[4]

وكان الخطاب الإلهي الموجّه الى النبي (صلى الله عليه وسلم) إزاء أكاذيب المشركين هو المطالبة بإعطاء الأدلة على هذا التحريم مثل الشهداء الذين يشهدون على مزاعمهم، فإن أتوا بهم فلا يصدق بهم، ولا يتبع أهواءهم لأنهم قوم لا يؤمنون بالله ولا برسوله ولا بالآخرة. قال تعالى

---

(١) آل عمران ٩٣-٩٤.
(٢) الانعام ١٤٦ وينظر النحل ١١٨.
(٣) آل عمران ٥٠.
(٤) الانعام ١٣٨.

﴿ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَاۖ فَإِن شَهِدُواْ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾.[١]

ومن الشراب الذي حرّمه الله تعالى الخمر، ويصنع من التمر أو العنب أو التين، فقد حرّمه تدريجيّاً، ونزلت فيه الآيات تبيَن الذنوب والآثام التي يسببها شرب الخمر إزاء منافع قليلة. قال تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ﴾.[٢] فنفر منها كثير من العقلاء ترجيحاً للصلاح على الفساد. ثم ينزل الخطاب الثاني فينهى عن تعاطي الخمر في أوقات الصلاة، ليعلم المصلّي ماذا يقول، فيتثبت من قوله. قال تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ ﴾.[٣] فابتعد عنها المسلمون خلال النهار حتى لا تفاجئهم الصلاة وهم سكارى. ثم انتهى الخطاب الى تجنب الخمر وما حولها، من يعملها، ومن يبيعها، ومن يهديها، وجماعة الشاربين. لأنها رجس من الشيطان، فاجتنبها المسلمون كافة. قال تعالى:

﴿ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾.[٤] ومن العجب نجد أن الخمر هي إثم بالفطرة، فما من مجلس تجري بينهم الخمر وبينهم رجل لا يشربها إلاّ وأحسّوا جميعاً بالإثم، وإنهم يرتكبون ذنباً كبيراً، حتى ولو كانوا جميعاً غير مسلمين.

ب- أحكام المال والذهب والفضة:

- البيع والربا:

إن الأساس الذي تقوم عليه حياة المجتمع وازدهاره هو البيع والشراء، وأول خطوة فيهما هي النية الصادقة لمن باع أو اشترى، وقضاء حاجات الناس وتسهيل أعمالهم اليومية، فالبائع ينبغي أن لا ينزلق الى مهاوي الشيطان فيغش في بيعه، ويحلف باطلاً ليزيد في ثمن سلعته، وينقص الميزان والمكيال ليربح المال الحرام.

---

(١) الانعام ١٥٠.
(٢) البقرة ٢١٩.
(٣) النساء ٤٣.
(٤) المائدة ٩٠.

وفي رواية: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ((البيعان بالخَيار ما لم يتفرّقا، أو قال حتى يتفرّقا، فإن صدقا وبيّنا بورك لهما في بيعهما، وإن كتما وكذبا مُحقت بركة بيعهما)). [١]

ويصف الله تعالى قوة المؤمنين في إيمانهم بحيث لا تُلهيهم تجارة ولا بيع وما فيهما من ربح للمال عن عبادة الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، لأنهم يخافون يوم القيامة التي تتقلّب فيها القلوب بين الخوف والرجاء. قال تعالى: ﴿ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴾. [٢]

أما الربا فهو ليس بيع في سلعة أو مادة أو طعام وإنما هو إعطاء مال محدد لقضاء دين ثم إعادة المال مع زيادة معينة عليه، ومثل هذا الربح يعد حرام شرعاً، فالله يهلك المال الذي جاء من الربا فتذهب بركته، وينمّي المال الذي جاء من البيع وأخرجت منه صدقته. قال تعالى:

﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا ۗ وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا ۚ فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٧٥) يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴾. [٣]

ويأتي الأمر الإلهي بترك ما بقي من الربا عند الناس خوفاً من الله تعالى، فإن لم يفعلوا فليكونوا على علم بأنهم على حرب مع الله ورسوله، فإن تابوا عن فعلهم، فإن رؤوس أموالهم الخالية من الربا يمكن توظيفها في التجارة والعمل فينتج عنها ربحاً حلالاً. قال تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٧٨) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾. [٤]

وكان اليهود أول من قام بتجارة الربا وهي إقراض المال للناس واسترجاعه مضاعفاً، وقد انتشرت فيهم هذه التجارة الحرام، فحرّم الله عليهم طيّبات من الطعام والشراب والمال والأعمال بسبب ظلمهم لأنفسهم، وصدّهم عن الإيمان بالله تعالى، وأخذهم الربا وقد نهوا عنه في التوراة، وأخذهم أموال الناس بالحيلة والباطل، فأعدّ الله لهم العذاب الأليم. قال تعالى:

---

(١) البخاري كتاب البيوع باب (١٩، ٢٢) ص٣٥٩ ومسلم صحيح مسلم كتاب البيوع باب (١١) ص٥٧٢.
(٢) النور ٣٧.
(٣) البقرة ٢٧٥-٢٧٦.
(٤) البقرة ٢٧٨-٢٧٩.

﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾
وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾.[١]

- **الدّين والأمانة:**

يتوجّه الخطاب الإلهي نحو المؤمنين في كيفية التعامل مع الدّين (بفتح الدال) فإذا تداينوا مبلغاً من المال أو بضاعة أو حاجة الى وقت محدد فاكتبوه، أي اذكروا مقدار المبلغ مع اسمي الدائن والمدين وتاريخ التسلّم وتاريخ الإعادة مع شاهدين. وليكتب هذا كاتب بالعدل أي لا يحرّف ما يكتب ولا ينقص أو يزيد فيه، أو يتلاعب بكتابته، ولا يمتنع أن يكتب كما علّمه الله بالحق والعدل. فإن كان المستدين الذي عليه الحق سيء التصرف مبذّراً أو خرفاً أو لا يعرف الكتابة فليكتب من ينوب عنه بالعدل، ويشهد على ذلك شاهدان من الطرفين، فإن لم يكونا فرجل وامرأتان، مخافة أن تخطئ أو تنسى واحدة، فتذكّر احداهما الأخرى، ولا يمتنع الشاهدون إذا ما دعوا للشهادة، ولا يضجر الطرفان من كتابة الدين إن كان قليلاً أو كثيراً الى وقته المعلوم، لأن ذلك أعدل عند الله، وهو أقرب الى عدم الشك، وفي التجارة المتداولة شراكة لا ضير في عدم الكتابة، وتبقى الشهادة وحدها في المبايعة. فإن حدث الدّين في سفر، ولم يجدا كاتباً فرهان مقبوضة، وبعد أداء الدين تؤدى الأمانة الى صاحبها. قال تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ۚ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُوا۟ ۚ وَلَا تَسْـَٔمُوٓا۟ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓا۟ ۖ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ۗ وَأَشْهِدُوٓا۟ إِذَا تَبَايَعْتُمْ ۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ۚ وَإِن تَفْعَلُوا۟ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾.[٢]

أما الأمانة فهي تكليف ثقيل قبل الإنسان بحملها وكان جاهلاً بحقّها، وامتنعت السماوات والأرض والجبال عن حملها لثقلها، والأمانة هنا الشهادة بالحق طواعية وبمحض

---

(١) النساء ١٦١.
(٢) البقرة ٢٨٢-٢٨٣.

الإرادة، فإن أعطى إنسان لآخر مالاً وكتب ورقة تثبت العطاء، فإن هذه ليست أمانة، لأن الورقة تثبت حقه، وتخرجه من دائرة الاختيار في الإنكار أو القول نعم أو لا. وإن أعطى إنسان لآخر مبلغاً من المال دون وجود شهود، ودون ورقة مكتوبة، فإنه قد أعطى المال أمانة، فيكون هنا حق الاختيار موجود في الإثبات أو الإنكار، أو قول الحق أو الباطل. قال تعالى:

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾. (١)

فهذه الأمانة تقبل التكليف بأوامر ونواه لتميّز من يشكره عليها، فلا يستعملها إلاّ بما يرضي الله، وهي حق الاختيار. ((إذن الأساس هنا هو الاختيار، والإنسان عندما حمل الأمانة معناها أنه أخذ حرية الاختيار في أن أفعل ولا تفعل. ومن هنا كانت الرسالات السماوية التي نزلت للإنسان لأنه قبل حمل الأمانة أي أخذ الاختيار في يده ليفعل أو لا يفعل. أخذه وهو يحسب أنه قادر على أن يفعل ما يرضي الله، وأن يتجنب ما يغضبه، ولكن إغراء الشيطان، وبريق الدنيا، وضعف النفس البشرية لم يكن في حسابه. وبذلك كان ظلوماً لنفسه في أنه اعتقد فيها أكثر من قدراتها، وهذا هو الغرور الذي إذا دخل النفس خرج منها الإيمان)). (٢)

وأداء الأمانة أو إعادتها الى أصحابها واجب شرعاً، نتج عن أمر إلهي لا مرّد له، مضاف إليه العدل في الحكم، والعمل بهذه الأحكام قطعي لا تردد فيه، أو التراجع عنه. قال تعالى:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾. (٣) ومن صفات المؤمنين عند الله تعالى الحفاظ على الأمانة:

﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴾. (٤) وراعون أي حافظون لها.

والأمانة عند أهل الكتاب ليسوا سواء في أدائها فإن أؤتمن أحدهم بقنطار من المال وهو مبلغ كبير جداً يعيده الى صاحبه، وإن أؤتمن آخر بدينار واحد لا يعيده الى صاحبه إلاّ إن كان مطالباً به، وذلك لأنهم يرون ليس هناك من عتاب أو ذم أو إثم في أخذ مال الأميين، ويريد بهم العرب أو غيرهم من الأمم، وهم ينسبون ذلك الباطل الى الله تعالى عما ينسبون ويكذبون. قال تعالى:

---

(١) الاحزاب ٧٢.
(٢) محمد متولي شعراوي: القران لكريم معجزة ومنهج ٣٣-٣٤.
(٣) النساء ٥٨.
(٤) المؤمنون ٨.

﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾.[١]

- **الوصية بالورثة ومال اليتيم:**

الوصية تكليف ملزم بأمر ما يخص الموصى به، وهو بمثابة أمر وفرض من الله تعالى، ومن ذلك ما نراه في خطابه للمؤمنين إذا حضر أحدهم الموت حين أداء الوصية أن يكون هناك شاهدان عادلان لسماع الوصية من الأقرباء أو البعيدين، فإن كان الذي أشرف على الموت في سفر فيحجزهما الى ما بعد صلاة العصر فيقسمان بالله إن حدث شك وارتياب في شهادتهما أنهما لا يبغيان عرض الحياة الدنيا بالآخرة، ولا يكتمان شهادة الحق فيأثمان عليها، فإن ظهر أنهما استحقّا الإثم فشاهدان آخران يقسمان أن شهادتهما أحق ولم يتعديا حدود الله فيكونا من الظالمين، وهذا أقل ما يمكن عمله وهو يمين الشهادة بعد الصلاة خوفاً من إرجاع اليمين إلى الورثة:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُم مُّصِيبَةُ الْمَوْتِ ۚ تَحْبِسُونَهُمَا مِن بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۙ وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَّمِنَ الْآثِمِينَ (١٠٦) فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيَانِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِن شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ (١٠٧) ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَن تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾.[٢]

وأوصى الله تعالى بالميراث في أولاد المتوفى للذكر نصيب يعادل أنثيين، أي ضعف حصة الأنثى الواحدة، فإن كانتا فوق اثنتين فلهنَ ثلثا النصيب، وإذا كانت واحدة فلها النصف ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك إن كان له ولد وله والدان فلأمه الثلث، وإن كان له أخوة فلأمه السدس من بعد وصية يوصي بها أو دين. قال تعالى:

﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ ۚ فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ۖ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ ۚ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ ۚ فَإِن لَّمْ

---

(١) آل عمران ٧٥.
(٢) المائدة ١٠٦-١٠٨.

يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٞ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗاۚ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴾.(١)

وللرجال نصف ما تركت الزوجة إن لم يكن لها ولد، فإن كان لها ولد فللزوج الربع مما تركت المرأة بعد وصية توصي بها، ولها الربع مما ترك الزوج إن لم يكن لها ولد، فإن كان له ولد فللمرأة الثمن مما ترك الزوج بعد وصية يوصي بها، وإن كان رجل يورث كلالة أي رجل ميّت ليس له والد أو ولد، أو امرأة مثله ليس لها والد أو ولد وله أخ أو أخت فلكل واحد منهما السدس، فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث بعد وصية يوصي بها أو دين غير ضار. قال تعالى:

﴿ وَلَكُمۡ نِصۡفُ مَا تَرَكَ أَزۡوَٰجُكُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٞۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٞ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡنَۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِينَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۚ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡتُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّكُمۡ وَلَدٞۚ فَإِن كَانَ لَكُمۡ وَلَدٞ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكۡتُمۚ مِّنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ تُوصُونَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۗ وَإِن كَانَ رَجُلٞ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمۡرَأَةٞ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوۡ أُخۡتٞ فَلِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُۚ فَإِن كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمۡ شُرَكَآءُ فِي ٱلثُّلُثِۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصَىٰ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ غَيۡرَ مُضَآرّٖۚ وَصِيَّةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٞ ﴾.(٢)

إن آيات المواريث السابقة هذه قد سبقتها وصية الوالدين عند الموت، وقد نسخ وجوب هذه الآية بعد نزول تلك الآيات، وهي إذا حضر أحد الناس الموت فينبغي أن يوصي لوالديه والأقربين إليه، ويحذر إنّ من يتلاعب في تلك الوصية أو يبدلها فإنما يتحمل إثمها، ومن خاف من الموصي ميلاً عن الحق خطأ أو جهلاً كأن يزيد على الثلث لينقص حق الوارث، ومن دخل للإصلاح فلا إثم عليه في مثل هذا الموقف. قال تعالى:

﴿ كُتِبَ عَلَيۡكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ إِن تَرَكَ خَيۡرًا ٱلۡوَصِيَّةُ لِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُتَّقِينَ ١٨٠ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعۡدَ مَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثۡمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ١٨١ فَمَنۡ خَافَ مِن مُّوصٖ جَنَفًا أَوۡ إِثۡمٗا فَأَصۡلَحَ بَيۡنَهُمۡ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾.(٣)

أما اليتيم فهو الطفل الذي فقد أبويه أو أحدهما، ويحتاج الى الرعاية والحنان حتى يبلغ أشده، ويحتاج في يتمه الى النصح والإرشاد والتوجيه لفعل الخير، وتأتي تلك

---

(١) النساء ١١.
(٢) النساء ١٢.
(٣) البقرة ١٨٠-١٨٢.

التوجيهات أُكلها من خلال المخالطة به، وإحساسه بالأخوة والله تعالى يعلم نوايا المفسدين والصالحين، ولو أراد التكليف لشقّ عليهم. قال تعالى:

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾. (١)

ويحذّرنا الله تعالى من التقرب من مال اليتيم، والنهي عن التقرب من المال أبلغ وأشد من (ولا تأكلوا مال اليتيم) حتى يبلغ رشده، ويستحكم عقله. قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ... ﴾. (٢)ويؤكد الأمر الإلهي على إعطاء اليتامى أموالهم عند بلوغهم الرشد، وأن لا يأخذوا الطيب من أموالهم ويضعوا الخبيث محلّه، ولا يضيفوا من مال اليتيم إلى أموالهم طمعاً ودناءة، فيدل ذلك على إثم وذنب كبير. قال تعالى:

﴿ وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَـٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴾. (٣)

ثم يضع الله تعالى شرطاً قبل إعطاء المال لليتامى وهو اختبارهم في الاهتداء لحسن التصرّف في أموالهم قبل البلوغ، فإن بلغوا السن المؤهل للزواج، أدركتم أو علمتم أنهم اهتدوا لذلك فأعيدوا إليهم أموالهم ولا تأخذوها زيادة لأموالكم مبادرين الى إعادتها قبل أن يكبروا فينتزعونها من أيديكم، ومن كان غنياً من الأوصياء فليكف عن أخذ مالهم، ومن كان فقيراً فليأخذ القليل منه، وإن أعدتم المال إليهم اجعلوا شهداء على ذلك. قال تعالى:

﴿ وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَـٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟ ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴾. (٤)

- **السرقة:**

وضع القرآن الكريم العقوبة الرادعة للسرقة وهي قطع اليد جزاء لما اقترفت من أخذ المال أو الحاجات دون علم صاحبها ورضاه، وهنا حد معيّن من السرقة يستوجب قطع اليد، وبموجب الحدود التي وضعها الله تعالى ينال السارق العقاب.

ويوظف الحد تارة بوصفه جريمة بذاتها تقع من الأفراد وتخل بنظام المجتمع، وتارة أخرى يوظف معنى العقوبة المنصوص عليها لتلك الجريمة التي يتدخل ولي الأمر لعقاب مرتكبها، وكمبدأ عام لا يجوز فيها العفو، ولا تقبل فيها الشفاعة، ولها عقوبة محددة في

---

(١) البقرة ٢٢٠.
(٢) الانعام ١٥٢ وينظر الاساء ٣٤.
(٣) النساء ٢
(٤) النساء ٦.

الشرع، وتارة ثالثة يوظف الحدود بمعنى الأحكام الشرعية التي بيّن الله عزّ وجل تحليلها وتحريمها، وأمر أن لا يتعدى الإنسان تلك الأحكام، فيخالف حكم الله فيما أمر به أو نهى عنه. [١]قال تعالى:

﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَـٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾. [٢]

ج- حقوق المرأة:

رفع القرآن الكريم مكانة المرأة بعد أن كانت سلعة تباع وتشترى، وصانها وطهّرها لتكون أُمّاً صالحة، وزوجة وفية، فشاركت في جميع ضروب الحياة من علم وعمل وجهاد، وأصبح لها حقوق وواجبات مثل الرجال ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ ﴾[٣]وأصبحن يعبرن عن رأيهنّ ولا يخشين في الحق لومة لائم. ومن حقوق المرأة:

- الزواج:

اهتم القرآن الكريم بالزواج لما فيه من إحساس بأن المرأة من نفس الرجل، وجزء لا ينفصل عنه، ويرى أن الجنس البشري بكل أفراده يعود في الحقيقة الى أصل واحد ونفس واحدة، وانها ما تكاثرت بالزواج إلاّ لتكون شعوباً وقبائل لتتعارف وتتآخى بسبب وشيجة الرحم. قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾. [٤]

وقد اختصّت سورة النساء بأحكام شرعية تخص المرأة ونظام الأسرة، فتبيّن أن العلاقة بين أفرادها ((ليست صفقة تجارية بين شريكين في المعيشة، ولا ضرورة لإسكات صيحات الجسد والاستراحة من غوايته الشيطانية، ولا تسويغ الشهوة بمسوّغ الشريعة، ولا هي علاقة عدمها خير من وجودها إذا تأتى للرجل والمرأة أن يستغنيا عنها)). [٥]

---

(١) احمد فتحي البهنسي: الحدود في الاسلام ٣٠-٣١.
(٢) المائدة ٣٨-٣٩.
(٣) البقرة ٢٢٨.
(٤) النساء ١.
(٥) العقاد: القلسفة القرانية، كتاب الهلال العدد ٢٢٩ مارس ١٩٧ ص٦٨-٦٩.

ولقد جعل الله تعالى الزواج رحمة وآية من آياته بما أودع فيه من سر المودّة والهدوء والاستقرار. وقد عبّر عن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾.(١)

والسكن لفظ له جرس خاص يوحي بما تحتاج إليه النفس من السكينة ((فلا زواج بغير مودّة ورحمة، ولا حكمة للزواج إن لم يكن ملاذاً يأوي إليه الزوجان معاً الى سكن يلقيان عنده أعباء الصراع العنيف في الحياة الخارجة الى حين، وخير الزواج ما استطاع أن يدير الإنسان كهفاً أميناً يثوب إليه كلما ألجأته المكاسب والشواغل الى ظلاله، وانه ليعيش من الدنيا في جحيم موصول العذاب إن لم يكن له فيها ذلك الكهف الأمين)). (٢)

ولن نرى أبلغ من التعبير القرآني في جعل المرأة ستراً للرجل عن الحرام، ومانع من الوقوع فيه، والرجل ستر للمرأة في تلبية حاجتها، ومنعها من الذل وإراقة ماء الحياء عنه، ومثل هذا التبادل يدل على الملابسة والمخالطة الجسدية والروحية. قال تعالى: ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ... ﴾.(٣)

وقد حدد القرآن الكريم عدد الزوجات في الإسلام الى أربع، ووضع شرطاً وهو العدل بينهن حتى في النظرة والميل والهوى، وتحرّم الزيادة فوق هذا العدد، فإن خاف الرجل هذا الشرط وهو العدل في كل شيء، فواحدة من النساء وهو أقرب الى الإنصاف والعدل في النفقة وسائر الحقوق.

- **الصداق (المهر):**

وصداق المرأة أو مهرها ينبغي أن يعطيه الرجل لها عن طيب نفس، غير طامع في استرداده أو شيء منه، فإن رضيت أن تعيد منه عن طيب نفس فمن الممكن أخذه هنيئاً مريئاً. قال تعالى: ﴿ وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴾.(٤)

وأحلّ للرجال المتعففين عن الحرام الزواج من النساء غير المحرّمات عليه، فيعطونهن مهورهن وهو فرض موجب للزواج، ولا يمنع ذلك من التراضي في مقداره. قال تعالى: ﴿ ...وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ ۚ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ

(١) الروم ٢١.
(٢) العقاد: حقائق الاسلام واباطيل خصومه ١٧١-١٧٢.
(٣) البقرة ١٨٧.
(٤) النساء ٤.

مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾.(١)

- **محرّمات الزواج:**

وحدد الله تعالى للرجل النساء المحرّمات من الزواج، وقد وردن في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾ ۞ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ ۚ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا .. ﴾.(٢)

- **المحيض:**

ويتطرق القرآن الكريم الى محيض المرأة، ويأتي به بصيغة السؤال عن حكم مواقعة الرجل المرأة في أثناء الحيض، والجواب هو أذى للمرأة لما فيه من قذارة تقزز النفس، ويأتي الأمر بعدم التقرّب منهن للمواقعة حتى يطهرن بانقطاع الدم عنهن، ويتطهرن باغتسالهن، والله تعالى يحب العائدين إليه تائبين عما بدر عنهم من الذنوب، ويحب المتطهرين الذين تنظف قلوبهم وأبدانهم وأنفسهم من تلك المعاصي. قال تعالى: ﴿

(١) النساء ٢٤.
(٢) النساء ٢٢-٢٤.

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾.(١)

- **الرضاعة:**

وينتقل القرآن الكريم الى مسألة رضاعة الطفل، فإن الوالدة ترضع أولادها عن طيب نفس ورضى منها سنتين لمن أراد أن تتم الرضاعة كاملة، وعلى الوالد أن ينفق عليها ويكسوها ما وسع من الرزق برضاه دون تكليف على قدر طاقة نفسه وإمكاناته، فإن لم يكن للطفل أب لأنه متوفى أو مسافر بعيداً، فله وارث وهو الجد أو العم يقومان مقام الأب في مثل هذه المتطلبات. وفي حالة الفصال أو الفطام قبل سنتين يكون عن تشاور بين الأب والأم، ولا ضير أو ذنب إن سلّما طفلهما الى المرضعات، وإعطائهن أجورهن بالقدر المتعارف عليه بين الناس. قال تعالى ﴿ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾.(٢)

- **الزّنا:**

إن البيئة التي نزل فيها القرآن الكريم يتمثل فيها النقاء والطهر والعفة أينما سار المرء فيها، وجريمة الزنا لا تشيع إلاّ حيث يوجد الانحلال وتدهور القيم الإنسانية والمبادئ الخلقية، وحيث تنطلق الشهوات من عقالها، لتحطم الوازع الديني وحرمة الأعراض، وتهبط بالإنسانية الى مرتبة الحيوانية.

وأشار القرآن الكريم الى ممهدات الزنا والدوافع إليه، وأصدر أحكاماً صارمة لمنع إنطلاق الشهوات المحرّمة التي تؤدي الى هذه الجريمة، ولم يرد أن يكلّف المؤمنين شططاً، ويقيم عليهم الحد إلاّ بعد أن يخلق لهم الجو الصحيح، ويغلق باب الشّر، فيطلب من المؤمنين أن يغضّوا من أبصارهم، ويطلب من المؤمنات أن يسترن أجسادهنّ حتى لا تكون مثار فتنة، ويتحمّلن مقالة السّوء، ثم يأمر المؤمنين والمؤمنات الالتزام بذلك. قال تعالى:

---

(١) البقرة ٢٢٢.
(٢) البقرة ٢٣٣.

﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾.[1]

ونزلت سورة النور لتوجب فرض حكم الزنا وعقوبته، وهي مائة جلدة مؤلمة للرجل والمرأة غير المتزوجين بحيث لا تقطع لحماً، ولا تكسر عظماً، وأن لا يترك من حدهما المقرر بسبب شفقة أو شفاعة في حكم الله تعالى، ويشهد عقابهما جماعة من المؤمنين. قال تعالى:

﴿ سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾.[2]

ويتطرّق القرآن الكريم الى رمي النساء العفيفات الغافلات بتهمة الزنا، فوضع الحد في من يُطلق هذه التهمة دون دليل يثبت عليها، وهو الإتيان بأربعة شهداء رأوا الحالة التي عليها المرأة والرجل بيقين في الزنا الحقيقي، وليس المقاربة أو الملامسة، فيضرب من أطلق التهمة إن كان كاذباً ثمانين جلدة، ولا تقبل له شهادة بعد ذلك. قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾.[3]

ثم يأتي القرآن الكريم الى الزوج الذي يرمي زوجته بتهمة الزنا، ولم يكن معه أربعة شهداء إلاّ نفسه فحسب، فإنه يقسم بالله أربع مرّات أنه من الصادقين، والمرّة الخامسة أنّ غضب الله عليه إن كان من الكاذبين. وتأتي الزوجة المتهمة بالزنا فتقسم مثله خمس مرّات فتدرأ عن نفسها الرجم بالحجارة حتى الموت لأنها متزوجة، وكذلك عقوبة الرجم للرجل

---

(١) النور ٣٠-٣١.
(٢) النور ١-٢.
(٣) النور ٤.

الزاني إن كان متزوجاً ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٨﴾ وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾. (١)

وكيف يستقيم المجتمع وتسوده أفعال السوء والفاحشة بغير زواج ((فالعلاقة بين الرجل والمرأة بغير الزواج لا تنتج نسلاً، وإذا أنتجت نسلاً لا تنتجه قوياً صالحاً للإلف الاجتماعي الذي يجعل من الأسرة لبنة في بناء المجتمع، وإن التجربة العملية أثبتت أن الولد الذي يعيش بين أبويه يكون أقوى جسماً وعاطفة من الأطفال الذين ينشؤون في الملاجئ)). (٢)

- **الطلاق:**

الطلاق افتراق بين زوجين شرعاً، وهو أبغض الحلال عند الله تعالى، ويحدث بسبب المشاكل بين الزوجين اللذين لم يستطيعا حلّها، ولعدم التقارب العقلي والتفاهم على وضع الأمور في نصابها، ((ولو نظرنا الى الأسباب الداعية الى الطلاق لوجدنا ذلك راجع لمخالفة المتزوجين لمقاييس الإسلام في كلا الأمرين، ولو أن طالب الزواج دخل على الزواج بمطلوبات الله فيه لما حدث ما يدعو الى الطلاق... وليس ذلك خاصاً بهما فقط، لكنه يتعلق أيضاً بولي أمر الزوجة حين يقبل زوجاً للتي هو وليها على غير مقاييس الله ومطلوبات الدين. فمن العدل أن يحدث كل ذلك، ولو لم تحدث هذه المتاعب لكان ذلك مخالفاً لمنهج الله)). (٣)

وقد نزلت في الطلاق سورة تحدد أحكامه وأنواعه فضلاً عن سورة البقرة التي بيّنت بعض هذه الأحكام، والطلاق الذي تجوز فيه المراجعة مرّتان يدعى الرجعي، فأما مراجعة للمرأة قبل أن تقضي العدة أربعة أشهر، فتكون إعادة بإحسان، أو تركها دون مراجعة حتى تنتهي العدة مع أداء حقوقها كاملة وعدم إضرارها، فتلك أحكام الله المفروضة التي شرّعها للناس، ومن يخالف تلك الحدود فإنه من الظالمين، وإن طلّقها ثلاث مرّات وهو الطلاق الخلعي فلا تحلّ له عودتها إليه حتى تتزوج غيره، فإن طلّقها الزوج الثاني فلا يمنع أن يتراجعا وتعود إليه، ولا إثم عليهما إن اتبعا أحكام الله المعروفة. قال تعالى:

﴿ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ ۖ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ ۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا

---

(١) النور ٦-٩.
(٢) محمد ابو زهرة: تنظيم الاسلام للمجمع ٦٦.
(٣) محمد متولي شعراوي: القران الكريم معجزة ومنهج ٦١/٢.

تَعْتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۗ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾.[١]

ويفصّل القرآن الكريم في بعض مسائل الطلاق، ومنها إذا طلّق الرجل إمرأته طلاقاً رجعياً وقاربت انقضاء عدّتها، فإما يكون إرجاعها بنيّة حسنة، أو تسريحها بمعروف، إذ لا يمكن إرجاعها بقصد إحداث ضرر لها اعتداء وانتقاماً منها، ومن يفعل ذلك قاصداً إليه فقد ظلم نفسه، ولا تتخذ أحكام الله سخرية تهاوناً في تطبيقها، وليتذكر الزوج نعم الله تعالى عليه، وما عرف في القرآن والسنة من عظة واعتبار، ويجعل أمامه الخوف من الله لأنه أعلم بما في القلوب.

﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُواْۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًاۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾.[٢]

ثم يوجّه الخطاب لولي أمر الزوجة بعد أن يطلّق الزوج زوجته رجعياً وقد انقضت عدّتها فلا يمنعها الولي من أن تعود الى زوجها إذا تراضيا بينهما بالمعروف، ومثل هذا الموقف أدعى الى موعظة من يؤمن بالله واليوم الآخر، وهو أنفع لنا، وأجلب للبركة، وأفضل للسمعة، وأبعد للشبهة، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْاْ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾.[٣]

والمطلّقات طلاقاً رجعياً ينتظرن صابرات في بيوت أزواجهن مدة ثلاثة قروء أي ثلاثة حيضات لمعرفة أنهن حوامل أو غير ذلك، ولا يجوز لهن أن يخفين حملهن على أزواجهن إن كُن مؤمنات بالله واليوم الآخر، وأزواجهنّ أحق بإرجاعهنّ إن أرادوا إصلاحاً، ولهن حق الرعاية والإنفاق بالمعروف، والرجال قوّامون عليهن بمثل هذه الأمور. قال تعالى:

---

(١) البقرة ٢٢٩-٢٣٠.
(٢) البقرة ٢٣١.
(٣) البقرة ٢٣٢.

﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓاْ إِصْلَٰحًاۚ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾.[(١)]

ويتحرّى القرآن الكريم حالة أخرى من حالات الطلاق وهي طلاق المرأة قبل أن يدخل الرجل بها أي قبل أن يمسّها بعد اختلاف قبل تحديد المهر، أو خلاف في الاتفاق فيكون الافتراق وليس على الزوج من مانع أو تبعة من إثم أن يعطيها بعض المال، ولا مانع للزوج الذي يطلّق امرأته دون أن يمسّها بعد عقد الزواج وتحديد الصداق أو المهر أن يعطيها نصفه، وإن عفا ولي المرأة عنه، أو عفا الزوج عنه فأعطاه كله فهو أقرب الى تقوى الله، وبقاء الفضل والصلة الطيبة بينهم. قال تعالى:

﴿ لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةًۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَاْ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِۚ وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۚ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾.[(٢)]

- **العدّة:**

وهي مدة من الزمن تلتزم فيها المرأة المكوث في بيتها، لمعرفة انتظام محيضها لمدة ثلاث حيضات، وتمتنع من الاختلاط بالرجال خشية إثارة الشك في عفافها، فإن تمت المدة ولم يعلق فيها شيئاً من زوجها الذي طلّقها أو المتوفى ' فإنها يحق لها الزواج لخلوها من الجنين، وإنها طاهرة. والخطاب هنا موجّه الى النبي والمؤمنين كافة، إذا أراد الزوج أن يطلّق زوجته عليه أن يبقيها في بيتها، أو إخراجها منه إن أتت بفاحشة، ويحصي العدة مدة ثلاث حيضات، وبعد أن تطهر وتخلو من الحمل فإما أن يبقيها وأما أن يطلقها بمعروف، ويأتي بالشهداء عند إجراء الطلاق. قال تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُواْ ٱلْعِدَّةَۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمْۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥۚ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ

---

(١) البقرة ٢٢٨.
(٢) البقرة ٢٣٦-٢٣٧.

﴿ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ﴾.[1]

ويبيّن الله تعالى نوعاً آخر من العدّة للنساء اللاتي وصلن الى حالة اليأس من الحيض حين بلغن مرحلة تزيد على الأربعين سنة، فإن تشككت في أنه سيحدث أم لا فإن عدّتها ثلاثة أشهر، والنساء اللاتي لم يحضن لوجود حمل في بطنهنّ فإن أجلهن أو عدتهنّ هي مدة حملهن حتى يلدن. قال تعالى: ﴿ وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ﴾.[2]

وأما الذين يتوفون ويتركون بعدهم زوجات فإن عدّتهن أن يترقبن أنفسهن أربعة أشهر وعشرة أيام ليعرفن بوجود حمل أم لا، ففي هذه المدة لا يحق لها أن تتزوج ،فإذا انقضت تلك المدة فلا مانع لهن من الزواج على وفق أصوله. قال تعالى:

﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾[3]

د- الكبائر والذنوب:

وضع الله سبحانه وتعالى أحكام أفعال خطيرة مثل كبائر الذنوب وهي القصاص الذي يعيد الحق الى نصابه، ليخلق بذلك مجتمعاً خالياً من الرذيلة وفعل السوء، وليكون ذلك العقاب أو القصاص رادعاً عن أفعال السوء التي تضر بالمجتمع الإنساني، ومن هذه الأفعال:

- القتل:

جريمة نكراء تؤدي الى سلب الحياة من إنسان، وكأن القاتل يقوم بإزهاق الروح بدلاً من الخالق، ودون تكليف أو إذن منه، ولا يجوز قتل النفس المحرّمة عمداً بغير حق، ودون سبب يؤدي الى إزهاقها. قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾.[4]

---

(١) الطلاق ٢.
(٢) الطلاق ٤.
(٣) البقرة ٢٣٤.
(٤) الانعام ١٥١.

وقد حدد الله تعالى الحكم في القتل الخطأ والقتل العمد، ففي القتل الخطأ يكون القصاص إعتاق إنسان مملوك، وديّة من المال تسلّم الى أهل القتيل، إلاّ أن يعفو عنها، وإن كان القتيل من قوم من المسلمين بينهم وبين غيرهم ميثاق فديّة من المال تعطى الى أهله، وتحرير عبد مؤمن، ومن لم يجد عنده مالاً فصيام شهرين دفعة واحدة، لا يفصل بينهما يوم لأجل التوبة والمغفرة من الله تعالى. ومن يقتل مؤمناً متعمّداً فإن جزاءه في الآخرة نار جهنم خالد فيها، وقد غضب الله عليه ولعنه وهيّأ له عذاباً مؤلماً. قال تعالى:

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَـٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾.(١)

وحدد الله القصاص الدنيوي في جريمة القتل فضلاً عن قصاص الآخرة، والقصاص الدنيوي هو القتل، فما نال المقتول الحر ينال بالمقابل القاتل الحر، والعبد يقابله العبد، والمرأة تقابلها المرأة، ويستطرد القصاص العادل الى العين بالعين والسّن بالسّن، وهكذا يكون العدل الإلهي في وضع الأحكام التي تجتث الجريمة وتقضي على دوافعها. قال تعالى:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَـٰنٍ ۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۗ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾.(٢) وقوله تعالى مبيّناً أن القِصاص قد ورد في الكتب السماوية السابقة ومنها التوراة.

قال تعالى: ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾.(٣)

---

(١) النساء ٩٢-٩٣.
(٢) البقرة ١٧٨-١٧٩.
(٣) المائدة ٤٥.

- **الذنوب:**

نهى الله تعالى عن اقتراف الذنوب والمعاصي التي تثقل ميزان السيّئات، وتدخل صاحبها النار، وقصاص هذه الذنوب ليس دنيوياً، بل يؤخره الله تعالى الى الآخرة، ولعل مقترفها يتوب، ويترك فعلها ويستغفر الله فيغفر له، ويمحوها بالحسنات، وقد نزل في تلك الذنوب حكم النهي عنها وهو أمر واضح ليس فيه خلط أو تعمية، وإن من يبقي عليها فإن مصيره النار.

وقد وجّه الله تعالى خطابه للمؤمنين بالنهي عن السخرية والاستهزاء بالآخرين، فينقص من كرامتهم، وقد يكونوا أفضل ممن يسخر بهم، وهذا النهي موجّه للمرأة أيضاً أن لا تسخر من النساء الأخريات بدافع التنقيص من شخصيتهن، وأن لا يلمز أو يطعن في أعراضهم أو أنسابهم، وأن لا يدعوهم بألقاب مكروهة أو مضحكة، فإن هذه الصفات تدل على الفسق والفجور بعد نعمة الإيمان. ثم يردف الخطاب الأول بخطاب ثان يدعو الى اجتناب سوء الظن في كل شيء، لأن بعض الظن ليس حقيقة فيؤدي الى ٱلإثم، وينهى عن التجسس وتتبع شؤون الناس الخاصة بهم، وقد تتضمن عوراتهم، وينهى عن الغيبة فيذكر شيئاً يكرهه وإن كان فيه، وقد يذكر شيئاً ليس فيه وذلك هو البهتان، وكأن الغيبة تقطيع للحم أخيه الإنسان الميّت فيأكله، وهي صورة مقززة مكروهة، ويراد منها التنفير من الغيبة. قال تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ (١١) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ ﴾.[(١)]

وبيّن الله تعالى عقاب الهمّاز اللمّاز الذي يهزأ بالناس ويسخر منهم، وهو عذاب النار ﴿وَيۡلٞ لِّكُلِّ هُمَزَةٖ لُّمَزَةٍ ﴾[(٢)] وهاهم الساخرون الذين يلمزون المطوّعين من المؤمنين في الصدقات أي الجباة الذين يبذلون جهداً في جمعها، فإن الله يسخر منهم يوم القيامة حين يدخلون عذاب النار. قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾.[(٣)] وقوله تعالى:

---

(١) الحجرات ١١-١٢.
(٢) الهمزة ١.
(٣) التوبة ٧٩.

﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴾.[١]

ثالثاً: محور السور:

تدور سور القرآن الكريم حول محور أو عدة محاور تعد الأساس الذي تقوم عليه السورة، وقد يطلق على المحور الهدف من السورة، أو الغرض منها، أو القصد والمقصد وغيرها من المسميات. وقد يتكون المحور من آية واحدة أو من عدة آيات، وقد تسمى السورة باسم محورها أو بغيره، إذ أن كثيراً من السور عرفت أسماؤها توقيفاً من رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وبعضها اشتهرت بوصفها، وأخر كان السلف يدعوها بالسور التي يذكر فيها كذا وكذا [٢]

ونستطيع أن نحدد محور السورة وهو تحديد اجتهادي من خلال دراستها من زاوية معينة نستطيع أن نحدد المناسبة بين اسم السورة ومحورها، وموافقة اسم السورة لمقصودها أو محورها قد أكده الإمام برهان الدين البقاعي بقوله: ((وقد ظهر لي باستعمالي لهذه القاعدة بعد وصولي الى سورة سبأ إن اسم كل سورة مترجم عن مقصودها، لأن اسم كل شيء تظهر المناسبة بينه وبين مسمّاه عنوانه الدال إجمالاً على تفصيل ما فيه، وذلك هو الذي أنبأنا به آدم (عليه الصلاة والسلام) عند العرض على الملائكة (عليهم الصلاة والسلام) ومقصود كل سورة هاد الى تناسبها، فاذكر المقصود من كل سورة وأطبق بينه وبين اسمها)). [٣]

ولذا نجد أن هناك ارتباطاً وثيقاً بين المعاني أو الموضوعات المختلفة التي تتعرض لها آيات السورة وبين اسم السورة الذي يحتوي على الهدف العام منها، وهذا ما أكده الإمام البقاعي أيضاً في تحديد المحور أو الغرض في قوله: ((الأمر الكلي المهيمن على حكم الربط بين جميع أجزاء القرآن هو أنك تنظر الغرض الذي سيقت له السورة، وتنظر ما يحتاج إليه ذلك الغرض من المقدمات، وتنظر الى مراتب تلك المقدمات في القرب والبعد من المطلوب، وتنظر عند إنجرار الكلام في المقدمات الى ما يستتبعه من استشراف نفس السامع الى الأحكام واللوازم التابعة له)). [٤]

وقد يقع المحور في أوائل السورة أو في أواسطها أو في أواخرها، ولا ضير في ذلك الموقع، لأن هذا المحور هو آية أو عدة آيات نزلت ضمن آيات السورة نفسها، وتسمية السورة باسم هذا المحور جاء بعد ذلك، ولتحديد موقع المحور في السورة يتم من خلال تقسيم السورة على ثلاثة أقسام أو أثلاث، فالقسم الأول يمثل الآيات الأوائل، والقسم الثاني يمثل الآيات الأواسط، والقسم الثالث يمثل الآيات الأواخر.

---

(١) القلم ١٠-١٢.
(٢) ينظر عن تعليل اسماء السو ر: ابن الزبير الغرناطي: ملاك التأويل ٢٨/١-٣٠.
(٣) البقاعي: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ١٢/١.
(٤) المصدر نفسه ١٧/١ وينظر: السيوطي: الاتقان في علوم القران ١٧٧/١، ٩٩٣/٢.

ولو بدأنا بالمحاور التي تقع في القسم الأول من السور لوجدناها كثيرة، وتقع في السور المكية القصار، فيكون المحور عنواناً لها، وتكون السورة هي المحور والمحور هو السورة، ولا تتضمن تلك السور موضوعات أخرى سوى المحور. ومثل هذا الأسلوب قد تفهّم طبيعة المشركين وهم يحاولون التغطية على سماع القرآن الكريم، ومنع الإصغاء إليه، وذلك بإحداث أصوات وجلبة بحيث تطغى على صوت القارئ، فكان قصر السورة إرادة إلهية للوصول سريعاً الى المسامع متخطية الحواجز والموانع، مثيرة الفكر والتأمل، محفزّة على الإيمان واليقين.

وهذه السور القصار التي يطغى محورها عليها، يبدأ بالسورة وينتهي بها فلا تمتلك غيره، وهي: الشرح، والقدر، والهمزة، والفيل، وقريش، والكوثر، والكافرون، والمسد، والإخلاص، والفلق، والناس. قال تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾.(١) فالفكرة واحدة وهي تدور حول توحيد الله تعالى، والإخلاص في عبادته، وقد تعددت تسميات هذه السورة، وهي: سورة الإخلاص، والإيمان، والتجريد، والتوحيد، والتفريد، والمعرفة، ونور القرآن. والإخلاص يعني: أنه كانت أفكار متشابكة يخلّصها المؤمن من بعضها، ومن هذه الأفكار المتشابكة الشرك في الألوهية، فتخليصها يعني عزل أخلاط الفساد عن جواهر الخير، فيتجه الإنسان الى مضمون الفائدة، وهو ليس هناك آلهة إلاّ الله، فأراح الإنسان من هذا الامتزاج والخلط الذي يضرّه ولا ينفعه. ونتبيّن منزلة سورة الإخلاص في حديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) حينما جاء له رجل قال: يا رسول الله إن فلاناً يصلي فقط بـ (قل هو الله أحد) قال رسول الله: والذي نفسي بيده أنها لتعدل ثلث القرآن.

ومن السور أيضاً سورة الكافرون، قال تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴾.(٢) ويدور محور هذه السورة أو غرضها حول العبادة، والعبادة هي الأصل في العقائد، وهي ليست من الشرائع التي تنسخ، لأن تشريعات العبادة لله تعالى ووحدانيته، وعدم الشرك به أمر متفق عليه من لدن آدم (عليه السلام) في كل الرسل. وجاء تكرار الآيات أي لا يعبد غير الله لا حالاً ولا مستقبلاً، والمفاوضات بين النبي (صلى الله عليه وسلم) والكافرين على أساس: يا محمد أنت تعبد آلهتنا مدة ونحن نعبد إلهك مدة، أي يقسمون الزمن جزءاً لآلهتهم وجزءاً لله، أو تسجد لأصنامنا ونسجد لإلهك، ومسألة التفاوض هذه فيها حمق كبير، فالخلاف هنا ليس شخصياً بينهم وبين النبي (صلى الله عليه وسلم) لأن النبي مرسل، وإنما الخلاف بينهم وبين الله تعالى.

---

(١) الاخلاص ١-٤.

(٢) الكافرون ١-٦.

ولا يقتصر طغيان المحور على قصار السور بل يتعداها أحياناً الى السور الطوال كما في سورة يوسف وسورة نوح (عليهما السلام). فمثلاً سورة يوسف جاء في افتتاحيتها قصة من أحسن القصص، وفيها من العظات والعبر والجوانب التربوية الشيء الكثير، وعلى الرغم مما لقيه يوسف (عليه السلام) من الكيد فقد كانت العاقبة خيراً، فقد جاء إخوته خاضعين نادمين على ذنبهم، معترفين بفضله عليهم، وفي ذلك تلميح لما ينتظر النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) وأصحابه من النصر والظفر على المشركين فيما بعد، وكما قال أخوة يوسف: ﴿ قَالُواْ تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ۝٩١ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾.[1] قال النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) لأهل مكة بعد أن ظفر بهم ودخل مكة فاتحاً: ماذا تظنون أني فاعل بكم؟ قالوا: خيراً أخ كريم وابن أخ كريم. فقال لهم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لا تثريب عليكم اليوم اذهبوا فأنتم الطلقاء.

وبيّن البقاعي المناسبة بين سورتي يوسف والفتح بقوله: ((نصر الله يوسف (عليه السلام) على إخوته الذين فعلوا به ذلك وملّكه قيادهم، فكان في سوق قصته عقب الإخبار بأن المراد من هذه القصص تثبيته صلى الله عليه وسلم، وتسلية فؤاده إشارة الى البشارة بما وقع له صلى الله عليه وسلم يوم الفتح من ملك قيادهم، وردّ عنادهم، ومنّة عليهم، وإحسانه إليهم)).[2]

ومن السور الطوال التي يأتي محورها في القسم الأول منها سورة البقرة، وآل عمران، والنساء، والأعراف، والرعد، والكهف، ومريم، وطه، والأنبياء، والمؤمنون، والنمل، والقصص، والروم، والأحزاب، وفاطر، ويس، والصافات، وص، وغافر، وفصلت، وغيرها من السور.

وسورة البقرة قد ذكر فيها أكثر من عشر خوارق، وخمس منها في إحياء الموتى، ولم تسمّ السورة بواحدة منها، وإنما سمّيت بحادثة البقرة في بني إسرائيل. قال ابن الزبير الغرناطي: ((سمّيت البقرة بهذا الاسم لغريب قصة البقرة المذكورة فيها، وعجيب الحكمة في أمرها))[3] ويقول البقاعي في مقصد هذه السورة: ((مقصودها إقامة الدليل على إن الكتاب هدى ليتبع في كل ما قال، وأعظم ما يهدي إليه الإيمان بالغيب، ومجمعه الإيمان بالآخرة، فمدار الإيمان بالبعث الذي أعربت عنه قصة البقرة التي مدارها الإيمان بالغيب، فلذلك سمّيت بها السورة)).[4]

وبإمعان النظر في أحداث سورة البقرة نجد أن أبرز صفات بني إسرائيل ذكرت فيها، مثل: الشك في الغيبيات، وسوء الظن بالأنبياء، وعدم الالتزام بالشرائع، واستخدام

---

(١) يوسف ٩١-٩٢.
(٢) البقاعي نظم الدرر ٤/٤.
(٣) ابن الزبير الغرناطي: ملاك التأويل ٢٨/١.
(٤) البقاعي: نظم الدرر٢٤/١.

مختلف الحيل للانفلات من التكاليف، وسوء الأدب في المعاملات، والتعالي على المخاطبين. والحديث عن بني إسرائيل ومواقفهم من أنبيائهم وترددهم في تطبيق شرائع التوراة وغير ذلك من الانحرافات قد استغرق بضعاً وثمانين آية، فقد كشفت السورة عن حقيقتهم بذكر أربعين مأخذاً ومثلبة عليهم. [1]وكانت هذه المآخذ بمثابة مسوّغات لعزلهم عن القوامة على دين الله تعالى، وبما أن دين الله لابد له من أمة تحمله عقيدة وتطبقه سلوكاً، فتدعو إليه وتبلغه، أسندت القوامة على دين الله لأمة محمد (صلى الله عليه وسلم) فذكرت بخير وكلفت بأحكام شرعية بلغت أربعين باباً من أبواب الفقه، وختمت السورة بالشهادة لهذه الأمة أنها قامت بالتكاليف. إذن من خلال اسم السورة نستطيع أن نقول إن محور سورة البقرة هو (القوامة على دين الله أخذ وإسناد) أي أخذت من بني إسرائيل، وأسندت الى محمد (صلى الله عليه وسلم) وأمته، وحادثة البقرة تشير الى أسباب الأخذ من بني إسرائيل.

وسورة النساء من السور التي ثبت اسمها توقيفاً. فقال ابن الزبير في سبب تسميتها بالنساء: ((إنه يرجع لما تردد فيها من أحكام النساء، ومع أنه ورد ذكر النساء في سور أخرى إلاّ أن ما تكرر وبسط من أحكامهن لم يرد في غير سورة النساء)). [2]

ولو بحثنا عن العلاقة بين هذا الاسم وبين محور السورة لوجدناها بارزة، فإن النساء رمز لطبقة من طبقات المجتمع، والمرأة المسلمة فيه بحاجة الى من يرعى شؤونها في كل مراحل حياتها سواء كانت أمّا أو أختاً أو زوجة، فمحور السورة يدور حول (رعاية حق الضعيف المرأة واليتيم) لذا نجد أن الأحكام المتعلقة بالمرأة واليتيم وردت في افتتاحية السورة، وهي إيتاء اليتامى أموالهم، وإعطاء المرأة مهرها ونصيبها من الميراث، ومعاشرتها بالمعروف، والموقف من الفاحشة، والمحرمات من النساء، والزواج بالمحصنات والإماء، وحكم نشوز المرأة. وتختتم السورة بآية الكلالة. قال تعالى: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾. [3]

وسورة النساء هي السورة التي عللت الجهاد برعاية الضعفاء: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾. [4] ويؤكد ذلك قول الإمام البقاعي في مقصود السورة أو محورها: ((لما كان مقصودها الاجتماع على ما دعت إليه السورتان قبلها من

(١) ينظر: ابن الزبير الغرناطي: البرهان في ترتيب سور القران ١٩١.
(٢) ابن الزبير الغرناطي: ملاك التاويل ٢٨/١-٢٩.
(٣) النساء ٧.
(٤) النساء ٧٥.

التوحيد وكان السبب الأعظم في الاجتماع والتواصل عادة الأرحام العاطفة التي مدارها النساء سمّيت النساء بذلك، ولأن بالاتقاء فيهنّ تتحقق العفة والعدل الذي لبابه التوحيد)). (١)

أمّا المحاور التي تقع في أواسط السور أو في الثلث الثاني من السورة فهي أقل من سابقاتها، ومن هذه السور: سورة المائدة، والأنفال، وهود، والنحل، والحج، والنور، والعنكبوت، ولقمان، والسجدة، وسبأ، والشورى، والزخرف، والتغابن.

ولمعرفة هذا النوع من المحاور نتعرض الى سورة المائدة، وقد سمّيت باسم المائدة التي طلبها الحواريون من المسيح بن مريم (عليه السلام). قال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾. (٢)

وذكر ابن الزبير الغرناطي في مقصود السورة أو محورها: ((وكذا سورة المائدة لم يرد ذكر المائدة في غيرها، فسمّيت بما يخصها)). (٣)

والمائدة تضم أصنافاً من الطعام والشراب، وبدراسة السورة وآياتها نجدها تحدّثت بالتفصيل عن الحلال والحرام من الطعام والشراب بشكل مفصّل لم يرد مثله في أي سورة أخرى من سور القرآن الكريم، فقد افتتحت بذكر ما يحلّ من بهيمة الأنعام، وتحريم صيد البر في حال الإحرام، وتقديم الهدي والقلائد للنحر في الحج، وبيان ما حرّم من اللحوم كالميتة ولحم الخنزير وما أهل لغير الله، وحكم الصيد بالكلاب والجوارح، وطعام أهل الكتاب، وقربان ابني آدم، وأكل الربا، وأكل أهل الكتاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم إن آمنوا، والحديث عن المسيح وأمه (عليهما السلام) أنهما ليسا إلهين، والدليل أنهما كانا يأكلان الطعام، والنهي عن تحريم الطيّبات من الطعام والشراب، وكفارة اليمين إطعام عشرة مساكين، وتحريم شرب الخمر، ثم تأتي دعوة الحواريين بإنزال مائدة من السماء. فهل وردت سورة فصّلت عن الحلال والحرام من الشراب والطعام غير المائدة؟ فضلاً عن المشروبات والمأكولات المعنوية من العقائد والأحكام والقصص والأخلاق، وهي غذاء للروح والعقل، لذا كان محور سورة المائدة (الطعام والشراب المادي والروحي) والمائدة معرض لجميع أصناف الطعام والشراب، وبذلك نتيقن أن هناك تناسبا بين اسم السورة ومحورها.

وأما سورة الزخرف فإن محورها يدور حول موضوعات وهي: الإيمان بالله تعالى، وملائكته ورسله وكتبه واليوم الآخر. فالإيمان بالله تعالى يدعو الى ترك الكفر والشرك به، ومن هنا يأتي عنوان السورة (الزخرف) الذي يدل على الزينة في الأموال والذهب والفضة وغيرها من متاع الحياة الدنيا، فلو أراد الله تعالى أن يجعل لمن يكفر به بيوتاً سقوفها من

---

(١) البقاعي: نظم الدرر ٢٠٤/٢.
(٢) المائدة ١١٢-١١٣.
(٣) ابن الزبير الغرناطي: ملاك التأويل ٢٩/١ وينظر: البقاعي: نظم الدرر ٣٨٤/٢.

فضة، وسلالم مرتفعة، وأبواباً واسعة، وسرراً وثيرة يتكئون عليها، وزينة تبدو في كل صرح، فيكون ذلك إغراء للكافر وفتنة للمؤمن. قال تعالى:

﴿ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾.[1]

وكذلك يجري التركيز على أثر القرآن الكريم في التبليغ والعظة والإرشاد، فقد كان كتاب الله واضحاً في لغته العربية حتى يفهمها المشركون، وتصل الى مسامعهم بلاغته وقوة تأثيره، وهو توعية لحال المؤمن والكافر، وتذكرة بقيام الساعة. قال تعالى:

﴿ حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴾.[2] وقوله تعالى: ﴿ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴾.[3] وقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾.[4] والآية الأخيرة على رأي الحسن البصري وسعيد بن جبير الضمير الهاء يعود الى القرآن الكريم، وإننا لنجد في بدايات هذه الآيات أن الكلام منصب على بيان خصائص هذا القرآن، ودعوته الى الإيمان به، ونفي الريب عنه.

ولا تختلف المحاور التي تقع في أواخر السور عن سابقاتها من حيث عددها، ولكنها تختلف في الموقع وتتباين في الموضوعات. وهذه السور هي: الأنعام، والتوبة، ويونس، وإبراهيم، والحجر، والشعراء، والزمر، والجاثية، والأحقاف، والحديد، والممتحنة، والجمعة.

وفي سورة يونس نجد أنها تستعرض دلائل معينة يبسطها الله أمام الناس للإيمان به بعد أن أرسل إليهم رسولاً بشراً منهم فعجبوا من ذلك، وقالوا ساحر، ثم يبسط أمامهم تعالى البراهين، وهي: خلق السماوات والأرض، وخلق الشمس والقمر ومعرفة الحساب، واختلاف الليل والنهار، والإنسان ضعيف أمام قدرة الله، فإن أصابه الضر دعا الله، وإن أنجاه نسي ذلك، ثم كشف عن الآخرة والحساب، وثواب المؤمنين وعقاب الكافرين المكذبين، والمحور في هذه السورة يبيّن أن هناك عقاباً دنيوياً ينال الكافرين فضلاً عن عقاب الآخرة، وقد نال الكافرون من أهل القرى التي سبقت الإسلام العقاب الدنيوي، ويعرض هذا العقاب من خلال القصص، مثل قصة النبي نوح (عليه السلام) والرسل من

---

(١) الزخرف ٣٣-٣٥.
(٢) الزخرف ١-٤.
(٣) الزخرف ٤٣-٤٤.
(٤) الزخرف ٦١.

بعده، ثم قصة موسى وهارون (عليهما السلام) ويتوجه الخطاب الى النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) أن لا يميل مع الذين لا يؤمنون بالله إلاّ بعد رؤية العذاب الدنيوي، فكان أهل القرى يستعجلون به، إلاّ قوم يونس (عليه السلام) فإنهم كانوا على أحسن حال في ذلك الاختبار، فقبل رؤية علامات العقاب لجؤوا الى التوبة، وسارعوا الى الإيمان بالله تعالى، فكشف عنهم العذاب وأبقاهم يتمتعون الى حين انقضاء آجالهم. قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾.[1]

وسورة الزمر تستعرض أيضاً أمام الناس دلائل وحدانية الله وعظمته وعزته، فقد أنزل الكتاب بالحق على عبده مخلصاً له في العبادة، وتتجلى عزته وحكمته في خلقه السماوات والأرض، والليل والنهار، والشمس والقمر، وخلق الإنسان من نفس واحدة وخلق منها زوجها، وخلق الأنعام والزرع، فإن أحسّ الإنسان بالضرّ دعا ربه، وإذا خوّله نعمة نسيه وجعل له شركاء، وتتضح آثار حكمته في الأمر بالعبادة والتقوى والإحسان والتوبة والإنابة، وكان جزاء هذه النعم ما يقابلها من الشفاعة بالأصنام والأوثان، والشفاعة لله وحده، ولم يقدروا الله حق قدره والمحور في هذه السورة يركز على دلالة (الزمر) أي الجماعات والفرق، فرق اختارت الإيمان وتعرضت الى الاضطهاد والأذى والهجرة، وفرق اختارت الكفر والفسوق والظلم، فإنها تساق يوم القيامة الى جهنم فرقاً أيضاً، وتفتح لها الأبواب، وتقرّعهم الملائكة فتبدو عليهم الخيبة والذل. وتساق فرق الإيمان الى الجنة وتفتح لهم الأبواب، ويتلقاهم الملائكة بالسلام والترحيب وطيب الإقامة. قال تعالى:

﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾.[2]

وقد نجد لبعض السور محاور ليست في السورة نفسها، وإنما وردت في سور أخرى، وكأن هذه السورة مكملة أو مفصّلة لما ورد في تلك السورة، فمثلاً سورة الطلاق ختمت بقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ

---

(١) يونس ٩٨.
(٢) الزمر ٧١-٧٣.

﴿ شَيۡءٖ قَدِيرٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا ﴾.[1] ففي هذه الآية تبيان لكون أحكام الله تعالى في غاية الإحكام، وكيف ذلك وهو القادر على كل شيء، والمحيط بكل شيء علماً، إن هذه السورة وخاتمتها تتصل بمحورها في سورة البقرة في قوله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ٢١ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾.[2] فالملاحظ أن الله تعالى ختم سورة الطلاق بذكر خلق السماوات والأرض تحفيزاً لعباده على الإيمان، وكل ذلك مظهر من مظاهر التفصيل، واتصال سورة الطلاق بمحورها في سورة البقرة.

وسورة العصر أوجزت محاور أربع سور هي: البقرة، آل عمران، النساء، المائدة، وقد احتوت أربع صفات: ١- الذين آمنوا ٢- وعملوا الصالحات ٣- وتواصوا بالحق ٤- وتواصوا بالصبر. فسورة البقرة وآل عمران تضمنتا الإسلام والإيمان وفصّلتا (إلاّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات) وسورة النساء فصّلت حقوق الأرحام بالقسط وإيفاء الحقوق (وتواصوا بالحق). وسورة المائدة فصّلت (وتواصوا بالصبر) فالحرص على الحلال واجتناب الحرام يحتاج الى الصبر.

رابعا: خواتيم السور:

نظر النقاد الى خاتمة الكلام النظرة نفسها الى مقدمته من حيث الاهتمام بالقارئ أو السامع أو المخاطب، لأن الخاتمة هي القاعدة، وآخر ما يبقى منها في الأسماع، فسبيلها أن تكون محكمة، وأن تكون قفلاً كما كان المطلع مفتاحاً.[3] والخاتمة كالتلخيص لما عرض من مقاطع السورة، فقد ذكر أبو حيّان الأندلسي: ((وقد تتبعت أوائل السور المطولة فوجدتها يناسبها أواخرها بحيث لا يكاد ينخرم منها شيء، وذلك من أبدع الفصاحة حيث يتلاقى الكلام المفرط في الطول بأوله)) [4]

ولما كانت الخاتمة آخر الكلام وجب الاعتناء بها، لأن الإساءة فيها تعفي على كثير من الإحسان فيما تقدمها من الكلام، فهي مصداق لقول رسول الله (صلى الله عليه وسلم): (ملاك العمل خواتمه) و(إنما الأعمال بالخواتيم) وقد وجدنا من خلال تتبع خواتيم السور أنها متعلقة بما قبلها، وقد تكون متعلقة بالافتتاحية أو بالموضوعات الأخرى كما سنأتي على ذلك. إن هذه الخواتيم تدور في اتجاهات محددة، وهي على النحو الآتي:

---

(١) الطلاق ١٢.
(٢) البقرة ٢١-٢٢.
(٣) ابن رشيق القيرواني: العمدة ١/٢٣٩.
(٤) ابو حيان الاندلسي: النهر الماد من البحر المحيط ٢/٣٦٣-٣٦٤.

١- تعظيم الله تعالى وتسبيحه وتحميده:

ويتجلى ذلك التعظيم والتبجيل لله تعالى من خلال إخباره عن ذاته الجليلة، كما ورد في خواتيم السور القرآنية، مثل: سورة المائدة، ولقمان، والحجرات، والحديد، والحشر، والطلاق، والتين، والعاديات، والإخلاص. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌۢ﴾.[١] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ﴾.[٢]

وقد يأتي تعظيم الله تعالى من خلال خطابه للرسول (صلى الله عليه وسلم) كما ورد في السور: هود، والشورى، والضحى. من ذلك قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾.[٣]

وقد يأتي تعظيم الله تعالى أيضاً من خلال خطابه تعالى المباشر الموجّه الى الناس كافة، كما ورد في السور الآتية: الأنعام، والتكوير، والانفطار. من ذلك قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾.[٤] وفي تسبيح الله تعالى يكون الخطاب موجهاً للرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) وهو في الوقت ذاته موجه للمؤمنين مقتدين برسولهم الكريم. وقد ورد ذلك في السور: الأعراف، والحجر، والحاقة، والعلق، والنصر. من ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ﴾.[٥]

---

(١) المائدة ١٢٠.
(٢) لقمان ٣٤.
(٣) الشورى ٥٢-٥٣.
(٤) الانعام ١٦٥.
(٥) الاعراف ٢٠٥-٢٠٦.

وورد في تسبيح الله تعالى أيضاً ما فيه إخباره عن ذاته العلية، كما في سورتي الزمر، ويس. قال تعالى: ﴿ إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾. [1]

وفي تحميد الله تعالى يوجه خطابه الى الرسول (صلى الله عليه وسلم) ليقتدي به المؤمنون كما ورد في سورتي الإسراء، والنمل. قال تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلِيّٞ مِّنَ ٱلذُّلِّۖ وَكَبِّرۡهُ تَكۡبِيرَۢا ﴾.[2] وقوله تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعۡرِفُونَهَاۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴾.[3] وقد يأتي تحميده تعالى إخباراً عن ذاته الكريمة: ﴿ فَلِلَّهِ ٱلۡحَمۡدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلۡأَرۡضِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾.[4] وورد تبريك الله تعالى مخبراً عن ذاته العلية في قوله تعالى: ﴿ تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِي ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ﴾.[5] وورد السجود له في خاتمة النجم.

٢- الوعد والوعيد:

يعد لله تعالى المؤمنين في خواتيم بعض السور بنعيم الجنة وذلك من خلال الخطاب الموجّه الى النبي (صلى الله عليه وسلم) أو الى المؤمنين مباشرة، ومثل هذا الوعد نجد له صلة وثيقة بما ورد في موضوعات السورة نفسها، وكأنه في الختام نتيجة حتمية لإيمانهم بالله تعالى، وأعمالهم التي أقامت دينه، ويتضح ذلك في السور: الأنفال، والعنكبوت، والدخان، والفتح، والقمر، والمجادلة، والتغابن، والأعلى، والعصر. قال تعالى مخاطباً النبي الكريم (صلى الله عليه وسلم) عن فوز المتقين في جنات النعيم: ﴿ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَٱرۡتَقِبۡ إِنَّهُم مُّرۡتَقِبُونَ ﴾.[6]وقوله تعالى: ﴿ ﴿ مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ

---

(١) يس ٨٢-٨٣.
(٢) الاسراء ١١١.
(٣) النمل ٩٣.
(٤) الجاثية ٣٦-٣٧.
(٥) تبارك ٧٨.
(٦) الدخان ٥٧-٥٨.

﴿ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا ﴾.[(١)] ويتضح هذا الوعد في خطابه تعالى للمؤمنين:

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴿٧٤﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمۡۚ وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ﴾.[(٢)]

وقد تأتي الخواتيم متضمنة الوعد للمؤمنين بالجنة والوعيد للكافرين والمشركين والمنافقين بعذاب الجحيم. كما يتضح ذلك في السور: الشعراء، والأحزاب، والإنسان، وعبس، والمطففين، والانشقاق، والفجر، والبلد، والبينة، والزلزلة، والقارعة. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمَۢا ﴾.[(٣)] وقوله تعالى: ﴿ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ مُّسۡفِرَةٞ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٞ مُّسۡتَبۡشِرَةٞ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ عَلَيۡهَا غَبَرَةٞ ﴿٤٠﴾ تَرۡهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَفَرَةُ ٱلۡفَجَرَةُ ﴾.[(٤)] وقوله تعالى: ﴿ فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ﴾.[(٥)]

أما خواتيم الوعيد بنار جهنم للكافرين والمشركين والمنافقين فقد وردت في خطابات إلهية موجهة للنبي (صلى الله عليه وسلم) أو للناس عامة، أو إخباراً عن الكافرين في السور: الرعد وطه، والمؤمنون، والفرقان، والمعارج، والنازعات. قال تعالى: ﴿ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكۡرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخۡشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَهَا لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوۡ ضُحَىٰهَا ﴾.[(٦)]

ومن الخطاب الإلهي الموجّه للناس عامة في السور الآتية: إبراهيم، والنور، والتكاثر، والهمزة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ يَوۡمَئِذٖ مُّقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ ﴿٤٩﴾

---

(١) الفتح ٢٩.
(٢) الانفال ٧٤-٧٥.
(٣) الاحزاب ٧٣.
(٤) عبس ٣٨-٤٢.
(٥) الزلزلة ٧-٨.
(٦) النازعات ٤٢-٤٦.

﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ
ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.[1]

وقد تنتهي الخواتيم بإخبار الله تعالى عن حال الكافرين ومآلهم يوم القيامة، والعقاب الذي ينتظرهم، فقد أوعدهم الله بعذاب جهنم جزاء لكفرهم، وإعراضهم عن الإيمان بالله تعالى مع وجود آياته، وقد ورد ذلك في السور: سبأ، وغافر، وفصلت، والذاريات، والمرسلات، والنبأ، والطارق، والماعون، والمسد. قال تعالى: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ﴾.[2] وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّاۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِي كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾.[3]

٣- العظة والإرشاد:

يتوجه الخطاب الإلهي الى النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) في خواتيم السور ليبيّن للناس معنى الإيمان بالله تعالى، وأنه تعالى لا تنفد كلماته، فهو الخالق المدبّر، وأن الرسول بشر يوحى إليه، وليس له معرفة بعلم الغيب، وأنه بإيصال رسالة الله إليهم لا يرجو منهم جزاء أو أجراً، وأن يرشدهم الى العمل الصالح، ويبيّن لهم أركان الدين، ويذكرهم بالآخرة وحسابها ونعيمها وعذابها، ويعظهم بما حدث للأمم التي عصت الله وكفرت به.

وكان جل هذه الخواتيم خطاباً موجهاً الى النبي (صلى الله عليه وسلم) وهو في الوقت نفسه موجه الى المؤمنين الذين يقتدون به، ويتضح ذلك في السور: الكهف، ومريم، والأنبياء، والقصص، والسجدة، وص، والزخرف، والممتحنة، والصف، والملك، والجن، والمزمّل، والمدثر، والقيامة، والبروج، والغاشية، والشرح، والفيل، وقريش، والكوثر، والكافرون، والفلق، والناس. قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾.[4]

---

(١) ابراهيم ٤٩-٥٢.
(٢) الذاريات ٥٨-٥٩.
(٣) النبا ٣٨-٤٠.
(٤) الكهف ١٠٩-١١٠.

وفي خطاب آخر الى النبي (صلى الله عليه وسلم) للرد على أسئلة الكافرين عن يوم الفتح وهو لا يفيدهم شيئاً. قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾.(١)

ويتجلى الخطاب الإلهي الذي يرشد رسوله الكريم الى أنه بشر لا يدري أقريب أم بعيد ما يوعدون بقيام الساعة، وهو موعد لا يعلمه إلاّ الله وحده، ولا يظهر أحد عليه. قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا﴾.(٢)

ويخبرنا الله تعالى في عرضه القصص أنها عبرة وعظة لأصحاب العقول التي تعي ما يراد منها. كما في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.(٣)

٤- الدعاء والدعوة الى الصبر والنجاح:

الدعاء طلب يقوم به العبد راجياً ربه أن يغفر له ذنوبه بعد أن اعترف بها، وأن يرحمه برحمته ويدخله جنّات تجري من تحتها الأنهار، وأن ينصره على أعدائه الظالمين، أو يطلب الهداية لطريق الحق والاستقامة. وقد ورد الدعاء في خواتيم السور: الفاتحة، والبقرة، ونوح. ومن ذلك دعاء خاتمة البقرة الذي جاء بعد إقرار الله تعالى بإيمان الرسول (صلى الله عليه وسلم) ومن معه من المؤمنين بالله وملائكته ورسله وكتبه، وأطاعوه وأنابوا إليه، وكان دعاؤهم أن لا يكلفهم فوق طاقتهم، وأن لا يؤاخذهم بما نسوا من الطاعات، وبما أخطؤوا من الذنب، وأن يغفرها لهم، ويشملهم برحمته، وينصرهم على الكافرين. قال تعالى:

﴿يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.(١)

---

(١) السجدة ٢٨-٣٠.
(٢) الجن ٢٥-٢٨.
(٣) يوسف ١١١.

وقد يأتي الدعاء لله تعالى بإنزال العذاب على القوم الكافرين، كما في دعاء النبي نوح (عليه السلام) على قومه، مع طلب المغفرة له ولوالديه وللمؤمنين، وللظالمين زيادة في الهلاك.

قال تعالى: ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴾.(٢)

أما الدعوة الى الصبر فإنها تأتي من خلال خطاب الله تعالى للنبي محمد (صلى الله عليه وسلم) أن يتوكل على الله في إبلاغ رسالته إذ كان حريصاً فيها على إنقاذ الناس من الضلالة، وتوجيههم الى بر الأيمان، وتخييرهم بين الطريقين الهداية أو الضلالة، وأن يصبر عليهم، ولا يحزن من كفرهم، ولا يضيق من مكرهم، وأن يصبر كما صبر الرسل من قبل، ثم يأتي التطمين إنه بأعين الله لا يفارقه طرفة عين. وقد ورد ذلك في السور: التوبة، ويونس، والنحل، والروم، والأحقاف، والطور، والقلم. قال تعالى: ﴿ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾.(٣) وقوله تعالى: ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ۚ بَلَاغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴾.(٤)

وقد تأتي الدعوة الى التصبّر من خلال خطاب الله تعالى للمؤمنين مباشرة أن يصبروا على ما يلاقونه من عداء وحروب، وأن يرابطوا للدفاع عن دينهم، وأن يجاهدوا في الله حق جهاده، وأن يعتصموا بحبل الله فهو يتولاهم وينصرهم، وقد ورد ذلك في السور: آل عمران، والحج. قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾.(٥)

خامساً: الوحدة الموضوعية:

القرآن الكريم واحد في جنسه، ونوعه، ونظمه، وتحدّيه، وفرادته، وإعجازه، لا يقبل التكثر ولا التعدد ولا التجزّء، لا يشاركه في خصائصه وصفاته ومنهجه كتاب آخر، وذلك

=

(١) البقرة ٢٨٦.
(٢) نوح ٢٦-٢٨.
(٣) النحل ١٢٧-١٢٨.
(٤) الاحقاف ٣٥.
(٥) آل عمران ٢٠٠.

المراد بوحدته من هذه الحيثية. أما وحدته البنائية فإنه بكل سوره وآياته وأجزائه يعد كأنه جملة واحدة.[١]

والمقصود بالوحدة الموضوعية الموضوع الواحد في القرآن الكريم، يرد في مواضع متفرقة، وبصور متنوعة، ومناسبات متعددة، ومع ذلك فلو جمعت آيات الموضوع الواحد لكوّنت بناء واحداً قوياً محكماً، ولأصبحت نسيجاً واحداً متناسقاً بديعا. [٢]

ومن خلال التأمل في القرآن الكريم نجد مفهوم الوحدة الموضوعية يعبّر تعبيراً واضحاً عن بنيته المتراصة، فهو نسق واحد مترابط بروابط كثيرة تكمن قي آياته وسوره، ويمتلك هيمنة مطلقة على غيره من نصوص، وأقل ما يمكن أن يكشف عن هيمنته هو بنيته كنظام محكم، كما في قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾.[٣]وقوله تعالى: ﴿مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ﴾ [٤]

وإذا أردنا البحث في بدايات ظهور فكرة الوحدة الموضوعية عند المتقدمين من الرواة والمفسرين سنجد أن الجيل الأول وهم الصحابة كانوا يفهمون معانيه بما يمتلكون من فصاحة وبلاغة، ويدل وصفهم للقرآن على وعي به كنص يعبّر عن بنية متكاملة، نتبين ذلك من وصف المشركين له بأنه سحر، وهو وصف يشمل جميع ما سمعوه من القرآن الكريم. وكان الصحابة يفسّرون كتاب الله قدر طاقتهم، ولم يفسّر جميعه، وإنما يفسّر ما غمض فهمه، وكان التفسير يتزايد تبعاً لتزايد الغموض.

ويأتي الجيل الثاني وهم التابعون فيغلب على التفسير نزعة طلب الرواية لتوظيفها في التفسير، وأصبح البحث عن معاني القرآن من خارجه ولاسيما من الروايات أمراً مرغوباً، وجاء التدوين وولد علم التفسير المدوّن، وهو مثقل بالروايات الدخيلة والمشكوك فيها. وتلا ذلك نشأة مدارس التفسير بالمأثور، وهو تفسير القرآن بالقرآن، أو تفسير القرآن بالسنّة، والتفسير بالرأي وهو تعبير عن الاجتهاد في بيان معنى الآية، واستمر التفسير يتعامل مع القرآن الكريم كأجزاء وسور وآيات تفسّر الواحدة تلو الأخرى، والغالب على منهجية التفسير التجزئة، والبحث في المفردات والألفاظ، والاستنباط الفقهي لكل آية وما تتضمنه من معنى، وهذه المنهجية لا تكشف عن الجوانب الكلية في القرآن الكريم.

وبموازاة هذه المنهجية كانت هناك محاولات أخرى فردية تتجه الى دراسة القرآن من ناحية أخرى وهي الرؤية الكلية لآياته وسوره، وظهر ذلك عند المعتزلة الذين اهتموا بمواضيع القرآن لاستنادهم الى النص القرآني في الاحتجاج، والدفاع عن المذهب، فاجتهدوا في تطوير منهج معين في التعامل مع موضوعات القرآن الكريم الى ما أصبح يعرف اليوم بالتفسير الموضوعي، حيث صار علماً بعد ذلك.

---

(١) طه جابر العلواني: الوحدة البنائية للقران المجيد ٥.
(٢) ينظر: احمد بن محمد الشرقاوي: نظرية الوحدة الموضوعية للقران الكريم ٧٣.
(٣) هود ١.
(٤) آل عمران ٤.

وتأتي أهمية دراسة الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم وهي أنه لا يجوز النظر في القرآن الكريم بشكل مجتزأ بل يجب مراعاة الوحدة البنائية فيه، وأن يرد بعضه الى بعض في فهمه، وقد أخطأ العلماء عندما قصروا المراد من القرآن في الأحكام الشرعية فحسب، فخرجوا بمقولة أن دراسة آيات الأحكام- على اختلافهم في عددها- تكفي لبيان الأحكام الشرعية، وقد ظنّوها غاية المطلب من نصوص الوحي.

إن القرآن الكريم في اتساق وحدته البنائية يحقق للبشرية وحدة معرفية تلملم شتات الإنسان المعرفي، وتوحّد بين زوايا إدراكه، مما يعني إكسابه جهاز تنسيق معرفي يمكنه الخروج من التفرعات الادراكية الى أصول معرفة الخطاب القرآني وسر حيويته، هذه الحيوية ترجع في جانب منها الى الإعجاز البياني في أسلوب الخطاب القرآني، وهو الذي يجمع بين خطاب النفس الإنسانية في أبعادها الفطرية والوجدانية وخطاب العقل في أبعاده المنطقية والبرهانية، ومناط هذا الاتجاه هنا في تجاوزه للقوانين النفسية التي بمقتضاها نرى العقل والعاطفة لا يعملان إلاّ بالتبادل وبنسب عكسية نحو تضافر وائتلاف بينهما.

ومن الممكن أن نتبين سر الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم وهو أن الآيات نزلت في أوقات متباعدة، وفي موضوعات متعددة، فيتضح أن الترابط بين الآيات والسور لون من ألوان البيان المعجز على الرغم من تباعد الزمان واختلاف الموضوعات، فالوحدة الموضوعية في القرآن الكريم حقيقة ثابتة في كل آية من آياته، وفي كل سورة من سوره.

وقد تعددت الطرق لمعرفة الوحدة الموضوعية تعدداً يتناسب والمرحلة التي بدأت فيها، ويمكن رصد تطورها المنهجي حتى وصلت الى طور النضج والاستقرار ، وكان الدافع إليها تفسير القرآن الكريم تفسيراً موضوعياً، يسعى الى تتبع موضوع ما في جميع القرآن، أو اكتشاف موضوع ما يشكل رابطاً لكل سورة بمفردها، وفي هذا المنحى إدراك لأهمية النظرة الكلية للقرآن، واكتشاف المعنى من مجمله لا من أجزائه، ومن هذه الطرق:

١- وحدة المفردة القرآنية:

أكد علماء البلاغة أن القرآن الكريم معجز كله بسوره وآياته وألفاظه وحروفه، وكل مفردة في القرآن الكريم ((وضعت وضعاً فنيّاً مقصوداً في مكانها المناسب، وان الحذف في المفردة مقصود، وان الإبدال مقصود، كما ان الأصل مقصود، وكل تغيّر في المفردة أو إقرار على الأصل مقصود له غرضه... فالتعبير القرآني تعبير فني مقصود، كل كلمة بل كل حرف إنما وضع لقصد)). [١]

ومن المعلوم أن كثيراً من المفردات قد اكتسبت معاني إسلامية لم تكن موجودة من قبل مثل: الصلاة، والزكاة، والصوم، والحج، والجهاد، والإسلام، والإيمان، والكفر، والشرك، والنفاق، والجنة، والنار. ومن يتتبع هذه الألفاظ في مظانها القرآنية سيخرج بمعالم جديدة لنظام قرآني منفرد في تناول الكلمة، وما يترتب على ذلك من دلالات تبدو في مواضعها التي جاءت فيها دون الربط بينها وبين المواضع.

---

(١) فاضل السامرائي: بلاغة الكلمة في التعبير القراني ٦، ١١ دار عمار، عمان ٢٠٠١م.

إن المناسبة بين كلمات الآية نفسها علم واسع وله وجوه متعددة، وهي أن تدرس مناسبة الكلمة للآية التي ذكرت فيها، وقد تدرس مناسبة الكلمة مقارنة مع كلمة مشابهة لها في آية أخرى في السورة نفسها أو في سورة أخرى ((وإذا كانت الكلمة تصلح في مكان فقد تفسد في مكان آخر، وقد تدل على معان مشتركة في موقع لتدل على معنى واحد في موقع آخر، وقد تكون في أصل الوضع اللغوي لا تدل على معنى مفرد فيراد لها أن تدل على معان عديدة، والكلمة في تعبير ما تساعد في رسم صورة بيانية معينة، وهي في تعبير آخر تبدو فقيرة متواضعة تعطي المعنى الواحد والمعنيين)). (١)

ويعد مقاتل بن سليمان البلخي (ت ١٥٠هـ) أول من بدأ هذا الاتجاه في كتابه (الأشباه والنظائر في القرآن الكريم) فأتى على الكلمات التي اتحدت في اللفظ واختلفت في الدلالة بحسب السياق القرآني، من ذلك تفسيره لفظ الطعام، وهو على أربعة وجوه.

وقد بدأ الاهتمام بهذا النوع من التفسير في علم الأشباه والنظائر في القرن الثاني الهجري، وهو علم لصيق بعلوم العربية، ولكنه منحصر بالسياق القرآني، وقد بدا إن المشكلة الأساسية في أي تفسير تكمن في التعامل مع القرآن الكريم مجرد تعامل لغوي دون التنبّه الى إمكانية أن يكون في تلك المفردات ما هو اصطلاح قد يغيّر جذرياً التفاسير المعهودة، والأشباه والنظائر اتجاه نحاه بعض العلماء في تتبع اللفظة القرآنية، ومحاولة معرفة دلالاتها المختلفة. وهو في جوهرة يكشف عن جوانب من بنية النص القرآني، ولاسيما في محاولات اكتشاف الروابط بين مختلف هذه الوجوه والنظائر، ويبرز ذلك في تأويل النظائر بالاعتماد على اللغة لا المأثور، وإرجاعها الى أصل واحد. وهو لون من التفسير الموضوعي، وأول وسيلة يلجأ إليها الباحثون في البحث عن موضوعات القرآن الكريم، حيث يجمعون ألفاظ ذلك الموضوع من سور القرآن، ثم يتعرفون دلالة اللفظ في أماكن وروده. وينفي الترمذي في كتابه (تحصيل نظائر القرآن) تعدد المعاني لوجود علاقة واضحة بين الألفاظ.

وخص ابن قتيبة في كتابه (تأويل مشكل القرآن) جملة فصول كرّسها لبيان مزايا مفردات القرآن، ففي (باب اللفظ الواحد للمعاني المختلفة) تناول ألفاظ عدة منها: الأمة، والدين، والعهد، والهدى، والضلال، ومفاهيم قرآنية أخرى كانت بمثابة مشروع معجم لمفاهيم القرآن ومصطلحاته ومفرداته، من ذلك مثلاً لفظ الأمة، والأمة: كل جماعة يجمعهم أمر ما، أما دين أو زمان أو مكان سواء كان ذلك الأمر الجامع تسخيراً أو اختياراً، وجمعها أمم.

ويقرب من علم الوجوه والنظائر ما يعرف بعلم الغريب، وقد أفاد الراغب الأصفهاني (ت ٥٠٢هـ) في كتابه (المفردات في غريب القرآن) من ابن قتيبة في تعقبه الألفاظ، والكشف عن الروابط بين مختلف الألفاظ المنثورة في القرآن الكريم، وقد تطورت

---

(١) د. طه جابر العلواني: الوحدة البنائية للقران المجيد ٣١.

دراسة المفردات القرآنية وأصبحت تمثل مدخلاً جديداً لفهم بنية النص، وظهرت العناية بفكرة المصطلح القرآني والوعي بأهمية اكتشاف المعنى في القرآن من خلال بنيته. [١]

ولا شك في أن عملية التصور الأولى لأبعاد الموضوع جزء من نجاح الباحث في خدمة هذه الطريقة إذ الفهم يأتي بعد التصوّر، ويأتي بعد ذلك اختيار العنوان وجمع الآيات المتعلقة به، وترتيبها بحسب نزولها، لأن ما نزل بمكة كان في الأعم بخلاف ما نزل بالمدينة، ويأتي دور تفسير هذه الآيات وفهم دلالتها، وما ترمي إليه ألفاظها، وما تحمله من الروابط بينها، مع الإحاطة قدر الإمكان بمعانيها مجتمعة، وفهم التوجيهات القرآنية التي تحيط بها، وتلمسها بين النصوص.

٢- وحدة السورة الموضوعية:

النظر في السورة الواحدة، والعمل على بيان موضوعها الرئيس، وما تفرّع منه من قضايا ومواقف وأحكام جزئية متضمنة في السورة، والباحث هنا أو المفسّر ينظر الى السورة على أنها وحدة متكاملة من حيث المنهج والموضوع والهدف. وهذا اللون من الدراسة والتفسير ظفر بعناية العلماء الأولين، وجاء في ثنايا تفاسيرهم، كما فعل الإمام البقاعي في كتابه (نظم الدرر في تناسب الآيات والسور).

والقرآن الكريم كتاب هداية وإرشاد إلهي، وهو يمثل الصلة الحية بين الخالق والمخلوق، فلا غرو أن تكون طريقته في التأليف مغايرة لما ألفه الناس، فليست سوره مجرد فصول من كتاب بحيث تستقل كل سورة عن غيرها، وإنما القرآن ككتاب هداية يستلزم أن يسلك طرقاً عدة يصل منها النفس، وإن هذه الهدايات تجتمع في القرآن بتمامه، وهي منبثة في سوره، وبصورة تجل عن الوصف يراها من ينعم النظر فيها، فيجد لكل سورة وحدة تجتمع حولها الآيات، وإن تعددت موضوعاتها فإن روحاً تسري بين أجزائها، ووشائج تربط بينها، ومقصداً يجمعها.

وتتجلى طريقة الباحث في الكشف عن وحدة السورة هي أن يستوعب أهداف السورة المنبثة في أسباب نزولها، وترتيبها، ومكيّها ومدنيّها، وأسمائها، وعدد آياتها، ومقاصدها الفرعية، وأساليب عرضها، والمناسبات بين مقاطعها. [٢]

وكان الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) من أوائل من تنبّه الى أهمية دراسة القرآن من حيث أسلوبه ونظمه، ومن يتتبع كتابه (الحيوان) يجد فيه ذكراً عن موضوع النار في القرآن الكريم. ونظر علماؤنا الى ارتباط الآيات ببعضها، فسماها بعضهم (ترتيب الآيات) كما ورد عند ابن حزم (ت ٤٥٦هـ) وابن العربي (ت ٥٤٣هـ) في كتابه (ترتيب آي القرآن الكريم) ويتطرق الى وحدة السورة فيقول: ((ارتباط آي القرآن بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة، منسقة المعاني، منتظمة المباني، علم عظيم لم يتعرض له إلاّ عالم واحد عمل

---

(١) ينظر: عبد الرحمن حللي: المفاهيم والمصطلحات القرانية، مقاربة منهجية، مجلة المعرفة – العدد ٣٥ لسنة ٢٠٠٤م.

(٢) د. مصطفى مسلم: مباحث في التفسير الموضوعي ٢٨-٢٩ دمشق ١٩٩٨م.

سورة البقرة، ثم فتح الله لنا فيه، فلما لم نجد له حملة، ورأينا الخلق بأوصاف البطلة، ختمنا عليه وجعلناه بيننا وبين الله ورددناه إليه)). [١]

ومع هذا فإن العقول تتفاوت في مواقفها واستنتاجاتها، وبعض الناس أشد إحساساً بهذه الأمور الدقيقة، وأسرع في التفطّن لها، والكشف عنها، لأن ((الإنسان مخلوق تؤثر في حركته الدواعي والصوارف، فحملات الطعن على القرآن والاعتراض عليه التي واجهه بعض أهل الشرك بها كانت من الدوافع للبحث الدقيق في دفاعات القرآن عن نفسه، والكشف عن سائر مطاعن أهل الشرك فيه، ودحضها وتفنيدها لإثبات سلامة النظم، ودقة التناسب، ووحدة الموضوعات)). [٢]

وسمي الارتباط بين الآيات بالمناسبات، وكان الرازي المفسّر (ت ٦٠٦هـ) أول من استخدم هذا المصطلح في تفسيره آخر سورة المائدة، وكلامه عن مناسبة خاتمة السورة لافتتاحيتها. [٣]ويبيّن البقاعي (ت ٨٨٥هـ) المناسبات بين آيات السور وترتيبها ودلالتها على وحدة السورة بقوله: ((فعلم مناسبات القرآن علم تعرف منه علل ترتيب أجزائه، وهو سر البلاغة لأدائه الى تحقيق مطالبة المقال لمقتضى الحال، وتتوقف الإجادة فيه على معرفة مقصود السورة المطلوب ذلك فيها)). [٤]

وسمي الارتباط أيضاً بالنظم، فتبلورت نظرية النظم عند القاضي الجرجاني (ت٤٧١هـ) ونظر الشاطبي (ت ٧٩١هـ) في كتابه (الموافقات) الى النظم في السورة الواحدة قائلاً: ((اعتبار جهة النظم في السورة لا يتم به فائدة إلاّ بعد استيفاء جميعها بالنظر، فالاقتصار على بعضها غير مفيد للمقصود منها، كما إن الاقتصار على بعض الآية في استفادة حكم م لا يفيد إلاّ بعد كما النظر في جميعها. فسورة البقرة مثلاً كلام واحد باعتبار النظم وإن احتوت على أنواع من الكلام بحسب ما ثبت فيها، فمنها ما هو كالمقدمات والتمهيدات بين يدي الأمر المطلوب، ومنها ما هو كالمؤكد والمتمم، ومنها ما هو المقصود في الإنزال وذلك تقرير الأحكام على تفاصيل الأبواب، ومنها الخواتم العائدة على ما قبلها بالتأكيد والتثبيت، وما أشبه ذلك، ولابد من تمثيل شيء من هذه الأقسام فيه يبيّن ما تقدم. فقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾. الى قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ﴾.[٥] كلام واحد وإن نزل في أوقات شتى، وحاصله بيان الصيام وأحكامه، وكيفية أدائه وقضائه، وسائر ما يتعلق به من الجلائل التي لابد منها ولا ينبني إلاّ عليها)). [٦]

---

(١) ينظر: احمد ابو زيد: التناسب البياني ٦.
(٢) طه جابر العلواني: الوحدة البنائية للقران المجيد ٢٦.
(٣) ينظر: فخر الدين الرازي: مفاتيح الغيب ١٤٧/٦.
(٤) البقاعي: مصاعد النظر للاشراف على مقاصد السور ١٤٩/١-١٥٠.
(٥) البقرة ١٨٣، ١٨٧.
(٦) الشاطبي: الموافقات ٤١٥/٣.

إن الأصل في آيات السورة الواحدة أن يكون بينها ترابط، فلكل سورة شخصيتها، فالافتتاحية تتضمن الخطوط العريضة التي ستعرضها أولاً، ثم تفصل المقاطع في السورة هذا الإجمال، ثم تلخص الخاتمة مرة أخرى القضايا البارزة التي دارت حول المحور، هذا هو الأساس، ولكن قد يلتبس الأمر أحياناً على القارئ والباحث في السورة، ولاسيما من يقرأ أسباب النزول، ويطلع على تاريخ نزول بعض الآيات يجد أن الفاصل الزمني بينها طويل وقد يبلغ بضع سنين، أو يساير الأحداث التي نزلت فيها الآيات، فكانت سبب نزولها، فتكون مختلفة، وربما خطر له أن مضمون الآيات مختلف أيضاً ولا رابط بينها، وسنبيّن من خلال الأمثلة أن هذا الاختلاف وهم ولا وجود له. ومن الأمثلة على ذلك:

- **المثال الأول: المناسبة بين آيات بينها بعد زمني في سورة واحدة:**

في سورة النساء نجد بعد انتصار المسلمين في معركة بدر في السنة الثانية للهجرة ساء اليهود هذا الانتصار، فأرسلوا كعب بن الأشرف فاستجاش المشركين في مكة، فقال: إنا معكم نقاتله، فقالوا: إنكم أهل كتاب وهو صاحب كتاب ولا نأمن مكراً منكم، فإن أردتم أن نخرج معكم فاسجد لهذين الصنمين، ففعل، ثم قالوا له: نحن أهدى أم محمد؟ قال: بل أنتم خير وأهدى، فنزلت فيه ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا .. ﴾[1] وجاءت بعدها الآية: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾[2]

وتذكر الروايات أن هذه الآية نزلت في عثمان بن طلحة صاحب سدانة الكعبة لما أخذ منه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) مفتاح الكعبة يوم الفتح. [3]وبين الآيات السابقة وهذه الآية حوالي ست سنوات، وندرك حين نتأمل أن المناسبة أو الرابطة بين الآيات جميعاً هي موضوع الأمانة والحفاظ عليها، فقد أخذ الرسول (صلى الله عليه وسلم) العهد والميثاق من أهل الكتاب أن لا يخونوا ولا يغدروا به، فخانوا الأمانة ونقضوا الميثاق، وشهد كبير أحبارهم كعب بن الأشرف شهادة زور حين قال: إن المشركين أهدى سبيلاً من المؤمنين.

وكأن هذه الآية تنبّه الى أن هؤلاء القوم قد خانوا الأمانة فاستحقوا عذاب الله فلا تكونوا مثلهم، بل أدّوا الأمانات الى أهلها ولو كانت شيئاً صغيراً مثل المفتاح الذي عند آل طلحة، وبعد أن نزلت هذه الآية على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وهو في جوف الكعبة، خرج على الملأ ونادى على عثمان بن طلحة فقال: ((خذوها يا بني طلحة خالدة

---

(١) النساء ٥١-٥٧.
(٢) النساء ٥٨.
(٣) ينظر: السيوطي: الدر المنثور في التفسير المأثور ٢/٥٧٠-٥٧١.

تالدة لا ينزعها منكم إلاّ ظالم))[1] فالسياق هنا تحمّل مسؤولية الأمانة وأداؤها على الوجه الصحيح.

- **والمثال الثاني: المناسبة بين آيات موضوعاتها متنوعة في سورة واحدة:**

في سورة البقرة جملة آيات موضوعاتها متنوعة منها: محاورة النبي إبراهيم (عليه السلام) للنمرود في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ .. ﴾.... وقصة عزير من بني إسرائيل ومروره على قرية خربة في قوله تعالى: ﴿ أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِا۟ئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ.. ﴾.... وطلب النبي إبراهيم (عليه السلام) من ربه أن يريه كيف يحيي الموتى في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾.... ثم بيان مضاعفة أجر الصدقة وتشبيهها بالحبة الواحدة التي تنبت حبّات عدة في قوله تعالى: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾.[2] ثم تتوالى الآيات في الإنفاق والإخلاص لله تعالى في إنفاقه، والمال الذي ينفق في السر والعلن والأجر العظيم جزاء ذلك.

ولو دققنا في سياق هذه الآيات لوجدنا بينها خيطاً رفيعاً يربطها جميعا، فالسياق هنا لبيان قدرة الله تعالى من خلال: الإحياء والإماتة في الإنسان (فأماته الله مائة عام ثم بعثه). والإحياء والإماتة في الحيوان (وانظر الى حمارك ولنجعلك آية للناس وانظر الى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحماً). والإحياء والإماتة في الطير (قال فخذ أربعة من الطير فصرهنّ إليك). والإحياء والإماتة في النبات (كمثل حبّة أنبتت سبع سنابل). والإحياء والإماتة في الأعمال (والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم). فالإحياء والإماتة من خصوصية الألوهية، فهو الحي القيوم، والمُحيي والمميت، وقد عرض تلك الصور للحياة والموت لبيان قدرته على ذلك، وهي المناسبة التي ربطت بين هذه الآيات جميعها.

- **والمثال الثالث: المناسبة بين آيات ذات موضوع واحد تتخللها آيات متنوعة:**

---

(١) المصدر نفسه ٥٧١/٢.

(٢) البقرة ٢٥٨، ٢٥٩، ٢٦٠، ٢٦١.

في سورة آل عمران وردت آيات في بيان غزوة أحد مثل قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾. ثم يأتي في أثناء الحديث عن هذه الغزوة قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾. وبعد سبع آيات في التعقيب على الربا، وأخذ العظات والعبر منها، ثم عودة الى أحداث الغزوة في قوله تعالى: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١٣٧) هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ ﴾. [(١)]

وقد يستغرب القارئ ويستبعد وجه المناسبة بين الآيات في سرد أحداث غزوة أحد وآيات في النهي عن أكل الربا، وبالرجوع الى أسباب النزول يدرك أن حادثة (الأصيرم) كان سببها التعامل بالربا. فقد روى أبو داود في سننه بسند عن رجال عن أبي هريرة (رضي الله عنه): أن عمرو بن وقش كان له ربا في الجاهلية، فكره أن يسلم حتى يأخذه، فجاء يوم أحد فقال: أين بنو عمي؟ قالوا بأحد. قال: أين فلان؟ قالوا بأحد. قال: أين فلان. قالوا: بأحد. فلبس لأمته وركب فرسه ثم توجّه قبلهم، فلما رأى المسلمون، قالوا: إليك عنا يا عمرو، قال: إني قد آمنت. فقاتل حتى جرح، فحمل الى أهله جريحاً، فجاء سعد بن معاذ (رضي الله عنه) فقال لأخته: سليه حمية لقومك أو غضباً لهم؟ أم غضباً لله عز وجل؟ فقال: بل غضباً لله عز وجل ورسوله (صلى الله عليه وسلم) فمات فدخل الجنة. وما صلى لله عز وجل صلاة. [(٢)]وجاء التعقيب عن آية الربا بالمسارعة الى التوبة والاستغفار ، وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمنفقين أموالهم في السرّاء والضرّاء المتصفين بالخلق الحسن. فإن المتعاملين بالربا يتصفون بعكس ذلك، فهم يصرّون على الموبقات، ويبخلون بالأموال ولا يعفون أحداً، ويصرون على المعصية، فأخلاق المرابين من أسوأ الأخلاق، وتلك حالت دون دخول الأصيرم في الإسلام ومشاركة إخوانه في الجهاد الى أن جاءت غزوة أحد فهداه الله تعالى الى المشاركة فيها، ومعرفة سبب النزول يفيد في معرفة المناسبة بين الآيات.

- **المثال الرابع: المناسبة بين آيات الافتتاحية والمضمون في السورة:**

في سورة طه قوله تعالى: ﴿ طه (١) مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى (٢) إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى ﴾. [(٣)] يربط الشيخ سعيد حوى بين مقدمة السورة ومقاطعها، وننقل عنه على سبيل

---

(١) آل عمران ١٢١، ١٣٠، ١٣٧-١٣٨.

(٢) ينظر: المنذري: مختصر سنن ابي داود ٣٨٢/٣ وينظر: ابن عبد البر: الاستيعاب في معرفة الاصحاب ١١٦٧/٣.

(٣) طه ١-٢.

المثال لا الحصر ما ذكره عن صلة المقطع الثاني للسورة من مقدمتها قوله: ((أما الصلة بين مقدمة السورة وسياقها هنا فهي من حيث أنها تبيّن لنا أن الوحي تذكرة لمن يخشى، وقد رأينا كيف أنّ السحرة تذكروا، فلم يكن الوحي شقاء لموسى ولا لهم، فالشقاء هو بقاء الإنسان على الكفر ورفضه الإيمان، والعبرة بالخواتيم في الدنيا والآخرة، انه لا سعادة بدون هداية ولا شقاء معها، وفي قول السحرة كما حكى القرآن الكريم ﴿إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾[1] ما يفيد أن الإنسان لو عذبه الكافرون كل حياته لما كان ذلك يساوي شيئاً، ولما كان ذلك بالنسبة له شقاء، ومن ثم فإننا ندرك أن السورة تعالج التصور الخاطئ لمفهوم السعادة والشقاء)).[2]

وعلى هذا الأساس فالسورة في مجملها كل لا ينفصم عراه، وطائفة منتظمة من الآيات لا تحتمل تقطيعها، وإنما النظر إليها يكون في كلها لا بعضها، ولا تتم الفائدة إلاّ باعتبارها كياناً حيّاً واحداً، وهو ما يرتب على إدراك مقصدها النظر إليها كلها واستيفاء معانيها بتمامها.

٣- وحدة القرآن الموضوعية:

الوحدة الموضوعية هي النظر في كل القرآن على أنه نص واحد متكامل معرفياً، ترد أفكاره بعضها الى بعض، فهذه قضية معرفية تقوم على تحديد الموضوع أولاً ثم البحث في جميع القرآن عن الآيات التي لها علاقة به، وجمعها ودراستها على وفق مناهج الدراسة العلمية المعروفة. وفي هذه الصورة حالتان، الأولى: أن ينظر الباحث في آيات القرآن الكريم ثم يجمع ذات الموضوع الواحد، ويقوم بدراستها للكشف عن حقيقة الموضوع وتفاصيله. والثانية: أن ينظر الى واقع الناس فيجد موضوعاً ثم يلتجئ الى القرآن الكريم، ويبحث عن الآيات التي تعالجه، أو تشير إليه، فيقوم بجمعها، وينجز دراسته حولها على وفق القواعد العلمية، ليكشف عن جواب القرآن الكريم عن أسئلة الموضوع مضموناً ومنهجاً وهدفاً.

وهذا النوع هو الأكثر شهرة والأكثر مبادرة الى الذهن عند إطلاق تعبير (التفسير الموضوعي) ويتوقف هذا التفسير على تحديد الموضوع الذي يجب أن يدرس، والمشكلة الأساسية إن هذا النوع من التفسير لا يمكن أن يشكل تفسيراً كاملاً للقرآن الكريم. شأنه شأن المفردة القرآنية، ذلك أن الموضوعات التي تناولها القرآن الكريم يصعب حصرها، وتحديدها بطبيعة الحال اجتهاد، والاجتهاد يختلف في من حيث كونه ظني الدلالة، خلافاً للتفسير الموضوعي الذي يعتمد السور.

وعلى هذا الأساس فإن القرآن المجيد واحد لا يقبل بناؤه وإحكام آياته التعدد فيه أو التجزئة في آياته أو التعضية بحيث يقبل بعضه، ويرفض بعضه الآخر، فهو بمثابة الكلمة الواحدة، أو الجملة

---

(١) طه ٧٢.

(٢) احمد بن محمد الشرقاوي: نظرية الوحدة الموضوعية للقران الكريم ٧٧-٧٨.

الواحدة، أو الآية الواحدة، وإذا كانت قد تعددت آياته وسوره وأجزاؤه وأحزابه، فذلك التعدد ضرورة لا غنى عنها في التعليم والتعلم، والتنزيل لتغيير الواقع وإبداله، فلم يكن في مقدور الإنسان أن يستوعب قرآناً يتصف بكل صفات القرآن، ويأخذه الإنسان أو يتبناه بوصفه ذا وحدة بنائية لا تختلف عن وحدة الكلمة في حروفها، ووحدة الجملة في كلماتها وأركانها، ووحدة الإنسان في أعضائه. [1]ومن الأدلة التي تثبت وجود مثل هذه الوحدة الموضوعية:

أ- وجود روابط بين سور القرآن الكريم أو المناسبة بين خاتمة سورة وافتتاحية سورة أخرى، فقال الزركشي في هذا النوع من المناسبة: ((وإذا اعتبرنا افتتاح كل سورة وجدته في غاية المناسبة لما ختم به السورة قبلها، ثم هو يخفى تارة ويظهر أخرى)). [2]

وقد عنى كثير من العلماء بإجلاء هذا النوع الذي نجده في كل سور القرآن الكريم، سواء منه المكي المتبوع بالمدني أو المدني المتبوع بالمكي، أو غير ذلك كما سنوضحه بالأمثلة:

المثال الأول: المناسبة بين سورتين مكيّتين:

في خاتمة سورة هود (المكية) نقرأ قوله تعالى: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾. [3]

أخبر الله تعالى في خاتمة سورة هود أن قصص الأنبياء مما يثبت فؤاد النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) في الاستمرار على دعوة الحق، لأن سنة الله في الأنبياء الإبتلاء، والعناد من الأقوام على الكفر، ولكن الغلبة في النهاية لدعاة الإيمان، وفي مسيرتهم العظة والعبرة للنبي (صلى الله عليه وسلم) ولأتباعه من المؤمنين، وتهديد ووعيد للمكذبين بأن ينتظروا ليروا لمن تكون العاقبة.

وفي افتتاحية سورة يوسف (المكية) أيضاً نقرأ قوله تعالى: ﴿ الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾. [4]

---

(١) ينظر: د. طه جابر العلواني: الوحدة البنائية للقران المجيد ١٤.
(٢) الزركشي: البرهان في علوم القران ٦٤/١.
(٣) هود ١٢٠-١٢٣.
(٤) يوسف ١-٣.

بيّن الله تعالى في افتتاحية سورة يوسف أنها قصة هي من أحسن القصص، وفيها من العظات والعبر والجوانب التربوية، وعلى الرغم مما لقيه يوسف (عليه السلام) من الكيد له، كانت العاقبة الانتصار الباهر، وجاء أخوته الذين أساؤوا إليه نادمين طائعين معترفين بفضله.

المثال الثاني: المناسبة بين سورتين مدنيّتين:

ووردت خاتمة سورة الفتح (مدنية) بقوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا﴾.(١)

لقد اشتملت الآية الكريمة على صفات خلقية رفيعة للنبي محمد (صلى الله عليه وسلم) وأصحابه في تعاملهم مع الأعداء، وتعامل بعضهم مع بعض، ولكن لم تبين الآية كيفية تعامل الصحابة مع قائدهم رسول الله (صلى الله عليه وسلم).

ووردت افتتاحية سورة الحجرات (مدنية) بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلۡحُجُرَٰتِ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخۡرُجَ إِلَيۡهِمۡ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾.(٢)

جاءت سورة الحجرات لتكمل الصورة وتبيّن جانباً من التعامل مع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وتعامل الصحابة بعضهم مع بعض، ومن تمام هذا التعامل حسن التأدب في خفض الصوت عند المخاطبة، والتأدب بين يديه من دلالات تقوى القلوب، وحسن القبول عند الله جل جلاله، ومما يؤكد ذلك ما ذهب إليه البقاعي بقوله: ((لما نوّه سبحانه وتعالى في القتال بذكر النبي صلى الله عليه وسلم وصرّح في ابتدائها باسمه الشريف، وسمّى السورة به، وملأ سورة محمد صلى الله عليه وسلم بتعظيمه، وختمها باسمه، ومدح أتباعه لأجله، افتتح هذه باشتراط الأدب معه في القول والفعل للعد من حزبه، والفوز بقربه، ومدار ذلك

---

(١) الفتح ٢٩.
(٢) الحجرات ١-٥.

معالي الأخلاق)).[1]. وقال السيوطي في أثناء كلامه عن الحجرات: ((لا يخفى تآخي هاتين السورتين (الفتح والحجرات) مع ما قبلهما، لكونهما مدنيتين، ومشتملتين على أحكام، فتلك فيها قتال الكفار، وهذه فيها قتال البغاة، وتلك ختمت بالذين آمنوا، وهذه افتتحت بالذين آمنوا، وتلك تضمنت تشريعاً له صلى الله عليه وسلم خصوصاً مطلعها، وهذه أيضاً في مطلعها أنواع من التشريف له صلى الله عليه وسلم)).[2]

والمثال الثالث: المناسبة بين سورة مكية وأخرى مدنية وبالعكس:

في خاتمة سورة الأحقاف (مكية) في قوله تعالى: ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ۚ بَلَاغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴾.[3]

لقد نصّت خاتمة الأحقاف على عاقبة الكفار ومصيرهم الى النار، وتوبيخهم على كفرهم بعد أن رأوا الحقائق بأعينهم، فاعترفوا وندموا يوم لا ينفع الندم، وأمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بالصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل، فكما كانت العاقبة لهم، فستكون العاقبة الحسنة له وللمؤمنين.

ونقرأ افتتاحية سورة محمد (مدنية) في قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۙ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ﴾.[4]

بدأت افتتاحية سورة محمد بذكر الكافرين وسوء مصيرهم، وضياع جهودهم، وجاء تعليل ذلك لأنهم اتبعوا الباطل، ولم يتبعوا الحق الذي جاء به النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) أما المؤمنون به وبما أنزل عليه من الحق فقد غفرت ذنوبهم، وأصلح الله تعالى بالهم، وأدخلهم الجنة.

ففي الخاتمة الأولى والافتتاحية الثانية حديث عن الوحي المنزّل على النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) وموقف الكافرين به، ومصيرهم يوم القيامة، فما على النبي إلاّ الصبر وانتظار لمعرفة العواقب، وقد أكد الإمام ابن الزبير الغرناطي ما سبق ذكره فقال: ((لما انبنت سورة الأحقاف على ذكر مثال من كذّب وافترى وكفر وفجر، واختتمت السورة

---

(١) البقاعي: نظم الدرر ٢٢٢/٧.
(٢) السيوطي: تناسق الدرر ١١٨.
(٣) الاحقاف ٣٤-٣٥.
(٤) محمد ١-٣.

بإعراضهم، ختمت بما تكرر من تقريعهم وتوبيخهم... وذكر هلاكهم. افتتح السورة الأخرى بعاجل ذلك اللاحق لهم في دنياهم، فقال: (فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب) بعد ابتداء السورة (الذين كفروا... أضل أعمالهم))).[١] وقال الإمام السيوطي: ((لا يخفى ارتباط أولها (سورة محمد) في آخر الأحقاف... واتصاله وتلاحمه بحيث لو أنه أسقطت البسملة منه لكان متصلاً اتصالاً واحداً لا تنافر فيه، كالآية الواحدة آخذاً بعضه بعنق بعض)).[٢]

وأما المناسبة بين سورة مدنية وأخرى مكية فإننا نجده في خاتمة سورة التوبة (مدنية) وهي من أواخر ما نزل من القرآن، حيث نزلت بعد غزوة تبوك في السنة التاسعة للهجرة، فنقرأ قوله تعالى: ((لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم. فإن تولوا فقل حسبي الله لا إله إلاّ هو عليه توكلت وهو ربّ العرش العظيم)). [٣]

فالحديث هنا عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) وهو إنسان منهم أي من بني جلدتهم، يتكلم بلغتهم، وهو معروف بأصوله وولادته ونشأته، ومعهود بأمانته وصدقه، يحرص على هدايتهم، ويعز عليه عنادهم، وإصرارهم على الكفر، وهو عطوف رحيم بالمؤمنين الذين قبلوا دعوة الحق، وأسلموا لأمر الله تعالى، فإن أعرض المعاندون ولم يستجيبوا لدعوته، فإنه يفوّض أمره لله، ويتوكل عليه، فهو ربّ العالمين.

وتأتي بعدها افتتاحية سورة يونس (مكية) وفيها إنكار وتوبيخ لهؤلاء الناس الذين استغربوا وتعجبوا أن يوحى الى رجل منهم، يتكلم بلغتهم، ويقوم بتبليغهم رسالة ربّهم، وينذر المعاندين الرافضين دعوة الحق بسوء المصير، ويبشر المؤمنين بمكانتهم الرفيعة وكرامتهم عند ربّهم، فإذا بهم يعطلون عقولهم، ولا يستجيبون لدعوة الرسول (صلى الله عليه وسلم) ويقولون عنه ساحر مع علمهم بأمانته وصدقه. ونقرأ افتتاحية سورة يونس: ﴿ الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ۝١ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ رَجُلٖ مِّنۡهُمۡ أَنۡ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمۡ قَدَمَ صِدۡقٍ عِندَ رَبِّهِمۡۗ قَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٞ مُّبِينٌ ﴾.[٤]

إنّ هذا الربط المحكم بين خواتيم السور وافتتاحياتها له دلالة كبيرة على أن القرآن الكريم عبارة عن سلسلة مترابطة من السور، وبين كل سورة وأخرى مدة زمنية قد تقدر بعدد من السنوات المليئة بالأحداث والموقف التي مرت على نزول القرآن، وهذا ما يعضد وحدته الموضوعية، ويكشف عن أسرار بديع نظمه في آياته وسوره.

ب- وجود حالات الإجمال والتفصيل في سور القرآن الكريم: ونتبيّن هذا الأسلوب الذي يدل على الوحدة الموضوعية بين السور، ففي سورة يجمل الموضوع، وفي سورة أخرى يفصّل ذلك الموضوع نفسه، وتوضّح أجزاؤه، حسبما يقتضيه أسلوب الكلام

---

(١) ابن الزبير الغرناطي: البرهان في ترتيب سور القران ٣٠٦-٣٠٧.
(٢) السيوطي: تناسق الدرر ١١٧.
(٣) التوبة ١٢٨-١٢٩.
(٤) يونس ١-٢.

الإلهي.

وكانت للعلماء السابقين محاولات جادة وكثيرة في المناسبات بين السور، وأوجهها كثيرة ومتعددة، والقرآن الكريم وحدة جامعة، ولقد أشار الى ذلك ابن هشام الأنصاري في كتابه (مغني اللبيب عن كتب الأعاريب) بقوله: ((فالقرآن كله كالسورة الواحدة، ولهذا يذكر الشيء في سورة وجوابه في سورة أخرى، نحو ﴿ وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ ﴾[1] وجوابه ﴿ مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ ﴾[2])).[3]

وأشار الإمام السيوطي في كتابه (تناسق الدرر في تناسب السور) الى تفصيل بعض السور لما أجمل في بعضها، من ذلك مثلاً في ذكره لمناسبة سورة البقرة لسورة الفاتحة قوله: ((قد ظهر لي بحمد الله وجوه من المناسبات، أحدها: إن القاعدة التي استقرأتها من القرآن، كل سورة تفصيل لإجمال ما قبلها، وشرح له، وإطناب لإيجازه، وقد استمر ذلك في غالب سور القرآن طويلها وقصيرها، وسورة البقرة قد اشتملت على تفصيل جميع مجملاتالفاتحة..)).[4]

وفي مناسبة سورة آل عمران لما قبلها يقول: ((قد ظهر لي بحمد الله وجوه من المناسبات أحدها: مراعاة القاعدة التي قررتها من شرح كل سورة لإجمال ما في السورة قبلها وذلك هنا في عدة مواضع منها أن أول البقرة افتتح بوصف الكتاب بقوله: (لا ريب فيه) وفي آل عمران (نزّل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه) وذلك بسط وإطناب لنفي الريب)).[5]

وفي صلة سورة آل عمران بسورة البقرة: حيث بدأت السورتان بـ (الم) وانتهت الآيات الخمس الأولى من سورة البقرة بقوله تعالى (وأولئك هم المفلحون) وانتهت سورة آل عمران بقوله (لعلكم تفلحون) نلاحظ الصلة بين مقدمة آيات المحور وخاتمتها وبين مقدمة سورة آل عمران وخاتمتها. وعلى هذا فسورة آل عمران تلقي أضواء التفصيل على الآيات الأولى من سورة البقرة.

وفي مناسبة سورة النساء لما قبلها يقول السيوطي: ((هذه السورة أيضاً شارحة لبقية مجملات سورة البقرة)). وسورة النساء تقابل بعد ذلك في سورة البقرة ((يا أيها الناس اعبدوا ربّكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون)). ونلاحظ أن سورة النساء مبدوءة بـ (يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة.)).. والشبه واضح بين الآيتين.

أما سورة المائدة فإنها تفصّل في قوله تعالى: ((الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون)). ونلاحظ أن سورة المائدة مبدوءة بـ (يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود). وفي مناسبة سورة الأنعام لما

---

(١) الحجر ٦.
(٢) القلم ٦.
(٣) ابن هشام الانصاري: مغني اللبيب عن كتب الأعاريب ٣٢٨.
(٤) السيوطي: تناسق الدرر في تناسب السور ٣٦.
(٥) المصدر نفسه ٤٠، ٤٣.

قبلها يقول السيوطي: ((وكانت هذه السورة بأسرها متعلقة بالفاتحة من جهة كونها شارحة لإجمال (رب العالمين)، وبالبقرة من حيث كونها شارحة لإجمال قوله تعالى: (الذي خلقكم والذين من قبلكم) وقوله: (هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً)، وتفصّل سورة الأنعام في قوله تعالى: ((كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون. هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً)) ثم ذكر أوجه مناسبتها لسورة آل عمران والنساء والمائدة.

وفي مناسبة سورة الأعراف لسورة الأنعام يذكر السيوطي كيف فصّلت سورة الأعراف بعض ما أجملته سورة الأنعام.[1] فتفصّل سورة الأعراف في قوله تعالى: ((فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون)). مما يلاحظ الصلة بين هذه الآية ومقدمة سورة الأعراف. وكذلك تفصّل سورتا الأنفال والتوبة في محور واحد من سورة البقرة وهو قوله تعالى: ((يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه.)).. فيلاحظ الصلة بين افتتاح الآية بالسؤال وافتتاح سورة الأنفال بالسؤال أيضاً.

وهذا يعني أنّ هذه النظرية تقوم على اعتبار ان سورة البقرة فصّلت ما أجملته سورة الفاتحة من مقاصد ومعان، ثم جاءت السور التالية لسورة البقرة مثل: آل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام لتفصّل معان واردة في سورة البقرة، وهذا القسم من السور يمثل مجموعة واحدة تجمعها وحدة موضوعية واحدة.

وبهذا نصل الى أن كلّ سورة في القرآن الكريم تتألف من افتتاحية وانتقال الى الموضوع الأساس ثم محور السورة وخاتمتها ووحدتها الموضوعية. وكانت افتتاحياتها تدور حول تسبيح الله وتحميده وتبريكه، وتمجيد كتبه، والقسم بكل مظهر من مظاهر خلقه في الكون، والإخبار عن بعض غيبه.

وكانت موضوعات السور المكية تخاطب العقل قبل العاطفة، وتستخدم أساليب عدة لإيصال الفكرة بالأدلة العقلية والمنطقية لمخاطبة العقول التي أشركت بالله، فبدأت بالدعوة الى الإيمان بالله وتوحيده، والإيمان بملائكته ورسله وكتبه واليوم الآخر، وأسلوب الترهيب والترغيب، والبراهين العقلية، والتحلي بالأخلاق.

وكانت السور المدنية تخاطب العقل والعاطفة، وتستعمل أساليب متنوّعة لإيصال الفكرة تبعاً لإختلاف العقلية المدنية، فتحدد مسؤولية المؤمن في الإسلام، وموقف الكفار والمنافقين وأهل الكتاب منه، وتحديد طرق العبادة، وفرض الأحكام الشرعية.

وننتقل الى محور السور الذي تدور حوله، والغرض منه يقع على ثلاثة مواقع في الثلث الأول، وفي الثلث الثاني، وفي الثلث الأخير. ثم خواتيم السور التي هي قاعدتها أو قفلها، وتتضمن موضوعات لا تختلف عن فواتحها، كالتسبيح والتحميد والعظة والإرشاد والدعاء والتصبّر. ثم الوحدة الموضوعية التي لا تقبل بتجزئة القرآن أو تبعيضه، بل هو بناء واحد، لبنته اللفظة المفردة، وجدرانه السور القوية المتماسكة.

---

(١) المصدر نفسه ٥٢، ٥٥.

الفصل الثاني

اللغة والتركيب

الفصل الثاني

اللغة والتركيب

أولاً: اللغة

هي ((كائن حي له كيانه وله شخصيته، وليس أداة تعبير جامدة))(١) بل هي أداة حية للتعبير عن المعاني بطرق معينة، ووسيلة للتفكير والتفاهم لدى الناس، ولها ((دور إيجابي في توجيه الفكر والتأثير فيه، كما ان للفكر فعاليته المتميزة في توجيه اللغة وإعادة تشكيله لعلاقاتها في أثناء تشكيله لنفسه)) (٢)

وتتميز لغة القرآن بخصوصية لا يمكن لها أن تخرجه عن كلام العرب، إذ يجب التفريق بين أمرين، أحدهما لفظي والآخر معرفي، فالقرآن الكريم كلام عربي من غير شك له أسلوبه الخاص، لكن هذا المبنى يحمل مضموناً معرفياً وفكرياً ذا صبغة عالمية، وإزاء هذا لا يمكن أن نخرج القرآن من دائرة كلام العرب، ونفصله عنها، كما لا يجوز أن نقيّد اللفظ القرآني ومحتواه الفكري ضمن هذه الدائرة، أي في أشعار العرب وأمثالهم فحسب.

والقرآن الكريم من حيث القيمة اللغوية- بغض النظر عن الجانب الشرعي- يعد أول مصدر لغوي باعتراف العرب الذين شهدوا بثرائه اللغوي، ولم يترك فصحاء قريش فرصة للانتقاص منه، ولكنهم شهدوا ببلاغته وفصاحته، وإلاّ فإنهم كانوا سينتقدونه، فتميزه لم يخرجه عن تلك المصادر بل بوّأه الصدارة عليها، وعلماء اللغة كانوا يقدمون شواهده على غيرها، لذا يجب محاكمة النصوص الأخرى اليه وليس العكس.

أ- اختيار الألفاظ:

- كانت المحاولات الأولى في تفسير القرآن تقوم على تتبع اللفظة القرآنية، وذلك بجمعها من الآيات بذاتها، أو على صورة إحدى مشتقاتها، ثم الإحاطة بتفاسير هذه الآيات، ومحاولة استنباط دلالات تلك اللفظة من خلال استعمال القرآن لها دون أن ينبني على ذلك الاستنباط الدلالي إرشاد أو توجيه قرآني معين، وإنما تدور هذه الطريقة في إطار دلالة اللفظة في موضعها المفرد فحسب. (٣) ولاشك في أن من يتتبع تلك الألفاظ في مظانها القرآنية سيخرج بمعالم جديدة لنظام قرآني منفرد في تناول اللفظ، وما يترتب على ذلك من دلالات تبدو في مواضعها الني جاءت فيها دون ربط بينها وبين الألفاظ في المواضع الأخرى.

---

(١) عز الدين اسماعيل: الاسس الجمالية في النقد ٢٢١.

(٢) محمد رضا مبارك: اللغة الشعرية في الخطاب النقدي العربي – تلازم التراث والمعاصرة ١٣.

(٣) ينظر: د. مصطفى مسلم: مباحث في التفسير الموضوعي ٢٣.

وكان مقاتل بن سليمان البلخي (ت ١٥٠) أول من اهتم بدلالات اللفظ المتشابهة والمتناظرة له في كتابه (الأشباه والنظائر في القرآن الكريم) فأتى على الكلمات التي اتحدت في اللفظ واختلفت في الدلالة بحسب السياق القرآني. ووضع يحيى بن سلاّم (ت ٢٠٠هـ) كتابه (التصاريف) الذي فسّر القرآن بتتبع ما اشتبهت أسماؤه وتصرّفت معانيه على طريقة مقاتل[١]وقد تبعهما الدامغاني (ت ٤٧٨هـ) في كتابه (إصلاح الوجوه والنظائر).

والأشباه والنظائر أو الوجوه والنظائر هو تجاه نحاه بعض العلماء في تتبع اللفظة القرآنية، ومحاولة معرفة دلالاتها المختلفة، وقد بدأ الاهتمام بهذا العلم في القرن الثاني للهجرة، أي في الوقت الذي اكتشفوا أن المشكلة الأساسية في أي تفسير تكمن في التعامل مع القرآن مجرد تعامل لغوي دون التنبّه الى إمكانية أن يكون في تلك المفردات ما هو اصطلاح قد يغيّر النظرة الى التفاسير المعهودة.

إن محاولات الكشف عن الروابط بين مختلف هذه الوجوه والنظائر يبررها تأويل النظائر بالاعتماد على اللغة لا المأثور، وإرجاعها الى أصل واحد، نجده عند عبد الحكيم الترمذي في كتابه (تحصيل نظائر القرآن) إذ ينفي فيه تعدد المعاني لوجود علاقة واضحة بينها جميعاً، وحاول تطبيق نظريته على واحد وثمانين لفظ. [٢]وبهذا الرابط بين النظائر المتعددة في النص القرآني الذي أشار اليه الترمذي يتم اكتشاف جانب من شبكة المعاني المنثورة في بنية النص، وهي ما يمكن اعتبارها كلمات مفتاحية لفهم بنية النص كالذي عرف في المناهج اللغوية الحديثة.

ومن مقاربات هذه الوجوه البحث في مناسبة الألفاظ لمعانيها كما نتبيّن في بعض مؤلفات الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) المفقودة مثل (ألفاظ القرآن) و(فصاحة كلمات القرآن) وقد وردت بعض النصوص المنقولة عنها في كتبه المتداولة، وقد تحدّث عن ألفاظ القرآن وثراء معانيها، ومناسبتها لتلك المعاني حيث يجعلنا نتصوّر الكلمة كائناً حيّاً ذا نفس سائلة بحيث يمكن أن يوصف بالخفة والثقل، والسمو والهبوط، والرقي والنزول، وفي ذلك يقول: ((وقد يستخف الناس ألفاظاً ويستعملونها وغيرها أحق بذلك منها، ألا ترى أن الله- تبارك وتعالى- لم يذكر في القرآن الجوع إلاّ في موضع العقاب، أو في موضع الفقر المدقع، والعجز الظاهر، والناس لا يذكرون السغب، ويذكرون الجوع في حال القدرة والسلامة، وكذلك المطر، لأنك لا تجد القرآن يلفظ الغيث في موضع الانتقام، والعامة وأكثر الخاصة لا يفصلون بين ذكر المطر وذكر الغيث ولفظ القرآن الذي عليه نزل انه إذا ذكر الأبصار لم يقل الأسماع، وإذا ذكر سبع سماوات لم يقل الأرضين، ألا تراه لا يجمع الأرض أرضون، ولا السمع أسماعاً، والجاري على أفواه العامة غير ذلك، لا يتفقدون من الألفاظ ما هو أحق بالذكر وأولى بالاستعمال. [٣]

وخصّ ابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ) كتابه (تأويل مشكل القرآن) جملة من فصول كرّسها لبيان مزايا مفردات القرآن، ففي (باب اللفظ الواحد للمعاني المختلفة) تناول ألفاظاً مثل:

---

(١) ينظر: المصدر نفسه ٢٠.

(٢) ينظر: سلوى محمد العوا: الوجوه والنظائر في القران الكريم ٢٣.

(٣) الجاحظ: البيا والتبيين ٣٣/١.

الأمة، والدين، والعهد، والهدى، والضلال، والظلم، وغيرها فيما يزيد على خمس وأربعين صفحة كانت بمثابة مشروع معجم لمفاهيم قرآنية، أو مصطلحاته أو مفرداته.

وجاء الراغب الأصفهاني (ت ٥٠٢هـ) بعده بما يزيد عن قرنين من الزمن، واستفاد من أستاذيه الجاحظ وابن قتيبة في تأليف كتابه (المفردات في غريب القرآن) وقد حاول أن يثبت أن القرآن نزل بأساليب العرب، وحاكى أوجه كلامهم وإعرابهم عما يريدونه، وفي استيعابه لتلك الأساليب استطاع أن يتجاوزها، وذلك من خلال الربط بين الألفاظ المنثورة في القرآن، ومن ذلك تعقبه كلمة (الأمة) ودلالاتها المختلفة. (١)

وتأتي كلمات الله تعالى على صورتين، الأولى: تكوينية وتتمثل بالكون والأشياء، والثانية: تكليفية وتتمثل بالنصوص المتضمنة للتعاليم الإلهية، فالكلمات هي أجزاء الكون وأجزاء النص، وهي قابلة للقراءة والمعاينة والفهم والاعتبار، فالكون المخلوق له أثر بارز قد أمر الإنسان بتدبره والنظر فيه، وكذلك كلمات الله الأخرى التي وصفها الله بأنها لا تنفد، ولو نفدت طاقة الإنسان في قراءتها، وملاحظة قوانينها وسننها، وهذه المقابلة بين كلمات القرآن وكلمات الكون تدل على الانتظام والدقة، وكون هذه الأجزاء دالة على كل تنطوي فيه، ويمكن للمتأمل فيها أن يصل الى تلمس جوانب هذا الكل.

وكلمات الله التكليفية باجتماعها تشكل الكتاب، وكلمات الله التكوينية باجتماعها تشكل الكون وهذا تناظر آخر بين الكتاب والقرآن والكتاب والكون المأمور بقراءتهما، وينتظم مفهوم الكتاب في القرآن بمعناه اللغوي ضمن محورين متكاملين، الكتاب الإلهي المنزّل على الرسل، والكتاب الإلهي المحيط بالكون، وقد سمّي بأم الكتاب ،واللوح المحفوظ، ودلالة هذا الكتاب رمزية تحيل على النظام الوجودي، والسنن الإلهية التي تحكم الكون وتسيّره. (٢)

ونأتي الى أساليب اللغة في حالة الإفراد والتركيب، فدلالة اللفظة المفردة تكون صالحة للتشكّل قبل التركيب على وفق الدلالة المجددة التي يقصدها المنشئ للكلام والمبدع له، وتلك الدلالة لا تظهر في حالة الإفراد وإنما تظهر عند التركيب. ويجب أن يفهم أن للصيغة المفردة قبل وضعها في السياق نوعان من الزمن، الأول: الزمن الصيغي أو التحليلي ويعطى للصيغة المفردة، والثاني: الزمن السياقي أو التركيبي وهو الذي تحدده القرينة اللفظية الحالية، والتركيب والعلاقات السياقية هي التي تكشف عن قصد المتكلم الى إحدى هذه الدلالات التي تحتملها الكلمة في حال إفرادها وعزلها عن السياق.

ولذلك نجد الدكتور إبراهيم أنيس يفنّد قول النحاة في الفعل (أتى) الذي يعبّر عن الزمن الماضي وهو أمر لا تحتمله النصوص العربية، وتأباه أساليب اللغة. (٣)ومن الاستعمالات القرآنية المختلفة للفعل (أتى):

١- ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ (٤)

---

(١) ينظر: الراغب الاصفهاني: المفردات في غريب القران ١٩.

(٢) ينظر: عبد الرحمن حللي: الاسماء والكلمات، دراسة مفاهمية قرآنية.

(٣) ينظر: د. ابراهيم انيس: من اسرار اللغة ١٠٢.

(٤) النحل ١.

٢- ﴿ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ ﴾[١]

٣- ﴿ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴾ [٢]

٤- ﴿ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَـٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴾[٣]

٥- ﴿ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾[٤]

٦- ﴿ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ ﴾[٥]

٧- ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴾[٦]

في هذه الآيات نجد أساليب ودلالات مختلفة ينسجم كل منها مع آياته، ففي الآية الأولى: زمن الإتيان هو المستقبل، وفي الثانية: هو ما بعد الماضي، وفي الثالثة: ما بعد الماضي أيضاً وفي الرابعة: للحال المستمرة التي تشبه الحقائق الثابتة، وفي الخامسة: للمستقبل، وفي السادسة: لما قبل الماضي، وفي السابعة: للماضي المؤكد. [٧]

والمفارقة بين الدلالة الإفرادية الأولى للصيغة معزولة عن سياقها وبين دلالتها في حال التركيب ((جعل بعض كبار الباحثين ينقم على النحاة، ويأخذ عليهم ادعاء اختصاص صيغة من هذه الصيغ بدلالة بعينها، ولنا أن نقول: انه لا عيب على النحاة في ذلك إذ كانوا بشأن تحديد الدلالة الوضعية الأولى، فهم لم يدّعوا اطّراد هذه الدلالة في جميع السياقات، فكما انه لا حرج على أصحاب المعاجم فيما ادّعوه من اختصاص الكلمات بدلالات معينة تتغير بتغيّر التراكيب والسياقات، وما تضيفه هذه السياقات وتلك التراكيب الى الكلمة من ظلال وإيحاءات)). [٨]

إن العلاقة بين الدلالة الإفرادية والدلالة التركيبية ليست مقطوعة، وهي أشبه ما يكون بالعلاقة بين اللغة والكلام، تلك العلاقة التي عنى بتوضيحها علماء اللغة المعاصرون من أمثال (دوسوسير) إذ يكشف عن تلك العلاقة بقوله: ((الكلام يستدعي صور الكلمات والرموز الأخرى التي انطبعت في أذهان كل المتكلمين، ثم يترجمها الى أصوات فعلية واضحة ذات مغزى... اللغة نظام من رموز صوتية مخزونة في أذهان الأفراد والجماعة

---

(١) النحل ٢٦.
(٢) طه ٦٠.
(٣) طه ٦٩.
(٤) الشعراء ٨٩.
(٥) الذاريات ٥٢.
(٦) الانسان ١.
(٧) د. ابراهيم انيس: من اسرار اللغة ١٠٢.
(٨) د. عبد الحميد احمد هنداوي: الاعجاز الصرفي في القران الكريم ٥١.

اللغوية، بينما الكلام نشاط مترجم لهذه الرموز الموجودة بالقوة الى رموز فعلية حقيقية)) (١)

ولو تأملنا الأمثلة السابقة لوجدنا صحة ما ذكرناه من اختصاص كل صيغة بدلالة إفرادية كلية تربطها بالدلالة التركيبية علاقة واضحة. فمثلاً في قوله تعالى (أتى أمر الله فلا تستعجلوه) ليس مراد الله تعالى- والله أعلم- أن يقول سيأتي أمر الله، ولو كان ذلك هو المراد لكان الأولى أن تأتي الآية بهذه الصياغة، ولكن المراد هو توظيف الصيغة في معنى الاستقبال متضمنة معنى المضي وموظفة له في الوقت نفسه، فكأن مقصود الآية أن تقول: سيأتي أمر الله لا محالة مجيئاً مقطوعاً به، بل هو في حكم ما وقع وأتى بالفعل. أو يكون المعنى أتى أمر الله تعالى فعلاً باعتبار تقديره أو وقوع مباديه وإماراته، وحينئذ لا مجاز ولا تجوّز، لأن الصيغة موظفة في معناها الذي وضعت له. أما على المعنى التركيبي فهو مؤسس على المعنى الإفرادي لا محالة غير مقطوع عنه. قال الزمخشري: ((أتى أمر الله الذي هو بمنزلة الآتي الواقع، وإن كان منتظراً لقرب وقوعه)) (٢)

وفي المثالين الثاني والثالث فكون الفعل قد أتى للدلالة على ما بعد الماضي، يدل على استناده الى أصل دلالته الإفرادية وهي المضي، لأن ما بعد الماضي في هذا السياق إنما هو واقع في الماضي أيضاً. وفي المثال الرابع: نرى أنها وإن أفادت الحال المستمرة فإن الآية قد عبّرت بالماضي لنأخذ من دلالته على التحقق، أي لا يفلح الساحر مهما أتى بسحره محققاً على وجه الكمال. قال القرطبي: ((أي لا يفوز ولا ينجو حيث أتى من الأرض، وقيل: حيث احتال))(٣) والقول الثاني أنسب لسياق الآية.

وفي المثال الخامس: أما تحقيق القدوم على الله والمثول بين يديه مما يناسب مقام الآية وسياقها، وأما إثبات الإتيان بقلب سليم على وجه التحقيق والكمال. وفي المثال السادس: فقوله إنها لما قبل الماضي لا ينفي دلالة الصيغة على المضي الموضوعة له، بل انه هنا قد استخدمت فيه على وجه التمام والتحقيق. وفي المثال السابع: جاءت الصيغة بمدلولها الشائع مؤكداً. وهذا كله يؤكد وجود علاقة واضحة بين المعنى الإفرادي والمعنى التركيبي للصيغة مما يدل في الوقت نفسه على تميّز الصيغة المفردة بمعنى يخصها، وهذا المعنى المعيّن يمكن تصوّره كلياً مجرداً في الذهن قبل التركيب.

١- اختيار صيغ الأسماء:

إن توظيف الصيغ بلاغياً يقوم على أساس الاختيار، وذلك بغية الوقوف على الدلالات الفنية لتلك الصيغ في سياقاتها الأدبية الرفيعة القرآنية دون تقييد بالبديل عنها، وذلك لأن البدائل قد تتعدد وتتنوع، فالمصدر مثلاً قد يحل محله بديل عنه كالفعل أو اسم الفاعل أو اسم المفعول أو غير ذلك.

---

(١) ستيفن اولمان: دور الكلمة في اللغة ٣٠-٣١.
(٢) الزمخشري: الكشاف ٣٢١/٢.
(٣) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ٤٢٤٦/٦.

ومن هذه الاختيارات اختيار صيغة المصدر (فعلان) مما جاء في قوله تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾[1] فالمصدر (الحيوان) جاء على صيغة (فعلان) للتعبير عن الحياة الآخرة بما تشتمل عليه من حركة ونشاط وخفة النفس مع دوام ذلك. ولذا قال الزمخشري: ((وفي بناء الحيوان زيادة معنى ليس في بناء الحياة، وهي ما في بناء فعلان من معنى الحركة والاضطراب، كالنزوان والنغصان واللهبان وما أشبه ذلك، والحياة حركة كما أن الموت سكون، فمجيئه على بناء دال على معنى الحركة مبالغة في معنى الحياة، ولذلك اختيرت على الحياة في هذا الموضع المقتضى للمبالغة)) [2]

واختيار صيغة اسم الفاعل لما لهذه الصيغة من سمات تجمع بين الاسم والفعل معاً، ففي تقسيم النحاة للكلام نجد البصريين يصنفونها في قسم الأسماء، بينما يصنفها الكوفيون في قسم الأفعال، فهم يقسّمون الفعل الى ماض ومضارع دائم، ويعنون بالدائم اسم الفاعل.[3]وقد ترتب على هذه الطبيعة المزدوجة لاسم الفاعل أن صار مشتركاً بين الدلالة على الثبوت من جهة النظر اليه كاسم في مقابل الفعل الدال على التجدد، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ﴾[4]وقوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ﴾[5] وكذلك ما نلمحه أيضاً في التعبير القرآني في قصة أصحاب الكهف عندما خيم على كهفهم السكون أو الجمود الدائم، مصوّراً ذلك بصيغة اسم الفاعل هيأة كلبهم بقوله تعالى: ﴿وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ﴾[6] وحين ننظر الى اسم الفاعل (باسط) في مقابل البديل الآخر في هذا السياق وهو الفعل (يبسط) نجد أن اسم الفاعل يتميز عن الفعل في هذا الموضع في الدلالة على الثبات والجمود ((فإن أحداً لا يشك في امتناع الفعل هاهنا، وإن قولنا في (وكلبهم باسط ذراعيه) لا يؤدي الغرض، وليس ذلك إلاّ أن الفعل يقتضي مزاولة الصفة وتجددها في الوقت، ويقتضي الاسم ثبوت الصفة وحصولها من غير أن يكون هناك مزاولة وتزجية فعل، ومعنى يحدث شيئاً فشيئاً)) [7]

---

(١) العنكبوت ٦٤.
(٢) الزمخشري: الكشاف ١٥٩/٣.
(٣) ينظر: الفراء: معاني القرآن ٤٥/١-١٦٥.
(٤) البقرة ١٤٥.
(٥) يوسف ٧٣.
(٦) الكهف ١٨.
(٧) عبد القاهر الجرجاني: دلائل الاعجاز ١٧٥.

وفي اختيار صيغة اسم المفعول ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[١] فاسم المفعول (مطهرة) اختير على اسم الفاعل (طاهرة). وقد بحث الزمخشري عن سرّ اختيار تلك الصيغة، فقال: ((فإن قلت هلاّ قيل طاهرة، قلت: في مطهّرة فخامة لصفتهن ليست في طاهرة، وهي الإشعار بأن مطهّراً طهرهن، ولي ذلك إلاّ الله عزّ وجل المريد بعباده الصالحين أن يخّولهم كل مزيّة فيما أعد لهم)) [٢]فصيغة الفاعل تثبت صفة الطهر للزوجات، وصيغة المفعول تثبت تلك الصفة وزيادة، إذ تدل على أن ثمة وجود فاعل لها وهو الله سبحانه وتعالى، فكان ذلك تشريفاً لهن.

ومن المعاني التي تأتي بها صيغة (فعيل) أن تكون بمعنى اسم المفعول، فاختيرت في قوله تعالى: ﴿ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾[٣] وقوله تعالى: ﴿ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾[٤] وقوله تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴾[٥]فلفظ (جميع) (جميع) في هذه الآيات على صيغة (فعيل) بمعنى (مفعول) أي مجموع. وقال الرازي: ((في قوله تعالى (أم يقولون نحن جميع منتصر) فيه فائدتان: إحداهما الكثرة والأخرى الاتفاق كأنه قال: نحن كثير متفقون فلنا الانتصار، ولا يقوم غير هذه اللفظة مقامها من الألفاظ المفردة. إنما قلنا فيها فائدتان لأن الجمع يدل على الجماعة بحروفه الأصلية من (فعل) وبوزنه وهو فعيل بمعنى مفعول، على أنهم جمعوا جمعيتهم العصبية)) [٦]

ومما جاء في القرآن الكريم على صيغة الهيأة على زِنة (فِعلة) بكسر الفاء لفظة النِعمة في سبعة وأربعين موضعاً للفت الأنظار الى هيأة النِعمة الواحدة وما اشتملت عليه من نِعم عدّة. ولم ترد مجموعة في ثلاثة مواضع. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[٧] فقد عدّ موسى (عليه السلام) ثلاث نِعم ظاهرة على سبيل الإجمال، وإلاّ وإلاّ فتفصيل تلك النِعم وخاصة إيتاؤهم ما لم يؤتِ أحداً من العالمين لا يستطاع ولا يقرر أحد على عدّها، ومع ذلك فقد أفرد الله تعالى النِعمة.

---

(١) البقرة ٢٥.
(٢) الزمخشري: الكشاف ٥٣/١.
(٣) يس ٣٢.
(٤) يس ٥٣.
(٥) القمر ٤٤.
(٦) الرازي: من غرائب آي التنزيل ٢٣/٦.
(٧) المائدة ٢٠.

وهكذا في سياقات عدّة تدل على اختيار لفظ النِعمة المفرد للدلالة على الجمع، ويعلل العلماء بأن النِعمة ((اسم جنس مفردة فهي بمعنى الجمع)) [١]ويؤيد ما ذكره الراغب الأصفهاني من ((أن النِعمة الحالة الحسنة وبناء النِعمة بناء الحالة التي يكون عليها الإنسان كالجِلسة والرِكبة)) [٢]وهذا البناء إنما وضع للدلالة على الهيأة لا العدد، ومعلوم أن هيأة الشيء يدخل فيها إفرادها الذي تركّب منها، والنظر الى دقة صنعها وما فيها من جمال ولطف وإبداع، فكأن تراكب الدلالة للفظة النِعمة في تلك السياقات من الإفراد والهيأة يدل على أن المراد هو في تفاصيل كل نِعمة بمفردها، وفي هيأتها الحاصلة وما اشتملت عليه من نِعم لا تعد ولا تحصى.

ومن المواضع التي وظفت فيها صيغة اسم المرّة على زِنة (فَعلة) بفتح الفاء وسكون العين قوله تعالى: ﴿ كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴾[٣] وقوله تعالى: ﴿ وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴾. [٤]جاء لفظ (النَعمة) في الآيتين على بناء اسم المرّة، ويمكن مجيؤه مجيؤه على غيرها من المصادر كالتنعّم أو الإنعام أو النِعمة بالكسر، إلاّ أن الآية قد آثرت هذه الصيغة، وبيّن الزمخشري: أن ((النعمة بالفتح التنعّم، وبالكسر الإنعام، وبالضم المسرّة)) [٥]والمخاطِب هنا الله سبحانه وتعالى يتبرّأ من التزيّد عليهم، وانه يستقل كثير نعمه نعمه على عباده، فكأنه قال (وربّ نعمة كانوا فيها فاكهين) فيرد السامع (بل كانوا في نعم كثيرة) فيكون ذلك من باب تقرير المخاطب بالحجة، وإلزامه بها بطريق غير مباشر، وهو من البلاغة بمكان، فضلاً عمّا في الإفراد بصيغة المرّة من الدلالة على كونها نعمة محتقرة لدى الرب لا وزن لها عنده، لأنها نعمة الدنيا لا نعمة الآخرة، وإن كانت عند المخاطب عظيمة، وقد يقال إن المقام هنا مقام تكثير النعم لا تقليلها لابتدائه بكم الخبرية المفيدة للكثرة، فيقال إن النكتة في الإفراد هي احتقار تلك النعم على كثرتها، وانها في مجموعها لا تكاد تساوي نعمة من نعم الآخرة.

وجاء التعبير بصيغة المبالغة على زِنة (فعّال) في سورة الشعراء في قصة موسى (عليه السلام) على لسان فرعون: ﴿ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ

---

(١) القرطبي: الجامع لاحكام القرآن ٣٨٢/١.
(٢) الراغب الاصفهاني: المفردات في غريب القرآن ٤٩٩.
(٣) الدخان ٢٥-٢٧.
(٤) المزمل ١١-١٣.
(٥) الزمخشري: الكشاف ١٥٥/٤ وينظر: الراغب الاصفهاني: المفردات ٤٩٩.

﴿ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴾.[1] فصيغة المبالغة (سحّار) في هذا الموضع دالة على مقابلة الملأ وصف فرعون بالسحر، وتأكيده على أنه يريد أن يخرجهم من أرضهم بسحره، فناسب ذلك بما يقابله من المبالغة بسحر يفوق سحر موسى (عليه السلام). وفي سياق القصة نفسها في سورة الأعراف قوله تعالى على لسان الملأ من قوم فرعون ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴾.[2]

وقد علل بعض المفسرين ومنهم الإمام الرازي مجيء صيغة المبالغة في سورة الشعراء دون سورة الأعراف بأن المبالغة في رد قوم فرعون مناسبة لقوله فقد ((جاؤوا بكلمة الإحاطة ليطيّبوا قلبه، وليسكتوا بعض قلقه))[3]

واختيار الصفة المشبّهة في وصف قوم نوح (عليه السلام) قد جاء منسجماً مع إصرارهم على الكفر كما في قوله تعالى: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا عَمِينَ ﴾.[4] فقد آثرت الآية الصفة المشبّهة (عمين) في التعبير عن وصف هؤلاء المكذّبين بالعمى على غيرها من الصيغ كإسم الفاعل مثلاً، ونستطيع أن نتبيّن سر اختيار هذه الصيغة إذا ما راجعنا سياق الآية. قال تعالى: ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[5] فقد برروا تكذيبهم بادّعائهم أنه على ضلال، وهو افتراء افتراء باطل. ولذا قال الزمخشري: ((عمين: عمي القلوب غير مستبصرين، وقرئ (عامين) والفرق بين العمى والعامي أن العمى يدل على عمى ثابت، والعامي على عمى حادث)) [6]

ولمّا كان المعنى المقصود في تلك الآيات ونظائرها هو صفة الجمع نفسها لا حدث الجمع، اختارت الآيات صيغة (فعيل) التي توحي بثبات الصفة وتأصلها أكثر من إيحائها بمعنى الحدث. من ذلك قوله تعالى: ﴿ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴾.[7] فقد قرئ (حذرون وحاذرون) بالصفة واسم

---

(١) الشعراء: ٣٤-٣٧.
(٢) الاعراف ١٠٩-١١٢.
(٣) الرازي: من غرائب آي التنزيل ١٢٠/١٢.
(٤) الاعراف ٦٤.
(٥) الاعراف ٦٠.
(٦) الزمخشري: الكشاف ٦٨/٢.
(٧) الشعراء ٥٣-٥٦.

الفاعل. قال الرازي: ((أما الذي وصف فرعون به قومه فهو قوله (وإنا لجميع حاذرون) وفيه ثلاث قراءات: حذرون، وحاذرون، وحادرون، بالدال غير المعجمة، واعلم أن الصفة إذا كانت جارية على الفعل وهي اسم فاعل واسم مفعول- كالضارب والمضروب- أفادت الحدوث ،وإذا لم تكن كذلك- وهي المشبهة- أفادت الثبوت، فمن قرأ (حذرون) ذهب الى أنا قوم من عادتنا الحذر واستعمال الحزم. ومن قرأ (حاذرون) فكأنه ذهب الى معنى إنا قوم ما عهدنا أن نحذر إلاّ في عصرنا هذا))[١] فكأن الصفة المشبهة جاءت لتعبّر عن كون الحذر عادة لآل فرعون، ليكون ذلك عذراً يعتذر به الى أهل المدائن عن ذلك الحشد الهائل.

واختلف العلماء في اختيار صيغة المفرد بمعنى الجمع في قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ﴾. الى قوله ﴿عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّآ أَحۡضَرَتۡ﴾[٢]وأطالوا الوقوف عند صيغة المفرد (نفس) قال الزمخشري: ((فإن قلت كل نفس تعلم ما أحضرت، كقوله (يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً) لا نفس واحدة. فما معنى قوله (علمت نفس) قلت: هو من عكس كلامهم الذي يقصدون به الإفراط فيما يعكس عنه... وتقول لبعض العساكر: كم عندك من الفرسان؟ فيقول: (ربّ فارس عندي) وعنده المقانب. وقصده بذلك التمادي في تكثير فرسانه، ولكنه أراد إظهار براءته من التزيّد، وانه ممن يقلل كثير ما عنده فضلاً أن يتزيّد فجاء بلفظ التقليل ففهم منه الكثرة على الصحة واليقين)) [٣]

واللفظ في هذا الموضع قد استعير لضد معناه للدلالة على المبالغة، وهو ما ذكره الآلوسي: ((إن الأصل في هذا الباب أنّ الاستعارة أحد الضدّين للآخر تفيد المبالغة للتعكيس))[٤] ويقول سيد قطب: ((كل نفس تعلم في هذا اليوم الهائل ما معها ومالها وما عليها، تعلم وهذا الهول يحيط بها ويغمرها، تعلم وهي لا تملك أن تغيّر شيئاً مما أحضرت، ولا أن تزيد عليه ولا أن تنقص منه، تعلم وقد انفصلت عن كل ما هو مألوف لها معهود في حياتها أو تصوّرها، وقد انقطعت عن عالمها وانقطع عنها عالمها)) [٥]

إنّ التحقير للنفوس جميعاً في مقابل عظم المخلوقات حيث تتضاءل هذه النفوس في ذلك المشهد، أمّا النفوس فتصير كأنها نفس واحدة، وهذا ما يعبّر عنه ربّ العزّة تعالى في قوله: ﴿مَّا خَلۡقُكُمۡ وَلَا بَعۡثُكُمۡ إِلَّا كَنَفۡسٖ وَٰحِدَةٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ﴾[٦] فهذه النفوس جميعاً أمام أمام الله تعالى سواء، فلا يلتبس عليه رؤيتهم، ولا تختلط عليه أصواتهم، فهم أمامه كنفس واحدة.

---

(١) الرازي: من غرائب آي التنزيل ١٢٦/١٢ وينظر: الزمخشري: الكشاف ١١٥/٣.
(٢) التكوير ١، ١٢، ١٤.
(٣) الزمخشري: الكشاف ١٨٩/٤ والمقانب جمع مقنب وهو مابين الثلاثين الى الاربعين من الخيل.
(٤) الالوسي: روح المعاني ٨/١٤ و ٥٧/٣٠.
(٥) سيد قطب: في ظلال القرآن ٣٨٤١/٦.
(٦) لقمان ٢٨.

وقد تكرر ذلك أي اختيار صيغة الإفراد في سورة الانفطار قوله تعالى: ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴾[1] وما قيل في الآية السابقة يمكن أن يقال في هذه الآية أيضاً من تعدد دلالات المفرد في هذا الموضع مثل: التكثير، أو التحقير، أو التقليل، أو التعريض، وغيرها.

ومن الظواهر المهمة في الكشف عن طبيعة الدلالة في الصيغة الواحدة أنها تدل على معان متعددة قبل أن يتحدد المعنى المراد بواسطة القرائن، ومن تلك الصيغ صيغة (فعيل) التي تأتي للواحد والجمع مثل قوله تعالى: ﴿ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴾[2] قال أبو عبيدة: ((العرب قد تجعل فعل الجميع على لفظ الواحد. قال: إن العواذل ليس لي بأمير))[3]

وقد تتحقق المزاوجة بين صيغتي الإفراد والجمع ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾.[4] فقد جمع (خالدين) في وصف ثواب الطائعين، وأفرده (خالداً) في وصف عذاب العاصي، ولاشك أن إفراد العاصي هنا ما يدل على معاني الذل والعذاب والإحساس بالوحشة والإنفراد.

والمزاوجة بين الإفراد والجمع هي أسلوب قرآني ونهجه التعبير عن عذاب الكافر ونعيم المؤمنين، حيث يطّرد الإفراد بالنسبة للكافر والجمع بالنسبة للمؤمن للغرض نفسه، وهذا ما نلمحه في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴾.[5] فتؤدي تلك المزاوجة دورها في في إحداث ذلك التقابل البديع بين إنفراد الكافر ومعاناته عذاب الوحشة والوحدة فضلاً عن عذاب الجحيم. وبالمقابل إيناس المؤمن بالصحبة مع المؤمنين في جنّات النعيم.

---

(١) الانفطار ٥.
(٢) التحريم ٤.
(٣) ابو عبيدة معمر بن المثنى: مجاز القرآن ٢٦١.
(٤) النساء ١٣-١٤.
(٥) الدخان ٤٣-٥٤.

وقد يؤثر القرآن الكريم صيغة الجمع على الإفراد لمعنى المبالغة أو التكثير، ومن ذلك قوله تعالى في تمثيل حال المنافقين: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴾.[1] يمثل الله تعالى في هذا الموضع تكاثر الشبهات على المنافقين بسبب تخليهم عن الإيمان بمن انطفأ نوره فصار في ظلمات عدّة، وجمع الظلمة هنا يناسب كثرة الشبهات التي تعرض للمنافق، وتحيط به حين ينخلع عن الإيمان. قال البقاعي: ((وتركهم في ظلمات أي بالضلالة من قلوبهم وأبصارهم وليلهم، أي ظلمات لا ينفذ فيها بصر فلذا كانت نتيجته لا يبصرون، أي لا إبصار لهم أصلاً ولا بصيرة)) [2]

ومن أمثلة إيثار الجمع على المفرد أيضاً قوله تعالى مخاطباً النبي محمد (صلى الله عليه وسلم): ﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴾[3]وبالمقابل آثر التعبير القرآني صيغة المفرد في قوله تعالى مخاطباً النبي موسى (عليه السلام): ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴾[4] فإيثار صيغة الجمع كان في مقام تسلية النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) وتثبيته إزاء إيذاء المشركين له. كما نجد إيثار صيغة الجمع أيضاً في خطاب الله تعالى للنبي نوح (عليه السلام): ((واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون)) [5]

أمّا الاختيار بين جمع القلّة والكثرة فإن هناك ثمّة مواضع وظف فيها جمع القلة لأغراض ومعان لا يعبّر عنها جمع الكثرة. ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴾.[6] اختيرت في الآية صيغة جمع القلّة (غرفات) بينما اختيرت صيغة جمع الكثرة (غرف) في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا

---

(١) البقرة ١٧.
(٢) البقاعي: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ١١٩/١٢٠.
(٣) الطور ٤٨.
(٤) طه ٣٩.
(٥) هود ٣٧.
(٦) سبا ٣٧.

ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴾[١] وقوله تعالى: ﴿ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۖ وَعْدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴾[٢]

ويرى بعض المفسرين: إن جمع القلّة في الآية الأولى قد أريد به الكثرة، وذلك حتى يمكن الجمع بين الآيات السابقة، بل إنهم يرون أنه لا فارق بين الآيات التي جاءت بصيغة الجمع، وبين ما جاء بصيغة المفرد في قوله تعالى: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟ ﴾[٣] إذ الجميع في الدلالة على الكثرة سواء، إذ الشأن ألا تفاوت. [٤]

وأما اختيار صيغة جمع القلّة على جمع الكثرة فإنه جاء موافقاً للسياق المعنوي كما في قوله تعالى مبيناً امتنانه على المؤمنين بنصره في بدر: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[٥] وكان المؤمنون أقل من الكفار ولكنهم ليسوا قلة، فلماذا اختار الله تعالى صيغة جمع القلة (أذلة) على صيغة الكثرة (أذلاّء) و(ذلاّن)؟

قال الزمخشري: ((والأذلة جمع قلة والذلاّن جمع الكثرة، وجاء بجمع القلة ليدل على أنهم على ذلتهم كانوا قليلاً، وذلتهم ما كان بهم من ضعف الحال وقلة السلاح والمال والمركوب، وذلك أنهم خرجوا على النواضح يعتقب النفر منهم على البعير الواحد، وما كان معهم إلاّ فرس واحد، وقلتهم أنهم كانوا ثلاثمائة وبضعة عشر، وكان عدوهم في حال كثرة زهاء ألف مقاتل، ومعهم مائة فرس)) [٦]وقال الآلوسي: ((وأذلة جمع قلة لذليل، واختير على ذلائل ليدل على قلتهم مع ذلتهم، والمراد بها عدم العدّة لا الذل المعروف، فلا يشكل دخول النبي(صلى الله عليه وسلم) في هذا الخطاب إن قلنا به، وقيل لا مانع من أن يراد المعنى المعروف ويكون المراد (وأنتم أذلة) في أعين غيركم وإن كنتم أعزّة في أنفسكم)) [٧]

٢- اختيار صيغ الأفعال:

---

(١) العنكبوت ٥٨.
(٢) الزمر ٢٠.
(٣) الفرقان ٧٥.
(٤) ينظر: د. محمود امين الخضري: الاعجاز البياني في صيغ الالفاظ- دراسة تحليلية للإفراد والجمع في القرآن- ١٤٥.
(٥) آل عمران ١٢٣.
(٦) الزمخشري: الكشاف ٢١٥/١ والرازي: من غرائب آي التنزيل ٤٣٤/٤.
(٧) الالوسي: روح المعاني ٥٣/١٩.

وفي اختيار صيغ الأفعال الماضية سواء كانت مجرّدة أم مزيدة نقف عند عدول الآية الى الفعل المضارع منها كما في قوله تعالى في الحديث عن بني إسرائيل: ﴿ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًاۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُواْ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴾[١]وقوله تعالى مخاطباً اليهود: ﴿ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾[٢] انشغل المفسرون ببيان سر العدول الى المضارع (يقتلون، تقتلون) فالأفعال التي سبقت هذين الفعلين جاءت بصيغة الماضي، والتكذيب قد حصل للنبي محمد(صلى الله عليه وسلم) وقت نزول الخطاب، فدخل في جملة الأنبياء الذين كذبوهم، أما فعل القتل فلم يكن قد انتهى منهم بعد، وذلك لنيتهم ثم شروعهم بقتله على تقدير أن الآية قد نزلت قبل فعلتهم الخبيثة، وخير ما يدل على هذه الحقيقة هو الفعل المضارع، فقد جاء الخطاب ليدل على أنهم لم ينتهوا بعد من عادتهم في قتل الأنبياء، وذلك بمحاولتهم رمي حجر كبير على رأسه، ولما لم ينفع دسّوا له السم في الشاة التي دعوه إليها في خيبر.

وأما اختيار صيغة الفعل المضارع ما جاء في قوله تعالى في وصف المنافقين: ﴿ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾.[٣]جاء التعبير في جواب الله تعالى في الآية الثانية بصيغة المضارع (يستهزئ) دون اسم الفاعل (مستهزئ) مثلاً. قال الزمخشري: ((قلت: فهلاّ قيل الله يستهزئ بهم ليكون طبقاً لقوله (إنما نحن مستهزئون) قلت: لأن يستهزئ يفيد حدوث الاستهزاء وتجدده وقتاً بعد وقت، وهكذا كانت نكايات الله فيهم وبلاياه النازلة بهم (أولا يرون أنهم يفتنون في كل عام مرتين) وما كانوا يخلون في أكثر أوقاتهم من تهتّك أستار وتكشّف أسرار، وحذر من أن ينزّل الله فيهم (يحذر المنافقون أن تنزّل فيهم سورة تنبّئهم بما في قلوبهم قل استهزئوا إنّ الله مخرج ما تحذرون)) [٤]

واختيار صيغة الفعل المبني للمجهول يأتي لفائدة مهمة للتعمية على الفاعل لغاية أسلوبية كما في قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾[٥] قال ابن جنّي: ((هذا يدل على ان قولنا: ضُرب زيد ونحوه لم يترك ذكر الفاعل للجهل به، بل لأن العناية

---

(١) المائدة ٧٠.
(٢) البقرة ٨٧.
(٣) البقرة ١٤-١٥.
(٤) الزمخشري: الكشاف ٣٥/١.
(٥) ق ٣٠.

انصرفت الى ذكر وقوع الفعل بزيد عرف الفاعل به أو جهل لقراءة الجماعة: (يوم نقول) وهذا يؤكد عندك قوة العناية بالمفعول به)) [١]

إنّ الغرض البلاغي من اختيار صيغة المبني للمجهول في هذه الآية على غيرها من الصيغ هو- كما ذكر ابن جنّي- لفت الأنظار الى جهنم وامتلائها بصرف النظر عمن قال ذلك لها، ومن ثم ففائدة البناء للمجهول غالباً هي تغييب الفاعل الى عدم الظهور لغرض إفساح المجال للمفعول، فيأتي ذلك مناسباً لجو الترهيب الذي يقتضيه مقام الآيات وسياقها، وعلى هذا النحو جاء قوله تعالى: ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾[٢]وذلك للغرض السابق وهو تركيز الاهتمام على ما هو أهم، وهو نجاة هذا العبد من النار ودخوله الجنة، بصرف النظر عن الفاعل.

ومن الأمثلة كذلك قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾. [٣]والنكتة هنا في البناء للمجهول هي تغييب الفاعل الذي يجحده هؤلاء الكافرون، لفسح مجال النظر الى دلائل قدرته تعالى التي لا يدّعيها أحد غيره، ولا يصح نسبتها الى أحد سواه، فقد سلّموا بأنه لا خالق ولا ربّ سواه. ومن خلال النظر في الأدلة يتوصل المشركون الى وجود الفاعل الخالق، ويقرون على ذلك بأنفسهم، فيكون هذا الطريق أقوى في إقامة الحجة عليهم من طريق التصريح بالفاعل.

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ﴾[٤]وقوله تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ ﴾. [٥]وقد أطال المفسرون الوقوف في البحث عن فاعل التزيين هل هو الله أم الشيطان؟ [٦]وتأتي الآيات بالبناء للمجهول في تلك المواضع لتفسح المجال لتأمل حقيقة هذه الحياة الدنيا، وهي أنها مجرد تزيين وتغرير، ويدع القرآن الكريم أولئك المتكلمين فيما يخوضون لمعرفة من هو الفاعل ولا يبالي بما يفترضون.

والنظر الى صيغ الأفعال من خلال تقسيمها الى فعل مجرد ومزيد نتبين أن المجرّد: ما كانت حروفه أصلية، لا يسقط منها حرف في تصريف الكلمة. والمزيد: ما زيد فيه حرف أو أكثر على حروفه الأصلية. ومما جاء من الفعل الثلاثي المجرد مسنداً لله قوله

---

(١) ابن جني: المحتسب ٢/٢٨٤.
(٢) آل عمران ١٨٥.
(٣) الغاشية ١٧-٢٠.
(٤) البقرة ١٢١.
(٥) آل عمران ١٤.
(٦) ينظر: الزمخشري: الكشاف ١/١٢٨، ١٧٨.

تعالى: ﴿ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴾[1]وقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾.[2] الفعل في الآية الأولى جاء في موضع الامتنان على المؤمنين في الآخرة، ويؤيد ذلك وصف الماء بالطهور، وجاءت الأفعال في الآية الثانية في مقام شكر نِعم الله في الحياة الدنيا، وأهمها الهداية ومقومات الحياة الطعام والماء والصحة.

ويأتي الفعل الثلاثي المجرد مسنداً للإنسان قوله تعالى حكاية عن يوسف (عليه السلام): ﴿ يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا ﴾[3] وقوله تعالى حكاية عن موسى (عليه السلام): ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ﴾[4] فالأفعال المجردة (يسقون، نسقي، فسقى، سقيت) قد وردت مسندة للناس وللمرأتين ولموسى (عليه السلام).

وما أسند للحيوان من الفعل الثلاثي المجرد قوله تعالى: ﴿ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ ﴾[5] فالحيوانات تقوم بالسقي أيضاً ومنها الأبقار، وقد نفى الله تعالى السقي عن البقرة التي طلبها من بني إسرائيل، وحدد أوصافاً طيبة لذبحها، أي أنها غير مخصصة للعمل.

وأما الفعل الثلاثي المزيد فقد ورد على صيغ وهي (أفعَل، فاعَل، فعّل، انفعَل، افتعَل، افعلّ، تفعّل، تفاعَل، استفعَل). وتأتي صيغة (أفعَل) لأغراض ودلالات عدّة أشهرها: التعدية، والصيرورة، والاستحقاق، والتمكين، والتعريض، وغيرها. ومما جاء للتعدية قوله تعالى حكاية عن مريم (عليها السلام): ﴿ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾[6] فجاء الفعل (أجاء) على صيغة أفعل ليعبّر عن معنى الاضطرار والإلجاء مما يناسب حالة الضيق التي تعتريها من الأمر الذي فرض عليها.

---

(١) الانسان ٢١.
(٢) الشعراء ٧٨-٨٠.
(٣) يوسف ٤١.
(٤) القصص ٢٣-٢٥.
(٥) البقرة ٧١.
(٦) مريم ٢٣.

ومما جاء على صيغة أفعل (أذهب، وأغرق) للتعدية قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ۚ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴾[2]

وما جاء على صيغة أفعل (أتبع) للصيرورة قوله تعالى في لحاق فرعون ببني إسرائيل: ﴿ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴾[3] أي داخلين في وقت شروق الشمس. ويأتي على الصيغة نفسها للتعريض (أسقى) في قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴾[4] وقوله تعالى: ﴿ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ ﴾[5] وقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴾[6] وقوله تعالى: ﴿ لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴾[7] فالفعل سقى: بمعنى قدّم الشراب، والفعل أسقى: بمعنى وفر الشراب وجعله معروضاً للشاربين. وقد أراد الله تعالى توفير الشراب للناس، وأن يكون معروضاً لطالبيه، مبذولاً لمحتاجيه، ولا فرق بين ما كان في السحاب أو في الأنهار أو في بطون الأنعام، ولا فرق بين أن يكون شراباً للإنسان أو للحيوان أو للنبات.

ومما جاء على صيغة أفعل أيضاً (أكبرَ) للدلالة على وجود صفة للشيء قوله تعالى في وصف النسوة اللاّئي رأين يوسف (عليه السلام): ﴿ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾[8] فالصيغة (أكبرنه) بمعنى أعظمنه واستهولن جماله. قال الزمخشري: ((أكبرنه أعظمنه وهبن ذلك الحسن الرائع والجمال الفائق))[9] وقال الرازي: ((إنما أكبرنه لأنهن رأين عليه نور النبوة وسيما الرسالة، وآثار الخضوع والاحتشام، وشاهدن منه مهابة النبوة وهيئة الملكية..)).[10]

---

(١) الاحقاف ٢٠.
(٢) الانفال ٥٤.
(٣) الشعراء ٦٠.
(٤) المرسلات ٢٧.
(٥) الحجر ٢٢.
(٦) النحل ٦٦.
(٧) الفرقان ٤٩.
(٨) يوسف ٣١.
(٩) الزمخشري: الكشاف ٢/٢٥٣.
(١٠) الرازي: من غرائب آي التنزيل ٩/٤٢.

واختيار صيغة (فاعَل) للدلالة على معان عدة، منها المشاركة بين اثنين أو أكثر، وهو أن يفعل صاحبه فعلاً فيقابله الآخر بمثله، وحينئذ تكون للبادي نسبة الفاعلية، وللمقابل نسبة المفعولية. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾[1] وصيغة المفاعلة (يخادعون) جاءت في وصف المنافقين. قال الزمخشري: ((الخدع أن يوهم صاحبه خلاف ما يريد من المكروه... فإن قلت: كيف ذلك ومخادعة الله والمؤمنون لا تصح، لأن العالم الذي لا تخفى عليه خافية لا يخدع، والحكيم الذي لا يفعل القبيح لا يخدع، والمؤمنين وإن جاز أن ينخدعوا لم يجز أن يخدعوا..)).[2]

وتأتي صيغة (فعّل) التي تشارك أفعل في التعدية والتكثير، وفي ذلك قال سيبويه: ((وقد يجيء الشيء على (فعّلت) فيشرك (أفعلت) كما أنهما قد يشتركان في غير هذا، وذلك قولك: فرح وفرّحته، وإن شئت قلت: أفرحته، وغرم وغرّمته وأغرمته)).[3]وجاءت الصيغة للتكثير كما في قوله تعالى حكاية عن يوسف (عليه السلام): ﴿ وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَ ﴾[4] فالصيغة (غلّقت) تناسب في ذلك الدلالة على كثرة الأبواب التي غلّقتها امرأة العزيز لتحول دون انفلات يوسف منها، ومعنى ذلك أنها تتبعت أبواب القصر بابا باباً حتى بلغت باب الحجرة، وذلك لكي تأمن إذا أراد يوسف أن يفتح بعض الأبواب أن يأتي على جميعها، فتنال حاجتها منه بالمراودة، ويمكن حمل المعنى على المبالغة في الغلق.

وتجيء الصيغة أيضاً للقدرة والصيرورة مثل (نزّل) كما في قوله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةٗ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾[5]وعلى هذا النحو من القدرة والتكثير في وصف طوفان نوح (عليه السلام) وإغراق قومه. قال تعالى: ﴿ فَفَتَحۡنَآ أَبۡوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٖ مُّنۡهَمِرٖ ﴿١١﴾ وَفَجَّرۡنَا ٱلۡأَرۡضَ عُيُونٗا فَٱلۡتَقَى ٱلۡمَآءُ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ قَدۡ قُدِرَ ﴾.[6] قال الآلوسي: ((جعلنا الأرض كلها كأنها عيون متفجّرة، وأصله فجّرنا عيون الأرض، فغيّر الى التمييز للمبالغة بجعل الأرض كلها متفجّرة مع الإبهام والتفسير))[7]

---

(١) البقرة ٩.
(٢) الزمخشري: الكشاف ٣٠/١.
(٣) سيبويه: الكتاب ٢٣٠/٢.
(٤) يوسف ٢٣.
(٥) الانعام ٣٧.
(٦) القمر ١١-١٢.
(٧) الالوسي: روح المعاني ٨٢/٢٧.

وصيغة (انفعَل) تأتي لمعنى واحد هو المطاوعة، ولا يكون الفعل فيها إلاّ لازماً، والمطاوعة تعني قبول الأثر وذلك فيما يظهر للعيون كالكسر والقطع والجذب وغيرها. وقد جاءت هذه الصيغة في القرآن الكريم دالة على المعنى كما في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ۝١ وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ ﴾[2]وقوله تعالى: ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ﴾[3]وهذه الصيغة الدالة على المطاوعة مناسبة لسياقها، فدلّت على استجابة ذلك الكون وطواعيته لإرادة الله تعالى وكلمته. وإذا كانت هذه الصيغة تسند للفاعل وهو الله سبحانه وتعالى فإنه قد يضع التنفيذ أو الحركة بيد عباده من الأنبياء (عليهم السلام) كما في قوله تعالى لموسى (عليه السلام): ﴿ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ فَٱنۢبَجَسَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗا ﴾[4]وقوله تعالى: ﴿ فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾[5]وقوله تعالى: ﴿ فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارٗا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ﴾[6]

واختيار صيغة (افتعَل) لتأتي في عدّة معان مما يناسب السياق منها: الاجتهاد والطلب والتصرّف والإظهار والمبالغة. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡ ﴾[7]نلاحظ أن الآية اختارت (اكتسبت) على (كسبت) في الدلالة على فعل الشر. قال سيبويه: ((وأما كسب فإنه يقول أصاب، وأما اكتسب فهو التصرّف والطلب والاجتهاد بمنزلة الاضطراب))[8] ومن ثم عدلت الآية في التعبير عن الشر الى الاكتساب للدلالة على التكلّف والاجتهاد في تحصيل المعصية.

وقال الزمخشري: ((فإن قلت لمَ خصّ الخير بالكسب والشر بالاكتساب. قلت:في الاكتساب اعتمال فلما كان الشر مما تشتهيه النفس وهي منجذبة اليه وأمّارة به كانت في تحصيله أعمل وأجد فجعلت لذلك مكتسبة فيه، ولمّا لم تكن في باب الخير وصفت بما لا دلالة فيه على الاعتمال))[9]

---

(١) التكوير ٢.
(٢) الانفطار ١-٢.
(٣) الانشقاق ١.
(٤) الاعراف ١٦٠.
(٥) الشعراء ٦٣.
(٦) الكهف ٧٧.
(٧) البقرة ٢٨٦.
(٨) سيبويه: الكتاب ٢٤١/٢.
(٩) الزمخشري: الكشاف ١٧٢/١.

وجاء في القرآن الكريم الكسب والاكتساب في مورد واحد. قال تعالى: ﴿كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ﴾[1]وقوله تعالى: ﴿بَلَىٰۚ مَن كَسَبَ سَيِّئَةٗ وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[2]فقد استعمل الكسب في الشر وكذلك الاكتساب كما في قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُم مَّا ٱكۡتَسَبَ مِنَ ٱلۡإِثۡمِۚ وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ مِنۡهُمۡ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾[3]فالذي قال بالإفك على أم المؤمنين عائشة (رضي الله عنها) عبد الله بن أبي وهو منافق ولكنه في الظاهر مسلم، والخطاب هنا يراعي الأغلب وهم جماعة المؤمنين. وجاء التعبير هنا عن اكتساب المعصية بصيغة (افتعل) مناسبة لحال هؤلاء المسلمين الذين ضعف إيمانهم، وزلّت ألسنتهم، فخاضوا مع ذلك المنافق في عِرض أم المؤمنين، فهم لم يقدموا على ذلك القول الشنيع إلاّ بقدر كبير من التكلف والتحرّج، أما ذلك المنافق فقد أقدم على فعله بملء فيه دون تحرّج أو تكلّف.

ولذا قال الواحدي: ((الصحيح عند أهل اللغة أن الكسب والاكتساب واحد لا فرق بينهما. قلت: إنما أتى في الكسب باللام، وفي الاكتساب بـ على لأن اللام تقتضي الملك والخير، يُحبّ ويُسرّ به فجيء بما يقتضي الملك. ولما كان الشر يُحذر وهو ثقل ووزر على صاحبه جيء معه بـ على المقتضية لاستعلائه عليه))[4]

وجاء على صيغة افتعل أيضاً قوله تعالى في رد النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) على الكافرين حين طلبوا منه أن يأتيهم بآية: ﴿وَإِذَا لَمۡ تَأۡتِهِم بِـَٔايَةٖ قَالُواْ لَوۡلَا ٱجۡتَبَيۡتَهَاۚ قُلۡ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّيۚ﴾[5]ورد على هذه الصيغة (اجتبى، واتّبع). قال الزمخشري: ((اجتبى الشيء معنى جباه لنفسه أي جمعه، أو جبى اليه فاجتباه أي أخذه، كقولك: جلبت اليه العروس فاجتباها، ومعنى (لولا اجتبيتها) هلاّ اجتمعتها افتعال من عند نفسك، لأنهم كانوا يقولون: إن هذا الاّ إفك مفترى، أو هلاّ أخذتها منزّلة عليك مقترحة، (قل إنما أتّبع ما يوحى اليّ من ربي) ولست بمفتعل للآيات أو لست بمقترح لها))[6]وفي ذلك دلالة على الطاعة والانقياد الى ما أنزل اليه من الله تعالى.

ويأتي اختيار صيغة (افعَلّ) لمعنى واحد وهو بيان قوة اللون أو العيب ويكون فعلها لازماً. كما في قوله تعالى مبيّناً دلالة اللون وما يترتب عليه من شدّة وعمق في الآخرة، فاشتداد سواد الوجه في الآخرة علامة على أنه من أهل النار، واشتداد بياض الوجه علامة

---

(١) المدثر ٣٨.
(٢) البقرة ٨١.
(٣) النور ١١.
(٤) السمين الحلبي: الدر المصون ٦٩٧/١.
(٥) الاعراف ٢٠٣.
(٦) الزمخشري: الكشاف ١١١/٢.

علـى أنــه مـن أهـل الجنــة ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (١٠٦) وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [١] وقد تنعكس دلالـة اللون فبعد أن كـان البيـاض علامـة للفوز والخير والفلاح يتحوّل الـى علامة للفقد والحزن، كما هو الحال عند النبي يعقوب (عليه السلام) فقد ابيضّت عيناه بعد سوادها من شدّة الحزن والبكاء على يوسف (عليه السلام) بعد فقده. قال تعالى: ﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾[٢]

واختيار صيغة (تفعّل) كان لتعدد معانيها، كالمطاوعة والتكلّف والتجنّب والحذر والتدرّج. ومن ذلك الاختيار قوله تعالى على لسان يعقوب (عليه السلام) لبنيه: ﴿ يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾[٣] فالصيغة هنا (تحسسوا) لمن يتأمل في السياق يجدها قد وظفت بمعنى يتطابق ومقتضى الحال الذي سيقت لأجله وهو طلب اتخاذ الحيطة والحذر، فيعقوب (عليه السلام) قد أحسّ بفطنته ونور بصيرته أن وراء اختفاء ابنيه يوسف ومن بعده أخيه أمراً يحتاج الى استعمال حواسهم للتثبت من وجودهما، فالتحسس ((طلب الشيء بالحواس من البصر والسمع))[٤]

ومن المعاني التي تعبّر عنها (تفاعَل) المشاركة في الفعل بين اثنين أو أكثر بحيث يكون أحدهما فاعلاً في اللفظ مفعولاً في المعنى، بخلاف صيغة فاعَل المتقدمة، والتظاهر بالفعل دون حقيقته. من ذلك قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَنْتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾[٥] فالخطاب هنا موجّه لأهل الكتاب من اليهود، فقد عاهدهم الله بوصايا خالفوها، ومما يدل على ذلك صيغة (تفاعل) في اللفظ (تظاهرون) وفيها مشاركة جماعية في الاستعلاء والظهور على بعضهم في أمور محرّمة، وهي القيام بالإثم والمعاصي والاعتداء على الآخرين، وإخراجهم من ديارهم، والاستيلاء على أملاكهم وغيرها من الأمور المشينة.

---

(١) آل عمران ١٠٦-١٠٧.
(٢) يوسف ٨٤.
(٣) يوسف ٨٧.
(٤) ابن عطية: المحرر الوجيز ٢٧٤/٣.
(٥) البقرة ٨٥.

ومن هذه الصيغة أيضاً قوله تعالى ﴿ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَـٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَـٰفِرُونَ ﴾[1] تخاطب هذه الآية اليهود الذين وقفوا ضد النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) ورسالته، وطالبوه أن يأتيهم بما أوتي موسى (عليه السلام)، فكان الرد عليهم أنهم أولاً كفروا بموسى وما أُنزل عليه وهو التوراة، والقرآن كلام الحق كذبوه أيضاً، وعدّوا التوراة والقرآن سحران صنعهما موسى ومحمد (عليهما الصلاة والسلام) وقد اتفقا فصدّق كل منهما الآخر، أي أن التوراة بشّرت بالنبي محمد(صلى الله عليه وسلم) وان القرآن صدّق بما أنزل في التوراة. والصيغة هنا (تظاهرا) أي تعاونا وتآزرا.

ومن هذه الصيغة أيضاً قوله تعالى في اتفاق رهط من قوم ثمود على قتل نبيهم صالح (عليه السلام) ليلاً ﴿ قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴾[2]والصيغة (تقاسموا) أي حلفوا بالله فيأمر بعضهم بعضاً على القسم. وقوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ﴾[3] والصيغة (تعارفوا) أي يعرف بعضكم بعضاً، وقد جاءت الصيغ بما يتناسب والسياق الذي وردت فيه.

وعبّرت صيغة (استفعل) عن معان عدّة منها الطلب حقيقة، أي طلب مغفرة الله تعالى، والمعنى الآخر القوة مثل استهتر واستكبر، أي قوي هتره وكبره، من ذلك قوله تعالى على لسان نوح (عليه السلام): ﴿ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَـٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ﴾[4]والمقام هنا مقام تصوير مدى مبالغة هؤلاء الكافرين المعاندين في الإعراض عن دعوة نوح (عليه السلام) وتأتي صيغة (استفعل) في (استغشوا، واستكبروا استكبارا) لتصوير مبالغتهم في تغطية وجوههم لئلا يروه، وبيان قوة استكبارهم في جعل أصابعهم في آذانهم، فجاءت الصيغ متجاوبة مع السياق في الإعراض عن الرؤية والسمع.

ب- معجم ألفاظ الخطاب القرآني:

مما لاريب فيه ان لكل خطاب ألفاظ تتميز بالإنفراد على مستوى اللغة أو التركيب أو البناء، ولكل أسلوب من أساليب الخطاب دلالاته اللغوية، وتكون مفرداته أساساً جوهرياً لتشكيل معجم قرآني، إذ تتحدد ألفاظه على وفق وظيفتها التي استخدمت من أجلها، وما دامت ((الألفاظ تخلق كما يخلق كل شيء يمر عليه اصبع الاستعمال في هذه الحياة

---

(١) القصص ٤٨.

(٢) النمل ٤٩.

(٣) الحجرات ١٣.

(٤) نوح ٧.

المتغيّرة))[١]فإن الأولى أن يكون لكل أسلوب من أساليب الخطاب القرآني لغته التي تعبّر بدقة عن طبيعته.

ولا يتم تأسيس معجم قرآني بمعزل عن معرفة طبيعة الخطاب الموجّه الى المتلّقي، وذلك باستعمال مفردات معينة تراعي الحالة النفسية للمخاطَبين، فتعبّر عمّا يريده، وتنقل للمتلقي تلك المشاعر والأحاسيس التي تختلج أنفسهم، ولمّا كانت شخصيات المخاطبين ليست سواء، فإن اختلافها يؤدي الى اختلاف أسلوب الخطاب الذي يراعي أحوالها، ولذا كان المعجم القرآني متنوّعاً، ويملك ثراء لغوياً بحيث يواكب لغة كل عصر من العصور.

وإذا عدنا الى بدايات فكرة تأسيس معجم قرآني للألفاظ سنجد أن الصحابي الجليل عبد الله بن عباس (ت ٦٨هـ) قد وضع رسالة في (غريب القرآن) لتفسير بعض المفردات القرآنية من القرآن والسنّة والشعر. ثم ألّف أبو عبيدة معمر بن المثنى (ت ٢٠٩هـ) كتابه (مجاز القرآن) وقد عنى بالمجاز معناه اللغوي العام، وأراد به فتح الطريق الى تفسير ألفاظ القرآن، وفهم أساليبه على ضوء طبيعة لغة العرب وأساليبها في الكلام. ثم ألّف ابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ) كتابه (تفسير غريب القرآن). وتبعه محمد بن عثمان بن مسبح الشيباني (ت ٣٢٠هـ) الذي قال فيه القفطي ((وله كتاب صنّفه في (غريب القرآن) ولما فرغ من عمله أخذ نفسه بحفظه، فلم يمكنه الاّ يسيراً حتى توفي فلم يخرج الكتاب عنه))[٢]وقد اتبعت هذه الكتب طريقة منهجية وهي الالتزام بترتيب السور وآياتها.

أمّا طريقة الترتيب الهجائي (المعجمي) فقد اتبعت طرق المعاجم في ترتيب الأبواب وأوائل الكلمات مع اختلافهم في التبويب، ويتضح هذا المنهج لدى محمد بن عُزيز السجستاني (ت ٣٣٠هـ) في كتابه (نزهة القلوب) وهو من أشهر كتب غريب القرآن، وقد اتبع طريقة سرد الألفاظ الغريبة على الترتيب القرآني فحسب، الأسبق فالتالي له وهكذا، مع ترتيب الألفاظ على الحرف الأول دون النظر الى الحرف الثاني وما بعده، مع مراعاة الحركات الثلاث في أوائل تلك الحروف.

ويأتي كتاب محمد بن الفضل الراغب الأصفهاني (ت ٥٠٢هـ) المسمى (مفردات ألفاظ القرآن) بعده، وهو كتاب يتبع ذكر المواد اللغوية القرآنية، ويذكر فيها تفسير الألفاظ مستطرداً الى تفسير ما يعن له من حديث نبوي أو أمثال وغيرها.[٣]وتواردت التآليف في ألفاظ القرآن، فوضع ابن الجوزي (ت ٥٩٧هـ) كتابه (تذكرة الأريب بما في القرآن من الغريب). وجاء بعده محمد بن أبي بكر الرازي (ت ٦٦٨هـ) وكتابه (مختار الصحاح) من الألفاظ، وقد سأله طلبة العلم وحملته أن يجمع لهم تفسير غريب القرآن، فأجابهم ورتبه بترتيب الجوهري، وضم فيه شيئاً من الإعراب والمعاني.

وألّف احمد بن يوسف الملقب بالسمين (ت ٧٥٦هـ) كتابه (عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ) وقد سار على ترتيب أساس البلاغة للزمخشري[٤]وتبعه أبوحيّان محمد بن

---

(١) نازك الملائكة: ديوان شظايا ورماد ٧/٢.
(٢) د. ابراهيم مدكور: معجم الفاظ القران الكريم (المقدمة وز) .
(٣) ينظر: المصدر نفسه (المقدمة زح) .
(٤) ينظر: المصدر نفسه (المقدمة ج) .

يوسف (ت٧٤٥هـ) بكتابه (إتحاف الأريب بما في القرآن من الغريب). ومما يلاحظ أنه من العسير أن نجد مؤلفاً من هذه المؤلفات خالياً من الاستطراد وما فيه من عظيم الفائدة، ولكنه لا يقاس بما جدّ في عصرنا الحاضر من دقة النظام الذي يختزل الزمن للوصول الى الإنجاز العلمي.

ولما كان الموضوع الذي نتطرق اليه وهو الخطاب القرآني، فإن المعجم سوف يتحدد بألفاظ معينة استخدمها القرآن الكريم في أساليبه التي وظفها، وهي على النحو الآتي:

١- خطاب الملائكة:

الملائكة نوع من مخلوقات الله تعالى يتميزون بنقاء الخلق وصفاء العبادة، لأن الله تعالى خلقهم من نور، فهم في تسبيح لله وتقديس وتحميد دائم. قال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾[1]ونستشف من ألفاظ خطاب الله تعالى للملائكة حول إرادته خلق بشر من طين، وهو يعلم ما سيقولون، ولكنه يريد أن يسمع منهم الرد على إخباره إياهم. قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾[2]فقابل الملائكة بين إفساد البشر وسفكهم الدماء، وبين تسبيح الملائكة بحمد الله والتقديس له، وشتّان ما بين المتقابلين.

ويأتي أسلوب آخر في خطاب الله تعالى بصيغة الأمر، وهو طلب السجود من الملائكة لبديع خلقه آدم (عليه السلام) وهو سجود تشريف لله تعالى:

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴾[3]

فالألفاظ (يسبّح، نسبّح، يسبّحون، سبحانك، نقدّس، سجد، سجدوا، اسجدوا، ساجدين، يخافون ربهم، يفعلون ما يؤمرون، لا يستكبرون) تدل على أن الملائكة تتلقى أمر الله تعالى فتمتثل له بطاعة خالصة دون اعتراض، أو محاولة إبطاء لفهم مضمون الأمر، أو طلب معرفة الأسباب المؤدية له، وهم في رضى وطمأنينة، وامتنع إبليس عن السجود لآدم فعصى أمر ربه وغوى.

---

(١) النحل ٤٩-٥٠.
(٢) البقرة ٣٠.
(٣) الحجر ٢٨-٣١.

وتبين الألفاظ في خطاب آخر أن نزول الملائكة وتعريجها بأمر الله تعالى وأذنه، فإنه ينزّلهم بوحي منه على من يختار من عباده أنبياء لإنذار الناس من الشرك بالله الواحد لا إله غيره وأن يعبدوه ويتقوه ويطيعوه. قال تعالى ﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴾[1]

ومسألة صعود أو عروج الملائكة ونزولها بين السماوات والأرض من غير الخضوع لقانون الجاذبية أو التصادم مع الأجرام السماوية قد بيّنها قوله تعالى: ﴿ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾[2] والعروج: الميل عبر مسار أو طريق مستقيم لا يعرف الانعطاف. قال تعالى ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴾[3]وذهب علماء التفسير الى أن الملك يصعد في اليوم مسيرة ألف سنة، وقيل ينزل ويصعد في يوم يعادل ألف سنة، فيكون مقدار نزوله خمسمائة سنة، ومقدار صعوده خمسمائة سنة.

ويرى علماء الفلك أن وحدات الزمن التي يستخدمها الناس لتقدير وقتهم في الدنيا تبقى صالحة فقط فوق الأرض، فإذا انتقلنا الى جرم سماوي آخر أو أي نقطة أخرى من هذا الكون الفسيح، اختلفت الوحدات الزمنية، فالجسم كلما زادت سرعته أبطأ الزمن حتى إذا سار الجسم بسرعة الضوء يتوقف الزمن تقريباً، وهذا ما أثبته العالم (اينشتاين) في نظريته عن النسبية بقوله: (النقطة الأقرب الى مركز الأرض تسير ببطء، والنقطة الأبعد عن مركز الأرض تسير أسرع، لأن القوس الذي تقطعه الأولى أصغر من القوس الذي تقطعه الثانية من الزمن ذاته) وهكذا يمكن في مدار من المدارات أن يعادل اليوم ألف سنة مما نعد نحن على الأرض، وفي مدار آخر أعلى يمكن أن يعادل اليوم هناك خمسين ألف سنة على أرضنا وهكذا.

وتعبّر ألفاظ الخطاب عن اصطفاء الله تعالى من الملائكة رُسلاً الى البشر بصورة بشر، إذ يقدرون على التحوّل والتشكّل لإبلاغ رسالتهم في الإنذار والبشرى، وطلب القيام بما أمر الله به من قول أو فعل كما دل على ذلك قصة الملائكة مع إبراهيم (عليه السلام) فضيّفهم وقدّم لهم الطعام، فلما رأى أيديهم لا تمتد اليه، ولم يأكلوا منه ارتاب لذلك. قال تعالى ((هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين. إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً قال سلام قوم منكرون. فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين. فقرّبه إليهم قال ألا تأكلون. فأوجس منهم خيفة

---

(١) النحل ٢.
(٢) المعارج ٤.
(٣) الحجر ١٥.

قالوا لا تخف وبشّروه بغلام عليم)) الى قوله تعالى ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴾[1]

وتحمل الملائكة رسالة أخرى الى النبي زكريا (عليه السلام) لتبشره بوليد أسمه يحيى (عليه السلام) بعد أن دعا ربّه أن يرزقه ذريّة طيبة: ﴿ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾.[2]

وجاءت الملائكة في صورة بشرية الى مريم (عليها السلام) لتنقل اليها أمر الله تعالى وبأسلوب خبري وهو أن الله قد اختارها من بين النساء فطهّرها من الدنس، وفضّلها على نساء العالمين في زمانها، وإزاء ذلك عليها أن تخلص لله في عبادتها، وأن تديم طاعتها له، وأن تخشع مع الخاشعين في عبادتهم ﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾.[3]

وتنتهي الملائكة بعد هذا الخطاب الى تبشيرها بمولود اسمه المسيح عيسى بن مريم (عليه السلام) ليكون نبيّاً ومن المقرّبين ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾.[4]وفي سور ة أخرى تمثّل لها الملك جبريل (عليه السلام) إنساناً مستوي الخلق ليهب لها بأمر الله غلاماً طاهر الخلقة وهو النبي عيسى (عليه السلام) فتشعر أن مأمنها قد استبيح من رجل غريب، ولكنّ أسلوب الملاك الهادئ طمأنها وأشعرها بالأمن، وأنه مجرد رسول من الله ينقل اليها إرادته دون زيادة أو نقصان، مما دفعها الى محاورته في الكيفية.كما في قوله تعالى: ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴾.[5]

---

(١) الذاريات ٢٤-٣٤.
(٢) آل عمران ٣٩.
(٣) آل عمران ٤٢-٤٣.
(٤) آل عمران ٤٥.
(٥) مريم ١٦-٢١.

فالألفاظ (ضيف، سلاماً، لا تخف، وبشّروه، يبشرك، فنادته، روحنا، فتمثّل، رسول) تدل على اختيار الله تعالى من الملائكة رُسلاً يبعثهم الى الأنبياء، فيتحوّلون الى صورة بشرية ليستأنسوا بها، فيخبرونهم بالرسالة التي تتضمن البشرى، أو تتضمن الإنذار والتحذير.

وكان الروح الأمين جبريل (عليه السلام) يأتي الى النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) بصورة بشرية جميلة، وهي صورة الصحابي دحية الكلبي (رضي الله عنه) فيطمئن اليه، وقد رأى النبي (صلى الله عليه وسلم) جبريل (عليه السلام) مرّة على صورته الحقيقية وقد ملأ الخافقين، فأغمي عليه. وكانت الملائكة تعمل على تثبيت النبي في دعوته، والمشاركة في قتال المشركين كما في معركة بدر وغيرها من المعارك كما في قوله تعالى: ((إذ تستغيثون ربّكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مُردفين)) الى قوله تعالى ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾[1]ومما يتبيّن من هذا الأسلوب أنّ الله تعالى لا يترك نبيه دون أن تتدخل الإرادة الإلهية في الوقت المناسب. كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾.[2]

فالألفاظ (مردفين، منزلين، مسوّمين) فمردفين: أي أن الملائكة متقدمين على صفوف المسلمين، ليلقوا الرعب في قلوب المشركين، ومنزلين: أي ينزل الملائكة صفوفاً معكم في ساحة القتال. ومسوّمين: أي معلمين أنفسهم أو خيولهم بعلامة معينة يعرفها النبي (صلى الله عليه وسلم). ومما يلاحظ أن النبي (صلى الله عليه وسلم) وهو يخاطب المؤمنين وقبل أن ينزل عليه الوحي أخبرهم أن الله تعالى يمدهم بثلاثة آلاف من الملائكة ليقابل العدد نفسه من جيش المشركين، وكان هذا رجاؤه وهو يعلم أن الله تعالى لا يخيب رجاء المؤمنين، فنزل الوحي أن الله وهو أكرم الأكرمين قد زاد على هذا العدد- إن يصبروا على عدوهم- يمدهم بخمسة آلاف من الملائكة معلمين بعلامة تميزهم عن البشر.

وكان المشركون يدّعون كذباً أن الله تعالى اختار له أبناء من الملائكة إناثاً، وكانوا يسمونهم (بنات الله) فالملائكة نوع من الخلق لا جنس لهم ،خلقهم الله من نور. قال تعالى:

---

(١) الانفال ٩-١٢.

(٢) آل عمران ١٢٣-١٢٦.

﴿ فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ أَلِرَبِّكَ ٱلۡبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلۡبَنُونَ ١٤٩ أَمۡ خَلَقۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثٗا وَهُمۡ شَٰهِدُونَ ١٥٠ أَلَآ إِنَّهُم مِّنۡ إِفۡكِهِمۡ لَيَقُولُونَ ١٥١ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ١٥٢ أَصۡطَفَى ٱلۡبَنَاتِ عَلَى ٱلۡبَنِينَ ﴾.[1]وقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمۡ عِبَٰدُ ٱلرَّحۡمَٰنِ إِنَٰثًاۚ أَشَهِدُواْ خَلۡقَهُمۡۚ سَتُكۡتَبُ شَهَٰدَتُهُمۡ وَيُسۡـَٔلُونَ ١٩ وَقَالُواْ لَوۡ شَآءَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَا عَبَدۡنَٰهُمۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ ﴾.[2]فالألفاظ (بنات، إناث، اصطفى، ما عبدناهم، يخرصون) تدل على تسمية الملائكة بالإناث، واختارهم الله بناتاً له وحاشاه، ستكتب هذه الشهادة ويسألون عنها، وكان ادعاؤهم كذباً وتخريصاً وظناً، وإن الظن لا ينفع دون دليل.

وهنا يضعنا الله تعالى في موضع تصوّر ما تفعله ملائكة الموت حين تقبض أرواح المؤمنين بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ٣٠ نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴾.[3]فالألفاظ (تتنزّل، ألا تخافوا، ولا تحزنوا، وابشروا، أولياؤكم) تبيّن أن الملائكة عند موت المؤمنين تكثر من النزول عليهم مطمئنة إياهم بعدم الخوف والحزن، ومبشرة بالجنة التي وعدها الله لهم، وأنهم كانوا يتولونهم في الحياة الدنيا ويتولونهم في الآخرة بأمر الله.

ويضعنا الله تعالى موضع تخيّل ما تفعله ملائكة الموت وهي تتوفى الكافرين، فتضرب وجوههم وأدبارهم، وتدفعهم دفعاً الى عذاب الحريق، وتفعل الفعل نفسه مع المنافقين الذين اتبعوا ما أسخط الله، وكرهوا رضوانه فحبطت أعمالهم. قال تعالى ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ٥٠ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴾.[4]وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَى ٱلشَّيۡطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمۡ وَأَمۡلَىٰ لَهُمۡ ﴾ الى قوله تعالى ﴿ فَكَيۡفَ إِذَا تَوَفَّتۡهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ ﴾[5]

---

(١) الصافات ١٤٩-١٥٣.
(٢) الزخرف ١٩-٢٠.
(٣) فصلت ٣٠-٣١.
(٤) الانفال ٥٠-٥١.
(٥) محمد ٢٥-٢٧.

فالألفاظ (يتوفى، توفتهم، يضربون) تدل على أن الملائكة تقضي على الكافرين والمنافقين بالموت، ثم تضرب وجوههم وأدبارهم إهانة وتحقيراً لهم، فالضرب على الوجه إذلال، والضرب على الأدبار استهانة وتحقير.

وفي ساحة الحساب وقف الخلق ينتظرون الحساب، فيحشر الكافرون بالله وما أنزل من آيات تدل على وحدانيته، فكذبوا بها واتبعوا ما توسوس لهم شياطين الجن والإنس، ويخاطب الله تعالى الملائكة بالسؤال عن عبادة هؤلاء لهم وهو تعالى يعلم أن هؤلاء يتبعون وساوس الشياطين ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ أَهَـٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴾.[(١)]

وتتلقى الملائكة وهم خزنة النار الكافرين غير مرحّبين بهم كما في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾.[(٢)]وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَـٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾.[(٣)]فالألفاظ (يحشرون، يعبدون، لا بشرى، باسطو أيديهم، عذاب الهون، تستكبرون) نتأمل من خلالها أسلوب خطاب الملائكة الموجّه لأصحاب النار، وهو ينم عن استهانة بما كانوا يعبدون، وتيئيس من الخروج من النار، والضرب والتعذيب جزاء بما كانوا يتقولون على الله الكذب، وإذلال بعد استكبار.

أما المؤمنون الذين كتبت لهم الحسنى فهم مبعدون عن النار، ولا يخافون من الفزع الأكبر، وتتلقاهم الملائكة بالترحيب، فيدخلون الجنة هم وآباؤهم وأزواجهم وذرياتهم جزاء صبرهم. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَـٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ هَـٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾.[(٤)]وقوله تعالى: ﴿جَنَّـٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّـٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴾.[(٥)] فالألفاظ (سبقت لهم الحسنى، مبعدون، حسيسها، الفزع الأكبر، ومن صلح، سلام، عقبى الدار) تبيّن أن المؤمنين السابقين في إيمانهم يبعدون عن النار وزفيرها، ولا

---

(١) سبأ ٤٠-٤١.
(٢) الفرقان ٢٢.
(٣) الانعام ٩٣.
(٤) الانبياء ١٠١-١٠٣.
(٥) الرعد ٢٣-٢٤.

يسمعون أزيزها الناتج عن اتقادها، ولا يثيرهم الخوف الأكبر حين تؤخذ زمرة من الكفرة، فيرمون في النار وتطبق عليهم الباب، فترتجف القلوب، وتهلع لها النفوس ظناً أن يكونوا منهم، فتتلقاهم الملائكة مخففة عنهم الفزع، ومطمئنة إياهم بالخير، فيدخلون الجنة ومن كان صالحاً من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم، والملائكة يدخلون عليهم الجنة من جميع أبوابها بالسلام.

٢- خطاب الجن:

الجِن والجِنة من جنّ: أي ستر وأخفى، ومفردها جنّي وجان، أي المستور والمخفي الذي لا يُرى بالعين، ولكنه موجود، وقد ورد ذكر الجن في القرآن الكريم في سورة كاملة وهي سورة الجن، وورد ذكرهم في سور عدّة. وهم نوع من مخلوقات الله تعالى تختلف عن الملائكة والإنس، فالجن خلقوا من نار، أي من أخلاط النار الصافية، وفي بيان خلقهم قال تعالى: ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ۝١٤ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴾.[١]

خلق الله الجن قبل الإنس، وكان لهم السبق في ذلك، والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴾[٢]فلفظ خلقناه يعود الى الجان، ولفظ من قبل أي قبل الإنس، وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ ﴾[٣] فامتناع إبليس وهو من الجن عن سجوده لآدم وهو أول أصل للإنسان دليل على سبق الجن في الخلق.

ومن الأدلة على سبق خلق الجن على الإنس تقديم لفظ الجن على لفظ الإنس في الخطاب الإلهي كما في قوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾[٤]فالجن مفعول للفعل خلق، والإنس معطوف على الجن أي يليه في الخلق، وكذلك خطابه تعالى لجميع المخلوقات يوم الحساب: ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى ﴾[٥]فابتدأ بنداء موجّه للجن قبل الإنس.

والجن يتكاثرون كالبشر، وفيهم الرجال والنساء، ومن التزاوج تكون الذرية، ويزخر الخطاب القرآني بالدلائل على ذلك التكاثر كما في قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ

---

(١) الرحمن ١٤-١٥.
(٢) الحجر ٢٧.
(٣) الكهف ٥.
(٤) الذاريات ٥٦.
(٥) الانعام ١٣٠.

﴿ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾[(١)]وقوله تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ ﴾[(٢)]وقوله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾[(٣)]وقولـه تعـالى: ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ﴾[(٤)]فالألفاظ الدالة على تكاثرهم (رجال، وذرية، وقبيل، وأمم، ونفر، ومعشر، وجِنة) فلفظ رجال من الجن يقابله بالضرورة لفظ إناث، ولفظ قبيل دلالة على تعدد أجناسهم وتنوعها، ولفظ أمم دلالة على كثرة القبائل فتشكل أمم من الجن، وكذا الألفاظ الأخرى تدل على الكثرة والتكاثر.

وتعدد أجناس الجن وكثرتهم وتشكّلهم من أفراد وقبائل وأمم يدعو ذلك الى اختلاف أهوائهم ومعتقداتهم وعباداتهم، فهم كالإنس مخلوقات ذات إرادة واختيار، وعندما فرض التكليف عليهم فمنهم من اختار الإيمان بالله تعالى، وأطاع أوامره ونواهيه، وقام بأداء العبادة وفعل الخير، ومنهم من اختار الكفر على الإيمان، والمعصية على الطاعة، وأصبح من أتباع الشيطان. قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴾[(٥)]وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴾.[(٦)]

فالألفاظ (ليعبدون، يطعمون، المسلمون، القاسطون) تبين أحوالهم، فلفظ ليعبدون تدل على علة خلق الجن والإنس وهي عبادة الخالق، إذ لا معبود دون عابد، والعبادة طاعة تسبقها معرفة وتعقبها سعادة. ولا يريد الله منهم أن يرزقوا الخلق ولا يطعمونهم، لأن هذا فوق طاقة المخلوق، ولفظ المسلمون دلالة على إسلام بعض الجن، ولفظ القاسطون وهم خلاف المسلمين، وقد يتوهم الناس أن القاسط هو العادل، والصواب أن القاسط هو الظالم، وأن المقسط هو العادل

والجن يمتلكون قدرات خارقة للقيام بأعمال صعبة، ترافقها سرعة حركة لا يمكن أن يقوم بها الأنس لأن قدراتهم محدودة. ولذا نجد الخطاب الإلهي يقدم لفظ الجن على لفظ الإنس في هذا المجال مثل قوله تعالى ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴾[(٧)]فالألفاظ (تنفذوا، فانفذوا، لا تنفذون) تدل على

---

(١) الجن ٦.
(٢) الكهف ٥٠.
(٣) الاعراف ٢٧.
(٤) فصلت ٢٥.
(٥) الذاريات ٥٦-٥٧.
(٦) الجن ١٤-١٥.
(٧) الرحمن ٣٣.

علـى قـدرة الاختـراق فـي فضـاء السـماء، والجـن أقـدر مـن الإنـس علـى خـرق السـماوات والأرض ولكـن فـي حـدود السـماء الـدنيا ولـيس خارجـاً عنهـا، أمـا الإنـس فـلا يقدرون على ذلك إلاّ باستخدام قوة العلم وهو استثناء قابل للتحقيق.

وفي مجال آخر نجد الإنس يتفوّقون على الجن كما في قولـه تعـالى ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾[1]
فالألفاظ (يـأتوا، لا يـأتون، ظهيـرا) تـدل علـى الاستحالة والعجـز، فالإتيـان بقـرآن آخـر مثيـل القرآن الذي أنزلـه الله تعالى علـى النبـي محمـد (صـلى الله عليه وسلم) غيـر ممكـن وإن كـان الإنس أقدر من الجن علـى صـياغة الكـلام البليـغ، واختيـار الألفـاظ الفصـيحة الموافقـة لسـياق المعنى، ووقف الجن مساعدين لهم فإنهم جميعاً لا يأتون بمثله أبداً.

وتستبين قدرات الجن الخارقـة حين سخّرهم الله تعـالى للنبـي سليمان (عليـه السـلام) يعملون له ما يشاء من أعمال، وبعض هؤلاء الشياطين مقيّد بسلاسل من حديد، ومن يتهاون مـنهم فـي عملـه أو يتهـرّب منـه يـذق عـذاب النـار، ومـن هـذه الأعمـال بنـاء بيـوت العبـادة ومحاريبها، وإقامة التماثيل المصنوعة من النحاس المذاب أمام بوابات المدينة بقصد الزينـة، وكانت جائزة عندهم، وحياض كبيرة للمياه، وقدور عظيمة ثابتة على مواقد للطعام، والقيام بالغوص لاستخراج اللؤلؤ والمرجان، وغيرها من الأعمال الفخمـة. قـال تعـالى: ﴿ وَلِسُلَيْمَـٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَـٰرِيبَ وَتَمَـٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَـٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴾[2]وقولـه تعـالى ﴿ وَٱلشَّيَـٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَـٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾.[3]

فالألفاظ (يعمل، يزغ، نذقه، بنّـاء، غـوّاص، مقرنين) تدل علـى عمل الجن الدؤوب فـي البنـاء والغـوص بحثـاً عـن اللؤلـؤ والمرجـان لتـزيين المعابـد، وإزاء هـذا العمـل المسـتمر نجـد بعض الجن ممن زاغ عن عمله قد قرن بالأصفاد، وقيّد عقاباً لتهرّبـه من العمل فذاق وبـال عمله.

وتتجلـى قـدرات الجـن الخارقـة أيضـاً فـي خطـاب النبـي سليمان (عليـه السـلام) للجـن لجلب عرش بلقيس ملكة سبأ قبل مجيئها اليه، فتقدم عفريت شديد المراس منهم ليأتي بـه قبـل نهوض سليمان (عليه السلام) من مجلسه، وتقدم آخر وكـان عارفـاً بالكتب السماوية وعلومهـا

---

(١) الاسراء ٨٨.
(٢) سبا ١٢-١٣.
(٣) ص ٣٧-٣٩.

في استخدامه العلم بدلاً من القوة، ليأتي به قبل أن يتحرّك جفن عينه، كناية عن السرعة الفائقة، فأحضره اليه بتلك السرعة، وكان ذلك فضلاً من الله تعالى لعبده الشكور. قال تعالى ﴿ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴾ (١)

ألفاظ الخطاب (عفريت، علم من الكتاب، يرتد، ليبلوني) وفيها لفظ عفريت ما يدل على القوة والشدة وسهولة تنفيذ الأمر بأقل زمن ممكن، ويقابل هذه القوة جان آخر يمتلك ناصية العلم وكانت الغلبة لصاحب العلم، والقوة لا تنفع هنا ولها مجال آخر، ولكل منهما مجال للتنفيذ، وكان هذا فضل من الله أعطاه لنبيه سليمان (عليه السلام) وهو في الوقت نفسه اختبار للشكر أو الكفر، والشكر هو المطلوب.

وكان الظن الغالب على الناس أن الجن يعلمون الغيب، لسهولة ارتقائهم الى آفاق السماء، واستماعهم الى أحاديث الملائكة، ومثل هذا الظن باطل، فالجن لا تعلم الغيب، والدليل على ذلك قوله تعالى في موت سليمان (عليه السلام): ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴾(٢)فالألفاظ (ما دلهم، تبيّنت، الغيب) تدل على أن الجن بصورة عامة والجن الذين يعملون لدى سليمان (عليه السلام) لا يعلمون بموته، لأنهم لا يعلمون الغيب في الأصل، وما عرّفهم بموته إلاّ سقوطه عن عصاه التي أكلتها الأرضة، فأدركت الجن أنهم لا يعلمون الغيب، ولو علموه لتخلصوا من عذاب العمل الشاق.

وعندما بدأت مطالع الفجر تستبشر ببزوغ نور الإسلام وإذا بأبواب السماء تتغلّق بوجوه الجن الذين يعرجون ليسترقوا السمع من أفواه الملائكة في السماء، وينقلونها الى أقرانهم من الإنس وهم الكهنة والسحرة، فحيل بينهم وبين خبر السماء ، وأرسلت اليهم شهباً لتحرقهم، كما في قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْءَانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾. (٣)

فالألفاظ (لمسنا، ملئت، نقعد، شهاباً، رصدا) توحي أن هؤلاء الجن قد تكشّف لهم الأمر بعد حيرة أن السماء قد ملئت حرساً من الملائكة، وان هؤلاء الحرس يرمونهم بالشهب المحرقة، وكانوا قبل ذلك يجدون أماكن للسمع ونقل الخبر، والسبب في هذه الحركة

---

(١) النمل ٣٨-٤٠.
(٢) سبا ١٤.
(٣) الجن ٨-٩.

غير العاديّة هو أن الحصار على الجن قد فرض لئلا يتقوّلوا الأقاويل، ولئلا يتوهم من يسلم أن للجن علاقة بموضوع الرسالة.

وينكشف أمر هذا الحصار السماوي على الجن لدى نفر منهم وهم تسعة، تهادوا من نصيبين الى تهامة، وهم يبحثون عن الأسباب والعلل لذلك المنع فوجدوا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وهو ببطن نخلة يقرأ القرآن في هدأة صلاة الفجر، فاستمعوا الى بلاغة القرآن وحسن فصاحته، فكان عجباً أنهم لم يسمعوا له نظيراً من قبل، فهفت قلوبهم الى حلاوة لفظه، وصدق معانيه التي تهدي الى الحق، فآمنوا به ونبذوا الشرك لأن الله تعالى قد تسامى بعظمته وجلاله عن أن يتخذ زوجة وولداً، وكان جهلة الجن وسفهائهم ومنهم السفيه الأول (إبليس) يغالون في الكذب على الله تعالى، وكان ظن الجن من بعده أن الإنس والجن لن يقعوا في الكذب والضلال. قال تعالى: ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾.(١)

وورد خبر النفر من الجن أيضاً في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا ۖ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ ۚ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾.(٢)فالألفاظ (استمع، سمعنا، يستمعون، عجبا، الرشد، جد ربنا، ظننا، صرفنا، أنصتوا، بمعجز) تدل على الاستماع والسمع الذي يعقبه الإنصات يدعو الى تدبّر القول وفهم معناه، ثم الإيمان بما جاء من الحق الذي يهدي الى الرشاد، ولابد من الإجابة بعد الفهم، فاستجاب النفر من الجن لداعي الله وآمنوا به، وأبلغوا قومهم بالإسلام دين الحق، فأنذروهم من البقاء في الضلال، وبشّروهم بالمغفرة.

دعا النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) المشركين الى الإسلام فواجه منهم تهم عدّة، مثل: كاهن، وساحر، وشاعر، ومجنون، وهذه التهمة الأخيرة تعني أن الجن قد مسّته فأصيب بالجنون، وأن شيطاناً من الجن يملي عليه القرآن كما يملي على الشاعر شعراً، وعلى الكاهن كلاماً مسجوعاً، وعلى الساحر أخبار السماء. قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ

---

(١) الجن ١-٥.
(٢) الاحقاف ٢٩-٣٢.

عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ ﴾[1]فكان الرد على هذه التهمة قوله تعالى: ﴿ هَلۡ أُنَبِّئُكُمۡ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ٢٢١ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ ﴾[2]أي تتنزّل باستمرار على الكذّاب الفاجر الملطّخ بالذنوب، وما جُرّب على النبي محمد(صلى الله عليه وسلم) كذب، بل عرف بالصادق الأمين قال تعالى: ﴿ أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴾[3] وقوله تعالى: ﴿ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكۡرَىٰ وَقَدۡ جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مُّبِينٞ ١٣ ثُمَّ تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَقَالُواْ مُعَلَّمٞ مَّجۡنُونٌ ﴾[4]

فالألفاظ (تتنزل، يتفكروا، تتفكروا، جِنّة، مجنون، معلّم) تدل على أن الشياطين تتنزل باستمرار على الكاذبين والمشركين، ولا تتنزل على المؤمنين، واللفظ يتفكّر أي يستزيد من تفكيره أن النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) ليس به جِنة أو مجنون أي ممسوس من الجن، بل هو رسول اصطفاه الله من البشر لتبليغ رسالته.

ويوم القيامة يُحشر الجن كما يُحشر الإنس، ويحاسبون على أعمالهم، فيُثابون ويُعاقبون، ولن تكون العقوبة إلاّ بعد المخالفة والعصيان والغفلة عن التكليف الإلهي. قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ﴾.[5] فالألفاظ (لا يفقهون، لا يبصرون، لا يسمعون، الغافلون) تدل على أن هؤلاء الجن الموصوفين بهذه الأوصاف قد أوقفوا حالة التفكّر والتدبّر من عقولهم، فأصبحوا كالحيوان أو أضل منه، لأنهم نسوا أو تناسوا المصير الذي ينتهون اليه.

ويخاطب الله تعالى الجن يوم القيامة في استكثارهم من إغواء الإنس، وإطاعة الإنس إيّاهم- وهو يعلم- فردّ الإنس قبل الجن باستمتاع بعضهم ببعض في الغواية والفسق والفجور والكفر، قال تعالى: ﴿ وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ قَدِ ٱسۡتَكۡثَرۡتُم مِّنَ ٱلۡإِنسِۖ وَقَالَ أَوۡلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلۡإِنسِ رَبَّنَا ٱسۡتَمۡتَعَ بَعۡضُنَا بِبَعۡضٖ وَبَلَغۡنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِيٓ أَجَّلۡتَ لَنَاۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثۡوَىٰكُمۡ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ﴾[6]وقوله تعالى: ﴿ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ

(١) الحجر ٦.
(٢) الشعراء ٢٢١-٢٢٢.
(٣) الاعراف ١٨٤.
(٤) الدخان ١٣-١٤.
(٥) الاعراف ١٧٩.
(٦) الانعام ١٢٨.

ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ شَهِدۡنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴾.[(١)]

فالألفاظ (يحشرهم، استكثرتم، استمتع، مثواكم، يقصّون، وينذرونكم، شهدنا، وغرّتهم، وشهدوا) تدل على أن الخطاب موجه للجمع من الجن والإنس، وإقرارهم بالاستماع المشترك بينهم في اللهو والعبث حتى انتهاء الأجل المقدّر لهم، وأن هؤلاء قد جاءتهم رسل من جنسهم يبينون لهم سبل الإيمان، وينذرونهم لقاء الآخرة، وشهدوا على أنفسهم بالكفر، فكانت النار مأواهم.

٣- خطاب الإنس:

الإنس نوع آخر من مخلوقات الله تعالى، خلقهم من طين ونفخ فيهم من روحه، وأودع فيهم عقلاً وعاطفة، وخيّرهم بين طريقين الإيمان والكفر، أو بين الخير والشر، فتنوّعت الأهواء، وتعددت الأجناس، فاصطفى الله تعالى من الإنس الأنبياء والرسل لهداية البشر، وصار منهم أيضاً المسلمون والمؤمنون، والكافرون والمشركون والمنافقون، وأهل الكتاب، فاختلفت أساليب الخطاب الموجّه لكل جنس منهم، واختلف كذلك خطابهم فأصبح لكل جنس منهم أسلوبه ومفرداته. ومن هذه الأساليب:

أ- خطاب الأنبياء والرسل:

الأنبياء والرسل اختارهم الله تعالى من البشر لهداية الناس الى الخير، وهو توحيد الله وعبادته، وقد تكفّل سبحانه وتعالى بحفظهم لإتمام رسالتهم، وهو معهم في كل خطوة وفي كل حركة يقومون بها، ولم يترك أنبياءه سدى، بل يختبرهم في الشدائد والمحن. ولنا في اختبار النبي أيوب (عليه السلام) عبرة لمن اعتبر، فهذا النبي المختار رجل كثير المال والأنعام والأولاد والعبيد والغلال، ينحدر من ذرية إبراهيم (عليه السلام) كما في قوله تعالى: ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾ [(٢)]

أراد الله تعالى أن يختبر صبر أيوب (عليه السلام) ويعرف مقدار تحمّله الشدائد، فرفع عنه تلك النِعم المال والأولاد والعبيد والأرض، وابتلى جسده بأنواع من الأمراض المعدية، فأبعده قومه الى أرض خربة خارج البلدة، وانقطع عنه الناس سوى زوجته التي كانت ترعى حقه، وتعرف قديم إحسانه، ومقدار شفقته عليها، فتعينه على قضاء حاجاته وهي صابرة معه على ما حلّ بهما من البلاء، وكانت تعمل لتأتي له بالطعام، وتأخّرت عليه مرّة فحلف أن يضربها مائة سوط.

---

(١) الانعام ١٣٠.
(٢) الانعام ٨٤.

وكان أيوب (عليه السلام) صابراً على ذلك البلاء لولا أن أخوين له زاراه في تلك الخربة، فقال أحدهما للآخر: لو كان الله علم من أيوب خيراً ما ابتلاه بهذا، فجزع من قوله جزعاً لم يجزع مثله من شيء قط، فكيف يتقوّل على الله قولاً لم يعلمه أحد من العالمين، ويعلم الله ما في نفس أيوب من الخير والرحمة، فرفع يديه الى الله باستحياء يدعوه الى أن يخفف عنه البلاء، ولننظر الى أدبه مع ربّه في مناجاته ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾(١)

وكان استحياؤه من ربه منعه من قول (أصابني الضر) بل قال (مسّني) مع ما أصابه من شدّة البلاء وفقد كل ما يملك، بل نراه يثبت لله تعالى أعلى درجات الرحمة في قوله (أرحم الراحمين) وفي قوله تعالى: ﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴾(٢) فهاهو ينزّه الله تعالى مرّة أخرى عن أن يكون سبباً في ضرّه، فقد نسب الضر الى الشيطان (مسّني الشيطان) وهذا قمّة الأدب مع الله، ولا ندري أنتأمّل روعة الدعاء أم نتأمّل جلال الإجابة لهذا العبد البعيد الوحيد، فيفتح الله له أبواب رحمته، فتنثال عليه النِعم الواحدة تلو الأخرى، الصحة والعافية، والأبناء ضعفاً، والمال والأنعام والغلال، والبر بيمينه وهو أن يضرب زوجته ضربة واحدة بمثابة مائة ضربة: ﴿ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾.(٣)

وتعبّر الألفاظ في خطاب زكريا (عليه السلام) عن حالة الضعف واللين مشوبة بالرجاء حين تقدّم به العمر، فضعف جسده وشاب رأسه، ولم ييأس من رحمة الله، فقام من الليل ونادى ربّه نداء خفياً لا يسمعه أحد غيره، يشكو اليه حاله: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾.(٤) وقوله تعالى: ﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴾(٥) ما هذا الدعاء؟ إنه رجاء من نبي أن يعطيه الله ولداً، ولا يخيّب أمله فيدعوه بسميع الدعاء، وكذلك

---

(١) الانبياء ٨٣.
(٢) ص ٤١.
(٣) ص ٤٢-٤٤.
(٤) مريم ٤-٦.
(٥) آل عمران ٣٨.

نتبـيّن نوعـاً آخـر مـن الـدعاء ﴿ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾[١]فقولـه (لا تـذرني فـردا) الخـوف هنـا يختلط بالرجـاء أن لا يتركـه ربّـه وحيـداً فريداً، هكذا يكون الرجاء في الله، والثقة في رحمته، واليقين في إجابته.

فالألفـاظ (وهـن، واشـتعل، خفـت، المـوالي، وليـا، فـردا) تـدل علـى ضـعفه الظـاهر والباطن وهذا عين الخضوع لله تعالى، ثم يذكر فضل الله عليه في إجابة دعائه وهذا عين الرجاء، ثم يطلب من ربه ولداً يكون نبياً خوفاً من أن يضل بنو إسرائيل من بعده وهذا عين الإخلاص.

ولا يمكن أن نتصوّر المدة الزمنية الفاصلة بين الدعاء والإجابة، إذ جاءه الخطاب ﴿ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴾[٢]فاختلطت الدهشـة بالفرحـة والعجب بالمسرّة، فخاطب ربّـه ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴾[٣]وقد يظن السامع أو القارئ أن سؤال النبي زكريا (عليه السلام) قد يتناقض مع دعائه، ألم يعلم بكبره وعجز امرأته قبل أن يدعوه، فكيف يعجب من الإجابة بعد ذلك؟ نقول إن سؤاله كان عن الكيفية وليس سؤال ظن أو شك في قدرة الله تعالى. وكان الرد من الله تعالى يوافق ذلك السؤال ﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴾[٤]

وتبلغ اللهفة الى العطاء الإلهي درجة جعلت زكريا (عليه السلام) يستعجله ﴿ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴾[٥] أراد مـن ربّـه العلامـة على الحمل أو البشارة التي تثبته على واقع الأمر، وإدراكه أنها حقيقة واقعة لابد من حصولها، أعطاه الله تعالى تلك العلامة، وهي أن يعتريه سكت لا يستطيع الكلام أو النطق فيه ثلاثة أيام إلاّ الإشارة باليد، وهو سوي مكتمل الخلق والصحة، هكذا كان الدعاء وهكذا كان العطاء.

ونتوجّه الى أسلوب آخر من الخطاب وهو طلب البرهان أو الدليل على قدرة الله تعالى في أن يقول للشيء (كن) فيكون، فقد طلب الحواريون من النبي عيسى (عليه السلام) أن يدعو ربّه لينزّل عليهم مائدة من السماء ليأكلوا منها حقيقة بعد صيامهم، وتطمئن بذلك

---

(١) الانبياء ٨٩.
(٢) مريم ٧.
(٣) مريم ٨.
(٤) مريم ٩.
(٥) مريم ١٠.

قلوبهم الى أن الله تقبّل صيامهم، وتكون كافية لأولهم وآخرهم: ﴿ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[1]فوعظهم عيسى (عليه السلام) في ذلك، وخاف عليهم من أن لا يقوموا بشكرها، ولا يؤدوا حق شروطها، فأبوا عليه ألاّ أن يسأل ربّه في إنزالها: ﴿ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾[2]

طلب الحواريون المائدة برهاناً لمعرفة قدرة الله تعالى، وطلبها النبي معجزة (وآية منك) تدعو الى الإيمان الحق بالله تعالى، وتزيل الشك عن القلوب، وختم دعاءه بأفضل صفاته (خير الرازقين) رفقة بقومه أن يخاطب ربّه بهذا الرجاء الجميل، فجاء الجواب موافقاً للطلب، فطلب البرهان يستدعي شرطاً ملازماً له: ﴿ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[3]لأن طلب المعجزة بذاته يقتضي الإيمان الخالص بالله، وقضت حكمته أن ينزّل العذاب على من يكفر بعدها، وقد أنزل الله تعالى العذاب على أقوام من قبل، طلبوا المعجزات ولم يؤمنوا بعدها، فحقّ عليهم العذاب.

ويوم القيامة يقف النبي عيسى (عليه السلام) بين يدي الله تعالى، فيوجّه اليه سؤالاً عظيماً ترتجف له القلوب ﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾[4]فاهتزّ كيانه لثقل هذا القول على النفس، وبدا الذل أمام عظمة الله وجلاله، فنفى عن نفسه ادّعاء الألوهية، ومن الممكن أن يقول (لا لم أقل) وينتهي الأمر، ولكن أدبه مع ربّه دعاه الى القول (إن كنت قلته فقد علمته) فاستنصر بعلم الغيب عند ربّه، ومعرفته ما في النفوس، ويكفي لفظا (علاّم الغيوب) في دفع التهمة عنه، وأي تهمة والله تعالى يعلم أنه لم يقل ذلك، ولكنه الاستنطاق الذي لابد منه في ذلك الموقف الرهيب.

---

(١) المائدة ١١٢.
(٢) المائدة ١١٣.
(٣) المائدة ١١٥.
(٤) المائدة ١١٦.

ويستمر النبي عيسى (عليه السلام) في دفع التهمة عنه ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾[1]فاللفظ (أمرتني) يدل على الطاعة التامة لله تعالى، ويمثل أقصى العبودية في خطابه له، وإقراراً بثباته على التوحيد، وكذلك لفظا (أنت الرقيب) يغلقان كل شبهة عنه، فإنه يضع المسؤولية بعد أن توفّاه الله على الله، إذ لا حول ولا قوة لمن صار في عداد الأموات على الأحياء إلاّ الحي القيّوم، وكذلك لفظ (الشهيد) الذي يشهد على ما يقوم به البشر من خير وشر، إنه التسليم التام لإرادة الله، والانقياد لحكمه وحكمته كما يتضح في ختام ردّه: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾[2]إنه قول في منتهى الكمال، فقد وضع حكمهم بيد الله تعالى، فهو من جهة يترفق بهم إن أراد الله تعذيبهم، ومن جهة أخرى إن أراد الله أن يغفر لهم فهو أهل للمغفرة، ولم يقل (أنت الغفور) كما يتطلب سياق الكلام، بل قال (أنت العزيز الحكيم) إظهاراً لعزّة الله وعظمته في هذا اليوم.

وخطاب الله تعالى للنبي محمد (صلى الله عليه وسلم) في موقف العتاب يأخذ نمطاً آخر وأسلوباً يتسم بالترفّق بهذا النبي الذي أرسله رحمة للعالمين، ففي معركة بدر وقد انتصر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فيها على المشركين من قريش، فأسّر سبعين رجلاً منهم، فاستشار أصحابه في الأسرى، فأشار أبو بكر (رضي الله عنه) بأخذ الفدية، وأشار عمر (رضي الله عنه) بقتلهم، فقرر رسول الله الأخف وهو أخذ الفدية، فنزل قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[3]يبيّن الله تعالى إن الأساس في القتال ليس من أجل إيقاع أكبر عدد من الأسرى، ومن ثم طلب الفدية منهم، وطلب عرض الحياة الدنيا المادية وحطامها، لأن القتال أجل من ذلك الهدف، بل الإثخان في العدو وإضعافه وكسر شوكته، ولنتأمل ألفاظ هذا العتاب، فننظر في قوله (ما كان لنبي) ولم يقل (لمَ فعلت هذا) أو (ما كان لك أن تفعل هذا)، وكذلك قوله (تريدون) ولم يقل (تريد) لأن الله تعالى يعلم أنه ليس من صفات نبيه حب الدنيا ورغبته في عرضها المادي.

وفي خطاب آخر للنبي محمد (صلى الله عليه وسلم) نستشف فيه شيئاً من الشدّة والتذكير والموعظة، قوله تعالى: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ الْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ

---

(١) المائدة ١١٧.
(٢) المائدة ١١٨.
(٣) الانفال ٦٧.

﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴾.[1] المقصود بالأعمى ابن أم مكتوم جاء يسأل النبي عن علم يزداد به إيماناً، ويتطهر من دنس الجهل، فوجده منشغلاً عنه بدعوة كبار المشركين الى الإسلام، ولم يكن ذلك الانشغال مقصوداً به اللامبالاة، بل كان الدافع الى ذلك الحث على الدعوة ونشر الدين الحنيف. ولنتأمل إرادة الله تعالى في عتابه لنبيه قوله ﴿ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴾[2]فقد بدأ بلفظ (كلا) وفيه زجر ومنع أي لا تفعل مثل هذا، وإن هذه الآيات تذكرة لك وموعظة فاتعظ بها، فقد أراد لهذا النبي أن يكون يقظاً متنبهاً للأمور غير غافل عنها، ولعل ما يخفف من هذا الأسلوب قوله (عبس وتولى) جاء الفعلان الماضيان مسندان لضمير الغائب، ولم يقل (عبست وتوليت) لأنه تعالى يريد له التوجيه والإرشاد.

ب- خطاب المؤمنين:

خاطب الله تعالى المؤمنين بقوله (يا أيها الذين آمنوا) في آيات كثيرة، والناظر فيها يجدها تخاطب المؤمنين جماعة بالواو، ولم تخاطبهم أفراداً (يا أيها المؤمن)، لأن الخطاب الجماعي يوحي بوجود الترابط والصلة بين المؤمنين، والخطاب وإن كان موجّهاً للمؤمنين فإنه خطاب عام موجّه للمسلمين كافة، لأن القرآن الكريم يطلق هذا الوصف عادة عليهم.

ومن خلال تحليل الخطاب الموجّه للمؤمنين والمبثوث في القرآن الكريم نجده يرتكز على ثلاثة جوانب، الأول: يبحث في توجيه سلوك المؤمن نحو الكمال، والثاني: يبحث في فرض العبادات وأدائها، والثالث: يبحث في فرض الأحكام وتطبيقها. ويعتمد هذا الخطاب على ثلاثة أساليب وهي: الأمر، والنهي، وتضمين غير مباشر لهما.

الجانب الأول من الخطاب وهو يبحث في سلوك المؤمن وتوجيهه نحو الكمال، ولاسيما في تعامله مع ذاته والآخرين، فقد فرض الله تعالى على المؤمن الاستئذان في بيته، وهو نواة المجتمع، ليكون بعد ذلك أسلوباً شائعاً في المجتمع بعد ذلك. وهو أن يستأذن الأبناء البنون والبنات ومُلك اليمين (الإماء) في الدخول الى غرفة منام الأب والأم في ثلاثة أوقات، الأول قبل صلاة الفجر والثاني: بعد صلاة الظهر والثالث: بعد صلاة العشاء، وذلك لأنّ هذه الأوقات الثلاثة لم يستيقظ الرجل والمرأة بعد من نومهما، وقد تخففا من ثيابهما، والاستئذان هنا تنبيه للنائم حتى يشعر بنفسه فيستر بدنه، أما في غير هذه الأوقات حيث اليقظة والعمل فإن الأبناء والإماء يدخلون دون استئذان، لأنهما جزء من الأسرة، فلا ضير في حركتهما بين الآخرين.

قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُواْ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَـٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ

(١) عبس ١-١٠.
(٢) عبس ١١-١٢.

﴿ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾.[1]

فالألفاظ (ليستأذنكم، ملكت أيمانكم، الحلُم، تضعون ثيابكم، ثلاث عورات، جُناح، طوّافون) تحدد كيفية تعامل المؤمن مع أسرته، فلام الأمر في ليستأذنكم أمر إلهي نافذ الطاعة، فلا يتعدّاه ولا يتباطأ في تنفيذه، لأنه توجيه نحو الصواب والتهذيب، ويشمل التنفيذ ما ملكت الأيمان، جمع يمين وهم الإماء الذين يشترونهم في ذلك الزمان، ويكونوا جزءاً من الأسرة، فحالهم مثل من لم يبلغ الحلم أو مرحلة البلوغ من البنين والبنات في تلك الأسرة، والاستئذان هو طلب الدخول ثلاث مرّات في اليوم أو ثلاثة أوقات، لأن المرأة والرجل يضعون أو يخلعون ثياب الستر عنهما فتنكشف عورة البدن في تلك الأوقات، وبين تلك الأوقات لا جناح أو لا مانع من الدخول أو الاختلاط بهما، فيكون الأبناء طوّافين أو متنقلين من مكان الى آخر.

والخطاب الثاني من الجانب الأول يبحث في سلوك المؤمن أيضاً، وبأسلوب النهي عما يشين شخصيته وتوجهها نحو الكمال، فقد نهى الله تعالى عن الخيانة في الأمانة، والإصرار عليها حتى بعد علمه أن هذا العمل يتعدى حدود الله التي فرضها على الناس جميعاً، وهو أولى بهذا النهي والمنع، فالمؤمن صورة جميلة يحاكيها الآخرون، ولنتأمل قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[2]

بدأ الخطاب بأسلوب النداء للمؤمنين ونحن نعلم أنه يتعدّى الى المسلمين أيضاً، ثم يليه أسلوب النهي: لا تخونوا (الله) قال بعض العلماء أي لا تعطلوا فرائضه، ولا تتجاوزوا حدوده التي فرضها عليكم. ولا تخونوا (الرسول) أي لا ترفضوا سنّته، ولا تفشوا سرّه الى المشركين ولا تخونوا (أماناتكم) الأمانات كثيرة، ومنها: أمانة التبليغ وهي أن الله تعالى قد كلّف الرسول (صلى الله عليه وسلم) أن يبلّغ رسالته الى الناس كافة، وأن يؤدي تلك الأمانة على أحسن وجه. قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾[3]فتحمّل الأذى والمشقة والهجرة والحرمان في سبيل تبليغها.

ومن الأمانات أداء العبادات والقيام بالعمل الصالح، وقد كلف بها المؤمن من خلال القرآن الكريم والرسول الصادق الأمين، وأعطاه منهجاً قويماً يتقرّب به الى الله، ويكون سعيداً في الدنيا والآخرة. وأمانة العلم وعلى العالم أن يبلغه الى جميع الناس، فلا يمكن حبس العلم في الصدور، وقد نهى الله تعالى عن ذلك، ووصف الذين يبلغون رسالاته

---

(١) النور ٥٨.
(٢) الانفال ٢٧.
(٣) المائدة ٦٧.

بالأمناء: ﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ﴾[1]ومن الأمانات أمانة الحكم والسلطة، وأمانة العمل والواجب والنصيحة وغيرها.

والجانب الثاني من الخطاب ويبحث في فرض العبادات وكيفية أدائها، ومن هذه العبادات الصلاة، فقد أمر الله بإقامتها لكونها عماد الدين، متى استقامت استقام ما سواها، وإن أداء الصلاة في أوقاتها يحتاج الى الاستعانة بالصبر، فقد أودع الله تعالى في الإنسان طبعاً وتكليفا، ومن حكمة الله أن الطبع يخالف التكليف، فالطبع يدعو الى الراحة والاسترخاء، والتكليف يدعو الى النشاط والحركة، من وضوء وركوع وسجود لأداء الصلاة، والطبع يدعو الى الشهوات الدنيوية، والتكليف يدعو الى تركها. قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْۤ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾[2]

فالألفاظ (اركعوا، واسجدوا، واعبدوا، وافعلوا الخير) جملة أوامر موجّهة الى المؤمنين بدلالة واو الجماعة، فأسلوب الأمر هنا في اللفظين (اركعوا واسجدوا) وهما يعنيان الصلاة، فالله تعالى لا يريد من المؤمن أن يؤدي الصلاة لفظاً أي الدعاء، بل يريد الصلاة المؤداة من الركوع والسجود ويدخل فيها الدعاء، ثم يليهما لفظ الأمر (واعبدوا) والعبادة أوسع من الصلاة وأعم، إذ تدخل فيها أركان الإسلام جميعاً أي الصلاة والزكاة والصوم والحج وغيرها، ثم يليها (وافعلوا الخير) وهو أوسع مما سبق، ويريد الإحسان الى الناس، وحسن المعاملة، وصلة الرحم، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

والجانب الثالث من الخطاب يبحث في فرض الأحكام وكيفية تطبيقها، وبأسلوب غير مباشر يتضمّن معنى الأمر في لفظي (كُتب عليكم) أي أصبح مكتوباً على المكلّفين لا تراجع عنه، فمثلاً في حكم القصاص في القتل، واتخاذ سبيل العدل وهو أن يقتل القاتل. كما في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾[3]

فالألفاظ (كُتب عليكم، القِصاص، الحر بالحر، والعبد بالعبد، والأنثى بالأنثى، حياة) تدل على فرض أمر كُتب على المؤمنين ولا يمكن محوه، وأصبح نافذاً، وهو القِصاص أو معاقبة الجاني لقيامه بالقتل فيقتل، ولا يُقتل أحد غيره، أي لا يقتل العبد بدلاً من الحر، ولا تقتل المرأة بدلاً من الرجل، بل الحر بالحر، والعبد بالعبد، والأنثى بالأنثى. هكذا يكون العدل. ويمكن لأهل المجني عليه أن يعفون عن الجاني أو التخفيف من عقوبته إتباعاً بالمعروف، وذلك رحمة من الله بعباده، ومن أعاد العدوان فلا عفو عنه أبداً ،لأن القِصاص

---

(١) الاحزاب ٣٩.
(٢) الحج ٧٧.
(٣) البقرة ١٧٨-١٧٩.

أو العقوبة هنا حياة للآخرين، فهي تردع الجاني عن جنايته، وتوفر سبل الحياة للناس، وتبعث فيهم الإحساس بالأمان لوجود القصاص العادل.

ج- خطاب الكفار والمشركين:

لا يخاطب الله تعالى الكافرين والمشركين، ولا يكلمهم في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وذلك لأنهم كفروا به، وجعلوا له شركاء يعبدونهم أو يتقرّبون بهم اليه، وكان الخطاب الموجّه اليهم غير مباشر، ومن خلال تحليل هذا الخطاب وجدناه يعتمد على أساليب ثلاثة، الأول: يخاطب الكافرين من خلال رسوله الكريم ويبدأ خطابه بفعل الأمر (قل)، والثاني: يخاطب الكافرين بنائب الفاعل للفعل الماضي المبني للمجهول (قيل) بحيث ينوب عن الفاعل نائبه، والثالث: يخاطب الكافرين من خلال نقل القول حكاية عنهم (قالوا، سيقولون).

النوع الأول وهو الخطاب الموجّه للكافرين من خلال الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) لينقل اليهم خطاب الله تعالى في تعنيفهم، وذلك باستخدام أسلوب الاستفهام الذي يقودهم الى تحكيم العقل للوصول الى الحقيقة. قال تعالى: ﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً ۖ قُلِ اللَّهُ ۖ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّا أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾.(١)

فالناظر الى الألفاظ (شهادة، شهيد، لتشهدون، لا أشهد، لأنذركم، بريء) يجدها تؤكد الشهادة، وهي أن شهادة الله تعالى عليهم وهو خالقهم أنهم أشركوا به لا تعدلها شهادة أخرى، وأن شهادة النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) الذي أنزل عليه القرآن لينذرهم به يشهد عليهم ولا يشهد لهم بأن آلهتهم حق، وهو بريء من ذلك الشرك العظيم.

ومن هذا الخطاب الموجّه للكافرين أيضاً من خلال الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) ويعتمد على أسلوب الاستفهام الذي يقود الى أجوبة منطقية تتعلق بقدرة الآلهة الأصنام على الخلق وإعادته بعد الموت، ومقدرتهم على التوجيه والهداية، والجواب المنطقي أنهم لا يقدرون على ذلك، وإن القادر على ذلك هو الله تعالى، وهو أحق بالعبادة والإتباع. قال تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ۚ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ ۚ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّي إِلَّا أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾.(٢)

فالألفاظ (شركاؤكم، يبدأ الخلق، يعيده، تؤفكون، يهدي، لا يهدي، يُهدى، يتبع، تؤفكون) نجدها استخدمت في استفهام منطقي وهو أن هؤلاء الشركاء لله تعالى عما يصفون هل يقدرون على الخلق والإعادة؟ الجواب لا، إنّ الله وحده هو القادر على ذلك. والاستفهام

(١) الانعام ١٩.

(٢) يونس ٣٤-٣٥.

الآخر وهو هل هؤلاء الشركاء قادرون على الهداية والإرشاد؟ الجواب لا. إنّ الله وحده القادر على ذلك، وهو أحق بالإتباع.

والنوع الثاني من الخطاب الموجّه للكافرين بحيث يكون الفعل (قيل) مبني للمجهول، وينوب عن الفاعل نائبه، وهو أسلوب غير مباشر في الخطاب بين الله تعالى وبين الكافرين، ويأتيهم الأمر بإتباع ما أنزل في كتابه الكريم وهو ترك عبادة الأصنام والأوثان، وعبادة الله الواحد القهّار. قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾(١) وقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾(٢) وقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾(٣)

تدل الألفاظ (اتبعوا، نتبع، ما ألفينا، ما وجدنا، لا يعقلون، لا يعلمون، لا يهتدون) على أن هؤلاء الكفار رفضوا الدعوة الى ما أنزل الله تعالى على رسوله (صلى الله عليه وسلم) وهي توحيد الله ونبذ الشرك به، وكان جوابهم أنهم يتبعون ما وجدوا عليه آباءهم من تقديس الأصنام والأوثان، وتقديم القرابين لها، واتخاذها وسيلة تقرّبهم الى الله زلفى، وهم بهذا الفعل لا يعقلون أن هذه الأحجار لا تنفع ولا تضر، وأنها لا تستطيع أن تدفع الضر عن نفسها، وأنهم لا يهتدون الى أن الشيطان يدعوهم الى البقاء على عبادتها، وعدم الإصغاء الى ما يقال عن توحيد الله تعالى وتركها.

ومما ورد على هذا النوع من الخطاب وهو أن هؤلاء الكفار اتخذوا أسلوب الإنكار والتجاهل وسيلة للتخلص من الدعوة الى الإيمان بالله، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴾(٤) وقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴾(٥)

الألفاظ (اسجدوا، الرحمن، نفور، وعد الله، الساعة، نظن، مستيقنين) تبيّن أسس الخلاف بين الإيمان والشرك وأولها السجود لله تعالى ويعني الإيمان بوحدانية الله وربوبيته بالعبادة ومنها السجود، والرحمن من أسماء الله التي لم يعرفها المشركون فأنكروها،

---

(١) البقرة ١٧٠.
(٢) المائدة ١٠٤.
(٣) لقمان٢١.
(٤) الفرقان ٦٠.
(٥) الجاثية ٣٢.

والأساس الثاني وهو الحياة الآخرة وما فيها من قيام الساعة وقد أخفى الله موعدها، فأبدوا شكاً أن هذا الأمر قد لا يحدث، ولهم ظنون لا يصلون فيها الى يقين.

والنوع الثالث من الخطاب وهو نقل خطاب الكافرين (قالوا، سيقولون) حكاية عنهم والرد عليه وتفنيده أو ردّه الى الصواب، ومن هذه الافتراءات ادّعاء الكفار إن ما جاء به القرآن الكريم افتراء وكذب. قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَۖ فَقَدۡ جَآءُو ظُلۡمٗا وَزُورٗا ۝٤ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ﴾.[(١)] وقوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾[(٢)] فالألفاظ (إفك، افتراه، زوراً، أساطير، اكتتبها، تُملى عليه، سحر) تدل على الخطأ الذي وقع فيه الكافرون، وهو إدعاؤهم أن القرآن الكريم كلام ألّفه محمد (صلى الله عليه وسلم) من قصص وحكايات قديمة نسبها الى الله تعالى، وقد أعانه عليها قوم آخرون، لعلهم يريدون أهل الكتاب، أو الجن أملت عليه مثلما تملي على الشعراء في وقتي الفجر والمغرب، وهما وقت صفاء النفس أو السريرة، ولما أفحمهم القرآن وأعجزهم قالوا هذا سحر مؤثر لذا لا نؤمن به.

وبعد أن عجز الكافرون عن تفنيد القرآن الكريم، وتعجيز الرسول (صلى الله عليه وسلم) عن أداء رسالته، طالبوا بالمعجزات الحسية التي تراها أعينهم، وتسمعها آذانهم، مثلما أنزلت على الرسل من قبل، حتى يصدّقوا ويؤمنوا بما جاء، ولم يكتفوا بالقرآن الكريم وهو وحده معجزة. قال تعالى: ﴿ وَإِذَا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ قَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ حَتَّىٰ نُؤۡتَىٰ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِۘ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا كَانُواْ يَمۡكُرُونَ ﴾[(٣)]

وإذا لم ينزّل الله تعالى كما يطلب الكافرون لأن إرادته العليّة تقدّر ذاك النزول وليست إرادتهم أو حسب طلبهم، فإنهم يتوجهون الى النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) ويشيرون عليه اختلاق المعجزة أو تزويرها (وحاشاه) ومن ثم ينسبها لله تعالى، وكأن تلك الإشارة من الكافرين فيها اتهام للرسول الصادق الأمين الذي يتبع ما يوحى اليه من ربه. قال تعالى: ﴿ وَإِذَا لَمۡ تَأۡتِهِم بِـَٔايَةٖ قَالُواْ لَوۡلَا ٱجۡتَبَيۡتَهَاۚ قُلۡ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّيۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴾[(٤)]

وبيّن الله تعالى ما في هذا القرآن الكريم من أمثال تكشف عن غامض المعاني، فلم يرضوا بذلك جحوداً للحق، وطالبوا بمعجزات حسيّة حتى يؤمنوا، وذكروا بعض هذه

---

(١) الفرقان ٤-٥.
(٢) الزخرف ٣٠.
(٣) الانعام ١٢٤.
(٤) الاعراف ٢٠٣.

المعجزات الخارقة تعجيزاً أو تعللاً لامتناعهم عن الإيمان. قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴾.[١]

وقد برزت بعض الألفاظ مثل (نُؤتى، أوتي، اجتبيتها، صرّفنا، أبى، تفجّر ينبوعا، جنة ،تفجّر الأنهار، تسقط السماء كسفا، تأتي بالله والملائكة، قبيلا) وهي تخبرنا عن إصرار هؤلاء الكفار على كفرهم، ولو تحققت هذه المعجزات لهم، أي جاءهم الرسول (صلى الله عليه وسلم) بجميع معجزات الرسل السابقين، وفجّر ينبوعاً في الأرض بإذن الله، أو شقّ بإصبعه نهراً في جنة، أو طلب أن يسقط الله عليهم من السماء قطعاً يرونها بأعينهم، أو طلب إنزال الملائكة ليرونهم، فلا يؤمنوا بعدها، إذ سيقولون إن هذا كله من السحر الذي يغشي الأبصار.

د- خطاب المنافقين:

لا يختلف الخطاب الموجّه للمنافقين عن الخطاب الموجّه للكافرين، وهو خطاب غير مباشر يبيّن أن الله تعالى لا يريد أن يكلمهم، لأنهم أظهروا الإسلام رياء وأضمروا الكفر نفاقاً، ويعتمد الخطاب على ثلاثة أساليب أيضاً، الأول: يخاطب المنافقين من خلال الرسول الكريم(صلى الله عليه وسلم) بفعل الأمر (قل)، والثاني: يخاطبهم بنائب الفاعل للفعل الماضي المبني للمجهول (قيل) فينوب عن الفاعل نائبه، والثالث: يخاطبهم من خلال نقل أقوالهم (قالوا، سيقولون) وهي أقوال وأفعال لا يرضى الله تعالى عنها، وتتضمن الكذب والخيانة والمكر والفساد.

ومن علامات المنافق أن يكون له ظاهر يخالف باطنه، أو كما يقال له وجهان مختلفان، ليخفي حقده على الإسلام والمسلمين، والله تعالى يعلم ما يخفون وما يعلنون، فجاء الخطاب اليهم من خلال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): ﴿ قُلْ إِن تُخْفُواْ مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾.[٢]

ويأتي التحذير للمؤمنين من هذه الجماعة المنافقة في عدم اتخاذ خواص للصحبة منها يستنبطون الأمور من خلال الثقة بمودّتهم، ومن الإفضاء بالأسرار اليهم، فيعطونها للمشركين، ويسعون لبث الفساد في الدين بطرق شتى، فتبدو البغضاء والحسد على وجوههم، وما يخفون في صدورهم أعظم، ويقابل بعض المؤمنين ذلك الحقد والبغضاء بالحب والمودّة، وإذا لقي المنافقون المؤمنين أظهروا الإيمان، وإذا خلوا مع أنفسهم أبدوا

---

(١) الاسراء ٨٩-٩٢.
(٢) آل عمران ٢٩.

حقداً دفيناً بحيث يعضّون على أصابعهم من شدّة الغيظ وهم لا يشعرون. قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمۡ لَا يَأۡلُونَكُمۡ خَبَالٗا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمۡ قَدۡ بَدَتِ ٱلۡبَغۡضَآءُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَمَا تُخۡفِي صُدُورُهُمۡ أَكۡبَرُۚ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَٰٓأَنتُمۡ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمۡ وَلَا يُحِبُّونَكُمۡ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ عَضُّواْ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَنَامِلَ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۚ قُلۡ مُوتُواْ بِغَيۡظِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾(١)

في الألفاظ (تخفوا، تبدوه، بطانة، لا يألونكم، خبالا، ما عنتم، البغضاء، عض الأنامل) نتبيّن نوايا المنافقين التي تقوم على إظهار مودّة زائفة ترضي الآخرين، وإخفاء بغض وحسد يخشون إظهاره، ولذا فإن اتخاذ بطانة منهم، أي جماعة تكون أقرب الى النفس غير ممكن، لأنهم لا ينفكّوا في إفساد الدين وهدمه بأفكار تناقضه، وكان أشد ما يحبون أن يجدوا المسلمين يقعون في مشقة ومصاعب جمّة، ولعل عض الأنامل كناية تعبّر عن شدّة الغيرة والبغضاء في قلوبهم.

ومن الخطاب الموجّه للمنافقين عن طريق الرسول (صلى الله عليه وسلم) ما يبيّن أن أعمال المنافقين التي تبدو في الظاهر أنها خير تتحول الى هباء منثور، لأن الله تعالى لن يتقبلها ما دامت قد وضعت في نيّة ليست لله، ومن هذه الأعمال الصلاة والزكاة، وإزاء هذا فإن ما يملكون من أموال وأولاد يصبحون عبئاً عليهم. قال تعالى: ﴿ قُلۡ أَنفِقُواْ طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمۡ إِنَّكُمۡ كُنتُمۡ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمۡ أَن تُقۡبَلَ مِنۡهُمۡ نَفَقَٰتُهُمۡ إِلَّآ أَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأۡتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمۡ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمۡ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾ فَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُمۡۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ﴾.(٢)

تكشف الألفاظ (أنفقوا، طوعاً، كرهاً، لن يتقبل، فاسقين، كسالى، كارهون، لا تعجبك، ليعذبهم، وتزهق) عن سلوك المنافقين داخل المجتمع الإسلامي، وهو سلوك مزدوج يحمّل النفس ما لا تطيقه، فتبحث عن أية فرصة لتعلن عن عدائها للمسلمين والوقوف مع المشركين، لذا كانت أعمالهم لا تثبت في صفحة الجزاء بل تتحول الى غبار متطاير، لأن أهم علامة تميز المسلم عن غيره الحفاظ على الصلاة، وهم يأتون اليها متثاقلين، ولا تكون نفقتهم إلاّ بعد إكراه، وعند النظر الى ذلك الإنفاق سنجده قد استحصل من مال لا يعجب

---

(١) آل عمران ١١٨-١١٩.
(٢) التوبة ٥٣-٥٥.

الناظر فيه، فقد اختلط فيه الحلال والحرام، وأما أولادهم فهم صورة ثانية عن آبائهم، مما يشكل ذلك عبئاً عليهم، يعذبهم في حياتهم الدنيا، وينتهي بهم الى الممات وهم كافرون.

والأسلوب الثاني في الخطاب غير المباشر الموجّه للمنافقين من خلال نائب الفاعل، ويتضح ذلك في دعوة المنافقين الى الإيمان بالله تعالى مثل الناس الآخرين من حولهم، فكان ردّهم أنهم لا يؤمنون مثل هؤلاء الذين يحملون في عقولهم الطيش والخفّة وعدم التثبت. قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴾.[1]

ونتبيّن في هذا النوع من أسلوب الخطاب أيضاً إعراض المنافقين وصدودهم عما أنزل الله من الآيات، وابتعادهم عن سنّة رسوله (صلى الله عليه وسلم) فإذا أصابتهم مصيبة كشفت عن بعض نفاقهم جاؤوا يعتذرون ويحلفون بالله ما أرادوا إلاّ الإصلاح، والله تعالى يعلم حقيقتهم. قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴾[2]

وتعبر الألفاظ (السفهاء، يصدّون، صدودا، يحلفون، أعرض، وعظهم) عن مقدار تمسك المنافقين بالكفر من خلال نظرتهم الى المسلمين بأنهم سفهاء في اختيارهم الإيمان على الكفر، وفي صدودهم عن توجيهات النبي (صلى الله عليه وسلم) فإنها لا تعنيهم، وإذا أصابتهم فضيحة كشفت نفاقهم جاؤوا الى النبي يعتذرون منه، ويحلفون بالله كذباً أنهم أرادوا الخير والصلاح، فجاء الأمر بالإعراض عنهم، وموعظتهم لعلها تصل الى أعماق قلوبهم فتهديهم.

والأسلوب الثالث يقوم على نقل خطاب المنافقين بقصد الإخبار عن مواقفهم المتردية، وكشف كذبهم ونفاقهم. قال تعالى: ﴿ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴾.[3]وينقل القرآن الكريم أيضاً خطاب المنافقين في محاولة للسخرية من المؤمنين في تراصهم لمواجهة كفار قريش في معركة

---

(١) البقرة ١٣.
(٢) النساء ٦١-٦٣.
(٣) المنافقون ١.

بدر. قوله تعالى: ﴿ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾(١)

فالألفاظ (نشهد، يشهد، لكاذبون، مرض، غرّ، يتوكّل) تدل على أن شهادة هؤلاء المنافقين لم تنبع من قلوبهم، وإنما خرجت من أفواههم، وهي شهادة باطلة لم تكن عن إيمان أو يقين، وإن كان قولهم ظاهراً يحمل الصدق، فقد كذبه الله تعالى بشهادته أنهم كاذبون. ونظرتهم الى المؤمنين تدل على غيرة وحسد، فتصميمهم على مواجهة عدوّهم لا يدل على اغترار بدين، ولا إصابتهم بالكبر يوهمهم بالنصر، وإنما التوكّل على الله في الدفاع عن دينه خير معين.

هـ- خطاب أهل الكتاب:

يتحدد خطاب الله تعالى الموجّه لأهل الكتاب ويقصد بهم اليهود والنصارى بأسلوبين:

الأول: خطاب مباشر يبدأ بأداة النداء (يا أهل الكتاب) وأسلوب هذا الخطاب يتسم بالعتاب مرّة والتقريع الشديد مرّة أخرى، ويتضمن استفهاماً يراد منه جواب يكشف انحرافهم عن الصواب، واختيارهم طريق اللبس والتمويه، ففي سورة آل عمران نتبيّن معالم العتاب من خلال الاستفهام الذي تنقصه الأجوبة المنطقية عن الكفر بآيات الله ورسوله محمد (صلى الله عليه وسلم) وهم يعلمون أنها وردت في التوراة والإنجيل، وعن خلطهم الحق بالباطل. قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾.(٢) فالألفاظ (تشهدون، تلبسون، وتكتمون، تعلمون) تدل على إصرار أهل الكتاب على كفرهم وضلالهم، وقد شهدوا الحق بمجيء النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) كما وردت في التوراة والإنجيل، ونزول القرآن الكريم، فأخذوا يخلطون الحق بالباطل ليضيع على الناس، ويكتمونه حتى لا يهتدون.

وفي هذا الأسلوب أي الخطاب المباشر نجده يكشف عن انحراف آخر وجد لدى النصارى وهو الغلو في الدين الذي يؤدي الى تجاوز الحد الطبيعي والخروج عليه، ولاسيما قولهم إن المسيح ابن الله (وحاشاه) وينبغي أن لا يقولوا إلاّ الحق، وهو أن المسيح (عليه السلام) بشر خلق بكلمة من الله (كن) وروح منه من أم بلا أب، فأمرهم تعالى الإيمان بوحدانية الله تعالى، ونهاهم عن القول بالتثليث. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ

---

(١) الانفال ٤٩.
(٢) آل عمران ٧٠-٧١.

مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَـَٔامِنُوا بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَا تَقُولُوا ثَلَٰثَةٌ ٱنتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾.(1)

والألفاظ (لا تغلو، وكلمته، وروح، ثلاثة) تدل على نهي صارم من الله تعالى للنصارى، وهو أن لا يتجاوزوا حدود الله في مسألة وصف المسيح (عليه السلام) بأنه ابن الله، وينبغي عليهم قول الحق، وهو أنه بشر خلقه بكلمة منه (كن) ونفث فيه من روحه، كما نفث في آدم (عليه السلام) من روحه، والفارق أن آدم بلا أب وأم، وعيسى (عليه السلام) بلا أب ولكن له أم، فكيف يعتقدون بالتثليث، والله تعالى أحد صمد لم يلد ولم يولد.

وقد يتخفف أسلوب الخطاب الموجّه لأهل الكتاب من التقريع الى الإرشاد والهداية، فقد أخبرهم الله تعالى بمجيء رسوله محمد (صلى الله عليه وسلم) اليهم ليبيّن لهم حقائق الدين، ويبشرهم بنعيم الجنة، وينذرهم من عذاب الجحيم، ونزل عليه القرآن الكريم ليكشف عن كثير مما كانوا يخفونه من كتابهم من الحلال والحرام. قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا عَن كَثِيرٍ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴾(2)وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُوا مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾(3)

فالألفاظ (رسولنا، يبيّن، ويعفو، على فترة، بشير، ونذير) تبيّن حرص المولى عزّ وجل على إيصال رسالته الى أهل الكتاب، ولعل أجمل لفظ سمعته قوله (رسولنا) فكان ذلك أقرب ما يكون بين الله ورسوله أن ينسبه اليه، وكأنما ضمّه اليه ضمّاً ثم أرسله الى الناس ليوضح لهم الدين الصحيح، ويلغي ما علق به من شوائب، فكان إرساله في فترة أحوج ما يكون اليه الناس، وهي فترة انقطاع الرسل، فجاء يبشرهم بنعيم الجنة، وينذرهم من عذاب النار.

والثاني: خطاب غير مباشر يوجّه عن طريق الرسول (صلى الله عليه وسلم) الى أهل الكتاب ،ويبدأ بالفعل (قل يا أهل الكتاب) فقد تناول الخطاب المعاني التي وردت في الخطاب المباشر نفسها وأكدها، مما يدل على حرص الخالق على تثبيت الحق ومحو الباطل والانحراف لديهم، فقد طلب من النبي أن يسألهم عن كفرهم بالآيات التي نزلت عليه، ولماذا يقفون بين الناس وبين الإيمان بالله ورسوله. قال تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ

---

(١) المائدة ١٧١.
(٢) المائدة ١٥.
(٣) المائدة ١٩.

ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾.(١)

وفي هذا الخطاب المباشر نجده يبحث في مسألة غلو النصارى في الدين، يزيدون عليه ويتجاوزون الحد وهو الحق والصواب، وأن لا يتبعوا أهواء رؤسائهم، وشهوات كبارهم الذين ضلّوا عن دينهم الصحيح قبل بعثة النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) ثم أضلوا كثيراً من بعدهم بعد بعثته، فأضاعوا عليهم الطريق المستقيم لهذا الدين، وتركوهم يتخبطون في متاهات الضلال. قال تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴾.(٢)

وفي أسلوب الخطاب نفسه يوجّه الله تعالى نبيه (صلى الله عليه وسلم) الى أن يسألهم عن إنكارهم على المسلمين الإسلام، وكراهيتهم لأنهم آمنوا بالله وبما أنزل على رسوله، وإيمانهم بالرسل والأنبياء السابقين، وما أنزل عليهم من الكتب السماوية، وموقفهم هذا إزاء الإسلام يدل على فسقهم وخروجهم من صفة المؤمنين. قال تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴾(٣)

و- خطاب سائر الخلق:

يتسم الخطاب الإلهي لمخلوقات الله تعالى من حيوان، ونبات، وجماد باعتماده أسلوب الأمر النافذ لهذه المخلوقات الذي تعقبه طاعة خالصة ليس فيها تردد أو تأخير. وقد خلق السماوات والأرض، فجعل في الأرض جبال ثوابت تمنع اضطرابها، وكثّر خيرها ومنافعها، وقدّر أرزاق أهلها، ويتجلى خطابه في توجّه إرادته الى السماء وهي في مرحلة الغازات والأبخرة ولم تتماسك بعد فقال لها وللأرض أن يفعلا ما أمرهما في التهيؤ للانتفاع، وخيّرهما في أداء الأمر وتنفيذه طوعاً أو جبراً، فكانت سرعة استجابتهما طوعاً دلالة على الطاعة الخالصة لأمر الخالق. قال تعالى: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾(٤)

فالألفاظ (استوى، دخان، ائتيا، طوعاً، كرهاً، طائعين) تدل على أن استواء الله تعالى الى السماء معلوم، والكيفية غير معلومة، والسماء دخان أي في طور التكوين من غازات

---

(١) آل عمران ٩٨-٩٩.
(٢) المائدة ٧٧.
(٣) المائدة ٥٩.
(٤) فصلت ١١.

وأبخرة لم تتكثف بعد، ولم تتكتل فتصبح أجراماً ونجوماً وكواكب، وجاء أمر الله تعالى لها وللأرض أن يتكوّنا طواعية بذاتهما أم قسراً، أجابتا بالإطاعة لأمر الله وإرادته.

ونتبيّن من الخطاب الإلهي أيضاً الاستجابة التامة من الأرض والسماء للأمر الإلهي في طوفان النبي نوح (عليه السلام) فقد دعا قومه الى عبادة الله الواحد، ونبذ عبادة الأصنام والأوثان، وكان يدعوهم ليلاً ونهاراً، سرّاً وجهاراً، بالترغيب مرّة وبالترهيب مرّات، فلم ينجح فيهم بل استمرّوا على الضلالة والطغيان، فجاءه الوحي أن يصنع الفلك ويحمل فيها من آمن ومن كل زوجين اثنين من الحيوان، وكان الطوفان ففتحت أبواب السماء بماء مطر منهمر ينزل الى الأرض، وانفجرت الأرض عيوناً من الماء أغرق الكافرين، وجرت السفينة بين الموج، وجاء الخطاب الإلهي: ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾(1)

فالألفاظ (يا أرض ابلعي، ويا سماء أقلعي، وغيض الماء، وقضي الأمر) فالأرض قادرة على ابتلاع الماء إذ يتسرّب الى مداخلها، والسماء قادرة على إزاحة السحب فتتكشف ويتوقف المطر، فامتثلتا لأمر الله فانخفض مستوى الماء، وبرزت الأرض اليابسة، وانتهى الأمر باستقرار السفينة على جبل الجودي، وانتهت مهمة الطوفان بالقضاء على الكفر والفساد.

وهذه النار إحدى عناصر الطبيعة تستجيب للأمر الإلهي في الخطاب الموجّه لها، فتتحوّل من عنصر حار حارق الى عنصر بارد غير مؤذ كما حدث للنبي إبراهيم (عليه السلام) حين دعا قومه الى عبادة الله الواحد ونبذ عبادة الأصنام، وقد انهال عليها بفأسه، وبيّن لهم أنها لا تنفع ولا تضر، فأجمعوا أمرهم على إلقائه في النار، فجاء الخطاب الإلهي: ﴿ قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ۝٦٨ قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ۝٦٩ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَخۡسَرِينَ ﴾.(2)

فالألفاظ (حرّقوه، وانصروا، يا نار كوني، برداً، وسلاماً، كيداً، الأخسرين) تدل على موقفين، الأول: موقف الكافرين الذين صمّوا آذانهم عن نداء إبراهيم (عليه السلام) ودعوته الى عبادة الله تعالى ونبذ عبادة الأصنام، فكان ردّهم أمراً بحرقه في النار، والموقف الثاني: الإرادة الإلهية في إحداث معجزة إيقاف ناموس النار عن طبيعتها في الإحراق، فتصبح بعد قول (كوني) باردة لا تحرق، ليرى الكفار بأعينهم معجزة النار الباردة.

ويوجّه الله تعالى خطابه الى الجبال والطير أن تردد مع النبي داود (عليه السلام) في تسبيحه مترنماً في وقتي العشاء الفجر، فتشكل الجبال ومجاميع الطير جوقة موسيقية، فيمتلئ الفضاء والوديان وسفوح الجبال بأصوات التسبيح لله تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضۡلٗاۖ

---

(1) هود ٤٤.

(2) الانبياء ٦٨-٧٠.

يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴾[1]وقولـه تعـالى: ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾[2]وقولـه تعـالى: ﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾.[3]

وتدل الألفاظ (يا جبال أوّبي، والطير، العشي، والإشراق) على طاعة الجبال والطير لأمر الله تعالى في ترجيعها بعد النبي داود (عليه السلام)، فقد أعطي من حسن الصوت ما لم يعط أحد قط، حتى إذا ترنّم بقراءة الزبور تردد الجبال بعده، وتحجل الطير كهيئة الرقص مرددة بأصوات بعده أيضاً، وكأن الكون كله يردد معه بانسجام وتناغم في القراءة والتسبيح.

وسخّر الله تعالى للنبي سليمان (عليه السلام) جنوداً من الجن والإنس والطير فشكلت قوة عظيمة في مملكته، فالجن والإنس تسير معه على هيأة موكب عظيم من الفرسان والخيل، والطير تظلّه بأجنحتها من الشمس، وعلى كل نوع منهم نقباء ينظمون حركتهم وتقدمهم. قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾[4]

وقد فهم النبي سليمان (عليه السلام) خطاب النملة بلغتها لقومها وما فيه من الرأي السديد، فتبسم من ذلك على وجه الاستبشار والسرور بما أطلعه الله تعالى عليه دون غيره، وليس كما يقول بعض الناس: إن الحيوان كان يكلم الإنسان فيما مضى، فأين المزية والفضل هنا في فهم النبي لها إذا كان الناس يفهمونها؟ ولكن الله تعالى جعل ذلك خصيصة له، ولذلك فهم قولها (أدخلوا مساكنكم لا يحطمنكم) والتحطيم أي التكسير للشيء الصلب واليابس، والنملة مخلوقة من مادة صلبة يمكن أن تتحطم وتتكسّر إذا داس عليها بخيله وأرجل جنده، وهم (لا يشعرون) أي لا يعلمون بوجودهم، فقال ربّ (أوزعني)أي ألهمني وأرشدني الى أن أشكر نعمتك.

وفي إحدى جولات النبي سليمان (عليه السلام) تفقّد أصناف جنوده حتى وصل الى صنف الطير فلم يجد الهدهد بينهم، وكانت وظيفته كما يذكر أن الجند إذا أعوزهم الماء في حال الأسفار يؤتى بالهدهد فينظر لهم، وقد أودع الله تعالى فيه قوة الإبصار فيدلهم عليه، ولمّا غاب الهدهد توعّده بنوع من العذاب الشديد، أو يذبحه أو يأتي بحجة تنجيه من هذه الورطة، ولم تدم غيبة الهدهد طويلاً حتّى قدم يحمل خبراً عن قوم سبأ في اليمن لم يطلع

---

(١) سبأ ١٠.
(٢) الانبياء ٧٩.
(٣) ص ١٧-١٩.
(٤) النمل ١٨-١٩.

عليه النبي سليمان (عليه السلام) واطلع عليه هذا الطائر الصغير، وجد هؤلاء القوم تملكهم امرأة ذات إرادة قوية، ولها سلطان ونفوذ كبير، يتجلى في مجلسها الاستشاري وعرشها العظيم، وإزاء هذه العظمة والأبهة لم تستتر عقولهم إذ كانوا يعبدون الشمس من دون الله، وزيّن لهم الشيطان تلك العبادة، وصدّهم سواء السبيل، ولم تنفع الهدهد غرابة خطابه، بل أراد النبي سليمان (عليه السلام) أن يعرف صدقه من كذبه، فجعله رسولاً يحمل كتاباً اليهم ليعرف جوابهم، وصدق الهدهد فيهم. قال تعالى: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾.[1]

فالألفاظ (أحطت، وجئتك بنبأ، وجدت، وجدتها، الخبء) تدل على مقدرة الهدهد هذا الطائر الصغير على المتابعة ودقة الملاحظة، وتفسير الأمور على حقيقتها، فقد أحاط بقوم سبأ علماً يقيناً عن طريق المعاينة، وجد امرأة تجلس على عرش عظيم، ومن حولها ينفذون ما تأمر، وفي فترة غيابه القصيرة تعرّف ديانتهم وهي عبادة الشمس والسجود لها، وهنا يجد الخلاف بين عبادة النبي سليمان (عليه السلام) لله الواحد وبين عبادتهم، فالمسألة إذاً ليست عادية ولن تمر دون أن يخبره عنهم، وكان خطابه بليغاً فقد أحاط بكل شيء عنهم دون إطالة، ولا نعلم لماذا أراد النبي سليمان (عليه السلام) أن يعرف إن كان صادقاً أم كاذباً، فهل ظنّ أن الهدهد قد اختلق عذراً لغيابه،ولاسيما أن خبرهم قد خفي عنه، ولم يخف عن هذا الطائر الصغير، وعلم ذلك عند الله.

ومن الممكن أن نتبيّن من خلال فعالية الحيوان وسلوكه الغريزي الذي أودعه الله تعالى فيه كما نجده في النحل، فهذه الحشرة الصغيرة تحمل في جسمها مصنعاً للعسل، فقد جاءها إيحاء الله تعالى لها أن تتخذ من الجبال بيوتاً بعيداً عن الناس وحركتهم وأعمالهم، وتتجه نحو البراري حيث الأشجار والأزهار، فتأكل من ثمارها وتمتص رحيق أزهارها، فيتمثل ذلك الغذاء في بطونها ويتحوّل الى شراب حلو طيب الرائحة وهو العسل، وهو غذاء فيه شفاء للناس. قال تعالى: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ

(١) النمل ٢٠-٢٦.

﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾.(١)

فالألفاظ (أوحى، اتخذي، كُلي، فاسلكي، شراب، شفاء، يتفكرون) تدل على جملة أوامر تصل الى النحلة عن طريق الإيحاء، وهي أن تتخذ الجبال والأشجار بيوتاً لصنع خلايا الشمع، بعيداً عما يؤذيها، أو في بيوت يصنعها الناس ويحمونها، وأن تسلك طرقاً عدّة لتمتص رحيق أطيب الأزهار، فيخرج من بطونها شراب العسل وفيه شفاء للمرضى، وطعام مغذ للآخرين وفي ذلك معجزة من المعجزات.

ثانياً: التركيب اللغوي

تتميز أساليب الخطاب القرآني بسمات معينة، وذلك لتضمنها تراكيب لغوية تتألف من ألفاظ ومعان خبرية وإنشائية، ونوع من الجمل تتلاءم ألفاظها ومعانيها، فتعبّر عن الإرادة الإلهية، وتؤثر في السامع أو المتلقي، وتجعله متفاعلاً مع النص تفاعلاً تاماً، وقد أشار الى ذلك السكاكي (ت ٦٢٦هـ) بقوله: ((المعاني تتبع خواص تراكيب الكلام في الإفادة وما يتصل بها من الاستحسان وغيره، ليحترز بالوقوف عليها عن الخطأ في تطبيق الكلام على ما يقتضي الحال ذكره))(٢)

ونتبيّن من العلاقة بين اللفظ والمعنى والتركيب أن اللفظة وهي لبنة تصلح في موضع ما وتفسد في موضع آخر، وقد تدل على معان مشتركة في موضع لتدل على معنى واحد، وقد تكون في الأصل اللغوي يراد لها أن تدل على معان عدّة، ولذلك كان العرب يتبارون في التعبير عن المعاني الكثيرة بالألفاظ المعدودة، فكثرة معاني اللفظ وتنوّع دلالاته في ميدان واحدة تستميل اليه العقول والقلوب معاً، فالمعاني أعم من أن تكون الدلالة عليها بالبناء اللفظي وحده، وإنما تنطلق من المفردات أو من التركيب أو من السياق.

والسياق هو الميدان الحقيقي لجمالية اللفظ، إذ تقع في مواضع مختلفة تبعاً لإرادة المتكلم وسعة أفقه، لأن الألفاظ لا تمثل ((إلاّ ناحية جامدة من تلك اللغة، وإذا نظمت ورتبت ذلك الترتيب المعيّن سرت فيه الحياة، وعبّرت عن مكنون الفكر وما يدور في الذهن، وليست اللغة في حقيقة أمرها إلاّ نظاماً من الكلمات التي ارتبط بعضها ببعض ارتباطاً وثيقاً تحتمه قوانين معينة لكل لغة، وليس ما يرد بالمعاجم من كلمات منفردة منعزلة إلاّ صورة مشوّهة مضطربة أشد الاضطراب لأي لغة من اللغات))(٣)

وإذا أردنا أن نتلمس الإشارات الأولى لأهمية البناء أو تركيب الألفاظ وصياغة الكلام نجد ابن المقفع (ت ١٤٣هـ) قد أشار الى ذلك بقوله: ((فإذا خرج الناس من أن يكون لهم عمل وأن يقولوا قولاً بديعاً، فليعلم الواضعون المخبرون أن أحدهم وإن أحسن وأبلغ

(١) النحل ٦٨-٦٩.
(٢) السكاكي: مفتاح العلوم ٧٧.
(٣) ابراهيم انيس: من اسرار اللغة ٢٩٥.

ليس زائداً على أن يكون كصاحب فصوص وجد ياقوتاً وزبرجداً أو مرجاناً فنظمه قلائد وسموط وأكاليل، ووضع كل فص موضعه، وجمع إلى كل لون شبهه مما يزيده بذلك حسناً، فسمي بذلك صائغاً رقيقاً))[١]

وأخذ البلاغيون فكرة هذا الكلام وأداروه في كتبهم من غير أن يشيروا الى قائله، وتحدّث الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) عن النظم في كتبه، وسمّى أحدها (نظم القرآن) وقال: إن القرآن معجز بنظمه وما فيه من بلاغة تأسر القلوب، والكتاب مفقود، وقد أورد كثيراً من نصوصه في كتبه التي بين أيدينا.

وكان لمسألة إعجاز القرآن أثر في بلورة فكرة النظم، وقد ذهب جماعة من البلاغيين الى أن وجه الإعجاز هو ما اشتمل عليه القرآن من النظم الغريب المخالف لنظم العرب ونثرهم، وذهب آخرون الى أن وجه الإعجاز في مجموع الأمرين، فوضع محمد بن يزيد الواسطي (ت ٣٠٦هـ) كتاباً في إعجاز القرآن سمّاه (إعجاز القرآن في نظمه وتأليفه) وقد شرحه عبد القاهر الجرجاني مرّتين، ولكن الكتاب وشرحيه لم تصل الينا.

ويرى أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي (ت ٣٠٦هـ) أن القرآن إنما صار معجزاً لأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف، مضمناً أصح المعاني ((وأنّ عمود هذه البلاغة التي تجمع هذه الصفات هو وضع كل نوع من الألفاظ التي تشتمل عليها فصول الكلام موضعه الأخص الأشكل به الذي إذا أبدل مكانه غيره جاء منه، إما تبدّل المعنى الذي يكون منه فساد الكلام، وإما ذهاب ذلك الرونق الذي يكون معه سقوط البلاغة)).[٢]

ويرى أبو الحسن علي بن عيسى الرمّاني (ت ٣٨٦هـ) أنّ أعلى مرتبة من حسن البيان ما جمع أسباب الحسن من العبارة من تعديل النظم حتى يحسن السمع، ويسهل على اللسان، وتتقبله النفس تقبّل البرد.[٣]ويرى أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني (ت ٤٠٣هـ) أنّ كتاب الله معجز بالنظم، لأنه خارج عن جميع وجوه النظم المعتاد في كلام العرب ((فأمّا شأو نظم القرآن فليس له مثال يحتذى عليه ولا إمام يقتدى به، ولا يصح وقوع مثله اتفاقاً كما يتفق للشاعر البيت النادر، والكلمة الشاردة، والمعنى الفذ الغريب، والشيء القليل العجيب))[٤]

وبلغ عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧٤هـ) الغاية حين وصل الى مرحلة القول بالنظم، وكاد يحصر سر الإعجاز القرآني فيه قوله ((وهل تجد أحداً يقول هذه اللغة فصيحة إلاّ وهو يعتبر مكانها من النظم، وحسن ملاءمة معناها لمعاني جاراتها، وفضل مؤانستها لأخواتها، وهل قالوا لفظة متمكنة ومقبولة، وفي خلافه قلقة نابية ومستكرهة إلاّ وغرضهم أن يعبّروا بالتمكن عن حسن الاتفاق بين هذه وتلك من جهة معناها، وبالقلق والنبوء عن سوء التلاؤم،

(١) محمد كرد علي: رسائل البلغاء ٥.
(٢) الباقلاني: اعجاز القران – ثلاث رسائل في اعجاز القران ٢٦.
(٣) الرماني: النكت في اعجاز القران ٩٨.
(٤) الباقلاني: اعجاز القران ١٦٩.

وإنّ الأولى لم تلتق بالثانية في معناها، وإنّ السابقة لم تصلح أن تتموضع أن تكون لفظاً للتالية في مؤدّاها))[١]

وكان السكّاكي (ت ٦٢٦هـ) أول من أطلق مصطلح (علم المعاني) على الموضوعات التي أسماها الجرجاني بالنظم، ولم نستطع أن نتبيّن مفهوم المعاني قبله، وكان منهجه في بحث موضوعاته تختلف عمّا ألفناه في كتب البلاغة الأولى، وقد قرر أن كلام العرب قسمان، خبر وطلب.

أ: الخبر والإنشاء:

- يتميز كل خطاب في القرآن الكريم بأسلوب معيّن، وذلك بتوظيفه عبارات وصيغ أسلوبية من أساليب ا لخبر والإنشاء، وجمل ذات تراكيب خاصة تؤدي الى نقل الأفكار والصور التي أرادها المتكلّم سبحانه وتعالى الى المتلقي، وسنقوم بتحليل أساليب ذلك الخطاب، وسنذكرها على وفق كثرة ورودها، وهي على النحو الآتي:

١- أسلوب الخبر:

الخبر لغة: ((النبأ، والجمع أخبار، وأخابير جمع الجمع، وخبّره بكذا، وأخبره: نبّأه))[٢]ووقف البلاغيون عند الخبر ودلالته، فقال القزويني: ((اختلف الناس في انحصار الخبر في الصادق والكاذب، فذهب الجمهور الى أنه منحصر فيهما، ثم اختلفوا فقال الأكثر منهم صدقه مطابقة حكمه للواقع، وكذبه عدم مطابقة حكمه له))[٣]وذهب معظم شرّاح التلخيص الى أن الخبر: ((كل كلام يحتمل الصدق والكذب لذاته))[٤]

وهذا التعريف يصدق على كل كلام يؤخذ دون النظر الى قائله، أمّا كلام الله تعالى، والأخبار التي وردت في القرآن الكريم، وأحاديث النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) والحقائق العلمية الثابتة، والبديهيات المعروفة فإنها صادقة، ولا تحتمل الكذب أبداً، ولذلك تخرج من هذا التعريف، وأمّا غيرها من الأخبار فإنها قابلة للتصديق والتكذيب، لأنه ينظر الى ذاتها ولا ينظر الى ذات قائليها.

والخبر على ثلاثة أنواع، وهي الخبر الابتدائي، والخبر الطلبي، والخبر الإنكاري، ولبيان تلك الأنواع الثلاثة روي عن ابن الأنباري أنه ((قال: ركب الكندي المتفلسف الى أبي العبّاس (ثعلب أو المبرد) وقال له: إني لأجد في كلام العرب حشواً، فقال له أبو العبّاس: في أي موضع وجدت ذلك؟ فقال: أجد العرب يقولون: (عبد الله قائم) ثم يقولون (إنّ عبد الله قائم) ثم يقولون (إنّ عبد الله لقائم)، فالألفاظ متكررة والمعنى واحد. فقال أبو العبّاس: بل المعاني مختلفة لاختلاف الألفاظ. فقولهم: (عبد الله قائم) إخبار عن قيامه، وقولهم: (إنّ عبد

(١) عبد القاهر الجرجاني: دلائل الاعجاز ٣٦.
(٢) ابن منظور: لسان العرب مادة (خبر) .
(٣) القزويني: الايضاح ١٣.
(٤) شروح التلخيص ١٨٣/١.

الله قائم) جواب عن سؤال سائل، وقولهم: (إنّ عبد الله لقائم) جواب عن إنكار قيامه، فقد تكررت الألفاظ لتكرر المعاني))[١]

الخبر الابتدائي: وهو الخبر الذي يكون خالياً من المؤكدات، لأن المخاطب خالي الذهن من الحكم الذي تضمنه. ومن ذلك أن يكون الخبر جملة أسمية من المبتدأ والخبر، قوله تعالى: ﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾[٢]وقوله تعالى: ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾[٣] فالجملة الاسمية تحمل صفة الثبات في الأمر وهو أن الله واحد لا شريك له، وينبغي التوجّه في العبادة اليه دون غيره، وتأتي الجملة أيضاً لتقرير حقيقة كونية ثابتة. وتأتي الجملة فعلية كقوله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾[٤]وقوله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾[٥]فالجملة الفعلية متحركة وتدل على حدث ما، فيخبرنا الله تعالى عن الحركة الزمنية لموعد الحساب أو قيام الساعة، واقترابهما زمنياً من وقتنا الحاضر.

الخبر الطلبي: وهو أن يكون المخاطب متردداً في قبول حكم الخبر، شاكّاً فيه، فيؤكده بمؤكد واحد، دفعاً للتردد والشك عند المخاطب، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴿٢﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾[٦]جاء التوكيد بـ (إنّ) لتثبيت قلب الرسول (صلى الله عليه وسلم) ولصدق الله تعالى في إخباره بما ينتظره من حسن الثواب. وقوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾.[٧] فالتوكيد بـ (إنّ) للنبي محمد (صلى الله عليه وسلم) أن يذكر الكافرين بعذاب الآخرة، والتوكيد بالباء الزائدة يدل على أنه لا يمكن إجبارهم على الإيمان، وإنما يعرض عليهم الأمر، ويقنعهم بالعقل والرفق واللين. وقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾.[٨]جاء توكيد الخبر بـ (قد) وتفيد في تحقيق صدق الخبر وثباته، وهو نجاح سعي المؤمنين الذين يتصفون بالخشوع في صلاتهم لله، وغيرها من الصفات التي وردت الآيات التي تليها.

---

(١) الجرجاني: دلائل الاعجاز ٢٠٦.
(٢) الحج ٣٤.
(٣) الرحمن ٥.
(٤) الانبياء ١.
(٥) القمر ١.
(٦) الكوثر ١-٣.
(٧) الغاشية ٢١.
(٨) المؤمنون ١-٢.

الخبر الإنكاري: وهو أن يكون المخاطب منكراً حكم الخبر، فيؤكد الخبر بأكثر من مؤكد. مثل قوله تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُواْ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُواْ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾[1] جاء التوكيد الأول بـ (إنّ) قوله (إنّا إليكم مرسلون) وجاء التوكيد الثاني بـ (إنّ، لام التوكيد) قوله (إنّا إليكم لمرسلون) لإنكارهم إرسال الرسل من الله تعالى. وقوله تعالى في وصف القرآن الكريم: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ﴾[2] فجاء بتأكيدين (إنّ، لام التوكيد) مما يثبت صدق كلام الله تعالى لمن أنكره أنكره في أن هذا القرآن يفصل بين الحق والباطل، وليس كلام عبث أو لهو.

والخبر في جميع حالاته حقيقي، ولكن قد يكون مجازياً، وما يفرّق بينهما القرائن ومقتضى الحال، ومن الأخبار المجازية التي تأتي لتكشف عن حالات متباينة بين الضعف الإنساني والقوة الإلهية التي تفرض إرادتها لتحقيق العدل.

ويأتي الخبر للتعبير عن حالة الضعف الإنساني كما يتضح في موقف النبي نوح (عليه السلام) بعد أن عجز في دعوته جميع قومه الى الإيمان بالله تعالى، وقد أصرّوا إصراراً واستكبروا استكباراً. ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُواْ عَبْدَنَا وَقَالُواْ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ﴾[3] فأعلن بعد أن زجر من قومه عن تبليغ رسالته عن قهره وضعفه، طالباً طالباً النصر من الله تعالى والانتقام منهم.

وفي موقف آخر يتعرّض النبي يوسف (عليه السلام) الى حالة من الضيق والقهر، ففي بيت العزيز تراوده امرأته ويأبى طاعتها، ثم تحاصره نسوة من المدينة، فيقطّعن أيديهنّ عند رؤيته، فأصبح فتنة لغيره، ولم يستطع مقاومة نفسه، وأحسّ بالضعف أمام مغريات الجمال، فكشف لربّه عن ضعفه طالباً إخراجه من هذه الفتنة ولو الى السجن وهو أحب الأمكنة اليه من هذه المواقف المغرية. قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾[4]

وتبدو حالة الضعف الجسدي وظهور علامات الكبر واضحة لدى النبي زكريا (عليه السلام) فقد شاب رأسه ووهن عظمه، ولم يرزق بذرية تعينه أو تخلفه، واستحوذ الضعف

---

(١) يس ١٣-١٦.
(٢) الطارق ١٣.
(٣) القمر ٩-١٠.
(٤) يوسف ٣٣.

على نفسه، ورقّ حاله، فتوجّه بالشكوى الى الله تعالى، ويعلم أنه لا يرد عن سؤاله. قال تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴾[١]

ويعبّر الخبر عن المشاعر الإنسانية الرقيقة كالحسرة والتحسّر، كما تتضح في قوله تعالى حكاية عن امرأة عمران: ﴿ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٥) فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾[٢] فالشاهد هنا قوله حكاية عن أم مريم (عليها السلام) (ربّ إني وضعتها أنثى) فأظهرت التحسّر لأنها كانت ترجو أن يكون وليدها ذكراً، لأنها نذرته لأن يكون قائماً على خدمة المعبد والعبادّ والزهّاد فيه، وتعلم أن الأنثى لا يمكن أن تقوم بمثل هذه الأعمال في ذلك المكان المقدّس. وقوله تعالى (والله أعلم بما وضعت) جملة احترازية أو اعتراضية، يفهم منها أن الله تعالى يعلم بما وضعت في الأصل. وقوله تعالى (وليس الذكر كالأنثى) اختلف فيه المفسّرون هل هو من كلامها أم من كلام الله تعالى؟ فإن كان من كلامها فهو تتميم لحسرتها، أي أنّ الأنثى ستكون في البيت، وأنّ الذكر سيكون في المعابد والمساجد، وإن كان من كلام الله تعالى سيكون استئنافاً، أي ليس الذكر الذي طلبته كالأنثى التي وهبها الله لكِ، فإنّ هذه الأنثى مريم (عليها السلام) ستحمل بالنبي عيسى (عليه السلام) وسيبقى ذكرهما الى يوم القيامة.

ويظهر التحسّر على الكفّار أيضاً حين ينفقون أموالهم للقضاء على الإسلام، وصد الناس عن الإيمان بالله ورسوله، وستكون عليهم حسرة وندماً حين يجدون أن هذه الأموال ذهبت هباء دون أن تؤثر في زعزعة الدين، ثم تنعكس فتنقلب إرادتهم الى هزيمة نكراء، ونهاية متردية في جهنم. قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾[٣]

ويوظّف الخبر لطلب الاسترحام كما في قوله تعالى على لسان موسى (عليه السلام): ﴿ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾[٤] لا يمكن حمل هذا الخبر على الإفادة، لأنه خطاب لمن يعلم الجهر وما يخفى، فكيف يراد به إفادة الحكم أو لازمه؟ والجواب: سيق لأجل طلب الرحمة والعطف، ونريد أن ننبه الى أن النظر الى بداية الآية (ربّ) ليست في الخبر وإنما في الإنشاء، لأنها دعاء ونداء، والنداء لون من ألوان الإنشاء، فلا تدخل شاهداً على الخبر،

---

(١) مريم ٤.
(٢) آل عمران ٣٥-٣٦.
(٣) الانفال ٣٦.
(٤) القصص ٢٤.

ويبدأ بالقول (إنّي) من هنا يبدأ الخبر، ومضمونه كأن يستعطف الله تعالى أن يزيد في إنزال الخير عليه، فهو فقير الى رحمته.

ويفيد الخبر الدعاء كما في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[1]فيكون اللفظ خبراً، والمعنى دعاء وطلب، أي أعنّا على عبادتك، والاستعانة بك وحدك.

ويستعمل الخبر بمعنى الأمر وذلك لفائدة يبتغيها القرآن الكريم، مثل تأكيد الأمر والمبالغة في الإيجاب، من ذلك قوله تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾[2]فجملة (الوالدات يرضعن) جملة خبرية لكن معناها الطلب، أي أن المطلّقات اللاتي لهن أولاد من أزواجهن يرضعن أولادهن، وهو أمر استحباب لا إيجاب، لأن التعبير عن الجملة الطلبية بالجملة الخبرية فيه إشارة الى أن الإجابة هنا أمر طبيعي لدى الأمهات.

ويتجلى الأمر أيضاً في قوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾[3]وهي جملة خبرية بمعنى الأمر، والمعنى أنّ على المطلّقة أن تنتظر ثلاثة قروء (حيضات) قبل أن تتعرض للخطبة والزواج، والعدول عن الجملة الخبرية الى الجملة الاسمية هنا للتأكيد والإشعار بأنه مما يجب أن يصار الى امتثاله وتنفيذه.

وقوله تعالى أيضاً: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾[4] فالآية خبر خرجت مخرج الأمر، والمعنى أن على الرجل واجب القيام بأمور المرأة رعاية وإنفاقاً، لأن الأسرة لابد لها من رئيس يدير شؤونها.

وقوله تعالى أيضاً: ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾[5]فقوله (تزرعون) خبر بمعنى الأمر، يعني: ازرعوا سبع سنين على عادتكم في الزراعة، والدليل على كونه في المعنى أمر قوله في ختام الآية (فذروه في سنبله) فما دام قد أمرهم بترك المزروع في سنبله، فلابد أن يكون قد أمرهم بزراعته.

وتأتي الجملة الخبرية بمعنى النهي أو الترك، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾[6] فالجملة (لا يمسّه إلاّ المطهّرون) جملة خبرية معناها: النهي عن مس القرآن الكريم حال عدم الطهارة. وقوله تعالى في النهي

---

(١) الفاتحة ٥.
(٢) البقرة ٢٣٣.
(٣) البقرة ٢٢٨.
(٤) النساء ٣٤.
(٥) يوسف ٤٧.
(٦) الواقعة ٧٧-٧٩.

أيضاً: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾[1] فالجملة الخبرية تعني النهي عن العدوان. وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[2] الجملة الخبرية هنا تعني النهي عن الظلم. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾[3]والجملة الخبرية معناها النهي عن الخيانة.

وتتضمن الجملة الخبرية معنى الوعد، وإن ذلك الخبر يتحقق مستقبلاً، كما في قوله تعالى: ﴿وَسَوۡفَ يُؤۡتِ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَجۡرًا عَظِيمًا﴾[4] الجملة الخبرية وفيها الفعل المضارع مسبوق بسوف، مما يعني تحقق الوعد مستقبلاً، وإنّ الحدث أي إيتاء الأجر العظيم يعني وعداً من الله تعالى.

وقوله تعالى في الوعد مخاطباً النبي محمد (صلى الله عليه وسلم): ﴿وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ﴾[5] فالجملة الخبرية فعلها المضارع مسبوق بسوف للاستقبال، ويعني أن أن الفعل يتحقق مستقبلاً وأنه حق كما وعد نبيه فإن عطاءه يُرضيه. وقوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ﴾[6] فالجملة الخبرية فعلها المضارع مسبوق بالسين للاستقبال، أي أن هذا الوعد سوف يتحقق، وأن الله تعالى يكشف عن دلائل قدرته في كل نواحي أقطار السماوات والأرض، وفي دواخل أنفسهم حتى يتيقنوا أنه الحق من الله تعالى.

وتأتي الجملة الخبرية في الوعيد بالجزاء والحساب، ويعني إيعاد الكافرين بالعقاب. من ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارًا﴾[7]في الجملة الخبرية الفعل المضارع فيها مسبوق بسوف للاستقبال، والمعنى أن هذا الوعيد مؤكد التحقيق. وقوله تعالى أيضاً: ﴿فَسَوۡفَ يَأۡتِيهِمۡ أَنۢبَـٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾[8] الجملة الخبرية وفيها الفعل المضارع مسبوق مسبوق بسوف للاستقبال، والمعنى أن هذا الوعيد هو أن يأتيهم أخبار من ينالهم العذاب بما يكذّبون ما جاءهم به القرآن الكريم ويسخرون منه. وكذلك قوله تعالى: ﴿وَسَيَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ

---

(١) الاعراف ٥٥.
(٢) آل عمران ٥٧.
(٣) النساء ١٠٧.
(٤) النساء ١٤٦.
(٥) الضحى ٥.
(٦) فصلت ٥٣.
(٧) النساء ٣٠.
(٨) الانعام ٥.

﴿أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾[1] والوعيد هنا مؤكد التحقيق، فالذين ظلموا أنفسهم بكفرهم سيرون أي حال من العذاب يصيرون اليها.

وقد تأتي الجملة الخبرية بمعنى يفهم من خلال السياق أن مرادها يختلف عن ظاهرها، فالمعنى المراد هو التبكيت أو السخرية كما في قوله تعالى: ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴾[2] أي أنت أيها المذنب كثير المعاصي تُؤخذ يوم القيامة بعنف وغلظة الى وسط وسط نار جهنم، ثم يصب فوق رأسه ماء شديد الحرارة، ثم يقال له بسخرية ذُق يا صاحب العزّة والمنعة والكرم البالغ الذي أوصلك الى النار.

٢- أسلوب الإنشاء:

الإنشاء: ((كل كلام لا يحتمل الصدق والكذب لذاته، لأنه ليس لمدلول لفظه قبل النطق به واقع خارجي يطابقه أو لا يطابقه، فإن طابقه قيل: إنه صادق، وإن خالفه قيل: إنه كاذب))[3] وهو قسمان: طلبي وغير طلبي.

أ- الإنشاء الطلبي:

وهو ما يستدعي مطلوباً غير حاصل وقت الطلب، وهو على خمسة أنواع، وهي:

الأمر:

- وهو طلب الفعل على وجه الاستعلاء والإلزام، وقد ورد أسلوب الأمر كثيراً في القرآن الكريم، ولاسيما في الأحكام والعبادات مما يشكّل ظاهرة بارزة فيها، وللأمر أربع صيغ تنوب كل منها مناب الأخرى في طلب أي فعل من الأفعال على وجه الاستعلاء والإلزام.

وتستخدم صيغة فعل الأمر كثيراً في القرآن الكريم كما في قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾[4] فأفعال الأمر: (أقيموا، وآتوا، وأطيعوا) موجهة للمسلمين لتنفيذها. وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ

(١) الشعراء ٢٢٧.
(٢) الدخان ٤٩.
(٣) د. احمد مطلوب: البلاغة العربية ٨٤.
(٤) النور ٥٦.

﴿ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾[1] وأفعال الأمر: (اصبروا، وصابروا، ورابطوا، واتقوا) موجهة للمؤمنين لتنفيذها.

والصيغة الثانية لأسلوب الأمر استخدام الفعل المضارع المقترن بلام الأمر كما في قوله تعالى: ﴿ لِيُنفِقۡ ذُو سَعَةٖ مِّن سَعَتِهِۦۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيۡهِ رِزۡقُهُۥ فَلۡيُنفِقۡ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُۚ ﴾[2]فالفعل المضارع المقرون بلام الأمر (لينفق، فلينفق). وقوله تعالى: ﴿ فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ ٣ ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ ﴾[3] والفعل المضارع المقرون بلام الأمر (فليعبدوا).

والصيغة الثالثة هي استخدام أسماء فعل الأمر (صه بمعنى اسكت، ومه بمعنى اكفف، وآمين بمعنى استجب، ورويدة بمعنى أمهل، ونزال بمعنى أنزل، ودراك بمعنى أدرك، وعليك بمعنى الزم) ومما ورد قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ ﴾[4] واسم فعل الأمر (عليكم) أي الزموا أنفسكم وانشغلوا بها.

والصيغة الرابعة استخدام المصدر النائب عن فعل الأمر كما في قوله تعالى: ﴿ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَانٗا وَذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ ﴾[5] فالمصدر النائب عن فعل الأمر (إحساناً). وقوله تعالى: ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ ﴾[6]والمصدر هنا (ضرب).

ويخرج الأمر عن معناه الحقيقي وهو طلب الفعل على وجه الاستعلاء والإلزام الى أغراض مجازية تعرف من طبيعة المناسبة التي يقال فيها ومن سياق الكلام.

ومن هذه الأغراض الدعاء كما في قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ حَسَنَةٗ وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾[7]وقوله تعالى: ﴿ رَّبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيۡتِيَ مُؤۡمِنٗا وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارَۢا ﴾[8] أفعال الأمر (آتنا، وقنا، اغفر) مجازية

(١) آل عمران ٢٠٠.
(٢) الطلاق ٧.
(٣) قريش ٣.
(٤) المائدة ١٠٥.
(٥) البقرة ٨٣.
(٦) محمد ٤.
(٧) البقرة ٢٠١.
(٨) نوح ٢٨.

تعني الدعاء لأنها موجّهة الى جهة أعلى وهو الله سبحانه وتعالى، وليس فيها استعلاء وإلزام.

وفي النصح والإرشاد قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِ ﴾[1]فالفعل (فاكتبوه) طلب لا إلزام فيه، وفي كتابته فائدة للدائن والمدين.

وفي الإباحة قوله تعالى: ﴿ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلۡخَيۡطُ ٱلۡأَبۡيَضُ مِنَ ٱلۡخَيۡطِ ٱلۡأَسۡوَدِ مِنَ ٱلۡفَجۡرِ ﴾[2] وهو طلب يقع في أحكام الحلال والحرام، لا إلزام في الامتناع عن الأكل والشرب قبل ذلك الوقت.

وفي التعجيز قوله تعالى: ﴿ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ ﴾[3]وقوله تعالى: ﴿ وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾[4] فالأفعال (فانفذوا، فأتوا، فأتوا، ادعوا) أفعال طلب بما لا يقدر عليه المخاطب.

وفي التهديد قوله تعالى: ﴿ ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾[5]وقوله تعالى: ﴿ قُلۡ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمۡ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾[6]فأفعال الأمر (اعملوا، تمتّعوا) فيها تهديد يفهم من سياق الآية.

وفي التسوية قوله تعالى: ﴿ ٱصۡلَوۡهَا فَٱصۡبِرُوٓاْ أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ ﴾[7] ففعل الأمر (فاصبروا) فعل طلب غير ملزم بدليل وجود حرف التسوية (أو) أي إن صبروا أو لم يصبروا على السواء، فليس في أحدهما فائدة.

---

(١) البقرة ٢٨٢.
(٢) البقرة ١٨٧.
(٣) الرحمن ٣٣.
(٤) البقرة ٢٣.
(٥) فصلت ٤٠.
(٦) ابراهيم ٣٠.
(٧) الطور ١٦.

وفي الإهانة قوله تعالى: ﴿ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴾[1]وقوله تعالى: ﴿ قُلْ كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴾[2] ففعل الأمر (كونوا) ليس فيه إلزام لعدم مقدرتهم على التحوّل من صورة الى أخرى.

وفي التسليم للأمر قوله تعالى: ﴿ قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ﴾[3] ففعل الأمر (فاقضِ) ليس فيه إلزام لفرعون لمعاقبة السحرة على عصيانهم له، ويفهم من السياق التسليم لأمر الله تعالى، ولا يهم السحرة ما يفعل بهم فرعون.

وفي التعجب قوله تعالى: ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ﴾[4]وفعل الأمر (أسمِع، وأبصِر) يفهم من سياق الآية أن أسماع أحزاب من النصارى وأبصارهم جديرة بأن يتعجب منها يوم القيامة، إذ لم تع أنّ الله واحد لم يلد ولم يولد.

النهي:

- هو طلب الكف عن فعل على وجه الاستعلاء والإلزام، وله صيغة واحدة هي الفعل المضارع المقترن بلا الناهية، وورد أسلوب النهي مثل أسلوب الأمر في القرآن الكريم أيضاً، ولاسيما في الأحكام والعبادات. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ ﴾[5]وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ﴾[6] فالنهي واضح في صيغة المضارع المبدوء بلا الناهية (لا يسخر، ولا تلمزوا، ولا تنابزوا، ولا تجسسوا، ولا يغتب) فهي تعني المنع عن الفعل المنكر باستعلاء وإلزام من الله تعالى.

وتخرج صيغة النهي من الحقيقة وهي الإلزام الى المجاز في أغراض عدّة، ومن هذه الأغراض الدعاء ويصدر من أدنى الى أعلى، كقوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا

---

(١) البقرة ٦٥.
(٢) الاسراء ٥٠.
(٣) طه ٧٢.
(٤) مريم ٣٨.
(٥) الحجرات ١١.
(٦) الحجرات ١٢.

﴿ بِهِۦ ﴾[1] فصيغ النهي (لا تؤاخذنا، ولا تحمل علينا، ولا تحمّلنا) تنصرف من النهي الى الدعاء، لأنها موجّهة من المخلوق الى الخالق.

ويكون الالتماس صادراً من متقاربين في الدرجة مثل الأخوين والصديقين، كما في قوله تعالى على لسان هارون مخاطباً موسى (عليهما السلام): ﴿ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ ﴾[2] فالنهي (لا تأخذ) هو التماس من أخ لأخيه.

وفي النصح قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا ﴾ الى قوله تعالى ﴿وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْۚ وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ﴾[3] فصيغ النهي (ولا يأب، ولا يبخس، ولا تسأموا) أي لا يمتنع الكاتب من الكتابة، ولا الشاهد إذا ما دُعي للشهادة، ولا يضجر صاحب الدين من كتابته لما فيه من الفائدة للطرفين.

وفي التيئيس قوله تعالى مخاطباً المنافقين: ﴿ لَا تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْۚ ﴾[4] فصيغة النهي (لا تعتذروا) يفهم من السياق أنه لا ينفع الاعتذار من الله تعالى ورسوله (صلى الله عليه وسلم) بعد الدخول في دائرة الكفر، وفي ذلك تيئيس لهم، وهو نوع من العقاب النفسي.

وفي بيان العاقبة قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾[5] فصيغة النهي (ولا تحسبنّ) أي لا تظن أن الله يغفل عن عاقبة الظالمين، بل يؤخرهم لعذاب أشد وأوجع بحيث تجمد العيون من شدة الهول. وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢاۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾[6]أي إن عاقبة الذين الذين استشهدوا في سبيل الله دفاعاً عن دينه الحنيف أنهم ليسوا أمواتاً بل أحياء في الجنة يرزقون، وتلك العاقبة مرضية لهم.

الاستفهام:

---

(١) البقرة ٢٨٦.
(٢) طه ٩٤.
(٣) البقرة ٢٨٢.
(٤) التوبة ٦٦.
(٥) ابراهيم ٤٢.
(٦) آل عمران ١٦٩.

- وهو طلب العلم بشيء لم يكن معلوماً من قبل، وأسلوب الاستفهام هو أسلوب لغوي من أساليب السؤال يهدف الى طلب الإفهام تصوّراً أو تصديقاً، وقد ضمنه اللغويون في الإنشاء الطلبي. ويأتي الاستفهام في طلب الفهم بين الناس، ولكنه في القرآن الكريم وكون الله سبحانه وتعالى يعلم كلّ شيء فلا يستفهم خلقه عن كلّ شيء، وإنما يستفهمهم ليقررهم ويذكرهم أنهم قد علموا ذلك الشيء فلماذا ينكرونه؟ وهذا أسلوب بديع انفرد به الخطاب القرآني، وهو يغاير كلام البشر.

ويكثر الاستفهام في الموضوعات التي تبحث في قضية الإيمان بالله تعالى، والشرك به يتجلى في عبادة الأصنام والأوثان الواهية، وتكذيب رُسل الله وكتبه وملائكته واليوم الآخر وإحياء الموتى والحساب والجنة والنار. أي إنكار الكفار والمشركين جميع الأمور الغيبية وإن جاءت عليها الأدلة والبراهين. ويستعمل الاستفهام أيضاً في معرفة الأحكام والعبادات وغيرها، وبهذه الصيغة يصل المؤمن الى معرفة تفاصيل تلك الأحكام وطبيعة تلك العبادات.

وللاستفهام أدوات يتحقق بها الغرض من طلب الإفهام، وهذه الأدوات على نوعين حروف وأسماء، ومن الحروف (الهمزة، هل)، وتأتي الهمزة لطلب التصديق كما في قوله تعالى في نقض المشركين العهد: ﴿أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[1] وتأتي في التصوّر أي تصوّر حال أهل القرى الكافرة. قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾[2]وتأتي للتنبيه والتذكير كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾[3].

وتأتي (هل) لمعرفة مضمون الجملة، لأن السائل يجهل العلم به. كقوله تعالى في تحقق الأمر وثبوته: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾[4]وتأتي بمعنى أدعوك كقوله تعالى: ﴿فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَىٰ أَنْ تَزَكَّىٰ﴾[5] أي تتطهر من الكفر والعصيان.

وللاستفهام أسماء يطلب بها التصوّر للتثبت والتصديق. ومما يستفهم بها لغير العاقل من هذه الأسماء (ما) ومن استعمالها قوله تعالى في السؤال عن العصا: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ

---

(١) البقرة ١٠٠.
(٢) الاعراف ٩٧-٩٨.
(٣) الفرقان ٤٥.
(٤) الغاشية ١.
(٥) النازعات ١٨.

﴿يَـٰمُوسَىٰ﴾[1]وقد جوّز بعض النحويين أن يسأل بها عن أعيان من يعقل، فاستدلوا بقوله تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾[2]وهذا القول ورد على لسان فرعون، وانطلاقاً من عقيدته الفاسدة في عبادة الشمس والقمر والجبل والبحر من غير العاقل، فتوهّم أن ربّ العالمين هو من نوعها، ولهذا جاء جواب النبي موسى (عليه السلام) في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾[3] أنكر فرعون فأكمل قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾[4]فنفى أن يكون ربّ العالمين واحداً مما كانوا يعبدون. ويمكن أن تقترن (ما) باسم الإشارة (ذا) نحو قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾[5].

ويستفهم عن العاقل بـ (من) وتحمل معنى النفي كما في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾[6]أي لا يغفر الذنوب إلاّ الله.وقوله تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾[7]ويمكن أن يدخل على (من) أحد حروف الجر (عن، من، في، الباء، اللام) كما في قوله تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ﴾[8]وقوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ مِمَّ خُلِقَ﴾[9]

ويستفهم عن الزمان غير المحدد بـ (متى) كما في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾[10]وقوله تعالى أيضاً: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾[11]

---

(١) طه ١٧.
(٢) الشعراء ٢٣.
(٣) الشعراء ٢٤.
(٤) الشعراء ٢٨.
(٥) البقرة ٢١٩.
(٦) آل عمران ١٣٥.
(٧) البقرة ٢٥٥.
(٨) النبأ ١-٢.
(٩) الطارق ٥.
(١٠) يونس ٤٨.
(١١) السجدة ٢٨.

ويستفهم عن الزمان المستقبل بـ (أيّان) ويأتي الاستفهام هنا عن الشيء المعظم أمره، أي في موضع التفخيم، نحو قوله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴾[(١)]وقوله تعالى: ﴿ بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ۝٥ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾[(٢)] فالسؤال هنا عن موعدها لعظيم شأنها.

والاستفهام عن المكان بـ (أين) كما في قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾[(٣)]وقوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾[(٤)]

ويستفهم بـ (كيف) عن حال الشيء وليس ذاته هذا في الأصل، ولها معان عدّة تفهم من سياق الكلام، أو من قرينة الحال، مثل: التنبيه، والاعتبار، والتوبيخ، والتعظيم، والتهويل، وغيرها، وكثيراً ما تأتي في معنى التعجّب نحو قوله تعالى: ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ﴾[(٥)]وقوله تعالى: ﴿ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ ﴾[(٦)] ونحو قوله تعالى: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾[(٧)]

ويستفهم عن الحال والمكان والزمان بـ (أنّى) وذلك بحسب سياق الآية، وهي تأتي بمعنى (من أين) كما في قوله تعالى: ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾[(٨)]وتأتي بمعنى (متى) و (كيف) كما في قوله تعالى: ﴿ أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾[(٩)]

والاستفهام عن العدد بـ (كم) وتحتاج الى جواب، كما في قوله تعالى في تساؤل أصحاب الكهف: ﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا

(١) الاعراف ١٨٧.
(٢) القيامة ٥-٦.
(٣) القصص ٦٢ وينظر ٧٤.
(٤) البقرة ١١٥.
(٥) البقرة ٢٨.
(٦) التوبة ٧.
(٧) النساء ٤١.
(٨) آل عمران ٣٧.
(٩) البقرة ٢٥٩.

﴿ أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۚ قَالُواْ رَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثۡتُمۡ ﴾[1]والجواب ورد في سياق الآية. وقد تدخل عليها (من) فلا تستدعي الجواب، وتفيد هنا التكثير، كما في قوله تعالى: ﴿ وَكَم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأۡسُنَا بَيَٰتًا أَوۡ هُمۡ قَآئِلُونَ ﴾[2]

ويستفهم بـ (أي) عن تعيين أحد المتشاركين في أمر ما يعمها، وتأتي معربة حسب موقعها في النص. قال تعالى: ﴿ فَأَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ أَحَقُّ بِٱلۡأَمۡنِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾[3]وقوله تعالى: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾[4]وقوله تعالى: ﴿ وَسَيَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٖ يَنقَلِبُونَ ﴾[5]

وقد يخرج الاستفهام عن معناه الأصلي وهو طلب العلم بشيء لم يكن معلوماً الى أغراض مجازية كثيرة. ومن هذه الأغراض النفي. قوله تعالى: ﴿ هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ ﴾[6] وتقديره: ما جزاء الإحسان لتأكيد مقابلة الإحسان بالإحسان وليس الإساءة. وقوله تعالى: ﴿ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ ﴾[7] أي: ما ينظرون.

ومن الأغراض ا لمجازية التعجّب كما في قوله تعالى: ﴿ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصۡنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوۡمَكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴾[8]وقوله تعالى: ﴿ وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تَذۡبَحُواْ بَقَرَةٗۖ قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوٗا ﴾[9]وقوله تعالى محذّرا المؤمنين من الإصغاء لأهل الكتاب: ﴿ وَكَيۡفَ تَكۡفُرُونَ وَأَنتُمۡ تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمۡ رَسُولُهُۥ ﴾[10]وقوله تعالى حين تفقّد سليمان (عليه السلام) الطير: ﴿ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيۡرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلۡهُدۡهُدَ أَمۡ كَانَ مِنَ

---

(١) الكهف ١٩.
(٢) الاعراف ٤.
(٣) الانعام ٨١.
(٤) الرحمن ١٣.
(٥) الشعراء ٢٢٧.
(٦) الرحمن ٦٠.
(٧) البقرة ٢١٠.
(٨) الانعام ٧٤.
(٩) البقرة ٦٧.
(١٠) آل عمران ١٠١.

﴿ ٱلۡغَآئِبِينَ ﴾[(١)] وقوله تعالى حكاية عن الكفار: ﴿ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ ﴾[(٢)]

ومن مجاز الاستفهام التمنّي قوله تعالى حكاية عن أصحاب النار: ﴿ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشۡفَعُواْ لَنَآ أَوۡ نُرَدُّ فَنَعۡمَلَ غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُ ﴾[(٣)]وقوله تعالى: ﴿ هَلۡ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٞ لِّذِي حِجۡرٍ ﴾[(٤)]أي إن الذي أقسم الله تعالى به عسى أن ينفع من له عقل.

ومن مجاز الاستفهام التقرير، وهو ما يجعل المخاطب يقرّ ويعترف بأمر قد استقرّ عنده، ويستعمل في هذا الاستفهام التقريري الهمزة فحسب، كما في قوله تعالى مخاطباً النبي محمد(صلى الله عليه وسلم): ﴿ أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ﴾[(٥)]وقوله تعالى: ﴿ أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ ۝١ وَوَضَعۡنَا عَنكَ وِزۡرَكَ ﴾[(٦)]وقوله تعالى وقد أشهد ذرية آدم على ربوبيته لهم فأقروا بذلك: ﴿ وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰۛ شَهِدۡنَآ ﴾[(٧)]

ومن هذا المجاز التعظيم والتحقير كقوله تعالى في تعظيم ذاته ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ ﴾[(٨)]وقوله تعالى في تعظيم كتب الأعمال يوم الحساب: ﴿ مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَا ﴾[(٩)]وقوله تعالى حكاية عن الكفار في التقليل من شأن النبي محمد(صلى الله عليه وسلم): ﴿ وَإِذَا رَأَوۡكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِي بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴾[(١٠)]

---

(١) النمل ٢٠.
(٢) الفرقان ٧.
(٣) الاعراف ٥٣.
(٤) الفجر ٥.
(٥) الضحى ٦-٧.
(٦) الانشراح ١-٢.
(٧) الاعراف ١٧٢.
(٨) البقرة ٢٢٥.
(٩) الكهف ٤٩
(١٠) الفرقان ٤١.

ومن مجاز الاستفهام الاستبطاء والاستبعاد، كقوله تعالى في الرسل والمؤمنين الذين أصابتهم المحن يتعجلون نصر الله: ﴿وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾[1]وقوله تعالى: ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَقَالُواْ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ﴾[2]أنى لهم: من أين لهم التذكر، أي يستبعد ذلك منهم بعد أن جاءهم الرسول (صلى الله عليه وسلم) فتولّوا عنه.

ومن مجاز الاستفهام الإنكار كقوله تعالى مخاطباً النبي (صلى الله عليه وسلم): ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[3]وقوله تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُواْ لَا يُبْصِرُونَ﴾[4]وقوله تعالى منكراً ما يظنّه المشركون: ﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾[5]وقوله تعالى: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾[6]

ومن مجاز الاستفهام التهكّم كقوله تعالى في قوم شعيب: ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾[7]وقوله تعالى حكاية عن إبراهيم (عليه السلام): ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ﴾[8]

ومن مجاز الاستفهام أيضاً التسوية بين حالتين كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[9]وقوله تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ﴾[1]وقوله تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾[2]

---

(١) البقرة ٢١٤.
(٢) الدخان ١٣-١٤.
(٣) الزخرف ٤٠.
(٤) يونس ٤٣.
(٥) الاسراء ٤٠.
(٦) النجم ٢١-٢٢.
(٧) هود ٨٧.
(٨) الصافات ٩١.
(٩) البقرة ٦.

ومن مجاز الاستفهام الأمر والنهي قوله تعالى في نزول القرآن الكريم: ﴿فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾(٣) أي أسلموا. وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾(٤) أي انتهوا. وقوله تعالى في النهي: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾(٥)أي لا تغتر. وقوله تعالى: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾(٦) أي لا تخشوا هؤلاء.

ومن مجاز الاستفهام العرض والترغيب، كما في عرض الله تعالى الجزاء لمن يعمل: ﴿وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(٧)وقوله تعالى في تبيان الخاسرين أعمالهم: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾(٨) وقوله تعالى في الترغيب في العطاء: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾(٩)

ومن مجاز الاستفهام التنبيه والتذكير والتهديد، كما في تنبيه الله تعالى الى بديع خلقه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾(١٠)وفي تذكير بني آدم تحذيره لهم من اتباع الشيطان: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾(١١) وقوله تعالى في تذكير يوسف (عليه السلام) لأخوته: ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم

---

(١) الاعراف ١٩٣.
(٢) ابراهيم ٢١.
(٣) هود ١٤.
(٤) المائدة ٩١.
(٥) الانفطار ٦.
(٦) التوبة ١٣.
(٧) النور ٢٢.
(٨) الكهف ١٠٣.
(٩) البقرة ١٤٥.
(١٠) الحج ٦٣.
(١١) يس ٦٠.

بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴾[1] وقوله تعالى في تهديد الكافرين بتذكيرهم هلاك الأولين منهم: ﴿ أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْءَاخِرِينَ ﴾[2]

ومن مجاز الاستفهام التأكيد والاكتفاء، قوله تعالى في تأكيد العذاب لمن يستحقه: ﴿ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴾[3] أي إن الذين حقّ عليهم العذاب لمعذّبون

وفي الاكتفاء بما سيناله الكافرون قال تعالى: ﴿ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴾[4] وقوله تعالى: ﴿ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾[5]

ومن مجاز الاستفهام الإيناس قوله تعالى مخاطباً النبي موسى (عليه السلام): ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾[6]

التمنّي:

- توقع أمر محبوب في المستقبل، والفرق بينه وبين الترجّي أنه يدخل المستحيلات، والترجّي لا يكون إلاّ في الممكنات. والتمني على نوعين: الأول: توقع الأمر المحبوب الذي لا يُرجى حصوله لكونه مستحيلا، كقوله تعالى في المنافق الذي لم يشارك في القتال والنصر: ﴿ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾[7]

والثاني: توقع الأمر المحبوب الذي لا يُرجى حصوله لكونه ممكناً غير مطموع في نيله، كقوله تعالى حكاية عن قوم موسى (عليه السلام): ﴿ يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ ﴾[8] والأداة المستخدمة في التمني (ليت) وقد تستعمل (هل) للدلالة على مثل هذا

---

(١) يوسف ٨٩.
(٢) المرسلات ١٦-١٧.
(٣) الزمر ١٩.
(٤) العنكبوت ٦٨ وينظر الزمر ٣٢.
(٥) الزمر ٦٠.
(٦) طه ١٧.
(٧) النساء ٧٣.
(٨) القصص ٧٩.

التمني، كقوله تعالى حكاية عن أصحاب النار: ﴿ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُواْ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ﴾[(١)]أي يا ليت لنا شفعاء.

والأداة الثانية (لو) كقوله تعالى في الكفرة المكذبين: ﴿ وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴾[(٢)]أي تمنّوا أن تلين معهم فيصانعونك. وقوله تعالى حكاية عن الذين اتبعوا الكافرين: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا ﴾[(٣)]. والأداة الثالثة (لعل) كما في قوله تعالى حكاية عن فرعون: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ ﴾[(٤)]

النداء:

- وهو توجيه الدعوة الى المخاطب، وتنبيهه الى الإصغاء وسماع ما يريده المتكلم، وللنداء أدوات وهي: (الهمزة، يا، أي، أيا، هيا، وا) فالهمزة لنداء القريب، والأدوات الأخرى لنداء البعيد، ولم يستخدم القرآن الكريم من أدوات النداء سوى (يا) للقريب والبعيد.

والنداء الموجّه الى الملائكة والأنبياء والمرسلين والمؤمنين بالأداة (يا)، ويفهم من السياق أنها استخدمت للقريب، وذلك لأن هؤلاء هم أقرب الخلق الى الخالق. كما يتضح ذلك في خطاب الله تعالى للنبي محمد (صلى الله عليه وسلم): ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴾[(٥)]وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[(٦)]فالله تعالى أقرب ما يكون الى النفس في في ندائه لنبيه وهو متلفف بدثاره، خائف مما سمع. ويأتي الخطاب بأسلوب يدل على البعد كما في خطاب الكافرين للنبي محمد قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾[(٧)]فقد استخدم الاسم الموصول بدلاً من النبي الواضح القريب.

(١) الاعراف ٥٣.
(٢) القلم ٩.
(٣) البقرة ١٦٧.
(٤) غافر ٣٦-٣٧.
(٥) المدثر ١-٣.
(٦) المزمل ١-٢.
(٧) الحجر ٦.

ويخرج النداء الى أغراض مجازية، ومن هذه الأغراض الإغراء والتحذير، ويستخدم النداء لإغراء الأنبياء والرسل أو تحذيرهم من أمر فيه ضرر قد يقع عليهم، كما في قوله تعالى لآدم (عليه السلام): ﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[1]وقوله تعالى في التحذير من الشيطان الرجيم: ﴿ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴾[2] وفي إغراء المؤمنين الى أفعال الخير يستخدم النداء في دعوتهم لذلك، لأنهم قريبون من الله تعالى بإيمانهم، كما في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُوا۟ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[3]وقوله تعالى في تحذيرهم: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُوا۟ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُوا۟ جَمِيعًا ﴾[4]

ونجد النداء يعبّر في خطاب الله تعالى الموجّه للنبي (صلى الله عليه وسلم) عن معنى التعجب من تحريمه الزواج من مارية (رضي الله عنها) إرضاء لأزواجه أمهات المؤمنين (رضي الله عنهن) قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[5].

وفي أسلوب التخصيص نجد النداء في القرآن الكريم قد خصّ الإنسان دون سائر الخلق بمزيّة، أو نوع من الفعل قدّر عليه دون سواه، كما في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴾[6]أي من صفات الإنسان الغرور. وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ﴾[7] أي من صفات الإنسان الكدح والمشقة في الحياة الدنيا. وقوله تعالى: تعالى: ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴾[8] فقد خصّ الله تعالى بهذه المنّة النفس المطمئنة الى ربّها، ولم تختص الأنفس الأخرى بمثل هذه النعمة.

---

(١) البقرة ٣٥.
(٢) طه ١١٧.
(٣) المائدة ٣٥.
(٤) النساء ٧١.
(٥) التحريم ١.
(٦) الانفطار ٦.
(٧) الانشقاق ٦.
(٨) الفجر ٢٧.

وفي أسلوب الزجر يستخدم النداء لتوجيه الخطاب نحو الكافرين دون غيرهم من الجن والإنس لأنهم كذّبوا بما جاء به الرسل: ﴿ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَا ﴾[1]وقوله تعالى موجّهاً الزجر في خطابه لأهل الكتاب: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلۡنَا مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبۡلِ أَن نَّطۡمِسَ وُجُوهٗا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدۡبَارِهَآ ﴾[2]

ويعمل النداء في أسلوب التحسّر على مد الصوت في لفظ الحسرة ليبيّن مقدار الندم على ما ضاع من عمل في الدنيا قد ينفع صاحبه، ومن ذلك حسرات الكافرين على ضياع عملهم وتعلقهم بالكفر والضلال، قوله تعالى: ﴿ أَن تَقُولَ نَفۡسٞ يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴾[3]وقوله تعالى: ﴿ يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴾[4]

ويستخدم في أسلوب الندبة والتوجّع أداة النداء (الياء) بدلاً من الواو، كما في قوله تعالى في توجّع أصحاب النار: ﴿ وَقَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا هَٰذَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ﴾[5]وقوله تعالى: ﴿ قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴾[6]

ب- الإنشاء غير الطلبي:

وهو ما لا يستدعي مطلوباً، ولا يبحث علماء البلاغة في الإنشاء غير الطلبي لقلة الأغراض المتعلقة به، ولأن أكثر صيغه في الأصل أخبار نقلت من معانيها الأصلية الى الإنشاء وله أساليب مختلفة. وهي:

المدح والذم:

- وهي: (نِعم و بئس) وقد وردتا في القرآن الكريم و(حبّذا ولا حبّذا) لم تردا فيه. وتفيد (نِعم) بكسر النون للمدح، وقد وردت لمدح صاحب العزّة وهو الله سبحانه وتعالى

---

(١) الانعام ١٣٠.
(٢) النساء ٤٧.
(٣) الزمر ٥٦.
(٤) يس ٣٠.
(٥) الصافات ٢٠.
(٦) القلم ٣١.

في قدرته ورحمته للخلق، كما فيقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ﴾[1] فهم يكلون اليه أمرهم في مثل هذا الموقف الصعب. وقوله تعالى: ﴿وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَىٰكُمۡۚ نِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ﴾[2] أي إن أصرّ الكفار على القتال فالله تعالى يتولى المؤمنين وينصرهم.

وتفيد نِعم لمدح الأنبياء وعباد الله الصالحين، كقوله تعالى في الثناء على داود (عليه السلام): ﴿وَوَهَبۡنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيۡمَٰنَۚ نِعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾[3]وكذلك الثناء على أيّوب (عليه السلام): ﴿وَخُذۡ بِيَدِكَ ضِغۡثٗا فَٱضۡرِب بِّهِۦ وَلَا تَحۡنَثۡۗ إِنَّا وَجَدۡنَٰهُ صَابِرٗاۚ نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ﴾[4]أي كثير الرجوع الى الله، والاستغفار منه، والتوبة عليه.

وتعمل (نِعم) على مدح عمل المؤمن والثناء على الأجر والثواب الذي يناله، مثل قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ غُرَفٗا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ نِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾[5]

وتأتي (نِعم) للثناء على الدار الآخرة، وهي الجنة دار جزاء المؤمنين المتّقين: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡۚ قَالُواْ خَيۡرٗاۗ لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۚ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞۚ وَلَنِعۡمَ دَارُ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾[6]

وتأتي (بئس) للذم، وقد وردت لذم أفعال الكافرين والمنافقين وأهل الكتاب، وما يقومون به من أفعال ذميمة تؤدي بهم الى النار، ومن ذلك قوله تعالى مبيّناً نبذهم ميثاق الله تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ وَٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَبِئۡسَ مَا يَشۡتَرُونَ﴾[7]وقوله تعالى في وصف أفعال أهل الكتاب: ﴿وَتَرَىٰ

(١) آل عمران ١٧٣.
(٢) الانفال ٤٠.
(٣) ص ٣٠.
(٤) ص ٤٤.
(٥) العنكبوت ٥٨.
(٦) النحل ٣٠.
(٧) آل عمران ١٨٧.

﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٦٢) لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾[١]

وترد بئس لذم الصاحب وقرين السوء، كقوله تعالى مبيّناً حال من يعبد الله عبادة غير ثابتة أو مستقرّة، فهو يرتد عند أدنى شدّة أو ابتلاء يصيبه، فقبّح المصاحب الذي ينصره، وقبّح المعاشر له. قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (٣٦) وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ (٣٧) حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ﴾[٢]وقوله تعالى: ﴿يَدْعُو لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ ۚ لَبِئْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ﴾[٣]

وتستخدم بئس لذم المصير أو المقام الذي يؤول اليه الكفار والمنافقون وهو نار جهنم، وهي المصير والقرار النهائي والمهاد والمثوى الذي يجمع هؤلاء الظالمين والمتكبرين. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾[٤]وقوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾[٥]وقوله تعالى: ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾[٦] وقوله تعالى: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا ۖ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ﴾[٧]وقوله تعالى: ﴿قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾[٨]ونار جهنم هي الورد المورود والرفد المرفود التي يردها فرعون وأتباعه: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ ۖ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ (٩٨) وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾[٩]

---

(١) المائدة ٦٢-٦٣.
(٢) الزخرف ٣٨.
(٣) الحج ١٣.
(٤) التوبة ٧٣.
(٥) آل عمران ١٢.
(٦) ابراهيم ٢٩.
(٧) آل عمران ١٥١.
(٨) الزمر ٧٢.
(٩) هود ٩٨-٩٩.

وتأتي بئس أيضاً لذم شراب جهنم الذي يتجرعه الكافرون، قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَاۚ وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَۚ بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقًا ﴾[1]

القَسَم:

- ويفيد توكيد الكلام وتثبيته، ومن حروفه (الواو والباء والتاء) ولفظ (لعَمر، وأيم). ورد القسم في القرآن الكريم بلفظ الجلالة (الله)، واستخدم حرف الباء (بالله) وهو الغالب، ويليه حرف التاء، ولم يرد حرف الواو إلاّ مرّة واحدة، والقسم يراد به- لقوة هذا اللفظ- تثبيت المعنى وتوكيده، ولنتأمل قسم الكافرين بالله تعالى: ﴿ وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِن جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ لَّيُؤۡمِنُنَّ بِهَاۚ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِۖ وَمَا يُشۡعِرُكُمۡ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾[2]فهؤلاء الكافرون يقسمون بالله أنهم يؤمنون إذا جاءتهم معجزة يرونها بأعينهم. ولنتأمل أيضاً قسم المنافقين: ﴿ يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدۡ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلۡكُفۡرِ وَكَفَرُواْ بَعۡدَ إِسۡلَٰمِهِمۡ ﴾[3] فهؤلاء المنافقون يحلفون كذباً بأنهم مؤمنون، ولكنهم ولكنهم كفروا بالله ولم ينفع قسمهم. ومما يلاحظ أن القسم بالله يسبقه الفعل (أقسَمَ وحلَفَ) وذلك للتنبيه الى أن العبارة أو الآية فيها قسم أو حلف، وقد جاء هذا القسم على لسان الكافرين والمنافقين.

ويأتي القسم بلفظ الجلالة (الله) مسبوقاً بحرف التاء، فهاهو ربّ العزّة يقسم في قوله تعالى: ﴿ وَيَجۡعَلُونَ لِمَا لَا يَعۡلَمُونَ نَصِيبٗا مِّمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡۗ تَٱللَّهِ لَتُسۡـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمۡ تَفۡتَرُونَ ﴾[4]وقوله تعالى: تعالى: ﴿ تَٱللَّهِ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾[5] وقوله تعالى على لسان إبراهيم (عليه السلام): ﴿ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصۡنَٰمَكُم بَعۡدَ أَن تُوَلُّواْ مُدۡبِرِينَ ﴾[6]ومما يلاحظ أن القسم بـ تالله كان على لسان ربّ العزّة وعلى لسان الأنبياء والأسباط.

---

(١) الكهف ٢٩.
(٢) الانعام ١٠٩.
(٣) التوبة ٧٤.
(٤) النحل ٥٦.
(٥) النحل ٦٣.
(٦) الانبياء ٥٧.

وقد استأثرت سورة يوسف بهذا النوع من القسم كما في قوله تعالى حكاية عن أخوته: ﴿ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَـٰرِقِينَ ﴾[1] فأقسم أخوة يوسف (عليه السلام) لدفع تهمة سرقة صواع الملك عنهم. وقوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَـٰلِكِينَ ﴾[2]

وورد القسم بلفظ الجلالة مسبوقاً بالواو (والله) كقوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾[3] فهؤلاء المشركون من الكفار والمنافقين وأهل الكتاب لم ينفع قسمهم بالله يوم القيامة لدفع الشرك عنهم.

والقسم بلفظ (رب) جاء مسبوقاً بالواو كثيراً، ولم يرد سوى مرّة واحدة مسبوقاً بالباء، والقسم بهذا اللفظ ورد على لسان رب العزّة، وعلى لسان الأنبياء والصالحين من عباده. كقوله تعالى: ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَـٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴾[4]وقوله تعالى مخاطباً رسوله الكريم (صلى الله عليه وسلم): ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[5]وقوله تعالى: ﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾[6] فكان القسم برب العالمين على أن يوم القيامة حق، والحساب حق، والجنة والنار حق. وجاء القسم برب العالمين مسبوقاً بالباء كقوله تعالى: ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَـٰرِقِ وَٱلْمَغَـٰرِبِ إِنَّا لَقَـٰدِرُونَ ﴾[7].

ويأتي القسم بظواهر الكون مسبوقاً بواو القسم، وذلك لعظمة هذا الكون وبديع خلق الله تعالى له فقد أقسم به، ليتفكّر الخلق بعظمة الخالق، ويؤمنوا به ولا يشركوا به أحداً. فقد أقسم بالسماء والأرض، والشمس والقمر والنجوم، وأقسم بالزمن الليل والنهار، والفجر والضحى والعصر ويوم القيامة، وأقسم بالتين والزيتون وطور سيناء والبلد الأمين مكة

---

(١) يوسف ٧٣.
(٢) يوسف ٨٥.
(٣) الانعام ٢٢-٢٣.
(٤) الذاريات ٢٠-٢٣.
(٥) الحجر ٩٢-٩٣.
(٦) يونس ٥٣.
(٧) المعارج ٤٠.

المكرمة، وأقسم بنفس الإنسان وعمره. قال تعالى: ﴿ وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ١ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ٢ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ٣ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ٤ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ٥ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا ٦ وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴾.[1] وقوله تعالى: ﴿ وَٱلۡفَجۡرِ ١ وَلَيَالٍ عَشۡرٖ ٢ وَٱلشَّفۡعِ وَٱلۡوَتۡرِ ٣ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ ﴾[2] وقوله تعالى: ﴿ وَٱلۡعَصۡرِ ١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ﴾[3] وقوله تعالى: ﴿ لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ١ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴾[4] وقوله تعالى: ﴿ وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيۡتُونِ ١ وَطُورِ سِينِينَ ٢ وَهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ ﴾[5] وقوله تعالى: ﴿ لَعَمۡرُكَ إِنَّهُمۡ لَفِي سَكۡرَتِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴾[6]

التعجّب:

- وهو. يقال: تعجّب من الأمر تعجّباً، فهو متعجّب، والأمر متعجَّب منه.[7] وهو عند البلاغيين: تعبير في اللغة: مصدر تعجّب عن شعور داخلي تنفعل به النفس حين تستعظم أمراً نادر الحدوث، أو لا مثيل له أو خارقاً للعادة، خفي السبب مجهول الحقيقة.

ويوصف الأمر المتعجب منه بأنه: عجيب، وعَجب، وعُجاب، وعُجّاب، والمراد من ذلك كله المبالغة في الصفة، وبين هذه الصيغ فروق دقيقة في المعنى. فالعجَب أبلغ من العجيب، والعُجاب ما جاوز حد العجب. والعجّاب قراءة أخرى لعُجاب.

ومن (العجيب) قوله تعالى حكاية عن سارة زوج النبي إبراهيم (عليه السلام) حين بشّرت بولادة غلام: ﴿ قَالَتۡ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عَجِيبٞ ﴾[8] وإن جاء لفظ الويل مسبوقاً بالنداء فإنها لا تعني الويل لنفسها حقيقة بل هو أسلوب في التعجب، وهو أن يولد ولد من شيخين هرمين خلافاً للعادة التي أجراها الله تعالى في العباد، فهذا الشيء يدعو الى العجب والدهشة، ولهذا تعجبت مستبعدة حدوث ذلك.

---

(١) الشمس ١-٧.
(٢) الفجر ١-٤.
(٣) العصر ١-٢.
(٤) القيامة ١-٢.
(٥) التين ١-٣.
(٦) الحجر ٧٢.
(٧) ابن منظور: لسان العرب مادة (عجب) .
(٨) هود ٧٢.

ومن (العجب) قوله تعالى: ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴾[1] أي قرآناً بديعاً مبايناً لسائر الكتب في حسن نظمه، وصحة معانيه، ودلائل إعجازه.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾[2] أي جعلوا اختيار آدمي ليس من الملائكة أو الجن أن يكون رسولاً لله تعالى أمراً عجباً، فاستنكروا ذلك فأنكر الله تعالى عليهم.

ومن (العُجاب) قوله تعالى حكاية عن المشركين: ﴿ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾[3] أي بليغ في العجب، ويعد المشركون ما اعتادوا عليه هم وآباؤهم عُجاباً بل محالاً. وقرئ: (إنّ هذا لشيء عُجّاب) بالتشديد، وهو أبلغ من المخفف.

وللتعجّب أساليب كثيرة تنحصر في نوعين، أحدهما قياسي والآخر سماعي، والقياسي له صيغتان: ما أفعَله، وأفعِل به. ومن الصيغة الأولى (ما أفعَله) قوله تعالى: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ ۚ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴾[4] أي ما أجرأهم على عذاب النار، فهذا تعجّب من شدّة صبرهم على النار. وقوله تعالى: ﴿ قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ﴾[5] قال الزمخشري: ((تعجّب من إفراطه في كفران نعمة الله))[6].

ومن الصيغة الثانية (أفعِل به) قوله تعالى: ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ۖ لَٰكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾[7]لا يوصف الله تعالى بالمتعجّب. قال الزمخشري: ((لا يوصف الله بالتعجّب، بالتعجّب، وإنما المراد أن أسماعهم وأبصارهم يومئذ جدير بأن يُتعجّب منها، بعدما كانوا صُماً وعُمياً في الدنيا))[8]. وقوله تعالى: ﴿ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا ۖ لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ

---

(١) الجن ١.
(٢) يونس ٢.
(٣) ص ٥.
(٤) البقرة ١٧٥.
(٥) عبس ٧.
(٦) الزمخشري: الكشاف ٥٠/١.
(٧) مريم ٣٨.
(٨) الزمخشري: الكشاف ٥٢/١.

﴿ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ ﴾[1] وقد أجمع على أن الضمير (به) يعود على الله تعالى، أيمكن أن يقال فيه أنه خرج على كلام العباد؟ سبحانه وتعالى عن ذلك علوّاً كبيرا.

وأما الأسلوب الثاني فهو السماعي، فقد وردت فيه صيغ تفهم من سياق الكلام مثل (سبحان الله، وحاشا لله، ومالي، وما لهذا، وكيف) ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾[2]وقوله تعالى عن النسوة اللائيّ اللائيّ رأين يوسف (عليه السلام): ﴿ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾[3]وقوله تعالى حكاية عن النبي سليمان (عليه السلام): ﴿ مَا لِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴾[4]وقوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ﴾[5]وقوله تعالى: ﴿ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ ﴾[6]أليس ﴾[6]أليس هذا تعجّب من الله تعالى في حقّه سبحانه؟ ومثل هذا كثير في كتاب الله تعالى وفي حديث رسوله(صلى الله عليه وسلم). فقد ثبت أن إسناد التعجّب الى الله جائز، ولكن على أن يحمل على مجرد الاستعظام، وأن معناه من الله تعالى ليس كمعناه عند العباد، وذلك لأن ما خفي سببه على الكافر، فإن سببه معروف عند الله تعالى، فإن التعجّب هنا لمجرد الاستعظام من الحالة، فإن كانت قبيحة يترتب عليها العقاب، وإن كانت حسنة يترتب عليها الثواب، وبهذا المعنى جاز إضافته الى الله تعالى.

الرجاء:

- وهو طلب حصول أمر مرغوب فيه ممكن وقوعه أو الحصول عليه، وله حرف واحد وهو (لعلّ) وأفعال (عسى، وحرى، واخلولق) وتسمى أفعال الرجاء، وقد ورد في القرآن الكريم حرف الرجاء (لعلّ) بكثرة، ويليه فعل الرجاء (عسى) ولم ترد الأفعال الأخرى.

ورد حرف الرجاء (لعلّ) في الخطاب الموجّه للنبي محمد (صلى الله عليه وسلم) لتأميله وتصبيره، وإبعاد اليأس عن قلبه إزاء ما يواجه من مصاعب وعنت من المشركين.

---

(١) الكهف ٣٦.
(٢) يس ٣٦.
(٣) يوسف ٣.
(٤) النمل ٢٠.
(٥) الكهف ٤٩.
(٦) التوبة ٧.

قال تعالى: ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ﴾[1]وقوله تعالى لنبيه لترضيته بالصبر على أقوالهم ومحوها بالتسبيح لله في أوقات الغروب والفجر وآناء الليل وأطراف النهار: ﴿ فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ غُرُوبِهَاۖ وَمِنۡ ءَانَآيِٕ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡ وَأَطۡرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرۡضَىٰ ﴾[2]

ويأتي حرف الرجاء (لعلّ) في الخطاب الموجّه للمؤمنين وأهل الكتاب، ويتضمّن جملة من الأوامر والنواهي في العبادات والأحكام، فيبرز حرف الرجاء هنا من أجل أمور ذكرها الخطاب الإلهي وهي: التقوى، والشكر، والهداية، والعقل، والفلاح، والرحمة، والتذكّر، واليقين، والسلام، والغلبة. ومنها قوله تعالى: ﴿ وَإِذۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡفُرۡقَانَ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴾[3]وقوله تعالى في العبادات: ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴾[4]وقوله تعالى في الأحكام: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾[5]

ويرد حرف الرجاء (لعلّ) في الخطاب غير المباشر الموجّه لعامة الناس وللكافرين والمشركين والمنافقين، فيضع أمامهم الأمل في نبذ الكفر أو الشرك لعلهم (يتقون، يرجعون، يتفكرون، يذكّرون، ينتهون، يحذرون، يعلمون، يهتدون، يضرّعون). ومثل هذا الرجاء فرصة أخيرة لإنقاذ النفس من الوقوع في النار. قال تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ﴾[6] وقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ أَخَذۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴾[7]وقوله تعالى: ﴿ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ ﴾[8]

---

(١) هود ١٢.
(٢) طه ١٣٠.
(٣) البقرة ٥٣.
(٤) النور ٥٦.
(٥) آل عمران ١٣٠.
(٦) البقرة ١٨٧.
(٧) الاعراف ١٣٠.
(٨) التوبة ١٢.

أما حرف الرجاء (لعلّ) في خطاب المتكلّم والغائب فإنه خطاب عام يبيّن إرادة المتكلم سواء كان مؤمناً أم كافراً. قال تعالى على لسان النبي موسى (عليه السلام): ﴿إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾[1]وقوله تعالى مخاطباً موسى وهارون (عليهما السلام): ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ﴾[2]أي لعل فرعون يثوب الى رشده، فيتذكر أنه مخلوق لا خالق، فيخاف الله تعالى.

ويستخدم فعل الرجاء (عسى) في خطاب الأنبياء والمرسلين لصدق الرجاء بالله تعالى، وهو نِعم المجيب لعبده الراجي، والأنبياء أقرب العباد لله تعالى في ما يرجون فيه. فالنبي إبراهيم (عليه السلام) يرجو أن يعتزل قومه وما يعبدون من دون الله من الأصنام ويدعوا أن لا يكون بعده شقياً: ﴿وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدۡعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا﴾[3] والنبي يعقوب (عليه السلام) يرجو ربّه عودة أبنائه يوسف والآخرين من رحلتهم من مصر جميعاً. قال تعالى: ﴿فَصَبۡرٞ جَمِيلٌۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَنِي بِهِمۡ جَمِيعًا﴾[4] وكان رجاء النبي موسى (عليه السلام) من ربّه أن يهديه الطريق السليم، وهو في توجهه نحو مدين: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلۡقَآءَ مَدۡيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهۡدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾[5]وفي خطابه تعالى للنبي محمد (صلى الله عليه وسلم) يذكره بالله، ويدعوه الى أن يرجوه الى هدايته للرشاد: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَهۡدِيَنِ رَبِّي لِأَقۡرَبَ مِنۡ هَٰذَا رَشَدٗا﴾[6]

وتأتي (عسى) في خطاب الله تعالى لتوجيه المؤمنين الى النظر الى الأمور نظرة دقيقة ولكنها غير جامدة، فليس كل ما يحبون حسناً، وليس كل ما يكرهون سيئاً، فقد يكون العكس هو الصحيح. قال تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾[7]ويشمل الرجاء المستضعفين من الرجال والنساء الذين لم يستطيعوا أن يهاجروا من مكة الى المدينة، فاستثناهم الله تعالى برجاء العفو من

---

(١) القصص ٢٩.
(٢) طه ٤٤.
(٣) مريم ٤٨.
(٤) يوسف ٨٣.
(٥) القصص ٢٢.
(٦) الكهف ٢٤.
(٧) البقرة ٢١٦.

النـار: ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعۡفُوَ عَنۡهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورٗا ﴾[(١)] وكـذلك يشـمل رجـاء العفـو عمـن اعتـرف بذنبـه، وخلـط عمـلاً صـالحاً بعمـل سيئ. قـال تعـالى: ﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴾[(٢)]

صيغ العقود:

- وهـي عبـارات مـن الجمـل الفعليـة والاسـمية تتضـمّن ألفاظـاً أو صـيغ عقـود فـي البيـع والشـراء والهبـات، والـزواج أو النكـاح والطـلاق، والمبايعـة والخلـع وغيرهـا. ومـن صيغ الفعل (باع) لفظ (تبـايع) أي بـاع أحد لآخر، أو البيـع المتبـادل أو المتـداول بين الناس، فالله تعالى يـأمر بـأن يكـون هنـاك شـاهد علـى هـذا البيـع، أو كاتـب يكتبـه حتـى يحفظه من النكران أو النسيان، قال تعـالى: ﴿ وَأَشۡهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعۡتُمۡۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٞ وَلَا شَهِيدٞ ﴾[(٣)] ومن صيغ الفعل اسم المصدر (البيع) ورد قولـه تعـالى: ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمۡرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾[(٤)] فبيّن الله تعالى الفرق الواضح بين البيع وهو حلال والرّبا وهو حرام. وقولـه وقولـه تعـالى فـي وصـف المـؤمنين: ﴿ رِجَالٞ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوۡمٗا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلۡقُلُوبُ وَٱلۡأَبۡصَٰرُ ﴾[(٥)]
ومـن صـيغ الفعـل (شـرى) يشـري شـراء وهـو مـن الأضـداد أي بـاع، كمـا فـي قولـه تعـالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ ﴾[(٦)] أي يبيعهـا فـي سـبيل الله، والبيع هنا مجازاً، أي يضعها تحت تصرّف الله وإرادته. وقوله تعالى في أخوة يوسف (عليـه السـلام) وبـيعهم إيـاه لـبعض السـيّارة المتـوجّهين الـى مصـر: ﴿ وَشَرَوۡهُ بِثَمَنِۭ بَخۡسٖ دَرَٰهِمَ مَعۡدُودَةٖ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴾[(٧)] أي باعوه لهم بثمن قليل.

---

(١) النساء ٩٩.
(٢) التوبة ١٠٢.
(٣) البقرة ٢٨٢.
(٤) البقرة ٢٧٥.
(٥) النور ٣٧.
(٦) البقرة ٢٠٧.
(٧) يوسف ٢٠.

ومن صيغ الفعل (اشترى) عكس باع أي طلب البضاعة لنفسه، كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ﴾[١]وقد تم البيع والشراء، فالمؤمنون يقدمون أنفسهم في سبيل الله، يقاتلون الكفار ويقتلون، وثمن ذلك الشراء هو الجنة، وهذه صفقة تجارية رابحة، وقد خاطبهم الله تعالى بمثل هذا الخطاب لأن العقلية العربية في ذلك الوقت كانت عقلية تجارية، تعتمد في معيشتها على التجارة والرحلات الى البلدان المجاورة، وكانت مكة مركز تجمع القوافل التي تعرض بضاعتها في الأسواق.

ومن هذه الصيغة أيضاً قوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴾[٢]يبيّن الله تعالى أن الصفقة التي تمّت بينه وبين المنافقين صفقة خاسرة لهم، فقد اختار هؤلاء الكفر والضلالة بدلاً من الإيمان والهداية. وكذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[٣]وإن هذه الصفقة التي تمّ فيها شراؤهم الكفر بدلاً من الإيمان لن تضرّ الله شيئاً، وإنما تضرّ الكافرين وحدهم، لأنّ مصيرهم الى النار.

ويدخل في هذا الباب الهبة والعطاء دون مقابل، وهو منّة من الله تعالى، ومن هذه الهبات التي وردت في القرآن الكريم هبة النبوة والرحمة، كما في قوله تعالى على لسان موسى (عليه السلام): ﴿ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾[٤]فكانت هبته الحكمة والنبوّة. وقوله تعالى على لسان إبراهيم (عليه السلام): ﴿ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴾[٥]فقد طلب طلب الهبة من الوهّاب وهي الحكمة، وأن يكون من الصالحين، ولسانه صادقاً بين الناس، وآخرته في جنة النعيم.

---

(١) التوبة ١١١.
(٢) البقرة ١٦.
(٣) آل عمران ١٧٧
(٤) الشعراء ٢١.
(٥) الشعراء ٨٣-٨٥.

وطلب النبي سليمان (عليه السلام) من الله الوهّاب أن يغفر له، وأن يهب له ملكاً لم يكن لأحد مثله من بعده، قال تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾[1]فأعطاه الله تعالى في الدنيا الملك والسلطان، وسخّر له الريح والطير والجان.

ومن هذه الهبات إعطاء الولد للوالدين رزقاً من الله تعالى دون مقابل، وهذه الهبة حدثت كمعجزة من معجزات الله تعالى، فقد حدثت في وقت الشيخوخة واليأس، كما حدثت للنبي إبراهيم (عليه السلام) قال تعالى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴾[2]وقوله تعالى في عطائه للنبي زكريا (عليه السلام): ﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾[3]وقوله تعالى في عطائه للنبي داود (عليه السلام): ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾[4]وقوله تعالى في تنوّع عطائه: ﴿ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴾[5]

ومن صيغ العقود الزواج والطلاق، فعقدة النكاح هي الوثيقة التي تحفظ مثل هذا الزواج، وفسخها يعني الطلاق والفراق بين الزوجين، وقد ورد في هذه العقود لفظ (نكح) أكثر من لفظ (زوّج) وذلك لأن الأول يمثل الارتباط الجسدي، والثاني يمثل الارتباط الاجتماعي، فالزوج هو الشخص الثاني للأول المفرد، قال تعالى مخاطباً النبي محمد (صلى الله عليه وسلم): ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴾[6]رغب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) الزواج من زينب زوج زيد الذي تبنّاه بعد أن طلّقها، فأنزل الله تعالى حكمه بجواز ذلك الزواج، وأبطل عادة جاهلية بتحريم الزوج من زوجة المتبنى خشية الناس.

ويبيّن لفظ (يزوّج) أن هذا الزواج قد شرّعه الله تعالى للمخلوقات جميعاً، فقد خلقهم ذكورا وإناثا ليتزوّجوا، وقد يجعل أحدهما عقيما فلا يرزق بالولد ، قال تعالى: ﴿ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ

(١) ص ٣٥.
(٢) ابراهيم ٣٩.
(٣) الانبياء ٩٠.
(٤) ص ٣٠.
(٥) الشورى ٤٩.
(٦) الاحزاب ٣٧.

﴿ ذُكۡرَانٗا وَإِنَٰثٗاۖ وَيَجۡعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًاۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٞ قَدِيرٞ ﴾[1]وكذلك يزوّجهم في الجنة من الحور العين. قال تعالى: ﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٖ مَّصۡفُوفَةٖۖ وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِينٖ ﴾[2]أي قرنهم الله تعالى بنساء بيض واسعات العيون جزاء لهؤلاء المتقين.

وقد حددت صيغة (نكح) طبيعة ذلك الزواج الذي أحلّه الله تعالى بقوله: ﴿ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تَعۡدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ ﴾[3] فقد جعل العدل أساس ذلك التعدد، وإبطاله في حالة الخوف من الظلم والمقدرة على التوازن، وأن يتم ذلك النكاح بإذن أهلهن، وأن يعطين مهورهن بالمعروف أو بحسب القاعدة المتّبعة. قال تعالى: ﴿ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذۡنِ أَهۡلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ مُحۡصَنَٰتٍ غَيۡرَ مُسَٰفِحَٰتٖ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخۡدَانٖ ﴾[4]

ووضع لهذا النكاح ضوابط دقيقة وهي أنه لا يجوز نكاح زوجة الأب بعد وفاته على عادة الجاهلية، فإن ذلك النكاح يعد فاحشة وممقوتاً ومستحقرا. قال تعالى: ﴿ وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ وَمَقۡتٗا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾[5]

وحرّم الله تعالى نكاح زوجات الرسول (صلى الله عليه وسلم) من بعده، لأنهن أمهات المؤمنين. قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لَكُمۡ أَن تُؤۡذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزۡوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ أَبَدًاۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴾[6] فإن ذلك الفعل يعد عند الله جرماً عظيما.

وحرّم الله تعالى نكاح المسلم من المشركات حتى يؤمنّ، ونكاح المسلمة من المشرك حتى يؤمن. قال تعالى: ﴿ وَلَا تَنكِحُواْ ٱلۡمُشۡرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤۡمِنَّۚ وَلَأَمَةٞ مُّؤۡمِنَةٌ خَيۡرٞ مِّن مُّشۡرِكَةٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡۗ وَلَا تُنكِحُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤۡمِنُواْۚ وَلَعَبۡدٞ مُّؤۡمِنٌ خَيۡرٞ مِّن مُّشۡرِكٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكُمۡۗ أُوْلَٰٓئِكَ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ وَٱلۡمَغۡفِرَةِ بِإِذۡنِهِۦ ﴾[7] فالزواج من المشركة أو المشرك دعوة إلى النار.

---

(١) الشورى ٥٠.
(٢) الطور ٢٠.
(٣) النساء ٣.
(٤) النساء ٢٥.
(٥) النساء ٢٢.
(٦) الاحزاب ٥٣.
(٧) البقرة ٢٢١.

وحرّم الله تعالى نكاح المؤمن من الزانية لأن الزانية لا ينكحها إلاّ زان مثلها. قال تعـــــــالى: ﴿ ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾(١) ثم يأمر الله تعالى بالعفّة لمن لم يملك مالاً لتكاليف الزواج من مهر ونفقة، قال تعالى: ﴿ وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾(٢)

وصيغ الطلاق واضحة ومحددة بشروط معينة تصب في صالح الزوجين المطلقين، فالطلاق مرّة يعد طلاقاً رجعياً له مدّة يمكن للزوج أن يمسك المرأة أو يسرّحها، ولا يبقيها للإضرار بها. قال تعالى: ﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ﴾(٣) والطلاق الرجعي لا يمنع المرأة أو أو يجبرها على العودة الى زوجها إلاّ بعد التراضي بالمعروف كم في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾(٤)

وإذا طلّق الرجل المرأة طلاقاً خلعياً أي بعد ثلاث طلقات متفرّقة فإنها لا تحلّ له حتى تتزوّج رجلاً غيره، فإن طلّقها الرجل الثاني فلا مانع من أن تتراجع بعقد جديد مع الزوج الأول، وتعود اليه كما في قوله تعالى: ﴿ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ ۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ﴾(٥)

أمّا المهر وهو صداق المرأة فإن تم الطلاق ولم يمس الرجل المرأة ولم يفرض لها منه، فإنه من الممكن أن يمتّعها أي أن يعطيها مالاً قدر وسعه. قال تعالى: ﴿ لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾(٦)وإن طلّقها قبل أن يمسّها وقد فرض لها مهراً فعليه أن يعطيها نصفه، إلاّ أن

(١) النور ٣.
(٢) النور ٣٣.
(٣) البقرة ٢٣١.
(٤) البقرة ٢٣٢.
(٥) البقرة ٢٣٠.
(٦) البقرة ٢٣٦.

تعفوا فلا تأخذه، أو يعفوا هو فيعطيها إياه. قال تعالى: ﴿ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ﴾[1]

وأما العدّة فإنّ المرأة بعد طلاقها لا تخر ج من بيتها إلاّ بعد انقضاء المدة الزمنية، وهي ثلاثة قروء (حيضات)، فإن للزوج أن يمسكها أو أن يسرّحها بإحسان. قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ ۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ ﴾[2]

ومن صيغ العقود لفظا (بايع) و(نكث) كما في مبايعة المهاجرين والأنصار للنبي محمد(صلى الله عليه وسلم) تحت الشجرة، وهي بيعة الرضوان في الحديبية. قال تعالى: ﴿ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾[3]وقد أثنى الله تعالى على الذين بايعوا بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾[4]

وهناك مبايعات فردية تجري بين رجال أو نساء دخلوا الإسلام، وأرادوا مبايعة الرسول(صلى الله عليه وسلم) على الإيمان ونبذ الشرك وعبادة الأصنام والأوثان. ومن ذلك قوله تعالى في المؤمنات: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ ۙ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[5]والبهتان: الفعل الشنيع الذي يحيّر العقول، العقول، وهو ادّعاء المرأة أن الولد من زوجها وهو في الحقيقة ليس منه، وقوله تعالى (بين أيديهن وأرجلهن) كناية عن أنه ولدهن من أزواجهن.

ب: أحوال الجملة القرآنية

(١) البقرة ٢٣٧.
(٢) الطلاق ١.
(٣) الفتح ١٨.
(٤) الفتح ١٠.
(٥) الممتحنة ١٢.

- الجملة: ((اللفظ المفيد فائدة يحسن السكوت عليها))[1]أو هي الوحدة الكلامية الصغرى للكلام المفيد. أو هي الوسيلة التي تنقل ما جاء من ذهن المتكلم الى السامع. وتتكوّن الجملة من ركنين هما: المسند والمسند اليه. فالمسند: وهو المحكوم به أو المخبر به، ومواضعه: الفعل التام، واسم الفعل، وخبر المبتدأ، والمبتدأ المكتفي بمرفوعه، وما أصله خبر المبتدأ، مثل: خبر كان وأخواتها، وخبر إنّ وأخواتها، والمفعول الثاني لظنّ وأخواتها، والمفعول الثالث لأرى وأخواتها، والمصدر النائب عن فعل الأمر.

والمسند اليه: وهو المحكوم عليه أو المخبر عنه، ومواضعه: الفاعل، ونائب الفاعل، والمبتدأ، وما أصله مبتدأ مثل اسم كان وأخواتها، واسم إنّ وأخواتها، والمفعول الأول لظنّ وأخواتها، والمفعول الثاني لأرى وأخواتها.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ هِيَ حَسْبُهُمْۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾[2] اسند الفعلين (وعد، ولعن) الى الفاعل الله سبحانه وتعالى، فالفعلان مسند، ولفظ الجلالة مسند اليه. وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴾[3] أسند الفعل (يحب) الى الله تعالى، فالفعل مسند ولفظ الجلالة مسند اليه، وما زاد عن المسند والمسند اليه مثل: أدوات الشرط، والنفي، والمفعولات، والحال، والتوابع، والنواسخ فهي فضلة خارجة عن الإسناد.

ويقسّم النحاة الجملة الى اسمية وفعلية وظرفية، فعندما يبدؤون بالاسم يقولون جملة اسمية، ويبدؤون بالفعل يقولون جملة فعلية. وقد حاول القدامى أن يضعوا سمات يستدل بها المتكلم، وقالوا إنّ توجيه الخطاب بالجملة الاسمية يتضح فيه معنيان: الأول: الاختصاص أي أن الفاعل قد فعل ذلك الفعل دون غيره، مثل قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴾[4]فصدّر الجملة بالضمير العائد لله تعالى على اختصاصه بالإضحاك والإبكاء، والإماتة والإحياء، وصيّر الجملة اسمية ردّاً على من زعم أن له شريك في هذه الأفعال.

والثاني: التحقق أي تمكّن المعنى من نفس السامع بحيث لا يخالجه أدنى ريبة أو شك في ذلك، كما في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴾[5]فخاطبوا المؤمنين بالجملة الفعلية، وخاطبوا الكفار بالجملة

---

(١) شرح ابن عقيل ١٤/١.
(٢) التوبة ٦٨.
(٣) الصف ٤.
(٤) النجم ٤٣-٤٤.
(٥) البقرة ١٤.

الاسمية المحققة بـإنّ المشددة، وذلك لأنهم في خطابهم لإخوانهم يخبرونهم عن أنفسهم بالثبات على الكفر والتمادي فيه، وفي خطابهم بالجملة الفعلية لما فيه من تكلّف وإظهار للإيمان خوفاً ومداجاة من غير عزم.

وتوجيه الخطاب بالجملة الفعلية يراد به الإخبار بمطلق العمل مقروناً بالزمان من غير أن يكون هناك مبالغة أو توكيد، كقوله تعالى: ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ ﴾[1]وقوله تعالى: ﴿ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾[2] فالغرض الإخبار من غير إشعار بمبالغة، ولمّا أراد المبالغة أكمل الجملة الأولى ((فهم يوزعون)) وأكمل الثانية ((وهو يتولى الصالحين)) فإتيانه الجملتين الإسميّتين بعد الجملتين الفعليّتين دلالة على الحقيقة دون زمانها، والفعل دلالته الحقيقة وزمانها.

وقال فخر الدين الرازي: ((وإذا كان الغرض من الإخبار الإثبات المطلق غير المُشعر بزمان وجب أن يكون الإخبار بالاسم كقوله تعالى: ﴿ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ﴾[3] لأنه ليس الغرض إلاّ إثبات البسط للكلب، فأما تعريف زمان ذلك فليس بمقصود، وأما إذا كان الغرض في الإخبار الإشعار بزمان ذلك الثبوت فالصالح له الفعل، كقوله تعالى: ﴿ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾[4] فإن المقصود بتمامه لا يحصل بمجرد كونه معطياً للرزق بل بكونه معطياً للرزق في كل حين وأوان))[5].

ويؤتى بالجملة الظرفية إذا كان المراد اختصار الجملة الفعلية مثل (محمد في الدار) أي محمد استقرّ فيها، أو نزل فيها. ومن الأساليب المتنوّعة المتصلة بالمسند والمسند اليه ومتعلقاتها الموضوعات الآتية:

١- التعريف والتنكير:

المعرفة: ما دلّ على شيء بعينه، والنكرة ما دلّت على شيء لا بعينه. ويدخل التعريف على المسند اليه، لأنّ الأصل فيه أن يكون معرفة لأنه المحكوم عليه، والحكم على المجهول لا يفيد. والتعريف مختلف ويأتي بوسائل عدّة، وهي على النحو الآتي:

الإضمار: تتعدّد الضمائر منها للمتكلم ومنها للمخاطب ومنها للغائب، كما في قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴾[6]وقوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا

---

(١) النمل ١٧.
(٢) الاعراف ١٩٦.
(٣) الكهف ١٨.
(٤) فاطر ٣.
(٥) ينظر: الرازي: نهاية الايجاز في دراية الاعجاز ٤١.
(٦) ص ٦٥.

﴿ لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾[1] فالضمير (نا، ونحن) يعودان الى الله تعالى، وهو المتكلم عن ذاته العالية، أو مخاطباً رسوله الكريم (صلى الله عليه وسلم) ليخبر الناس عن تكليفه بإنذار المشركين. كقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌۖ وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ ﴾[2]وقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخۡشَىٰهَا ﴾[3] فالضمير (أنت) يعود الى النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) في خطاب الله تعالى له. وقوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾[4] وقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ ﴾[5] فالضمير (هو) يعود الى الله تعالى.

ومن وسائل التعريف العَلمية: وهي إحضار المسند اليه بعينه في ذهن السامع باسمه الخاص أو كنيته لتعظيمه أو لتحقيره، فمن التعظيم قوله تعالى: ﴿ قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴾[6]وقوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴾[7]وقوله تعالى: ﴿ مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ ﴾[8]ومن التحقير قوله تعالى: ﴿ تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ ﴾[9]وأبو لهب كنيته، واسمه عبد العزّى، وهو عم النبي (صلى الله عليه وسلم).

ومن الوسائل الموصولية: وتأتي لأسباب منها التقرير للتنزيه وإظهار الحق كقوله تعالى: ﴿ وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ ﴾[10]والاسم الموصول (التي) يريد به امرأة العزيز سيق لتنزيه النبي يوسف (عليه السلام) عن الفحشاء. وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡ ﴾[11] والاسم الموصول (الذين) يريد بهم المنافقون الذين يظهرون خلاف ما يبطنون، فجاء لتنزيه أم المؤمنين عائشة (رضي الله عنها). وقوله تعالى في غرق فرعون وجنوده ﴿ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلۡيَمِّ مَا غَشِيَهُمۡ ﴾[12] فالاسم الموصول (ما) جيء به لتفخيم

---

(١) الحجر ٩.
(٢) الرعد ٧.
(٣) النازعات ٤٥.
(٤) الفتح ٢٨.
(٥) الانعام ٩٩.
(٦) الاخلاص ١-٢.
(٧) البقرة ٢٥٥.
(٨) الفتح ٢٩.
(٩) المسد ١.
(١٠) يوسف ٢٣.
(١١) النور ١١.
(١٢) طه ٧٨.

الحدث. وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾[1]والاسم دَاخِرِينَ ﴾[1]والاسم الموصول (الذين) ويريد بهم الكافرون إذ يدخلون نار جهنم صاغرين. صاغرين.

ومن الوسائل الإشارة: ويؤتى بالمسند اليه مسبوق بها بقصد إحضاره في الذهن لأن الإشارة أكمل في التمييز وبيان حاله من حيث تعظيمه أو تحقيره، ومن ذلك قوله تعالى في تعظيم القرآن الكريم: ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٌ ﴾[2]وقوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدًى لِّلۡمُتَّقِينَ ﴾[3] وقوله تعالى في بيان تهكّم الكافرين بالإشارة الى النبي (صلى الله عليه وسلم) وهو المسند اليه: ﴿ وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِي يَذۡكُرُ ءَالِهَتَكُمۡ وَهُم بِذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ﴾[4]وقوله تعالى ك﴿ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآ ﴾[5]والإشارة هنا موجهة من المشركين الى المؤمنين بقصد السخرية منهم.

ومن الوسائل التعريف بأل: مثل أل العهدية التي يشار بها الى معهود بين المتكلم والمخاطب، فترد مرّة منكرة ومرّة معرفة، ومجيء لفظ معرفة في موضع في القرآن الكريم ولفظ نكرة في موضع آخر لم يكن مصادفة، وإنما هو مقصود، جيء به على تلك الحال لينسجم مع السياق الذي ورد فيه، من ذلك لفظ (حياة) جيء به تعريفاً وتنكيراً، ففي التعريف قوله تعالى: ﴿ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَعِبٞ وَلَهۡوٞۖ وَلَلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾[6] أي إن إن الحياة هنا وصفت بأنها متاع للإنسان فيها اللهو واللعب والزينة والتفاخر والتكاثر في كل شيء، ولكنه متاع وقتي زائل يغتر فيه اللاّهي وينسى الآخرة.

وجاء لفظ (حياة) نكرة في قوله تعالى: ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمۡ أَحۡرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٖ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمۡ لَوۡ يُعَمَّرُ أَلۡفَ سَنَةٖ وَمَا هُوَ بِمُزَحۡزِحِهِۦ مِنَ ٱلۡعَذَابِ ﴾[7] فالتنكير هنا جاء للتحقير لأن لأن الكلام فيها عن اليهود وذمّهم وتوبيخهم لحرصهم على هذه الحياة الزائلة، فيتمنى أن

---

(١) غافر ٦٠.
(٢) الانعام ٩٢.
(٣) البقرة ١.
(٤) الانبياء ٣٦.
(٥) الانعام ٥٣.
(٦) الانعام ٣٢.
(٧) البقرة ٩٦.

يطول عمره ألف سنة. يريدون أن يعيشوا حياة أية حياة ولا يهمهم نوعها، هل هي عزيزة أم ذليلة، كريمة أم حقيرة؟

وقد يأتي تنكير (حياة) للتعظيم كما في قوله تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[١] في هذه الآية جاء لفظ (حياة) للتشريف والتعظيم، لأن السياق وفيه الثناء على المؤمن وعد إلهي متحقق بأن يجعله يحيا حياة طيبة، فأين الحياة الطيبة التي يحياها المؤمن من الحياة الحقيرة التي يحرص عليها اليهودي؟

ومن الألفاظ أيضاً (عزيز وكريم) فقد وردا معرفتين، كما في قوله تعالى في تحقير الكافر: ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴾[٢]وورد اللفظان نكرتين كما في قوله تعالى في تعظيم الرسول (صلى الله عليه وسلم): ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴾[٣]وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾[٤] فإننا نجد أنفسنا إزاء العديد من الأسئلة أهمها ما سرّ التعريف في موضع والتنكير للفظة نفسها في موضع آخر؟ وللإجابة عن هذا السؤال لابدّ لنا من التأمل الدقيق في هاتين اللفظتين في حال تعريفهما بـ أل. يقول عبد القاهر الجرجاني: ((اعلم انك تجد الألف واللام في الخبر على معنى الجنس، ثم ترى له في ذلك وجوهاً أحدها أن تقصر جنس المعنى على المخبر عنه لقصدك المبالغة..)).[٥]

فالتعريف بـ أل هنا على دلالة قصر جنس المعنى على المخبر عنه بقصد المبالغة، فكأن العزّة والكرامة لم توجد إلاّ في هذا الشخص، ومن خلال سياق الآية نجد أنها تقصد السخرية والتهكم أي عكسهما، لأن هذا الشخص هو أبو جهل فمعان العزّة والكرامة ليس له نصيب منها.

ومن وسائل التعريف الإضافة، وتأتي لإحضار المسند اليه في الذهن، وبيان حاله من التعظيم أو التحقير. كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾[٦] فلفظ عبادي فيه تعظيم لشأن العباد بأنهم عباد الله تعالى. وكذلك قوله تعالى:

﴿قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾[٧]

---

(١) النحل ٩٧.
(٢) الدخان ٤٩.
(٣) الفتح ٣.
(٤) الحاقة ٤٠.
(٥) الجرجاني: دلائل الاعجاز ١٣٨.
(٦) الاسراء ٦٥.
(٧) المائدة ١٥.

فإضافة رسول الى الضمير (نا) العائد الى الله تعالى لتعظيم هذا الرسول الذي جاء ليبيّن صحيح الآيات لأهل الكتاب. ويأتي اللفظ المضاف في موضع السخرية والتهكّم كما في قوله تعالى على لسان فرعون: ﴿ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِيٓ أُرۡسِلَ إِلَيۡكُمۡ لَمَجۡنُونٞ ﴾[1]فإضافة لفظ رسولكم الى المخاطبين ليس على سبيل الاعتراف برسالة النبي موسى (عليه السلام) ولكن على سبيل الاستهزاء.

٢- الذكر والحذف:

القرآن الكريم له نمط خاص في التركيب إذ يجد المتمرّس في أساليب العربية وطرائقها في التعبير أن نمط الجملة العربية في القرآن الكريم فريد ومتميّز، ومن أوجه الإعجاز البياني الذكر والحذف للحروف والكلمات، فقد يذكر الحرف في موضع ويحذف في موضع آخر، وكذا الكلمة، وينبغي أن نعلم أن الحذف إذا وقع في القرآن فإنه لا ينسب الى المعنى بل الى تركيب الجملة، وهو أحد أنماط التركيب اللغوي، وسنذكر بعض الأمثلة على ذلك:

أ- الذكر والحذف في الحروف:

من روائع البيان القرآني أنه يحذف حرفاً في موضع ويذكره في موضع آخر، والحذف ليس اعتباطياً، كما إن ذكره ليس مصادفة، وإنما لحكمة بالغة وهي التوازن الدقيق في جميع الأمور، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿ هَٰذَا فِرَاقُ بَيۡنِي وَبَيۡنِكَۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأۡوِيلِ مَا لَمۡ تَسۡتَطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرًا ﴾[2] وقوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ تَأۡوِيلُ مَا لَمۡ تَسۡطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرٗا ﴾[3]ورد لفظ (تستطع) مرّة وورد (تسطع) مرّة أخرى، بإثبات التاء وحذفها، ووجه الإعجاز كما يراه البلاغيون أن موسى (عليه السلام) أول الأمر كان قلقاً من جرّاء أفعال الخضر (عليه السلام) فراعى السياق القرآني الثقل النفسي الذي يعيشه النبي موسى (عليه السلام) فأثبت التاء بحيث تتناسب وثقل نطق الكلمة بوجود الحرف، وفي المرّة الثانية حذف التاء وهو ليس من أصل الكلمة بعد زوال الحيرة والهم ليتناسب وخفتها.

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿ فَمَا ٱسۡطَٰعُوٓاْ أَن يَظۡهَرُوهُ وَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقۡبٗا ﴾[4]فقد ورد اللفظ في الآية نفسها مرّة (اسطاعوا) ومرّة (استطاعوا) فإن ذكر الحرف وحذفه بحيث يتناسب مع السياق، فإن يأجوج ومأجوج حاولوا تسلّق السّد الذي بناه ذو القرنين كي يمنع

---

(١) الشعراء ٢٧.
(٢) الكهف ٧٨.
(٣) الكهف ٨٢.
(٤) الكهف ٩٧.

فسادهم، والتسلّق يحتاج الى خفة فناسب ذلك حذف التاء. أما النقب والحفر فإنهما يحتاجان الى جهد وقوّة وآلات فناسب ذلك وذكر التاء.

ومن الاحتمالات القياسية في اللغة تقدير الحرف المحذوف من الكلمة وحذفه كان لإعجاز بياني كما في قوله تعالى: ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾[(١)] والمحذوف هنا حرف الباء (بأن) لأن الأمر يأتي معه الباء مثل قوله تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾[(٢)] ويحتمل أن يكون المحذوف اللام (لأن أكون)، ولعل الإرادة الإلهية أرادت التوسّع في المعنى بهذا الحذف. وقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لَّا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ﴾[(٣)] فالحرف المحتمل حذفه (في) (في ميثاق) ويحتمل المحذوف اللام (لئلاّ يقولوا) ويحتمل (على) (على أن لا يقولوا) لذا فإن هذا التعبير يحتمل التوسّع في المعنى، أي أن جمع أربع معاني في معنى واحد محذوف الحرف.

وفي حالة أخرى يحذف الحرف في موضع يقتضي الحذف، والذكر يفيد التوكيد كما في قوله تعالى: ﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (١٤٠) وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴾[(٤)]

التعبير هنا يحتمل تقدير حذف أكثر من حرف للتوسع، وعندما لا يحتمل إلاّ حرفاً بعينه فيكون في مقام التوكيد أو التوسع، فمثلاً حرف اللام ذكر في (ليعلم) وحذف في (يتخذ) لأن الآية الأولى (وليعلم الله الذين) نزلت في معركة أحد، لغرض عام يشمل كل المؤمنين في ثباتهم وسلوكهم، ولا يختص به جماعة من الناس، وقوله (يتخذ منكم شهداء) ليس في سعة الغرض الأول، فالشهداء أقل من عموم المسلمين، وقوله تعالى في الآية الثانية (وليمحّص) ذكرت فيها اللام ولم تذكر في (يمحق) وهو غرض عام سواء كان قي المعركة أو غيرها لمعرفة مقدار إخلاصهم وثباتهم، وهو أكثر اتساعاً وشمولا من يمحق لأن محق الكافرين ليس بسعة تمحيص المؤمنين، فالأرض لم تخلُ من الكافرين، ولم يمحقهم على وجهها.

---

(١) النمل ٩١.
(٢) آل عمران ١١٠.
(٣) الاعراف ١٦٩.
(٤) آل عمران ١٤١-١٤٢.

وورد قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ﴾[1]ولم يأت بواو العطف في قوله تعالى: ﴿ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ﴾[2]والسؤال هنا لماذا كان العطف في الآية الأولى بالواو وليس بالفاء أو ثم أو التخيير (أو) وغيرها من حروف العطف؟ الجواب: لأن الواو الحرف الوحيد من حروف العطف يجمع بين الاسمين والضدين في آن واحد، فكأنّ المعنى: إن الله عزّ وجل في اللحظة التي هو فيها هو في نفسها آخر، فلو وضعنا مثلاً حرفاً آخر من حروف العطف مثل (أو) للتخيير والعياذ بالله الأول أو الآخر يعني أننا وقعنا في الشرك، وكذلك لو قلنا الأول فالآخر يعني هو الأول ثم بعد ذلك هو الآخر وهذا شرك أيضاً نعوذ بالله منه، ولذا جاءت الآية الثانية بدون عطف لأن الله تعالى يعني هو كلها في آن واحد.

ب- الذكر والحذف في الكلمات:

حرص علماء البلاغة على هذه الأساليب، وأولوا عناية كبيرة بإسلوب الذكر والحذف، وما فيه من أغراض، ومما يتعلق بضرورة الذكر إذ لم يكن هناك مرجح للحذف البلاغي، وإذا كان المتكلم يريد التقرير والإيضاح في كلامه فعليه أن يذكر ما لا يجوز حذفه. فمثلاً قوله تعالى في خطابه لموسى (عليه السلام): ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝١٧ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴾[3]فلو قال: عصاي لكفى في الإجابة، ولكنه أراد أن يُطيل الحديث مع ربّه ليزداد شرفاً وطمأنينة باستماع الله تعالى اليه. ومن ذلك تكرار المبتدأ لزيادة التقرير والإيضاح مثل قوله تعالى: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[4] فقد كرر الله تعالى (أولئك) والثانية حقها الحذف ولكنه تعالى أبقاها تأكيداً لثبوت الفلاح لهم.

وأما الحذف فإنه على أنواع ثلاثة، هي: حذف المسند اليه أي الفاعل والمبتدأ، وحذف المسند أي الفعل والخبر، وحذف المفعول به والظرف وجميع الزيادات. ولا يجوز حذف المسند اليه إلاّ إذا دلّ عليه دليل من اللفظ، ومن ذلك حذف الفاعل في قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ

(١) الحديد ٣.
(٢) الحشر ٢٣.
(٣) طه ١٧-١٨.
(٤) البقرة ٥.

﴿ يَتَوَكَّلُونَ ﴾[(١)] فالفعلان الماضيان (ذُكر، تُليت) مبنيان للمجهول، وهنا حذف الفاعل (المؤمنون، الله) لعدم تعلّق الغرض بهما. وكذلك قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[(٢)] فالمحذوف الفاعل (أنتم) والمعنى كما يرى المفسرون لا حاجة لذكر الفاعل لأنه معلوم. وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾[(٣)]وتقدير الجملة (خلق الله الإنسان) ولم يذكر اسم الجلالة لأنه معلوم.

ومن حذف المبتدأ ما يقع في جواب الاستفهام كقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴾[(٤)]والمحذوف (هي) (هي نار حاميه) وكذلك المبتدأ في الجمل الاسمية الواقعة جواباً للشرط كقوله تعالى: ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ﴾[(٥)]والمحذوف (فعمله لنفسه). وقوله تعالى: ﴿ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾[(٦)] والمحذوف: وقالوا (القرآن). ويحذف المبتدأ لضيق المقام وإطالة الكلام مثل قوله تعالى: ﴿ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾.[(٧)]والمحذوف (فأمري صبر جميل)

وحذف المسند أي الفعل والخبر لا يجوز إلاّ إذا دلّ عليه دليل، ومن حذف الفعل قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا ۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾.[(٨)] ففي النهي الأول جاء الفعل (لا يحلّ) ولكنه في المنهيات الأخرى المعطوفة محذوف لوجود الدليل عليه. ومن نظائر هذه الآية قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَحِلُّ

---

(١) الانفال ٢.
(٢) الجمعة ١٠.
(٣) النساء ٢٨.
(٤) القارعة ١٠-١١.
(٥) فصلت ٤٦.
(٦) الفرقان ٥.
(٧) يوسف ١٨.
(٨) النساء ١٩.

﴿ لَكُمْ أَن تَأْخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا ﴾[1]ويبدو أن وراثة النساء وأخذ ما أعطي لها مهراً كان الناس يزاولونها من دون أن يروا فيها بأساً أو حرجاً. ومن حذف الخبر قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾[2]والخبر المحذوف (أحق) تقديره (والله أحق أن يرضوه ورسوله أحق أيضا).

ويحذف المفعول به في الجملة لأغراض منها البيان بعد الإبهام، كما في قوله تعالى: ﴿ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ ﴾[3]والمحذوف لفظ (فروجهن) وكذلك لم يذكر لفظ الجلالة (الله) بعد الذاكرات. فلماذا ذكر لفظ (فروجهم) عند كلامه عن الرجال، ولم يذكر كلمة (فروجهن) عن النساء، هناك أمر قد نلمسه في بيان سر الحذف وهو أنّ الله تعالى لم يمدح النساء بحفظ فروجهنّ فقط، بل مدحهن بمطلق الحفظ، والمرأة ترتقي بهذا الحفظ، ولا تصل الى هذه المرتبة العالية إلاّ إذا حافظت على نفسها من كل أسباب الغواية، ولو جاء في القرآن الكريم لفظ (فروجهن) لوجدنا المرأة تقبل على الرجال وتفعل معهم كلّ ألوان الزنا عدا الفروج، ويقال أنها حفظت فرجها، فتدخل في جماعة الممدوحين في هذه الآية، والقرآن الكريم يمدح المرأة في حفظها كل ما من شأنه أن يحفظ، لذا حذف المفعول به للشمول والتعميم.

ويحذف المفعول في قوله تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[4] فالمحذوف هنا المفعول به (علما) وتقديره (يعلمون علماً) فالاهتمام هنا بالفاعل وليس بمن وقع عليه الفعل. ونقرأ قوله تعالى في قصة موسى (عليه السلام): ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾[5] فالمفاعيل المحذوفة على الترتيب: (ماء، غنماً أو إبلاً، السقي) والتقدير: يسقون ماء، وتذودان غنما، لا نسقي ماء، يصدر الرعاء السقي، فسقى لهما ماء. وجاءت الأفعال دون المفاعيل لأن الغرض يراد به العلم من الناس السقي، ومن المرأتين الذود، وأن موسى (عليه السلام) هو من سقى لهما، أما كون المسقي غنماً أو إبلاً فهو خارج عن المراد.

---

(١) النساء ٢٢٩.
(٢) التوبة ٦٢.
(٣) الاحزاب ٣٥.
(٤) الزمر ٩.
(٥) القصص ٢٣-٢٤.

ويستدل على المفعول المحذوف بوجود قرينة تدل عليه مثل قوله تعالى: ﴿ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخۡتِمۡ عَلَىٰ قَلۡبِكَ ﴾[1]والمحذوف (ختماً) والتقدير (يختم ختماً)

ويذكر المفعول به أو يحذف للإيضاح كقوله تعالى في حذف المفعول (ربهم): ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾[2]والتقدير (كفروا ربّهم). وقوله تعالى في ذكر المفعول (ربهم): ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴾[3] فلفظ (ربهم) لم يذكر مع الذين كفروا، وهم يساقون الى النار، وهؤلاء لا يستحقون أن يذكر معهم رب العالمين، لأن لفظ الرب يعني الصاحب والراعي والرحيم الذي يرعى عباده فلا ينسجم ذلك مع الكافرين. وذكر لفظ (ربهم) مع المتقين لأنه ينسجم معهم، وفيه نوع من التكريم، وإنه مطمئن لهم ومحبب لديهم.

أما بالنسبة الى ذكر الواو وحذفها (فتحت، وفتحت) فإن حذفها قد تمّ مع أصحاب النار، وفيها إذلال لهم، لأن الكافرين يساقون الى جهنم، وكأنهم ينتظرون ثم تفتح لهم الأبواب، وعندما يصلون اليها تفاجئهم النار. أما المؤمنون فإنهم يرون أبواب الجنة مفتحة لهم قبل وصولهم اليها، وهم مطمئنون في حال مسيرهم اليها. والواو حالية (وفتحت) أي في حالة انفتاح، وهذا نوع من التكريم لهم.

٣- التقديم والتأخير:

نلتزم الجملة العربية بنظام ترتيبي معيّن، ففي الجملة الاسمية يتقدم المبتدأ على الخبر، وفي الجملة الفعلية يتقدم الفعل ثم يليه الفاعل وهكذا، فإذا اختل هذا الترتيب فإن المبدع يقصد ذلك لغاية بلاغية. والقرآن الكريم له حكمة بالغة في علة التقديم والتأخير قد نعلمها وقد لا نفهمها، ولكن العلة باقية والأفهام تختلف فيها.

وأوجز عبد القاهر الجرجاني التقديم والتأخير بقوله: ((هو باب كثير الفوائد، جم المحاسن، واسع التصرّف، بعيد الغاية، لا يزال يفتر لك عن بديعة، ويفضي بك إلى لطيفة،

---

(١) الشورى ٢٤.
(٢) الزمر ٧١.
(٣) الزمر ٧٣.

ولا تزال ترى شعراً يروقك سمعه، ويلطف لديك موقعه، ثم تنظر فتجد سبب أن راقك ولطف عندك، أن قدّم فيه شيء وحوّل اللفظ عن مكان إلى مكان)).[١]

ويقدّم المبتدأ على الخبر والفاعل على المفعول لأغراض بلاغية منها تمكين الخبر في ذهن السامع لأن في المبتدأ تشويقاً له، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾[٢]فقدّم المبتدأ أكرمكم على أتقاكم، ويأتي التقديم أيضاً لغرض تقوية الحكم وتقريره، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ۝٥٨ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾[٣]فقدّم المبتدأ (هم) أي المؤمنون بآيات الله ولا يشركون به.

ويتقدّم المبتدأ أحياناً لأن طبيعته تقتضي التقديم كقوله تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾[٤]وقوله تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾[٥]في الآية الأولى: قدّم الجن على الإنس قبل الخبر وذلك لأن الحديث عن النفاذ من أقطار السماوات والأرض، ولا شك أن هذا هو ميدان الجن لكثرة تنقلهم، وسرعة حركتهم، وبلوغهم الى أماكن في السماء يتخذونها مقاعد للاستماع، والتقديم هنا يناسب خواصهم أكثر من الإنس. وفي الآية الثانية: قدّم الإنس على الجن قبل الخبر لأن مضمون الآية فيه تحدّ للإتيان بمثل هذا القرآن، ولا شك إن مدار التحدّي على لغة القرآن ونظمه وبلاغته وحسن بيانه وفصاحته، والإنس في هذا المجال هم المقدّمون، وهم أصحاب البلاغة والفصاحة، وتقديمهم يتلاءم وطبيعتهم.

ويأتي تقديم المبتدأ لمسألة تعبّدية شرّعها الله تعالى للناس، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾[٦] فقدّم الله تعالى الصفا على المروة وهما قبل الخبر لحكمة بالغة، والنبي محمد (صلى الله عليه وسلم) ارتقى جبل الصفا أولاً أي بدأ به في سعيه، ثم ارتقى بعده المروة، لأن الله تعالى ذكره أولاً.

---

(١) الجرجاني: دلائل الاعجاز ١٣٥.
(٢) الحجرات ١٣.
(٣) المؤمنون ٥٨-٥٩.
(٤) الرحمن ٣٣.
(٥) الاسراء ٨٨.
(٦) البقرة ١٥٨.

ويقدّم المبتدأ لإفادة العموم على الخصوص، كما في قوله تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾[١]فمن الملاحظ أن الله تعالى قدّم المال على البنين في هذه الآية وفي آيات أخرى مثل قوله تعالى حكاية عن صاحب الجنتين ﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾[٢]وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾[٣] ولا شك في أن الأبناء أعزّ من المال، وأن المرء يضحي بماله لصالح ولده، والمال يضحى به لصالح النفس البشرية، وتقديمه على البنين لحكمة أرادها الله تعالى وذكرها أهل التفسير.

ويقدّم الخبر على المبتدأ والمفعول به على الفاعل ويؤخر لكون ذكرهما أهم لأنه أصل ولا مقتضي للعدول عنه، أو ليتمكن الخبر في ذهن المتلقي لأن في تقديمه على المبتدأ تشويقاً أو تعجيلاً لمسرّة أو لتفاؤل أو لإيهام وغير ذلك. ومن ذلك قوله تعالى في تقديم الخبر لتخصيصه بالمبتدأ: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[٤]فتقدّم الخبر (لله) جار ومجرور، ومجرور، وتأخّر المبتدأ (ملك) لتخصيص الملك لله وحده. وقوله تعالى في مثل هذا التخصيص بتقديم الخبر (لكم): ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾[٥] فخص دين الشرك بالمشركين، وخص دين الإسلام وهو دين التوحيد بالنبي(صلى الله عليه وسلم) والمسلمين وحدهم. وقوله تعالى في وصف خمر الجنة، فقدّم الخبر منفياً (لا فيها): ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا﴾[٦] أي أن هذه الخمرة لا تذهب العقل أو تغتاله كخمرة الدنيا.

ويتقدّم المفعول به على الفاعل لغرض الترتيب الظاهر في العظمة والشأن، مثل قوله تعالى في تقديم مفعول على آخر: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾.[٧] قدّم الله تعالى على رسوله، وهذا أمر واضح لأن الفرق بينهما كبير، فالله تعالى الخالق والرسول الكريم المخلوق.

---

(١) الكهف ٤٦.
(٢) الكهف ٣٤.
(٣) الشعراء ٨٨.
(٤) آل عمران ١٨٩.
(٥) الكافرون ٦.
(٦) الصافات ٤٧.
(٧) النساء ١٣.

ويتقدّم المفعول به على مفعول آخر أيضاً أو يتأخر لمناسبة عامة توافق ذلك، كقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا ۚ قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ ۚ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾[1]

في البدء قدّم المفعول به (تجارة) على (لهواً) لأن التجارة هي السبب الحقيقي في انفضاضهم عن النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) والآية نزلت في واقعة حدثت في أثناء خطبة الجمعة، فقدمت قافلة الى المدينة وانصرف الناس اليها وتركوا النبي (صلى الله عليه وسلم) ولم يبق معه الاّ اثنا عشر رجلا، وقد أفرد الضمير (اليها) العائد الى التجارة، ولم يقل (اليهما) أي التجارة واللهو مما يعني التأكيد هنا على على ذم الانفضاض عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) حتى لو كان لتجارة، وهي ذات منفعة لهم، ولاسيما أنهم كانوا في وقت جوع وغلاء سعر، فكيف بمنع غيرها من توافه الأمور، فإن خصصت النافع بذم أو نهي فما دونه أولى بذلك المنع أو الذم.

أما الجزء الثاني من الآية فقد قدّم اللهو لأنه يتحدّث عن أمر عام وهو أن ما عند الله خير، فناسب تقديم اللهو لأنه أعم، فاللهو يفعله أكثر الناس حتى الفقراء منهم، وأما التجارة فهي خاصة ببعض الناس، ومن المعتاد أن نبدأ بالأدنى عند المفاضلة، واللهو أدنى من التجارة، ففي الأخيرة شيء من كسب أو نفع ليس لهما وجود في اللهو، ولما كان المقام مقام ذم فإن اللهو أظهر في الذم، ويناسب تأخير التجارة لتكون ألصق بخاتمة الآية (والله خير الرازقين) وهو سبب الرزق.

وقد تتقدم مكملات الجملة أو تتأخر كالجار والمجرور والظرف والحال وذلك لأغراض بلاغية، منها الترتيب بسبب القرب والبعد من الفاعل، كما في قوله تعالى: ﴿ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ ﴾.[2] وقوله تعالى: ((فإذا جاءت الصّاخة. يوم يفرّ المرء من أخيه. وأمه وأبيه. وصاحبته وبنيه. لكلّ امرئ منهم يومئذ شأن يُغنيه)).[3]

في الآية الأولى يرد مشهد من مشاهد العذاب يوم القيامة، فيرى المجرم مصيره وما أعد له فيتمنى أنه لو أستطاع أن يجعل أحداً مكانه حتى لو كان من أقرب الناس اليه وألصقهم به، فقدّم الابن ثم الزوجة ثم الأخ وبعده العشيرة وأهل الأرض كافة، كيف لا وهو مجرم لا يهمه أن ينال الأبرياء العذاب دونه حتى لو كانوا أبناءه، وهم الأقرب اليه، لأنه في حالة هلع وفزع تدفعه الى التضحية بهم في سبيل نجاته، وقد رتبهم من الأقرب الى الأبعد.

وفي الآية الثانية بدأت بالأخ ثم الأم ثم الأب وبعدهم الزوجة والأبناء، والمقام هنا مقام فرار من حمل أوزار الآخرين، وعندما يفرّ المرء يريد أن ينجو بنفسه عنهم، فهو يفرّ

---

(١) الجمعة ١١.
(٢) المعارج ١١-١٣.
(٣) عبس ٣٣-٣٧.

أولاً من الأباعد وينتهي الفرار من الأقرب اليه وهم الأبناء، وقد رتبهم من الأبعد الى الأقرب.

وقد يكون التقديم بسبب الاختصاص كم في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[1] فقدّم (إياك) لاختصاص العبادة بالله وحده، وعلّة العبادة سبب في حصول الاستعانة، وقد يكون التقديم للاهتمام بالمتقدّم كقوله تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ﴾[2]وقوله تعالى حكاية عن امرأة فرعون ﴿قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ﴾[3] فقدّم الظرف (عندك) على المفعول به (بيتاً) خلاف التركيب اللغوي لغرض أنها اختارت جوار ربّها قبل أن تختار الدار، وهذا يدل على شدّة شوقها الى الله تعالى، وأدبها في مخاطبته.

ومن أسباب التقديم والتأخير السبق الزمني كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾[4] فترتيب الأنبياء وتقديم اسم على آخر بسبب السبق الزمني له، وقد يكون بسبب الذات التي تفيد العدد مثل قوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ﴾[5]وقد يكون بسبب اختلاف المرتبة كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[6] لأن المغفرة سلامة، والرحمة غنيمة، والسلامة مطلوبة قبل الغنيمة.

ويكون التقديم والتأخير بسبب الاهتمام بالمخاطب كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾[7]وقد يكون في التأخير إخلال بالمعنى مثل قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ﴾[8] والمقصود أن الرجل المؤمن هو من آل فرعون، وليس المقصود هو كتمان إيمان الرجل- خوفا- من آل فرعون، وتأخير (آل فرعون) يخل بالقصد.

---

(١) الفاتحة ٥.
(٢) الانعام ١٦٤.
(٣) التحريم ١١.
(٤) الاحزاب ٧.
(٥) المجادلة ٧.
(٦) البقرة ١٨٢.
(٧) النساء ٨٦.
(٨) غافر ٢٨.

وقد يكون التقديم أو التأخير رعاية للفاصلة القرآنية كما في قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ ﴾[1] وتقديره: فلا تقهر اليتيم ولا تنهر السائل. وقوله تعالى: ﴿ فَأَوۡجَسَ فِي نَفۡسِهِۦ خِيفَةٗ مُّوسَىٰ ﴾[2] أخّر موسى رعاية للفاصلة، ولو قدّمه لتغيّر المعنى

٤- القصر:

القَصر لغة: الحبس، وفي الإصطلاح: تخصيص شيء بشيء بطريق مخصوص. وللقصر طرق منها:

- النفي والاستثناء: ويكون المقصور عليه في هذه الطريقة بعد أداة الاستثناء، ويتم في هذه الطريقة قصر الخبر على المبتدأ، من ذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ﴾[3] فالحياة مبتدأ مقصور، ومتاع الغرور مقصور عليه. وقوله تعالى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ ﴾[4] محمد مبتدأ مقصور، والرسالة خبر مقصور عليه. وقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡ ﴾[5] فإرسال الرسل وهو جملة فعلية، ورجالاً مفعول به مقصور عليه. وقوله تعالى حكاية عن المشركين: ﴿ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ ﴾[6] فالعبادة (نعبدهم) جملة فعلية مقصور، والتقريب (ليقربونا) مقصور عليه، وهو قصر موصوف على صفة.
- إنما: المقصور هو المقدّم والمقصور عليه هو المؤخر، مثل قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ ﴾[7] ف المؤمنون مقصور، وأخوة مقصور عليه. وقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾[8] فالخشية من الله مقصور، والعلماء مقصور عليه، لأنهم لأنهم يخافون الله ويخشونه أكثر من غيرهم. وقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ

---

(١) الضحى ٩-١٠.
(٢) طه ٦٧.
(٣) الحديد ٢٠.
(٤) آل عمران ١٤٤.
(٥) النحل ٤٣.
(٦) الزمر ٣.
(٧) الحجرات ١٠.
(٨) فاطر ٢٨.

﴿وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ﴾[1] فالتحريم مقصور، والميتة والدم وما بعدها مقصور عليه. وقوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾[2] فالضمير أنت والمقصود رسول الله (صلى الله عليه وسلم) مقصور، والتذكير بالآخرة مقصور عليه. وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾[3] نحن مقصور والإصلاح مقصور عليه.

- العطف بـ (لا، لكن، بل) والمقصور يكون بعدها: من ذلك قوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾[4] فالمقصور هنا (محمد) والمقصور عليه الرسالة وختام النبوة. وقوله تعالى حكاية عن أهل الكتاب: ﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُواْ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِۦمَ حَنِيفًا﴾[5] فالمقصور هنا (كونوا) أي أنتم أنتم المقترح عليكم اليهودية أو النصرانية، والمقصور عليه الإسلام الدين الحنيف. وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ﴾[6] فالمقصور من يقتل في سبيل الله، والمقصور عليه أحياء. وقوله تعالى عن العزير (عليه السلام): ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ﴾[7] فالمقصور مدّة اللبث يوم أو بعض يوم، والمقصور عليه مدة اللبث مائة عام.

- تقديم ما حقه التأخير: تجري الجملة في العربية على نسق لتؤدي المعنى المراد، فتوضع كل كلمة موضعها، ولكن حين يريد المخاطب التركيز على أمر يحظى باهتمامه يبرزه ويوضحه، فيقدّمه ويؤخر ما تقدّم عليه، فيكون المقصور هو المتقدّم والمقصور عليه هو المتأخر. ومن ذلك تقديم الخبر على المبتدأ في مثل قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾[8] فقدّم الخبر (فيهما) وهو مقصور، وأخر المبتدأ (آلهة) اسم كان وهو المقصور عليه، وتقدير الجملة كذا (لو كان آلهة فيهما...)

---

(١) البقرة ١٧٣.
(٢) الغاشية ٢١.
(٣) البقرة ١١.
(٤) الاحزاب ٤٠.
(٥) البقرة ١٣٥.
(٦) البقرة ١٥٤.
(٧) البقرة ٢٥٩.
(٨) الانبياء ٢٢.

وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[1] فقدّم الخبر (للرجال) وهو مقصور، وأخر (درجة) وهو مبتدأ مقصور عليه، وتقدير الجملة (درجة للرجال عليهن).

ومن ذلك تقديم المفعول به على الفاعل كما في قوله تعالى: ﴿ أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴾[2] فقدّم المفعول به وصفته (آلهة إفكاً) وهو مقصور على الفعل والفاعل (تريدون) وهو مقصور عليه، وتقدير العبارة (أتريدون آلهة إفكاً دون الله)؟

ومن ذلك تقديم الجار والمجرور على الفعل والفاعل كما في قوله تعالى: ﴿ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴾[3] قدّم الجار والمجرور (فله) على الفعل والفاعل (أسلموا) وهو مقصور عليه، وتقدير العبارة (أسلموا له) وهو مقصور، أي قصر الإسلام عليه، وأسلموا أي توجّهوا اليه وحده دون غيره. وكذلك قوله تعالى: ﴿ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ ﴾[4]قدّم الجار والمجرور (به) وهو مقصور على الفاعل اسم الجلالة (الله) وهو مقصور عليه، وتقدير العبارة (يهدي الله به من اتبع رضوانه).

ومن ذلك تقديم الجار والمجرور على المفعول به كما في قوله تعالى: ﴿ لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا ﴾[5] فقدّم الجار والمجرور (مع الله) وهو مقصور على المفعول به (إلهاً) وهو مقصور عليه، وتقدير الجملة (لا تجعل إلهاً مع الله). وقوله تعالى أيضاً: ﴿ وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴾[6] قدّم الجار والمجرور (للكافرين) و(على المؤمنين) وهما مقصوران على المفعول به (سبيلا) وهو مقصور عليه، وتقدير العبارة (لن يجعل الله سبيلاً للكافرين على المؤمنين).

ومن ذلك تقديم جار ومجرور على آخر كما في قوله تعالى: ﴿ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ ﴾[7] فقدّم الجار والمجرور والمعطوف عليه (بأموالهم وأنفسهم)

---

(١) البقرة ٢٢٥.
(٢) الصافات ٨٦.
(٣) الحج ٣٤.
(٤) المائدة ١٦.
(٥) الاسراء ٢٢.
(٦) النساء ١٤١.
(٧) النساء ٩٥.

وهو مقصور على الجار والمجرور (على القاعدين) وهو مقصور عليه، وتقدير العبارة (فضّل الله المجاهدين على القاعدين بأموالهم وأنفسهم)

ومن ذلك تقديم الظرف على المفعول به كقوله تعالى: ﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥ﴾[1] فقدّم الظرف (عند الله) وهو مقصور على المفعول به (عهداً) وهو مقصور عليه، وتقدير العبارة (قل اتخذتم عهداً عند الله).

٥- الفصل والوصل:

الوصل عطف بعض الجمل على بعض والفصل تركه[2]وأدوات الوصل هي كل أداة تصل بين المفردات أو الجمل ليستقيم المعنى، وتأتي في مقدمتها (الواو) وأدوات الفصل هي: واو الاستئناف، ثم، الفاء، أم المنقطعة، بل، الاستثناء المنقطع، ضمائر الفصل، الجمل المعترضة.

وقد خاطب القرآن الكريم الحس العربي، وكان يفصل بين المعاني ويربط بينها، ويلوّن عباراته مراوحاً بين فصل ووصل ثقة بفهم المخاطب، أو مراعاة لمقتضى الحال، ولم يتقيد في فصله بطرح الواو بل استخدم معها أدوات أخرى، كما لم يقتصر في وصله على الواو بل استخدم معها أدوات الربط الأخرى حسبما اقتضت الحاجة لذلك. وهو في كل هذا يرمي الى إبراز جمال المعنى لتحقيق كمال الفائدة. فحين يصف مشاهد الجنة أو النار أو يصوّر الثواب والعقاب، أو يتحدّث عن الأخبار والقصص ولا يعرضها عرضاً سطحياً بل يتخذ الوسائل التي تبرز كل طاقاتها من إثارة الخيال والعواطف والمنطق.

ويلتفت الزمخشري الى ظاهرة أسلوبية دقيقة في نظم القرآن وهي أن الجملة تأتي في نسق مفصولة عمّا قبلها من جمل، وتأتي موصولة بما قبلها في نسق آخر، وذلك لأن المعنى قد لا يتسق بالفصل والوصل، فمثلاً ما ورد في سورة الحج قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾[3]وتأتي في السورة نفسها الجملة نفسها وهي مفصولة عما قبلها: ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ﴾[4]ويتساءل الزمخشري: لمَ جاءت نظيرة هذه الآية معطوفة بالواو وقد نزعت عن هذه؟ يجيب: لأن تلك وقعت مع ما يدانيها ويناسبها من الآي الواردة في أمر النسائك فعطفت على أخواتها، وأما هذه واقعة مع أباعد عن معناها فلم تجد معطفا.[5]

---

(١) البقرة ٨٠.
(٢) القزويني: الايضاح ١٤٧.
(٣) الحج ٣٤.
(٤) الحج٦٧.
(٥) الزمخشري: الكشاف ٢١/٣.

ومن ذلك الفصل والوصل بالفاء قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾[١]وجاءت (فلهم) بالفاء في السورة نفسها: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾[٢]يقول الزمخشري: ((الموصولة لم تضمن معنى الشرط وضمنته المفصولة، والفرق بينهما من جهة المعنى أن الفاء فيها دلالة على أن الإنفاق به قد استحق الأجر، وطرحها عار عن تلك الدلالة))[٣]

أ- **الفصل: هناك مواضع ينبغي الفصل فيها وهي:**

١- كمال الاتصال: وذلك أن يكون بين الجملتين اتحاد تام، أي اتصال كامل، وكأن الجملة الثانية توكيد للأولى أو بدل منها أو بيان لها، من ذلك قوله تعالى: ﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾[٤] ففي هذه الآية ثلاث جمل: ذلك الكتاب، لا ريب فيه، هدى للمتقين. فالجملة الثانية توكيد معنوي، والجملة الثالثة توكيد لفظي، وقد وصف الكتاب- القرآن الكريم- بأنه قد بلغ الدرجة العليا من الكمال. قال الزمخشري: ((إن قوله (الم) جملة برأسها أو طائفة من حروف المعجم مستقلة بنفسها، و (ذلك الكتاب) جملة ثانية، و(لا ريب فيه) جملة ثالثة، و(هدى للمتقين) جملة رابعة، وقد أصيب بترتيبها مفصل البلاغة، وبموجب حسن النظم حتى جيء بها متناسقة هكذا من غير نسق، وذلك لمجيئها متآخية آخذاً بعضها ببعض، فالثانية متحدة بالأولى معتنقة لها، وهلم جرّا إلى الثالثة والرابعة))[٥]

وقوله تعالى: ﴿ كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ﴾[٦] والوقر: الثقل في السمع، فالجملة الثانية (كأنّ في أذنيه...) جاءت مقرّة لما أفادتها الأولى. وقوله تعالى: ﴿ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴾[٧] فالجملة الثانية (أمهلهم رويدا) جاءت توكيداً لفظياً للأولى.

وتأتي الجملة الثانية بدلاً من الأولى لكون الأولى غير وافية بتمام المراد، كما في

---

(١) البقرة ٢٦٢.
(٢) البقرة ٢٧٤.
(٣) الزمخشري: الكشاف ٣٩٤/١.
(٤) البقرة ١-٣.
(٥) الزمخشري: الكشاف ٣٩٩/١.
(٦) لقمان ٧.
(٧) الطارق ١٧.

قولـه تعـالى: ﴿أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾[(١)]فالجملـة الثانيـة (أمدكم بأنعام وبنين) جاءت بدل بعض من بعض، وقد فصّلت ما أوجز، وأوفت بتأدية ما قبله من غير إحالة على علمهم مع كونهم معاندين، والإمداد بما ذكر وغيره هو بعض الإمداد بما يعلمون أو هو جزء منه. وقوله تعالى: ﴿اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾[(٢)] فالجملـة الثانيـة (اتبعـوا من لا يسألكم...) هي بدل اشتمال، وهي أكثر تفصيلاً وتوضيحاً للمراد، والمراد هو حمل المخاطبين على إتباع الرسل، ومعناه كما يقول الزمخشري: ((لا تخسرون معهم شيئاً من دنياكم، وتربحون صحة دينكم، فينتظم لكم خير الدنيا والآخرة))[(٣)]
وتأتي الجملة الثانية بياناً للأولى فتنزل منها منزلة عطف البيان من متبوعه في إفادة الإيضاح، والمقتضى أن يكون في الأولى نوع خفاء ينبغي إزالته، كقوله تعالى:
﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾[(٤)]
فالجملة الثانية (قال يا آدم...) فصّلت عما قبلها لأنها بيان لها، وإيضاح ما وسوس الشيطان لآدم (عليه السلام).
٢- كمال الانقطاع: وهو أن تنقطع الصلة بين الجملتين انقطاعاً تاماً، كأن إحدى الجملتين تكون خبراً والثانية إنشاء، أو أن تكون إحدى الجملتين قائمة بذاتها، فلا توجد مناسبة أو علاقة تجمع بينهما. كما في قوله تعالى في وصف نعيم الجنة: ﴿وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾[(٥)] فالجملتـان الأولـى والثانيـة (ونمارق مصفوفة. وزرابي مبثوثة) خبريتان، والجملة الثالثة (أفلا ينظرون) جملة إنشائية، وفيها أداة الحض (أفلا) بمثابة أمر، أي انظروا كيف خُلقت الإبل، والانقطاع بين وصف الجنة والالتفات الى كيفية الخلق، ولكن الأسلوب القرآني جمعهما دون أداة وصل، ولعله يريد إن الذي خلق هذه المرئيات كالإبل والسماء والأرض قادر على خلق غير المرئيات مثل الجنة وما فيها من نعيم. فأضاف الفصل حسناً ودعوة للتأمل والتفكر، مما يؤكد أن ((تذوق الجمال ليس مجرد إدراك حسّي وإنما هو إدراك لقيمة أو اكتشاف لدلالة جمالية هيهات لأي مظهر حسّي أن يستوعبها بتمامها))[(٦)]

---

(١) الشعراء ١٣٢-١٣٤.
(٢) يس ٢٠-٢١.
(٣) الزمخشري: الكشاف ٣١٩/٣.
(٤) طه ١٢٠.
(٥) الغاشية ١٥-١٧.
(٦) جان لاكوست: فلسفة الفن ٧٦.

٣- التوسّط بين كمال الاتصال وكمال الانقطاع: ويسمّى الاستئناف وبه يتم الفصل بين الجملتين لتنزيل الجملة الثانية منزلة الأولى لاعتبارها جواباً عن سؤال يستنتج أن المتلقي سيسأله مع نفسه عند سماعه الجملة الأولى، وتسمى الجملة الثانية مستأنفة أو استئنافاً، وذلك لتنبيه المتلقي، أو لإغنائه عن السؤال، أو لئلا ينقطع الكلام بسؤال المتلقي، أو للإيجاز أو غير ذلك. ومن ذلك قوله تعالى على لسان امرأة العزيز: ﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ ﴾[1] فالجملة الثانية (إنّ النفس...) كأنها جواب لسؤال (هل النفس أمّارة بالسوء؟) وقوله تعالى: ﴿ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ ٣٦ رِجَالٞ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ ﴾[2] فالجملة الثانية (رجال لا تلهيهم...) كانت جواباً لسؤال قد يخطر بذهن السامع (من يسبّح له؟).

ويكون التوسّط بين الاتصال والانقطاع مع قيام المانع من الوصل كأن يكون للجملة الأولى حكم لم يقصد إعطاؤه للثانية مثل قوله تعالى عن المنافقين ﴿ وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ ١٤ ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ ﴾[3] فالجملة الثانية (الله يستهزئ بهم) لا يصح عطفها على جملة (قالوا إنا معكم) كما يذكر الجرجاني: ((لأن قوله تعالى (إنما نحن مستهزئون) حكاية عن المنافقين وليس بخبر عن الله تعالى، وقوله تعالى (الله يستهزئ بهم) خبر من الله تعالى أنه يجازيهم على كفرهم واستهزائهم، لهذا امتنع العطف ولم يكن مستساغاً، لاستحالة عطف قوله تعالى على قولهم، إذ لو تم العطف لأصبح قوله تعالى حكاية عنهم، وهذا محال لأنهم لن يعترفوا بأنّ الله يستهزئ بهم وأنه معاقبهم))[4]

ب- الوصل: يجب الوصل في ثلاثة مواضع وهي:

١- ذهب كثير من البلاغيين الى أن الوصل الذي بين الجملتين يفترض فيه الفصل لدفع إيهام غير المراد، ففي قولهم (لا ونصرك الله) قالوا الوصل بالواو وقع بين الجملتين، لئلا ينقلب معنى الكلام من الدعاء للمخاطب الى الدعاء عليه، فالجملة الأولى (لا) خبرية، والثانية (ونصرك الله) إنشائية، فالواو هنا ليست للوصل وإنما للتوكيد، لأنها زائدة وليست عاطفة، زيدت لدفع توهّم النفي لما بعدها.

وتبرز هنا في الوصل إشكالية عطف الجملة الخبرية على الإنشائية وبالعكس، وقد ورد في القرآن الكريم ذلك العطف، كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَأۡكُلُواْ مِمَّا لَمۡ يُذۡكَرِ ٱسۡمُ

(١) يوسف ٥٣.
(٢) النور ٣٦-٣٧.
(٣) البقرة ١٤-١٥.
(٤) الجرجاني: دلائل الاعجاز ٢٣٢.

﴿ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ﴾[1] فالجملة الأولى (ولا تأكلوا) إنشائية، والجملة الثانية (وإنه لفسق) خبرية، والبلاغيون منعوا عطف الخبرية على الإنشائية ولكن أئمة النحو جوّزوا هذا العطف ولاسيما أنه يشكل ظاهرة بارزة في القرآن الكريم. وقد أوضح السبكي هذا الخلاف بقوله: ((لا خلاف بين الفريقين لأنه عند من جوّزه يجوز لغة ولا يجوز بلاغة))[2]ولكنه لم يوضح الأسباب، ويبدو أن البلاغيين قد بني منعهم على أمرين، الأول: إن الاستفهام لا يحتاج الى توكيد لما فيه من مفاجأة ودهشة. والثاني: إن هذا العطف يفقد الكلام التماثل والتوازي والتعادل، ويغيب التناسب الذي يشترط في كل وصل.

وقوله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا ﴾[3] فما الرابط بين الجملتين حكم الأهلة وحكم إتيان البيوت من ظهورها؟ قدّم العلوي منهجاً واضحاً لهذه المسألة أساسه استبطان البنية العميقة للجملتين، فقدّم احتمالات تبرز ارتباط الجملتين، وهي أن الخطاب القرآني لمّا ذكر الأهلة مواقيت للحج فذكر أنّ أناساً إذا أحرموا بالحج لا يدخل أحدهم بيتاً ولا خيمة ولا خباء من باب بل يدخل من نقب خلف البيت أو من خلف الخيمة والخباء، وكأنه قيل لهم ليس البرّ تحرّجكم من دخول البيت، ولكن البرّ من اتقى محارم الله، وأن كل ما يفعله الله فيه حكمة عظيمة، ومصلحة ظاهرة في الأهلة وغيرها، فدعوا السؤال وانظروا في خصلة تفعلونها أنتم مما ليس من البر وهي إتيان البيوت من ظهورها.[4]

٢- تكون الجملتان متفقتين في الخبرية أو الإنشائية لفظاً ومعنى أو معنى فقط، فتبرز توازياً وتعادلاً بين الجملتين، كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴾[5] وقوله تعالى: ﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ﴾[6]وقوله تعالى: ﴿ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ﴾[7]وفي النظر الى هذه الآيات نحسّ بالاستواء أو التعادل بين الجملتين، وبترتيب قلب المعاني، فالتماثل قد تعدّى التساوي في عدد الحروف والكلمات إلى التماثل في الحروف والأسماء، وهي من أحسن

---

(١) الانعام ١٢١.
(٢) السبكي: عروس الافراح ٢٧/٣.
(٣) البقرة ١٨٩.
(٤) ينظر: العلوي: الطراز ٤٩/٢-٥٠.
(٥) الانفطار ١٣-١٤.
(٦) الروم ١٩.
(٧) الحج ٦١.

الوصل تناسقاً وتلازماً.
وقد تتماثل الجمل خبراً وإنشاء في المعنى لا اللفظ، ويحيط كل أسلوب بالواو من جهة مغايرة لجهة الآخر على نحو يصعّد من حدّة التباين كقوله تعالى: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ﴾[1]وقوله تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ لَا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَانٗا وَذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا﴾[2]ولهذه الرؤية الجمالية التي تعتمد على التماثل والتوازي ذكر السكاكي: إنّ من محسنات الوصل أن تتفق فيه الجمل في الاسمية أو الفعلية لتحقيق التناسب.[3]

٣- حين يكون للجملة الأولى محل من الإعراب وأريد إعطاء الجملة الثانية حكمها الإعرابي نفسه وذلك حين تكون هناك مناسبة تجمعهما دون مانع من الوصل، كقوله تعالى: ﴿يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلۡغَفُورُ﴾[4] وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾[5] فالجملة هنا واقعة واقعة موقع المفرد وجرى عطف المفرد على المفرد فيها.

٦- الإيجاز والإطناب:

أ- الإيجاز: وجز: قلّ، وأوجز: اختصر، وكلام وجيز أي خفيف مقتصر، وأوجزت الكلام: قصّرته[6]والإيجاز كما قال الرماني: ((تقليل الكلام من غير إخلال بالمعنى))[7]والإيجاز: أن ينقص التعبير عن مقدار المعنى مع عدم الإخلال به، ويكاد ويكاد يجمع الجمهور على أن الإيجاز والاختصار بمعنى واحد.

اهتم البلاغيون بأسلوب الإيجاز، ووضعوا له حدوداً وأقساما، وبيّنوا مواضعه وهو ليس بمحمود في كل موضع، وقد أشار الى ذلك ابن قتيبة بقوله: ((ولو كان الإيجاز محموداً في كلّ الأحوال لجرّده الله تعالى في القرآن، ولم يفعل الله ذلك، ولكنه أطال تارة للتوكيد، وحذف تارة للإيجاز، وكرر تارة للإفهام))[8]والإيجاز قسمان وهما:

١- إيجاز القِصَر:

---

(١) النساء ١٤٢.
(٢) البقرة ٨٣.
(٣) ينظر: السكاكي: مفتاح العلوم ٢٧١.
(٤) سبا ٢.
(٥) البقرة ٢٤٥.
(٦) ينظر: ابن منظور: لسان العرب (مادة وجز).
(٧) الرماني: النكت في اعجاز القران (ثلاث رسائل في اعجاز القران) ٧٠.
(٨) ابن قتيبة: ادب الكاتب ١٥.

وهو يتضمّن الألفاظ القليلة ذات المعاني الكثيرة مع الإبانة والإفصاح، ليسهل تعلّقها في الذهن، وتذكّرها عند الحاجة في المناسبات المختلفة. ومن ذلك خطابه تعالى للنبي محمد (صلى الله عليه وسلم) بمحاجّة الكافرين في قضية الشرك: ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾[1] فقد جمع لفظ (لذهب) معاني عدّة منها: التفرّد بالالوهية، واتخاذ طرق شتى في العلو، والصراع أو القتال بين الآلهة، وغير ذلك من الأمور التي تتخذ لتثبيت الأحقية في تلك الألوهية.

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[2] الخطاب الإلهي هنا موجّه الى الناس كافة، وهو أن ما يفعلون من بغي أي فساد يعود اليهم، والبغي لفظ مكثف لأن الفساد أنواع، منه: الشرك بالله تعالى، وقتل الأبرياء، والزنا، وقذف المحصنات، والسرقة، والكذب، وغيرها من الأفعال التي تؤدي الى الضرر بالناس.

وقوله تعالى: ﴿وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ﴾[3] فهؤلاء الكفار كانوا يمكرون بالنبي محمد (صلى الله عليه وسلم) المكر السيّء، فهذا اللفظ (المكر) يحمل شحنة من أنواع الأذى قولاً وفعلا، فمن القول: تكذيب رسالته، ووصفه بالكاهن والشاعر والمجنون، والتهديد والوعيد، ومن العمل: الضرب باليد، ورميه بالحجر، ورمي الشوك في طريقه، ومحاولات قتله، ولكن كيدهم خاب وعاد اليهم.

وقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴾[4] فقوله (فغشيهم من اليم ما غشيهم) من جوامع الكلم التي يستدل على قلتها بالمعاني الكثيرة، أي غشيهم الخوف من الغرق، ومن الاضطراب النفسي، والهلع من الماء الذي يغطيهم، ومن الأمور والخطوب الفادحة التي لا يعلم بها إلاّ الله ولا يحيط بها غيره.

وقوله تعالى في الأحكام: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾[5]هذه الآية التي خاطب الله تعالى رسوله الكريم (صلى الله عليه وسلم) قد جمعت مكارم الأخلاق، فقد تضمنت ثلاثة أمور يستلزم التعامل بها مع الناس، وهي: الأخذ باليسير والتيسير في تطبيق

(١) المؤمنون ٩١.
(٢) يونس ٢٣.
(٣) فاطر ٤٣.
(٤) طه ٧٧-٧٨.
(٥) الاعراف ١٩٩.

الأحكام، والأخذ بما تعارف عليه الناس من أعمال الخير، والإعراض أو الابتعاد عن السفهاء والحمقى.

وقوله تعالى أيضاً: ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[1] فهذا اللفظ (حياة) قد فاق غيره من كلام العرب، لما يتضمنه من معان عدّة، ويقارب ما تعارف عليه الناس من قول (القتل أنفى للقتل) وقد وازن الرماني بين اللفظ والقول، ومرجحاً اللفظ عليه: ((وذلك يظهر من أربعة أوجه: إنه أكثر في الفائدة، وأوجز في العبارة، وأبعد من الكلفة بتكرير الجملة، وأحسن تأليفاً بالحروف المتلائمة، أما الكثرة في الفائدة ففيه كل ما في قولهم (القتل أنفى للقتل) وزيادة معان حسنة، منها إبانة العدل لذكره القصاص، ومنها إبانة الغرض المرغوب فيه لذكره الحياة، ومنها الاستدعاء بالرغبة والرهبة لحكم الله به))[2]

ومن بديع إيجاز القِصر وصفه تعالى للجنة: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾[3] فإن اللفظ (ما تشتهيه) أي ما ترغب فيه النفس كثير لا يمكن عدّه، واللفظ (تلذ) أي وما يستطاب كثير أيضاً، فلا يمكن أن يخطر على البال، ولا يمكن مقارنته بملذات الدنيا القليلة.

وقوله تعالى أيضاً في وصف الجنة: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴾[4] فقوله (لا يُصدّعون) أي أن هذه الخمرة التي تقدّم اليهم في الكؤوس تختلف عن خمرة الدنيا، فهي لا تصيبهم بالصداع، وذهاب العقل والمال، ونفاد الشراب، وما يعقب شربها من انحطاط وندم، ولا ينزفون أي تذهب عقولهم، من نزف الشارب إذا ذهب عقله، فيقال للسكران: نزيف ومنزوف.

٢- إيجاز الحذف:

وهو عرض المعاني الكثيرة في ألفاظ أقل منها بحذف حرف أو لفظ أو جملة أو أكثر من تركيبها مع قرينة تدل على المحذوف. والحذف على أنواع منها:

حذف الحرف: مثل قوله تعالى: ﴿فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾[5] فحذف حرف النون من اللفظ (يكن) ولم يتغيّر المعنى.

---

(١) البقرة ١٧٩.
(٢) الرماني: النكت في اعجاز القران ٧١.
(٣) الزخرف ٧١.
(٤) الواقعة ١٧-١٩.
(٥) التوبة ٧٤.

حذف اللفظ أو المفردة: ومنها حذف الفعل كما في قوله تعالى حكاية عن النبي صالح (عليه السلام) وتحذيره لقومه: ﴿ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴾(١)والفعل المحذوف تقديره (احذروا) هذه ناقة الله. وقوله تعالى حكاية عن النبي نوح (عليه السلام) وقومه: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ﴾(٢)والفعل المحذوف (وادعوا) في تقدير العبارة (وادعوا شركاءكم) أي اعزموا وصمموا على الكيد، وادعوا شركاءكم الذين اتخذتموهم من دون الله ليساعدوكم.

ومن الإيجاز حذف الفاعل دون أن يؤثر في المعنى، والاكتفاء في الدلالة عليه، كما في قوله تعالى: ﴿ كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴾(٣)والضمير في (بلغت) يعود الى (النفس) وهي فاعل. ومن الإيجاز حذف المفعول به كما في قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴾(٤)فبعد كل فعل مفعول به محذوف تقديره (أضحك الناس وأبكاهم وأماتهم وأحياهم). وقوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾(٥)يأتي بعد الفعل (يدعو) المفعول به المحذوف وتقديره (الناس) دون اختصاص أحد منهم بهذه الدعوة.

ومن الإيجاز حذف المضاف والمضاف اليه، كما في قوله تعالى حكاية عن أخوة يوسف (عليه السلام) مخاطبين أباهم: ﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴾(٦) والمحذوف المضاف (أهل) والتقدير (أهل القرية) والمحذوف (أصحاب) والتقدير (أصحاب العير). وقوله تعالى في بشارة المسلمين بأن الروم وهم أهل الكتاب سينتصرون على الفرس بعد هزيمتهم: ﴿ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾(٧)والمحذوف المضاف اليه

---

(١) الشمس ١٣.
(٢) يونس ٧١.
(٣) القيامة ٢٦-٢٧.
(٤) النجم ٤٣-٤٤.
(٥) يونس ٢٥.
(٦) يوسف ٨٢.
(٧) الروم ٣-٤.

(ذلك) والتقدير (من قبل ذلك ومن بعد ذلك) وحذفه لم يؤثر في المعنى. وقوله تعالى: ﴿ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾[1] فالمحذوف المضاف اليه (ليال) وتقديره (بعشر ليال) وحذف المضاف اليه قليل.

ومن الإيجاز حذف الصفة، كما في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ﴾[2]والصفة المحذوفة (كثيرة أو كثيرات) والتقدير (نساء كثيرة أو كثيرات). وقوله تعالى: ((حكاية عن العبد الصالح الخضر مخاطباً النبي موسى (عليه السلام): ﴿ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾[3]والصفتان المحذوفتان (ظالم، صالحة) والتقدير (ملك ظالم، وسفينة صالحة).

ومن الإيجاز حذف الموصوف كما في قوله تعالى: ﴿ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴾[4]والمحذوف الموصوف (آية) والتقدير (آية مبصرة) ولم يرد يرد الناقة مبصرة لأنها مبصرة ولا معنى لوصفها بالبصر، ومن القرائن على ذلك قوله (وما نرسل بالآيات) والناقة آية من آيات الله تعالى. وقوله تعالى موجهاً خطابه للمؤمنين في مواقف قتال الكافرين: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[5] والمحذوف الموصوف (ذكراً) والتقدير (واذكروا الله ذكرا كثيراً).

ومن الإيجاز حذف الشرط وجوابه كقوله تعالى: ﴿ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ ﴾[6] فالشرط المحذوف يأتي بعد فاء (فاعبدون) وتقديره (فإن لم تخلصوا لي العبادة فأخلصوها في أي أرض من أرضي الواسعة). وحذف جواب الشرط في قوله تعالى مخاطباً أهل الكتاب: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ

---

(١) الاعراف ١٤٢.
(٢) النساء ١.
(٣) الكهف ٧٩.
(٤) الاسراء ٥٩.
(٥) الانفال ٤٥.
(٦) العنكبوت ٥٦.

﴿ فَـَٔامَنَ وَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[1] فإن المحذوف هنا جواب الشرط وتقديره (إن كان القرآن من عند الله وكفرتم به ألستم ظالمين). وقوله تعالى في وصف أصحاب الجنة: ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا ﴾[2] وجواب الشرط المحذوف بعد أبوابها وتقديره (حصلوا على النعيم الذي وعدهم الله تعالى لا يشوبه تنغيص وتكدير)

ومن الإيجاز حذف (لو) وجوابها كما في قوله تعالى في التنزيه: ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٖ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنۡ إِلَٰهٍۚ إِذٗا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ ﴾[3] والمحذوف (لو) وتقديره (لو كان معه آلهة إذن لذهب كل إله بما خلق...). وفي حذف جواب (لو) قوله تعالى عن حال الكفار عند البعث: ﴿ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ فَزِعُواْ فَلَا فَوۡتَ وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٖ قَرِيبٖ ﴾[4] وجواب لو المحذوف يأتي بعدها وتقديره (لرأيت أمراً عظيماً).

ومن الإيجاز حذف القسَم وجوابه في قوله تعالى: ﴿ لَّئِن لَّمۡ يَنتَهِ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡمُرۡجِفُونَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ لَنُغۡرِيَنَّكَ بِهِمۡ ﴾[5] والمحذوف القسَم (واللهِ) وتقديره (واللهِ لئن لم ينتهِ...) ويحذف جواب القسَم في قوله تعالى: ﴿ وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا (١) وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا (٢) وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا (٣) فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا (٤) فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا ﴾[6] وجواب القسَم المحذوف تقديره (لتبعثنّ أو لتُحشرنّ). وقوله تعالى: ﴿ وَٱلۡفَجۡرِ (١) وَلَيَالٍ عَشۡرٖ (٢) وَٱلشَّفۡعِ وَٱلۡوَتۡرِ (٣) وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ (٤) هَلۡ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٞ لِّذِي حِجۡرٍ ﴾[7] وجواب القسَم المحذوف تقديره (لتعذبن).

ومن الإيجاز أيضاً حذف الجمل، ويكثر هذا النوع من الحذف في القصص القرآني، لأن طبيعة القصة تميل الى الإطالة، ويأتي هنا الحذف جملة أو عدّة جمل بقصد الإيجاز، من ذلك ما ورد في قصة يوسف (عليه السلام) وتأويله الرؤيا قوله تعالى: ﴿ قَالَ تَزۡرَعُونَ سَبۡعَ

---

(١) الاحقاف ١٠.
(٢) الزمر ٧٣.
(٣) المؤمنون ٩١.
(٤) سبأ ٥١.
(٥) الاحزاب ٦٠.
(٦) النازعات ١-٥.
(٧) الفجر ١-٥.

سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦ ﴾.[(١)] إن تقدير الجمل المحذوفة تأتي بعد (يعصرون) وهي: (فرجع الرسول اليهم فأخبرهم بما قاله يوسف فعجبوا منها).

وفي قصة موسى (عليه السلام) فقد طلب من قومه بعد عبادة العجل أن يتوبوا الى الله قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ﴾[(٢)] فالجملة المحذوفة تقديرها يأتي بعد (عند بارئكم) وهي (فامتثلتم الأمر) وكان امتثال الأمر سبباً في قبول التوبة.

ومن قصة موسى (عليه السلام) نفسها جاء الخطاب الإلهي لبني إسرائيل بذبح بقرة في قوله تعالى: ﴿ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾[(٣)] والجملة المحذوفة تأتي بعد (ببعضها) وتقديرها (فأحياه الله).

وفي قصة النبي سليمان (عليه السلام) وسؤاله الهدهد لمعرفة سبب غيابه قوله تعالى: ﴿ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ ﴾.[(٤)] والجمل المحذوفة تأتي بعد (يرجعون) وتقديرها (فأخذ الهدهد الكتاب وذهب إلى بلقيس وألقاه إليها، فقرأته).

ب- الإطناب: أطنب في كلامه إطناباً إذا بالغ في وطوّل ذيوله لإفادة المعنى، وهو زيادة اللفظ على المعنى لفائدة، ويأتي الإطناب على أشكال عدّة، وهي:

١- الإيضاح بعد الإبهام ليتمكن المعنى في النفس، ولتكمل اللذة بالعلم به كقوله تعالى في إنزال العقاب بقوم لوط: ﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴾[(٥)] العبارة (ذلك الأمر) كلام مبهم لا يعرف معناه، وجاء ما يوضحه (إن دابر هؤلاء مقطوع) أي إن أصل أو نوع هؤلاء القوم سيتم استئصاله وقطعه، مُصبحين: أي دخولهم في وقت الصباح.

ومن بديع الإطناب قوله تعالى حكاية عن امرأة العزيز: ﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ

---

(١) يوسف ٤٧-٥٠.
(٢) البقرة ٥٤.
(٣) البقرة ٧٣.
(٤) النمل ٢٧-٢٨.
(٥) الحجر ٦٦.

﴿ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾[1] فقوله (وما أبرّئ نفسي) لماذا لم تبرّئ نفسها؟ ماذا فعلت تلك النفس من أفعال؟ إنها أمور تحيّر المخاطب، فجاء الجواب (إن النفس لأمّارة بالسوء) أي أن النفس البشرية غير معصومة عن فعل السوء، وأمّارة (فعّالة) صيغة مبالغة أي كثيرة الأمر بالسوء، أو كثيرة الميل إلى الشهوات، واستثنى بقوله (إلاّ ما رحم ربّي) أي ليس كل نفس تأمر بالسوء، فهناك النفس المطمئنة، وهناك النفس اللوّامة. والظاهر أن قولها (وما أبرّئ نفسي) اعتذار منها عما وقعت فيه مما يقع البشر من الشهوات.

٢- ذكر العام قبل الخاص وبالعكس: وهو أن يذكر المعنى العام ويأتي بعده المعنى الخاص الذي يقع من ضمنه، فكأنما يذكر مرتين لشدة العناية به، مثل قوله تعالى في تقريع الكافرين: ﴿ مَن كَانَ عَدُوّٗا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبۡرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوّٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ ﴾[2]جاء بالعام وهم الملائكة ثم جاء بالخاص منهم جبريل وميكال وهما من الملائكة.

وقوله تعالى في العبادات ومنها الحفاظ على الصلاة: ﴿ حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴾[3] فالصلاة عامة والصلاة الوسطى وهي صلاة العصر جزءاً من الصلوات، فخصت بالذكر لزيادة فضلها.

وقوله تعالى في وصف الجنة: ﴿ فِيهِمَا فَٰكِهَةٞ وَنَخۡلٞ وَرُمَّانٞ ﴾[4] فالمعنى العام هو الفاكهة، والخاص منها بالذكر النخل والرمان، وأمّا ذكر الخاص قبل العام يأتي لإفادة العموم مع العناية بالخاص كقوله تعالى: ﴿ أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ﴾[5] فالخاص الذي يعلمه الله تعالى من المنافقين سرّهم أي ما يسرّون من النفاق في قلوبهم، ونجواهم أي ما يتحدّثون به سرّاً من المطاعن في الدين. والعام هو (علاّم الغيوب) أي كل غيب يفوق السرّ والنجوى.

وقوله تعالى في ضرب الأمثال: ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمۡ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَابٖ

---

(١) يوسف ٥٣.
(٢) البقرة ٩٨.
(٣) البقرة ٢٣٨.
(٤) الرحمن ٦٨.
(٥) التوبة ٧٨.

﴿ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾[1] فالخاص من ثمرات الجنة النخيل والأعناب، والعام هو كل الثمرات بأنواعها. قال الزمخشري: ((فإن قلت كيف قال: جنة من نخيل وأعناب، ثم قال: له فيها من كلّ الثمرات؟ قلت: النخيل والأعناب لما كانا من أكرم الشجر وأكثرها منافع خصهما بالذكر، وجعل الجنة منهما وإن كانت محتوية على سائر الأشجار، تغليباً لهما على غيرهما، ثم أردفهما ذكر كل الثمرات))[2].

٣- التكرير: وهو أن يردد اللفظ أو العبارة أكثر من مرّة، ويكون ذلك لتحقيق غرض من الأغراض كالتأكيد مثلاً في قوله تعالى مخاطباً من شغلته مغريات الدنيا عن الآخرة: ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾[3]وفي هذا التكرير لتأكيد أن ما أخبرنا الله تعالى به من وعيد موجود حقيقة ومنه النار، وأنهم سيرونها بأعينهم، وأن العبارة الثانية المكررة أبلغ وأشد في تأكيد هذه الحقيقة.

ويأتي التكرير للتنبيه الى حقيقة الحياة الدنيا وصدق الدعوة الى الهداية والرشاد. قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴾[4] فتكرير (يا قوم) زيادة في التنبيه.

ويأتي التكرير لدفع نسيان أول الكلام، فيعاد ثانية تذكيراً وتجديداً لأوله، كقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[5] فكرر (إنّ ربّك) للتذكير بإرادته. وقوله تعالى ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[6] فكرر (لا تحسبنّ) للتذكير بعدم نجاتهم من النار. قال ابن عباس: ((هذه الآية نزلت في أهل الكتاب، سألهم النبي(صلى الله عليه وسلم) عن شيء فكتموه وأخبروه بغيره، فخرجوا وقد أروه أن قد أخبروه بما سألهم عنه، فاستحمدوا بذلك اليه وفرحوا بما أوتوا من كتمانهم ما سألهم عنه))[7]

---

(١) البقرة ٢٦٦.
(٢) الزمخشري: الكشاف ٣٩٥/١.
(٣) التكاثر ٣-٤.
(٤) غافر ٣٨-٣٩.
(٥) النحل ١١٩.
(٦) آل عمران ١٨٨.

عنه))[1]

ويأتي التكرير للتعظيم والتهويل كقوله تعالى: ﴿ٱلْحَآقَّةُ (١) مَا ٱلْحَآقَّةُ (٢) وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾[2] وقوله تعالى: ﴿ٱلْقَارِعَةُ (١) مَا ٱلْقَارِعَةُ (٢) وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾[3] وقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ (١) وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ (٢) لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾[4]

ويأتي التكرير للتعجب مثل قوله تعالى في ما يقوله الوليد بن المغيرة في القرآن الكريم: ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (١٨) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (١٩) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾[5] فكان تكرار (قتل كيف كيف قدّر) يدل على التعجب من تقديره السيء في حق كلام الله تعالى. وكذلك في تعلّق الآية المكررة بما قبلها من آية أو آيات ما ورد في سورة الرحمن قوله تعالى: ((فبأيّ آلاء ربكما تكذّبان)).

٤- التكميل: ويسمى (الإحتراس) أيضاً، وهو أن يؤتى بكلام يوهم خلاف المقصود، كقوله تعالى في خطابه للمؤمنين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[6]فالتكميل في قوله (أذلة على على المؤمنين، أعزة على الكافرين) فأذلة على المؤمنين لتواضعهم لا لضعفهم، وأعزّة على الكافرين لأنهم أقوياء بإيمانهم في الوقت نفسه.

وقوله تعالى حكاية عن سليمان (عليه السلام) وجنوده: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[7]
فالتكميل (وهم لا يشعرون) احتراس جيء به لرفع توهّم غيره، وكأنّ النملة رفعت التوهّم عن نسبة الظلم الى سليمان (عليه السلام) وعرفت أن الأنبياء لا يقع منهم الخطأ الاّ سهواً.

وقوله تعالى في فتح مكة: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ

---

(١) الزركشي: البرهان في علوم القران ٨.
(٢) الحاقة ١-٣.
(٣) القارعة ١-٣.
(٤) القدر ١-٣.
(٥) المدثر ١٨-٢٠.
(٦) المائدة ٥٤.
(٧) النمل ١٨.

مَّعۡكُوفًا أَن يَبۡلُغَ مَحِلَّهُۥۚ وَلَوۡلَا رِجَالٞ مُّؤۡمِنُونَ وَنِسَآءٞ مُّؤۡمِنَٰتٞ لَّمۡ تَعۡلَمُوهُمۡ أَن تَطَـُٔوهُمۡ فَتُصِيبَكُم مِّنۡهُم مَّعَرَّةُۢ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ ﴾[1]فالتكميل (بغير علم) وهو احتراس ورفع التوهّم عن نسبة الظلم لهؤلاء الفاتحين لأنهم لا يعلمون بهم.

٥- الإيغال: وهو من أوغل في الأمر إذا أبعد الذهاب فيه، وهو أن تستوفي معنى الكلام قبل البلوغ الى مقطعه، ثم تأتي بالمقطع فتزيد معنى أكثر وضوحاً وتوكيداً. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٢٠ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴾[2]فقوله (وهم مهتدون) مما يتم المعنى بدونه، لأن الرسول مهتد لا محالة الاّ أن منه زيادة في الحث على الإتباع وترغيب في الرسل.

٦- التذييل: مأخوذ من الذيل، وهو أن يذيّل المتكلم كلامه بجملة يتحقق فيها معنى التوكيد، فمنه ما يأتي بفائدة زائدة، مثل قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ وَهَلۡ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلۡكَفُورَ ﴾[3] فعبارة (وهل نجازي الاّ الكفور) تذييل أي هل نجازي ذلك الجزاء الذي يستحقه الكفور الاّ الكفور، فإن جعلنا الجزاء عاماً كان الثاني مفيداً فائدة زائدة. وقوله تعالى: ﴿ وَقُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا ﴾[4] فالعبارة (إنّ الباطل كان زهوقاً) تذييل وهو مستقل عن السابق، ولذلك يخرج مخرج المثل.

٧- الاعتراض: وهو كلام أدخل فيه لفظ أو عبارة لو أسقطت لبقي الكلام على حاله، ويأتي الاعتراض لغرض التنزيه كما في قوله تعالى: ﴿ وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ ٱلۡبَنَٰتِ سُبۡحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشۡتَهُونَ ﴾[5] فلفظ (سبحانه) اعتراض تضمن معنى التنزيه لله تعالى عن اتخاذه بنات ويريدون بهن الملائكة. ويفيد الاعتراض أيضاً للتعظيم كقوله تعالى: ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾[6]فعبارة (لو تعلمون) اعتراض يبين عظمة القسَم بمواقع النجوم.

---

(١) الفتح ٢٥.
(٢) يس ٢٠-٢١.
(٣) سبأ ١٧.
(٤) الاسراء ٨١.
(٥) النحل ٥٧.
(٦) الواقعة ٧٥-٩٦.

المساواة بين الإيجاز والإطناب:

وهو أن يتساوى اللفظ والمعنى بحيث لا يزيد أحدهما على الآخر، أو هي كما يراها أبو هلال العسكري: إن المساواة هي المذهب الوسط بين الايجاز والاطناب، أي كأن ألفاظه قوالب لمعانيه، أي لا يزيد بعضها على بعض.(١) ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴾(٢) وقوله تعالى: ﴿ وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴾(٣) وقوله تعالى: ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾(٤) وقوله تعالى: ﴿ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴾(٥)وفي هذه الآيات والعبارات مساواة بين اللفظ والمعنى، وهذا الأسلوب لا يستغني عنه أي متكلم وهو من مقتضيات الأحوال.

وهكذا نصل الى أن اللغة وسيلة حيّة للتعبير عن المعنى، وأسلوب الخطاب القرآني يعتمد على اختيار ألفاظ ذات دلالات تتناسب ومعانيها، وقد تعبّر صيغة لفظة واحدة عن دلالات عدّة موافقة للسياق والتركيب، أو بالعكس صيغ عدّة تجتمع دلالاتها في معنى واحد.

ويمتلك معجم ألفاظ الخطاب ثراء لغوياً، ففي خطاب الملائكة نجد ألفاظ التقديس لله تعالى، والتحميد والطاعة والعبادة الخالصة، وفي خطاب الجن نجد ألفاظ تدل على الحركة والخفة والطيش، وعدم معرفتهم بالغيب، وفي خطاب الإنس نجد تنوّعاً تبعاً لتنوّع أجناسهم، فمنهم الأنبياء والرسل، والمؤمنون والكافرون والمنافقون وأهل الكتاب، وفي الخطاب الموجه للحيوان والنبات والجماد نجد ألفاظ الأمر والطاعة، والمعرفة بحدود المسؤولية، وسرعة الاستجابة.

ويعتمد تركيب الألفاظ في الخطاب القرآني على أسلوبي الخبر والإنشاء لنقل الأفكار التي يراد إيصالها الى المتلقي، وقد يكون الخبر ابتدائياً أو طلبياً بحسب السياق، والخبر هنا حقيقي يكشف عن حالات الإنسان في الضعف والاسترحام والوعد والوعيد والتبكيت وغيرها، ويعمل الأسلوب الإنشائي سواء الطلبي وغير الطلبي على استعمالات لفظية عدّة لأداء المعنى المراد تحقيقه. وتمثلت الجملة في التعبير القرآني بأحوال في التعريف والتنكير، والذكر والحذف، والتقديم والتأخير، والفصل والوصل، وغيرها مما يكسبها حرية الاختيار بحسب ما يقتضيه المعنى المطلوب.

---

(١) ابو هلال العسكري: الصناعتين ١٧٧.
(٢) الرحمن ٧٢.
(٣) القلم ٩.
(٤) الرحمن ٦٠.
(٥) سبأ ١٧.

الفصل الثالث

الصورة الفنية

الفصل الثالث

الصورة الفنية

الصورة في أبسط تعريف لها ((رسم قوامه الكلمات، إنّ الوصف والمجاز والتشبيه يمكن أن تخلق صورة، أو أنّ الصورة يمكن أن تقدّم الينا في عبارة أو جملة يغلب عليها الوصف المحض، ولكنها توصل الى خيالنا شيئاً أكثر من انعكاس متقن للحقيقة الخارجية))[١]أو ((هي الوسيلة الفنية والجوهرية لنقل الفكرة والعاطفة في آن واحد))[٢]

وعند مطالعة معاجم اللغة بحثاً عن معنى الصورة فإننا نجد لفظ المصوّر من أسماء الله تعالى، وهو الذي صوّر جميع المخلوقات ورتّبها، فأعطى كل شيء منها صورة خاصة وهيأة مفردة يتميز بها على اختلافها أو كثرتها... وتصوّرت الشيء: توهمت صورته فتصوّر لي. وقال ابن الأثير: الصورة ترد في كلام العرب على ظاهرها، وعلى معنى حقيقة الشيء وهيئته وعلى معنى صفته.[٣]وقد ورد لفظ (صوّر) في القرآن الكريم فجاء بصيغة الماضي (صوّركم وصوّرناكم) كما في قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[٤] والفعل هنا يشير الى الشكل والهيأة والصفة. قال الزمخشري: ((فأحسن صوركم، قيل: لم يخلق حيواناً أحسن صورة من الإنسان، وقيل: لم يخلقهم منكوسين كالبهائم))[٥]

وقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾[٦] فالتصوير هنا بمعنى التشكيل، وإنه مرحلة تالية بعد الخلق. قال أبو السعود: ((خلقنا أباكم آدم طيناً غير مصوّر، ثم صوّرناه أبدع تصوير، وأحسن تقويم سار إليكم جميعاً))[٧]

---

(١) سيسل دي لويس: الصورة الشعرية ٢١.
(٢) د. محمد غنيمي هلال: النقد الادبي الحديث ٤٤٢.
(٣) ينظر: ابن منظور: لسان العرب مادة (صوّر) ٤/ ٢٥٢٣.
(٤) غافر ٦٤.
(٥) الزمخشري: الكشاف ١٧٦/٤.
(٦) الاعراف ١١.
(٧) ابو السعود: ارشاد العقل السليم الى مزايا الكتاب الكريم ٢/ ٣٢٥.

وورد اللفظ بصيغة المضارع (يصوّركم) كما في قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[1] قال ابن كثير: ((يخلقكم في الأرحام كما يشاء من ذكر وأنثى وحسن وقبيح وشقي وسعيد))[2]

وورد اللفظ بصيغة اسم الفاعل (المصوِّر) كما في قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[3] فقال ابن كثير: ((المصوِّر: أي الذي إذا أراد شيئاً فإنه يقول له كُن فيكون على الصفة التي يريد، والصورة التي يختار))[4]

وورد اللفظ بالاسم (صورة) كما في قوله تعالى: ﴿ فِيٓ أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾[5]وورد بالجمع كقوله تعالى: ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾[6] قال ابن كثير: ((أي شكلك، وقال وقال مجاهد: أي في شبه أب وأم أو خال أو عم))[7]

ويمكن أن نستنتج من الآيات السابقة أن الصورة تعني الخلق والإيجاد والتشكيل والتركيب، ولذا فإن ((التصوير هو الأداة المفضلة في أسلوب القرآن، فهو يعبّر بالصورة المحسّة المتخيّلة عن المعنى الذهني والحالة النفسية، وعن الحادث المحسوس والمشهد المتطوّر، وعن النموذج الإنساني والطبيعة البشرية، ثم يرتقي بالصورة التي يرسمها، فيمنحها الحياة الشاخصة أو الحركة المتجددة، فإذا المعنى الذهني هيئة أو حركة، وإذا الحالة النفسية لوحة أو مشهد، وإذا النموذج الإنساني شاخص حي، وإذا الطبيعة البشرية مجسّمة مرئية))[8].

وسائل تشكيل الصورة:

إنّ تشكيل الصورة في القرآن الكريم يعتمد على وسائل عدّة، وهي على النحو الآتي:

١- التشكيل بالتشبيه:

(١) آل عمران ٦.
(٢) ابن كثير:تفسير القرآن العظيم ٤٦/١.
(٣) الحشر ٤.
(٤) ابن كثير: تفسير القران العظيم ٤/ ٤٥.
(٥) الانفطار ٨.
(٦) غافر ٦٤.
(٧) ابن كثير: تفسير القران العظيم ٤/ ٤٨٢.
(٨) سيد قطب: التصوير الفني في القران ٣٦.

التشبيه أحد الوسائل البيانية التي تحرّك الخيال في التقاط المعاني وعرضها بشكل تصويري يلفت انتباه المتلقي، وإبرازها بشكل مؤثر، لأن ((التشبيه يزيد المعنى وضوحاً، ويكسبه تأكيداً، ولهذا ما أطبق جميع المتكلمين من العرب والعجم عليه، ولم يستغن أحد منهم عنه))[1]وقد اتضحت القيمة الفنية للتشبيه فاتخذ أداة لتصوير الأفكار المجرّدة، وخلجات النفس المنفعلة، فأخرجت عن تجريدها لتبدو في صورة بهية.

ويضع البلاغيون التشبيه في المرتبة الأولى من البيان، وقد عرّفه ابن رشيق القيرواني: بأنه ((صفة الشيء بما قاربه وشاكله من جهة واحدة، أو جهات كثيرة لا من جميع جهاته، لأنه لو ناسبه مناسبة كلية لكان إياه))[2]وهذا يستلزم من المشبّه أن لا يكون هو المشبّه بعينه، وعلى هذا فالصورة التشبيهية قائمة على اشتراك طرفيها في بعض الصفات، وكلما كثرت هذه الصفات المشتركة كانت الصورة أفضل، لأنها تقود الى التفاعل، وقد أشار الى ذلك قدامة بن جعفر بقوله: ((أحسن التشبيه هو ما وقع بين الشيئين اشتراكهما في الصفات أكثر من انفرادهما فيها حين يدني بهما الى حال الاتحاد))[3]

وارتبط حسن التشبيه عند البلاغيين بطبيعة العلاقة بين طرفي التشبيه، فكلّما تباعدا كانا قريبين من الأثر الفني ((فإذا استقريت التشبيهات وجدت التباعد بين الشيئين كلّما كان أشد كانت الى النفوس أعجب، وكانت لها النفوس أطرب، وكان مكانها الى أن تحدث الأريحية أقرب))[4]وهذا يعني أنه مهما بلغت الصورة التشبيهية من الكمال فإن هناك بوناً شاسعاً بين أطرافها، لأن المشبّه لو تشابه مع المشبّه به بكل صفاته وأحواله للزم أن يكون هو بعينه، وبذلك تنتفي الحاجة الى هذا الأسلوب البياني. والتشبيه على نوعين:

أ- التشبيه بالأداة:

للتشبيه أدوات تربط بين طرفيه، فمنها ما هو حرف (الكاف، كأن) ومنها ما هو اسم (مثل، شبه) ومنها ما هو فعل (يشبه ويشابه، ويحكي ويحاكي، ويضاهي، ويماثل، ويشاكل، ويساوي).

ومن يتأمل الصورة التشبيهية التي تصوّر الشرك بالله تعالى وحال المشرك الذي يتمسّك بشركه بعد البلاغ لا قرار له ولا استقرار. قال تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾[5]هكذا في ومضة نرى المشرك يسقط يسقط من أعالي السماء، وهو تصوير للشرك الذي هو معنى عقلي لأن يكون حسيّاً، وتصوير حركته وهو يسقط فلا يقع على الأرض، إذ يخطفه الطير الجارح طعاماً له، وإن لم تتأتى لهذا الطير فرصة فإن الريح العاصف تخطفه وترمي به إلى واد عميق سحيق حيث

---

(١) ابو هلال العسكري: الصناعتين ٢١٦.
(٢) ابن رشيق القيرواني: العمدة ٢٨٦/١.
(٣) قدامة بن جعفر: نقد الشعر ١٢٤.
(٤) الجرجاني: اسرار البلاغة ١١٦.
(٥) الحج ٣١.

لا يدري به أحد. فما السرّ في سرعة سقوطه، أو في دفع الريح له إلى مكان بعيد؟ إن هذه السرعة كانت لئلا يتوهّم أحد إن لمن يشرك بالله وجوداً أو قراراً، فمهما بلغ من الحسب والنسب والقوة والجاه والبنين إنما يأتي في ومضة وينتهي في ومضة، وهذا هو المقصود.

وفي صورة تشبيهية أخرى تبرز الحيرة التي تنتاب من يرتد عن التوحيد الى الشرك، فيتوزّع قلبه بين الإله الواحد وبين الآلهة المتعددين، فينقلنا من صورة حسية الى صورة متخيّلة. قال تعالى: ﴿ قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ﴾[1]

تبرز لنا الصورة الأولى هذا المخلوق الذي ارتد بعد أن هداه الله تعالى الى أن يدعو من دون الله الحجر والبشر، ولا ينفعه ولا يضرّه شيء منهما، مشبّهاً إياه بصورة أخرى لمخلوق حملته الشياطين على اتباع الهوى، وأراد السير في هذا الطريق، ولو اتبع هذا الطريق وحده لكانت له راحة القصد وإن كان طريقاً للضلال، ولكن انفتح أمامه طريق آخر وهو طريق الهدى، وعلى جانبيه أخوان يدعونه إلى الله، وينادونه (أئتنا) أي تعال الينا، وهو بين طريق الهوى وطريق الهدى حيران موزّع القلب، لا يدري أي الفريقين يجيب، وأي الطريقين يسلك، وهو قائم عند المفترق.

وتبرز الصورة التشبيهية المعنى الحسّي لمعنى عقلي وهو أن الدعوة لله وحده يستجيب لمن يدعوه، وإن الدعوة لغيره من الآلهة التي يدعونها لا تستجيب لهم، وما يدعون اليه ضياع. قال تعالى: ﴿ لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴾[2] فدعوة المشركين لغير الله تعالى وهي دعوة ضالة لا تتحقق فيها الإجابة لعدم قدرة الآلهة من الأصنام والأوثان على النفع والضرر، فهذه الصورة تشبّه بصورة حسيّة تجذب اليها الالتفات، وهي من الصور العجيبة التي استطاعت الألفاظ أن ترسمها بدقة، صورة إنسان يبدو عليه الظمأ، يمد كفيه الى الماء ليغرف منه، ويملأ فاه، ولكن الماء يتسرّب من بين أصابعه، ولن يصل منه قطرة واحدة، ويلح في الطلب وتتكرر الصورة والماء لا يبقى منه شيء.

ويحسب الكفّار أن لهم أعمال في الخير منها تنظيف المسجد الحرام وسقي الحجيج وإطعام الطعام قد تنفعهم في الآخرة، وها هي أعمالهم يوم القيامة تتحوّل الى سراب أو خيال لا يمكن الإمساك به، ولا يمكن جمعه حتى يكون له وزن معلوم. قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ

---

(١) الانعام ٧١.

(٢) الرعد ١٤.

﴿ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴾[1] فالصورة التشبيهية لهذا الكافر وهو يحسب أن له أعمالاً تنفعه، فتشبه الأعمال بالماء على ارض منبسطة، وهي صورة حسية، يمكن لهذا الضامئ أن يذهب اليه ويشرب منه، ويروي عطشه، ولكنه فوجئ أن هذا الماء سراب محض ينكشف سريعاً عن أرض جرداء، فقد تبخّرت الأعمال مثل الماء ولم يبق منها شيء ينفعه، ووجد الحساب حاضراً أمامه، ووفي سريعاً.

ويرسم القرآن الكريم صورة لأحوال الكافرين، وهي صورة لا تتعدّى عملية التمتع بالملذات والأكل والشرب، ولا تختلف عن صورة الحيوان في حركته وطريقة أكله وشربه. قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ ﴾[2] فصورة هؤلاء الغافلين عمّا ينتظرهم من حساب، وهم يتمتعون ويأكلون دون تفكير بالعقاب، فالغفلة هنا وهي معنى عقلي مجرّد نقلت الى معنى حسّي بتشبيههم بالحيوان الذي يأكل ويشرب ويسرح غافلاً عن شفرة الجزّار التي تنتظره، والفرق بين الصورتين أن عقل الإنسان الغافل يدرك الجزاء، وأن عقل الحيوان محدود لا يدرك ما وراء الطعام والشراب.

ونأتي الى حال المشركين أو المذنبين الذين كسبوا السيّئات فإنهم يوم القيامة يأتون بوجوه سود يعرفون بها كما في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةِۭ بِمِثۡلِهَا وَتَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۖ كَأَنَّمَآ أُغۡشِيَتۡ وُجُوهُهُمۡ قِطَعٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مُظۡلِمًا ﴾[3] فالتشبيه هنا بالأداة (كأنما) قد نقلت المعنى الحسّي وهو السواد الى المعنى العقلي وهو الظلام، فشبّهت وجوههم بقطع من الليل المظلم تكسو وجوههم، فالقطعة ليست لوناً ولا صبغة بل ظلام يمحو الملامح والشكل الآدمي.

وتلقى يوم القيامة أمام الضالين الذين اتبعوا المشركين معبوداتهم من الأصنام التي لا تنفعهم في مثل هذا اليوم، فيصيبهم الندم على مساواتهم لها برب العالمين في عبادتها. قال تعالى: ﴿ قَالُواْ وَهُمۡ فِيهَا يَخۡتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذۡ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾[4] ترسم الآيات صورة تشبيهية أداة التشبيه فيها (نسوّي) أي نساوي ونماثل، وهذا ما كان يفعله الكفار ومن تبعهم في المساواة بين الله تعالى والأصنام في استحقاق العبادة، فالمساواة باطلة بين الخالق الحي القيّوم الذي لا تدركه الأبصار، وبين الأحجار الجامدة التي تقع تحت الأنظار، وكانوا في ذلك على ضلال.

وامتد التشبيه الى أحوال المؤمنين في الدنيا فيصوّر المعاني العقلية مثل تنامي قوة النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) والمسلمين، وتكاثرهم بشكل محسوس بحيث تراه العين،

---

(١) النور ٣٩.
(٢) محمد ٦٢.
(٣) يونس ٢٧.
(٤) الشعراء ٩٦-٩٨.

كالنبتة الصغيرة التي تتفرع الى شجرة عظيمة. قال تعالى: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ﴾(1)

هذه الصورة الحسية لمعان عقلية تتمثل في تشبيه نمو قوة النبي (صلى الله عليه وسلم) وأصحابه من حوله بالزرع الذي تبدو مراحل نموه للعيان، فهو يرتوي بالماء كما يرتوي الصحابة بالركوع والسجود لله، والتراحم والتآزر بينهم، فتتفرع الأغصان وتمتد، وتكتسي بالأوراق، وتتكاثر الفروع وتتزايد حتى تتحوّل الى شجرة هائلة. هكذا كان الصحابة في تزايد عددهم، وتنامي قوتهم، واشتدادهم على عدوّهم. والى ماذا يؤول هذا الزرع؟ نراه لا يصبح هشيماً، فتذروه الرياح ويتناثر في الأرجاء، إنه ليخيّل الينا أنه ثابت على نموّه واخضراره، ولا تتحوّل عنه العين لجماله وبهائه.

ويعمل التشبيه على تصوير حال المؤمنين، عباد الله المخلصين في جنّات النعيم، وهم يجلسون على سرر متقابلة مع المحبين، من حور بيض ذات عيون واسعة لا تقع الاّ عليهم. قال تعالى: ﴿ وَعِندَهُمْ قَـٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴾(2)يشبّه حوريات الجنة اللائي يقصرن نظرهنّ على أزواجهن فحسب، ولهن أعين واسعة، بيضاوات مثل بياض البيض المحفوظ الذي لم تقع عليه الشمس، ولم يتراكم عليه الغبار، وهو تشبيه للعقلي وهو بياضهن بالحسي البيض النقي، وهنا التشبيه ليس في البياض فحسب بل التشبيه بالصيانة أيضاً، أي أن هذه الحوريات لم يمسسهن أحد.

ب- التشبيه بدون أداة (المؤكد):

التشبيه المحذوف الأداة يكون أشد وقعاً في النفس، لأن الأداة توحي بوجود طرفين متشابهين، تربطهما الأداة وتقرّب بينهما ولكن لا توحدهما، والقرينة والسياق يكشفان عن التشبيه بين العبارات، ولاسيما في المفعول المطلق المبيّن لنوعه، والمضاف الى المشبّه به، والحال، والمبتدأ والخبر.

ومما ورد في التشبيه المحذوف الأداة قوله تعالى: ﴿ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴾(3)في هذه الآية فريق من المنافقين الذين يتظاهرون بالإيمان، فإذا نزلت على النبي محمد (صلى

---

(1) الفتح ٢٩.
(2) الصافات ٤٨-٤٩.
(3) محمد ٢٠.

الله عليه وسلم) سورة واضحة تدعو الى قتال الكفار، بدا الضعف والخور على وجوه المنافقين، وزاغت أبصارهم، فجاء تشبيه هذه الحالة بصورة محسوسة في لفظ (نظر) أي كنظر الذي أصابته غيبوبة الموت، والتشبيه هنا التحام بين صورتين، صورة الخور والضعف وغشاوة بصر المنافق بعد سماعه لفظ القتال، وصورة الذي جاءه الموت حقاً فغشي بصره، وتهاوى جسده، وكأن لفظ القتال عندهم يساوي لفظ الموت.

وصورة أخرى من التشبيه المؤكد المحذوف الأداة قوله تعالى في هلاك فرعون وأتباعه: ﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَـٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾[١] وتفتح الآيتان أفقاً للخيال ليسرح فيه، فالصورة الأولى التي تتألف من فرعون وأتباعه الذين كذّبوا بالآيات والدلائل التي أنزلها الله تعالى على موسى وهارون (عليهما السلام) وفيها من النذر التي تحذرهم سوء العاقبة، فرفضت هذه الفئة وبقيت على كفرها، فأخذهم الله، وجاء التشبيه في لفظ (أخذة) لبيان نوعية هذه الأخذة، وهي كأخذة العزيز الممتنع القادر على العقاب الشديد، فتفتح هذه الصورة الخيال ليصوّر لنا كيفية هذه الأخذة الصارمة، وهي الموت غرقاً في اليم، صورة بشعة صارت عبرة لمن اعتبر، وهي بالطبع تختلف عن أخذة أخرى قد تكون هينة ينجو فيها المعاقب.

وتترآى لنا صورة أخرى من صور العقاب الإلهي التي تفتح مجال الخيال ليرسم ما شاء من الأفكار التي تدور في ذهنه، وهذه الصورة التي نريدها نجدها لدى الحواريين الذين طلبوا من النبي عيسى (عليه السلام) أن يدعو الله لينزل عليهم مائدة من السماء، ليأكلوا منها وتستقرّ أنفسهم، ولم يعلموا أن مسألة إنزالها تعتمد على الإيمان الخالص لله تعالى بعدها: ﴿قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾[٢] تبدو لنا صورة العذاب الذي هيأه الله لمن يكفر بعدها صورة خيالية، عذاب لم يعذب أحداً بمثله، فهذا العذاب لا مثيل له ولا شبيه، فهو ينفي المشبه به المقدّر (كعذاب أحد) لأن صور العذاب الأخرى قد ذكرها الله في القرآن الكريم، ولكن هذا العذاب الذي لم يعذبه لجميع المخلوقات لم يبيّنه لنا، ولذلك شاء لنا أن نتصوّره.

٢- التشكيل بالتمثيل:

قال ابن منظور: ((المِثل: كلمة تسوية يقال: هذا مِثله، كما يقال شِبهه وشَبهه بمعنى، والمَثل: الشيء الذي يضرب لشيء مَثلاً فيجعل مثله))[٣] ووضع عبد القاهر الجرجاني حدّاً فاصلاً بين التشبيه والتمثيل، فالتشبيه يكون فيه الوجه حسيّاً مفرداً أو مركباً، أو كان من الغرائز والطباع العقلية الحقيقية فهو تشبيه غير تمثيلي. والتمثيل إذ كان وجه الشبه عقلياً

---

(١) القمر ٤١-٤٢.
(٢) المائدة ١١٥.
(٣) ابن منظور: لسان العرب مادة (مثل).

مفردا أو مركبا غير حقيقي ومحتاجاً في تحصيله الى تأويل فهو تشبيه تمثيلي. و((التشبيه عام والتمثيل خاص، فكل تمثيل تشبيه وليس كل تشبيه تمثيلاً))[١]

والتمثيل قد يجيء بركنيه، وقد يجيء على حد الاستعارة فيحذف المشبّه والأداة ووجه الشبه وبقاء المشبّه به والقرينة الدالة عليه، فيطلق عليه المجاز المركب، أو الاستعارة التمثيلية، أو المماثلة، أو التمثيل.

وقد وجدنا أكثر أمثال القرآن الكريم قد ذكر فيها المشبّه الى جانب المشبّه به، كقوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾[٢]وإنّ قسماً من تشبيهاته وتمثيله ورد بلفظ المثل دون غيرها، وهناك فرق واضح بين أمثاله وتشبيهاته. وتدخل كاف التشبيه على لفظ (مَثَل) بالفتح في الأمثال القرآنية، وهذا يعني أنه ((لو كان المثل أداة تشبيه لأغنى دخوله على المشبّه به عن دخول الكاف، وتعليل هذا الجمع بين (الكاف ومثل) حيثما وقع ذلك بأنه لتأكيد التشبيه والتقابل، لأن الكاف فيها معنى المشابهة، وهو في مثل أوضح، فحيثما ذكر المثل بلفظ صريح ـ غير ضمير- سواء أكان منكراً أو معرّفاً بأل أم بالإضافة كانت المقابلة، أم كان قرب الممثل له من الممثل به ظاهراً فاكتفى بلفظ مثل))[٣]

ويعمل التمثيل على خلق صورة متخيّلة أو حقيقية للتنفير من موضوعات معيّنة أو للترغيب في غيرها، وذلك بترك المخاطب يسرح بخياله مع الصورة التمثيلية، فيصل الى الغاية المطلوبة من ضرب المثل. ومن الموضوعات التي ضربت الأمثال عليها الإيمان والشرك، لذا كانت مهمة الإسلام هي إنشاء عقيدة جديدة، وعلى هذا الأساس فإن وظيفة القرآن الكريم تقوم على بيان أهم الأسس وهو التوحيد، وليس من السهل على الإنسانية في ذلك الزمان وقد تعلقت أفكارها منذ البداية بقوى الطبيعة، ونشأت بعد ذلك المعتقدات والعبادات أن تهرع الى إله واحد يسيطر على قوى الكون.

والحقيقة إنّ الإسلام لم يكن أول من دعا الى التوحيد ونبذ الشرك، وقد واجهت تلك الأديان مثل الإسلام العناء والعنت، ولكن التوحيد الذي دعا اليه كان توحيداً تجريدياً، فهو أشد معارضة لما ثبت في النفوس من التشبيه والتجسيد، وكانت وظيفة القرآن الكريم أن يبيّن هذه العقيدة الخالصة، فيعمد الى مخاطبة العقل، وإيقاظ الإحساس، وينفذ منهما الى البصيرة، ويتعدّاها الى الوجدان، وكانت مادته الأمثال التي يضربها للناس.

ولنتأمل النوع الأول من الأمثال ومنها الصورة التي يرسمها الله تعالى في موضوع الإيمان به وتوحيده، وبيان عجز الآلهة عن الخلق، فكيف بالأمور الأدنى من ذلك، فوجه التحدّي في هذا الأمر لم يطلب منها أن تخلق خلقاً عظيماً كالفيل مثلاً، بل طلب منها أن تخلق حشرة صغيرة كالذبابة. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ إِنَّ ٱلَّذِينَ

---

(١) الجرجاني: اسرار البلاغة ٨٤.

(٢) ابراهيم ٢٤.

(٣) د. محمد جابر الفياض: الامثال في القران الكريم ١٥٥.

تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴾[1]

إنّ التعبير عن هذا المعنى الذهني لا يمكن تمثيله بتعبير مجرّد قد لا يصل الى العقول مباشرة، ولكن التعبير الحسّي يمكن أن يؤدّيه تماماً، وذلك من خلال تجسيد هذا المعنى وإبرازه في صور متحرّكة ومتعاقبة، ويمكن أن نقول أنها متدرّجة، وهي، أولاً: عدم مقدرة الآلهة على خلق ذبابة، وثانياً: ولو اجتمعت وتعاونت على ذلك الخلق فلا يمكن أن تجتمع أو أن تخلق. وثالثاً: لا تستطيع أن تسترد ما تحمله الذبابة في خرطومها من سوائل وشعيراتها، ورابعاً: إنّ الطالب وهي الآلهة والمطلوب وهي الذباب ضعيفة. فليست المعجزة إذن في خلق المخلوق الهائل كالفيل والجمل وإنما في خلق الصغير منها أيضاً كالحشرات مثل الذبابة والخلية الصغيرة وغيرها.

وننتقل الى صورة أخرى ضربت بطريق المثل تجسّم ضعف هذه الآلهة ومع ذلك فإنّ عبّادها من الكفار والمشركين يلجؤون اليها، ويحتمون بها، فتكشف عن التناقض الفكري بين ما يرون وبين ما يعتقدون. قال تعالى: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾[2]

إنّ هؤلاء المشركين يلجؤون الى الآلهة لضعفهم أمام مصاعب الحياة، ولم يعلموا أن هذه الآلهة أضعف منهم، وإذا كان هؤلاء المشركون يستطيعون الدفاع عن أنفسهم فإنّ هذه الآلهة غير قادرة على ذلك. وتمثيل المشركين بالعنكبوت الذي يحتمي ببيته الواهي دون أن يعلم بضعفه يرسم صورة للمشركين الذين لا يعلمون بأنهم يضيفون الى من يحتمون بهم ضعفا ووهنا.

وننتقل الى أعمال الكفار والمشركين وهي كثيرة قبل الإسلام، منها: تنظيف المسجد الحرام وإكساء الكعبة الشريفة، وسقاية الحجيج، وحماية الضعيف، وإكرام الضيف، وغيرها من أعمال الخير، ولكن هذه الأعمال تتبدد، ولا يحسب لها أجر، قال تعالى: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَـٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَـٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴾[3]

---

(١) الحج ٧٣.
(٢) العنكبوت ٤١.
(٣) ابراهيم ١٨.

تجسّدت أعمال الكافرين وهي معان عقلية بصورة حسّية يمكن رؤيتها وتلمّسها على شكل رماد، ولم يقل تراب لأن التراب يحمل بين ذرّاته الأملاح والمعادن وهي عناصر الحياة للزرع، والرماد ليس كذلك، فلم يكد يستقر على الأرض حتى هبّت عليه ريح عاصف فبددته وجعلته يتطاير في كل الجهات، حيث لا يتجمع أبداً.

ومن أعمال الكافرين الإنفاق في الحياة الدنيا، وهي خليط بين أعمال الخير وأعمال الشر، وقد جهد الكافر في جمع المال، وحرص على إنفاقه في تلك السبل التي يظن أنها ستعود عليه بالنفع الوفير، لكنه يتبدد أيضاً ولم يبق منه شيء. قال تعالى: ﴿ **مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ** ﴾[(١)]

إنّ إنفاق الكفار الذين ظلموا أنفسهم بكفرهم وهو معنى عقلي يتجسّد بضرب المثل في صورة حسيّة الى حرث زرع مثمر يظن زارعه أن جنيه وفير، وإذا بريح عاتية تضربه، وتجعله حصيداً محطماً، لا ينال صاحب الحرث منه ما كان يرجو بعد الجهد فيه، فكذا الكفر كالريح يعصف بإنفاقه ولا يبقى ما ينفعه.

وقد ابتلي المسلمون بالمنافقين الذين يأتونهم بوجه ويأتون أعداءهم من المشركين بوجه آخر فضرب الله بهم مثلاً في قوله تعالى: ﴿ **أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ** ﴾[(٢)]

هؤلاء المنافقون الذين أشار اليهم الله تعالى بـ (أولئك) للبعيد لابتعادهم عن الإيمان بعد أن أسلموا ظاهراً، وكانوا من قبل يترقبون الدعوة، ويتطلّعون الى أن يهديهم الله تعالى الى الإيمان والبصيرة، فتمثيل ترقبهم الدعوة بمن يريد إيقاد نار ليستضئ بها، فلمّا أنارت ما حولهم وعرفوا الطريق الصواب سلكوا طريقاً مظلماً إزاء الدعوة، فانغلقت حواسهم كالسمع والبصر واللسان في الاستجابة والتصديق. وقد جسّد بهذا التمثيل الإيمان بالله وهو جانب عقلي الى الضياء أو النور وهو جانب حسّي يمكن رؤيته بالعين، وطغيانه على حواسهم التي انغلقت إزاءه.

وابتلي المسلمون باليهود أيضاً، وكانوا أصحاب كتاب سماوي وهو التوراة، وقد ورد فيه ذكر لرسالة النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) وأوصافه، وهم يعلمون بذلك، ولكنهم أنكروا نبوّته، وناصبوا المسلمين العداء، وتعاونوا مع المشركين عبدة الأصنام والأوثان، ولم ينتفعوا بالتوراة، وكأنه لم يكن بينهم، وهنا ينتظرهم ما ينتظر غيرهم من العقاب. قال

---

(١) آل عمران ١١٧.
(٢) البقرة ١٦-١٨.

تعالى: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ بِئۡسَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[1]

تبيّن الصورة في هذا المثل التشبيهي في تمثيله اليهود بالحمار، وهو حيوان يحمل المتاع، وتمثيل صحف التوراة بالأسفار أي الكتب العامة، فهذا الحيوان يحمل هذه الكتب ولكنه لا يعلم ما تحوي من علم، فكذا اليهود نزل فيهم التوراة وكأنه لم يكن له وجود بينهم، ولم تعلم غالبيتهم ما فيه، ولم يطبّقوا تعاليمه، لأنّ رجال الدين يحجبونه عنهم، فكذّبوا برسالة النبي محمد(صلى الله عليه وسلم) فكان مصيرهم مصير الكفار والمنافقين.

وننتقل الى تمثيل المؤمنين فتتراءى أمامنا أعمال المؤمنين وهي نقيّة بيضاء، وقد مثّل الله تعالى ما ينفقه المؤمنين من أموالهم في سبيل الله بحبّة تتضاعف الى مائة حبّة. قال تعالى: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾[2]

يمثل الله تعالى إنفاق المؤمنين في أبواب الخير كالجهاد في سبيل الله، والصدقة للفقراء والمساكين وغيرها بحبّة من حنطة أو شعير، فهذه الحبّة غرست في الأرض، وبعد مداراة وسقاية أنبتت سبع سنابل في كلّ سنبلة مائة حبّة، والمجموع سبع مائة حبّة كما ذكرها التمثيل، وكأنّ كل جزء من الإنفاق يتكاثر ويزداد أو يتضاعف الى مثل هذا العدد. وينبغي أن نميّز بين مضاعفة حسنات الإنفاق ومضاعفة حبّات الحنطة أو الشعير، فالحسنات تتضاعف دون أن يتعب المنفق في غرسها وسقايتها، لأنّ الله تعالى هو الذي يضاعفها، أمّا الحبّة فإن الزارع يتعب في حرث الأرض، وبذر الحبّة، وسقايتها ورعايتها، وقد تنمو هذه الحبّة وتزهر فيحصدها، أو تذوى وتموت فلا يجني ثمرها.

ومثل هذا التمثيل الذي يجسّد الإنفاق وهو معنى عقلي الى معنى حسّي تراه العين في حبّة واحدة، فكيف إذا كان الإنفاق في عدد من الحبّات، وأوجه الشبه بين الطرفين كثيرة، منها: إن المنفق زارع خير والباذر زارع حبوب، وكلاهما دفع ما عنده مما عزّ عليه، وكلاهما دفع ما عنده عاجلاً أملاً في نفع آجل، فعاد عليه النفع أضعافاً مضاعفة.

وانشغل المفسرون في عدد الحبّات فهل يشترط فيها مائة حبّة؟ قال الطبري: ((فإن قال قائل: وهل رأيت سنبلة فيها مائة حبّة، أو بلغك؟ فضرب بها مثل المنفق في سبيل الله؟ قيل: إن يكن ذلك موجوداً فهو ذاك))[3]وقال ابن عطية: ((قد يوجد في سنبل القمح ما فيه مائة حبّة، وأما سائر الحبوب فأكثر من ذلك، ولكن المثال وقع بمائة))[4]وقد أجهد المفسرون أنفسهم فيما لا طائل له، وما لا يزيد أو ينقص من أثر المثل في وجدان المتلقي،

(١) الجمعة ٥.
(٢) البقرة ٢٦١.
(٣) الطبري: جامع البيان في تفسير القان ٤٢/٣.
(٤) ابو حيان: البحر المحيط ٢/ ٣٠٤.

ثم عادوا الى المنطق لتبيان صحة التمثيل بما يتصوّر ويفترض، لأن المثل لم يرد الإخبار عن عدد الحبّات وما تنتجه السنبلة منها، وما تعود على الزارع من نفع، وإنما أريد به حثّ المؤمن على الإنفاق وبيان أن ماله لم يهدر ولم يذهب سدى كما قد يتهيّأ له.

وفي تمثيل آخر لإنفاق المؤمن بالجنة على ربوة عالية يتضاعف أُكلها كما في قوله تعالى: ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثۡبِيتٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ كَمَثَلِ جَنَّةِۭ بِرَبۡوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٞ فَـَٔاتَتۡ أُكُلَهَا ضِعۡفَيۡنِ فَإِن لَّمۡ يُصِبۡهَا وَابِلٞ فَطَلّٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾[(١)]

إنّ هذه الصدقات التي تنفق ابتغاء رضى الله قد مثّلت بجنّة فوق ربوة، فإن زادت الصدقات نزل على الجنة وابل من الحيا فيمتزج بتربتها، ويضاعف ثمرها مرّتين، وإن لم ينزل عليها ذلك الماء فإن ثمارها لا تسقط ولا تجف بل تبقى على حالها الأول. ومثل هذا التناسق العجيب في أجزاء الصورة وتماثل جزئياتها يدعو الى التأمّل في التقابل بين زيادة الإنفاق ومضاعفة الأكل والثمار. وقد اختلف المفسرون فيما مثّل بالجنة أهُم المنفقون أم نفقاتهم؟ فقد ذهب بعضهم إلى أنّ الممثّل هم الذين ينفقون أموالهم [(٢)]وبعضهم يرى أنّ الممثل هي النفقة [(٣)]

ويحذّر الله تعالى المؤمنين من أن يكونوا كالمرائين الذين ينفقون أموالهم رياء ونفاقاً، ليوهموا الناس بأنهم من خيار الناس رقة ورحمة بالمساكين، وإنهم لا يبغون من وراء ذلك جزاء ولا شكورا. قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾[(٤)]

يُنقل الينا المعنى المجرّد وهو الإنفاق رياء أمام الناس في صورة حسيّة من خلال تمثيله بالصفوان أو الحجر الصلد، وقد غطته طبقة من التراب، كالمرائي الذي يغطي نفسه بثوب الرياء، فإذا ما نزل وابل من المطر على ذلك الحجر المغطى بالتراب المهيّأ للخصب والنماء، انزاح التراب عنه، وظهر الحجر أشد لمعاناً من مما كان. وهكذا فإن ثوب الرياء قد انكشف، وظهر تحته مراء أنفق ماله ليذاع صيته، ووقف الناس على حقيقته، وكان التمثيل خير حائل بين المؤمن وبين المنّ بالإنفاق والإيذاء بسببه.

وهكذا نجد التوافق بين حال المرائي ونفقته والصفوان والتراب الذي غطّاه، فالمرائي صخر صلب في قسوة قلبه، وما بدا منه من الصلاح والإنفاق وعجل الخير مثل ما غطّى من التراب،ولقد أزال الرياء ما يمكن أن يعود به الى فعل الخير ،كما أزال المطر عن

---

(١) البقرة ٢٦٥.
(٢) ينظر: الطبري: جامع البيان ٨٣ وابن كثير: تفسير القران ٢/٣٦-٣٧.
(٣) ينظر: الزمخشري: الكشاف ١/ ٢٨٤ والرازي: التفسير الكبير ٢/ ٥٠٦.
(٤) البقرة ٢٦٤.

الصفوان ترابه، وكما أنّ التراب لم يتغلغل في الصفوان ويكون وإياه شيئاً واحداً، فإنّ ما يُنفقه المرائي وما يقوم به من الأعمال الصالحة لم تكن نابعة من نفس طبعت عليها.(١)

والنوع الثاني من الأمثال وهي أمثال المقارنة والموازنة، وقد حظيت هذه الأمثال بعناية الباحثين، وقد صرّح القرآن الكريم بمثليتها، وجاءت على وفق ما تقتضيه الصورة المجازية، والفكرة التي عبّر القرآن عنها بتلك الصورة، ويظهر بجلاء أن أمثال هذا النوع لا تقف عند حدود التشبيه التمثيلي، وإنما تتجاوزه الى مطلق التشبيه والموازنة للتعبير عن الفكرة التي يعالجها المثل، وإبرازها برهاناً ساطعاً وحجة دامغة.

ومن أمثال الموازنة ما تدور موضوعاتها حول إبراز الفرق بين المتناقضين مثل: المؤمن والكافر، والمنفق والمقتر، والعالم والجاهل، ومن يؤدي الزكاة ومن لا يؤدّيها، ورجل مسالم وآخر مشاكس.

وها هي الكلمة الطيبة التي تنفع الناس تنبت في الأرض وتثبت، وتؤتي ثمرها في كل حين وتنفع الناس، وها هي الكلمة الخبيثة لا تنمو ولا تثمر ولا تنفع الناس، بل تعبث بها الريح أو يجرفها السيل، ولا يبقى لها قرار. قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴾(٢)

في هذه الصورة تتجسّد الكلمة الطيبة وهي كلمة الإيمان من معناها العقلي المجرّد الى معنى حسّي يتمثّل في شجرة عظيمة تمتد جذورها في أعماق الأرض، وتمتد أغصانها الى عنان السماء، وتعطي ثماراً طيبة، وتقابلها الكلمة الخبيثة وهي كلمة الكفر بالله تعالى، وتتمثل بشجرة تقطّعت جذورها من فوق الأرض، وتيبّست أغصانها، فلم تثمر، ولم تثبت على الأرض، فكان مصيرها الذبول والزوال بفعل ريح عاصف أو سيل جارف.

ويوضح التمثيل صورة الإيمان أيضاً من خلال الموازنة بين المؤمن والكافر أو المهتدي والضال، وإبراز عدم المساواة بينهما كما في قوله تعالى: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾(٣)

فالموازنة واضحة بين صورتين، الأولى: صورة إنسان في حالة الجهل والكفر ممثلاً بميّت فإذا دخل الإسلام وأنار قلبه الإيمان، نهض من ذلك الجمود، وتحرّك بين الناس

(١) ينظر: د. محمد جابر الفياض: الامثال في القران الكريم ٣٧٤.
(٢) ابراهيم ٢٤ – ٢٦.
(٣) الانعام ١٢٢.

والإيمان ينير له الطريق. والثانية: صورة إنسان كافر تغمره الظلمات فتضيع ملامحه، وتحيله الى شبح إذ لم يدع نور الإيمان يدخل الى قلبه، وأينما يتوجّه فإنه يخوض في لجج الظلمات، ولن يستطيع الخروج منها. وقد أبدع البديع سبحانه وتعالى في تمثيل الإيمان بالنور والكفر بالظلمات.

والنوع الثالث من الأمثال يأتي لبيان قدرة الله في خلقه السماوات والأرض وجميع المخلوقات، ويجب أن ننبّه الى ظاهرة تبدو واضحة في تصوير القرآن وهي ظاهرة (التجسيم) أي تجسيم المعنويات المجرّدة، وإبرازها مادة مجسّمة أو محسوسة، وإنه ليصل في هذا الى مدى بعيد، فيعبّر في مواضع حساسة عن صفات للذات الإلهية بحيث يحرص الدين الإسلامي على تجريدها كل التجريد، ولهذا الأسلوب دلالته الحاسمة أكثر من أي دلالة أخرى، وإن طريقة التجسيم هي الأسلوب المفضل في التصوير القرآني، ولنتأمل ذلك التجسيم في تمثيل النور الإلهي كما في قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾[١]

في هذه الصورة نشعر بفيض نور الله يمتد فيغمر الكون كله، السماوات والأرض وجميع المخلوقات، ولكن الطبيعة البشرية بإدراكها المحدود وبحواسها الضعيفة لن تدرك هذا الفيض الزاخر، ولابد إذن من تقريبه بمحسوس تدركه الأبصار، فتمثّل النور الإلهي بالمشكاة وهي الكوّة في الجدار، أو القنديل الذي ينبعث منه الضوء، ذلك القنديل ليس مصدراً للضوء بل المصباح الموجود بداخله، فينحصر الضوء ويتركز فيبدو قوياً متألقاً، وزجاجة المصباح ليست عادية بل زجاجة كأنها كوكب درّي، وهنا ينقل المثل من الأرض الى السماء، كي لا ينحصر التأمل في النموذج الصغير الذي ضرب المثل به لتقريب الأصل الكبير، وهذا المصباح يستمد نوره من زيت شجرة زيتونة مباركة، وينتقل مرّة أخرى من النموذج الصغير الى الأصل الكبير، فهذه الشجرة ليست بعينها، وليست محددة بمكان أو جهة معينة (لا شرقية ولا غربية) وإنما هي مثل للتقريب، وزيتها الذي يغذي المصباح إنما هو زيت عجيب، فهو من الشفافية بحيث يضيء بذاته قبل أن يصل الى الاحتراق، فيصل الى درجة (نور على نور) فالمشكاة نور، والزيت نور، والمصباح نور، والكون نور، وبذا نعود الى نور الله الذي أشرقت به الظلمات في الأرض والسماوات (يهدي الله لنوره من يشاء) ممن يفتحون قلوبهم لهذا النور فتراه فائضاً ودائماً لا ينقطع ولا يحتبس ولا يخبو، فحيثما توجّه القلب رآه، وحيثما تطلّع الحائر هداه.

٣- التشكيل بالاستعارة:

---

(١) النور ٣٥.

الاستعارة: ((أن تريد تشبيه الشيء بشيء فتدع أن تُفصح بالتشبيه وتظهره، وتجيء الى اسم المشبّه به فتعيره المشبّه وتجريه عليه))[1]ولا يبعد تعريف السكاكي عن هذا التعريف كثيراً فقال: ((هي أن تذكر أحد طرفي التشبيه وتريد الطرف الآخر، مدعياً دخول المشبّه في جنس المشبّه به دالاً على ذلك بإثباتك للمشبه ما يخص المشبّه به))[2]وهي أسلوب من أساليب البيان، ووسيلة من وسائل تشكيل الصورة الفنية، وذلك لقدرتها على الإيحاء والتخييل، وتفتح أمام الأدباء سبل القول، وتتيح لهم قدراً من التصرّف في التعبير عن المعاني، كما تحمل السامع على تخييل صور موحية تتخطّى العلاقات المنطقية أو المألوفة بين الألفاظ. وذلك ((أنّ الاستعارة لا تحد كثيراً بالتمايز والوضوح المنطقيين، ولا تعتمد كثيراً على حدود التشابه الضيّقة بقدر ما تعتمد على تفاعل الدلالات الذي هو بدوره انعكاس وتجسيد لتفاعل الذات الشاعرة مع موضوعاتها))[3]

ويمكننا القول إن مزيّة الاستعارة ((أنها تعطيك الكثير من المعاني باليسير من اللفظ حتى تخرج من الصدفة الواحدة عدّة من الدرر، وتجني من الغصن الواحد أنواعاً من الثمر... فإنك لترى بها الجماد حيّاً ناطقا والأعجم فصيحاً، والأجسام الخُرس مبينة، والمعاني الخفية بادية جلية... إن شئت أرتك المعاني اللطيفة التي هي من خبايا العقل كأنها قد جسّمت حتى رأتها العيون، وإن شئت لطفت الأوصاف الجسمانية حتى تعود روحانية لا تنالها إلاّ الظنون))[4]

وتعد الاستعارة وسيلة مهمة من وسائل التصوير في القرآن الكريم، إذ ترتقي بالصورة التي ترسمها فتمنحها الحياة بكل ما فيها من نمو وتجدد وحركة وانفعال وحوار، فالحوادث الذهنية تتجسّد وتتجسّم، والشواهد المادية تغدو شاخصة تدب فيها الحيوية والنشاط والحوار.

تناولت الاستعارة موضوع الإيمان بالله تعالى وتوحيده، وحاولت أن تقرّب هذا المعنى العقلي بتجسيده أو تشخيصه من الفهم والإدراك، وإيصاله الى الاعتقاد الجازم بأن الله تعالى لن يترك عباده هملاً، فاختار منهم رُسلاً، وبعث اليهم ملائكة، وأنزل عليهم كتباً ليرفعهم من الحضيض إلى السمو، كما في قوله تعالى: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾[5] فقد أستعيرت الظلمات للكفر أو الضلال لعلاقة المشابهة بينهما، وهو عدم الاهتداء الى الحق والتخبط في الظلام. وأستعير النور للإيمان والهداية لعلاقة المشابهة بينهما أيضاً في رؤية طريق الصواب الى الحق وهي استعارة تصريحية

---

(١) الجرجاني: دلائل الاعجاز ٥٣.
(٢) السكاكي: مفتاح العلوم ٤٧٧.
(٣) د. جابر عصفور: الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي ٢٤٧.
(٤) الجرجاني: اسرار البلاغة ٤١.
(٥) ابراهيم ١.

وقوله تعالى في بيان أن هذه الآلهة لا تنفع ولا تضر، ولا تُغني عبادتها سوى الخيبة والخسران ﴿ قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ﴾[1] فقد أستعير للارتداد المعنوي، وتراجع الفكر والاعتقاد الى الكفر وما يتبعه من أعمال وأفعال بارتداد حسي، وهو تراجع الى أعقاب الأرجل وكأننا إزاء صورة متخيلة، صورة إنسان يمشي الى الخلف بعكس المطلوب، وهو ما يسمى بالتراجع، فالتقدم نحو الآلهة التي لا تنفع ولا تضر هو تراجع عن الحق.

وننتقل الى معركة حاسمة بين الحق والباطل كما في قوله تعالى: ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾[2] هذه المعركة تدور في كل زمان ومكان، وقد تتأخر نتيجة الحسم أو تتقدم، فإنها واحدة وهي انتصار الحق على الباطل، فقد أستعير للحق وهو معنى عقلي جسماً صلباً يمكن قذفه، فتجسّد على شكل قذيفة، وشخص الباطل على شكل مخلوق حقير، فإذا بهذه القذيفة ترمى بقوة على رأس الباطل فتحطمه، ويسقط صريعاً لا قيام بعدها، إنها صورة حسية لتلك الحركة التي لابد من تشكيلها ليتيقن بعدها المؤمنون والكافرون.

وتلفت أنظارنا صورتان متقابلتان إحداهما يجري فيها البناء على الإيمان بالله والخوف منه، وأخرى يجري فيها البناء على الكفر وعدم الخوف من الله تعالى: ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[3]

نقف على البناء الأول لأناس دخلوا الإسلام ولابد أن يقيموه، وكانوا يتحرّون الدقة في ذلك البناء، فهم يريدونه بناء متيناً، فيبحثون في تلك المواد اللازمة لذلك البناء، وقبل البدء به جعلوا أساسه التقوى، فاستعاروا للتقوى أساساً أو قاعدة قوية، فإن ذلك البناء سليم اكتسب رضا البديع وهو الله سبحانه وتعالى. ونقف على البناء الثاني لأناس اختاروا الكفر وأرادوا أن يقيموا بناءه، فلم يتحرّوا مواده وما فيها من تلف وتصدّع، واختاروا أساساً له، وهو حافة هاوية سحيقة، وكأنما أعجبتهم تلك الطلعة من الهاوية، فأقاموا عليها ولم يكد يكتمل ذلك البناء حتى انهار إلى تلك الهاوية التي هي في الحقيقة هاوية نار جهنم، ولعل من جمال العرض أن الفاء (فانهار) لم تعطهم مدة للتراخي مثل (ثم) لأن هذا التراخي لا ينفع في تغيير اختيارهم، ولا ضرورة له، وهذا فن جمالي.

وتثير انتباهنا صورتان أيضاً صورة لجماعة من المؤمنين يتبعون وليّهم وهو الله سبحانه وتعالى، فيوجههم من الظلمات الى النور، وصورة لجماعة من الكفار يتبعون ما

---

(١) الانعام ٧١.
(٢) الانبياء ٨١.
(٣) التوبة ١٠٩.

يُمليه عليهم وليّهم وهو الشيطان الرجيم، فيوجههم من النور الى الظلمات. قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾(١)

في هاتين الصورتين استعارة تصريحية، فقد استعير للكفر الظلمات واستعير للإيمان النور، ونحن إزاء هاتين الصورتين المتباينتين في حركتهما المتخيلة التي تستحيل حركة حسيّة، جماعة من المؤمنين يتحركون من ظلمات تحيط بهم، وهم يتبعون ما يوحي اليهم وليّهم وهو الله سبحانه وتعالى، وهو حريص بهم، موجّهاً إياهم من ظلمات الكفر الى نور الإيمان، وجماعة من الكفار يتحركون من النور الى الظلمات، وهم يتبعون ما يمليه عليهم وليّهم الشيطان.

ويضرب القرآن الكريم الأمثلة، ويعطي الأدلة والبراهين الحسيّة التي تثبت لهم صدق الدعوة الى الإيمان بالله وتوحيده، ويدعو الى تدبّر آيات الله التي أنزلها في كتابه العزيز كقوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ﴾(٢)هذه القلوب تعي الحق، وتدرك الفرق بين إله خالق وبين آلهة خرقاء لا تضر ولا تنفع، فاستعير لتلك القلوب المغلقة أقفال تحكم إغلاقها كما شاء أصحابها، أما لهذه الأقفال أن تُفتح لدعوة الحق.

ومن الأمثلة التي تُضرب للعظة والاعتبار، يصوّر لنا الخالق تعالى قرية آمنة مستقرّة، تقوم بأعمالها اليومية، ومنها العناية بما تزرعه فتأكل منه رزقاً طيباً، ولكن أصابها البطر، فأنكرت نعم الله تعالى، فأصابها الجوع والقحط، وزال عنها الأمن والاستقرار. قال تعـــــالى: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا قَرۡيَةٗ كَانَتۡ ءَامِنَةٗ مُّطۡمَئِنَّةٗ يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا رَغَدٗا مِّن كُلِّ مَكَانٖ فَكَفَرَتۡ بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ﴾(٣)

في هذه الصورة أستعير للجوع والخوف لباس، والخوف والجوع معنيان عقليان تجسّدا في ثوب يرتدى، واستعار لهما مذاق. واستجلاء هذه الصورة يحتاج الى تريّث يدرك به روعة التعبير، فالمناسبة هنا تقتضي أن يقال فألبسها الله لباس الجوع والخوف، ولكن إيثار الذوق هنا يأتي لأن الجوع يشعر به عن طريق الذوق، ويصح أن يكون للجوع لباس وللخوف لباس، فالجوع يكسو صاحبه ثياب الهزال والشحوب، والخوف يكسو صاحبه ثياب الاضطراب والقلق.

---

(١) البقرة ٢٥٧.
(٢) محمد ٢٤.
(٣) النحل ١١٢.

ومن البراهين العقلية التي يستدل عليها بالظواهر الكونية الحسيّة وهي تناوب الليل والنهار. قال تعالى: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ ﴾[1]في هذه الصورة استعار لزوال النهار وانتهائه بسلخ جلد الشاة، وهي صورة حسيّة، والمراد بالسلخ لغة كشط الجلد عن الشاة ونحوها، لزوال ضوء النهار قليلاً قليلاً، ففي كشط الجلد يظهر لحم الشاة، وبإزالة ضوء النهار أو غروبه يظهر الظلام، وكأن الضوء كان يستره، والاستعارة هنا تصريحية، فبنظمها الفريد وبإيحائها وجرسها رسمت منظراً بديعاً للضوء وهو ينحسر عن الكون، ويدبّ دبيباً بطيئاً بحيث لا نشعر بحركته، ولا نظن أن لفظ (نسلخ) يصلح أن يحل لفظ آخر محلّه، فاستقلّ بالتصوير المعبّر عن الحركة.

ومن استعارات الظواهر الكونية قوله تعالى أيضاً: ﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾[2]فاستعير للصبح التنفس فشخّصه، وهي استعارة مكنية، وتعني دخول الهواء وخروجه مع حركة الصدر والمستعار له وهو الصبح، فخروج النور من المشرق عند انشقاق الفجر قليلاً قليلاً يشبه حركة التنفّس، وقد بلغت الاستعارة بنظمها الفريد منتهى الجمال، لأنها خلعت على الصبح الحياة بإشراق ثغره الباسم، وهو يتنفّس بهدوء، وتدبّ في الأحياء النشاط والحركة، ورسم اللفظ (تنفس) صورة بديعة للصبح بإشراقه الجميل.

ومن الموضوعات التي دخلت الاستعارة اليها رسالات الأنبياء والرسل الذين أرسلوا لإخراج الناس من الكفر الى الإيمان. ولما أبى قوم نوح (عليه السلام) من الاستجابة لدعوته جاء أمر الله تعالى بإغراقهم، وأمره بصنع السفينة لإنقاذ المؤمنين منهم. قال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلۡمَآءُ حَمَلۡنَٰكُمۡ فِي ٱلۡجَارِيَةِ ﴾[3]الجارية أي السفينة التي تجري في الماء، وقد أستعير الطغيان للماء وهي صفة آدمية، وتعني الخروج عن حد الاعتدال، أي خروج الماء عن مستواه الطبيعي، فأفرط في الزيادة، ثم اشتق من الطغيان الفعل (طغى) بمعنى كثر وزاد، وهي استعارة فريدة لا توجد في غير القرآن، إذ تصور لنا الماء في فورانه واضطرابه بالطاغية الذي جاوز حدّه، وأفرط في استعلائه، فهل هناك أعجب من هذا التصوير الذي يخلع على الماء صفة إنسانية.

وأما عاد وهم أول الأمم الذين عبدوا الأصنام بعد الطوفان كما في قوله تعالى ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ قَوۡمِ نُوحٖ ﴾[4]وكان أخوهم صالح (عليه السلام) قد دعاهم

---

(١) يس ٣٧.
(٢) التكوير ١٨.
(٣) الحاقة ١١.
(٤) الاعراف ٦٩.

الى عبادة الله الواحد، ونبذ الأصنام فعتوا عن أمره، فأنزل الله عليهم ريحاً عاتية. قال تعالى: ﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ (41) مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴾[1]

استعار للريح (العقم) وهو الجدب وعدم التلقيح والإنجاب، فقد جسّم هذه الريح التي لم تهب للتلقيح والإنبات واخضرار الأرض، وإنما جاءت للدمار والخراب والتحطيم، فدمرتهم وتركتهم أجساداً ملقاة على الأرض. وكذلك قوله تعالى في تلك الريح: ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴾[2] استعار للريح (العتو) وهي صفة إنسانية فشخّصها، والعتو الجبروت، فجعل هذه الرياح تخرج عن حدّها الى العتو والطغيان، فتقوم بالدمار والتخريب، وبهذا فإن الاستعارة المكنية قد وهبت للجماد في هذه الصورة العقل والحياة، زيادة في تصوير المعنى وتمثيله للنفس.

وعندما ذهب النبي موسى (عليه السلام) الى ميقات ربّه، وأنزل عليه التوراة في ألواح اتخذ قومه من بعده عبادة العجل، ولما علم بهم غضب لله غضباً شديداً. قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ ۖ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾[3] فقد شخّص الغضب وجعله إنساناً، ورمز بشيء من لوازمه وهي (السكت) ألا نحس بالغضب هذا وكأنه إنسان هائج وفجأة يغيّر موقفه فيهدأ ويستكين، فكان لفظ (سكت) استعارة مكنية حينما جاءت رمزاً للمشبه به.

وأحسّ النبي زكريا (عليه السلام) بالضعف والوهن، وخاف على قومه بني إسرائيل أن يكونوا على أمر يخالف شرع الله وطاعته، فكانت حاجته الى من يكون من بعده في النبوّة والحكم، ويكون مرضياً عنه. قال تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴾[4] استعار للشيب (الاشتعال) من النار، وهي استعارة مكنية، ففي التعبير باشتعال الشيب جمال، وفي اسناد الاشتعال الى الرأس جمال آخر، يكمل أحدهما الآخر، وهو لون من ألوان التخييل، فلفظ (اشتعل) لا يعني انتشر فحسب، ولكنه يحمل معنى الدبيب في الرأس كما تدبّ النار في الحطب، حتى إذا تمكّنت منه اشتعلت بقوّة لا تُبقي منه ولا تذر، كما يحترق الشعر من الأسود الى الأبيض بحيث لا يذر شعرة الاّ التهمها وأتى عليها، وفي اسناد الاشتعال الى الرأس ما يوحي بهذا الشمول.

وعندما قويت الدعوة الى الإسلام جاء الأمر الإلهي الى رسوله الكريم محمد (صلى الله عليه وسلم) أن يعلن الدعوة على الناس جميعاً بعد أن كانت سرّية خفية. قال تعالى: ﴿

---

(١) الذاريات ٤١- ٤٢.
(٢) الحاقة ٦.
(٣) الاعراف ١٤٨.
(٤) مريم ٤.

﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾[(١)] فقد أستعير (الصدع) وهو كسر الزجاج للتبليغ بالأمر والجامع بينهما التأثير في كل منهما. ففي التبليغ نجد المبلّغ يؤثر في الأمور المراد تبليغها بحيث لا تعود الى حالتها الأولى من الخفاء، وفي الكسر نجد المكسور الذي وقع عليه التأثير لا يعود الى الالتئام، ثم اشتق من الصدع (اصدع) بمعنى بلّغ، وفيها استعارة جميلة تتم فيها بلاغة التعبير بحيث لا نجده في الاستعمال الحقيقي، فلو قيل (بلّغ ما تؤمر) لوجدنا الفعل (بلغ) يضيق عن الإحاطة بالمراد من الآية، لأن الصدع بالأمر لابد له من تأثير كتأثير صدع الزجاج، فيبرز الأمر الموجّه للنبي (صلى الله عليه وسلم) وهو معنى عقلي في صورة حسيّة متحركة كأننا نراها بالعين ونلمسها باليد.

وننتقل الى دور الاستعارة في تصوير المؤمن، فالمؤمن يخرج من دار الاضطراب والقلق والتخبّط والخوف بعد إيمانه الى دار السلام والأمن والراحة النفسية كما يتضح في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴾[(٢)] فقد ذكر المشبه به وهو السلم فاستعاره للإسلام، وهي استعارة تصريحية، وجسّد السلم وجعله داراً يدخل اليه المؤمن، والقرينة الدالة على ذلك (أدخلوا) أي أدخلوا الى دار الأمان والاستقرار بكل جوارحكم، وليس دخول نفاق وكذب، واستعار للشيطان خطوات حسيّة يمكن للمؤمن أن يراها في إيحائه وإغرائه وخطواته السيّئة فيتجنبها ولا يحذو حذوها أو يتتبعها.

وهؤلاء المؤمنون يحفظهم الله تعالى ويصونهم من الهلاك بإرادته، ففي معركة حنين أصاب المسلمين الغرور بكثرتهم التي لم تنفعهم، فتراجعوا عن العدو، ولكن الله تعالى أنزل السكينة والثبات عليهم. قال تعالى: ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾[(٣)]فقد جسّد السكينة وهي معنى عقلي وجعلها غمامة تنزل عليهم بعد اضطرابهم وتراجعهم، وإذا بهم يثبتون أمام العدو ويزول ذلك الاضطراب ويحل محله الإرادة والتقدّم، ويتحقق النصر.

ويرجع المؤمنون عند اشتداد الأمر عليهم الى ربّهم يدعونه الى أن يجعلهم من الصابرين على قضائه، فهؤلاء السحرة أرسل فرعون في طلبهم ليفندوا موسى (عليه السلام) بسحرهم، ولكنهم أيقنوا صدق رسالته، وما يدعوا اليه من الإيمان بالله تعالى وتوحيده، قال تعالى حكاية عنهم: ﴿ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتۡنَاۚ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ ﴾[(٤)] استعار للصبر الصب كما يصب الماء، وهي استعارة مكنية،

---

(١) الحجر ٩٤.
(٢) البقرة ٢٠٨.
(٣) التوبة ٢٦.
(٤) الاعراف ١٢٦.

والقرينة (أفرغ) فجعل الصبر ماء كثيراً يصب عليهم، فيغسل عنهم الخوف أو التردد من انتقام فرعون منهم، فيزدادوا طمأنينة وراحة حين يتوفاهم الله وهم مسلمون.

والله تعالى يدعو المؤمنين الى انتهاج منهج التقوى، كما في قوله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾[1] فقد استعار للتقوى وهي معنى عقلي الزاد فجسّدها، ولمّا كان الزاد ضروري لبقاء الإنسان حيّاً، فكذا التقوى فإن تناولها يقوّيه على إغراء الشيطان، ويقيه من شرّه وألاعيبه لحرفه عن الصواب، وتوجيهه نحو الهلاك والبوار.

وترسم الاستعارة صورة للكافر وهو في حالة البيع والشراء، وهي تختلف تماماً عن صورة المؤمن، فاختيار البقاء على الكفر صار منهجاً سار عليه الكفار، واهملوا الدعوات الى الإيمان، فخسرت تجارتهم. قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾[2] فقد استعيرت الضلالة للكفر، واستعير الهدى للإيمان، وهنا استعارة تصريحية لذكر المشبه به وهو الضلالة والهدى، ثم حوّل المعنى العقلي الى حسّي من خلال الاستعارة المكنية وقد جسّدهما الى بضاعة تباع وتشترى من خلال القرينة الدالة على ذلك (اشتروا) وهنا كانت الصفقة خاسرة، لأنهم اختاروا بضاعة فاسدة وهي الضلالة أو الكفر، ولم يهتدوا الى الربح والفوز في تلك الصفقة.

وتنقل الينا الاستعارة صورة الكفار الذين لن يستجيبوا لدعوة النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) سواء أنذرهم بالعذاب ام لم ينذرهم فإنهم باقون على كفرهم، وعند ذاك ختم الله على قلوبهم وختم على سمعهم، وأنزل على أبصارهم غشاوة تمنعهم من الرؤية. قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٦) خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[3] فقد استعار لقلوب الكفار الختم والغطاء الذي يطبع أو يغلق فتحة الإناء، أو أي شيء مجوف، واستعار للبصر الغشاوة او الغطاء أو الستر الذي يحجب الرؤية، وكأنّ الكفار قد أغلقوا كل منافذ الحواس والإحساس بما ينفعهم، وبقوا على ما يضرّهم.

ويحذر الله تعالى نبيه الكريم (صلى الله عليه وسلم) والمؤمنين من الاستماع الى الكفار وهم يتحدثون عن القرآن الكريم، ويستهزئون بآياته، ويطعنون فيه فعليهم الإعراض عنهم، أو تركهم حتى يأخذوا بحديث آخر غيره. قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ

---

(١) البقرة ١٩٧.
(٢) البقرة ١٦.
(٣) البقرة ٦-٧.

﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1] أستعير في هذه الصورة الماء النقي الطاهر لآيات الله تعالى، وتحوّلت من المعنى العقلي الى المعنى الحسي وهو الماء، وإذا بهؤلاء الكفار يخوضون فيه بأيديهم القذرة ويمرّغون ألسنتهم النجسة، فكيف يبدو بعد ذلك الماء أو الآيات؟ ولذا جاء النهي بعدم مجالستهم والاستماع الى أكاذيبهم.

وتدخل الاستعارة الى عمق النفاق لتصوّر مواقف المنافقين في الإسلام، فتتراءى لنا صورة المنافقين وهم يراوغون رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ويقلّبون له الأمور، ويكيدون لدفع القتال عنهم، ولمّا جاء أمر الله بقتال المشركين، تراجع المنافقون وأظهروا الأعذار، وطلبوا استئذانه بعدم المشاركة، لمنع الافتتان، ولكنهم في الحقيقة قد وقعوا في الفتنة. قال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ ۚ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾[2] فقد استعار للفتنة وهي معنى عقلي حفرة عميقة أو بئر أو واد سحيق، وجاء بقرينة تدل على ذلك وهو السقوط فيها، ولن يستطيعوا الخروج منه لأنه يؤدي الى جهنم التي لا مفرّ منها، وكأن التقدم في القتال يؤدي الى طريق الجنة، وإنّ التراجع يؤدي الى طريق النار.

ويأتي الاستثناء من مقاتلة المنافقين الذين ضاقت صدورهم، وتحرّجوا من الوقوف مع الكفار، ومقاتلة المسلمين من قومهم، وتعاهدوا على السلم فلا سبيل الى قتالهم. قال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُوا۟ قَوْمَهُمْ﴾[3]فقد استعار للصدور الحركة والإحساس بالضيق والحرج وكأنه قد شخصها ولعل ذلك التردد والإحساس بالحرج دفعهم الى الانقياد للصلح وترك القتال.

وأما أهل الكتاب ولاسيما اليهود فإنهم قبلوا بالعهد الذي عاهدهم الله، وما أحلّ وحرّم في أوامره ونواهيه، فإذا بهم لا يأخذون بذلك العهد، فلا نصيب لهم من الخير، ولهم عذاب الآخرة قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ﴾[4] فقد استعار لعهد الله وهو معنى عقلي البيع والشراء فجسّده ليصبح بضاعة، ولكنها بضاعة رخيصة ثمنها قليل، فلا يحرصون عليها، ولا يأسفون لبيعها، لأنهم لم يلتزموا بذلك العهد الذي أقاموه مع الله تعالى.

وقد عرف اليهود الحق وهو نزول القرآن الكريم، واصطفاء النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) لرسالته، ولكنهم كفروا به، وكتموا معرفتهم به، وخلطوا كلامهم فلا يعرف منه

---

(١) الانعام ٦٨.
(٢) التوبة ٤٩.
(٣) النساء ٩٠.
(٤) آل عمران ٧٧.

الحق والباطل. قال تعالى: ﴿ وَلَا تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[1] فقد استعار للحق والباطل وهما معنيان عقليان مادتين مختلفتين فجسّدهما، وقام بخلطهما فكل مادة غطّت على الأخرى، وأذهبت خصوصيتها، فكذا الحق والباطل لا نجد بينهما تلك الخصوصية إذ لا نجد الحق ولا نجد الباطل بعد ذلك الخلط.

وبسبب فساد اليهود في الأرض وإشعالهم نار الفتنة ألقى الله تعالى بينهم الفتنة والبغضاء، لتشغلهم عن إيذاء الآخرين. قال تعالى: ﴿ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ﴾[2] فقد استعار للعداوة والبغضاء مادتين تجسّدهما بحيث تلقى بين طوائف اليهود فتثير بينهم العداء والبغضاء، ولعلهما مادتان مشتعلتان بحيث ينبعث منهما الدخان الذي يتسرّب الى نفوسهم المريضة فتثيرها حقداً وغضباً.

وكان اليهود يوهمون عامتهم أن النار لن تمس المذنب منهم الاّ أياماً معدودة ثم ينتقل بعدها الى الجنة، وكأنهم اتفقوا مع الله على ذلك، أو أنهم يقولون كلاماً وينسبونه الى الله، ولكن من اقترف منهم كبيرة من الذنب فهو من أصحاب الجحيم. قال تعالى: ﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾[3] فقد استعار للخطيئة وهي معنى عقلي الإحاطة بالشيء فجسّدها وجعلها كالحيوان الذي يهاجم من يؤذيه ويحاصره فلا يستطيع الإفلات منه، ولا يستطيع التخلص منه أو إبعاده عن طريقه.

وتصوّر الاستعارة مشاهد القيامة، فتفصّل بعض أحداثها، وتملأ فجواتها بالخيال، فها هي الصيحة الأولى وهي نفخة الصور أو البوق الذي ينفخ لقيام الساعة، وهي ساعة نهاية الخلق جميعا، فقد أخذتهم وهم في جدال وخصام، فلم يستطيعوا أن يوصوا لمن بعدهم لأنها عجّلت بهم الى القبور. قال تعالى: ﴿ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴾[4] فاستعار للصيحة وهي معنى عقلي ما يشخصها بحيث تستطيع أن تسوقهم الى القبور، وتفرض عليهم القوة فتقطع جدالهم وخصامهم فينصاعوا اليها، ولم يستطيعوا إقناعها بالعودة الى ديارهم، وتوصية أبنائهم بما تركوا من مال ومتاع، فقد فاجأتهم دون تفكير أو تردد.

وتصوّر المشهد الثاني وهو نفخة الصور الثانية التي تضرب لبعث الموتى ونشورهم، وقيامهم من الأجداث، ووقوفهم صفوفاً انتظاراً للحساب. قال تعالى: ﴿ وَتَرَكْنَا

(١) البقرة ٤٢.
(٢) المائدة ٦٤.
(٣) البقرة ٨١.
(٤) يس ٤٩.

﴿ بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا ﴾[١]فقد استعير للجمع وحركته المتموّجة حركة الماء بجامع معنى الاضطراب وتتابعه في الكثرة، ثم اشتق من الموج معنى التدافع (يموج) إن هذه الاستعارة القرآنية الرائعة تصوّر هذا الجمع الحاشد من الناس حشداً لا تدرك العين مداه حتى صار هذا الحشد الزاخر كالبحر ترى العين منه ما تراه من حركة وتموّج واضطراب.

وفي مشهد آخر للحساب يقف المجرمون الكفرة لوزن أعمالهم، فإذا بها تتطاير كالغبار، ولم يستقر منها شيء في كفة الحسنات من الميزان. قال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾[٢] فالاستعارة في لفظ (قدمنا) بمعنى القدوم نحو الشيء، ولو استبدلت بلفظ (عمدنا) فقد حققت اللفظة الأولى دلالة الإمهال وعدم التعجّل في الأمر لا تحققه اللفظة الثانية التي تعني السرعة في المحاسبة، وكذلك الاستعارة لأعمال المجرمين وهي معان عقلية الهباء المنثور أي ذرّات الغبار الصغيرة التي لا تُرى الاّ من خلال أشعة الشمس الداخلة من نافذة صغيرة، فهذه الذرّات لدقتها لا يمكن جمعها، وكذلك أعمال الكافرين لا يمكن أن تجمع أو تستقر في كفة الميزان حتى يمكن معرفة وزنها.

قال الرمّاني: ((حقيقة قدمنا عمدنا، وقدمنا أبلغ منه، لأنه يدل على أنه عاملهم معاملة القادم من سفر، لأنه عاملهم من أجل إمهاله لهم كمعاملة الغائب عنهم، ثم قدم فرآهم على خلاف أمرهم، وفي هذا تحذير من الاغترار بالإمهال، والمعنى الذي يجمعهما العدل، لأن العمد إلى إبطال الفاسد عدل، والقدوم أبلغ لما بينا، وأما هباء منثورا، فبيان قد أخرج ما لا تقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه حاسة))[٣]

وفي مشهد العقاب يأتي العذاب الى الكافرين في جهنم، فيحيط بهم من كلّ جانب من فوقهم ومن تحت أرجلهم، ويقال لهم ذوقوا العذاب جزاء الكفر والفساد. قال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[٤]فاستعير للعذاب وهو معنى عقلي الغشاوة أي الغطاء والستر، واشتق منه لفظ (يغشاهم) وتحوّل المعنى الى حسّي مرئي مجسّد وهو الدخان الذي يحيط بالكافر من كلّ الجهات، ويتخلله فلا يترك له منفذ الاّ ودخله العذاب والإحساس بالألم الشديد.

ومن المشاهد الحسّية للعذاب في النار أنّ هذه النار تصدر أصواتاً تملأ السمع قبل البصر، فقد يسمع أزيزها عندما يشتد أوارها، ويسمع شهيقها عندما يرمى فيها الكفرة

---

(١) الكهف ٩٩.

(٢) الفرقان ٢٢-٢٣.

(٣) الرماني: اكنلت في اعجاز القران (ثلاث رسائل في اعجاز القران) .

(٤) العنكبوت ٥٥.

والمشركون. قال تعالى: ﴿ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٦﴾ إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ﴾[١]في هذه الصورة الحسّية استعير لنار جهنم الشهيق والفوران، وبذلك تجسّمت الى حيوان يبتلع ما يُرمى اليه، وبعد ذلك الجهد يقوم بالشهيق لتعويض ما ينقصه من الهواء، وكذلك من التجسيد أن هذه النار تفور كما يفور الماء الساخن، فتخرج منها الأبخرة والفقاعات بعد احتراق الأجساد فيها. إنها صورة مخيفة، ومقززة للنفس عند رؤيتها، أو تصوّرها في الذهن.

٤- التشكيل بالكناية:

الكناية في اللغة: ((مصدر كنّى يكنو أو كنّى يكني، والكني أو الكنو معناه: الستر، فالكناية: ستر المقصود وراء لفظ أو عبارة أو تركيب))[٢]والكناية في الإصطلاح: ((لفظ أطلق وأريد به لازم معناه، مع جواز إرادة ذلك المعنى... أو هي اللفظ الدال على معنيين مختلفين، حقيقة ومجازاً من غير واسطة لا على جهة التصريح))[٣]وعرّفها الجرجاني بقوله: ((الكناية أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردفه في الوجود فيومئ به إليه، ويجعله دليلاً عليه))[٤]

والكناية لون من ألوان التعبير البياني الذي يمتلك القدرة على كشف الجوانب الخفية من النفس الإنسانية، ودفعها الى التأمل والتدبّر، وترك التصريح بالمعنى الى التلميح، وتحرّي اللفظ المهذب الجميل، ونقل المعنى الكبير الى معنى قليل.

وقد وردت الكناية في القرآن الكريم بألفاظ موحية شفافة تبعث على التفكير والتأمل، وتترك للقارئ أو السامع مجالاً لاستنباط المعاني المقصودة، ولعل أجلّ هذه المعاني الإيمان بالله سبحانه وتعالى، وتوحيده في ذاته وصفاته وأفعاله، وتنزيهه عن التشبيه والتجسيد والتجسيم، ولا يمكن تصويره بهيئة معينة، أو تحديده بمقدار، أو يحويه مكان، أو يحدّه زمان، فقد استوى على عرشه ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾[٥] فالاستواء معلوم والكيفية مجهولة، ولا يمكن التشبيه أو التجسيم في هذه الصفة، ولكن تؤوّل بالكناية، فهو ((مستو على عرشه بالمعنى الذي أراد الله تعالى بالاستواء بطريق القهر والاستيلاء، لا يحمله العرش بل العرش وحملته محمولون بلطف الله وقدرته، ومقهورون في قبضته سبحانه))[٦]
سبحانه))[٦]

---

(١) الملك ٦-٧.
(٢) ابن منظور: لسان العرب مادة (كنز) .
(٣) د. يوسف ابو العدوس: المجاز المرسل والكناية – الابعاد المعرفية والجمالية – ١٤١، ١٦١.
(٤) الجرجاني: دلائل الاعجاز ٥٢.
(٥) طه ٥.
(٦) الغزالي: احياء علوم الدين ١/ ٧٩، ٩٥-٩٦.

ومن أسمائه الحسنى الخالق، فقد عبّرت الكناية عن هذا الخلق بأبدع تصوير، خلق آدم (عليه السلام) بيديه كما في قوله تعالى: ﴿ قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ ﴾[1]وهذا تشريف في الخلق، فإنّ لفظ (يديّ) كذا أخبرنا الله تعالى، وللتنزيه أوّلت بالإرادة والقدرة. وفي هذه الصفة أيضاً قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ ﴾[2]ولفظا (نفس واحدة) كناية عن آدم (عليه السلام) فقد كان أول الخلق من البشر، ومنه خلقت حواء، ثم أبناؤهما.

ومن أسمائه تعالى أيضاً الحي الذي لا يموت، فقد صوّرت الكناية تلك الصفة ببقاء وجه الله تعالى: ﴿ كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٖ ٢٦ وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ﴾[3]ونحن نؤمن بما يُخبرنا الله به تعالى عن التجسيم في اليد والوجه والعين وغيرها، ولأن الوجه صورة الشيء وبه يعرف، ولغرض التنزيه يؤوّل الوجه إلى الذات الإلهيه.

وترسم الكناية صورة للرعاية الإلهية وذلك بالمثول تحت العين كما في قوله تعالى عن جريان سفينة نوح (عليه السلام) وهي تحمل المؤمنين بالماء ﴿ تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا جَزَآءٗ لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴾[4] فاللفظ بأعيننا وما فيه من تجسيم يراد به على حد التأويل رعاية الله وحفظه لهذه السفينة التي تجري في مياه عاتية ولجج عالية، وكثرة الأعين هنا دلالة على شدّة المراقبة والمعاينة لهذه السفينة، والله أعلم.

ويبيّن الله تعالى الدلائل على قدرته في تدبير الكون وجميع شؤون خلقه، ومن خلقه الذين أفاض عليهم بنعمه المرأة، فقد صوّرت في أبهى صورة كما في قوله تعالى: ﴿ أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلۡحِلۡيَةِ وَهُوَ فِي ٱلۡخِصَامِ غَيۡرُ مُبِينٖ ﴾[5]فعبارة (ينشأ في الحلية) كناية عن النساء اللائي ينشأن في الترف والنعيم، والكناية هنا عن نشأة المرأة منذ طفولتها في الرعاية والحرص عليها، ولبسها الحلي للزينة، وعدم إبانتها في مواقف الخصومة والجدل ليس من قبيل الكنايات الآنية التي تمضي مع عصرها، وتفقد دلالتها مع تغيّر الأعراف والمجتمعات، بل هي ما جرت به العادة واستقرت عليه الأعراف في كل المجتمعات والعصور، فإن التحلّي بالحلي يبقى من شأن المرأة في إبراز زينتها وجمال مظهرها أمام الرجل.

---

(١) ص ٧٥.
(٢) الاعراف ١٨٩.
(٣) الرحمن ٢٦-٢٧.
(٤) القمر ١٤.
(٥) الزخرف ١٨.

وها هي الكناية تدخل الى الإيمان بالله تعالى فتصوّر معانيه العقلية في عبارة دقيقة كما في قوله تعالى: ﴿ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ ﴾[(١)] فالعروة الوثقى كناية عن الإيمان بالله تعالى، والتمسّك به كما يمسك بالعروة القوية خوف السقوط في الهاوية أو الزلل والانحراف عن الصواب.

وتدخل الكناية لبيان أهمية تعاقب الليل والنهار وأثر ذلك في نظام الكون، وتقريب ذلك المعنى الى الفهم بصورة حسّية كما في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ﴾[(٢)] فعبارة (مدّ الظل) أي أن هذا الظل الذي يتكوّن من حجب ضوء الشمس يتحرّك مع حركة الشمس من المشرق الى المغرب بفعل دوران الأرض، ولو جعل الظل ساكناً لا يتحرّك فهذا يعني توقف الأرض عن الدوران، وبقاء قسم من الأرض في الظلام، وقسم آخر في ضوء الشمس، فيؤثر في اختلال نظام الكون ومنها الأرض والمخلوقات كالإنسان والحيوان والنبات.

وننتقل الى ما يخص الأنبياء والرسل (عليهم السلام) وتعمل الكناية على تصوير سفينة نوح (عليه السلام) التي كانت سبباً في نجاته ومن تبعه من المؤمنين كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ﴾[(٣)] فالجارية كناية عن السفينة، لأنها تجري في الماء لتصل اليابسة. وقوله تعالى في وصف السفينة أيضاً ﴿ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴾[(٤)] فالكناية هنا عن موصوف وهو السفينة متمثلة في مكوّناتها ألواح من الخشب، ودُسر وهي المسامير، وهاتان هما أهم مادتين في صنع السفينة، وكأنما أراد القول إنّ هذه السفينة المكوّنة من مادتين قد قامت بحمل النبي نوح (عليه السلام) والمؤمنين، ولم يستطع الكافرون صد الماء ودفعه عن هلاكهم.

وتتحرّى الكناية اللفظ المهذّب في رسم صورة عن مراودة امرأة العزيز ليوسف (عليه السلام) وقد ألمحت الى المرأة دون أن تذكر اسمها ومكانتها إزاء ذلك العمل الشنيع. قال تعالى: ﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ﴾[(٥)] أنها صورة متسارعة لم يتضح فيها وجه المرأة التي تلهث فيسمع صوت زفيرها، وتتحرّك بخطى متعثرة نحو الأبواب لتحكم إغلاقها، وكأنها عثرت على لقية لا تحب أن يشاركها أحد فيها، والعبارة (التي هو في بيتها) تتجاوز اسم المرأة ومركزها الاجتماعي، وهي امرأة عزيز مصر، وكان التلميح اليها لئلا يرتبط اسمها بفعلها الشنيع، أو بدافع الحط منها، ولفظ

---

(١) البقرة ٢٥٦.
(٢) الفرقان ٤٥.
(٣) الحاقة ١١.
(٤) القمر ١٣.
(٥) يوسف ٢٣.

بيتها أي ذات بيت ولم تكن امرأة عابرة، وينبغي أن تصون ذلك البيت لأنها امرأة متزوجة، وتحفظ كرامتها، وسمعة زوجها.

وتدعو الكناية الى تحريك ذهن المتلقي في بعض المواقف التي تحدث للأنبياء (عليهم السلام) ((وما أروع أن نجد في القرآن ما يتحلى به الأنبياء من شخصية مثالية، وقد أثنى على خصالهم الحميدة ثناء كبيراً، ولكنه لم يمنع أن يشير الى ما يلم ببعضهم من حالات الضعف الإنساني))[1]ومن ذلك ما ورد للنبي داود (عليه السلام) من تذكير بالعودة للصواب في حكمه للناس، وقد جاءه خصمان يحتكمان اليه في نعاج، وقد بغى أحدهما على الآخر، فحكم لأحدهما دون يسمع كلام الآخر. قال تعالى: ﴿ إِذْ دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُواْ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴾[2]

ففي قوله (خصمان) كناية عن الملكين اللذين يحتكمان اليه بالخصمين، ولكن المقصود بذلك داود (عليه السلام) واحد قواده، وقوله (تسع وتسعون نعجة...) كنّى عن المرأة بالنعجة، وبذلك ترسم صورة لرجل ثري يمتلك قطيعاً من النعاج وهو يمد عينيه الى رجل فقير يمتلك نعجة واحدة وهو راض عن نعمة الله، ويسعى الثري لضم تلك النعجة الوحيدة الى نعاجه، وقد أحدثت الكناية ردّة فعل للحاكم الذي يملك عدداً من النساء، وأراد أن يضم امرأة أخرى الى نسائه، فهل هو على حق في ذلك الطلب، وأما العدد (تسع وتسعون) هو بيان للكثرة أمام الواحد، أو أريد به كسب التعاطف والتأييد لصاحب المرأة الواحدة، وتنبيه النبي داود (عليه السلام) الى تسرّعه في الحكم قبل سماع حجة الخصم الثاني.

وكانت مريم ابنة عمران (عليها السلام) من المسارعات الى الخيرات، وكانت عفيفة طاهرة، صانت فرجها وعفتها، اختارها الله تعالى لتكون أمّاً لنبي، فنفخ فيها من روحه فكان النبي عيسى (عليه السلام) آية للناس جميعا. قال تعالى: ﴿ وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾[3] فقوله (والتي أحصنت فرجها) كناية عن مريم (عليها السلام) كما يذكر القرآن الكريم في آياته عن حفظها لفرجها، ولفظ (الفرج) ويعني الشق بين الساقين، هو في الأصل كناية عن العورة، وكثرت تلك الكناية حتى صارت كاللفظ الصريح، واختيار القرآن لهذه الكناية اختيار للألفاظ المهذبة التي لا تنبو منها الأسماع أو يخدش منها الحياء.

---

(١) د. احمد حاجم الربيعي: القصص القراني ٢٣٨.
(٢) ص ٢٢-٢٣.
(٣) الانبياء ٩١.

وادّعى النصارى انّ الله تعالى قد اتخذ ولداً وهو عيسى بن مريم (عليهما السلام) فكيف يكون لله تعالى ولد، والولد لا يكون الاّ من أبوين متجانسين في الخلق منطقياً، والله تعالى لا نظير له ولا شبيه ولا صاحبة له، وقد ردّ عليهم وفنّد في آياته أباطيلهم وضلالهم، مثل قوله تعالى: ﴿ مَّا ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞۖ كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرۡ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴾[1] تبرز الكناية هنا جانباً استدلالياً في ذلك الادّعاء وتفنيده، وترسم صورة طبيعية لبشرين أم وطفلها، الطفل يرضع من ثدي أمه، والأم تأكل الطعام، وعندما كبر الطفل راح يمد يده إلى الطعام ويأكل مع أمه، والكناية تترك المخاطب ليتصوّر ما بعد (يأكلان الطعام) وهو قضاء الحاجة، وأنا أرى أن تناول الطعام وحده دون ذكر الحاجة هو كناية أيضاً عن بشريتهما، لأن هذه الصفة الأكل والشرب ليست من صفات الله تعالى بل من صفات البشر.

وتعمل الكناية على تصوير حالة الفزع والخوف المرسومة على الوجوه ،فقد حرص المسلمون على اتخاذ التدبيرات اللازمة لمواجهة الكفار، وقد وقع الاتفاق على مواجهتهم في المدينة، فحفر الخندق لعرقلة تقدمهم وتحصينا لها، ولكن الأحزاب بأعدادها الجرارة تزحف نحو المدينة فتهتز الأرض من تحتهم. قال تعالى: ﴿ إِذۡ جَآءُوكُم مِّن فَوۡقِكُمۡ وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبۡتُلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَزُلۡزِلُواْ زِلۡزَالٗا شَدِيدٗا ﴾[2]فهل هناك تصوير أجمل من هذا الذي تقوم به الكناية بنقل الصورة كما هي دون تزويق أو نفاق، فلم تصوّر المسلمين أبطالاً خارقين، بل هم بشر يفرحون ويتألمون، وفي العبارة (زاغت الأبصار) كناية عن الخوف والهلع، فإن الأبصار تزيغ أو تميل عن موضعها الطبيعي، والعبارة (وبلغت القلوب الحناجر) كناية عن شدّة حركة القلب وخفقانه، فالخوف حالة نفسية تعتري الإنسان عند وقوع أذى أو مكروه عليه، فتنعكس آثاره تلقائياً على الجسد، فالبصر يشخص، والقلب يخفق، والفرائص ترتعد، والنفس تضطرب، وغير ذلك من التغيرات التي تطرأ عليه.

ويأتي الأمر الإلهي لهؤلاء المؤمنين أن يتمسّكوا بدين الله جميعاً دون استثناء، لأن الاستثناء يعود بهم الى ما كانوا عليه من التفرّق قبل الإسلام، كانوا أعداء يقاتل بعضهم بعضاً، وقبيلة تقاتل أخرى لأمور دنيوية، ولمّا جاء الإسلام جمعهم بكلمة التوحيد، وجعلهم إخواناً في الدين، وأنقذهم من السقوط في الهاوية. قال تعالى: ﴿ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا ﴾[3]ترسم

---

(١) المائدة ٧٥.
(٢) الاحزاب ١٠-١١.
(٣) آل عمران ١٠٣.

الكناية صورة حسية مجسّدة لحبل ممدود من السماء وهو على حافة هاوية سحيقة، وقد أمسك به الحريصون على النجاة خوفاً من السقوط، وآخرون يترددون بين الإمساك به وبين الإحساس بأنهم لن يقعوا في الهاوية، ويحدث الخلاف بينهم فيبتعدوا عن الحبل، ويتساقطوا في تلك الحفرة التي لا نجاة منها و(حبل الله) هنا كناية عن دين الله أو كتابه، والإمساك به جمع للشمل، وبعث للقوة، وابتعاد عن الفرقة والضعف.

وترسم الكناية صورة موحية لبيعة الرضوان في عمرة الحديبية، وقد أحاط المؤمنون من المهاجرين والأنصار برسول الله (صلى الله عليه وسلم) تحت الشجرة وهم يضعون أيديهم على يده الشريفة، وفي ذلك الموقف المعبّر عن التضامن والوحدة نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾[1]فعبارة (يد الله) كناية عن نصره وقوته ونعمته لمن بايع منهم، ووضع اليد تعبير عن ذلك التآزر بين المؤمنين، وتأييد لتوحيد صفوفهم.

ومن روائع الكناية تحويل المعنى العقلي الى معنى حسي يتجلى ذلك في نهي المؤمن عن البخل في العطاء لمن يحتاج، وفي الوقت نفسه يكون النهي عن الإسراف والتلف، وقد عبّرت عنه بغيضة منفّرة كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾[2]ترسم الكناية صورة للبخيل الذي لا يستطيع أن يمد يده للعطاء أو الإنفاق لأنه جعلها مغلولة أو مربوطة الى عنقه، فتبدو بهذه الصورة المحسوسة معبرة عن الخلة المذمومة بصورة بغيضة، وتقابلها صورة أخرى للمسرف (ولا تبسطها كل البسط) أي يمد يده منبسطة الذراع مفتوحة الكف، كناية عن فراغ اليد من كل ما تملك بحيث لا يبقى له شيء من ماله ولا يملك شيئا غيره، فتصيبه الحسرات والندم.

وتعمل الكناية على تصوير بعض العادات الذميمة في المجتمع الإسلامي ومنها: سوء الظن والتجسس، والغيبة والنميمة، تصويراً محسوساً بحيث تنفّر السامع من هذا الفعل المشين، وتقوم بالتحذير منه. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾[3] في هذه الصورة نجد ما يدعو الى التأنيب إذ جسّمت عملية الاغتياب تجسيماً يدعو إلى الحذر والخوف، ولنتأمل كيف مثّلت الاغتياب بأكل لحم الإنسان حتى جعلته أخاً له، ولعل المناسبة التي تجمع بين الاغتياب وأكل لحم الإنسان هي ذكر مثالب الناس وتمزيق أعراضهم، فيماثل هذا عملية الأكل وتقطيع اللقمة وتمزيق اللحم، ومن المعلوم أن لحم الإنسان محرّم أكله فكيف إذا كان أخوه، وفي ذلك زيادة في التحريم، وإنّ ما يدعو الى

---

(١) الفتح ١٠.
(٢) الاسراء ٢٩.
(٣) الحجرات ١٢.

المبالغة أن هذا اللحم ليس لأخيه الحي بل الميّت، فيزداد الفعل بذلك سوءاً وشناعة في المنع والتحريم.

وتعبّر الكناية بالعبارة الصريحة عن مواقف الكفار وعنادهم على الكفر حتى بعد ظهور آيات الله البيّنات، وتمسّكهم بما وجدوا عليه آباءهم من شرك وضلال. قال تعالى: ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴾[1] فالعبارة (فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا) كناية عن التحدي في إيتائهم بسورة من مثل هذا القرآن الكريم، أو آية واحدة تبرهن صدق دعواهم، ولنتأمل روعة التعبير الموحية باللفظ القليل عن قوة التأثير وشدّة التنفيذ، وإبراز المعنى الفكري المجرّد في صورة محسوسة وهي أن النار العظيمة لا تأكل الحطب وحده، وإنما تأكل أجساد البشر من أمثالهم.

وتعبّر الكناية أيضاً بالألفاظ الموحية التي يراها المتلقي أمامه مجسّدة لتنقل اليه صورة الكفار الذين كذبوا بآيات الله المنزّلة في كتابه المبين، واستكبروا عن قبولها أو تدبّرها، فلن يغفر الله لهم على ذلك. قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾[2]ونحن ندع للخيال أن يرسم لنا صورة لهؤلاء الكفار وقد أشرفوا على الموت، فإذا بهم يرفعون أيديهم الى السماء طلباً للمغفرة، ولكن (لا تفتح لهم أبواب السماء) كناية عن عدم قبول التوبة، لأن افتتاحها يعني قبول صعود التوبة، وينسحب ذلك الى عدم دخولهم الجنة، وكانت العبارة (يلج الجمل في سم الخياط) كناية عن استحالة هذا الأمر، أي قبول التوبة ودخول الجنة، لأن الجمل وهو الحبل الغليظ لا يدخل في ثقب الإبرة، وقد تركنا للخيال أن يصوّر المحاولات المتكررة لإدخاله فلم تفلح.

ونأتي الى نوع آخر من الكفار وهو أنه يتقبل الفكرة التي دعته الى الإيمان بالله، ويقبل على الدين بحذر، ويقف على حافته أو طرف منه، ولكن لم يتغلغل الدين بعد في عقله ووجدانه، فهو يرتد عند أدنى مصيبة تصيبه، فيرجع الى ما كان عليه من الكفر والضلال. قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴾[3]ولنتأمل العبارة (يعبد الله على حرف) وندع الخيال ليصور هذه الكناية التي تجسّد هذا الدين، وتضع له حافة أو طرف يقف عندها الكافر ولا يتعداها الى عمق الدين، وتصوّره وكأنه متردد بين القبول والرفض، وعندما يقع في مصيبة أو ابتلاء لاختبار صدق إيمانه، فإذا به (ينقلب على وجهه) وهذه الكناية الأخرى تصوّر ارتداده الى كفره وزعزعته بأوضح ما يؤديه الوصف المجرّد لتلك الحالة، لأن الكناية قد مسّت الحس واتصلت بالنفس.

---

(١) البقرة ٢٤.
(٢) الاعراف ٤٠.
(٣) الحج ١١.

وها هو صاحب الجنتين اللتين يصفهما القرآن الكريم بكثرة الثمار والزروع والمياه، ولكنه لم يؤمن بالله المنعم عليه، فأصابه الغرور فضلاً عن الشرك بالله تعالى، وإنكاره لليوم الآخر، وإذا به يدخل جنته فيجدها حصيداً، تساقط بعضها على بعض. قال تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾[1] فقد رسمت الكناية صورة لندم هذا المشرك الذي (يقلب كفيه) كناية عن ندمه على الشرك والغرور بما يملك، وتحسّره على ما أنفق عليها من مال وجهد، وقد تعارفت البشرية جمعاء على أن تقليب الأيدي يدل على الندم.

ومن أبرز صفات المنافقين الرياء واختلاف ظاهرهم عن باطنهم، وهم يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف للناس، ويبخلون على غيرهم وعلى أنفسهم بحرمانها من نعيم الله، فأظهرت الكناية جانباً من صفات المنافقين وهو البخل فجسّدته كما في قوله تعالى:

﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾[2] فالعبارة (يقبضون أيديهم) كناية عن البخل، وبالعكس بسط اليد كناية عن الكرم والعطاء، فاليد دائماً هي الوسيلة للعطاء والمنع.

ويزعم اليهود أن يد الله تعالى مقبوضة عن العطاء (وحاشاه) ولكن أيديهم هي المقبوضة الى أعناقهم بخلاً وشحّاً، وأن يدي الله تعالى مبسوطتان في أرزاق الخلق جميعاً، وينفق بحسب إرادته ومشيئته. قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾[3] فالعبارة (يد الله مغلولة) كناية عن قبضها عن العطاء بخلاً (وحاشاه) وكان اليهود إذا حدث جدب وطلب منهم إنفاق في عمل الخير اعتذروا بهذا العذر القبيح وهو أن الله قتّر عليهم فكيف ينفقون؟ والتعذر بهذه العبارة تدل على صلف وحماقة، والعبارة (بل يداه مبسوطتان) في الرد عليهم، وبسط اليد كناية عن البذل والعطاء، فهذه النعم الكثيرة التي تغمرنا وتعم الكون كله من بسط يديه، ينفق كما يشاء لخير الخلق أجمعين.

وتعمل الكناية في ذكر الآخرة على نقل المعنى الكثير بألفاظ قليلة، وكأنها تختصر الزمن، فتمسك بطرفيه، طرف الدنيا وطرف الآخرة، فهؤلاء الذين ألهتهم الحياة الدنيا بتكاثر المال والأولاد، وكانوا على ذلك حتى فاجأهم الموت. قال تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ

---

(١) الكهف ٤٢.
(٢) التوبة ٦٧.
(٣) المائدة ٦٤.

﴿ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴾[1] فالعبارة (زرتم المقابر) كناية عن الموت والنزول في حفرة من حفر المقابر، وكأنه يزورها، فهذه الصورة تنقل لنا قصر الحياة، فما كادت تبدأ بالتكاثر في كل شيء كالمال والأولاد والمتاع الدنيوي حتى انتهت بالمقابر، وهذا أقصى ما يصوره اللفظ والخيال، ولكنها من طرف آخر قد عرضت امتداد مدة اللهو وطلب الكثرة حتى منتهاها، حتى ليخيل الينا أن هؤلاء اللاّهين لجّوا في طلب اللهو أمداً بعيداً، وساعدت لفظة (حتى) على إبراز هذا الامتداد، وكان الغرض من قصر الحياة وطول اللهو مقصود في التعبير.

وينادي المنادي وهو إسرافيل (عليه السلام) بنفخة البوق الثانية للبعث من الموت، في يوم عظيم لا عهد للنفوس بمثله، فيخرجون من القبور وقلوبهم مضطربة وجلة، وأبصارهم ذليلة منكسرة من شدّة الهول. قال تعالى: ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ۞ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴾[2]وقوله تعالى: ﴿ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۞ أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ ﴾[3]وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾[4] فالأبصار الخاشعة المنكسرة أو الشاخصة الجامدة كناية عن الذل والهوان يوم القيامة، يتبعها اضطراب القلب وخفقانه، وارتعاد الفرائص من شدّة الهول والخوف، وهذه العلامات معروفة في كل المجتمعات الإنسانية.

وتصوّر الكناية انتكاس رؤوس المجرمين وطأطأتها يوم القيامة، ويطلب أصحابها من الله تعالى أن يعيدهم الى الدنيا ليعملوا صالحاً. قال تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾[5]فالعبارة (ناكسو رؤوسهم) كناية عن الخضوع والاستسلام، وطأطأة الرأس من أبرز القرائن أو الهيئات المحسوسة الدالة على تلك الحالة.

ويتقدّم أعداء الله من المشركين الى الحساب، وتعرض أعمالهم السيئة فينكرونها، ويشهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما عملوا في حياتهم الدنيا، فعاتبوا جلودهم على الشهادة ضدهم وهم أصحاب هذه الجلود. قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۞ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ

---

(١) التكاثر ١-٢.
(٢) القمر ٦-٧.
(٣) النازعات ٨-٩.
(٤) ابراهيم ٤٢.
(٥) السجدة١٢.

﴿ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[١] فاللفظ (جلودهم) كناية مهذبة عن العورات، وهي ترسم صورة حوارية عن دورها في الشهادة على أصحابها يوم القيامة، فيقف المشرك عاجزاً عن تكذيبها، ويرى بعض المفسرين أن شهادتها بالاعتبار، ولكن اللفظ صريح (أنطقنا الله) والنطق لا يكون الاّ بالصوت المسموع الذي يسمعه صاحبها، لأنه يعاتبها على شهادتها، فتجيبه أن الله تعالى أنطقها، وهو قادر على أكبر من الإنطاق وهو الخلق والإعادة بعد الموت.

ويتسلم الخلق كتب الأعمال بأيديهم، فمنهم من يأخذ كتابه بيمينه فيعلم أنه قد نجح في الاختبار، وينال جائزته، ومنهم من يأخذ كتابه بيده الشمال، ويعلم ما سينال، ويتمنى لو لم يأخذ ذلك الكتاب، ولا يعلم ما ينتظره من عقاب. قال تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ (١٩) إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ (٢٠) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾[٢] وقوله تعالى ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ (٢٥) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ (٢٦) يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ﴾[٣] فتسلّم الكتاب باليد اليمنى كناية عن النجاح والفوز بالجنة، وتسلّم الكتاب باليد اليسرى كناية عن الخسران والخزي والعذاب في النار.

ونتلمس ما تعبّر عنه الكناية من التهذيب والابتعاد عما ينبو السمع في الأحكام الشرعية، ومن ذلك السؤال الذي يوجّه الى النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) عن حكم إتيان المرأة في أثناء المحيض، فكان النهي عن ذلك حتى تطهر، لأنه أذى وقذارة، ويمكن بعد ذلك إتيانها، فهي بمثابة الأرض التي يزرع فيها صاحبها البذور كما يشاء. قال تعالى:

﴿ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلَاقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾[٤]

والعبارة (حرث لكم) كناية عن المعاشرة الزوجية، ومثل هذه الكناية التي انفرد بها القرآن الكريم لطيفة دقيقة مهذبة، فقد رسمت صورة لهذه المعاشرة الزوجية التي تتم في السر صورة للحرث في مزرعة، والزارع يقوم بنثر البذور وتغطيتها، والصلة بين المعاشرة وزراعة الأرض المهيأة للبذر مثلما المرأة مهيأة لتلك المعاشرة، وكذلك الصلة بين النبت الذي يخرج من الأرض والأبناء الذين تلدهم الزوجة، وما في كليهما من تكثير وعمران وفلاح، وهذه المعاني كلها تنطوي تحت لفظ (الحرث).

ومن الأحكام خطبة النساء وتتم بالإشهار أمام الناس عن نيّة الرجل في خطبة المرأة أو أسرّ النيّة في نفسه من غير أن يكشف عنها، ولكن لا يطلب منها المعاشرة أو إتيانها سرّاً

---

(١) فصلت ٢٠-٢١.
(٢) الحاقة ١٩-٢١.
(٣) الحاقة ٢٥-٢٧.
(٤) البقرة ٢٢٣.

الاّ القول الصريح المعروف وهو التعريض أو نية الزواج من هذه المرأة أمام الحاضرين.

قال تعالى: ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴾[1] في هذه الآية كنّى القرآن الكريم عن الجماع سرّاً بالمواعدة، وتصوّر موقف الرجل الذي يتقدم لخطبة امرأة، فلابد أن يتبع الطرق الشرعية المعروفة، فإن حاول أن يتجاوزها فإنه يلاقي المنع والنصح للعودة الى الصواب، وبذلك تقوم الكناية بالتعبير عما يعجز عنه الوصف المباشر، فتسرق الأسماع وتهز العواطف.

٥- التشكيل بالقصّة القرآنية:

اللفظ (قصّ) لغة: ((إتباع الأثر، ويقال: خرج فلان قصصاً في إثر فلان، وقصّاً، وذلك إذا اقتفى أثره، وقيل: إنّ القاص يقصّ القصص لإتباعه خبراً بعد خبر، وسوقه الكلام سوقاً))[2] ويتضح ذلك في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ﴾[3] أي تتبعي أثره، وقوله تعالى: ﴿ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴾[4] أي تتبعاً للأثر. ويعني اللفظ (قصّ) اصطلاحاً: الإعلام بالخبر بعد تتبع أثره شيئاً فشيئاً كما في قوله تعالى: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ ﴾[5]

وتتألف القصة من عناصر مكوّنة لها كالحدث والأشخاص وطريقة العرض والزمان والمكان والعقدة التي تربط بين عناصرها، أو العبرة من تلك القصة ((والقصة القرآنية قد لا تتوافر فيها كل هذه العناصر، وهي إلى القصة القصيرة أقرب، وقد يذكر منها جزء أو أكثر، ولكن عدم توافر كل العناصر لا يخل بالقصة القرآنية، فالقرآن الكريم قد يلمّح إليها تلميحاً، وقد يشير إليها معتمداً على شهرتها، ولا يقصد القصة لذاتها، وإنما يبتغي العبرة من عرضها))[6]

ولعل ما يهمّنا في تشكيل الصورة بالقصة هو طريقة عرضها أو الأسلوب الذي تصاغ به تلك القصة، وهذا الأسلوب يعتمد على طريقتين وهما، أسلوب السرد الوصفي، وأسلوب الحوار بين الشخوص، فتتشكل الصور المتآزرة لتكوين قصة تتخذ للعبرة والتأسي بأحداثها وأشخاصها، وما يؤول اليه منتهاها.

---

(١) البقرة ٢٣٥.
(٢) الفيروز آبادي: القاموس المحيط. مادة (قصّ) .
(٣) القصص ١١.
(٤) الكهف ٦٤.
(٥) يوسف ٣.
(٦) د. احمد حاجم الربيعي: القصص القراني ٩.

يتناول التعبير القرآني القصة بريشة تعتمد على التصوّر الخلاّق في رسم المشاهد والمناظر التي يعرضها، وتتحوّل تلك المشاهد أو الصور إلى قصة تدور بيننا، لا قصة تروى وقد مضت أحداثها وطويت بين ثنايا السنين.

ويمكننا القول ((إن هذا التصوير في مشاهد القصة ألوان، لون يبدو في قوة العرض والإحياء، ولون يبدو في تخيّل العواطف والانفعالات، ولون يبدو في رسم الشخصيات، وليست هذه الألوان منفصلة، ولكن أحدهما يبرز في بعض المواقف ويظهر على اللونين الآخرين، فيسمى باسمه، أما الحق فإن هذه اللمسات الفنية كلها تبدو في مشاهد القصص جميعاً))(١)

ومن المشاهد التي وظفت في الثبات على الإيمان بالله تعالى، والتمسّك بوحدانيته أمام الطغيان دون خوف أو وجل مشهد أصحاب الأخدود، وهي جريمة إحراق المؤمنين في الأخدود. قال تعالى: ﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴾(٢)

تصوّر الآيات طابوراً من المؤمنين يتقدّمون نحو شقّ في الأرض قد امتلأ ناراً بعد أن ألقيت فيه حزم من الحطب، وقد قعد هؤلاء الكفار من أتباع الملك وهم يؤججون النيران حتى غطّت على حافتي الشق، وكأنهم زبانية، قريبون من عملية التعذيب البشعة، وهم يشاهدون أطوار العذاب، وفعل النار التي تلتهم الأجساد في لذة ونشوة، وكأنما يثبتون تلك الصورة البشعة في مخيلتهم.

وما كان لهؤلاء المؤمنين بالله من ذنب سوى أنهم آمنوا بالله القادر على كل شيء، والحقيق بالحمد والثناء وحده، وله ملك السماوات والأرض، وهو الشهيد على كل شيء، ثم تنهي تلك الصورة التي تمتلئ بالنقمة على هؤلاء الكفار، وبالغضب على هؤلاء الزبانية الذين يدفعون الرجل عاري الصدر، أو المرأة الذاهلة والطفلة الباكية الى الأخدود، وكأن التهديد بالنار فتنة للتراجع عن الإيمان بالله الى الكفر، وكان الله تعالى هو الشهيد على هذه الفتنة الظالمة، فأعدّ لهم عذاب جهنم التي يتم فيها عذاب الحريق نفسه لهؤلاء الذين أحرقوا المؤمنين والمؤمنات، وهذه لمسة تطمئن قلوب المؤمنين.

إنّ هذه القصة التي صوّرت مشاهدها بأسلوب السرد الوصفي تثير فينا عاطفة جياشة تجاه هؤلاء المؤمنين الذين لم يقوموا بذنب أو جريمة، وإن جل ما اقترفوه هو نبذ الكفر والشرك، وتوجيه أنفسهم نحو الإيمان بالله وحده، وهم يمتلكون حق تلك الأنفس، وليس لغيرهم حق تملكها سوى خالقها، وتثير فينا أيضاً الإحساس بالنقمة والغضب على هؤلاء

---

(١) سيد قطب: التصوير الفني في القران ١٩٠.

(٢) البروج ١-١٠.

الكفار وأتباعهم، وهم يملكون قلوباً من الحجر، لم تتأثر أو تستشعر باستعار النار في أجساد النساء والأطفال، وقد ترك لنا السرد نقل مشاعر الشخوص في تلك القصة ليقوم الخيال بتصوّرها، فالآهات وصراخ الأطفال يختلط بزجر الكفرة، وأزيز النار وتطاير شررها، واختفى من القصة مكان ذلك المشهد وزمانه، لأن التركيز جرى على الحدث وشخوصه، مع بيان الدوافع لتلك الجريمة.

ومن المشاهد المؤثرة التي تبرز الفتنة التي يقع فيها الإنسان وهي الاغترار بمتاع الدنيا كالمال والجاه والأولاد، فيؤدي به ذلك نحو الكفر والإعراض عن الإيمان بمالك الدنيا والآخرة، فكانت قصة صاحب الجنتين الذي وقف صاحبه ناصحاً وواعظاً إياه للعودة للصواب تضرب مثلاً للقيم الزائلة والقيم الباقية، وترسم صوراً واضحة للنفس المقترنة بزينة الحياة الدنيا والنفس المقترنة بالله، قال تعالى وهو المشهد الأول: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا﴾[1]

يعمل السرد الوصفي على نقل صورة الجنتين نقلاً دقيقاً فهما جنتان مثمرتان من الكروم، ومحفوفتان بسياج من النخيل، وتتوسطهما زروع يانعة، ويشق الجنتين نهر رقراق يغذي جانبيها بالماء، فيشكل ذلك الوصف منظراً بديعاً يمتلئ حيوية وبهجة، ويثير في النفس اليقين في حصول الغنى والثراء، فالجنتان كلتاهما (آتت أكلها ولم تظلم منه شيئاً) ويختار التعبير لفظ (تظلم) بمعنى تنقص من الثمر لتقابل بين الجنتين وصاحبها الذي ظلم نفسه فبطر بهذه النعمة ولم يشكر الله المنعم عليها.

ولنتأمل المشهد الثاني في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا﴾[2]

---

(١) الكهف ٣٢-٣٣.
(٢) الكهف ٣٤-٤١.

ويعمل الحوار في هذا المشهد على رسم الصورة فها هو صاحب الجنتين يحاور صاحبه بزهو وبطر وتعال لكثرة ماله وولده، وأما صاحبه الفقير الذي لا يملك مالاً ولا نفراً ولا ثمرا فقد كان معتزّاً بإيمانه لله تعالى، ولم يشعر بالضعة والهوان، ولم ينس عزّة ربّه، ولم يتردد في رد صاحبه الى الطريق الصواب، فإن لم يكن باللطف فبالتقريع والتذكير بأصل نشأته من التراب المهين، وتوجيهه الى التأدب في حق المنعم، وإنذاره أن عاقبة بطره وكبره يؤديان الى زوال نعمته. ويفترق الصاحبان غاضبان.

وينقلنا السياق الى المشهد الثالث من مشهد النماء والازدهار الى مشهد الدمار والبوار، ومن هيأة البطر والاستكبار الى هيأة الندم والاستغفار، فلقد كان ما توقعه الرجل المؤمن حقيقة. قال تعالى: ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴾[1] هذا أسلوب السرد في عرض الصورة لمشهد شاخص أمامنا، فصاحب الجنتين يحدّق ببصره نحو عروش الأعناب وقد تساقط بعضها على بعض، ولم يسلم شيء من ثمره، وراح يقلّب كفيه ندماً وحسرة على المال الذي أنفقه عليها، ويؤنب نفسه على الشرك بالله الذي أوصله الى مثل هذه الحال.

ونتبيّن معالم الابتلاء بالنعمة والبطر فيها لدى المشركين من أهل مكة، فقد اختار الله تعالى منهم رسولاً يدعوهم الى الإيمان به وتوحيده، ونبذ الشرك ولكنهم أعرضوا عنه، فضرب لهم مثلاً بقصة يبدو أنها كانت معروفة عندهم وهي قصة (أصحاب الجنة) ويذكرهم بعاقبة البطر بالنعمة، والسياق القرآني يكشف عما وراء حوادثها من فعل الله وقدرته، ومن ابتلاء وجزاء، وها نحن أمام أصحاب الجنة الدنيوية، وكانوا يبيّتون في شأنها أمراً، وكان للمساكين حظ من ثمرها في أيام والدهم المتوفى، ولكن الورثة أرادوا الاستئثار بثمرها وحدهم، وأن يحرموا المساكين منه، ولننظر كيف تجري الأمور. قال تعالى: ﴿ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴾[2]

هذه القصة تتضافر فيها جميع العناصر على إبرازها، فالحدث كما يبدو قطف ثمار جنة دون إعلام بذلك الجني، والشخوص هم الورثة وكما يبدو أنهم أخوة، والزمان في وقت الصباح الباكر، والمكان هو جنتهم المثمرة التي حان قطافها، وأسلوب العرض كما يبدو في تآزر السرد مع الحوار، وهكذا يبدو التكامل في طريقة العرض والتأثير. فقد قرر الأخوة أن يقطعوا ثمر جنتهم عند الصباح الباكر دون أن يعطوا منه شيئاً للمساكين، وأقسموا على هذا وعقدوا النيّة عليه، فنحن إذن أمام مشهد الاتفاق على فعل الشر الذي عزموا عليه، وبينما هم نائمون جاء البلاء الى جنتهم فأصبحت كالليل الأسود، وثمارها محترقة لا نفع منها.

---

(١) الكهف ٤٢.

(٢) القلم ١٧-٢٠.

ولنتأمل المشهد الثاني من تلك القصة ولننظر ماذا يصنع الماكرون: ﴿ فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ (٢١) أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ (٢٢) فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ (٢٣) أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ (٢٤) وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ (٢٥) فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ (٢٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾[1]

يصوّر السياق بأسلوب السرد طريقة استنهاض بعضهم البعض بالتذكير والتحفيز لكسب الأمن في حصادها، وتلحقهم السخرية في انطلاقتهم نحوها، والتخافت في حديثهم لئلا يسمعهم أحد، ولعل لفظ (يتخافتون) من الألفاظ الموحية المعبّرة عن الحركة الخفية، وذلك بطريقة التهامس وتقريب الأفواه من الآذان لتقليل الصوت، وزيادة في الحذر وإحكام التدبير.

ونحن من القرآن نعلم ما لا يعلمه أصحاب الجنة من احتراقها وتفحمها قبل أن يصلوا اليها، فقد شهدنا الغمامة السوداء تغطيها، فتذهب بثمرها كله، ونمسك بأنفسنا لنعلم ماذا يفعل الماكرون. وكانوا قادرين على المنع والحرمان، ولكنهم حرموا أنفسهم على أقل تقدير، وها هم يُفاجؤون، وترسم على وجوههم علامات الذهول، وبعدها يشعرون بالفجيعة والخيبة، والإحساس بالضلال، والحرمان من هذه النعمة التي أعطاها الله تعالى لهم دون عناء أو تعب.

ويبدأ المشهد الثالث باللوم والإحساس بالندم والرجاء بالعوض عن تلف جنتهم. قال تعالى: ﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ (٢٨) قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (٢٩) فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ (٣٠) قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ (٣١) عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴾[2]ويبدو أن أخاهم وهو أوسطهم قد نصحهم، وكان له رأي يخالفهم في منع الصدقة عن المساكين، ولكنه مع ذلك تابعهم، ولم يصرّ على الحق الذي رآه، فنال الحرمان كما نالوا، وراحوا يتنصّلون من تبعة سوء العاقبة، ويوجّه بعضهم اللوم الى بعض، ولكنهم أخيراً يعترفون جميعاً بالخطيئة، عسى أن يغفر الله ذنبهم، ويعوّضهم ما خسروه.

ومن قصص التحدي بالإيمان أمام الكفر والشرك موقف سحرة فرعون الذين كانوا من المقرّبين اليه، وهم الذين يستشيرهم في بعض الأمور الهامة التي تخص السلطة والدولة، ويقفون مدافعين عن الحاكم إزاء كل ما يهدم سلطته، وها هو موسى (عليه السلام) يريد أن يهدم ما بناه فرعون من أفكار ومعتقدات تصل الى حد عبادته، فأرسل فرعون الى سحرته ليعرف قدرتهم في القضاء على سحر موسى، وحفّزهم على ذلك. ويبدأ هذا المشهد وهو الأول بجمع السحرة ومحاورتهم. قوله تعالى: ﴿ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ (٦٠) قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ (٦١) فَتَنَازَعُوا

---

(١) القلم ٢١-٢٧.
(٢) القلم ٢٨-٣٢.

أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخۡرِجَاكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِمَا وَيَذۡهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلۡمُثۡلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجۡمِعُواْ كَيۡدَكُمۡ ثُمَّ ٱئۡتُواْ صَفّٗاۚ وَقَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡيَوۡمَ مَنِ ٱسۡتَعۡلَىٰ ﴾(١)

ترسم الآيات صورة لتجمع عدد من السحرة وهم يحملون أدواتهم التي يستخدمونها في السحر، كالحبال والعصي والكلاليب وغيرها، فتقدّم اليهم موسى (عليه السلام) وأبدى نصيحته اليهم بكلمة صادقة تلمس شغاف القلب (ويلكم لا تفتروا على الله) فأحدثت تلك الكلمة هرجاً بينهم، وإننا لنلمح تلك الحركات المتشنجة التي تصدر عن بعضهم، وأخذ بعضهم يحمّس المتردد منهم، وآخر يهددهم بأن موسى وهارون (عليهما السلام) يريدان أن يستوليا على البلاد ويلغيا السحر، ويطردوا السحرة من أرضهم، ويعطلا طريقتهم المثلى في السحر، فأحسّ السحرة بقوة هذا الخطر الداهم، فأجمعوا أمرهم على مواجهته بقوة وحزم.

وننتقل الى المشهد الثاني وهو مشهد النزال في الميدان بين السحرة وموسى (عليه السلام) كما في قوله تعالى: ﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَلۡقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلۡ أَلۡقُواْۖ فَإِذَا حِبَالُهُمۡ وَعِصِيُّهُمۡ يُخَيَّلُ إِلَيۡهِ مِن سِحۡرِهِمۡ أَنَّهَا تَسۡعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوۡجَسَ فِي نَفۡسِهِۦ خِيفَةٗ مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلۡنَا لَا تَخَفۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلۡقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلۡقَفۡ مَا صَنَعُوٓاْۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيۡدُ سَٰحِرٖۖ وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيۡثُ أَتَىٰ ﴾(٢)

ويعمل أسلوب السرد على وصف ميدان النزال، فقد جلس فرعون وأتباعه ينظرون، وينتظرون ساعة الحسم، والناس يتأملون ما يحدث في ذلك الميدان، وجرى التخيير في أول من يُلقي، فاختار موسى أن يلقي بعدهم، وإذا حبالهم وعصيّهم التي ألقيت تتحرّك حركات عجيبة، وها هي الأبصار تزيغ ولم تستطع الثبات على صورة واحدة أو حركة ثابتة، وسرت رعدة في أوصال موسى، وأحسّ بخيفة من توجّه الحبال الأفاعي نحوه، وجاء الخطاب الإلهي (قلنا لا تخف إنّك أنت الأعلى) أي معك الحق ومعهم الباطل، معك الله ومعهم فرعون، وشتان ما بين الفريقين.

وقد يبدو الباطل فخماً قوياً ولكنه يتضاءل أمام قوة الحق ويزهق فيتوارى، وألقى موسى (عليه السلام) عصاه وكانت المفاجأة الكبرى، وإذا بهذه العصا تنقلب ثعباناً ضخماً بإرادة الله تعالى، وتتوجه نحو أفاعيهم فتلقفها وتلهمها التهاماً، وكان لذهول السحرة والحاضرين أنهم لم يستطيعوا أن يغيّروا الموقف لصالحهم.

ونتحوّل في المشهد الثالث لنشهد موقف السحرة وفرعون والحاضرين من إعلان الفوز والنجاح لموسى (عليه السلام) على كيد الساحرين. قال تعالى: ﴿ فَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدٗا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَامَنتُمۡ لَهُۥ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ

---

(١) طه ٦٠-٦٤.
(٢) طه ٦٥-٦٩.

وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِي فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾(١)

ويتضافر السرد مع الحوار لينقلا الينا إدراك السحرة سر نجاح موسى (عليه السلام) في هذا الأمر، وكأنّ ذلك الإحساس لمسة أصابت العصب الحسّاس في قلوبهم، وانتفضت أجسادهم وأشرقت بنور الإيمان بعد الظلام (فألقي السحرة سجّدا) وأعلنوا إيمانهم برب العالمين، ربّ موسى وهارون، ولكن أنّى للطغاة غيرهم أن يدركوا هذا السر اللطيف، وكيف تتقلّب القلوب.

ويتدخّل الحوار من خلال استنطاق فرعون لسحرته عن سجودهم وإعلان إيمانهم بالله، ولم يدرك الطاغية أنهم لا يملكون أنفسهم التي سبقتهم الى الطاعة، وقلوبهم التي انقلبت من الكفر الى الإيمان، وقد علّق فرعون سبب إيمانهم على موسى وسحره الكبير، ثم وجّه اليهم تهديده الغليظ بالعذاب الذي يعتمد عليه الطغاة (فلأقطعنّ أيديكم... ولأصلبنكم) فيسلطونه على الأبدان حين يعجزون عن قهر الأرواح، والاستعلاء بالقوة الغاشمة والتفاخر بها (ولتعلمن أيّنا أشد عذابا) إنها قوة الوحوش في الغاب التي لا تميّز بين إنسان وحيوان، وكان ردّهم على فرعون بعد التهديد باللامبالاة لما سيفعله، فقد كانت قلوبهم قبل ذلك تعنو لفرعون، وتعد التقرّب منه مغنماً يتسابق اليه المتسابقون. فإذا هي الآن يرخص لديها سلطانه وملكه وجاهه ومغنمه، فقد حلّ محلّ تلك التفاهات سلطان البيّنات والدلالات، فسلطان فرعون مقيّد بهذه الدنيا، وسلطان صاحب البيّنات غير مقيّد بحدود (وما أكرهتنا عليه من السحر) فلا نملك لك عصياناً، ولعل إيماننا بربنا يغفر لنا تلك الخطايا.

وتمنح القصة الفرصة لتصوير حالات مثل العواطف والانفعالات، وإبرازها في حال خلوة صاحبها، ومفاجأته لنقل ما يصدر عنه من ردود الفعل التي ترسم على وجهه، كما في قصة مريم (عليها السلام) وقد اصطفاها الله تعالى أن تكون أمّاً للنبي عيسى (عليه السلام) ونتبيّن من خلال المشهد الأول موقفها إزاء بشارة الملك جبريل (عليه السلام) لها. قال تعالى: ﴿ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ۖ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴾(٢)

---

(١) طه ٧٠-٧٣.

(٢) مريم ١٦-٢١.

يتضافر السرد والحوار لتصوير مريم (عليها السلام) وقد اعتزلت عن أهلها مكاناً تخلو مع نفسها وهي مطمئنة الى انفرادها، ولكنها تفاجأ مفاجأة عنيفة لم تخطر على بالها، وإذا بالملك يقف أمامها فتنتفض انتفاضة العذراء التي يقتحم خلوتها رجل غريب عنها، فتستثير فيه نخوة التقوى (إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا) ولئن كنّا نعلم من القرآن الكريم أنه الروح الأمين جبريل (عليه السلام) فإنها لا تعلم إلاّ أنه رجل غريب يدخل على فتاة صالحة، قد تربّت تربية دينية، وهي معروفة النسب بين قومها، فتصطدم بما يخدش شرفها وعفتها (إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا) فكيف تثق بهذا الرجل الذي يدّعي أنه رسول من الله وقد يكون هذا الادعاء حيلة ليستغل بها طيبتها، وهو يريد كما تظن معاشرتها، فيصارحها دون حياء ليهب لها غلاماً وهما على تلك الحال من الخلوة، فتدركها شجاعة الأنثى التي تدافع عن عرضها وشرفها (أنّى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر) فالحياء هنا لا يجدي، والصراحة أولى، فأجابها إن ذلك على الله هيّن، وهذا الأمر قد قضي فيه ولا تراجع عنه.

وفي المشهد الثاني نجد انتقالة سريعة تبتعد عن التفاصيل العادية المطوّلة لتمنح الخيال مجالاً لتصوّرها، ونمضي مع سرد القصة لنرى العذراء وهي في موقف يثير الذهول والحيرة، وهي تحمل طفلاً بين يديها. قال تعالى: ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾[(١)]

هاهي المشاعر والأحاسيس تتحدّث عن نفسها في هذا المشهد، فلئن واجهت في المشهد السابق الرجل الغريب وهو جبر يل (عليه السلام) وحده، فإنها ستواجه المجتمع برمّته، وإذا كانت قد أخفت حملها بالانعزال بمكان قصي، فأين تخفي طفلها وهو بين ذراعيها، وإن كانت تواجه الآلام الجسدية من جرّاء الحمل والولادة، فإن الآلام النفسية قد أضيفت اليها، وألجأتها آلام المخاض الى أن تتلمس طريقها الى جذع نخلة لتمسك بها فتخفف عنها تلك الآلام، وتبدد وحدتها، وتخفف من معاناة عذراء في أول مخاض لها، ولا تعلم ماذا تفعل، ولا تعلم ماذا تقول، ولا تعلم بماذا تعتذر عن وليدها؟ فقالت (يا ليتني مت قبل هذا وكنتُ نسيا منسيا) ولو تهيأ لنا أن ننظر الى ملامح وجهها فلا نكاد نراها، بل نحسّ باضطراب خواطرها، وخفقات قلبها، وازدياد حيرتها، فجاءها الخطاب من وليدها (ألاّ تحزني قد جعل ربّكِ تحتكِ سريّا) وهذه هي المفاجأة الكبرى، قد أنطق الله تعالى طفلها وهو يناديها من تحتها، فيخفف عن مصاعبها، ويخبرها عن موضع طعامها وشرابها، والعذر الذي تعتذر به لقومها وهو الصوم عن الكلام، ونحسبها قد دهشت طويلاً، وترددت قبل تهزّ جذع النخلة، ولكنها هزّته لتتأكد من حقيقة الكلام، ويطمئن قلبها حين تواجه قومها.

---

(١) مريم ٢٢-٢٦.

وفي المشهد الثالث تحدث انتقالة سريعة أيضاً بحيث تترك للخيال أن يتصوّر كيف نظفت طفلها وأرضعته، وكيف قررت مواجهة قومها به، ولكنها جاءت تحمله بين يديها اليهم. قال تعالى: ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾.[1]

وهاهو السرد يصوّر لنا عزيمة العذراء على مواجهة قومها بطفلها، ولتنتقل الهزّات النفسية والانفعالات العاطفية الى غيرها، وإذا بالمفاجأة تضرب رؤوسهم، وتطلق ألسنتهم بالتهكّم والسخرية، والتهمة حاضرة (لقد جئت شيئاً فريا) وأرادوا إيلامها بقول يتداول على ألسنتهم، وهو التذكير بالأخوّة الهارونية مثلما يتداول على ألسنتنا الأخوة العربية (يا أخا العرب) أو الأخوة الإسلامية (يا أخا الإسلام) فقالوا لها (يا أخت هارون) لتذكيرها بهذه الأخوة حتى تصحو من غيبوبتها، وهي إن أباها رجل صالح، وإن أمها لم تكن من الباغيات، فلماذا قامت بمثل هذا الفعل.

أشارت الى الطفل وهي صائمة عن الكلام، وقد اطمأنت الى تكرار معجزة نطق الطفل بالكلام، أمّا هم فقد ساورهم العجب، وانطلقت ألسنتهم بالسخرية وهي تواجههم بطفلها (كيف نكلم من كان في المهد صبيا) ولكن المعجزة المرتقبة ظهرت لتثبت صدق دعواها (قال إني عبد الله) ولو أن هذه المعجزة العظيمة ظهرت أمامنا لتسمّرنا في مكاننا من العجب والدهشة، ولفاضت أعيننا بالدمع من فرحتنا بحدوثها، وقد اختتمت القصة بغرض ديني يناسب الإقناع بما جاء فيها (ذلك عيسى بن مريم قول الحق) فاستقرّت القلوب، وهدأت النفوس لإرادة الله فيه.

ونأتي الى الثلاثة الذين تخلّفوا عن غزوة تبوك، وهم كعب بن مالك، ومرارة بن الربيع، وهلال بن أمية، وقد اختفت الأسباب التي أدّت الى تخلّفهم في القرآن الكريم، وذلك لأن هذا النمط من القصص المكثفة يراد منها العبرة، والقرآن الكريم يشير اليها إشارة، ولكنه أبرز الصور النفسية التي أحسّ بها هؤلاء من جرّاء تخلّفهم، ومعاملة النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) والمسلمين لهم بالنبذ حتى تاب الله عليهم. ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾[2]

---

(١) مريم ٢٧-٣١.
(٢) التوبة ١١٨.

وقبل أن نعرض الصور الفنية التي رسمها التعبير بطريقة السرد لهؤلاء الثلاثة، لندع أحدهم يتحدّث عن قصة تخلّفه عن غزوة تبوك وهو كعب بن مالك (رضي الله عنه) قال: ((وغزا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال، وأنا اليها أصعر، فتجهزّ اليها رسول الله (صلى الله عليه وسلم) والمسلمون معه، وطفقت أغدو لكي اتجهز معهم فأرجع ولا أقضي شيئاً، وأقول في نفسي أنا قادر على ذلك إذا أردت، فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى أسرعوا وتفارط الغزو، فهممت أن أرحل فأدركهم- فيا ليتني فعلت- ثم لم يقدّر لي ذلك... فلما بلغني أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قد توجّه قافلاً من تبوك، حضرني بثي فطفقتُ أتذكّر الكذب، وأقول بمَ أخرج من سخطه غدا؟ فلما قيل: إن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قد أطلّ قادماً زاح عني الباطل حتى عرفت أني لن أنجو منه بشيء أبداً، فأجمعت صدقه... ثم جلس للناس، فلما فعل ذلك جاءه المخلّفون فطفقوا يعتذرون اليه، ويحلفون له، فقبل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) منهم علانيتهم، وبايعهم واستغفر لهم، ووكل سرائرهم الى الله، حتى جئتُ، فلمّا سلّمتُ عليه تبسّم تبسّم المغضب، ثم قال لي: تعال فجئتُ أمشي حتى جلستُ بين يديه فقال لي: ما خلّفك؟ قلتُ يا رسول الله إني والله لو جلستُ عند غيركَ من أهل الدنيا لرأيتُ أني سأخرج من سخطه بعذر، ولكنّي والله لقد علمتُ لئن حدثتكَ اليوم حديث كذب ترضى به عني ليوشكنّ الله أن يسخطكَ عليّ... والله ما كان لي عذر، والله ما كنتُ أقوى ولا أيسر منّي حين تخلّفتُ عنكَ. قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): أما هذا فقد صدق، فقم حتى يقضي الله فيك، فقمتّ.

واجتنبنا الناس- وقال تغيّروا لنا- حتى تنكّرت لي في نفسي الأرض، فما هي بالأرض التي كنتُ أعرف، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة، فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان وأما أنا فكنتُ أشبّ القوم وأجلدهم، فكنتُ أخرج فأشهد الصلاة، وأطوف بالأسواق فلا يكلمني أحد، وآتي رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فأسلّم عليه، وهو في مجلسه بعد الصلاة فأقول في نفسي هل حرّك شفتيه بردّ السلام أم لا؟ ثم أصلّي قريباً منه وأسارقه النظر، فإذا أقبلتُ على صلاتي نظر اليّ، وإذا التفتُّ نحوه أعرض عني... حتى إذا مضت أربعون من الخمسين واستلبث الوحي إذ برسول الله يأتيني فقال: إنَ رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يأمرك أن تعتزل امرأتك، فقلتُ أطلقها أم ماذا أفعل؟ قال: لا بل اعتزلها فلا تقربّنها، قال فأرسل الى صاحبيّ بمثل ذلك فقلتُ لامرأتي: ألحقي بأهلكِ فكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر.

قال فلبثتُ بذلك عشر ليال، فكمل لنا خمسون ليلة من حين نُهي عن كلامنا. قال: ثم صلّيتُ صلاة الفجر صباح خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتنا، فبينا أنا جالس على الحال التي ذكر الله عزّ وجل منا، ضاقت عليّ نفسي، وضاقت عليّ الأرض بما رحبت، سمعتُ صوت صارخ أوفى على جبل سلع يقول بأعلى صوته: يا كعب بن مالك أبشر، قال فخررتُ ساجدا، وعرفتُ أن قد جاء الفرج، فآذن رسول الله الناس بتوبة الله علينا حين صلّى

صلاة الفجر، فذهب الناس يبشروننا... فانطلقتُ أتأمم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يتلقاني الناس فوجاً فوجاً يهنئوني بالتوبة، ويقولون: ليهنك توبة الله عليك)) [(١)]

ولم يقتصر الحديث أو القصص على أحوال الدنيا وإنما جرى الحديث أيضاً عن أحوال الآخرة التي لا نعلم بها لولا أن الله تعالى أخبرنا عنها. ومن ذلك حديث الغاشية، لقد بدأت السورة باستفهام موجّه الى النبي (صلى الله عليه وسلم) (هل أتاكَ حديث الغاشية) فالحديث هنا إخبار أو قصّ عن أحداث يوم القيامة وأهوالها، والإخبار هنا يقوم على السرد الوصفي لتلك الأحوال والأهوال، ومما يبعث ذلك على التأمّل والتدبّر، واليأس والرجاء، والمخافة والتوجّس، والغاشية: الداهية التي تغشى الناس وتغمرهم بأهوالها. وهذا الخطاب الإلهي كان رسول الله(صلى الله عليه وسلم) يحس بوقعه، وكأنه يتلقاه أول مرّة من ربّه لشدة حساسية قلبه.

ويبدأ المشهد الأول بالحديث عن الوجوه الخاشعة، وهي وجوه الكفار. قال تعالى: ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ﴿١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ﴿٥﴾ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ﴾[(٢)]يبدأ هذا الحديث بمشهد العذاب قبل مشهد النعيم لأنه أقرب الى الغاشية، حيث الوجوه الخاشعة الذليلة المتعبة، تلك الوجوه التي عملت في الدنيا عملاً خاسراً، فلم تحمد على عملها ولم يرض عنها، ولم تجد الاّ الوبال والخسران، واستمرت بعملها في الآخرة، تجر السلاسل والأغلال الى النار، فلم تجد الراحة أبداً، ومع هذا الرهق والعذاب تلفحها نار بالغة الحرارة، فتحس بالعطش، وتسقى بماء صديد شديد الحرارة يزيدها عطشا، وتحس بالجوع فيرمى لها ضريع، وهو نبات ينمو في جهنم، يشبه الشوك الأخضر الذي ترعاه الإبل، فتحس بمرارته وشدّة لذعه، فتأباه لخبثه، وهو لا يسمن ولا يغني من جوع.

ومن الواضح أننا من خلال هذا التصوير لمشاهد العذاب ندرك طبيعته المؤلمة، وتجيء مثل هذه الأوصاف لتلمس مواضع الإحساس البشري بما يملك من تصوّر لذلك الألم الذي يتجمع من الذل والهوان ولسعة النار، والارتواء بالصديد الحار، والتغذي بالضريع الذي لا تقوى الإبل على تذوّقه.

وتقابل هذه الصور البائسة مشهد النعيم للوجوه النضرة وجوه المؤمنين. قال تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴾[(٣)]في هذه الصورة نرى البهجة والنضارة على وجوه المؤمنين، هذه الوجوه يفيض منها الرضى، وتنعم بما تجد وتحمد على

---

(١) مسلم: صحيح مسلم –كتاب التوبة – ٦٢٧- ١٠٢٩ وينظر: البخاري: صحيح البخاري – كتاب تفسير القران – باب ١٨ص٨٢٧

(٢) الغاشية ١-١٧.

(٣) الغاشية ٨-١٦.

ما عملت، راضية بسعيها وما عملته في الدنيا، وقد رأت ثوابه حاضراً أمامها، وهو جنة عالية رفيعة الدرجات، عالية المقامات، تبدو في الحس عالية أيضاً، تنعم بالهدوء والسلام، إذ لا تسمع فيها لغواً وكلاماً باطلاً، وجدلاً وصراعاً، وزحاماً وخصاماً، وضجة وصخباً، وهرجاً ومرجاً.

وهكذا يتقدّم الهدوء والسكون وراحة البال ثم تجيء النعم الأخرى التي تشبع الحواس، أي تأتي في الصورة التي يتخيّلها على وفق ما ترتقي اليه النفوس، يأتي (ما لا عين رأت ولا أذن سمعت) فهاهي العين الجارية يتدفق منها الماء الرقراق، فيجمع إلى جمال الحركة خرير الماء بجريانه، فتتجاوب الأحاسيس مع متعة النفس. وتنتصب أمام هذا المنظر سرر عالية يجلس عليها أصحاب هذه الوجوه المنيرة، والارتفاع هنا يوحي بعلو القدر، وأكواب مصفوفة بين أيديهم لا عرى لها ليسهل تناولها، ووسائد خلفهم يتكئون عليها، وبسط وسجّاد مفروشة للراحة والزينة في المجالس ونواحي القصور.

وهذه الأوصاف مما يجد الناس لها أشباهاً في الأرض، وتذكر بهذه الأوصاف لتقريبها الى الأذهان، أما طبيعتها أو طبيعة التمتع بها فهي موكول بها الى الإحساس بالنشوة والسعادة والرضى بمذاقها، ومن غير الممكن الدخول في موازنات بين طبيعة النعيم أو طبيعة العذاب في الآخرة، وهو أمر يتوقف على نوع الإدراك، وأهل الأرض إدراكهم مقيّد بالحواس التي تقف عند حدود، أو درجات معينة لا يمكن أن تتخطّاها، ولكنها في الآخرة ترفع الحدود وتزال الحواجز، وتنطلق الحواس، فتدرك ما لا يدرك.

أنماط الصورة القرآنية:

أولاً: الصورة المفردة (الجزئية):

من الممكن أن نسمّي الصورة المفردة صورة جزئية إذا نظرنا الى مجموعة من الصور التي تدور حول محتوى أو مضمون واحد مستقل عن صورة أخرى. إنّ الصورة المفردة المنبثقة عن التشكيل البلاغي كالتشبيه والاستعارة والكناية، نلحظ قيمتها الفنية حينما تشكل جزءاً لا يتجزّء من صورة فنية أكبر، وبدونها تفقد الصورة المفردة المعنى المراد كشفه للمخاطب. إن كل مضمون ينتظم في داخله وحدات متعددة هي بمثابة لبنات بنائه العام، وكل لبنة من هذه اللبنات هي صورة تشكل مع أخواتها الصورة الكليّة، والصورة بدون عاطفة تصبح مجرّد توهّج سرعان ما ينطفئ، وبوجود العاطفة تتحوّل الصورة الى قيمة تعبيرية، ومن العناصر المكملة لإطار هذه الصورة الخيال الذي يقوم بالتآلف بين العناصر والمكوّنات.

والصورة المفردة تعتمد على نوعين، وهما الصورة الحسية والصورة الخيالية:

أ- الصورة الحسيّة:

تعتمد الصورة الحسيّة على الحواس جميعاً، ولا يخفى أن الحواس تعد النافذة التي يتطلّع منها الإنسان الى العالم الخارجي، وهي الوسيلة التي تستقبل كلّ ما يبث اليها من

صور وأشكال. والصورة الحسيّة ((صورة تشكيلية تزداد فاعليتها كلما حاولت تنشيط الإحساسات بحيث يكون في مقدورها أن تثير تياراً حركياً في مسارب الخيال، وتفجيراً لا إرادياً في العاطفة، أو إيقاظاً نشطاً لها على الأقل، ولن تؤتي الصورة تلك الطاقة التي تمكنها من استباحة مدارج الخيال وقطاعات العاطفة الاّ إذا احتوت على ألفاظ ذات طاقة حركية جبارة))[1]

ونتلمس ذلك التآزر بين الحواس في التقاط الصورة التي يراد التثبّت من حقيقتها كما نراه في طلب يعقوب (عليه السلام) من أبنائه أن يبحثوا عن يوسف وأخيه (عليهما السلام) ويتحسسوا منهما في مصر ﴿ يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾[2]

واللفظ (تحسسوا) يرسم صورة لهؤلاء الأبناء وهم يدخلون مصر ويبدأون بالبحث عن أخويهم باستخدام حواسهم، فهم يبصرون بأعينهم الأشخاص الموجودين حول القصر، ومن يدخل اليه أو يخرج منه، ويستخدمون آذانهم في التنصّت لعلهم يسمعون صوتيهما، ويتسمعون لكل حديث أو خبر لعله يخصهما، وقد يستخدمون حاسة الشم لمعرفة الرائحة المخصوصة بهما وأن يبعدوا اليأس من رحمة الله وفرجه، ولأهمية الطلب والمطلوب وظفت أغلب الحواس لتحقيق الغاية، وهي العثور عليهما.

ويراد من الحواس أيضاً أن تثبت حقيقة أن هذه الأمم التي تأتي وتؤدي دورها في الحياة وتذهب بالموت أو الهلاك، ولو استخدمنا جميع حواسنا فلن نجد أحداً منهم. قال تعالى: ﴿ وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ هَلۡ تُحِسُّ مِنۡهُم مِّنۡ أَحَدٍ أَوۡ تَسۡمَعُ لَهُمۡ رِكۡزَۢا ﴾[3]ويصوّر اللفظ (تحس) حالة البحث عن أقوام نظن أنهم باقون، ولو أردنا استخدام جميع حواسنا لإدراك هذه الأقوام الهالكة والشعور بوجودهم فلن نجد أحداً منهم، أو نسمع صوتاً خفياً يدل عليهم، وكل ما بقي منهم آثار تدل عليهم.

ومن الممكن أن تعمل كل حاسة على حدة في رسم صورها، ومن هذه الصور:

١- **الصورة البصرية:**

وهي نتاج حاسة البصر، وهي من أدق الصور وأكملها، وتأتي في المرتبة الأولى من صور الحواس الأخرى، وتعمل حاسة البصر على نقل الصور المرئية بالعين الى العقل لإدراكها، ومن ثم انتقالها الى الذاكرة لحفظها، وهي أساس الصورة البصرية، وأكثرها خدمة للموضوع المراد تصويره، ومن الأشياء التي تميّزها العين دون الحواس الأخرى الألوان، والأشكال، والحركات، وتأثير الانفعالات وتوظيفها في خدمة الهدف العام، وقد

---

(١) يوسف اليوسف: مقالات في الشعر الجاهلي ٣١٦.

(٢) يوسف ٨٧.

(٣) مريم ٩٨.

وجدت الصورة البصرية في القرآن الكريم تدور حول أربعة مجالات، وهي على النحو الآتي:

المجال الأول: وهو الحث على النظر في الدلائل والبراهين التي تثبت وحدانية الله، وقدرته على الخلق، وتدبّره الكون، وذلك بتوجيه الأبصار والبصيرة نحو هذه الدلائل على قدرته. ومن ذلك توجيه أنظار الخلق الى السماء لنقل صورة بصرية عن صنعها وهندستها ولونها وشكلها وزينتها وتكونها من سبع سماوات طباق. قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾[1]

هذه الصورة البصرية نستدل عليها من الألفاظ (ترى، وأرجع البصر) وتشير الى وجود (سبع سماوات طباق) ولا يمكن الارتياب استناداً الى نظريات علماء الفلك التي لم تثبت على رأي واحد، لأن الكشوفات العلمية قابلة للتغيير والتصحيح، ويكفي أن نعرف أن هناك سبع سماوات، وأنها ذات طبقات على أبعاد متفاوتة، وإن كنّا لا نراها بالعين المجرّدة، ولكن القرآن الكريم يوجّه أنظارنا الى السماء جميعاً، فليس فيها خلل أو نقص، أي ليس فيها انشطار أو انكسار، وزينتها من النجوم والكواكب تغطي صفحتها القريبة منّا، ثم يكرر الدعوة للنظر الى السماء للتأكد والتثبت من وقع النظر على شق أو صدع أو انفطار.

إنّ روعة النظر الى السماء، وروعة النظام فيها يدرك الناظر الدهشة والذهول دون المعرفة أو العلم بطبيعتها، فمن نعمة الله على البشر أن أودعهم البصر والبصيرة للتجاوب مع هذا الكون الفسيح بمجرد النظر والتأمّل، فالعقل يتلقى ومضات تصدر عن هذا الكون فيدركها، ويعلم أن لهذا الصنع خالق مدبّر بديع، ولا يملك الاّ التسليم بوحدانيته. قال تعالى:

﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾[2]

ترسم الرؤية الموجّهة الى السماء بالعين صورة لها، فهي على شكل قبة لا يعرف أحد ما هي على وجه التحقيق، هذه القبة معلقة بغير أعمدة تسندها أو تبقيها مرفوعة، والناس يرونها هكذا حيث امتدت أبصارهم بالليل والنهار، ومهما بعدت بهم الأسفار، ومجرد النظر بالعين دون إدراك حقيقة أبعادها وسعتها كاف وحده لإثارة هزّة في الكيان أمام فخامة الصنع الهائل الذي لا نهاية له ولا حدود. وأمام هندسة هذا النظام العجيب الذي يمسك بالكواكب والنجوم والأقمار دون أن تقع أو يصطدم بعضها ببعض، وكأنها معلقة بتلك القبة العجيبة، تسبح في حركة دائرية منتظمة، فتشكل زخرفة بديعة تضيء ظلام الليل وظلمة العقول.

---

(١) الملك ٣-٥.

(٢) لقمان ١٠.

ويدعو القرآن الكريم الى توجيه الأنظار الى الماء، وهو أصل الحياة، والعنصر الذي يشكل نسبة كبيرة من أجسام الكائنات الحيّة، ويدخل الماء في أجهزة الجسم لتيسير عملها الدائم في الهضم والامتصاص وانتقال الدم وغيرها، ويبيّن مصدر هذا الماء، وكيفية تكوينه وإنزالـــــه. قـــــال تعـــــالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴾[1]وقوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[2]

يعرض الله تعالى آياته ليريها لخلقه، ومن هذه الآيات ظهور البرق والرعد والسحاب في السماء، وهذه المشاهد معروفة يراها الناس جميعاً، وهي بذاتها مشاهد تثير في النفس جوّاً من الرهبة والخوف والترقب والطمع، وقد يتحوّل البرق الى صاعقة محرقة، ولكنه بشير بنزول المطر المدرار الذي يُحيي الأرض بعد جفافها ويبسها، وإنشاء السحب المحملة بالماء وعلى وفق طبيعة تكوينه على النحو يعود الى تركيب كوني خاص لم يصنعه أحد الاّ الله، ولم يشترك في صنعه أحد البشر أو غيرهم.

وندعى لنرى مشهداً من مشاهد الكون التي يراها الناس وهم غافلون عنها، وفيها متعة للنظر وعبرة للقلب، ومجالاً للتأمّل، وهذا المشهد هو تكوّن السحاب، وتجمعه وحركته، ونزوله الى الأرض مما يذهب بالأبصار. قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴾[3]

هذه الصورة التي نراها رأي العين تعرض على مهل وإطالة، وتدعو الى التأمّل في تآلف الأجزاء وتكاملها لتؤدي الغرض المقصود، وإن تآلف هذه الأجزاء لم يكن يجري لوحده بل بتدبير الخالق سبحانه وتعالى، ويساق السحاب المتفرّق ليتجمّع ويتآلف، ويشكّل كتلة ركامية ضخمة مثقّلة بالماء، فإذا ثقلت نزل منها الماء، وقد يمرّ الماء بهواء بارد فيتجمّد ويتحوّل الى برد فيسقط ويصيب من يصيب، وتبدو السحب الضخمة كالجبال لمن يعلو ويراها في السماء، فإن هذا المشهد الرهيب في ارتفاعها وانخفاضها تعبير عن الحقيقة التي يذكرها القرآن الكريم ويدعو الى النظر فيها، فهذه جبال السحب مسخّرة بيد الله تعالى، يصيب بمطرها وبردها من يشاء ويصرفها عمن يشاء، ويكاد ضوء البرق بعد تصادمها تعشو الأبصار.

---

(١) الرعد ١٢.
(٢) الروم ٢٤.
(٣) النور ٤٣.

وهاهو الماء يكون تحت تصرّف خالقه، بل يتحدّى به الضالّين في تكوينه وإنزاله، أو منعه من النزول، أو تحويله الى ماء لا يصلح للشرب. قال تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴾[1] هـذه الصـورة البصرية نستدل عليها من لفظ الرؤية (أرأيتم) خطاب موجّه من الله تعالى للضالين الغافلين عن نعمه، ويقودنا الى السؤال عن دور الإنسان في تكوينه، إنّ دوره أن يشربه فيرتوي ويتوازن جسمه، وأمّا الذي أنزله من السحاب الى الأرض ليكون في متناول الناس فهو الله سبحانه وتعالى، وهو الذي قدّره أن يكون عذباً، ولو شاء لجعله مالحاً أو مُرّاً غير مستساغ، ولا يُسقى به الزرع، ولا تحيا به الكائنات الحيّة، ولكن بفضل الله تعالى جعله مادة للحياة، وموضع إقبال عليه.

ويدعونا الله تعالى للنظر الى ماء البحر، فمن نعمته أن أجرى فيه السفن لنقل الناس والتجارة، وتيسير وصولهم بأسرع وقت مما هو في البر. قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾[2]

نشهد بأبصارنا السفن وهي شاخصة، تجري في البحر ولا تغطس في الماء، وتطفو على وفق خواص معينة أودعها الله في السفينة والبحر والريح، ولو اختلفت تلك الخواص لما جرت الفلك في البحر، فمثلاً لو اختلفت كثافة ماء البحر، أو تغير سمك خشب السفينة، أو قلّت سعة سطحها، أو توقفت التيارات الهوائية لما تحرّكت السفينة في الماء، ويبقى الله تعالى هو الراعي لتلك السفينة ومن فيها، فهي تجري بفضله، وهذه الصورة معروضة للرؤية (ليريكم من آياته) يراها من يريد أن يراها، وهي عبرة لمن يصبر في الضرّاء ويشكر في السرّاء.

ونتوجّه الى النبات وهو ما نبت في الأرض من زرع يأكل منه الإنسان والحيوان، ومسألة إنباته تعتمد على الماء، وقد صوّر القرآن الكريم العلاقة الحميمة بين الماء والنبات، وهما من أهم الأسس التي تقوم عليها الحياة الإنسانية، والصور البصرية تنقل الينا صورة هذا النبات في إنباته ونموّه وتفرّعه، وفي ألوانه وزهوه وذبوله. ويشكّل هذا التنوّع في صفحة الكون الأرضي صورة ملوّنة تدور حول النبات. كما في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ﴾[3]

---

(١) الواقعة ٦٨-٧٠.
(٢) لقمان ٣١.
(٣) الصافات ٢٧-٢٨.

إنها صورة ملوّنة تجمع عناصر الطبيعة كلّها، الماء والنبات والجبال والناس والدواب والأنعام، وتدع القلب مأخوذاً بهذا العرض الجميل، وتبدأ الصورة بكل عنصر على حدة، وأولها إنزال الماء من السماء، وإخراج النبات من الأرض بزهره وثمره ذي الألوان المتنوعة، فيعجز الرسّام عن استيفاء ألوانها الطبيعية، فكل ثمرة تحمل لوناً يختلف عن غيرها، تبعاً لطعمها وشكلها وحجمها، ومقدار نضجها، وقربها وبعدها عن مستوى النظر، وها هي الجبال تأخذ جانباً من الصورة، وتبدو من خلال التدقيق في شعابها ووديانها وأخاديدها شدّة الألوان وخفتها، تبعاً للضوء والظل المتداخلة في شعبها، فيبدو من ألوانها الأبيض والأحمر والأسود تبعاً للأحجار والمعادن التي تكسوها، ومقدار تسلّط الضوء عليها.

إنّ هذه الالتفاتة الى ألوان الجبال بعد عرض ألوان الثمار تهز الوجدان، وتوقظ في النفس حاسة التذوّق الجمالي، فالنظرة وحدها الى النبات تبدو نظرة أحادية، ولكن الجمع بين ألوان الثمار وألوان الجبال يعطي نظرة شمولية، وذلك للتناسق البديع بينها، فضلاً عن الألوان الأخرى مثل ألوان الناس، فكل جنس يتميّز بلون، مثل: الأبيض والأسمر والأصفر والأسود، وألوان الدواب أي كلّ ما يدبّ على الأرض من حيوان، وألوان الأنعام كالإبل والبقر والغنم والماعز التي تتميز بها، وهكذا يبدو الكون لا يدرك عظمته الاّ من يملك العقل السليم.

ويوجّه الله سبحانه وتعالى الأنظار بقصد التذكّر الى النبات وفي إنزال الماء من السماء، وجريانه في ينابيع وجداول وأنهار، ليسقي الزرع، ولتنشرح به القلوب، وتسرّ به النفوس لنموّه وازدهاره، ولكنه في النهاية يذبل وييبس، ويتحوّل الى حطام متكسّر بعد تلك الغضارة والإخضرار. قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (١)

إنّ هذه الظاهرة الطبيعية التي يوجّه القرآن اليها الأنظار للتأمّل والتدبّر، ظاهرة تتكرر في كلّ أنحاء الأرض، ولكن الغفلة عن تتبع آثارها في كلّ خطوة من خطواتها تبعث على النظر فيها، إنّ هذا الماء النازل من السماء كيف تكوّن وكيف نزل، هل نزل بطيئاً أم نزل سريعاً، وكيف يتسرّب الى باطن الأرض ثم يخرج على شكل ينابيع متدفقة، ومن وراء هذا التدبير والتقدير في حفظ الماء من الضياع، وخزنه تحت الأرض، وإخراجه على وفق الحاجة اليه، وهذه الجداول والأنهار تمتد لتسقي المزارع والبساتين في الأغوار البعيدة، ويعقب ذلك معجزة أخرى وهي رؤية النبتة الصغيرة تشق الأرض وتزيل عنها التراب، وتتطلع الى نور الشمس، وترتفع رويداً رويداً. هذه الرؤية كفيلة بأن تملأ القلب بهجة

(١) الزمر ٢١.

وسرور، وتثير الإحساس بوجود الله الخالق المبدع، وإذا بالنبتة تكتسي الأوراق الخضر، وتبرز أزهارها ذات الألوان الزاهية، وتتدلى ثمارها اليانعة.

ولمّا يبلغ النبت غايته المقدّرة لقطفه بعد نضجه فإنه قد استوفى أجله وأدى دوره المطلوب، فإنه بعد ذلك يذبل، ثم يصفر بعد أن يجف منه الماء، ثم ييبس تماماً ويتحوّل حطاماً متكسّراً. إنّ هذه الصورة النامية موحية لاستجابة القلوب اليها، لأنها تعبّر عن حقيقة الحياة وأطوارها المتغيّرة من حال الى حال، وأنها لابد أن تنتهي الى آخر المطاف وهو الموت والفناء.

وتتوجّه البصائر قبل الأبصار لإدراك حقيقة النبت والإنبات التي يظن كثير من الناس أنهم يقومون به، ويجنون ثماره بجهدهم وتعبهم دون تدخّل أحد معهم، فجاء التحدّي الإلهي ليبيّن لهم سوء ظنهم. قال تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾(١)

هذه الصورة البصرية نستدل عليها باللفظ (أرأيتم) وهو خطاب موجّه للغافلين عن نعم الله وتبدأ بحرث الأرض وتهيئتها للزرع الذي ينبت بين أيديهم ويؤتي ثماره، ويرون مراحل نموّه من البذرة حتى الثمرة، ما دورهم في إنباته؟ إنهم يحرثون الأرض، ويلقون البذور، ويغطّونها بالتراب، ثم يسقون الأرض، وينتهي دورهم، ولكنهم ينتظرون معجزة الله التي تفلق الحبّة، وتمد الساق لشق التراب، ثم تورق النبتة وتزهر وتثمر.

وفي هذه الرحلة العجيبة لإنبات البذرة ونموّها ما لا يمكن للعقل أن يصدّقها، وما كان للخيال أن يتصوّرها، لولا أنها تحدث أمامه ويراها كلّ إنسان بعينيه في كل مرحلة من مراحلها، وأي عقل يتصوّر أنّ حبّة القمح الصغيرة تختزن بداخلها مكوّنات عدّة، مثل الساق والأوراق والأزهار والحب الكثير، ويقول الفلاّح زرعنا ولم يتجاوز عمله الحرث والبذر والسقي، وأمّا الإنبات فإنه من صنع الخالق، ولو شاء لبقيت البذرة على حالها تحت الأرض، ولو شاء لجعل الزرع يابساً متكسّراً قبل حصاده، فلا ينتفع به، ولو تحقق هذا لتحدّث الزارعون عن سوء ما حدث، ولقالوا أنهم واقعون في الخسارة، وأنهم محكوم عليهم بالحرمان، ولكن الله بفضله أثمر النبات وتم الحصاد.

وتتوجّه الأنظار نحو النار، وهي أعظم حدث في تاريخ الحضارة الإنسانية، ولو عدنا الى نشأتها فسنجد أن الله تعالى قد هيّأها وجعل وقودها الشجر الذي يزرعون. وصارت لمن يواجه الطبيعة في سفره مؤنسة تقوم بتدفئته، وتطهو زاده، وتخيف الضواري من الحيوان فتدفعها عنه. قال تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴾(٢)

---

(١) الواقعة ٦٣-٦٧.

(٢) الواقعة ٧١-٧٣.

إنّ صورة النار أمام أعيننا صارت مألوفة، لا ينجذب اليها النظر وقد تيسّر اشتعالها، وكان الإنسان يضرب الحجر فيتولّد الشرر، ويحدث اشتعال الحطب، وما فائدة الشرر دون الحطب وهو المادة القابل للإشتعال، فمن أنبت الشجر ليكون وقوداً للنار، إنه الخالق صاحب الفضل والمنّة علينا، ويقال أن شجر العقار وشجر المرخ كان العرب يحدثون الشرر من احتكاك بعضها ببعض فتشتعل.

ومن المشاهد التي نستدعى لمشاهدتها بالعين صورة الطير وهو يحلّق في السماء دون خشية أو خوف من السقوط، وإنّ علة ذلك أن الله تعالى بقوانينه لم يدع الطير أن يسقط الى الأرض، وقد أمسكهن وجعل جو السماء مناسباً للطيران. قال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[1]وقوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ﴾[2]

ومشهد طيران الطير في جو السماء وقد أفرد جناحيه مشهد مألوف، نراه كلّ يوم دون أن نتنبه الى الأسباب التي حالت دون سقوطه الى الأرض، وإنّ الدعوة الى التأمّل في تلك الصورة تثير الدهشة، إذ نراه يرتفع الى أعالي السماء، ويميل يمنة ويسرى بانسيابية، وكأنه يسبح فيها بيسر وسهولة، ويأتي بحركات يخيّل للناظر اليها على أنها حركات استعراضية تبدو فيها جمالية الارتفاع والتحليق والهبوط، ولم تؤثر فيه جاذبية الأرض، ولم تؤثر فيه التيّارات الهوائية، وإن أردنا أن نرمي حجراً أصغر من حجم الطير فإنه حتماً يسقط الى الأرض.

ولو أننا التفتنا الى قوله (ما يمسكهنّ الاّ الله) فالمسألة هنا أنّ الله تعالى قد تدخّل في الأمر وأوقف الجاذبية عن الطير، أو أنّ الله تعالى أوحى الى الطير أن يبسط جناحيه فيدخل الهواء تحتها ويرفعها، فترفع الطير معها كما هو معروف الآن في الطائرات، فالمحرّكات تنفث الهواء تحت الأجنحة فترتفع الى السماء، والدعوة الى تأمّل هذه الصورة ومتابعة الطير في حركاته متعة تثير التفكير في قدرة الله وصنعه البديع الذي يتعانق فيه الجلال والجمال.

والمجال الثاني: دعوة الى النظر في المعجزات الإلهية التي قدّمت للأنبياء والرسُل من أجل إقناع البشر بصدق رسالاتهم. وهاهو إبراهيم (عليه السلام) يقيم الحجّة على قومه بإقامة الوحدانية، ونقض ألوهية الأصنام. قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ۖ إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[3]هذه الرؤية ترسم صورة لاستنكار إبراهيم (عليه السلام) لعبادة أبيه وقومه، وقد انطلقت من الفطرة السليمة التي أنطقته بعد رؤيته

---

(١) النحل ٧٩.
(٢) الملك ١٩.
(٣) الانعام ٧٤.

الأصنام المنحوتة من الأحجار، وقد وضعت في أحد المعابد الكبيرة، فتعبد وتقدّم لها القرابين، فلم تتحرّك ولم تقبل أو ترفض، ولم تنكر أو تشكر من يقدّم لها، فرسخت في ذهنه أنها ليست الإله الذي ينبغي أن يعبد، فالإله المعبود يخلق ويرزق ويسمع ويستجيب. أحسّ إبراهيم أن أباه وقومه على ضلال ظاهر من خلال النظر الى تلك العبادة الضالة، واستطاع بصفاء فطرته أن يكشف لبصيرته أسرار الكون.

والتقت إرادة الله تعالى ببصيرة إبراهيم (عليه السلام) المفتوحة المتطلعة بشوق الى معرفة حقيقة الخالق المعبود أن يُطلع إبراهيم على ملكوت السماوات والأرض ليتيقن بها ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ﴾[1] وبمثل هذا البصر المتفتّح على حقيقة الكون، والبصيرة التي تصل الى اليقين بوجود خالق له، والإطلاع على الأسرار المكنونة في صميم الكون، والكشف عن الآيات والدلائل التي تصل بين قلبه وفطرته، فإن هذه الظواهر كلها تنقله من درجة الإنكار الى درجة اليقين.

ولنتابع قصة رحلة إبراهيم (عليه السلام) من الشك الى اليقين بوجود الله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ۝٧٦ فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ ۝٧٧ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ۝٧٨ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾[2]

ولمّا أسدل الليل أستاره السوداء أبصر إبراهيم (عليه السلام) صفحة السماء فرأى كوكباً لامعاً، وكان قومه يعبدون الأصنام، ويقدّسون الكواكب والنجوم، ويعتمدون عليها في التنجيم للقيام بأعمالهم، ولكن أحد الكواكب في هذه الليلة جذب نظره بلمعانه، فخطر على فكره لعل هذا هو الإله المعبود، فهو بلمعان نوره وعلوّه على الأصنام أقرب الى أن يكون ربّاً، ولكنه تضاءل وغاب عن الأنظار، بل غاب عن رعاية الخلق وتدبير أمورهم، والربّ لا يغيب، إنه منطق الفطرة البديهي، وفطرة إبراهيم لا تحبّ الآفلين، ولا تتخذ منهم إله يغيب.

وفي الليلة الثانية رأى قمراً منيراً، وكأنّ إبراهيم لم ير قمراً من قبل، بل كان يراه في عهد الاستقرار الذهني، ولكنه الآن في حالة الشك تنبّه الى القمر والى كبر حجمه، والى نوره الذي يملأ الوجود، والى قربه من الناس، ولكنّ القمر خيّب ظنه وغاب فتكررت التجربة، وأحسّ بالضياع، وإنه بحاجة الى العون من الله الذي يجده في فطرته وضميره، ويخشى بعد ذلك أن يكون من الضالين مثل قومه.

---

(١) الانعام ٧٥.

(٢) الانعام ٧٦-٧٩.

وفي صباح اليوم الثالث أشرقت الشمس بضيائها الذي طغى على الكون، فهي تبدو أكبر الأجرام في السماء، وأشدّ ضوءاً وحرارة فلا تستطيع الأبصار أن تديم النظر اليها، وكأنّ الشمس اليوم في خلق جديد، وتطلّع اليها لعله يستقر على قرار ثابت، وتزول عنه الحيرة، وما إن حلّ المغرب حتى حان المغيب، واحتجبت الشمس خلف الأفق وأفلت، فأيقن أنها ليست الإله المعبود. وهنا تنطلق شرارة الإيمان في إدراكه، ويغمر النور قلبه، ويفيض على ذاته، حتى يجد الإله في وعيه وإدراكه، كما هو في فطرته وضميره، وهنا يجد إلهه، ولكن لا يجده في كوكب لامع، ولا في قمر طالع، ولا في شمس ساطع، ولم يجده ببصره، بل وجده في قلبه وفطرته وعقله ووعيه، ووجده يملأ الوجود كله، فاتجه الاتجاه الحنيف، فلا تردد بعد ولا حيرة.

وتوظّف الصورة البصرية كدليل على صدق الآراء والأفكار النظرية، وتعزيز المواقف التي تحتاج الى الثبات واليقين، كما في صورة امرأة العزيز التي أغرمت بيوسف (عليه السلام) حتى أصبحت حديث المدينة، وحكايات النساء ومكرهنّ في الزيادة والنقصان، وأرادت أن تريهنّ الذي أوقعها فيه بأعينهنّ. قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾[(1)]

أقامت امرأة العزيز مأدبة لهؤلاء النسوة في قصرها، ونحن ندرك أنهنّ مترفات، فقد فرشت لهنّ الفرش الوثيرة، ووضعت لهنّ الوسائد يتكئن عليها، وأعطت لكل واحدة سكيناً لتقشير الفاكهة الموضوعة أمامها، ثم قالت ليوسف اخرج عليهنّ، فلمّا رأينه بأعينهنّ أُصبن بالدهشة والذهول لجمال طلعته، فأخذن يقطّعن أيديهنّ ظناً أنها الفاكهة، ولم يشعرن بالألم، وأدركن أنه ليس بشراً بل ملك كريم من الملائكة، وبعد أن تأكدت من اعجابهنّ وظفته في إزالة لومهنّ إياها، وتأييدهنّ لها في إعجابها به، والجهر بمراودتها له دون خوف أو حياء، وإنه لابد أن ينفذ أمرها فيما تريد، ولم يجد سوى الاستنجاد بالله من هذا الكيد العظيم.

وتعمل الصورة البصرية على إظهار نعمة الله، والشعور بالامتنان للمعطي، ولإغراء الآخرين بالتوجّه نحو دائرة الإيمان لتغمرهم مثل هذه النعمة. كما في دعوة سليمان (عليه السلام) بلقيس ملكة سبأ لتسلم على يديه. قال تعالى: ﴿ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾[(2)]

كانت الصورة خادعة، والمفاجأة مذهلة، فالقصر مبني من البلور، أقيمت أرضيته فوق ماء جار، أو أنّ بلاطه متموّج كأنه لجة أو موجة من أمواج البحر، فكشفت عن ساقيها

---

(١) يوسف ٣١.
(٢) النمل ٤٤.

خشية البلل، وقد تمت المفاجأة، وأحسّت الملكة بالضآلة أمام عظمة الملك، ووقفت مندهشة أمام هذه العجائب، فرجعت الى الله، واعترفت بظلمها لنفسها فيما سلف من عبادتها، وأعلنت إسلامها لله ربّ العالمين، وعلمت الفرق بين الإسلام لله والاستسلام لأحد من الخلق، وإن العزّة لله ترفع المغلوبين الى صف الغالبين.

وتستهدف الصورة البصرية بيان حقيقة الوحي وطبيعته، فتصف مشهداً من مشاهده، وتثبت صحته وواقعيته، وتؤكد صدق النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) في تلقّيه عن جبريل (عليه السلام) برويّة وتمكن ودقّة، ولنا من المعراج الى السماء صور تنطق باليقين.

قال تعالى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾[(١)]

في هذه الصور يمن الله تعالى علينا بوصف رحلة الحبيب المصطفى (صلى الله عليه وسلم) الى رحاب الملأ الأعلى، يصفها خطوة خطوة، ومشهداً مشهداً، حتى لكأننا ننظر اليها، إن هذا الوحي الذي ينزل على النبي حامله معروف أمين قوي شديد هو جبريل (عليه السلام) وصاحب خلق حسن ودقة وحصافة فلا يخطئ، وقد ظهر على صورته الحقيقية أمام النبي (صلى الله عليه وسلم) بأجنحته التي تملأ الأفق، ثم هبط من علوّ فكان أقرب ما يكون الى النبي مسافة قوسين أو ذراعين منه، فأوحى الى عبد الله ما أوحى، بهذا التفخيم والإجمال والتهويل، فهي رؤية عن قرب وبعين البصيرة وعين اليقين، حيث لا تحتمل الكذب في الرؤية، أي رؤية البصر تصدّقها رؤية الفؤاد، وهي رؤية صادقة وثابتة لأنها تنفي خداع البصر، فلقد رأى بعينه وتثبّت بفؤاده، إنه الملك جبريل حامل الوحي اليه ليعلمه ويبلغه ما يريد الله تعالى.

ولقد تكررت الرؤية مرّة أخرى في رحلة الإسراء والمعراج، فقد دنا منه وهو على هيأته التي خلقه الله عليها، عند (سدرة المنتهى) وهي شجرة من النبق تقع على يمين العرش، لا يتجاوزها أحد من الملائكة، والله أعلم بحقيقتها. والمنتهى أي التي تنتهي عندها علوم الخلائق، أو هي نهاية المطاف حيث انتهت اليها رحلة المعراج، وانتهت اليها صحبة جبريل (عليه السلام) حيث وقف هو، واستمر النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) في صعوده على البُراق الى درجة أقرب من عرش الرحمن. ومما لابس هذه الرؤية عند سدرة المنتهى (يغشى السدرة ما يغشى) أي ما يغطيها من الخلائق والأوصاف ما لا يعلمه الاّ الله، (ما زاغ البصر وما طغى) فلم تكن رؤيته ميل في البصر أو انحرافه يميناً أو شمالاً. لقد رأى من آيات ربّه الكبرى، واتصل قلبه بالحقيقة عارية مكشوفة، رؤية محققة ويقين جازم، واتصال مباشر، وصحبة محسوسة، ورحلة واقعية.

---

(١) النجم ١١-١٨.

والمجال الثالث: الحث على النظر في الكتب السماوية التي نزلت على الأنبياء والمرسلين، ومعرفة قيمتها العليا لأنها كلام الله تعالى، ومن هذه الكتب السماوية القرآن الكريم الذي يمتلك التأثير في العقل والقلب، ويزلزل الأفكار الخاطئة والمشوّشة التي تضل أصحابها. قال تعالى: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[1]

لو نظرنا الى هذه الصورة التي تتخلل الفؤاد وتهزّه، وهي تعرض لنا القرآن الكريم مصحفاً أو كلمات تنزل على جبل صلد من الصخور والمعادن، لرأيناه يخشع ويتزلزل بعنف ويتصدّع، ويتناثر الى أتربة خشية أو خوفاً من الله تعالى، فتصل الى قناعة ثابتة وهي أن لهذا القرآن ثقلاً وسلطاناً وأثراً في الحجر قبل البشر، ومن الصواب أن يتفتّح كيان الإنسان، ويتزلزل قلبه خشية من الله حين تنزل كلماته على ذلك القلب، ويحدث فيه من التغيرات والتحولات فيما يماثل ما حدث على ذلك الجبل، ويدرأ عنه أدران الشك والارتياب ليصفو أمام الحقيقة، ويتذوّق طعم الإيمان.

والمجال الرابع: النظر في ما وعد الله في الآخرة وهما الجنة والنار والتيقّن بالنظر اليها عياناً. ويوم القيامة يطلب من المشركين أن يستدعوا شركاء الله بزعم المشركين، ونودوا فلم يجب أحد منهم، وأفلت ذلك الزعم من أيديهم، وأيقن هؤلاء أن مصيرهم النار، ولمّا رأوها بأعينهم ثبت لديهم أنهم لن يحيدوا عنها. قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُواْ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴾[2]

يتطلّع المجرمون الى النار وهي تشتعل وتتأجج بألوانها بين الأحمر والأصفر والشواظ الأسود، فتمتلئ نفوسهم خوفاً وهلعاً، وهم يتوقعون في أي لحظة أنهم واقعون فيها، فماذا يفعل هؤلاء؟ فهل هناك منجاة منها، والنار تستعر وشررها يتطاير أمامهم، وما أشق العذاب حين تحاصرهم النار وتغمرهم فلن يُروا بعدها، وتوقّع العذاب حاضر، وقد أيقنوا لا نجاة منها ولا محيص.

ويمضي السياق فينقل أنظارنا الى ساحة الحساب، وعرض مشهد المكذبين للرسالة، وقد اصطبغت وجوههم بالسواد، وكأنها قطع مظلمة. قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾[3] الناظر الى الوجوه يجدها مختلفة الألوان، فاللون الأبيض دلالة على الفوز والنجاح. واللون الأسود دلالة على

---

(١) الحشر ٢١.
(٢) الكهف ٥٢-٥٣.
(٣) الزمر ٦٠.

الخسران. وكأنّ السواد أصبح علامة للخزي ونتيجة للكمد، ولفح النار، وهؤلاء هم المتكبّرون في الدنيا، الذين دعوا الى الإيمان بالله فأعرضوا بوجوههم عن الداعي، وظلّت الدعوة قائمة حتى بعد إسرافهم في الغي والمعصية، ولكنهم أصرّوا على كفرهم وتكبّرهم، فكان السواد خزي لهم، وكشف أمام الآخرين على أنهم من أصحاب النار الخالدين.

وتتبدّل الأرض والسماوات ولا نعلم كيف يتم ذلك، ولا نعلم طبيعة الأرض الجديدة، ولا طبيعة السماوات، ولكن هذا التبديل يعطي الدلالة على قدرة الخالق في ذلك التبديل، وبرز الناس أمام الواحد القهّار مكشوفين لا يسترهم ساتر، عراة حفاة، ويظهر من بين هؤلاء الناس مشهد المجرمين وهم مقيّدون بالأصفاد، غطّى أجسادهم القطران الأسود، وهو مادة قابلة للاشتعال، وتسرّبت الى وجوههم النار حتى غطتها. قال تعالى: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ ۖ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ ﴾[1]

تقع الأبصار على عالم جديد غير العالم الذي كانوا فيه من قبل، فالأرض بيضاء نقيّة ليس عليها معالم، والسماوات غير التي عرفوا كواكبها ونجومها، فهي خالية من تلك المعالم المعروفة، ويقف الناس صفوفاً حفاة عراة، لم يجدوا ما يستر أجسادهم، وكأنما خلقوا هكذا كما يخرج الطفل عارياً من بطن أمه في الولادة. خرجوا من بطن الأرض بهذه الصورة، والناس ليسوا سواء، فهاهم جماعة من المجرمين مقيّدون بسلاسل من حديد، يمرّون صفاً صفاً، ويبدو الذلّ على وجوههم، وقد غطّى أجسادهم القطران الأسود الذي يلتهب عند تقريبه من النار، ودلالة القطران فيها تحقير لهم، لأنها مادة قذرة ذات رائحة نتنة، وأوّل ما تبدأ النار بوجوههم، فتغطّيها باللهب جزاء مكرهم واستكبارهم.

وإزاء التقابل التام بين أصحاب الجنّة وأصحاب النار، فإذا اطمأنّ أصحاب الجنة بدارهم دار النعيم، وأيقن أصحاب النار بمصيرهم في دار الجحيم، وكان بين الفريقين أو بين الجنة والنار حجاب يحجز بينهم، وعلى ذلك الحجاب رجال يعرفون بأصحاب الأعراف، وهم الذين تساوت حسناتهم وسيّئاتهم تماماً دون زيادة أو نقصان، وهم ينتظرون رحمة الله ليتوجّهوا الى المكان الذي يريده الله تعالى لهم. قال تعالى: ﴿ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ ۚ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ ۚ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ۚ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ ۞ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾[2]

ينظر أصحاب الأعراف الى مشهدين ماثلين أمامهم، مشهد أصحاب الجنة ومشهد أصحاب النار وهما متجاوران وبينهما حاجز، ويعرف أصحاب الأعراف رجالاً من أهل الجنة ورجالاً من أهل النار، يعرفون هؤلاء بسيماهم الظاهرة على وجوههم لعله اللون مثل

---

(١) ابراهيم ٤٨-٥٠.
(٢) الاعراف ٤٦-٤٧.

الأبيض والأسود، أو الوسامة والقبح، فإذا وقعت أبصارهم على أصحاب الجنة تحسّروا، وتمنّوا أن يكونوا معهم، وإذا وقعت أبصارهم على أصحاب النار أصابتهم القشعريرة، واستعاذوا بالله أن لا يجعلهم مع هؤلاء القوم الظالمين.

٢- الصورة السمعية:

جاءت الصورة السمعية بالمرتبة الثانية بعد الصورة البصرية من حيث القيمة الجمالية، فتسجّل حضوراً في أذهاننا كالأنغام التي واسطتها الأذن، ورسم الصورة السمعية يتم عن طريق أصوات الألفاظ التي تقع في الأداء التعبيري، فللجانب السمعي أثر كبير في تطريز الألفاظ وصياغتها على وفق التصوّرات التي يمليها الفكر الإنساني فتتوهّج في الأذهان، وتنجلي بعدها الانفعالات الى أحاسيس على شكل صور حيّة.

ومن الممكن استغلال حاسة السمع في الليل والنهار، وفي الظلام والنور، بينما تدرك الصور المرئية في النور فحسب، مضافاً الى ذلك أن الإنسان يستطيع أن يدرك عن طريق الكلام أفكاراً أرقى وأسمى مما يدركه عن طريق النظر.(١)

وقد وردت الصورة السمعية في الخطاب القرآني، وذلك من خلال الألفاظ المسموعة (سمع، وأنصت) ومن خلال الحوار الذي يدور بين المخاطبين. ولنستمع الى الحوار الذي جرى بين أفراد من الجن، ونتصوّر تلك الألفاظ التي تشكّل صورة خيالية عن هؤلاء النفر الذين يقدّر عددهم تسعة أفراد من جنّ نصيبين، وكان استماعهم الى القرآن الكريم تدبيراً من الله، لا مصادفة عابرة، وكان في تقديره تعالى أن يعرفوا نبأ رسالة الإسلام الأخيرة، كما عرفوا رسالة موسى (عليه السلام) من قبل، وأن يؤمن فريق منهم، ويبلغّوا قومهم قبل فوات الأوان.قال تعالى: ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾(٢)وقوله تعالى: ﴿ قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴾(٣)

يرسم النص مشهد هؤلاء النفر من الجن يستمعون الى القرآن الذي يتلوه النبي محمد(صلى الله عليه وسلم) ويصوّر لنا ما وقع في حسّهم من خلال الاستماع من الروعة والتأثر والرهبة والخشوع، ولعل لفظ (أنصتوا) يلقي على الصورة ظلال الموقف كله طوال مدّة الاستماع. (فلما قضي ولوا مدبرين) ويفيد اللفظ (ولـوّا) في تصوير مقدار تعجّلهم بالعودة الى قومهم لإنذارهم، وكأنهم يتسابقون مع الزمن نفسه، وقد حملت نفوسهم ومشاعرهم ما لا يمكن السكوت عنه، أو التراخي في إبلاغه والإنذار منه، (إنا سمعنا كتاباً

---

(١) ينظر: ابراهيم انيس: الاصوات اللغوية ١٦.
(٢) الاحقاف ٢٩-٣٠.
(٣) الجن ١-٢.

أنزل من بعد موسى) إذن هم كانوا يعرفون التوراة، وأدركوا الصلة بين التوراة والقرآن بمجرد سماع آيات القرآن الكريم، ومعرفة طبيعتها تنبئ أنها تنبع من أصل واحد.

إنّ هذه الصورة السمعية قطعة موسيقية مطّردة الإيقاع، قوية التنغيم، وهي تنبئ عن هول المفاجأة بهذا القرآن للجن، مفاجأة زلزلت قلوبهم، وهزّت مشاعرهم، تأثراً بهذا القرآن (قرآناً عجباً) أي غير مألوف، وذو سلطان واسع، وذو إيقاع يمس المشاعر ويهز أوتار القلوب، (يهدي إلى الرشد) وهذه الحقيقة التي أحسّ بها النفر من الجن، فالرشد لفظ واسع الدلالة، أي يهدي الى الهدى والحق والصواب، فكانت استجابتهم سريعة (فآمنا به) دون تردد، وكان إيماناً خالصاً (ولن نشرك بربّنا أحدا) وغير مشوب بشرك، أو ملتبس بوهم، أو ممزوج بخرافة.

وفي صورة سمعية أخرى تعبّر عن اعتقاد الناس أنّ بين الله تعالى والجن نسباً وقرابة، لذا فإنّ هؤلاء يعلمون الغيب، وكان بعض الناس يعبدون الشياطين على هذا الأساس، لاتصالهم بالملأ الأعلى، وكان الرد على ذلك صورة تفنّد ذلك الادعاء. قال تعالى:

﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴾[1]وقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴾[2]

نظرة الى السماء تكفي لرؤية هذه الزينة، ولإدراك أن الجمال عنصر مقصود في بناء هذا الكون، وإنّ تناثر الكواكب وهي في أبراجها أو منازلها يشكّل أجمل مشهد تقع عليه العين، ولا يملّ النظر اليه، وكلّ كوكب يتلألأ بضوء يخلب الألباب، ثم نتبيّن أن لهذه الكواكب وظيفة أخرى وهي حفظ السماء من الشياطين، ولا ننسى جمال الصورة في رسم مشهد الأبراج وكواكبها، وشيطان عات متمرّد يصعد بحركات خفية ليسمع ما يدور من حديث بين الملائكة في الملأ الأعلى، فيتلصص هنا وهناك، فإذا تقرّب ومدّ أذنيه وحاول التسمّع انقضّ عليه شهاب قادم من إحدى الكواكب، ويهرب فيلاحقه كأنه قذيفة حسّاسة، أينما يتجه يتجه نحوه، ويلاحقه في هبوطه حتى يصل اليه، ويحرقه قبل أن يصل الى الأرض، ولا سبيل لشيطان في السماء، وهذا من بدائع التصوير الذي يؤشر الى أن هذا الجمال الباهر طاهر مصون عن الرجس والدنس.

ويرسم السمع صورة عن المؤمنين أولي الألباب، فتمس القلوب من التفكّر في خلق السماوات والأرض، لم يخلق هذا باطلاً، إن إدراك الحق عند أصحاب العقول المتفتحة يعني الاستجابة لنداء الإيمان، وتصديق آيات الرحمن، والدعاء بالرحمة والغفران. قال

---

(١) الصافات ٦-١٠.
(٢) الحجر ١٦-١٨.

تعالى: ﴿ رَبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴾(1)

إنّ إدراك هذا النداء يمثل لفتة عجيبة تنبئ عن تداعي المشاعر لدى أصحاب العقول، وتشي بأنّ هناك تقديراً وتدبيراً، وأن هناك حكمة وغاية، وأن هناك حقاً وعدلاً وراء حياة الناس، ولابد إذن من حساب وجزاء على الأعمال، وجنة ونار، وإن الخوف من النار هو خوف من الخزي والعار، لذا كانت قلوبهم مفتوحة لسماع المنادي وهو رسول الله (صلى الله عليه وسلم) الذي يدعوهم الى الإيمان بالله تعالى، فاستجابت تلك العقول بصدق الى تلك الدعوة.

وهؤلاء المؤمنون هم أنفسهم الذين اجتنبوا عبادة الأصنام والأوثان وكلّ معبود دون الله تعالى، وتوجّهوا في عبادتهم اليه وحده، لهم البشرى يوم القيامة بالجزاء الأوفى، وكانوا يستمعون الى الكلام فيتبعون ما فيه من محاسن، ويهملون ما فيه من غث، وهؤلاء هم أصحاب العقول الذين هداهم الله تعالى الى الإيمان. قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾(2)

ترسم الآيتان صورة عن طريق السمع لفريق من المؤمنين (يستمعون القول فيتبعون أحسنه) يلتقطون قول الناس الذي ينشرونه أمامهم كشريط مكتوب، فيحللونه ويدققون في ثناياه، ويتتبعونه لفظاً لفظاً، وينتقون الألفاظ الحسنة التي تنفع، ويهملون الألفاظ الغثة التي لا تنفع، وهي من لغو الكلام، ويدوّنون هذه المحاسن وكأنهم خلية عمل قد خصصت لفرز الأقوال، وأمّا كلام الله تعالى فإنه من محاسن الكلام وبدائعه، فيتبعونه جميعا دون نشر أو فرز، فأنزل الله عليهم الهداية والرشاد، وبشّرهم بالنعيم.

ويقترن مستوى الصوت بمستوى الأخلاق، فارتفاع مستوى الصوت أمام المخاطب دلالة على انخفاض مستوى الأخلاق أو سوء الأدب، وانخفاض مستوى الصوت دلالة على ارتفاع مستوى الأخلاق أو حسن الأدب، وقد التزم المؤمنون بهذه المعادلة في تأدبهم مع ربّهم ومع رسوله (صلى الله عليه وسلم) وما أحد منهم يعطي رأياً دون أن يأذن من رسول الله (صلى الله عليه وسلم) حتى لكأنه يسألهم عن اليوم الذي هم فيه، أو المكان الذي هم عليه، فيتحرّجون من الإجابة الاّ بقولهم (الله ورسوله أعلم) خشية أن يكون في كلامهم ما يخالف كلام رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أما البداة الذين يسكنون البوادي فإنهم أعتادوا رفع الصوت وإن كانوا قريبين من المخاطب، لأن طبيعة البادية المترامية الأطراف تقتضي تلك الزيادة لسماع المتكلم. وكانوا يرفعون أصواتهم عند حديثهم مع النبي (صلى الله عليه

(1) آل عمران ١٩٣.
(2) الزمر ١٧-١٨.

وسلم) دون قصد. قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ۝٢ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ ﴾[١]

هذه الصورة تسلّط الضوء على نبرات الصوت عند المؤمنين في الحديث والخطاب، وتوقير المخاطب ينعكس على تلك النبرات، فإن كان المخاطب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فإن الله تعالى يحذرهم من رفع أصواتهم أمامه خشية إحباط عملهم وهم لا يشعرون بذلك، والذين يغضّون أصواتهم عند النبي (صلى الله عليه وسلم) فقد اختبر قلوبهم وهيّأها لتلقي تلك الهبة هبة التقوى، وكتب لهم معها الأجر والمغفرة.

ويرسم الحوار صورة عجيبة نشهد فيها تدخّل السماء مباشرة في شأن يخص أسرة فقيرة مغمورة، تأتي منها امرأة الى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) تشكو اليه أمراً عظيماً، ويجري التحاور بينهما، فلم تكد السيدة عائشة (رضي الله عنها) تسمع الاّ طرفاً صغيراً من الحديث، وقد سمع الله تعالى حديث المرأة، وهو أقرب ما يكون الى قلب المؤمن. قال تعالى: ﴿ قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوۡجِهَا وَتَشۡتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسۡمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ۝١ ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمۡۖ إِنۡ أُمَّهَٰتُهُمۡ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدۡنَهُمۡۚ وَإِنَّهُمۡ لَيَقُولُونَ مُنكَرٗا مِّنَ ٱلۡقَوۡلِ وَزُورٗاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٞ ﴾[٢]

كان الرجل في الجاهلية حين يغضب من امرأته يقول لها: أنت عليّ كظهر أمي، فتحرم عليه، ولا تطلّق منه، وتبقى هكذا معلقة، لا هي حل فتكون بينهما الصلات الزوجية، ولا هي مطلقة فتجد لها طريقاً آخر، هذا هو العنت الذي يحدث للمرأة في الجاهلية. وتحكي خولة بنت ثعلبة قصتها مع زوجها أوس بن الصامت: ((قالت: كنتُ عنده، وكان شيخاً كبيراً قد ساء خلقه، قالت: فدخل عليّ يوماً فراجعته بشيء فغضب فقال: أنت عليّ كظهر أمي. قالت: ثم خرج فجلس في نادي قومه ساعة، ثم دخل عليّ فإذا هو يريدني عن نفسي. قلت: كلاّ والذي نفس خويلة بيده، لا تخلص اليّ وقد قلت ما قلت حتى يحكم الله ورسوله فينا بحكمه. ثم خرجت الى بعض جاراتي فاستعرتُ منها ثوباً، ثم خرجت حتى جئت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فجلست بين يديه، فذكرتُ له ما لقيت منه، وجعلت أشكو اليه ما ألقى من سوء خلقه. قالت: فجعل رسول الله يقول: يا خويلة أبن عمّك شيخ كبير فاتقي الله فيه. وما أراكِ الاّ قد حرمت عليه))[٣]فاستقبلت السماء تشكو الى الله، وما برحت حتى نزل فيها حكمه تعالى.

---

(١) الحجرات ٢-٣.
(٢) المجادلة ١-٢.
(٣) ينظر: سيد قطب: في ظلال القران جـ ٢٨ ص٤.

ويبرهن القرآن الكريم للكافرين عن طريق السمع بطلان عبادتهم لهذه الآلهة الصم التي لا تسمع الدعاء فكيف تلبي ما يريدون، ولو استطاعت السمع فإنها لا تستطيع الإجابة، وفي الآخرة تتبرّأ جميع المعبودات من دون الله من هذا الشرك. قال تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾(1)

يرسم اللفظ (لا يسمعون) صورة لهذه الأصنام أو الأوثان وهي لا تمتلك أذناً، فلا يدخل صوت الدعاء الى عقلها فتدركه، أو أن هذه الأصنام مصوّرة لها الآذان ولكنها مسدودة فلا يدخل الصوت الى أعماق إدراكها، ولو تأمّل العابدون لها أن جميع حواسها لا تعمل، بل جميع أجزاء جسمها، فهي واقفة لا تتحرك كما صنعوها أول مرّة ولم تزل على حالها، فهم يقدمون لها القرابين والنذور وهي صامتة، ويدفعون عنها الضرر وهي عاجزة، فكيف تلبّي ما يريدون، وتستجيب لما يطلبون، ولو سمعت هذه الآلهة المعبودة كالملائكة والجن، فإنهم لا يستجيبون لما يطلب الكافرون، ويوم القيامة يتبرّؤون من ادّعاءات الكفرة، ومن الشرك الذي كانوا عليه، ويسقط في أيديهم ما كانوا يقومون به لتلك الآلهة الخرقاء، وما ينفع الندم، والله تعالى الخبير بما في نفوسهم يخبرهم بهذا الأمر في الدنيا أي قبل حدوثه في الآخرة فهل يتعظون.

ويصف القرآن الكريم صورة الكافر الكاذب الذي يسمع آيات الله تتلى عليه ولكنه يصرّ على تكذيبها استكباراً وعناداً، ولم يقف عند هذا الحد بل يتخذها هزءاً وسخرية. فاستحق بهذا العذاب الأليم. قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾(2)

هذه الصورة يمكن أن تكون رمزاً لكلّ كافر مارد على الكذب، كثير الاقتراف للإثم الذي لا يفارقه، وآية إفكه وعلامة إثمه أنه يصرّ على الباطل، ويستكبر على الحق، ويتعالى على الخلق، ويمتنع على الخضوع لآيات الله البيّنات، ويرسم السمع بالألفاظ صورة قبيحة لهذا الأفّاك، وهي أن يمد أذنه ليسمع آيات الله فيجدها موافقة للحق، ولكنه يصرّ على أنها غير صحيحة، أو يدّعي عدم سماعها، لأنها لا توافق هواه، ولا تسير على مألوفه، ولا تعينه على الباطل، ولا تقرّه على الشرّ والأذى والخبث، وقد يقوم بفعل شنيع بعد أن يعلمها ويعرف مصدرها السماوي، يستهزئ بما جاء فيها، ويسخر ممن نزلت عليه، ويتعرّض بالكلام الجارح لمن آمن بها، ومن اتخذها أساساً متيناً لإيمانه. ومثل هذا النموذج من الكفار تأتي اليه البشارة تسعى، وهي العذاب بما يوازي فعله في الدنيا من الاستهزاء والسخرية والإهانة، وهو العذاب النفسي الذي يلحق بالعذاب الجسدي.

---

(1) فاطر ١٣-١٤.
(2) الجاثية ٧-٩.

ويصوّب الكفار سهام أقاويلهم نحو النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) بعد عجزهم عن إدراك آيات الله البيّنات، وتأثرهم بكلام الله المعجز، وهم فصحاء العرب، وبلغاء الكلام، فقالوا شاعر ينمّق الكلام، ويملي عليه شيطانه ما يريد، وأنهم سيتابعونه حتى يعرفوا حقيقة أمره. قال تعالى: ﴿ فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ۝٢٩ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ۝٣٠ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴾[١]وقوله تعالى: ﴿ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾[٢]

الخطاب موجّه للرسول (صلى الله عليه وسلم) أن يذكّر هؤلاء الكافرين فلا يثنيه سوء أدبهم معه، وسوء اتهامهم له بقولهم عنه مرّة كاهن ومرّة أخرى مجنون. أو قولهم شاعر والجامع بين هذه الصفات هو ما كان شائعاً عندهم أنّ الكاهن والمجنون والشاعر تأتيهم الشياطين فتملي عليهم، فيقولون أو يعملون على وفق ما يملي عليهم ذلك الشيطان، وهذا يعني أنّ القرآن الكريم المعجز الذي بهتهم وحيّرهم هو إيحاء من الجن أو بمساعدتهم، ومثل هذا التعليل يدل على عدم اعترافهم أن هذا القرآن من عند الله. ويستنكر الله تربصهم على الكفر أو ثباتهم عليه حتى الممات، ويأتي قوله (قل تربّصوا فإني معكم من المتربّصين) وهذا تهديد خفي أي ستعلمون العاقبة، ومن ينتهي به التربص والانتظار.

وقوله (أم لهم سلم يستمعون فيه) الى مصدر التنزيل، فإن مثل هذا التحدّي يجعلنا نتخيّل هؤلاء الكفار وهم يمسكون بسلم، ويحاول أحدهم الصعود عليه ليستمع الى الملائكة ما يقولون، ولكن محاولاتهم باءت بالفشل، وهنا يدعى هذا الذي صعد ليعطي برهانه على صدق دعواه أم كذبه، ولمّا لم يحدث مثل هذا الصعود، فإن هذا تلميح الى أن سلطان القرآن هو الغالب.

ومن الصور السمعية التي تثير الانتباه اليها لعدم استقرارها على وجه واحد هي صورة المنافقين، وحركة المنافقين ظهرت في المدينة المنوّرة بعد هجرة النبي (صلى الله عليه وسلم) اليها ودخول الأوس والخزرج في الإسلام، وانتشر في جميع البيوت عدا اليهود، فاضطر بعض من كره استعلاء الإسلام ورسوله الكريم (صلى الله عليه وسلم) أن يجهروا بالعداوة، فاضطروا الى التظاهر بالإسلام على كره وهم يضمرون الحقد والبغضاء، ويتربصون بالرسول (صلى الله عليه وسلم) وأصحابه الدوائر وعلى رأسهم عبد الله بن أبي سلول، وكانوا يستمعون الى حديث الرسول (صلى الله عليه وسلم) ويوهمون بأنهم مصغون اليه، فإذا خرجوا أدّعوا بأنهم لم يعوا ما قال، ولم يفهموا ما يتحدّث به. قال

---

(١) الطور ٢٩-٣١.
(٢) الطور ٣٨.

تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴾[1]

يرسم اللفظ (يستمع اليك) صورة للمنافقين المنضوين تحت جنح الإسلام والمسلمين، وكانوا يعاملون معاملة المسلمين كما هو منهج الإسلام في التعامل مع الناس، ولكنهم في كلتا الحالتين هم المنافقون كما تدل عليهم صفتهم، يحضرون المسجد ويتظاهرون بأنهم يلقون سمعهم وبالهم للرسول (صلى الله عليه وسلم) وقلوبهم لاهية غافلة، أو مغلقة عن الذكر، وبعد خروجهم توجّهوا نحو أهل المعرفة من الصحابة يسألونهم عما يقوله النبي محمد، وإنّ ما يقوله لا يفهم، أو لا معنى له، وهذا يدل على أنهم في استماعهم له لا يجدون له معنى، ولا يمسكون منه بشيء، وقد يعنون بهذا السؤال السخرية من احتفال العلم من الصحابة بكل ما يقوله النبي (صلى الله عليه وسلم) وحرصهم على استيعاب معانيه وحفظ ألفاظه.

وننتقل بالسمع الى أصحاب الكتاب وهم اليهود والنصارى، وتاريخ اليهود حافل بالكفر والتكذيب والالتواء والقسوة والتمرّد والفسوق. ومثل هذه الصفات التي يتمتع بها اليهود لابد من الحذر لمن يتجاور معهم أو يساكنهم، ولذا كان الخطاب الإلهي موجّه للمسلمين الذين عقدوا معهم المواثيق، وقد نقضت تلك المواثيق، وحلّت محلها دعاوى باطلة، وبوسائل ماكرة، وانغماس في الفتنة والتضليل، ويمضي السياق القرآني في كشف تلك الأباطيل، ومنها تحريف التوراة، وتيئيس المسلمين منهم، وكانوا يطمعون في هدايتهم، وإنارة قلوبهم بالإيمان، فلا رجاء ولا أمل في هدايتهم وقد ختمت تلك القلوب بالقسوة والضلال.قال تعالى: ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾[2]

ترسم اللفظة (يسمعون) صورة لهؤلاء اليهود الذين يتلقون كلمات الله في كتابه التوراة، وكان أحبارهم الذين يحتفظون بتلك الصحف دون عامة اليهود قد أصبحوا موكّلين بها، وقد اقتنع عامتهم أنّ هؤلاء الأحبار هم أكثر حفظاً وصيانة للتوراة، وأنّ التلّقي لا يكون الاّ عن طريقهم، وأنّ السؤال يوجّه اليهم وحدهم، وكلّ ما يقولونه فهو كلام مقدّس لا نقاش فيه، ولكن هل كان هؤلاء الأحبار أمناء على ما جاء فيه؟ الجواب لا بل كانت أقلامهم موجّهة للإجهاز عليه، فكل لفظة أو عبارة لا توافق أهواءهم حذفت ووضع موضعها لفظة أخرى توافق مصالحهم، يدفعهم الى ذلك التحريف الهوى، وتقودهم المصلحة، فانحرفوا عن الحق، وأصبح التوراة مجرّد تأويلات بعيدة تخرجه عن دائرته، وكان التحريف عن عمد وقصد، فانحرفت ذممهم، وازدادوا إصراراً على الباطل وهم يعلمون بطلانه، ولذا فمن الطبيعي أن يعارضوا دعوة الإسلام، ويروغوا عنها بمختلف الأكاذيب، فكيف يطمع

---

(١) محمد ١٦.

(٢) البقرة ٧٥.

المسلمون في إيمانهم وقد خرّبت ذممهم، وخلقت أخلاقهم بالكذب والرياء، واعتادوا المراوغة والنفاق والخداع.

ويستثني القرآن الكريم فئة من اليهود آمنوا بكتابهم التوراة من قبل، وإذا تليت عليهم آيات من القرآن الكريم أيقنوا أنها الحق من الله تعالى، لأنّ قلوبهم كانت مطمئنة الى ذكره، ولإيمانهم بالله تعالى واستجابتهم لدعوة رسوله الكريم (صلى الله عليه وسلم) يؤتهم الله أجرهم مرّتين، وإذا ما حاول المشركون تنفيرهم من الاستجابة وجذبهم الى جانب الشرك، فإن سمعهم لهذا اللغو من سخف الكلام الملقى أمامهم جعلهم يعرضون عنه، لأنهم لا يرضون بمعاشرة السفهاء الطائشين. قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾(1)

يرسم القرآن الكريم صورة لهذه الفئة المثالية من اليهود الذين يبتعدون عمّا يرمى أمامهم من قاذورات الكلام وهو اللغو، ويتجسّد ذلك الكلام المسموع الى أوساخ تلقى على قارعة الطريق، أو تلقى أمام من يريد تلويثه بتلك الأوساخ، ويتدخل العقل في ذلك الموقف، فينفض كلّ واحد منهم ثوبه من الدرن، ويعرض بوجهه عن العابثين، وينبههم الى أنّ لكلّ من الفريقين ما يشغله عن الآخرين من عمل، وقد سلموا من الرد عليهم إزاء ما فعلوا، وإنهم لا يطلبون الجاهلين من أمثالهم.

وهاهي فئة من النصارى يقرر القرآن الكريم أنهم أقرب مودّة للمؤمنين، ويعلل ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً، وهم يعرفون حقيقة دين النصرانية، فلا يستكبرون على الحق حين يتبيّن لهم، وإذا سمعوا ما أنزل الى الرسول (صلى الله عليه وسلم) من آيات الله فاضت أعينهم من الدمع، ولم يقفوا عند هذا الحد بل اتخذوا خطوة صحيحة وهي الإيمان بما جاء من الله، والدعوة لأن يدخلهم مع الصالحين. قال تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾(2)

---

(١) القصص ٥٢-٥٥.
(٢) الانعام ٨٢-٨٤.

في هذه الصورة يلعب السمع دوراً كبيراً في تغيير ملامحها، ويصوّر لنا فئة تشعرنا أنها أقرب مودّة للمؤمنين، وأبعد عن اليهود الذين كانوا أشدّ عداوة لهم، وكان من هذه الفئة القسيسون الذين كانوا مطلعين على دين النصرانية الصحيح، ومنهم رهبان يتعبدون الله في الصوامع البعيدة عن الناس، ولذا لا نجد فيهم إحساساً بالكبر والتعالي على الناس، وإذا ما سمعوا القرآن الكريم اهتزّت مشاعرهم، ولانت قلوبهم، وفاضت أعينهم بالدمع، تعبيراً عن تأثرهم العميق بما سمعوه، وما إن تهدأ أنفسهم بعد إطلاق العنان لتأثرهم الحبيس في صدورهم، نراهم لا يكتفون بهذا التعبير النفسي، ولا يقفون موقفاً سلبياً من الحق الذي تأثروا به بعد سماعهم له، بل يتقدمون نحو الرسول (صلى الله عليه وسلم) ليتخذوا موقفاً ايجابياً صريحاً، وهو موقف القبول والإيمان به، والإذعان لإرادته، وإعلانه بلهجة صريحة واضحة، ثم يدعون ربّهم أن يضمهم الى قائمة الشاهدين على هذا الحق، وأن يسلكهم في الأمة المسلمة التي تؤدي الشهادة بلسانها وعملها.

ويبدأ الإعلان عن يوم القيامة بالصوت أي بالصُور (البوق)، وهي النفخة الثانية، نفخة الحق الذي وعد الله بها، فيخرج الأموات من باطن الأرض للحساب. قال تعالى: ﴿ وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴾(١)

تعرض أمامنا صورة غيبية لليوم الذي وعد الله الخلق جميعاً وهو يوم القيامة، وقد كذّب به الكفّار وأنكروه، وعجبوا كيف لعظام نخرة تعاد الى الحياة مرّة أخرى، وهذا أمر بعيد، فيأتي الخطاب في الدعوة لسماع المنادي وهو إسرافيل (عليه السلام) لينادي الخلق بالنفخ بالصور من مكان قريب لكل فرد من الأفراد، ولقوة النفخ فإن صوته يسمعه الداني والقاصي، وكأن صوته قريب جدّاً، يسمعون هذا الصوت وكأنه يسري في تلك العظام البالية، أو يسري في تلك الأجساد لتنهض من رقدتها، وكأنها نبتة سقيت بماء الحياة، وينزاح عنها التراب لتخرج الى النور، إنها صورة آلية تبدو في صورة هذه الجموع وهي تنهض نهضة واحدة من رقدتها، ويتطاير التراب من حولها لتخرج من بطن الأرض كما خرجت من بطون الأمهات حفاة عراة، هذا هو اليوم الذي أنكره الكفار قد تحقق رغماً عنهم.

وهاهم الخلق يجيبون الداعي وهو إسرافيل حين دعاهم بالنفخ في الصور للقيام والاستعداد للحساب، واجتمع الناس أمام عرش الرحمن وقد خفّت أصواتهم، ولا يسمع منها الاّ همساً خفيفاً وتحددت الشفاعة فلا تنفع بينهم الاّ بعد موافقة الرحمن ورضاه عن ذلك التشفع. قال تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُۥ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوْلًا ﴾(٢)

---

(١) ق ٤١-٤٢.
(٢) طه ١٠٨-١٠٩.

ويتجلى المشهد الرهيب بعد أن نسفت الجبال وأصبحت قاعاً مستوياً، وسوّيت الأرض تماماً، ونفخ في الصور الداعي (إسرافيل) للقيام من الأجداث، فلم يتأخر أحد منهم أو ينحرف أحد عن دعوته أو يراوغ عنها، بل كلهم يسرع اليه دون إبطاء أو تأخير، يخرجون الى الأرض المستوية، وتنصت الجموع المحشورة، وتخفت الأصوات الاّ همسات وهمهمات، ولعل هذه الهمسات تتضمن أسئلة كثيرة لا إجابة عنها، لأن الأجوبة لا يعلمها الاّ الله تعالى، ويستمعون الى الداعي ويتبعون توجيهه كالقطيع صامتين مستسلمين، لا يلتفتون ولا يتخلفون، وكانوا من قبل حين يدعوهم الداعي وهو رسول الله (صلى الله عليه وسلم) الى الهدى لا يلتفتون اليه، ولكنهم الآن يعبّرون عن استسلامهم، ثم يخيّم الصمت الرهيب في الموقف كله، وتغمر الواقفين رهبة شديدة، فالكلام همس، والسؤال تخافت، والخشوع تام، والوجوه كالحة، والله الحي القيّوم بغمر الموقف بالنور والجلال، ولا شفاعة لمخلوق الاّ بعد قبول الرحمن وأذنه ورضاه عن قوله، والعلم عند الله تعالى.

وبعد الحساب هاهم الذين كذّبوا باليوم الآخر يتوجّهون نحو النار، وإذا رأتهم من بعيد أخذت بالتغيّض والزفير، وإذا ألقوا فيها وهم مقيّدون بالأصفاد أخذوا بالصراخ والثبور والعويل، وما ينتظرهم من ثبور فيها أكثر وأعظم. قال تعالى: ﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٦﴾ إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۖ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴾[2]

نحن إزاء مشاهد تقوم على الصوت في رسم المواقف المتغيّرة، زمرة من الكفرة الذين أنكروا اليوم الآخر وقيام الساعة والبعث والحساب، وانطلقت ألسنتهم بتكذيبه، وإذا بهم يرونه رأي العين، ونجد هنا التجسيد يخلع الحياة بالتصوير والصوت المسموع لهذه المشاهد، فها هي النار تنتظر هذه الزمرة، وقد دبّت فيها الحياة، وحين تراهم من بعيد فإذا هي تتغيّظ وتزفر كما يزأر الأسد الهصور الذي يريد الوثوب عليهم، وهي تتحرّق وتصعّد زفراتها غيظاً منهم، وهم يتقدّمون نحوها، إنه مشهد رهيب يزلزل الأقدام، ويفلت القلوب من الصدور، وحين وصلوا اليها وهم مقيّدون بالسلاسل بأيديهم وأرجلهم، ألقوا فيها من مكان ضيّق يزيدهم كربة وضيقاً، ويعجزهم عن التفلّت والتململ، وحين أحسّوا باليأس من الخلاص أخذوا بالعويل، والدعاء بالهلاك لينقذهم من الإحساس بالألم، وهو أمنية للخلاص في هذا الموقف، وجاءهم الجواب ساخراً منهم لا تدعوا هلاكاً واحداً بل ادعوا هلاكاً كثيراً

---

(١) الفرقان ١١-١٤.

(٢) الملك ٦-٩.

مستمرّاً لأنّ العذاب دائم. وفي مشهد آخر يسأل خزنة النار كلّ فوج قبل أن يلقون في النار للتأنيب وهو مشاركة لجهنم في غيظها وحنقها عليهم، كما هو مشاركة في العذاب النفسي، والجواب يأتي في ذلّة وانكسار، واعتراف بالغفلة بعد الإنكار واتهام الرسل بالضلال، وكان اعترافهم بالذنب دليل على استحقاق عقوبتهم في النار.

ويستمر العرض فإذا نحن أمام مشهد يقوم على الحوار الذي يؤدي الى الإقرار بالمصير الذي انتهى اليه المؤمنون والكفار، لأن ما وعد الله به قد تحقق للطرفين، وهذا الإقرار قد جرى في الحوار بين أصحاب الجنة والنار. قال تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[(١)]

لقد اطمأنّ أصحاب الجنة الى مقامهم، وأيقن أصحاب النار من ثبات مصيرهم، وإذا بأصحاب الجنة وهم في النعيم يخبرون أصحاب النار أنّ ما وعدهم الله به قد تحقق فعلاً، ويسألونهم هل وجدوا ما وعدهم الله حقّاً أيضاً، فأجابوا بالإيجاب، أي أن وعد الله قد تحقق للطرفين، وفي هذا السؤال سخرية مرّة، لأن المؤمنين على ثقة تامة من تحقق وعد الله لهم ووعيده لأصحاب النار، فجاء الخطاب بصوت عال (أن لعنة الله على الظالمين) وهم الكافرون الذين ظلموا أنفسهم باختيارهم الكفر لها، وهم أوصلوها الى الجحيم.

٣- الصورة الذوقية:

وهي الصورة التي تعتمد على حاسة الذوق في تكوينها الفني، وتعتمد على إثارة خيال المتلقي، وتجعله يتذوّق اللفظ مثلما يتذوّق الطعام والشراب، ويحس بحلاوته أو مرارته، وبحرارته أو برودته، ويعطي حكماً من خلال تجربته الذوقية، والإحساس بالجمال والتعبير عنه لا يكون عن طريق البصر فحسب وإنما يكون أيضاً عن طريق الحواس الأخرى، كالسمع والشم واللمس والذوق.

وقد وجدنا حاسة الذوق في تشكيل الصور الحسية في القرآن الكريم تتحدد في جانبين، الأول: الحياة الدنيا وقد عبّر عنها بالذوق الأنبياء والمؤمنون والكافرون. والجانب الثاني: الحياة الآخرة وقد عبّر عنها بالذوق أصحاب الجنة وأصحاب النار، وقد بيّنوا عن طريق تلك الحاسة الذوقية الإحساس بالنشوة في النفس أو المرارة في الحلق.

وتوضع حاسة الذوق في موضع اختبار آدم (عليه السلام) ومعرفة مقدار إرادته في الامتناع عن التقرّب من شجرة في الجنة، أو تذوّق ثمرها والأكل منه. وآدم مخلوق على الفطرة البشرية، فنسي ذلك العهد وأقدم وزوجه حواء على المحظور بعد أن وسوس اليهما الشيطان فأكلا منها، وبدت سوآتهما فأخذا يسترانها بورق الجنة. قال تعالى: ﴿وَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ

---

(١) الاعراف ٤٤.

ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ وَكُلَا مِنۡهَا رَغَدًا حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[1]وقوله تعالى: ﴿ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ فَكُلَا مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسۡوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ لِيُبۡدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنۡهُمَا مِن سَوۡءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنۡ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيۡنِ أَوۡ تَكُونَا مِنَ ٱلۡخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٖۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴾[2]وقوله تعالى: ﴿ فَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوّٞ لَّكَ وَلِزَوۡجِكَ فَلَا يُخۡرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلۡجَنَّةِ فَتَشۡقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعۡرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظۡمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضۡحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسۡوَسَ إِلَيۡهِ ٱلشَّيۡطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ وَمُلۡكٖ لَّا يَبۡلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنۡهَا فَبَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴾[3]

تمثّل الشجرة التي منع آدم (عليه السلام) من التقرّب منها، أو تذوّق ثمارها، أو الأكل منها رمزاً للمحظور، وها هي الجنة تصوّر لنا بأشجارها وثمارها وروائح أزهارها، والنعيم الذي يجده آدم وحوّاء فيها ليس له مثيل، فقد أبيحت لهما جميع ثمار الأشجار الاّ هذه الشجرة التي لم يحدد القرآن الكريم جنسها، لأنّ الغاية ليست في معرفة جنسها بقدر الغاية من منع تناول ثمارها، إنّ هذه الشجرة تمثل الممنوع الذي لابد منه لتربية الإرادة، وتقوية الشخصية، والتحرر من رغبات النفس وشهواتها، بل تمثل الحرام وغيرها يمثل الحلال، ولتكون المقياس الذي يقاس به الرقي البشري، وكلّما ضعفت النفس أمام الرغبات تهاوت وكانت أقرب الى البهيمية.

وكان من رعاية الله وعنايته بهذا المخلوق آدم (عليه السلام) وزوجه أن ينبههما الى عدوّهما وهو الشيطان الرجيم، ويحذرهما من غدره (فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى) فالشقاء الكد والعمل والقلق والحيرة والألم والفقد، وهي بمجموعها تمثل متاعب الإنسان خارج الجنة، وفي رحاب الجنة (أن لا تجوع فيها ولا تعرى وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى) أي تنتفي متاعبه في الحصول على الطعام والكساء والشراب والظل، وكان آدم (عليه السلام) خالياً من التجارب في هذا المجال، ويحمل الضعف البشري تجاه الرغبة في الخلود والرغبة في السلطة، ومن هاتين الثغرتين دخل اليه الشيطان (فوسوس اليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخُلد ومُلك لا يبلى) فلمّا ذاقا ثمر الشجرة وأكلا منها (بدت سوءاتهما) والظاهر أن تلك العورات كانت مستورة، ومن هنا بدأ الشقاء، كيف يكسي

---

(١) البقرة ٣٥.
(٢) الاعراف ١٩-٢٢.
(٣) طه ١١٧-١٢١.

جسمه وعورته، فأخذا يسترانها بورق الجنة، فيشبك تلك الأوراق مع بعضها، وكان ذلك إيذاناً باستيقاظ الدوافع الجنسية لديهما، وربما كان ثمار هذه الشجرة مما يوقظ تلك الدوافع، ومنعها أو تأجيلها دفعاً للكدّ والشقاء في تلك الجنة التي ينعم بها آدم (عليه السلام) بالرغد والراحة والاستقرار، ومما يقال إنّ هذه الدوافع الجنسية ما هي الاّ وسيلة لتحقيق رغبة الخلود والامتداد في النسل جيلاً بعد جيل.

ويتحوّل الطعام الى علامة للاستئناس وإزالة الخوف والرهبة، والى مادة لعقد أواصر الصحبة والمودّة بين المضيّف والضيف، وما زال هذا الأمر باقياً حتى يومنا هذا، فإن من يدخل داراً ويأكل منها فإنّ أهلها في أمان من ذلك القادم لأنه أكل منهم أو شاركهم الطعام. وهذا ما حدث للنبي إبراهيم (عليه السلام) وضيفه من الملائكة ليبشروه بغلام، فقدّم اليهم طعاماً فلم يمدّوا أيديهم اليه، فأوجس من ذلك الفعل خوفاً، قال تعالى: ﴿ هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَقَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۖ قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ ﴾[1]وقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجۡلٍ حَنِيذٖ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيۡدِيَهُمۡ لَا تَصِلُ إِلَيۡهِ نَكِرَهُمۡ وَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۚ قَالُواْ لَا تَخَفۡ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمِ لُوطٖ ﴾[2]

ترتكز هذه الصورة الذوقية على محور تدور حوله وهو الطعام، فيؤسس لها تفصيلات مثيرة، ولنا أن نتصوّر أضيافاً قدموا على إبراهيم (عليه السلام) وكانوا ثلاثة في غاية الجمال والرفعة والهيبة، ولا نعلم أنهم من الملائكة إلاّ من القرآن الكريم، ولم يعلم إبراهيم بهم على تلك الصفة، فعاملهم معاملة الضيف وهي أن يردّ عليهم السلام، ويرحّب بهم، ويدخلهم الى داره (فراغ إلى أهله) أي دخل الى زوجته خفية عنهم، وطلب منها أن تهيّئ لهم الطعام، ومثل هذه السرعة في الإكرام تقطع على الضيف الاعتذار وعدم التكلف، لأنه يُفاجأ بالطعام أمامه، وقد فوجئ ضيوفه بعجل سمين مشوي على النار، وكان الضيف ثلاثة أفراد وربما يكفيهم الكتف من العجل السمين، ولكن خصلة الكرم متأصلة في نفسه، و (قرّبه إليهم) ولم ير أيديهم تمدّ اليه، ولم يجد فيهم همّة متقدمة أو متأخرة للتقدّم نحو الطعام لتناوله، وذلك لأن الملائكة ليس فيهم غريزة الحاجة الى الطعام، فنكرهم (وأوجس منهم خيفة) وذلك لأن الذي لا يأكل الطعام ينبئ عن نيّة شر وغدر، أو إنه لمح فيهم شيئاً غريباً يختلف عن سائر البشر، وعندئذ كشفوا له عن حقيقتهم، وطمأنوه بقولهم (لا تخف) وبشروه بغلام وهو إسحاق (عليه السلام).

---

(١) الذاريات ٢٥-٢٨.

(٢) هود ٦٩-٧٠.

وهاهم اليهود قوم موسى (عليه السلام) يظهرون تعنّتهم مثلما كان يفعل آباؤهم من قبل، فيطلبون الخوارق، منها رؤية الله تعالى جهرة، فأخذتهم الصاعقة ثم بعثهم من جديد، وراحوا يطلبون وتنهال عليهم النعم كثيرة، ولكن قلوبهم تبقى قاسية لا تؤمن الاّ بالمحسوس، وتماحل ولا تستجيب، ووقاهم الله حرّ الهجير في صحراء التيه، وظلل عليهم الغمام من حرّ الشمس، وأنزل عليهم من أطايب الأطعمة وهما المن والسلوى. قال تعالى: ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾[1]

هذه صورة غير متكافئة، جماعات تائهة في الصحراء المحرقة تبدو في أمس الحاجة الى الظل والماء والطعام، وفي مثل هذه الأجواء لا تتوافر مثل هذه النعم، وإن توافرت فلابد أن يقابلها الشكر والثناء لمن يقدمها، ولكن هذه الجماعات بدت جاحدة لئيمة فقد يسّر الله تعالى لهم الغمام يظللهم أينما ساروا، وكأن السحب مأمورة أن تشكل ما يشبه السقف المتحرّك ليمنع وصول أشعة الشمس الى رؤوسهم، فيتحول ذلك الجو الحار الى جو ندي تصح فيها الأجسام والأرواح، وها هو الطعام ينزل اليهم كما تذكر الروايات، فإن المن يجدونه حلواً كالعسل على الأشجار، وهاهو طائر السلوى (السماني) يجدونه قريباً منهم، فيصطادونه فيأكلون طعاماً طيباً، وهاهو الشراب ينبع من بين ثنايا الحجر، وإزاء هذه النعم الوفيرة ماذا قدّم اليهود لله المنعم أتراهم شكروه واهتدوا؟ الجواب: لا بل جحدوا تلك النعم، ولم يظلموا المنعم بل أنفسهم يظلمون.

ويتحوّل الماء الى مادة لاختبار صدق إرادة اليهود في القتال بعد التيه في الصحراء، ومن قبل كانت الشجرة موضع اختبار إرادة آدم (عليه السلام) فقد أظهر اليهود استعدادهم للقتال ودخول الأرض المقدّسة، فاختار منهم طالوت ملكاً، ولكن الحماسة قد تخدع القادة لو أعتدوا بمظهرها دون وضعها قيد التجربة قبل الخوض في معركة حاسمة، وقد عرف بنو إسرائيل بكثرة التراجع والنكوص، وعند فرض الأمر الواقع يتراجعون، فكان الاختبار قبل الحرب هو الامتناع عن شرب الماء من نهر يمرّون به، واستثنى من اغترف منه غرفة واحدة بيده. قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾[2]

(١) البقرة ٥٧.
(٢) البقرة ٢٤٩.

في هذا المشهد الرهيب يبدو فيه الألوف من بني إسرائيل وهي تعد العدّة للقتال، ودخول الأرض المقدّسة بعد التيه في الصحراء، وقد يبدو الحماس عليهم ظاهراً ولكنه لم يتغلغل الى أعماق نفوسهم، وأراد نبيهم أن يستوثق صدق عزيمتهم وثبات نيتهم، وهم في سعة من أمرهم، ولكن إذا تقرر القتال فإنه يكون فرضاً لا سبيل الى التراجع بعده، وهنا يتجلى لنا مصداق حكمة الله في اصطفاء القائد، إنه مقدم على معركة ومعه جيش عرف الهزيمة والذل في تاريخه مرّة بعد مرّة، فلابد من قوة كامنة في ضمير الجيش تقف أمام القوة الظاهرة، وهذه القوة الكامنة لا تكون الاّ في الإرادة، الإرادة التي تضبط الشهوات والنزوات، وتصمد أمام الحرمان والمشقات، وتستعلي على الضرورة والحاجات، وتؤثر الطاعة، فهم عطاشى وأمامهم ماء رقراق يجري ليعلم من يصبر ممن ينقلب على عقبيه، فإذا بهم ينحنون على النهر ويشربون منه متجاوزين الارتواء، الاّ قليل منهم امتنع أو اغترف غرفة بيده تبدد الظمأ، ولا تفي في إشباع الرغبة، فتغلغل الى نفوسهم التخاذل والارتخاء، والنكوص والاستسلام، وذهب ذلك العزم والحماس، بعد تلك التجربة الرائدة في معرفة القدرة على الظمأ والعناء.

ويتجه التصوير الذوقي الى تحديد ما هو مقبول أو مباح من طيّبات نعم الله تعالى، وما هو محظور من تناوله، ويترك للمخاطب أن يتصوّر الأسباب المؤدية الى ذلك الترخيص أو التحريم. قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[1]

إنّ الدعوة الى تناول أطايب الطعام يجعلنا نتحقق بحواسنا سواء البصرية والذوقية لمعرفة الطيّب من الطعام، ومن المستبعد أن يختار الإنسان من الطعام ما فسد وفاحت رائحته النتنة، وتحوّل طعمه المرارة والعفونة، ويعلم أنّ تناوله يؤدي به الى التسمم والمرض، والله المنعم يريد ما هو خير لمن يطعم من نعمه، ويشكر لله الذي أفاض عليه منها، ولذا يأتي النهي صريحاً عن تناول بعض الأطعمة، بحيث أدخلت في دائرة التحريم، وإنّ تناولها يعني معصية الله.

ومن المحرّمات الميتة من الحيوان، وتأباها النفس لأنها تفسّخت وتحوّلت الى جيفة نتنة، وقد جمد الدم في شرايينها، وهو أسرع ما يؤول الى الفساد والتفسّخ، وكذلك الدم- فضلاً عما أثبته الطب- من تجمّع الجراثيم والمواد الضارة في الدم، ومن الناحية النفسية يؤدي الى الكراهية، وأما الخنزير فهو منفّر في شكله وطبعه حيث يترعرع في أماكن القذارة والجيفة، وقد كشف الطب عن وجود بعض الديدان في لحمه وأمعائه ودمه، ومن ذلك الدودة الشريطية، وإن احتجّ بعض القائلين إنّ وسائل الطب قد تستطيع القضاء عليها، وإن استخدام الحرارة في طبخه قد تنهي وجودها. ونحن نقول وما أدرانا من وجود ديدان

---

(١) البقرة ١٧٢-١٧٣.

أخرى تقاوم الحرارة، وقد نص القرآن الكريم على تحريمه والله أعلم منا بذلك. وأما التوجّه به لغير الله فهو محرّم لا لعلّة فيه ولكنه ملحق بالنجاسة والقذارة الحقيقية، لأنّ نية التوجّه ينبغي أن تكون خالصة لله تعالى وحده، وهناك بعض الضرورات الملجئة تبيح المحظورات في حدود معينة.

وتتعرّض الصورة الذوقية الى مصادر الطعام وهي الحبوب والنخيل والأعناب والثمار، ومثل هذه المصادر يمكن تكاثرها وحصرها في الأرض. قال تعالى: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾[1]

إنّ هذه الصورة الزاهية لهذه الأرض التي تتشكّل عليها سنابل القمح والشعير والذرة، وأشجار الفواكه المثمرة، والنخيل والأعناب تفتح الشهية لتذوّقها وتناول أطايبها، والتلذذ بطعومها إنما يدل على إن ما غرسته أيدي الإنسان ليس كافياً، وإنما يد الله تعالى هي التي تجري المعجزات في بث روح الحياة في تلك الأرض الميتة، وشق التربة عن النبتة النامية، وتفرّع الأغصان، وتفتّح الأزهار، وتدلّي الثمار.

والمصدر الحيواني للطعام وهي الأنعام كالإبل والبقر والضأن والماعز، فهذه المخلوقات المسخّرة لخدمة الإنسان بقدرة الله وتدبيره، إذ يستسقي منها اللبن وما فيه من مشتقات كثيرة، ومنافع أخرى من لحومها وجلودها وشعرها، وهي- فضلاً عن تناول لحومها- تحمل الإنسان ومتاعه من مكان الى مكان. قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴾[2]وقوله تعالى: ﴿ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴾[3]

وتتعدد مناحي هذه الصورة والأكل والشرب أحد أركانها، فهذه الأنعام ابتداء كان خلقها آية خارقة كخلق الإنسان، فقد بثّ فيها الحياة ليس عبثاً، وكذلك تذليلها وتسخيرها تحت خدمة الإنسان ليس هيناً، وفيها ما هو أضخم منه جسماً وأشد قوة، ألا يستحق ذلك الاحترام، وتقدير يد الخالق المسخّر لها، فلا يحلّ للإنسان أن يعذّبها، وأن يمثّل بها، لأنها خلقت لتحقيق فائدة ضرورية في نظام الحياة، فأمّا التعذيب والتمثيل فهما من قسوة القلب وفساد الفطرة، وليس وراء ذلك من فائدة مرجوّة، وأمّا العبرة في السقي باللبن من بطونها فإنه ينتج من بين الفرث والدم فيكون لبناً خالصاً طيب المذاق. تدرّه ضروع الأنعام، فكيف تكوّن هذا الشراب طيّب المذاق، فهو مستخلص من بين الفرث وهو ما تبقى من طعام في الكرش بعد الهضم، وامتصاص الأمعاء لعصارته التي تتحوّل الى دم، وهذا الدم يذهب الى

---

(١) يس ٣٣-٣٥.
(٢) غافر ٧٩-٨٠.
(٣) النحل ٦٦.

خلايا الجسم، ومنها غدد اللبن في الضرع فيتحوّل الى لبن ببديع صنع الله العجيب، ولو تأتي لأي مصنع ليحوّل الدم الى لبن فإنه لا يقدر على ذلك أبداً، ولا يسع الإنسان الاّ أن يقف مبهوراً أمام ذلك الصنع البديع.

والمصدر الآخر للطعام وهو الماء حيث تعيش الأسماك والحيوانات المائية الأخرى، فيبيّن الله تعالى أنّ هذا الماء مختلف، ماء النهر عذب فرات شرابه، طيّب المذاق، خفيف المرور في الحلق، يروي العطش، وماء البحر شديد الملوحة، وطعمه مرّ، لا يستسيغه الشارب، وفي كلا النوعين من الماء تعيش الأسماك التي نأكلها لحماً طرياً لذيذاً، ونستخرج من ماء البحر اللؤلؤ والمرجان حلية للمرأة، وتمخر في ماء النهر والبحر السفن والبواخر.

قال تعالى: ﴿ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[1]

نقف أمام لوحة فنية لا تعتمد على حاسة البصر وحده بل حاسة الذوق، رسم عليها صورة نهر رقراق يجري على الحصباء، فيرى فيه أنواع من الأسماك وغيرها، ويصب هذا النهر في بحر واسع لا نهاية له، ومن بين حين وآخر تطفو على سطحه بعض الأسماك والحيتان، وتمخر فيه أنواع من البواخر التي تشق الماء شقاً، ورؤية الصورة بالعين وحدها لا تكفي ولابد من تذوّقها، هذا ماء النهر عذب رائق الطعم، خفيف في تناوله، والأسماك فيه صغيرة قشرتها خفيفة ،ولحمها طري ومذاقه طيب، وهذا ماء البحر مالح جداً، وطعمه مرّ لا يمكن بعد تذوّقه الشرب منه، والأسماك فيه كبيرة وصغيرة، وقشرتها سميكة تتحمّل ملوحته، ولها طعم ومذاق يختلف عن أسماك النهر، والماء ليس مصدراً لتلبية حاجة الإنسان لشربه بل مصدراً لتلبية الحاجة الجمالية، فاستخراج اللؤلؤ من قواقع رخوية تفرز إفرازاً خاصاً حين تدخل اليها حبّة رمل، فتحيط بهذا الجسم الغريب، ويتصلب ذلك الإفراز ويتحوّل الى لؤلؤة.ويستخرج المرجان من نبات يعيش في شعب مرجانية، ويتكاثر في بعض السواحل البحرية، ويقطع ويصقل ويتخذ زينة، وهكذا يفترق البحران ويلتقيان في تسخيرهما لنقل الإنسان ومتاعه في السفن والبواخر التي تمخر فيهما. وإنّ هذا التنسيق الدقيق لا يأتي مصادفة بل هو من تدبير القدير.

ومن مصادر الغذاء ما يجيء عن طريق الحشرات، فهذه النحلة تعمل بإلهام من الله تعالى دون توجيه بشري، إلهام من الفطرة التي أودعها الله إياها يتجلى في طريقة بناء بيوتها، وفي تقسيم العمل بينها، وفي طريقة إفراز العسل، وتتخذ بيوتها في الجبال بعيداً عن الناس والزواحف والحشرات المؤذية، وما إن تتغذى على رحيق الأزهار الذي تتخذ طرقاً عدّة للوصول اليه، وبعد ذلك يخرج من بطونها شراب العسل، مختلف الألوان، طيب الطعم والرائحة، وفيه شفاء للناس من بعض الأمراض. قال تعالى: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ

---

(١) فاطر ١٢.

ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[1]

في هذه الصورة نجد هذه الحشرة الصغيرة تقوم بأعمال لا يقدر على القيام بها إنسان أقوى وأكبر منها، تتحرّك بفطرة إلهية أودعها إياها، وهي تتحرّى الأماكن النائية الآمنة بعيداً عن عبث العابثين، لتبني خليتها بين صخور الجبال، أو في أعالي الأشجار قريباً من الأزهار، أو مما يعرش لها الإنسان لبناء خليّتها، وقد ذلل الله لها سبل الحياة بما أودع في فطرتها، ويدهشنا هذا الرحيق الذي تمتصّه فيتحوّل في بطنها الى شراب العسل الذي فيه شفاء للناس، ولو أننا أتينا بجهاز ووضعنا فيه رحيق الأزهار وحرّكناه فإنه لا يمكن أن يعطينا عسلاً، ولا حتى أي شراب يشبه العسل، فسبحان الله الخلاّق الذي أخبرنا بفوائده وفاعليته في الشفاء، وقد وصل الطب بعد ذلك الى هذه الحقيقة الثابتة في القرآن الكريم.

وينقلنا التصوير الحسي عن طريق الذوق الى نعيم الجنة، تلك الجنة التي وعدها الله للمتقين الذين يخافون الله في كلّ أمر وفي كلّ حال. قال تعالى: ﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِي ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴾[2]

تتوزّع مصادر الشراب على جميع أجزاء الصورة، وتصف الشراب الذي يتناوله الأبرار وصفاً مفصّلاً، فهو يجري في أربعة أنهار مختلفة، أنهار من ماء عذب، وأنهار من لبن لم يتغيّر طعمه، وأنهار من عسل صاف، وأنهار من خمر الجنة يتلذذ به الشاربون، وحتى تكتمل هذه الصورة فقد وضعت أمام هذه الأنهار أشجار فيها ثمار متنوّعة يأكل منها الشارب حسبما يشتهي، ويتقدّم كلّ ذلك نكهة حسن الخاتمة وهي مغفرة من الله تعالى تكفل لهم النجاة من النار والتمتع بملذات الجنة. ويقابل هذه الصورة الشراب الذي يتناوله أصحاب النار بعد العطش ماء العرق وصديد الجلود المحروقة، يغرفون بأيديهم ويشربونه من شدّة عطشهم فيقطع أمعاءهم، وشتّان ما بين الصورتين.

وفي صورة أخرى تجوس خلال جزئيات الوصف الحسي لذلك الشراب الذي يتناوله الأبرار، وهم على الأسرّة ينظرون الى جماليات المنظر في الجنة، وتفيض على وجوههم نضارة النعيم حتى ليراها كلّ راء، ويقدّم لهم شراب تفوح رائحة المسك منه. قال تعالى: ﴿

(١) النحل ٦٧-٦٨.
(٢) محمد ١٥.

﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾[1]

هذه الصورة لا يدركها البشر الاّ في حدود ما عهدوه في الأرض، فإذا كانوا في تلك الجنة كانت لهم أذواق تتناسب وطعم تلك المشارب، فهؤلاء الأبرار من المؤمنين في موضع التكريم على الأسرة ينظرون حيث يشاؤون في مسارح الجنة، تفيض وجوههم بالغضارة والترف، ويقدّم لهم الشراب الخالص المصفّى الذي ليس فيه كدرة، ووصفه بأنه مختوم، دلالة على قدمه وصيانته، ولم يمسّه أحد غير الأبرار، وحين يفض ختامه يمزج بشراب آخر من عين تدعى تسنيم لا يشرب منها سوى المقرّبون الى الله تعالى، وهي خاصة بهم لطعمها الذي يتلذذون به.

وهاهم الأبرار كما يعرّفهم الله تعالى بعباد الله الذين يوفون بنذرهم، ويخافون ربّهم، ويكرمون فقيرهم، يشربون في الجنة بكأس من الخمر ممزوجة بالكافور، من عين تتفجّر بذلك الشراب وتفور فوراناً. قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴾[2]

هذه الصورة التي تقوم على الشرب، وهو شراب الأبرار الذي يختلف عن شراب الدنيا، وهو في الجنة ممزوج بالكافور، يشربونه في كأس تغترف من عين تفور كثرة ووفرة، وكان العرب يمزجون كؤوس الخمر بالكافور حيناً والزنجبيل حيناً آخر زيادة في التلذذ بها، فأمّا هذا الشراب فإنه أحلى من شراب الدنيا، وإنّ لذة الشعور به تتضاعف وتزداد، ونحن لا نملك في الدنيا أن نحدد مستوى هذا الشراب، أو لذة التمتع به، والله أعلم بذلك.

وفي صورة أخرى لطعام وشراب عباد الله المخلصين في الجنة، وهي تتحرّى الأمور الصغيرة في ذلك الوصف. قال تعالى: ﴿ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ ۖ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴾[3]

اختار الله عباداً اصطفاهم وأخلصهم لطاعته في الدنيا، وفي الآخرة نراهم يتنعمون برزق خاص أعدّه الله لهم في الجنة من أطايب الطعام وألذ الثمار، وسرر متقابلة مع الأحباب والأصحاب يتسامرون بالأحاديث، وتقدّم اليهم كؤوس خمر من شراب نابع من عيون تجري على وجه الأرض كأنها الأنهار، بيضاء صافية لذيذة حتى صارت كأنها اللذة

---

(١) المطففين ٢٢-٢٨.
(٢) الانسان ٥-٦.
(٣) الصافات ٤٠-٤٧.

بذاتها، هذه الخمرة لا تغتال عقولهم، ولا تذهب بها كما تذهب بعقول أهل الدنيا وتضرّهم، ولا هم بسببها تستنزف عقولهم، وتنتزع وعيهم، أي يسكرون بسبب الكثرة من شربها، ولا نستطيع أن نبيّن مقدار تلك اللذة والإحساس بالنشوة التي تفوق أحاسيس أهل الدنيا والله أعلم.

وينقلنا التصوير الذوقي الى العذاب الحسّي في جهنم، للكفّار الطغاة الذين يلبثون فيها حقباً من السنين، لا يذوقون فيها البرد، ولا الشراب الاّ الماء شديد الحرارة، وصديد الجلود المحترقة. قال تعالى: ﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّاغِينَ مَآبًا ﴿٢٢﴾ لَّابِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴾[1]وقوله تعالى: ﴿ هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴾[2]

هذه جهنم كأنما خلقت تترصّد الكفار الطغاة وتنتظرهم وتترقّب قدومهم، وتتهيّأ لاستقبالهم، وكأنهم كانوا في رحلة عنها الى الأرض، وإنهم سيعودون اليها، فهي مأواهم، وقد حجزوا فيها لأحقاب طويلة، وهل هذه المحبّة متبادلة بينها وبينهم، فماذا قدّمت لضيوفها الدائمين، كانت تقدّم لهم شرّ الطعام وأسوأ الشراب، فليس هناك ماء يبرّد أجسادهم، ولا شراب يطفئ ظمأهم، سوى الماء الحار الذي يشوي الأفواه والبطون، وصديد من أجساد المحروقين يغرفون ويشربون، وعذاب آخر من جنس هذا العذاب.

وفي تصوير ذوقي آخر لهؤلاء الكفار المكذّبين يبيّن كيفية تناولهم الطعام والشراب. كما في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَأَكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴾[3]

هذه صورة ذوقية لهؤلاء الكفار المكذّبين للرسول (صلى الله عليه وسلم) فإن منزلهم جهنم يوم القيامة يقدّم لهم طعاماً من شجرة الزقّوم، لا ندري ما طعم هذه الشجرة، ولكن الله تعالى أخبرنا عن وصفها أنّ طلعها كرؤوس الشياطين، ولعل طعامها مليء بالأشواك المدببة، وطعمها شديد المرارة بحيث يلذع الألسن، وربما شدّة جوعهم يدفعهم الى إملاء بطونهم من ثمر هذه الشجرة الكريهة، وعند العطش يشربون الماء الساخن لدفع اللقمة من هذه الشجرة، فالجوع طاغ والقضاء عليه يدفع الى العطش، ولكن هذا الماء لا يروي من العطش، فيقبلون على الشرب مثل الإبل المصابة بداء الاستسقاء، وهي لا تكاد ترتوي من الماء، هذا هو منزلهم، وهو منزل كانوا يتمنون أن يجدوا فيه الراحة والاستقرار، ولكنهم وجدوا العناء والعذاب.

---

(١) النبأ ٢١-٢٦.
(٢) ص ٥٥-٥٨.
(٣) الواقعة ٥١-٥٦.

٤- **الصورة الشمّية:**

وهي الصورة التي يستخدم في تشكيلها حاسة الشم، وتتميّز بأنها محدودة بالمواد التي تعبق برائحة تختلف عن الروائح الأخرى، ومن خلال تلك الرائحة المميزة يمكن رسم صورة لها تختلف عن الصور الأخرى، ويقوم المخ بفرز تلك الروائح وتحديدها، فمنها الطيّب ومنها الخبيث، ولقد ثبت أنّ لكلّ مادة رائحة يمكن معرفتها من زيادة نفاذها وانتشارها.

والصور الشمية في القرآن الكريم قليلة، ولعل ذلك يعود الى أن القرآن الكريم قد أثبت بالبراهين البصرية صدق آياته ما يفوق الصور الأخرى ومنها الشمية، ولعل من أجمل الصور الشمية صورة شم رائحة قميص يوسف (عليه السلام) وإنّ رائحته سوف ترد بصر أبيه، وتتحوّل رائحة الابن الى معجزة لرد البصر. قال تعالى: ﴿ٱذۡهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلۡقُوهُ عَلَىٰ وَجۡهِ أَبِي يَأۡتِ بَصِيرٗا وَأۡتُونِي بِأَهۡلِكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلۡعِيرُ قَالَ أَبُوهُمۡ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَۖ لَوۡلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلۡقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلۡبَشِيرُ أَلۡقَىٰهُ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ فَٱرۡتَدَّ بَصِيرٗاۖ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾(١)

في هذه الصورة الشمية التي يمكن أن تبدأ بالسؤال كيف عرف يوسف (عليه السلام) أنّ رائحته المتغلغلة في قميصه سترد على أبيه بصره؟ الجواب ذلك مما علّمه الله إياه، فيوسف وأبوه (عليهما السلام) نبيّان يأتيهما الوحي من الله تعالى. وهاهي القافلة تعود من مصر الى أرض كنعان، وعندما افترقت الإبل قريباً من منازلهم (قال أبوهم إني لأجد ريح يوسف) وتنتشر رائحة يوسف من القميص حتى تصل إلى حاسة شم الأب قبل دخولهم عليه، ونحن لا يمكن أن ننكر خارقة من الخوارق يمكن أن تقع للنبي يعقوب (عليه السلام) وحده دون المحيطين به الذين لم يشعروا بتلك الرائحة، ولم يجدوا في القميص ما وجد من رائحة يوسف، ففنّدوه على تصوّره وتخيله، ولكن المفاجأة وقعت، فقد جاء البشير الذي يبشّره بالعثور على يوسف، والدليل على ذلك القميص الذي يحمله، فألقاه على وجهه، وتسرّبت الرائحة الطيبة الى فمه فأنعشته، وارتدّ بصره بعدما ابيضّت عيناه، وهنا يذكّرهم الحقيقة التي قالها لهم وهي: أنه يعلم من الله ما لا يعلمون.

وتقوم حاسة الشم بدور الحارس الأمين لنا حين تتعذّر علينا ترجمة المحسوسات الأخرى مثل التراب الذي نريد أن نتيمم به للصلاة عند انعدام الماء، قال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُ﴾(٢) فالصعيد ما صعد على وجه

---

(١) يوسف ٩٣-٩٦.
(٢) المائدة ٦.

الأرض من تراب، والطيّب أي الطاهر الذي لم يختلط بنجاسة، فإن عرف بوجودها بالعين وهذا يكفي في المنع، وإن لم يعرف بالعين فإنه يعرف بشم هذا التراب لمعرفة رائحته الطيبة أو الخبيثة، وبهاتين الحاستين وحدهما يمكن معرفة طهارته.

ولم يقتصر انبعاث الرائحة الطيّبة في جنات الدنيا بل هي من مستلزمات المكان الذي يستريح فيه المقرّبون من رضى الله في جنة الآخرة. قال تعالى: ﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴾[1] إنها صورة عطرية فهؤلاء المقرّبون من رضى الله ونعيمه تحيط بهم الرياحين، فازدادوا نشوة الى نشوة جنات النعيم.

٥- الصورة اللمسية:

تدرك الصورة اللمسية بواسطة حاسة اللمس في اليد وبعض أجزاء من الجلد، ومن خلالها يتم الإحساس بالراحة والألم، وبالحرارة والبرودة، وبالخشونة والنعومة، وبالخفّة والثقل. والاستجابة لهذه المؤثرات هي تفاعل آلي يتعلق بالأعصاب والغدد الصمّاء، في مواجهة المثير الذي يتم استقباله من خلال اللمس والحواس الأخرى، ويسمى هذا التفاعل الآلي بالتفاعل الجسمي، والاستجابة الأخرى تتم في العقل لترجمتها لغرض قبولها أو رفضها، وقد تتداخل الحواس جميعاً وتلتقي لنقل المؤثر والإحساس به، والتفاعل نفسه يتم في جميع الحواس.

وقد وجدنا الصورة اللمسية في القرآن الكريم تدور حول أربعة محاور وهي: شكل الجسم وحجمه، والخشونة والنعومة، والحرارة والبرودة، والثقل والخفة.

تتشكّل الصورة اللمسية بعد التحسس باليد فضلاً عن الحواس الأخرى لمعرفة شكل الشيء وإدراكه، والتيقّن من أنه مادة معينة يمكن معرفتها من شكلها وحجمها، وهذا ماحدث للمشركين الذين أعرضوا عن الإيمان بالله عناداً وإصراراً، فليس ينقصهم الآيات الدالة على صدق الدعوة، ولا البراهين الناطقة عن ألوهية حقة، فلو أعطيت لهم الآيات محسوسة ملموسة فإنهم ينكرونها. قال تعالى: ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾[2]

ترسم حاسة اللمس صورة لذلك العناد الذي ينبعث من الكفار وإعراضهم عن الإيمان بالآيات المنزّلة والبراهين الدالة على صدق الدعوة، وهي صورة مكررة في كلّ عصر وفي كلّ بيئة وفي كلّ جيل، يريدون هذه الآيات محسوسة بحيث تقع عليها الحواس، ولو جيء بالآيات وهي مكتوبة في كتاب وهو القرآن الكريم، ونظروا اليه بأعينهم لقالوا خداع البصر، ولو قرّب اليهم ولمسوه بأيديهم، وتصفحوا أوراقه، وبدافع المكابرة التي تعلو على يقينهم، والعناد الذي يمنعهم عن قول الحق لقالوا إن هذا الكتاب الملموس سحر ظاهر يطغى

---

(١) الواقعة ٨٨-٨٩.

(٢) الانعام ٧.

علـى اللمـس. هـذه الصـورة المنكـرة تثيـر الاشـمئزاز فـي الـنفس، فهـي تجسّـم حقيقـة نفـس المنكرين، وموقفهم الشائن البغيض، وتستجيش ضمائر المؤمنين تجاه إعراض المشركين وإنكارهم.

وتستوقفنا قضية فقهية تتعلق بأحكام الصلاة تكون الملامسة جوهرها، وهذه الملامسة تقتضي الاغتسال قبل أداء الصلاة، وإن لم يجدوا الماء فإن التيمم بالتراب الطاهر يؤدي الى النظافة. قال تعالى: ﴿ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا ﴾(١)

يرسم اللفظ (لامستم) على الظاهر مس بشرة الجلد وتحسسها صورة جميلة للعلاقة الطيبة بين الرجل والمرأة، وهذه العلاقة تقتضي الملاطفة، وجعل الطرف الآخر يحس بالزوج الى جانبه، وإن رباط الزوجية وثيق لا ينفصم، وهذه من الأمور الشرعية المسلّم بها، وقد حمل الإمام الشافعي (رضي الله عنه) الآية على أن ملامسة البشرة توجب الوضوء لمجرّد اللمس، بينما يرى الإمام أبو حنيفة (رضي الله عنه) أنّ الملامسة هنا كناية عن الجماع الذي يوجب الاغتسال، واللمس وحده لا يوجب الوضوء، وهناك خلاف في لمس البشرة المجرّد هل كان اللمس بشهوة أم هو مجرد لمس عادي لا يقتضي الوضوء.

والإحساس بالخشونة والنعومة على سطوح الأجسام يبدو من خلال النظر ولكنها تبدو أوضح في تمرير اليد على تلك الأشكال لتلمس نعومتها مثلاً، وتتضح هذه الحالة في وجوه أهل الجنة. قال تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴾(٢) ترسم حاسة اللمس صورة لهذه الوجوه الناعمة الصقيلة ذات البهجة وحسن النضارة، ويمكن الإحساس بها بالنظر الى جمالها، وبتلمس نعومتها ورقتها، وكان أصحابها من الذين رضوا عن سعيهم في الحياة الدنيا، ونالوا الجزاء وهو الجنة العالية.

والإحساس بالحرارة والبرودة تتأثر بهما حاسة اللمس أيضاً، وهاتان الظاهرتان تثيران الألم في بشرة الجلد، ويحدث التنبه من خلال هذه الحاسة الى خطورة التعرّض الطويل لهما، فإن ذلك يؤدي الى الاحتراق والتلف، ولذا كان من لطف الله ونعمه أن جعل الثياب التي تلبس على الجلد لحمايته من شدّة حرّ الشمس وشدّة البرودة. قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴾(٣)

إنّ الحرارة الموجودة في ضوء الشمس والحرارة الناتجة عن اشتعال بعض المواد يؤثر في بشرة الجلد، وكلّ ما يصدّ تلك الحرارة هو ظلال آمنة سواء كانت ظلال الأشجار

---

(١) النساء ٤٣ وينظر المائدة ٦.
(٢) الغاشية ٨-١٠.
(٣) النحل ٨١.

أو البناء أو المغارات والكهوف، أو الثياب والدروع، وكلها نعم تحفظ سلامة الخلق من الحر والبرد والطعن والضرب.

ونتبيّن في قصّة أيوب (عليه السلام) العبرة فيما وقع عليه من ابتلاء في ذهاب ماله وأولاده وصحته، ولعلّ ما يهمنا هنا الحديث عن صحته البدنية والنفسية، فقد قيل إنه أصيب ببعض الأمراض الجلدية التي دعت الناس الى إبعاده عنهم خارج المدينة، وقد صبر على ذلك صبراً جميلاً، وكان الشيطان يوسوس لبعض أصحابه وأخوته إنّ الله تعالى لو كان يحب أيوب ما ابتلاه بهذا البلا ء، فأسمعوه ذلك، فتوجّه الى ربّه بالشكوى، فعرف ربّه صدقه، وكشف عنه ضرّه. قال تعالى: ﴿ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ ﴾[1]

جاء الآمر الإلهي بأن يضرب الأرض بقدمه فتنفجر تحتها عين باردة يشرب منها فيرتوي، ويغتسل فيبرأ من الأمراض، وترسم العبارة (مغتسل بارد وشراب) صورة لذلك الماء النقي البارد، والنبي أيوب (عليه السلام) يغرف بيديه ويشرب منه، فتذهب أمراضه النفسية، وهو يحس أنّ الماء الذي تفجّر بإذن الله كان شافياً، وها هو الماء الذي ينزل على بدنه يزيل قروح جلده، ويذهب احمراره، ويطفئ ببرودة الماء حرارته التي آلمته زمناً كثيراً، وعلم أنّ برودة الماء هذا كانت مقصودة، وإلاّ لكان الماء وحده مغتسلاً وشراباً.

والنار المحرقة التي تشوي الأجساد تتحوّل الى وسيلة عقاب كما نجد ذلك في قصة إبراهيم (عليه السلام) حين تهكّم من الآلهة الأصنام التي يعبدها قومه، وسخر من عقولهم وهم يعلمون أنّ هذه الأحجار لا تضرّ ولا تنفع، فأخذتهم العزّة بالإثم. قال تعالى: ﴿ قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴾[2]

ولنتأمّل الصورة التي ترسمها الألفاظ (حرّقوه، يا نار كوني برداً وسلاماً) ونحن نعلم يقيناً أنّ النار تحرق كلّ شيء، ولا نسأل لماذا لم تحرق إبراهيم (عليه السلام) والمعروف أيضاً أن النار تحرق الأجسام الحيّة، فالذي قال للنار: كوني حارقة، هو الذي قال للنار كوني برداً وسلاماً، والمسألة هنا ليست في ميدان التحليل والتعليل على وفق مقاييس البشر، لأن أعمال الله تعالى غير خاضعة للمقاييس البشرية، ولنا أن نتصوّر أنّ إبراهيم (عليه السلام) حين ألقي إلى كتلة من اللهب ووقع على الأرض، ظنّ الرائون أنه قد احترق، ولكنه نهض وأخذ يتمشى ولهب النار يحيط به، وكأنه كتلة من الضوء فحسب، فأمّا الحرارة فقد انعدمت، وكان انعدامها سلامة على جسده، ومعجزة للرائين.

ويتخذ المنافقون الحرّ ذريعة لتخلّفهم عن الجهاد بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، وكرهوا أن يخرجوا لقتال العدو في معركة تبوك، وتخلّفوا عن المسير الى القتال مع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ولو علموا أنّ نار جهنم أشد حرّاً من حرارة الشمس في حياتهم

---

(١) ص ٤١-٤٢.

(٢) الانبياء ٦٨-٦٩.

الدنيا. قال تعالى: ﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ ﴾[١]

تصوّر العبارة (لا تنفروا في الحر) صورة هؤلاء المنافقين وقد أثقلهم الحرص على الراحة، والحرص على المال من النقصان بالنفقة، والحرص على جلودهم من لفحة الشمس، والحرص على أبدانهم من ضربة السيف، كرهوا النفور لملاقاة العدو، وأحبّوا البقاء مع السلامة الذليلة، والراحة الرخيصة، فإن كانوا يخافون من حرّ الشمس، ويؤثرون الراحة في الظل، فكيف بهم وهم في حرّ نار جهنم، وهي أشدّ حرّاً وأطول أمداً.

ويعبّر الإحساس بحرارة النار واحتراقها، وما تخلّفه من لهب ودخان ورماد برسم صورة لهؤلاء الضالين المكذّبين بيوم الحساب في الآخرة وهم يتسلّمون كتبهم باليد الشمال، ويكون مصيرهم النار، حيث لا ظلّ يحميهم من حرارتها، ولا ماء بارد يطفئ ظمأهم، ولا راحة ولا ترفاً مثلما كانوا فيه. قال تعالى: ﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ (٤١) فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ (٤٢) وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ (٤٣) لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ (٤٤) إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴾[٢]

تنقل لنا العبارة (سموم وحميم، وظل من يحموم) صورة للحالة المزرية التي يؤول اليها هؤلاء المكذّبين بالآخرة، بعد أن كانوا في ترف الدنيا ونعيمها، وفي ظلال وثمار وشراب بارد، فاليوم هم في لهب يلفح وجوههم فيحرقها، وشواظ ساخن ينفذ الى مسام أجسامهم فيشويها، وماء متناه في السخونة لا يبرد ولا يروي، وظل من لهب النار يلجؤون اليه من الحر فيزدادون اختناقاً وحرارة أشد من غيره، وهذا الشظف كله يقابل ذلك الترف الذي كانوا عليه من قبل.

والإحساس بالخفة والثقل مبدأ يمثل المنهج العام الذي يريده الله تعالى لحياة البشر مراعاة لفطرته الإنسانية، وطاقته المحدودة، وحاجاته الحقيقية، وهو إزاء ذلك يبدو ضعيفاً أمام المغريات التي تفوق طاقته. قال تعالى: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾[٣]وإرادة التخفيف تتمثل في الاعتراف بدوافع الفطرة الإنسانية، وتنظيم الاستجابة لها، وتصريف الطاقة في المجال النافع المثمر، دون أن يكلّف الله تعالى عباده الضعفاء العناء في كبت دوافعهم، ودون أن يطلقها نحو الانحدار والإسفاف.

ومن منهج التخفيف الذي أنعمه الله تعالى على الخلق في السكن والاستقرار ما نجده في البيوت التي تصنع من جلود الأنعام، وهي بيوت خفيفة الحمل، يتحقق فيها السكن والطمأنينة، وعند التنقل تطوى بسهولة وتحمل إلى مكان الإقامة الجديد حيث الكلأ

---

(١) التوبة ٨١.
(٢) الواقعة ٤١-٤٥.
(٣) النساء ٢٨.

والمرعى. قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتٗا تَسۡتَخِفُّونَهَا يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا وَأَوۡبَارِهَا وَأَشۡعَارِهَآ أَثَٰثٗا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ﴾(١)

يرسم اللفظ (تستخفونها) لهذه البيوت صورة واضحة المعالم، فهذه البيوت الخفيفة في حملها تحقق في صنعها ما يريده الإسلام أن تكون مكاناً آمناً تتوافر فيه السكينة والاستقرار النفسي، وأن تكون خفيفة في حملها، مريحة في نصبها، تؤدي مهمتها في توفير الحماية والآمان، وتضمن لها الحرمة والأمن والسلامة، فلا يدخلها داخل إلاّ بعد الاستئذان، ولا يقتحمها مقتحم بغير حق، ولا يتجسس أحد على أهلها في غفلة عنهم، ولا يتطلّع اليهم أحد فيروّع أمنهم. ولأن البيئة رعوية تعتمد حياتهم على الرعي ووجود الماء في الصحراء، كانت هذه البيوت مصنوعة من جلود الأنعام، وكان أثاثها كالبسط والفرش والوسائد من الوبر والصوف وشعر الماعز ما يسد النقص ويلبي الحاجة للتمتع والارتياح.

والدعوة الى التخفف يمكن أن تتحقق في النفرة للجهاد في سبيل الله انطلاقاً من كسر القيود التي تمنع المجاهد من السمو والارتفاع بالذات إلى المعاني العليا. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾(٢)وقوله تعالى: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافٗا وَثِقَالٗا وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾(٣)

ترسم اللفظة (اثاقلتم) صورة حسّية نشعر بثقلها على النفوس، وبضيقها في الصدور، فهذا المنادي ينادي بالنفير العام لغزوة تبوك، وقد اجتمع الروم على أطراف الجزيرة في الشام، وكان الوقت شديد الحر، وقد طابت الظلال وأينعت الثمار، وحبب المقام، ووجد المنافقون فرصة لتخذيل الناس عن النفرة ببعد الشقّة وشدّة الحرّ، وكان لهذه العوامل أثرها في إحساس بعض الناس بالثقل، إنه ثقل الأرض، وثقل الخوف من الموت، وثقل الخوف على المال والأولاد، وثقل الملذات والدعة والراحة، وثقل البدن المسترخي الذي لم يستطع صاحبه أن يرفعه عن الأرض لشدّة التصاق الجاذبية به، فتشده إلى الأسفل، فيقاوم بدنه ذلك الثقل، وتقاوم روحه ذلك المنع في انطلاقها نحو السمو والعلو، تحقيقاً لإرادتها وتوجهها نحو الكمال، وتطلعها نحو الخلود.

وأدرك المؤمنون قيمة النفرة لملاقاة العدو، فنفروا والعوائق تقف في طريقهم، والأعذار حاضرة لو أرادوا التمسّك بها، الحر والمال والأولاد، وطيب الثمار، والعجز

---

(١) النحل ٨٠.
(٢) التوبة ٣٨.
(٣) التوبة ٤١.

والمرض، وانعدام المركوب، وانعدام السلاح، وهذه العراقيل لا تقف بوجه المؤمن، لأن الخطاب جاء (انفروا خفافا وثقالا) فلا عذر لمعتذر.
ولا مجال للمغالطة بحق الوزن في الآخرة، ولا التلبيس في الحكم، فالخفة والثقل يتحكمان في مصير الإنسان، وهو في نهاية رحلته الدنيوية يتقرر مصيره بذلك الوزن، فمن ثقل ميزانه من الحسنات فإنه من الفائزين بالجنة، ومن خفّ ميزانه من الحسنات فإنه من الخاسرين، وإنّ مصيره النار، وإنّ كل نفس تتحمّل وزرها، ولا يحمل عنها أحد ذلك الوزر. قال تعالى: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴾[1]وقوله تعالى: ﴿ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴾[2]وقوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌ ﴾[3]
يصوّر اللفظ (وإن تدع مثقلة إلى حملها) ذلك المرء الذي يأتي يوم القيامة الى الحساب وهو يحمل على رقبته كيساً مملوءاً بالذنوب الثقيلة، وهو يبحث عن قريب أو صديق ليخفف عنه ذلك الثقل قبل عملية الوزن، ولا يجد أحداً يحمل وزره حتى من أقرب أهله إخوانه وأبنائه، فهذه تبعة فردية، والجزاء فردي أيضاً، ولذا فهو يحمل حمله وحده، ويحاسب على عمله وحده، ولا يقلق الفرد خوفاً أن يؤخذ بجريرة غيره، وما دوره الاّ النصح والإرشاد.
ويتقدّم الناس لوزن الحسنات والسيّئات، وكأننا نرى الصورة حاضرة أمامنا، وعملية الوزن بالميزان تجري على طريقة التعبير بالتصوير، وتجسيم المعاني في صور حسيّة، ومشاهد تمتلئ بالحركة، فهؤلاء الذين ثقلت موازينهم بالحسنات قد أفلحوا بالنعيم، وكانت عيشتهم مرضية، والإحساس بهذا الرضى يجده المؤمن أطيب من النعيم ذاته، ومن خلت موازينه من الحسنات فقد خسروا كلّ شيء، خسروا أنفسهم، وإذا خسر الإنسان نفسه فماذا بقي له؟ لم يبق له وجود، ولم يبق له سوى العودة إلى مرجعه الأول وهو هاوية جهنم ليستقرّ فيها، وكأنها رحم أمه، فهي الوحيدة التي تأويه، وتقبل به ابناً لها، فإذا بالعذاب الحسّي وهو نار جهنم على فظاعته أهون عليه من الخزي والعار والندم الذي يلحق به مدّة إقامته في تلك الهاوية.

ب- الصورة الذهنية (الخيالية):

---

(١) فاطر ١٨.
(٢) المؤمنون ١٠٢-١٠٣.
(٣) القارعة ٦-١١.

إذا كانت الصور الحسية تعتمد في بنائها على الحواس فإن مجال الصورة الخيالية هو العقل وما ينتجه من تصوّرات ذهنية، معتمداً على ما تعكسه المخيلة من صور للمدركات الحسّية، والمؤثرات الخارجية، ومحاولة استرجاعها بقوة الذاكرة التي يملكها المتخيّل إلى صور تجريدية خيالية، أو هو نقل الصورة من عالم الحس إلى عالم المعنويات.

فالتخييل ((تصوير حقيقة الشيء حتى يتوهّم أنه ذو صورة تشاهد، وأنه مما يظهر في العيان))(١) وهو جوهر العمل الأدبي، ولذلك فإنّ الخيال هو ((أداة من أجل مزيد من الإضاءة للواقع))(٢) وكلّما اشتطّ الخيال وأغرب توحّد مع اللغة التي تماثله في الإغراب والإدهاش، ولذلك فإنه قادر على أن يكسو الأشياء شيئاً من الضبابية، فتحتفظ ببعض أسرارها.

وليس بين الحقيقة والخيال أي تعارض أو تقاطع فكلاهما عنصر فعّال في عالم الأحداث والأشخاص، وذلك أن الأديب ((حين يستخدم خياله لا يهرب من الحقيقة بل يلتمس الحقيقة كذلك في الخيال))(٣)والفرق بين الخيال والتوهّم هو ((أنّ التوهّم لا يوحّد ولا ينتج إنتاجا حيّاً، بل تظل المادة التي يعمل بها جزئيات باردة لا حياة فيها، هذا فضلاً عن أنّ الخيال هو الملكة التي توصلنا إلى الحقيقة، بينما يكتفي التوهّم بالصور والإحساسات المفككة))(٤)

وقد وجدنا الصورة الخيالية في القرآن الكريم تفترض افتراضاً لكي يتصوّرها المخاطب، ويبدأ في الموازنة بينها وبين الصورة الواقعية، وليست الصورة الخيالية في القرآن الكريم وهمية أو ليس لها وجود بل الإرادة الإلهية قادرة على إيجادها أو خلقها، ولكنها كبيرة على مستوى العقل البشري.

هذه كلمات الله تصدر دون انتهاء، ولم تستطع الأشجار أن تلبّي أقلاماً لها، إذ سرعان ما تنفد، وهذا البحر يمد تلك الأقلام بالمداد فإذا نفد أمدّته البحور السبعة، ولكنها بعد ذلك تنفد، والكلمات باقية مستمرّة متجددة. قال تعالى: ((ولو أنّما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمدّه من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله إنّ الله عزيز حكيم))(٥)وقوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾(٦)

في هذه الصورة يلعب التخيّل دوراً كبيراً في تمثلها، فقد قرّبت إلى العقل البشري حتى يتصوّرها في ذهنه المحدود، ومهما أوتي من قدرة على تجريد الصورة فإنه لن يصل الى مداها الواسع البعيد، وهذا شأنه في تمثيل المعاني غير المحدودة، إذ يعمل على تأطيرها بحدود يمكن تصوّرها وتخيّلها. فهذه كلمات الله ليس لها حدود، وليس لها نهاية مطلقاً،

---

(١) د. احمد مطلوب: معجم المصطلحات البلاغية ١١٦/٢.

(٢) د. سامي الدروبي: علم النفس والادب ١٤٧.

(٣) د. عز الدين اسماعيل: التفسير النفسي للادب ٣٦.

(٤) كولردج: سلسلة نوابغ الفكر العربي ١٥ بقلم د. محمد مصطفى بدوي، ص ٨٨.

(٥) لقمان ٢٧.

(٦) الكهف ١٠٩.

كلمات في العلم والحكمة والمعرفة والقضاء والتقدير، بل في كل شيء لم يخطر على فكرنا المحدود، كيف يمكن حصر هذه الكلمات في حدود تصوّرنا، ولابد من التمثيل بأشياء محسوسة تقع تحت أبصارنا، وهذه الأشياء عظيمة في نظرنا، ولمّا كان البشر يكتبون أقوالهم وأعمالهم وعلمهم بأقلام من خشب الأشجار، ويغمسونها بالحبر، ويسطّرونها على الجلود والورق، فإنّ كلّ ما يكتبون لا يزيد عن ملء دواة حبر، أو ملء زجاجة وهذا أقصى ما يستنفد منهم، أمّا كلمات الله التي لا تنفد فإنّ جميع شجر الأرض تتحوّل إلى أقلام، وجميع ما في الأرض من بحر يتحوّل إلى حبر، بل إنّ هذا البحر تمدّه سبعة أبحر إذا نفد، وكلمات الله تتواصل، وهؤلاء الكتّاب يدوّنون كلمات الله المتجددة الدالة على علمه والمعبّرة عن مشيئته، ولكن بعد ذلك نفدت الأقلام ونفد المداد، ونفدت الأشجار، ونفدت البحار، وكلمات الله تتواصل باقية لا تنفد، ويقف القلب خاشعاً أمام جلال الله الخالق المبدع، وقدرته الفائقة في الحكمة والتدبير.

وهاهي كلمات الله تسطّر في كتابه القرآن الكريم، وهو معجزة بذاته، ولا يحتاج الى براهين حسيّة مباشرة يراها المعاندون حتى يؤمنوا به، وإننا لنتصوّر أن هؤلاء الكفار المعاندين يريدون من القرآن أن يكون كتاباً سحريّا، وهو أن يمسكه باليد ويوجهه نحو الجبال فتسير وتتحرّك من مكانها، أو أن يوجّه نحو أرض خالية فتقطّع الى قطع ترى بالعين، أو يوجّه الى الموتى فيتكلمون، وحين يرون ما يقوم به القرآن من معجزات حسية فإنهم يصدّقون أنه كلام الله تعالى ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾[1]

وإزاء تصوّرات هؤلاء الكفار وما يريدون من كتاب الله فإنّ هذا القرآن قد صنع في النفوس ما هو أعظم من تسيير الجبال أو تقطيع الأرض أو إحياء الموتى وتكليمهم، فقد كان القرآن في لغته وفي أسلوبه في التعبير والأداء، وفي ألفاظه ومعانيه ما يحيّر العقول، ويغيّر النفوس، فطبيعته هذه تحتوي على قوة خارقة تفوق تلك المعجزات الحسيّة، بحيث يحسّ بها كلّ من له ذوق وبصيرة، وإدراك واستعداد لما يوحي به، وكان تأثيره أقوى من تلك المتطلبات، فبدلاً من تسيير الجبال فقد سيّر العقول من الضلالة إلى الهدى، وغيّر وجه الإنسانية من الجهل والظلام إلى نور الحق، وبدلاً من تقطيع الأرض دونما فائدة فقد قطّع دابر الكفر والفساد، وبدد جمود الأفكار والتقاليد الوثنية والأوهام البالية، وحوّل النفوس من ظلام الجاهلية إلى نور الإسلام، وبدلاً من إحياء الموتى من تحت الأرض، فقد أحيا الموتى الأحياء فوق الأرض، وعرض أمامهم الطريق المستقيم والمنهج القويم.

وهؤلاء الكفار المعاندون المكابرون إن أراد الله أن يريهم آياته، فيصعدوا إلى السماء، ويفتح لهم باب منها، ويستمرون في الصعود، ويرون مظاهر الجلال والجمال، ودلائل الثبات واليقين، فإنهم يكابرون ويزعمون أنّ ما يرونه ليس حقيقة بل هو انحراف

---

(١) الرعد ٣١.

في العين، أو سحر أصابهم، فاختلطت عليهم الأمور. قال تعالى: ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴾ (١)

ترسم الآية صورة ذهنية لهؤلاء الكفار المعاندين عن الإيمان، وقد طلبوا المعجزات الحسية التي يريدون رؤيتها بأعينهم، فأراد الله تعالى أن يفتح لهم باباً من السماء، أو مجالاً للحركة والانتقال من الأرض الى السماء لرؤية الصور والأشكال الغيبية التي لم يرها الإنسان، ونحن نعلم أن إمكانية الإنسان في الصعود الى السماء غير ممكنة، وذلك من عدّة نواح، وهي عدم قابلية جسم الإنسان على الطيران لثقل جسمه، ولأنه غير معد للطيران في السماء، وإنّ جاذبية الأرض للأجسام كبيرة، ولا يمكن التخلص منها إلاّ بقوة كبيرة حتى ينفلت منها الجسم، وإنّ أجسام البشر لا يمكن أن تتحمل انخفاض الضغط الذي يصل الى درجة الصفر، وخلو السماء من الأوكسجين للتنفس، وتعرّض الأجسام الى أشعة الشمس فوق البنفسجية، إذ لا يوجد غلاف جوي بحيث يمنع الأشعة عنها، والتعرّض في السماء الى بعض الصخور والأحجار وذرات الرمل المحرقة، إنّ القيام بذلك كله لا يمكن تحقيقه الاّ في الذهن أو العقل وحده فحسب، أمّا في الواقع فلا يمكن أن يتحقق، وإن أراد الله تعالى أن يلغي جميع هذه القيود تماماً، ويصعد الإنسان بجسمه الى كبد السماء، ويرى أبواب السماء تفتح أمامه، ويحس بحركة الصعود، ويرى دلائل الصور والأشكال يقيناً، ثم يكابر ويصرّ على أنّ هذه ليست حقيقة، وإنّ بصره أنحرف عن صوابه، أو تحرّك بسبب إصابته بالسحر، وكلّ ما رآه مجرّد صور خيالية، ويكفي ذلك أن هذه المكابرة السمجة والعناد المزري لا تجدي نفعا في الجدل مع هؤلاء، ويثبت ليس ينقصهم رؤية دلائل الإيمان، وإنما هم مكابرون بلا حياء وبلا مبالاة للحق واليقين.

ويوجه الله تعالى خطابه للثقلين من الجن والإنس، وقد ملؤوا الأرض بالذنوب وأثقلوها بالآثام، فكان تهديده لبيان عجزهم عن أن ينفذوا أو يخترقوا أقطار السماوات والأرض، ولن ينفذوا اليها الاّ بسلطان أو قوة قاهرة. قال تعالى: ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ﴾ (٢)

ترسم الألفاظ (تنفذوا، فانفذوا، لا تنفذون) صورة ذهنية لتحدّي الله تعالى للجن والإنس في مقدرتهم على النفاذ الى أقطار السماوات والأرض، فالجن امتازوا بالخفة والحركة، وسرعة الانتقال من مكان الى آخر. والإنس امتازوا بالتفكير الراجح المؤدي الى نتائج علمية تخدم الإنسانية، والتحدّي هنا لبيان القدرة على النفاذ أو الانتقال بين الأرض وأقطار السماوات السبعة، ومن الطبيعي أن الجن وإن كانوا يستطيعون الحركة السريعة فإنّ حركتهم محصورة في حدود القطر الأول وهو السماء الدنيا، وهي السماء التي زيّنت بالنجوم والكواكب، وحركتهم خفية خشية التعرّض إلى الرجم بالشهب. وأمّا حركة الإنسان

---

(١) الحجر ١٤-١٥.

(٢) الرحمن ٣٣.

بذاته الى السماء فهي مستحيلة، وقام المتصوّفة بمحاولات في الانتقال روحيّاً الى تلك السماوات للوصول الى الحقيقة الإلهية بعد إفناء الجسد بالرياضة، وهي محاولة لا نعلم مدى صحتها مادام الجسد باقياً على الأرض، وكانت هناك محاولات إنسانية أخرى في الطيران بسفن فضائية لم تقطع سوى جزءاً ضئيلاً من السماء الدنيا بانتقالها من الأرض الى القمر أو المرّيخ، وأمّا أقطار السماوات الستة الباقية فهي عصية على الجن والإنس. ووضع الله تعالى سبباً يمكن النفاذ من خلاله الى تلك الأقطار جميعاً وهو (السلطان) ولا يملك السلطان الاّ صاحب السلطان، ويقع المرء في تصوّر ذهني محيّر وهو يرسم صورة تجريدية للسلطان، فأي سلطان هو، أهو سلطان الإيمان، أم سلطان العلم، أم سلطان القوة والقهر، أم سلطان الجبروت؟ أم باستخدام طاقة فائقة جدّاً بحيث تجعله يتحرّر من قوّة الجاذبية، جاذبية الأرض أم جاذبية الضلال والفساد.

ويوجّه الله تعالى الأفكار الى مشاهد الكون الذي نعيش فيه غافلين عن تدبيره رحمة بالخلق، ودعوة الخيال ليملأ الفراغ الذي يخلّفه السؤال حول ظاهرتين كونيّتين وهما الليل والنهار، ماذا لو توقّفا عن الحركة؟ قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾[(١)]

يرسم اللفظ (سرمداً) صورة خيالية للّيل والنهار اللذين اعتدنا على تكرارهما المستمر طوال حياتنا حتى لم نعد نشعر بذلك التكرار، ولم نحس أن ذلك التكرار رحمة ورأفة بالخلق، وإنقاذاً من الدمار والبوار، ومن الكلل والملل. ويلفت القرآن الكريم انتباه الخلق الى سرمدية الليل والنهار، وبقاؤهما على حال واحدة الى يوم القيامة، فتأتي أجيال وتذهب أجيال وهما على هذه الحال، دون تبادل، ودون حركة، ودون تغيير، ولا نشعر بقيمة الشيء الاّ بعد فقده.

ويتحرّك الخيال هنا ليرسم صوراً لما يحدث للناس في ظل بقاء الليل ثابتاً على حاله، فالناس يشتاقون لرؤية طلوع الفجر الذي يوحي بالتفاؤل والأمل، ويحنّون الى ضوء الشمس لتزيح عنهم كاهل الظلام، فيرون ملامح الأشياء بوضوح، ويعلمون أنّ الشمس تبعث الدفء فيهم وقت الشتاء، وتعمل على تبخير الماء وتكوين السحب المثقّلة بالماء، وجريانه في الأنهار وسقي الزروع والمخلوقات، وتصنع الغذاء للنبات والحيوان والإنسان، وتقضي بضوئها وحرارتها على الوباء.

ويتحرّك الخيال أيضاً ليرسم صورة أخرى لما يحدث للناس حين يظل النهار على حاله أبداً، فالناس يشتاقون الى الليل وما فيه من برد يدفع عنهم حرّ الهجير، وما فيه من اجتماع للسمر والأحاديث، وما فيه من سكون ونوم في الفراش لتجديد ما ينفق من الطاقة

---

(١) القصص ٧١-٧٢.

في نشاط النهار، ودوام الليل يلغي تبخر الماء، ورؤية السحاب والبرق ونزول الأمطار، وإنبات النبات، ونفاد الأقوات، وتعرّض الحياة الى الانتهاء والزوال.

ويتغلغل الخيال الى مسألة خلق الإنسان على صورة معيّنة أرادها الله تعالى بمشيئته، ولو أراد أن يخلقه على صورة أخرى غير هذه الصورة لخلقه عليها، ولا ندري ما هي هذه الصورة التي تجعلنا نتصوّرها على أشكال عدّة. قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾[2]

إنّ خلق الإنسان على هذه الصورة الجميلة السويّة في تناسق أعضائها، والمعتدلة في مقاييسها، والمتكاملة في شكلها، والمؤدية لوظيفتها أمر يستحق التفكّر والتدبّر في هذا الصنع العجيب الذي لم يسبقه مثال، إذ ليس لنا إرادة في اختيار الخلقة، ولا علم في كيفية حدوثها، فقد أخبرنا الله تعالى إنّ بداية ذلك التصوير يتم في الأرحام، فهذه المضغة المعلقة بجدار الرحم تختزن صورة معيّنة لإنسان تختلف عن مضغة أخرى تماثلها، ولكنها تختزن صورة أخرى.

وهنا يتدخّل الخيال ليصوّر لنا قوله (في أيّ صورة ما شاء ركّبك) أي صورة نتخيّلها بحيث يصوّرها الله لنا، هل هي صورة آدمية بحيث يكون الاختلاف في الأشكال والأحجام والألوان أم غير ذلك، ولو شاء لجعله على صورة مكعّب، وهذا الشكل لا يستطيع الحركة، ولا يقوم بأعماله اليومية، بل نراه يستقر على حالة واحدة في الأرض، صورة إنسان عاطل خامل كسول، والله تعالى لايرضى للإنسان أن يكون كذلك. ولو شاء لجعل شكله كرويّاً، أي على العكس من الشكل الأول، ولذا نراه متحرّكاً متدحرجاً لا يستقرّ على حال، ولا يثبت في مكان، ولا يستطيع أن يؤدي أعماله اليومية، ويمكن أن تتلاعب به الريح والحيوان، والله تعالى لا يرضى لمن خلقه أن يكون كذلك. ولو شاء لجعل الإنسان زاحفاً أو ماشياً على أربع أو غير ذلك، ولكنه خلقه مستوياً معتدلاً منتصب القامة متناسق الخلق، في أحسن صورة، يتحرّك برجليه، ويمسك بيديه، ويحرّك رأسه إلى كلّ الجهات، وحركته بإرادته، وليست بإرادة غيره كما في الصور التي نتخيّلها.

ويرسم الذهن صورة للمصير الذي آل اليه النبي يونس (عليه السلام) بعد أن التقمه الحوت، واستقرّ في ظلمات بطنه، أحسّ بضآلة قدرة الإنسان أمام قدرات أعظم يقف أمامها عاجزاً ضعيفاً، ويشعر بالضيق في تلك الظلمات، فأخذ يسبّح لله ويستغفره، ويذكر أنه كان

(١) آل عمران ٦.
(٢) الانفطار ٦-٨.

من الظالمين، ولو لم يكن من المسبحين لظلّ في بطنه الى ما شاء الله. قال تعالى: ﴿ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾[1]

ترسم اللفظة (للبث) خطّاً زمنياً له بداية وليس له نهاية للمدّة الزمنية التي يمكث فيها النبي يونس (عليه السلام) في ظلمات ثلاث، ظلمة الليل، وظلمة البحر، وظلمة بطن الحوت، ولعلّ الأخيرة كانت أشدّها صعوبة وعسرة عليه، ولو تخيلنا صورته بين أحشاء الحوت وما تفرزه من عصارات هضمية، وما فيه من سوائل وأبخرة نتيجة حرارته، لقلنا انه قد مكث في عين حمئة تحيط به الأبخرة من كلّ جانب، وتدفعه المياه الداخلة من فم الحوت مرّة إلى الداخل وتسحبه معها عند خروجها مرّة أخرى، ولم يكن له بد سوى التسبيح لله الواحد القادر على كلّ شيء، والاستسلام لمشيئته، ولولا ذلك للبث في هذا المكان إلى يوم القيامة. وهذه العبارة تجعلنا في حالة من الذهول والتساؤل، وهل يبقى الحوت حيّاً والنبي يونس (عليه السلام) في بطنه إلى يوم القيامة؟ الجواب لا يبقى الحوت حيّاً ولا يبقى يونس معه حيّاً ألى يوم القيامة، ولعل معنى الكلام أنه يموت في بطن الحوت، ويموت الحوت بعده، أو يموت هو والحوت معاً، ويبعث يوم القيامة من بطنه كما مات فيه، أي موته ومبعثه من بطن الحوت، والله أعلم. ولكن الله الرحمن الرحيم رؤوف بعبده المستغفر المسبّح له جعل الحوت أن يقذفه الى اليابسة، ليركن تحت شجرة تغطي جلده الرقيق الحسّاس من الأذى.

ونأتي الى مشهد تصويري عجيب ينقل بالألفاظ الذهنية هيأة الفتية في الكهف، وهم رقود على الأرض، ومن ينظر الى وجوههم يظنهم غير نائمين، يتقلّبون مرّة الى اليمين ومرّة الى الشمال، وهم في تلك الحالة يثيرون الخوف والرعب. قال تعالى: ﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ۚ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴾[2]

ترسم الألفاظ (اطلعت، فراراً، رعبا) صورة ذهنية أو خيالية لهؤلاء الفتية في نومتهم، أو صورتهم التي هم عليها في ذلك الكهف، وهم لا يعلمون أنهم يشكلون صورة مخيفة ومرعبة، فالعيون مفتحة دون حركة، بل مثبتة على حال واحدة، وكأنهم ينظرون الى خط مستقيم لا يميل يميناً أو شمالاً، وأجسادهم ملقاة على الأرض لم يكن تحتهم فراش، وتتقلّب الى اليمين والى الشمال بحركة لا إرادية، وكأنّ هناك يداً خفية تقلّبهم، ومثل هذا التقلّب يمنع أجسادهم من تجمّد الدم أو تخثره في الجهة التي تستقر على الأرض، ومن ينظر اليهم يقع في حيرة من أمره، هل هم نيام أم موتى؟ فإن كانوا نياماً فإنّ أعينهم مغلقة، وأسماعهم واعية، ويمكن إيقاظهم بحركة من يد أو صوت يناديهم، وإن كانوا أمواتاً فإنّ

---

(١) الصافات ١٤٤.

(٢) الكهف ١٨.

أجسادهم لا تتقلّب لوحدها، وتظهر عليها علامات الموت، منها ذبول الجسد، واصفرار الجلد، وانتشار الرائحة النتنة، ولمّا كانت هذه العلامات غير موجودة، وقعت الحيرة، ولعلها هي التي جعلت الرائي يمتلئ رعباً منهم، ويولي فرارا.

ومن الأمور التي تحيّر البشرية أنّ الله تعالى قضى أن لا يكون الناس أمة واحدة، وفي هواجسهم رغبة خفيّة في تأليف القلوب المختلفة، والاتجاهات المتعددة، والعقائد المتباينة، وجعلها في قلب واحد. قال تعالى: ﴿إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾(1) وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾(2) وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾(3)

شاء الله تعالى أن يكون الناس مختلفين، مزوّدين باستعدادات متفاوتة، وجعل لكل واحد منهم طريقاً ومنهاجاً، وأن يختار كل واحد منهم طريقه، ويتحمّل تبعة اختياره، ثم يرجعون الى الله، فينبئهم بالحقيقة، ويحاسبهم على اختيارهم طريق الهدى أم طريق الضلال، ويجازيهم على ذلك الاختيار، ويمكننا أن نتخيّل أو نتصوّر افتراضاً أن الله تعالى خلقهم أمة واحدة على السواء فماذا يحدث؟ الذي يحدث أن هؤلاء الناس قد خلقوا على نسق واحد واستعداد واحد ونسخة واحدة مكررة لا اختلاف ولا تنوّع فيها، الأشكال واحدة، والحركة واحدة، والرغبات واحدة، وكانّ الحياة واحدة، تبعث على الملل والسأم، والحساب واحد، والجزاء واحد، الجميع في الجنة أو الجميع في النار، لا تفضيل لأحد على الآخر، وكأنّ هؤلاء الأمم اجتمعوا في إنسان واحد، ولو ظهر أمام هذا الإنسان وهو مسلوب الإرادة طريقان، طريق الى الجنة وطريق الى النار فماذا سيختار؟ الجواب لا يستطيع الاختيار، فإننا نراه يقف عاجزاً، وسيكون الاختيار بيد الله إذ يوجهه أو يوجه هذه الأمم كلها الى طريق الجنة، فلا فضل لهؤلاء الناس في جزائهم. ولكن هذه ليست طبيعة الحياة التي قدّرها الله لهم، وليست طبيعة هذا الإنسان الذي جعله الله خليفة في الأرض، وقد أراد أن تتنوّع استعداداته واتجاهاته، وأن يمتلك الحريّة في الاختيار، وأن يكون مسؤولاً عمّا يعمل، ويحاسب ويجازى على ذلك العمل، ولذلك كان الاختلاف هو المطلوب.

ويلعب التصوّر دوراً كبيراً في رسم مشاهد الآخرة، وأول هذه المشاهد قيام الساعة حين ينفخ في الصور النفخة الأولى، فتحدث الزلزلة، وتهتز الأرض بكل قوّة، وترتجف

---

(١) المائدة ٤٨.
(٢) النحل ٩٣.
(٣) هود ١١٨.

القلوب، إنه مشهد حافل بكلّ مرضعة ذاهلة، وبكلّ حامل يسقط حملها، وبالناس السكارى وما هم بسكارى من خمر بل من هول الساعة. قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَـٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَـٰرَىٰ وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾[1]

ترسم اللفظة (زلزلة) صورة عقلية للحركة التي تحدث في تلك الساعة التي أخفى الله تعالى موعد حدوثها عن البشر، ولو تصوّرنا أنّ الله تعالى جعلها معلومة لتوقّفت الحياة اليومية، وعزف الناس عن العمل، ينتظرون وقتها المعلوم، ولتوقّفت جميع النشاطات العلمية والعملية، ويحدث ما يحدث من أهوال، ولذا كان موعدها من الغيبيات، وعندما يحين موعدها تحدث الزلزلة في السماء فتتهاوى النجوم والكواكب عن مساراتها، وتحدث الزلزلة في الأرض فتتحطّم المباني والمصانع والبيوت، وتتحرّك الجبال من قواعدها، وتتحوّل الى أتربة متطايرة.

وينتقل الفزع والهول الى الإنسان، فإذا بالناس حشود مضطربة، تتدافع في كلّ اتجاه، لا تعلم أين المفر، فالمرأة الحامل يسقط حملها دون إرادتها، والمرضعة يفلت طفلها من بين يديها ولا تعلم به، والناس يتمايلون ويترنحون كأنهم سُكارى، وما هم بسكارى من شرب أو مرض، إنه الفزع الذي يسلب العقول ويصرع الجسوم.

وفي صورة ذهنية أخرى نجد أن هذه الأرض التي تعرّضت الى زلزلة عنيفة بعد النفخة الأولى تتحدّث بعد النفخة الثانية عن أعمال الإنسان من خير أو شرّ قام بها على ظهرها، وقد أمرها الله تعالى أن تخبر عن ذلك. قال تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ ٱلْإِنسَـٰنُ مَا لَهَا ۝٣ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾[2]

ولنتصوّر بعد اضطراب الأرض وحركتها بعنف، وقد أخرجت ما في بطنها من أموات ومعادن الى سطحها من شدّة الزلزلة، فأصيب الإنسان بدهشة مما حصل للأرض، هذه الأرض التي تتحدّث يوم القيامة عن الأخبار جميعاً، وبإيحاء من الله تعالى، وبصوت واضح يسمعه ذلك الإنسان الذي كان على ظهرها، وقد فعل ما فعل، حينئذ يتذكر جميع أعماله، وكأنّ حديث الأرض شهادة صادقة بوجه كلّ من ينكر.

وهاهم أصحاب النار الذين كفروا بآيات الله يصلون النار الحامية، فتنضج جلودهم، ويتبدّل لونها لشدّة النار، ويستمر تبدّلها من جديد ليدوم الإحساس بالألم، جزاء كفرهم

---

(١) الحج ٢.
(٢) الزلزلة ١-٥.

وإصرارهم عليه. قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾[1]

إنّ هذا المشهد الذي تتصوّره المخيّلة لا يكاد ينتهي، فهو يتكرر الى ما لا نهاية، إذ يشخص أمامنا الذين كفروا بآيات الله البيّنات، فتصليهم النار وكأنها على موعد معهم، ولهذا الهول جاذبية آسرة للمخيلة، فالجلود التي لامستها النار بدأت تتحوّل الى اللون الأحمر الداكن، وهذا يدل على أنها بلغت حدّ النضج ولم تتجاوز الى الاحتراق والتفحم، ولو أنها احترقت أو تفحمت فإنّ الإحساس بالألم ينعدم، وهذا ما يتمناه الكفار، وكأنّ الجلود تحمل مقياساً ثابتاً للحرارة التي تصل الى حد النضج وتقف عند هذه الدرجة التي هي قمة الإحساس بالألم، ثم تعاد الصورة من جديد، فيكتسي الكفار بجلد جديد، ومثل هذا التكرار يزيد من إحساسهم بالألم والعذاب، وهذا هو جزاء الكفار.

وننتقل الى مشهد آخر أثار الخيال لدى المخاطب، وأثار جدالاً لدى الكفار عن شجرة الزقوم التي تنبت في أساس الجحيم، وثمرها مدبب كرؤوس الشياطين، وهي المصدر الوحيد لطعامهم الذي يملؤون منه بطونهم دون شبع. قال تعالى: ﴿ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴾[2]

لا يعرف الناس ما شجرة الزقوم كيف تكون، ولكنّ القرآن الكريم ذكر أنها تنبت في أصل الجحيم، وثمرها كأنه رؤوس الشياطين، والناس لا يعرفونها لأنهم لم يروها، ولكن تخيّلها يثير الفزع والرعب، فكيف يأكلون من هذا الثمر ويملؤون بطونهم منه؟ لقد جعل الله تعالى هذه الشجرة فتنة للكافرين، حين سمعوا باسمها سخروا وقالوا: كيف تنبت هذه الشجرة في الجحيم ولا تحترق؟ وحرارة الجحيم أشدّ حرارة من حرارة الدنيا. ولكن شجرة الزقوم شيء آخر ليست مثل الأشجار الأخرى، وثمرها ليس طعاماً هنيئاً، بل ثمراً شائكاً مدبباً يجرح الأفواه، ومرارته تلذع الألسن، وبعد تناوله يهرعون الى شراب لعله ينقع غلتهم، ويطفئ اللهيب في أفواههم، وإذا به ماء ساخن، مشوب بالعرق وماء الجلود المحترقة، وبعد هذه الوجبة الدسمة يغادرون تلك الشجرة عائدين الى نزلهم في أطراف الجحيم، ويا له من نزل من المنازل.

ثانيا: الصورة الكليّة (المركبة):

الصورة الكليّة أو المركبة هي اتحاد الصور المفردة أو الجزئية وتلاحمها وتلازمها لتكوين صورة متكاملة، والصورة المفردة تجسّد التجربة الأدبية، وما فيها من لمسات

---

(١) النساء ٥٦.

(٢) الصافات ٦٢-٦٧.

وجدانية ونفسية وعاطفية وفكرية، وندعو تجمعها بشكل كلي ومتكامل بالصورة الكلية. فالصورة الكلية نتاج أدبي يحسن مذاقه، ويتحقق تأثيره في المتلقي، فتلاحم الصورة المفردة وانسجامها مع الصور المفردة الأخرى يخلق صورة كلية شاملة لتلك الأجزاء، ويخرج النص وكأنه مسبوك في قالب متين، ذي شكل مستو لا ثغرات ولا عيوب تتخلل ذلك القالب.

وقد ورد مصطلح التركيب في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾[1] أي ركّب أعضاء جسم الإنسان على وفق الشكل الذي يريد الله تعالى. وقوله تعالى: ﴿ نُّخۡرِجُ مِنۡهُ حَبّٗا مُّتَرَاكِبٗا ﴾[2] أي حبّاً متجمعاً متراصاً مكوناً للثمرة الواحدة، وباجتماع هذا الحب المتراكب يتكوّن الشكل والصورة لهذه الثمرة.

وبعد البحث في الخطاب القرآني عن الصورة الكلية أو المركبة من صور عدّة وجدناها تدور حول موضوعات أساسية، وهي: الإيمان بالله تعالى، وعرض البراهين على وحدانيته، والدلائل على تدبيره في ملكوته في السماوات والأرض وما فيهما من الخلق. والصورة المثالية للمؤمن وأعماله. وصورة الكفار وأعمالهم. وصورة الحياة الدنيا والحياة الآخرة وما فيها من جنة ونار.

وتتجلى لنا صورة القرآن الكريم التي تركّبت من صور متراكمة، توحّدت في صورة جامعة له، نتبيّنها في قوله تعالى: ﴿ وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا أَعۡجَمِيّٗا لَّقَالُواْ لَوۡلَا فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥٓۖ ءَا۬عۡجَمِيّٞ وَعَرَبِيّٞۗ قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۚ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًىۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوۡنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ ﴾[3]

الصورة الأولى ترسم ملامح الجدال في لغة القرآن الكريم ومعانيه، وهي أن هذا القرآن قد نزل بلغة عربية إبعاداً للمهاترات والجدال، ولو نزل أعجمياً بلغة أخرى لقالوا لا نفهمه، فهلاّ بيّنت أو فصّلت آياته بلسان نعرفه، بل نريده قرآناً عربياً، وبذا طويت صفحة ذلك الجدال بدحض حججهم. والصورة الثانية أن هذا القرآن هدى وشفاء للمؤمنين، فهو ينقلهم من طريق الكفر والضلال، ويهديهم الى طريق الحق، بعد أن تعطى لفطرتهم الإنسانية حقّها من سماعه وتدبّره، فيكون دواء للقلوب، وشفاء للنفوس، فسماعه يزيل الغم والحزن عن النفس، ويعطيها شحنات من القوّة والثبات، والأمل والتفاؤل، لتقف على حقيقة أمرها، ففي القرآن من الأحداث والعبر التي مرّت بالأنبياء والرسل ما لم تحدث لغيرهم، فيأتسي المؤمنون بها، وتتحوّل مصاعبهم الى نقطة ضئيلة بحيث تقوى النفس عليها. والصورة الثالثة أنّ هذا القرآن لمن أصرّ على الكفر والعناد يسدّ آذانهم فيصيبها صمم يمنعها من سماعه، ويسري الى أعينهم فيغطيها بظلمة تستولي عليهم فلا يرون طريقهم،

---

(١) الانفطار ٨.
(٢) الانعام ٩٩.
(٣) فصلت ٤٤.

ولا يهتدون الى سبيلهم، وذلك لأنّ فطرتهم لو تركت على حالها فإنها تتأثر بكلام الله تعالى، ولكنهم يصدونها عن الاستماع، وتنجذب قلوبهم اليه فيحجرونها لتكون قاسية كالحجارة، ويوم القيامة ينادون من بعيد شأنهم في عدم تقبل رؤية الحق وسماعه شأن الرجل الذي يناديه رجل آخر من بعيد فإنه لا يرى شخصه، ولا يفهم صوته.

وفي صورة كليّة أخرى تدور مشاهدها بين النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) وبين الكفار الذين يمتنعون عن سماع القرآن الكريم، والاستجابة لدعوته الى الإيمان بالدلائل والبراهين المبيّنة لهم. قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴾(١)

تبيّن لنا الصورة الأولى النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) وهو يقرأ القرآن، فيحيط به حجاب أو ستر خفي يمنع الكافرين من سماعه، ولكنه لا يمنع الفطرة الإنسانية من التأثر به والميل نحوه، ويأتي منع هذه الفطرة من طلب المزيد لأن صاحبها قد كفر بالله، وكذّب آياته، وأصرّ على كفره، فألجمت هذه الفطرة من حركتها. وفي الصورة الثانية توضع أغطية مانعة على القلب لئلا يتحرّك إحساسه بعد سماع هذا القرآن، وكأنه صندوق وقد أقفل نهائياً، فلا يدخل اليه شيء، ولا يخرج منه شيء. وصورة ثالثة يكون التوجّه فيها الى أحد الحواس وهي الأذن التي تسمع كلام الله، ولئلا تتأثر فقد دخلها الوقر، وهو الثقل الذي يؤدى الى الصمم وعدم السماع، وبذا نرى الكافر وقد أغلقت منافذ إحساسه. وها هو في صورة رابعة نتفهّم سبب هذه الإجراءات التي اتخذت ضدّه وهو حين يسمع القرآن ويملأ سمعه ذكر الله وحده فإنه يهرب ليس خشوعاً بل حمية، لأن من أشركهم مع الله وحاشاه لم يذكروا معه، فاستحق لذلك السجن النفسي.

ومن الصور الكليّة المتركّبة من أجزاء متعددة صورة الماء في السماء، وتكوّنه من السحب التي تساق الى الأرض الميتة، لينزل عليها الماء، وينبت فيها النبات فيحييها، ومثل هذه الصورة المركّبة من مشاهد عدّة يستدل بها على قدرة الله في إحياء الموتى. قال تعالى:

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾(٢)

---

(١) الاسراء ٤٥-٤٦.
(٢) الروم ٤٨-٥٠.

هذه الصورة مركّبة من عدّة لوحات أو مشاهد أو صور منفردة تجمّعت وكوّنت مثل هذه الصورة، وإننا مدعوون للنظر في مشاهد تكوّن الماء في السماء، وهي مشاهد متلاحقة متتابعة، تعرض على مهل وتؤدة، إذ يفصل بين مشهد وآخر بأداة العطف (ثم) للتراخي لإعطاء فسحة زمنية للتأمّل والتدبّر في قدرة الله تعالى على ذلك الصنع البديع، وهذه المشاهد هي أن الله تعالى يرسل الرياح، فيثير السحاب الذي يتجمع من الأبخرة المتصاعدة من البحار والأنهار، ويبسطه في السماء، وينشره في جوّها، ويجعله كسفاً متراكماً بعضه فوق بعض مثقلاً بالماء، ويخرج المطر من خلاله، وينزله من السماء إلى الأرض، فيستبشر به عباد الله لإحيائه الأرض الميتة بعد أن كانوا يائسين من كلّ خير. وقوله (فانظر إلى آثار رحمة الله) دعوة للنظر في هذه المشاهد المتتابعة فبعد استعراضها للعين والخيال، وبعد تركها لأن تؤثر في النفس على مهل يأتي التقرير بأنّ الله قادر على الإحياء، إحياء الأرض وإحياء الموتى الذي أنكره المشركون.

ونأتي الى صورة وجود الماء على الأرض وقد نزل من السماء، فتسيل به الأودية، ويؤلف جانباً من الصورة، تسيل بقدر طاقتها من الماء وحاجة الأرض اليه، فيحمل معه زبد الأرض أو غثائها من تراب ومعادن، فأمّا الرغوة من التراب والعشب فيذهب إذ لا نفع منه، وأمّا المعادن فأنها تجمع ويوقد عليها لتصهر، ويصنع منها الحلي للزينة، ومن الحديد والنحاس تصنع الأدوات وغيرها. وأما الماء فإنه يجري فمنه شراب للناس والدواب، ومنه لسقي الزرع. قال تعالى: ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًاۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءًۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[2] وقوله تعالى: ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴾.[3]

وتؤدي الصورة الكلية التي تتجمع أطرافها غرضاً يراد منه بيان الفرق بين الحق والباطل، بين الدعوة الى الخير الذي هو باق وبين الشر الذي هو زائل، وإنزال الماء من السماء وجريانه في أودية يتناسق وصورة تكوّنه في السماء، هذه الأودية تسيل بقدرها أي بقدر طاقتها في استيعاب الماء النازل، وحاجة الناس والدواب والأرض اليه، وفي جريانه

---

(١) الرعد ١٧.
(٢) النحل ١٠-١١.
(٣) عبس ٢٤-٣٢.

يحمل معه زبد الأرض من التراب والعشب والمعادن، فهذا الزبد راب منتفخ، وهذا الماء سارب ساكن، فأما الطين والعشب فإنه يذهب دون الاحتفاظ به، فلا حاجة لهم به، وأما المعادن كالذهب والفضة فإنها تجمع وتوقد عليها النار لصنع حلية تتزيّن بها النساء، وأما المعادن الأخرى كالحديد والنحاس فمنها تصنع الآلات والأدوات النافعة، فالخبث من الزبد يطفو بحيث يحجب المعدن الأصيل، ولكنه بعد مدّة يذهب ويبقى المعدن النقي. ذلك مثل الحق والباطل في هذه الحياة، فالباطل يطفو ويعلو وينتفخ ويبدو رابياً مثل الزبد ولكنه ما يلبث أن يذهب جفاء مطروحاً غير مرغوب فيه، والحق يظل هادئاً ساكناً، وربما يحسبه المرء قد انزوى أو غار أو انتهى، ولكنه هو الباقي في الأرض كالماء الذي يتسرّب بخفاء فينفع الناس.

وقوله (منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون) هذا الماء يذكّر هنا بنعمة من نِعم الله وهي خصوصية الشراب الذي تبرز في هذا المجال، ثم خصوصية الرعي وهي أن المراعي التي يربّون فيها السوائم، ثم الزروع التي يأكل منها الإنسان، ثم الأشجار والثمار. وفي ذلك نتبيّن أساس النظام وهو التوزيع العادل لهذا الماء بين المخلوقات، لأنه أحد أسس الحياة.

وقوله (إنا صببنا الماء صبّا. ثم شققنا الأرض شقا. فأنبتنا فيها...) الأفعال تسند الى الله تعالى، فهو الذي يصب الماء من السماء الى الأرض، وهو الذي يشق الأرض ليجري فيها الماء، وهو الذي ينبت النبات، وما على الإنسان سوى بذر الحب ويتوقف عمله، فلا يقدر على إنباته، والطعام الذي ينتج عن صب الماء، وشق الأنهار، وإنبات النبات هو أحد أسس الحياة أيضاً، وبعد تلاحم تلك الأجزاء وتناسقها تتكوّن لوحة الحياة بألوانها الزاهية وحركتها الطبيعية.

ويرسم القرآن الكريم للبحر صورتين، صورة في حالة هدوئه وسكونه، وصورة في حالة ثورته وهيجانه، وبيان دور الخالق في تحريك هاتين الصورتين. فالصورة الأولى للبحر وهو في حالة السكون صورة كليّة تتألف من مشاهد متنوّعة مثل: تسخير البحر، وصيد الأسماك، والغوص لاستخراج اللؤلؤ والمرجان للزينة، وجريان الفلك والسفن للتجارة. قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[(١)]

هذه المشاهد لصورة البحر تبدأ بتسخير البحر وجعله هادئاً ساكناً ذلولاً مطيعاً تلبية لحاجة الإنسان، ولنا أن نتصوّر أن هذا البحر المارد الهائج الذي لا يستطيع الإنسان أن يمسك بزمامه لسعته وعمقه وعلو أمواجه، يجعله الله تعالى وديعاً هادئاً، يمتطيه الإنسان بسفنه، فيصطاد منه سمكاً طريّاً، ويغوص في أعماقه فيستخرج منه اللؤلؤ والمرجان، وبعض الأصداف والقواقع التي تتحلى بها بعض النساء، وتجري فيه الفلك والسفن لنقل الناس والأمتعة، والسعي في طلب التجارة وابتغاء الرزق.

---

(١) النحل ١٤.

وينبغي أن ننظر الى الجانب الجمالي في هذه الصورة الكلية، فالسياق يوجهنا الى النظر في مشهد البحر الهادئ الممتد الى آفاق بعيدة حيث يتلاشى الخط الفاصل بين السماء والبحر، والتعبير عن رؤية الفلك يشي بتلبية حاسة الجمال لا لمجرّد الركوب والانتقال، أو القيام بصيد السمك واستخراج اللؤلؤ والمرجان، وإنما التمتع برؤية الفلك وهي تشق المياه، وتفرق العباب، وتعبّر عن قدرة الله التي أخضعت هذا المارد لأضعف الخلق.

والصورة الثانية صورة البحر في حالة ثورته وهيجانه، فيرينا موقف الإنسان الذي لا يعرف ربّه الاّ في ساعة الضيق والخوف، حتى إذا انجلى الضيق وجاء الفرج، واطمأنّ نسي ربّه. وهذه المشاهد التي تبدو في هذه الصورة، تسيير الله تعالى الإنسان في البر والبحر، وركوب البحر بريح هادئة، ومجيء ريح عاصف، وارتفاع الموج من كلّ جانب، ودعاء الإنسان لله أن ينجيه، وبغيه بعد نجاته. قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾(١)

نحن أمام صورة حافلة بالحركة، تموج بالمشاهد المتتابعة، وترسم صورة لنموذج إنساني وهو يركب الفلك، فتتحرّك برخاء ويسر، فيفرح بتلك الرحلة، وفي أثناء هذا السرور الغامر تقع المفاجأة، إذ تهب الريح العاصف، وترتفع الأمواج الى عنان السماء، وتتماوج الفلك وتضطرب بمن فيها، وتلاطمها الأمواج فتتحطم الأشرعة، وترتفع الأنفاس مع حركة السفينة، وتظنّ أنه الهلاك ولا مجال للنجاة، عندئذ وفي وسط هذا الهول المتلاطم تنتفض الفطرة الإنسانية عما أصابها من الصّدأ والطمر، وتهفو القلوب بعد أن ران عليها من تصوّرات خاطئة، وتتجه النفوس الى المنقذ الوحيد الذي يستطيع أن ينجيها من هذه المحنة، وترتفع الأيدي بالدعاء الخالص، وهو العودة إلى الإيمان بالله، وتهدأ العاصفة، ويستقر الموج، وتهدأ الأنفاس والنفوس، وتسكن القلوب المضطربة، وتصل السفينة الى برّ الأمان، وما إن تستقرّ أرجلهم على اليابسة حتى عادوا الى ما كانوا عليه من البغي والفساد، وإن هذا الوبال يعود عليهم.

وتعمل الصورة الكلية على إبراز جمالية الأرض في مشاهد متعددة، تتكامل فتشكّل وحدة منسجمة، وهي مدّ الأرض وبسطها، ووضع الجبال الرواسي فيها، وتفجير الأنهار وإنبات النبات المتوازن في خلقه من ذكر وأنثى، وجعلها مؤهلة للعيش والحياة فيها. قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ

(١) يونس ٢٢-٢٣.

﴿ ٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[1]وقولـه تعـالى: ﴿ وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡزُونٖ ١٩ وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسۡتُمۡ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴾[2]

إنّ النظرة الكلية الى صورة الكون تتجسّد في رسم لوحة للأرض بعد لوحة السماء، وإنّ بناء السماء الواسعة يقابله على الأرض مد الأرض وبسطها، وامتدادها على مدى البصر، ولا يهم ما يكون شكلها الكروي على حقيقته، وهذا المشهد يبث في الخلق الأمن والاطمئنان، والإشارة الى البروج الضخمة في السماء يقابله الجبال الرواسي على الأرض، وهي سلاسل جبلية مثبتة في عمق الأرض، تعمل على ضبط حركة الأرض ودورانها بانتظام دون اضطراب أو تخلخل يؤدي إلى تحطّم ما فوقها. وهذه الأنهار الجارية في مشهد يبيّن التناسق بين المرتفعات والوديان، تسقي الأرض فينبت الزرع والأشجار والثمار بتوازن من كلّ زوجين الذكر والأنثى.

هذه الحقيقة لم يعرفها البشر، وهي أنّ النبات كالحيوان مكوّن من جنسين الذكر والأنثى، وكان يعتقد أنه من جنس واحد، ومن خلال العلم توصّل إلى أنّ النبات يضم الجنسين معاً، فالزهرة تحمل أعضاء التأنيث والتذكير معاً، مما يدل على ثنائية الخلق ووحدانية الخالق. وقوله (وجعلنا لكم فيها معايش) وهي الأرزاق المؤهلة للعيش، وهي كثيرة شتى، يجملها السياق هنا، وهي أرزاق الله التي جعلها لهم من خلال العمل في الأرض.

وينتقل السياق الى تصوير الأرض بمشاهد متناسقة متتابعة وهي: جعل الأرض ذلولاً للسعي في مناكبها، وإحياء الأرض الميتة، وإنبات النبات وإخراجه منها، وإعمارها بجنات من النخيل والأعناب، وتفجير العيون لسقيها، والأكل من رزقه. قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولٗا فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ ﴾[3]وقوله تعالى: ﴿ وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلۡأَرۡضُ ٱلۡمَيۡتَةُ أَحۡيَيۡنَٰهَا وَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهَا حَبّٗا فَمِنۡهُ يَأۡكُلُونَ ٣٣ وَجَعَلۡنَا فِيهَا جَنَّٰتٖ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَٰبٖ وَفَجَّرۡنَا فِيهَا مِنَ ٱلۡعُيُونِ ﴾[4]

هذه الأرض الواسعة الممتدة الى ما ينتهي البصر تتحوّل الى أرض ذلول خاضعة مطيعة لمن يمسك بزمامها، والناس لطول مقامهم عليها، واستقرارهم على أديمها، وسيرهم في طرقها، واستغلالهم لتربتها وهوائها ومائها وكنوزها ينسون نعمة الله في تسخيرها لهم، والقرآن الكريم يذكّرهم بهذه النعمة العظيمة، والتذليل والإخضاع- كما يتصوّر الإنسان- لا يكون الاّ للحيوان، وكيف يطبق ذلك على الأرض؟ نقول: من الممكن أن ترفض هذه

---

(١) الرعد ٣.
(٢) الحجر ١٩-٢٠.
(٣) الملك ١٥.
(٤) يس ٣٣-٣٤.

الأرض السير عليها فتغور بمن يسير، أو ترفض الفلك التي تمخر عباب بحارها، فتعصف به وتغرقه، أو تمنع إنبات النبات أو غير ذلك، ولكن الله تعالى روّضها وجعلها طائعة له ومسخّرة لخلقه.

ولبيان قدرة الله تعالى في إحياء الموتى لمن يكذّب ذلك أحيا الأرض الميتتة أمامهم بعد أن فجّر فيها العيون، وأنبت فيها النبات، وأخرج منها الحبوب التي تطحن وتؤكل، وزيّنها بالجنّات من النخيل والأعناب والثمار، فتجري فيها الحياة، ومثل هذه المعجزة لا تملك يد البشر القدرة على القيام بها، وإنما يد الله تعالى هي التي بثت فيها الحياة، ويمكن رؤية ذلك في الزرع الذي يشق الأرض، ويتطلع الى النور، ونموّ العود وتفرّعه بالبراعم والأوراق والأزهار، ثم تفتّح الأزهار ونضج الثمار، وتهيئتها للجني والقطاف.

ويبدو التكامل واضحاً في تصوير الأنعام، وكأننا إزاء تعريف بها، وهي أحد عناصر الطبيعة التي تصوّر لبيان قدرة الله تعالى في الخلق، وفي بيئة مثل البيئة العربية التي نزل فيها القرآن الكريم والبيئات الريفية بعد ذلك، تبرز أهمية الحاجة الى الأنعام، والأنعام كما تعرف هي: الإبل والبقر والأغنام والماعز والخيل والبغال والحمير. وتتجلى المشاهد تباعاً فمنها يكون الدفء والمنافع والأكل، وفيها الزينة التي يحس بها صاحبها، ومنها ما يحمل الأثقال من بلد الى بلد، ومنها تصنع البيوت كالخيام، ومن الصوف والوبر والشعر تصنع الآثاث. قال تعالى: ﴿ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴾[2]

يعرض السياق صورة متكاملة للأنعام من جانبين، جانب يلبي حاجات الإنسان الضرورية كالدفء باستخدام الصوف والوبر والشعر، ومنافع في أكل لحومها وتناول لبنها ومشتقاته، وفي حمل الأثقال من بلد الى بلد بعيد لا يبلغه الإنسان الاّ بالعناء والتعب، ومن جلودها تتخذ البيوت كالخيام التي تكون خفيفة الحمل عند الرحيل والانتقال من مكان لآخر، ومن صوفها ووبرها وشعرها تصنع الفرش والأغطية والوسائد مما يكمل صورة البيت الذي يوفر السكن والاستقرار وهذه نعمة لا يقدّرها حقّ قدرها الاّ من لا سكن له ولا استقرار، وجانب آخر يلبّي الناحية الجمالية التي يرغب الإنسان في إظهارها تلبية لحاجته الوجدانية في التميّز على غيره. فهذه الأنعام التي يرعاها عند الرواح في المساء وعند السراح في الصباح يجد في مشيتها وهو ممسك بعصاه يهشّ عليها متعة بمنظرها، وهي

---

(١) النحل ٥-٨.
(٢) النحل ٨٠.

فارهة سليمة سمينة، ولا يدرك مثل هذه المتعة في أعماق النفس الاّ أهل البادية والريف، وفي ركوب الخيل والجمال زهو وإحساس بالفروسية والقوّة وزينة للناظرين.

وينتقل السياق الى الإنسان ابن هذه الأرض، فمن ترابها تكوّن، وعلى ترابها عاش، ومن ترابها أكل وشرب، وفي ترابها يدفن، ولم يكن خلقه وإنشاؤه مصادفة عابرة، ولا خبط عشواء دون قصد وتدبير، فقدرته على الخلق على وفق المقياس الإنساني أهون من إعادة الخلق، وعلى هذا المقياس لابد أن يمرّ خلق الإنسان بمراحل عجيبة يمكن أن تتخذ مقدمة لتقرير حقيقة الحياة وهي بيد الله تعالى، إذ تبدأ بمراحل متتابعة من التراب أو الطين وهو المصدر الأول وتنتهي بالإنسان الكامل، وهذه الحقيقة التي يعرضها القرآن الكريم لا تحتاج الى تأييد أو برهان من النظريات العلمية التي تبحث في أصل الإنسان. قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗا ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلۡنَٰهُ نُطۡفَةٗ فِي قَرَارٖ مَّكِينٖ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقۡنَا ٱلنُّطۡفَةَ عَلَقَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡعَلَقَةَ مُضۡغَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡمُضۡغَةَ عِظَٰمٗا فَكَسَوۡنَا ٱلۡعِظَٰمَ لَحۡمٗا ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ﴾[2]

إننا إزاء صورة تجميعية أو مركّبة من عدّة مراحل أو مشاهد تبدأ بالتراب، ثم الطين، ثم النطفة، ثم العلقة، ثم المضغة، ثم العظام، ثم اللحم، ثم الطفل، ثم الإنسان البالغ، ثم الإنسان العجوز، فالتراب هو المصدر الأول لخلق الإنسان، والطين هو التراب الممزوج بالماء ليسهل تشكيل الإنسان المخلوق، والمسافة الزمنية بين التراب وبين النطفة المؤلفة من الخلايا الحية مسافة هائلة، تتضمن في طيّاتها سرّ الحياة، وهذه النقلة الكبيرة بين الطين والإنسان لا يعلم الاّ الله كيف تمّت، وبعد إتمام خلق الإنسان لابد له أن يتكاثر عن طريق التزاوج، أي التقاء النطفة بالبويضة، واتحادهما واستقرارهما على جدار الرحم في صورة علقة. والنطفة من ماء الرجل تحمل آلاف الحيوانات المنوية، وحيوان واحد منها هو الذي يلقّح هذه البويضة، فمن دعا ذلك الحيوان الى أن يلقّح هذه البويضة دون الألوف غيره؟ وهذه العلقة المعلّقة بجدار الرحم تكمن فيها جميع خصائص الإنسان المقبل، مثل صفاته الجسدية كالطول والقصر، والوسامة والقبح، والصحة والمرض، وصفاته العقلية والعصبية والنفسية، وما يمتاز به من ميول وطباع ونزعات وغيرها.

---

(١) الحج ٥.

(٢) المؤمنون ١٢-١٤ وينظر غافر ٦٧ والسجدة ٧-٩.

وتنمو تلك العلقة فتتحوّل الى مضغة، وهي قطعة من دم كثيف، لا تحمل سمة ولا شكلاً، وقد تلفظ فتسقط وتنتهي، وقد تخلّق فتتخذ شكلاً معيناً وهو الهيكل العظمي، ثم يكسى الهيكل باللحم تدريجياً، وهنا يقف الإنسان مندهشاً أمام حقيقة يكشفها القرآن الكريم قبل أن يصل اليها علم الأجنة وهي أنّ خلايا العظام غير خلايا اللحم، وقد ثبت أنّ خلايا العظام هي التي تتكوّن أولاً في الجنين، وبعد تمام الهيكل العظمي للجنين تتكوّن خلايا اللحم، فسبحان الله العليم الخبير. ثم يمضي السياق مع مراحل نمو الجنين خلال تسعة أشهر حتى يحين موعد الوضع أو الولادة، فيخرج الطفل الى العالم، وهذه المدّة الزمنية التي استغرقت تسعة أشهر عرضها القرآن الكريم خلال تسع ثوان قراءة أو سماعاً، وكشف عن أسرارها التي لا نعرف عنها شيئاً، وأغنانا عن عرض الخلية للتصوير لمراقبة تطوّرها، فيأخذ منا وقتاً طويلاً وجهداً كبيراً.

ويخرج الطفل وقد فارق ملاذه الآمن وهو الرحم فيصبح خلقاً آخر غير الخلق الذي كان عليه من قبل، فقد اكتملت جميع أعضاء جسده، ويحمل خصائص تميّزه عن غيره، وهبها الله له عن تدبير مقصود، فتبارك الله أحسن الخالقين في إبداعه فطرة الإنسان، وإيصاله الى مرحلة الكمال وأدق ما يكون من النظام، ويقف السياق عند بعض المراحل البارزة وهي مرحلة الطفولة، ثم مرحلة بلوغ الرشد وهي تمثل أقصى القوّة بين ضعفين، ثم مرحلة الشيخوخة، وقد يتوفى قبل أن يبلغ المراحل جميعها أو بعضها، وذلك بحسب الأجل الذي قدّره الله تعالى. ومن يبلغ أرذل العمر فإنه يفتح صفحة للتأمّل، فبعد الوعي والرشد يرتد طفلاً في ضعفه وعواطفه وانفعالاته، صغيراً في تقديره وتدبيره، أكثر شيء يرضيه، وأقل شيء يبكيه، وذاكرته لا تحتفظ بشيء، ولا تستحضر أحداثاً، ولا يستطيع أن يربط بينها، أو يصل الى نتيجة ما، لأنه ينسى قبل أن يأتي الى آخرها.

وتؤطر صورة خلق الإنسان لمسات فنية تتعلّق بصفاته مما يكمل تلك الصورة المجزأة، ولمسة واحدة مثل حمل أمه له، ووضعه بجهد وعناء تبيّن مقدار هذه التضحية الكريمة التي تتقدّم بها الأم، ولا يمكن أن يجزيها إحسان أو ثناء. قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾[(١)]

هذه الصورة بتركيب ألفاظها وجرسها تكاد تجسّم الجهد والعناء، وكأنها آهات تصدر عن تلك المرأة الحامل وهي تضع وليدها، وكانت تنوء بحمله، وتتنفس بصعوبة بالغة. ويكشف لنا علم الأجنة في عملية الحمل عن مقدار التضحية والنبل في صورة مؤثرة، وهي أنّ البويضة بمجرّد تلقيحها والتصاقها بجدار الرحم تحتاج الى دم الأم الذي يساعدها في النمو، فتمتصه لتحيا به، والأم المسكينة تأكل وتشرب، ويهضم الغذاء ويمتص، لتقدّم هذا

---

(١) الاحقاف ١٥.

كله دماً نقياً لهذه البويضة النهمة، وفي فترة تكوين عظام الجنين يشتد امتصاصها للكالسيوم من دم الأم فتفتقر اليه، لأنها تعطي محلول عظامها في الدم لتكوين هيكل هذا الجنين.

وعند الوضع أو الولادة وهي عملية شاقة، وآلامها حادة ولكنها لا تقف بوجه فطرة الأمومة وحلاوة الثمرة التي تجنيها، وهي ثمرة منح الحياة لكائن يظهر الى الوجود، وفي فترة الرضاعة تعطي الأم لبنها للوليد وهو عصارة دمها، وتهب عصارة قلبها وأعصابها لرعايته، ولا تنقطع عن رضاعته حتى يبلغ احدى وعشرين شهراً، وهي مع ذلك فرحة سعيدة به، ورحيمة ودودة معه، لا تملّ ولا تكره تعبه، ولعل أكبر ما تتطلع اليه من الجزاء أن تراه ينمو ويكبر ويمرح فتصيبها فرحة غامرة.

وحين يبلغ هذا المخلوق أشدّه أي بين الثلاثين والأربعين سنة، وفيها تكتمل جميع قواه وطاقاته الجسمية والعقلية، بحيث يتهيّأ الفكر للتدبّر في خلق الكون وكيفية خلقه وتدبيره، فتدعوه فطرته السليمة الى معرفة ربّه، فيشكر نعمته، وأن يديم هذا الشكر، وأن يعمل عملاً صالحاً يرضاه، وأن يصلح في ذريته، فيعلن عن توبته الخاصة ليكون في زمرة المسلمين.

واللمسة الثانية في صورة خلق الإنسان وهي أن الله الوهّاب يخلق ما يشاء من الخلق، وحسبما يراه في صلاح هذا الكون، ولا يردّه راد أو يعترض على حكمه معترض، فهو مالك السماوات والأرض، وقد قدّر أمور البشر، فيخلق لمن يشاء البنات، ويخلق لمن يشاء البنين، ويخلق لمن يشاء النوعين أو الزوجين البنين والبنات، ويجعل من يشاء عقيماً ليس في ماء الرجل ذرية، أو ليس في مبيض المرأة بويضة سليمة. قال تعالى: ﴿ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾[(١)]

في هذه الصورة الكلية التي تنبئ عن أن الأمر كله بيد الله، فهو ملك السماوات والأرض، وكلّ ما يصدر عنه حق في إصلاح الكون وسننه، وقدّر شأن الخلق ودبّره، وفصّل عطاءه ورزقه للبشر حتى في الذرية، فيخلق لمن يشاء من الناس البنات، وقد كان بعضهم يكرهون البنات، لأنها لا تحمل اسمهم، ويعتقدون أنها أحد أسباب جلب العار لهم، ومثل هذا الاعتقاد خاطئ، فوهب لهم البنات رغماً عنهم، ويخلق لمن يشاء البنين، أو يزوّجهم أي يعطيهم الزوجين أي النوعين الذكر والأنثى، أو يجعل من يشاء عقيماً، والعقم لا يرغب فيه أحد لأنه انقطاع في سلسلة النسب، ويحدث للرجل فتنعدم في مائه الذرية، ويحدث للمرأة فيصاب مبيضها بالعلل والمرض، ويحرم الزوجان من الأبناء، وكل هذه الصور والأحوال لا يتدخل فيها أحد سواه، ولا يقدّرها أحد غيره، وهو العليم القدير.

واللمسة الثالثة تتعلّق بتصوير حالة الهلع والخوف التي تصيب الإنسان في حالتي الخير والشر، وفي حالتي امتلاء القلب بالإيمان أو خلوّه منه، فيصيبه الجزع في موقف

---

(١) الشورى ٤٩-٥٠.

الشر، ويصيبه البخل والتقتير في موقف الخير والنعمة خوف نفادها. قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴾[2]

يرسم القرآن الكريم صورة عجيبة في صدقها وتعبيرها الواضح عن الملامح الأصيلة لهذا المخلوق، وكأنها لمسات من ريشة مبدعة، تضع ملامح هذا الإنسان، وبعد اكتمال أجزائها أخذت تلك الصورة تنبض بالحياة، وتنطق معبّرة عن سماته وملامحه الثابتة، وهي أنه خلق هلوعاً جزوعاً عند مسّ الشر، يتألم من لذعته، ويجزع من لوعته، ويحسب أنه دائم لا ينكشف عنه، وإنّ اللحظة التي تمر عليه سرمداً، ويحبس نفسه في دائرة أوهامه، فلا يتصوّر أنّ هناك فرجاً، ولا يتوقع من الله تغييراً، وحين يأتيه الفرج وتتكشف عنه الكربة، وتتبدّل حاله، ويفيض عليه الخير والرزق يحسب ذلك من كدّه وكسبه، ويضن به على غيره، ولا يدرك الحقيقة وهي أن الرزق من الله، وليس من كدّه فحسب، فنراه هلوعاً من الشر وهلوعاً في الخير.

وقوله (ربّي أكرمني) وهو تصوّر الإنسان لما يبتليه الله به من أحوال التوسعة والإفاضة، يبتليه بالنعمة من المال والأولاد والمقام، فلا يدرك أنه ابتلاء، بل يحسب أنّ هذا الرزق وهذه المنزلة دليل على استحقاقه، وعلامة على رضى الله عنه، فيعتبر البلاء جزاء، ويقيس المنزلة عند الله بعرض الحياة الدنيا. وقوله (ربّي أهانني) يبتليه الله بالتضييق عليه في الرزق، فيحسب هذا الابتلاء جزاء كذلك، وإنه عقوبة وإهانة له، ولو لم يرد إهانته ما ضيّق عليه رزقه، وهو في كلتا الحالتين مخطئ في تصوّره وتقديره، فبسط الرزق وقبضه ابتلاء من الله لعبده، ليظهر منه الشكر على النعمة والصبر على المحنة، والجزاء على ما يظهر منه، وليس على ما أعطي من عرض الحياة الدنيا، إنه يمنح ليبتلي ويمنع ليبتلي.

واللمسة الرابعة تصوّر مراحل القوّة والضعف في الإنسان لتشهد بأنه في يد مدبّرة ترسم له قدره وأجله وأحواله. قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴾[3] وقوله تعالى: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴾[4]

يجول السياق في مشاهد ذات الإنسان، فيكشف عن مراحل نشأته، وأحوال تغيّره فيها، ولم يقل الله تعالى خلقكم ضعافاً، أو في حالة ضعف، بل من ضعف، وكأنّ الضعف المادة التي صيغ منها كيانهم، والضعف هنا ذو معان عدّة ومظاهر شتّى تبدو في تكوين

---

(١) المعارج ١٩-٢١.
(٢) الفجر ١٥-١٦.
(٣) الروم ٥٤.
(٤) البلد ٤.

الإنسان، إنه ضعف الخليّة التي ينشأ منها الجنين، وضعف الجنين في بطن أمه، وضعف الطفل الصغير في حاجته لمن حوله، وضعف الصبي حتى يصل الى مرحلة الفتوّة، وضعف النفس أمام الشهوات. وبعد ضعف الطفولة ينتقل الى مرحلة الشباب حيث قوّة التكوين البدني والعقلي والنفسي، وقوّة الاندفاع وعدم التردد أمام المصاعب. وبعد قوّة الشباب ينتقل الى ضعف الشيخوخة، فالشيخوخة انحدار الى الضعف البدني والعقلي والنفسي، انحدار الى الطفولة بكل مظاهرها، فيصاحبها انحدار نفسي ناشئ عن ضعف الإرادة حتى لا نرى فارقاً بين تصرّفات الشيخ والطفل.

وقوله (لقد خلقنا الإنسان في كبد) وهذه العبارة تختزن صوراً عدّة، فالكبَد مكابدة ومشقّة، تبدأ من الخليّة التي ما إن تستقر على جدار الرحم حتى تبدأ بالكدح في امتصاص الغذاء من دم الأم، وما تزال كذلك حتى تنتهي الى المخاض، فتذوق الوالدة والجنين العناء حتى يخرج الى النور، بعد أن ضغط ودفع حتى كاد أن يختنق. ويبذل الجهد الشاق في تنفّس الهواء الذي لا عهد له به، ويفتح فمه ورئتيه أوّل مرّة للشهيق والزفير المصحوب بالصراخ، وتبدأ دورته الدموية بالعمل، ويتحرّك جهازه الهضمي، ويعاني من إخراج الفضلات حتى تروّض أمعاؤه، وفي كلّ خطوة من خطواته كبد، في زحفه وحبوه ومشيه ونمو أسنانه وسقوطه وانتصاب قامته على الأرض، وفي تعلّمه وتفكره كبد، وفي كلّ تجربة جديدة كبد، وفي تفرّق الطرق أمامه كبد، وفي اختياره الطريق الصواب كدح وكبد.

ومن الصور الكلية التي وردت في القرآن الكريم صورة المؤمنين، وسميت سورة كاملة باسمهم فمن هؤلاء المؤمنون الذين كتب الله لهم الفلاح في الدنيا والآخرة، وكيف نصل الى مرتبتهم؟ لابد من تحديد صفاتهم، وبيان أفعالهم وتصرّفاتهم، بل رسم صورة كاملة عن شخصيّاتهم ليقتدي بها المسلم، ولنعمل على تفكيك أجزاء الصورة المرسومة لهم، وتبدأ بتبشيرهم بالفلاح وتنتهي بكشف معنى الفلاح وهو وراثة الفردوس الأعلى في الجنة، وبين التبشير والجزاء تتلاحق الصفات، وهي: الخشوع في الصلاة، والإعراض عن اللغو، وإيتاء الزكاة، والحفاظ على الفروج عدا الأزواج، والحفاظ على الأمانات، ومراعاة العهود، والمحافظة على أداء الصلوات. قال تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾[1]

نحن أمام صورة مركّبة مؤطّرة ببشرى الفلاح في الدنيا، ونيل جزاء الآخرة، وهو الفردوس الأعلى، وابتدأت الصورة بالصلاة وختمت بالصلاة لأهميتها في هذا التشكيل،

---

(١) المؤمنون ١-١١.

ونأتي الى هذه الصفات (الذين هم في صلاتهم خاشعون) والخشوع استشعار القلوب برهبة الموقف في الصلاة بين يدي الله، لتسكن وتهدأ، ويسري الخشوع الى الجوارح والأعضاء حتى يغش الأرواح أمام حضرة الجليل. (والذين هم عن اللغو معرضون) وهو لغو القول ولغو الفعل، فقلب المؤمن لا ينشغل باللغو واللهو والهذر، فله ما يشغله ذكر الله، وتصوّر جلاله، وتدبّر آياته (والذين هم للزكاة فاعلون) فالزكاة طهارة للقلب من الشح، واستعلاء على حب الذات، وانتصار على وسوسة الشيطان الذي يخوّف من الفقر، والثقة بما عند الله الخير والجزاء. (والذين هم لفروجهم حافظون) وهذه طهارة الروح، ووقاية النفس والأسرة والمجتمع من الرذيلة، وحفظ الفروج من دنس المباشرة في الحرام، وحفظ النفس من التطلع الى الحرمات، وحفظ المجتمع من انطلاق الشهوات مما يؤدي الى فساد البيوت، (فأولئك هم العادون) من ابتغى غير الزوجات وملك اليمين فقد تعدّى الدائرة المباحة، ووقع في الحرمات، واعتدى على الأعراض التي لم يستحلها بالزواج، وتفسد النفس لشعورها بأنها ترعى في كلأ غير مباح. (والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون) والأمانات كثيرة في عنق الفرد وعنق الجماعة، وأولها أمانة الفطرة الإنسانية التي جعلها الله تعالى تلتزم المنهج الإلهي الذي يحكم الوجود، ومراعاة العهد الأول الذي قطعه الله على هذه الفطرة، وهو الإيمان بالله وتوحيده، وكل عهد يقطعه المؤمن يجعل الله شهيداً عليه، ويعود الوفاء به الى تقوى الله وخشيته. (والذين هم صلواتهم يحافظون) فلا يفوّتونها كسلاً ولا يضيّعونها إهمالاً، ولا يقصّرون أركانها. وهذه الصفات بمجموعها ترسم صورة المؤمن، وهي من الصور التوجيهية الداعية الى الاقتداء بها.

ولا تختلف صورة عباد الرحمن عن صورة المؤمنين الاّ بزيادة في تفاصيلها وتعدد أجزائها التي تشكّل صورة متكاملة، وهذه الأجزاء هي صفات وجملة أعمال يقوم بها هؤلاء العباد، وكأنهم خلاصة البشرية بعد معركة طويلة بين الهدى والضلال، أو هم الثمرة الطرية لذلك الجهاد الشاق لحملة الإيمان في وجه الكفر والشرك والضلال. وعباد الرحمن يستحقون أن ينسبوا اليه، وها هم أولاء بصفاتهم المميزة، ومقوّمات نفوسهم الأبية، وأعمالهم الزكية أمثالاً حيّة للجماعة التي يريدها الإسلام، تتجلّى صفاتهم وأعمالهم في مشيتهم بسكينة ووقار، ويترفعون عن مخاطبة السفهاء، ويقومون لربهم بالصلاة ليلاً وبالدعاء له وحده، ويوجّهون له بضراعة وخشوع ليصرف عنهم عذاب جهنم، وإنهم يمثلون القصد والاعتدال بين الإسراف والتقتير، وهم على أعظم صفة وهي أنهم لا يشركون بالله، ولا يقتلون النفس المحرّمة الاّ بالحق، ولا يزنون وهو من الكبائر العظيمة، ولا يشهدون الزور، وإذا مرّوا باللغو والهذر والسخف يتكرّمون بأنفسهم عنه، وإذا ذكّروا بآيات الله يتلقونها بالفهم والاعتبار، وهم الذين يرجون ربّهم أن يرزقهم بأزواج وذرية تكون قرّة أعين لهم لسيرهم على منهجهم القويم.

قال تعالى: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟
سَلَٰمًا (٦٣) وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا (٦٤) وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۖ
إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (٦٥) إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٦٦) وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟

وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا
بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾
إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا
﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ
مَرُّوا كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ
رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾.(١)

تتجلى أمامنا صورة عباد الرحمن ببريقها اللامع، وكأنها قد تركّبت أجزاؤها ومفرداتها بصورة آلية، لإنتاج نموذج حي يقتدي به المقتدون، ويهتدي به المهتدون، ولو عدنا لتفحّص تلك الأجزاء والمفردات لوجدناها تتحدّث عن صفاتهم وسماتهم المميزة، وهي أنهم (يمشون على الأرض هوناً) أي مشية سهلة هيّنة، ليس فيها تكلّف ولا تصنّع، وليس فيها خيلاء ولا تصعير خد، وليس فيها تخلّع ولا ترهّل، فالمشية تعبير عن الشخصية، مشية سويّة مطمئنة، فيها وقار وسكينة، وفيها جد وقوة، واللفظ (هوناً) لا يعني الهوان، أي إنهم متماوتين في مشيتهم، ومنكسي رؤوسهم، ومتداعي الأركان، بل الهيّن والسهل. (وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما) لا عن ضعف وخَور ولكن عن ترفّع، ولا عن عجز ولكن عن استعلاء، وحفاظ على الوقت والجهد الذي يبذل فيما لا يليق بالإنسان المشغول عن السخف، بما هو أهم وهو الانشغال بكلام الله وتدبّره. (الذين يبيتون لربّهم سُجّداً وقياما) وليل عباد الرحمن هو الخوف من الله وتقواه، والشعور بجلاله، ويبدو ذلك التعبير في الصلاة، في السجود والقيام، وتصوير حركاتهم التعبّدية في جنح الليل والناس نيام في سكون ودعة، يتوجّهون لله وحده منشغلين عن النوم المريح، للقيام بما هو ألذ وأمتع، وتعليق جوارحهم وأرواحهم بالله وحده، الناس نيام يخلدون الى الأرض، وعباد الرحمن يتطلعون الى عرش الرحمن ذي الجلال والإكرام. (والذين يقولون ربّنا اصرف عنا عذاب جهنم) وهؤلاء عباد الرحمن لم يروا جهنم حتى يصدر عنهم مثل هذا الخوف، ولكنهم آمنوا بوجودها، وتمثلوا صورتها أمامهم كما وردت في القرآن الكريم والسنة النبوية، وهذا الخوف هو ثمرة الإيمان العميق، دعاهم ذلك الى التوجّه الى الله في ضراعة وخشوع ليصرف عنهم عذاب النار، ولما يخالج قلوبهم من التقوى، فهم يستقلون عملهم وعبادتهم، ولا يرون فيها ضماناً ولا أماناً من النار إن لم تتداركهم رحمة من الله وعفوه ومغفرته، ويزداد خوفهم في تضرعهم لله (إنّ عذابها كان غراما) أي مغرماً ملازماً ولا يتحوّل عنه، وهذا ما يجعله مروّعاً شنيعاً، إنها (ساءت مستقرّاً ومقاما) وهل أسوء من جهنم مكاناً

---

(١) الفرقان ٦٣-٧٤.

ومستقرّاً لمن يريد الإقامة فيها، وأين الاستقرار والنار لا تفارقه، فتقلّبه الى جميع الجهات، وتحوّل ليله نهار.

وهاهم عباد الرحمن (إذا أنفقوا لم يُسرفوا ولم يقتروا) وهذه سمة الإسلام التي يريد تحقيقها في حياة الفرد والجماعة، فهو يقيم بناءه على التوازن والاعتدال والوسط، فالمسلم ليس حرّاً في إنفاق ماله دون النظر فيما يصرف، فالإسراف مفسدة للمال والفرد والمجتمع، والتقتير حبس للمال عن انتفاع صاحبه به، وانتفاع الجماعة من حوله، وهو وسيلة لتحقيق بعض الخدمات الاجتماعية، والإسراف يحدث خللاً في الاقتصاد والمجتمع، وحبس المال يحدث أزمة اقتصادية، يرافقها فساد أخلاقي واجتماعي. (والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر) وأهم سمة من سماتهم أنهم لا يشركون بالله، لأن الشرك ظلم عظيم للنفس، وتوحيد الله أساس هذه العقيدة، ومفرق الطريق بين الهدى والضلال، وبين الاستقامة والانحراف، وبين الوضوح والالتواء الذي لا يقوم على أساسه أي نظام للحياة. (ولا يقتلون النفس التي حرّم الله الاّ بالحق) والتحرّج من قتل النفس- الاّ بالحق- مفرق الطريق بين الحياة الاجتماعية الآمنة التي تحترم فيها الإنسانية، ويقام لها وزن، وحياة الغابات والكهوف التي لا يأمن فيها أحد على نفسه، ولا يحدث فيها عمل وبناء (ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق آثاما) والتحرّج من الزنا هو أيضاً مفرق الطريق بين الحياة النظيفة التي يشعر فيها الإنسان بالسمو والارتفاع عن الغريزة الحيوانية، ويحس بأن اللقاء بالجنس الآخر هو هدف أسمى من اللقاء العابر الذي تتحقق فيه الشهوات والملذات الجسدية، ويتحدد من خلاله الفرق بين الحياة الأسرية اللائقة وبين الحياة الرخيصة الهابطة الى درك الحيوانية، ومن أجل ذلك يعاقب الله من يقوم به بالعذاب المضاعف يوم القيامة، والخلود فيه بمهانة، وهو أشد وأنكى من العذاب نفسه. ثم يفتح باب التوبة (الاّ من تاب وعمل عملاً صالحاً) فيعد التائبين المؤمنين بأن يبدّل ما عملوه من سيّئات الى حسنات بعد التوبة، فتضاف الى حسناتهم، وهو فيض من عطاء الله لا مقابل له إلاّ بهداية العبد ورجوعه عن الضلال، وتوجهه الى حمى الله.

ومن السمات (والذين لا يشهدون الزور) أي أنهم لا يؤدون شهادة الزور لما في ذلك من تضييع الحقوق، والإعانة على الظلم، ويعني هذا على المسلم الفرار من أي مجلس يحدث فيه الزور بكلّ أنواعه. وهم (وإذا مرّوا باللغو مرّوا كراما) يصونون أنفسهم، ويبعدون اهتمامهم عن اللغو، فلا يشغلون أنفسهم به، ولا يلوّثونها بسماعه، بل يكرّمونها عن ملابسته أو المشاركة به، فالمؤمن ليس لديه الوقت من الفراغ ما يدفعه الى اللغو الفارغ والهذر الشاغل. (والذين إذا ذكّروا بآيات الله لم يخرّوا عليها صُمّاً وعميانا) ومن سماتهم أنهم سريعو التذكّر، قريبو الاعتبار إذا وعظوا، مفتوحو القلوب لآيات الله، يتلقونها بالفهم والتدبّر، وفي ذلك تعريض بالمشركين الذين ينكبّون على آلهتهم وأباطيلهم كالصم والعميان، لا يسمعون ولا يبصرون هدى أو نور، وهذه الحركة تصوّر مدى الغفلة والتعصّب لديهم، أما عباد الرحمن فهم يدركون بوعي ما في عقيدتهم من حق، وما في آيات الله من صدق، فيؤمنوا بها دون تعصّب أو انكباب على الوجوه. (والذين يقولون ربّنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرّة أعين واجعلنا للمتقين إماما) يرجون من ربّهم أن تكون لهم أزواج من نوعهم، وأن تعقبهم ذريّة تسير على نهجهم فتقر أعينهم، وتطمئن قلوبهم، وأن يجعلهم قدوة طيبة

للذين يتقون الله ويخافونه، وهذا هو الشعور الفطري العميق لعباد الرحمن السالكين الدرب الى الله.

ويرسم القرآن الكريم صورة كلية للكافرين، ويتصدّى لواحد من أعتاهم وأكثرهم عناداً وتكذيباً للدعوة ولآيات الله البيّنات. فيوجّه اليه تهديداً ساحقاً، ويرسم له صورة تبدو من خلال مشاهدها مخزية تثير الهزء والسخرية، وتنقل من خلال الكلمات ملامح وجهه، واضطراب نفسه المهزومة أمام قول الحق. قال تعالى: ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ كَانَ لِـَٔايَٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴾[١]

ينتقي القرآن الكريم فرداً من المشركين، ويحاول رسم شخصيته بكلّ أبعادها وملامحها، وكأنه يجمع أطرافها المتنافرة في صورة تمثل المشركين جميعاً في شخص هذا المكذّب وهو الوليد بن المغيرة المخزومي الذي رقّ أول الأمر حين سمع كلمات الله، وهو أعلم بفنون الكلام وأسلوبه وبشعره ونثره، وبلاغته وفصاحته، وكأنّ القرآن قد أسّر عقله ولبه، ولكن عنجهية الجاهلية، وحميّته على آلهته دعته الى الانتفاض على ما سمعه وما رآه من الحق، ولم يجد ما يقول في هذا الكلام المعجز إلاّ انه (سحر مؤثر) فنزل قوله تعالى (ذرني ومن خلقت وحيدا) الخطاب موجّه للنبي محمد (صلى الله عليه وسلم) ويعني خلّ بيني وبين هذا الذي خلقته وحيداً مجرّداً من كلّ شيء حتى من ثيابه، ومن كلّ ما يعتز به من مال كثير ممدود، ورزقه ببنين حاضرين من حوله شهوداً، فهو فيهم في أنس وعزّة، ومهّد له الحياة الرغيدة في النعم الكثيرة التي يختال بها، (ثم يطمع أن أزيد)فهو يطلب المزيد، ولا يقنع بما أوتي، ولا يشكر لما أعطي، ولعله كان يطمع في أن ينزّل عليه الوحي، وأن يعطى النبوّة، وكان ممن يحسدون النبي (صلى الله عليه وسلم) على اختياره وهو الفقير للنبوّة، ويبعد هذا المشرك عنها وهو الغني المبسوط الثراء. (كلاّ إنه كان لآياتنا عنيدا) وهنا يردعه الجبار بقوّة لا تقهر، لتسحق هذا المخلوق الضعيف، بكلمة ردع (كلا) عن طمعه، فلم يقدّم الطاعة والشكر لمن أعطاه، ويرجو المزيد، إن هذا الردع العنيف أحدث هزّة قويّة في قلب المتلقي، وارتعاشة مزلزلة للكيان المتهاوي أمام قوّة القهار، فقد وقف هذا المعاند أمام دلائل الإيمان وبوجه الدعوة، وحارب رسولها الأمين (صلى الله عليه وسلم) وصدّ عنها نفسه وغيره، وأطلق الأضاليل والأباطيل لتشويهها. (سأرهقه صعودا) وهو تعبير يوحي عن المشقة والعناء، فالسير في الطريق الصاعد أشق السير وأكثر إرهاقاً، وهو في الوقت نفسه تعبير عن حقيقة الانحراف عن طريق الإيمان الميسّر الى طريق الضلال، وهو طريق وعر وشاق، ليس فيه راحة ولا أمل، ونهايته الهلاك والفناء.

(١) المدثر ١١-٢٥.

ويرسم القرآن مشهداً آخر من المشاهد المثيرة للسخرية من هذا الضال المتحيّر، حين أرادوا منه قولاً في آيات الله، فأخذ يكد ذهنه، ويعصر نفسه، فأحمرّت أوداجه، وانقبض جبينه، وأصبحت ملامحه كالحة، فلم يجد عيباً يعيب به القرآن، ولم يجد قولاً يتقوّله فيه، (إنه فكّر وقدّر) وها هي المشاهد تتجمّع معاً لمحة لمحة، وحركة حركة، يرسمها التعبير كما لو كانت بريشة تصوير لا كلمات تعبير، ويراد السخرية منه، والاستنكار لما يقوم به (فقُتل كيف قدّر. ثم قُتل كيف قدّر) فتكرار الدعاء والاستنكار لزيادة الإيحاء بالتكرار، ويبدو أنّ الفكرة المرجوّة قد نضجت وحان خروجها، فإذا به ينظر يميناً وشمالاً، وفي جدّ مصطنع يقطّب حاجبيه عابساً، ويقبض ملامح وجهه باسراً ليستجمع هذه الفكرة، ويحددها في هيأة مضحكة بعد المخاض العسير، وإذا به لا يفتح عليه بشيء سوى نفخة هواء فارغة، ولم يجد سوى العبارة المرددة لدى قومه (إن هذا الاّ سحر مؤثر. إن هذا الاّ قول البشر) ولم يجن من فكرته بعد هذه اللمحات الحيّة التي أثبتها التعبير القرآني في مخيلتنا سوى سخرية الساخرين، وتثبيت صورته المزرية في صفحات الخالدين، تتملاّها الأجيال بعد الأجيال.

وينتقل التعبير القرآني الى الصورة الكلية أو المركبة للحياة الدنيا بكلّ أبعادها، ويربط بين مشاهدها، ويقرّب صورتها في تمثيلها بالماء والنبات، تزهو وتزدهر، وفي لحظة ما تصبح حصيداً وهشيماً تذروه الرياح. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾[2]

إنّ صورة الحياة الدنيا قد مثلت بمشاهد حسيّة، هاهو الماء ينزل من السماء، وهاهو النبات يمتصّه فيخضرّ ويزهو، وتنبت الأوراق، وتبدو الأزهار، وتتزيّن الأرض كأنها بساط موشّح بالألوان، ويظنّ أهلها أنها بجهدهم قد ازدهرت، وبإرادتهم قد تزيّنت، وان الأمر كلّه أولاً وآخراً يعود اليهم، وفي نشوة هذا الفرح الغامر بمتاعها، وغمرة الاطمئنان الى جني محصولها أتى أمر الله، وفي ومضة سريعة، أو خطفة مارقة تتحوّل الى نبات حصيد، مقطوع عن جذوره وكأنه لم يكن قبل ذلك أخضر يانعاً، (فأصبح هشيماً تذروه الرياح) أي أصبح يابساً متكسّراً يتطاير مع هبوب الرياح، وكأنّ هذا النبات صورة تعكس الحياة الدنيا، لا أمل في ثباتها، ولا اطمئنان أو استقرار فيها، ولا يملك الناس من أمرها شيئاً، الاّ متاعاً ضئيلاً لا يدوم، يرضون به ولا يتطلعون الى ما هو أعظم منه وهو متاع الآخرة الدائم الخالد.

---

(١) يونس ٢٤.
(٢) الكهف ٤٥.

قال الجرجاني: ((ألا ترى كيف كثرت الجمل فيها حتى أنك ترى في هذه الآية عشر جمل إذا فصلت، وهي وإن كان قد دخل بعضها في بعض حتى كأنها جملة واحدة، فإنّ ذلك لا يمنع أن تكون صورة الجمل معاً حاصلة تشير واحدة واحدة، ثم انّ الشبه منتزع من مجموعها من غير فصل بعضها عن بعض حتى أنك لو حذفت منها جملة واحدة ـ من أيّ موضع ـ كان قد أخلّ ذلك بالمعنى))[1]

ونتبيّن في صورة أخرى للحياة الدنيا أنّ قيمتها حين تقاس بمقياس الدنيا، أو حين توزن بموازينها تبدو أمراً عظيماً، وحين تقاس بمقياس الآخرة أو توزن بموازينها تبدو زهيدة تافهة، فهي بمثابة ألعاب تسلية، تستخدم في اللعب واللهو والزينة والتفاخر والتكاثر.

هذه هي الحقيقة التي تبدو في قوله تعالى: ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَـٰمًا ۖ وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾[2]

نحن إزاء صورتين للحياة الدنيا، صورة حقيقية وصورة تمثيلية، فالصورة الحقيقية تبدو مشاهدها في الألوان المختلفة، والحركات اللاهية، ألوان زاهية للزينة، وتفاخر بمن يملك الكثرة من تلك الزينة كالمال والأولاد، والصورة التمثيلية مركّبة من مشاهد حسيّة متمثلة بالنبات الذي يبدو ظاهراً أمام الرائين، سحائب أسقطت غيثاً على أرض يابسة محروثة، فإذا بها تشرب ذلك الماء، فتتشقق عن براعم خضر من نبت كثيف يغطي الأرض، فيعجب الكفّار وهم الزرّاع في اللغة، وفيها تورية الى إعجاب الكفار بالحياة الدنيا أيضاً، ثم لم يلبث النبت حتى يورق ويزهر، ثم يذبل ويصفر، وبعد ذلك ييبس ويتكسّر، ويصبح حطاماً متناثراً يتطاير مع الريح. هكذا هي الحياة الدنيا حين يتعمّق القلب في حقيقتها، تنتهي كما ينتهي هذا النبات، ولكن هذا لا يعني إهمال عمارة الأرض التي ناطها بالإنسان بل يراد بهذا تصحيح المقاييس الحسية الدنيوية بمتاع الحياة الدنيا الذي له جاذبية مقيّدة.

وتمثيل الحياة الدنيا بالماء والنبات يبدو واضحاً لوجود أكثر من صلة بهما، وذلك أن الماء هبة الله تعالى لخلقه، إن شاء منحه وإن شاء منعه، وهو والحياة كالشيء وظلّه ((والنبات يمثل أحد الأسس التي تقوم عليها الحياة وهو الغذاء، وإنّ هناك أوجه شبه بينهما، فالنبات في جميع أطوار نموّه متغيّراً سواء في الحجم والشكل والطعم واللون. فمن حيث الحجم والشكل يختلف النبات بعضه عن بعض، فمنه الصغير ومنه الكبير، ومنه الأخضر ومنه اليابس، ومن حيث اللون والطعم، منه الأحمر ومنه الأصفر، ومنه الحلو ومنه الحامض ومنه المر، ومه الخبيث ومنه الطيّب، فكذلك الحياة تختلف في جوانبها، ولا تبقي نفسها على حال واحدة)).[3]

---

(١) الجرجاني: اسرارالبلاغة ٩٦-٩٧.

(٢) الحديد ٢٠.

(٣) د. احمد حاجم الربيعي: القصص القراني ٣١.

وينتقل التعبير عن الصورة الكلية الى الحياة الآخرة، فينقل الينا مشاهدها على عجل، وكأنه يريد أن يبرز العبرة لمن ظنّ أن الحياة الدنيا دائمة، وزينتها باقية، ويصل الى الجزاء أما جنة وأما نار، وهي الدار القرار وليس الدنيا الفانية. قال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾(١)

تبدأ مشاهد الآخرة بالصمت الهائل الذي يغشى الناس، والرهبة التي تخيّم على أنفسهم، ولا يجرؤ أحد على الكلام إلاّ بإذنه تعالى، ويبدأ مشهد الفرز والتوزيع الى طريقين، طريق الأشقياء وطريق السعداء، ومن خلال مشهد آخر، نرى الأشقياء في النار يتسلّط عليهم الكرب والعناء، يتمثل ذلك في أنفاسهم التي يصدر أصواتاً تعبّر في الزفير والشهيق وعن ألم الحر والضيق، ونرى السعداء في مشهد آخر في ترف وراحة، وينالون ما يريدون عطاء دائماً لا ينقطع عنهم، فالسعداء والأشقياء هكذا حالهم خالدون في النعيم والشقاء، ما دامت السماوات والأرض وهو تعبير عن صفة الدوام والاستمرار.

وفي صورة أخرى عن الآخرة يختار التعبير جماعة من الكفار، وهم المجرمون المستهزئون بالمؤمنين أنموذجاً يبيّن من خلاله انقلاب المواقف التي يظن أنها ثابتة باقية، فالذين يستهزئون يُستهزأ بهم، والذين يسخرون يُسخر منهم، إنها مشاهد توحي بالعدل والإنصاف، وعدم ضياع الحقوق. قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾.(٢)

هذه صورة المجرمين الذين يقابلون المؤمنين بأفعال منكرة، مشاهدها مليئة بالحركة والتغيّر، ترسم الملامح المعبّرة عن السخرية والاستهزاء، والمعبّرة عن الفرح والحبور، والمعبّرة عن الشقاء والتعاسة، ويجري التصوير في موقعين، الأول: الزمان: الحياة الدنيا، والمكان: مكة، فالكفار يومئذ كثرة، والمؤمنون قلة، وكان الاستهزاء والسخرية جزءاً من محاولات منع انتشار الإسلام، وكانت سخرية الكفار من المؤمنين تسبب لهم أذى نفسيّاً، وإذا مرّوا بهم يتغامزون عليهم بالأعين، أو يشيرون اليهم بالأيدي، ويقومون بحركات متعارفة تثير السخرية والضحك، وينقل الكفار هذه السخرية الى بيوتهم فيتداولونها

---

(١) هود ١٠٥-١٠٨.
(٢) المطففين ٢٩-٣٦.

ويتندّرون من أصحابها، فتشيع بيت الناس بعض الألفاظ التي تعني هؤلاء المؤمنين، وبعض الحركات المقصودة عنهم، وكانوا راضين عن أنفسهم، مبتهجين بما يفعلون، مستمتعين بهذه الأفعال الحقيرة، ولم يشعروا بحقارة ما قالوا، ولا بقذارة ما فعلوا، وإذا رأوهم في الطريق قالوا إنّ هؤلاء هم الضالون، وهذا أعجب ما يتحدّثون به، يتحدّثون عن الهدى والضلالة، ويزعمون أن المؤمنين هم الضالون، وكأنّ عبادة الأحجار هدى، وعبادة الله الواحد القهّار غير ذلك، ولا يستحون من قلب الحقائق، ولا يلومون أنفسهم عن مثل هذا التجاوز على الحقيقة، وكأن هؤلاء المجرمين قد أرسلوا حافظين موكّلين بمراقبة المؤمنين، أو أقيموا عليهم رقباء، أو كلّفوا بتقدير أحوالهم، فهم قد دسّوا أنوفهم بلا دعوة، وراحوا يتطفلون دون طلب منهم.

وتنقلب المشاهد الى موقع الآخرة، لنرى أحوال المؤمنين وأحوال الكفار وقد اختلفت الموازين، وتغيّرت الأمكنة والأزمنة، هاهم المؤمنون في جنات النعيم، على الأرائك يستريحون، وهم يتناولون الرحيق المختوم، وينظرون الى الكفار وهم يتقلّبون على النار، ويتراقصون على جمرها، فيثيرون ضحك المؤمنين منهم، ويتذكّرون ما كانوا يفعلون بهم، ويتساءلون هل ثوّب الكفار أو نالوا ثواب ما فعلوا؟ الجواب نعم وللسخرية منهم نالوا الثواب وهو النار المحرقة، وطعام الزقوم، وشراب الغسلين، هذا هو ثوابهم الموعود.

وهكذا يتضح لنا أنّ الصورة في الخطاب القرآني وسيلة فنية لنقل الفكرة والعاطفة في آن واحد، وتقريبها الى أذهان المتلقين للترهيب والترغيب، وبوسائل عدّة، مثل: التشبيه الذي يصف الشيء بما يشاكله أو يقاربه من الصور الأخرى، والاستعارة التي تبعث الحياة في الصورة الجامدة، وتجعلها ناطقة، مما يبعث على التأمل والتدبر، والتمثيل وهو ضرب أمثال حسية وخيالية لغرض القياس عليها، والكناية التي تدفع الى التفكير واستنباط المعاني التي يراد إيصالها، والقصص الذي يستخدم في عرضه طريقة السرد والحوار لرسم مشاهد حيّة تدعو الى العظة والعبرة.

والصور التي يرسمها الخطاب صور فردية تنقل جزءاً من الحدث كالآيات والدلائل عن الإيمان بالله والنبوة والكتب السماوية والكفر والشرك والقيامة والحساب والجنة والنار، وغالباً ما تكون صوراً حسية تنقل بطريق الحواس، أي صور بصرية وسمعية وذوقية وشمية ولمسية، ولا مجال لتكذيبها أو نفيها ما دامت قد وقعت تحت الحواس، ولابد من الإيمان بها وتصديقها، وقد تستخدم الصور الخيالية لغرض الموازنة بينها وبين الحسية، والصور الكليّة هي مجموع الصور الجزئية لعرض البراهين والأدلة على وحدانية الله، وقدرته على تدبير أجزاء الكون على وفق نظام دقيق.

الفصل الرابع

الإيقاع الصوتي والدلالي

الفصل الرابع

الإيقاع الصوتي والدلالي

الإيقاع لغة: من إقبال الصيقل على السيف بميقعته (أي مطرقته) والإيقاع من إيقاع اللحن والغناء، وهو أن يوقع الألحان وبنيتها.[1] والإيقاع اصطلاحا: ويقصد به وحدة النغم التي تتكرر في نحو ما في الكلام. أو بمعنى آخر أن الإيقاع عبارة عن ترديد وتناوب متناسق للمقاطع يحسه السامع بفطرته غريزياً[2] فالتنسيق الموسيقي إذن إيقاع وزني أو وحدات وزنية موسيقية صوتية تخضع لاختيار المنشئ نفسه بحيث يضعها في الإطار النفسي أو الشعوري الذي يجد نفسه خاضعاً له أثناء الكتابة[3] ومع ذلك ينبغي التمييز بين الإيقاع العروضي المتولد من الأوزان وبين الإيقاع المتولد من الانفعالات النفسية المعبّر عنه بنظام العلاقات اللغوية.

والإيقاع في القرآن الكريم ((صورة للتناسق الفني فيه، ومظهر من مظاهر تصوير معانيه وآية من آيات الإعجاز الذي يتجلى في أسلوبه المتميّز الرفيع))[4] وهو إيقاع موسيقي متعدد الأنواع، يؤدي وظائف جمالية متعددة إذ ((أن الأثر الممتع للإيقاع ثلاثي، عقلي وجمالي ونفسي، أما العقلي فلتأكيده المستمر أن هناك نظاماً ودقة وهدفاً في العمل، وأما الجمالي فلأنه يخلق جوّاً من حالة التأمل الخيالي الذي يضفي نوعاً من الوجود الممتلئ في حالة شبه واعية على الموضوع كله، وأما النفسي فإنّ حياتنا إيقاعية، المشي والنوم والشهيق والزفير..)).[5]

وقد جمع النسق القرآني بين مزايا النثر والشعر معاً ((فقد أعفي التعبير من قيود القافية الموحّدة والتفعيلات التامة، فنال بذلك حريّة التعبير الكاملة عن جميع أغراضه العامة، وأخذ في الوقت ذاته من الشعر الموسيقى الداخلية والفواصل المتقاربة في الوزن التي تغني عن التفاعيل والتقفية المتقاربة التي تغني عن القوافي، وضم ذلك الى الخصائص التي ذكرنا، فنشأ النثر والنظم جميعا))[6] فالعطاء الموسيقي في القرآن الكريم يأتي من اللغة إذ أن ((الموسيقى فيه لا تنبع من وزن شعري كالذي عرفناه في تفعيلات الشعر العربي، ولكنها تنبع من اللغة نفسها، وهي ائتلاف الأصوات في اللفظة الواحدة، وفي سياق الألفاظ وتناسقها وتناغمها وأدائها للمعنى ودلالتها عليه)).[7]

---

(١) ينظر: ابن منظور: لسان العرب مادة (وقع) .
(٢) ينظر: علي عباس علوان: تطور الشعر العراقي الحديث ٢٦٦.
(٣) ينظر: عبد العزيز المقالح: الشعر بين الرؤيا والتشكيل ١١٦.
(٤) د. كاصد ياسر حسين: الجرس والايقاع في تعبير القران ٣٢٩.
(٥) د. عز الدين اسماعيل: الاسس الجمالية في النقد العربي ٣٦١.
(٦) سيد قطب: التصوير الفني في القران ١٠٢-١٠٣.
(٧) د. كاصد ياسر حسين: الجرس والايقاع ٣٤٢-٣٤٣.

إنّ الموسيقى الظاهرة في الخطاب القرآني مردّ بعضها الى تآلف الحروف في اللفظ، كما لا يُخفى أنّ الأصوات المتفاوتة في الجرس يقرع بعضها بعضاً حين تجتمع في اللفظ، فينتج عن مقارعتها المتناغمة تناسق موسيقي جميل، فضلاً عن تمتع القرآن الكريم بنظام صوتي ونسيج لغوي ينتظم بائتلاف الحركات والسكنات والمدّات والغنّات، وهو أول ما تحس به الآذان، فترتاح اليه النفوس، وتشعر بالسكينة والاطمئنان.

وإنّ الفنون بأسرها سواء منها التعبيرية أو التشكيلية تنطوي على عناصر مشتركة، وهذه العناصر أوضح ما تكون في الموسيقى، وإن البحث فيها يمكن أن يستنبط النظم والقوانين المتمثلة فيها، وهذه النظم هي: الفاصلة، والتكرار، والجناس، والتصدير، والتذييل، والتغيير، والتوازن، والتساوي، والتوازي، والتلازم، وغيرها يمكن أن تعمل جميعاً أو بعضها في وقت واحد، وعملها المتلازم ينشئ ما نطلق عليه الإيقاع، وهو الصورة المجرّدة من هذه القوانين أو النظم، وهي صورة تدرك حسياً، ولكننا حين نحلل هذا الإدراك سوف نضطر الى الكشف عن هذه النظم، وهي على النحو الآتي:

أولاً:نظام الفاصلة:

الفاصلة لغة: من فصل، والفصل بون بين الشيئين، والفصل من الجسد موضع المفصل، وبين مفصلين وصل، مثل ذلك الحاجز بين الشيئين، والفاصلة الخرزة التي تفصل بين الخرزتين في النظام.(1) وورد اللفظ في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿بِكِتَٰبٖ فَصَّلۡنَٰهُ﴾(2) له معنيان، أحدهما تفصيل آياته بالفواصل، والثاني بيّناه، وقوله تعالى ﴿ءَايَٰتٖ مُّفَصَّلَٰتٖ﴾(3)أي فصل بين كلّ آيتين، أو بين كلّ آيتين مهلة، وقيل: آيات مفصّلات مبيّنات.

والفاصلة اصطلاحاً: أشار إليها الجاحظ (ت٢٥٥هـ) في كتابه المفقود (نظم القرآن) بقوله: ((سمّى الله تعالى كتابه اسماً مخالفاً لما سمّى العرب كلامهم على الجملة والتفصيل، سمّى جملته قرآناً كما سمّوا ديواناً، وبعضه سورة كقصيدة، وبعضه آية كالبيت، وآخرها فاصلة كقافية))(4)

وعرّف الرمّاني (ت٣٨٤هـ) الفاصلة بقوله: ((الفواصل حروف متشاكلة في المقاطع، توجب حسن إفهام المعاني))(5)ويعرّفها الباقلاني (ت٤٠٣هـ) بقوله: ((الفواصل حروف متشاكلة في المقاطع، يقع بها إفهام المعاني))(6)ويرى الزركشي (ت ٧٩٤ه) أنّ ((الفاصلة هي كلمة آخر الآية، كقافية الشعر وقرينة السجع))(7)

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية ١١٤١/٢ مادة فاصلة.
(٢) الاعراف ٥١.
(٣) الاعراف ٣٢.
(٤) السيوطي: الاتقان في علوم القران ١٤٣/١.
(٥) الرماني: النكت في اعجاز القران (ثلاث رسائل) ٨٩.
(٦) الباقلاني: اعجاز القران ٢٧٠.
(٧) الزركشي: البرهان في علوم القران ٥٣/١.

ومن الممكن استنتاج تعريف للفاصلة جامع مانع وهو أنّ الفاصلة كلمة آخر الآية كقافية الشعر وسجعة النثر، والتفصيل توافق أواخر الآي في حروف الروي، أو في الوزن، مما يقتضيه المعنى، وتستريح اليه النفوس.

وقد درست الفاصلة بين أخواتها من النظم الإيقاعية المشابهة لها في نهايات الجمل العربية كالقافية والسجع، وذلك ليظهر لنا فضل القرآن على غيره من الكلام. ومع أنه استعمل اللغة نفسها التي استعملها العرب، فإنّ الفاصلة أخذت مكانة القافية في أهميتها وموقعها، والنظر في آخر حرف منها وهو حرف الروي، وقد نفى القرآن الكريم بصريح منظومه أن يكون شعراً أو فيه شيء من الشعر إذ أن الحد الأدنى للشعر هو أن يكون الكلام موزوناً مقفى، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.[1]فنفى عنه قول الشعر، ونفى عنه سجع الكهان.

ولما كانت القافية آخر كلمة في البيت، وهي مجموعة أصوات يتوقع السامع تكرارها في فترات منتظمة، فإن الفاصلة تتفق معها في أنها الكلمة التي تقع في نهاية الآية، واطرادها في هذا الموقع يحقق نقرات إيقاعية، وتناسق صوتي منتظم، وهو تماثل أو تشابه حروف رويّها، وتختلف عنها في تقبل ما تقارب من حروف رويّها كالميم والنون، وما يقع من عيوب في القافية كالحذو والإشباع والتوجيه ليس بمستقبح في الفاصلة.

وقد بيّن الرماني فضل (الفاصلة) على (القافية) بقوله: ((وإنما حسن في الفواصل الحروف المتقاربة كالميم والنون، لأنه يكتنف الكلام من البيان ما يدل على المراد في تمييز الفواصل والمقاطع لما فيه من البلاغة وحسن العبارة، وأما القوافي فلا تحتمل ذلك لأنها ليست في الطبقة العليا من البلاغة، وإنما حسن الكلام فيها وإقامة الوزن ومجانسة القوافي، فلو بطل أحد الشيئين خرج عن ذلك المنهاج، وبطل ذلك الحسن الذي له في الأسماع، ونقصت رتبته في الأفهام، والفائدة في الفواصل دلالتها على المقاطع، وتحسينها الكلام بالتشاكل، وإبداؤها في الآي بالنظائر))[2]

ويبدو تعامل الفاصلة مع حروف الروي في حالتي التماثل والتقارب لتحقيق إيقاع صوتي، ففي حالة التماثل بين حروف الروي يمكن أن ندعوها بالحروف المتجانسة، أو ذات السجع العالي، وتشيع هذه الحالة في الآيات المكية، مثل قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلۡقُبُورُ بُعۡثِرَتۡ ﴿٤﴾ عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ﴾.[3]

---

(١) الحاقة ٤٠-٤٣.
(٢) الرماني: النكت في اعجاز القران (ثلاث رسائل) ٩٠-٩١.
(٣) الانفطار ١-٥.

تتفق الفواصل في حرف الروي وهو التاء الساكن، وتلتزم قبله حرف واحد، وهو الراء فتنساب الفاصلة من غير كلفة ولا قلق، بل في لين وسلاسة. وكذا قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ (٢٦) وَقِيلَ مَنۡۜ رَاقٖ (٢٧) وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلۡفِرَاقُ (٢٨) وَٱلۡتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ (٢٩) إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمَسَاقُ﴾.(١)

تتفق الفواصل في حرف الروي وهو القاف، وقبله حرفين مرّة الراء، ومرّة ثانية السين وألف مد، ومثل هذا التنوّع في التماثل يجعل الفاصلة انسيابية متموّجة. وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَكُمۡ وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ (١٩٧) وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَسۡمَعُواْۖ وَتَرَىٰهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ وَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ﴾.(٢)

فحرف الروي هو النون، ويسبقه ثلاثة أحرف وهي الصاد والراء والواو، وتشيع في الآيات المدنية، ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿أَلۡقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٖ (٢٤) مَّنَّاعٖ لِّلۡخَيۡرِ مُعۡتَدٖ مُّرِيبٍ (٢٥) ٱلَّذِي جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلۡقِيَاهُ فِي ٱلۡعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ﴾.(٣)

حرف الروي هو الدال ويليه حرف الباء، ولذلك لا نشعر بفارق صوتي بين هذه الفواصل. ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعۡ كُلَّ حَلَّافٖ مَّهِينٍ (١٠) هَمَّازٖ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٖ (١١) مَّنَّاعٖ لِّلۡخَيۡرِ مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ﴾.(٤) فحرف الروي هو النون متقارب مع الميم.

وهناك حروف روي منفردة، وهي نادرة لم تتماثل حروف رويها ولم تتقارب. منها قوله تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلۡجَوَارِ فِي ٱلۡبَحۡرِ كَٱلۡأَعۡلَٰمِ (٣٢) إِن يَشَأۡ يُسۡكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظۡلَلۡنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٍ (٣٣) أَوۡ يُوبِقۡهُنَّ بِمَا كَسَبُواْ وَيَعۡفُ عَن كَثِيرٖ (٣٤) وَيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٖ﴾.(٥)

فحرف الروي الميم جاء بعده الراء ثم الصاد، وهي من مخارج مختلفة، ومثل هذه الحالة قليلة في القرآن الكريم.

والنظر إلى حرف الروي وهو الحرف الأخير في الفاصلة من باب التوسّع، لأنه لا يطّرد الاّ في القافية، واليه تنسب القصيدة، وأما استعماله في الفاصلة لتحقيق إيقاع صوتي يظهر للسامع حين الوقف عليه، ولم تلتزم الفاصلة في القرآن الكريم حرف الروي دائماً

---

(١) القيامة ٢٦-٣٠.
(٢) الاعراف ١٩٧ – ١٩٨.
(٣) ق ٢٤ – ٢٦.
(٤) القلم ١٠ – ١١٢.
(٥) الشورى ٣٢-٣٥.

التزام القافية والسجع، ولم تهمله إهمال النثر المرسل ، بل كان لها أسلوبها المتميّز في الالتزام والتحرر.

وحروف الروي هي حروف العربية، وقد استعملت الفاصلة بعض الحروف أكثر من غيرها لتحقيق أكبر قدر ممكن من التنغيم، ومن خلال الاستقصاء وجدنا استعمال الحروف على النحو الآتي:

حرف النون	%٥١	حرف الميم	%١٢،٥
حرف الراء	%١١	حرف الدال	%٤،٥
الألف المقصورة	%٤	حرف الباء	%٣،٥
حرف اللام	%٣	حرف الهاء	%٢،٥
حرف الياء	%١	باقي الحروف أقل من	%١

هذه هي حروف الترنم في الفاصلة، ولم يستعمل حرف الخاء قط لثقله، وصعوبة الوقف عليه.

ومما يلاحظ أن حرف النون يمثل أكثر من نصف فواصل القرآن، ولم يفز الخاء بأية فاصلة لثقله وصعوبة الوقف عليه، ويأتي حرف الميم ويليه الراء والدال، ومن الملاحظ أن الميم حرف شفوي، والراء والدال من الحروف التي تنطق باعتماد اللسان مع الأسنان، وكل هذه الحروف تنطق من الجزء الأمامي لجهاز النطق، وهذا ما نلاحظه في الفواصل، وهو أن حروف الحنجرة والحلق أقل استعمالاً من الحروف الشفوية والأسنانية، وهذا كله له علاقة بسهولة النطق والوضوح السمعي، والمراد به وصول الحرف واضحاً الى السمع إذ أن لكل مجموعة حروف متقاربة المخارج نسبة وضوح ((وليست كل الأصوات الإنسانية على السواء في نسبة الوضوح السمعي، فبعضها أوضح من بعض))[١]

وتقترن الفاصلة بالسجع مثلما اقترنت بالقافية، وهناك خلاف بين البلاغيين حول استعمال مصطلح السجع في القرآن الكريم، ونذكر الشائع استعمال مصطلح الفاصلة في القرآن والسجع في غيره، مع التنبيه الى أنه ليست كل الفواصل مسجوعة، بل منها المسجوع ومنها المرسل.

والسجع: هو الكلام المقفى، أو موالاة الكلام على روي واحد، وجمعه أسجاع وأساجيع[٢] أو هو تواطؤ الفواصل في الكلام المنثور على حرف واحد[٣]وهو معنى القول نفسه عند السكاكي: ((الأسجاع وهي في النثر كما القوافي في الشعر))[٤]

واختلفت آراء العلماء في السجع، فذمّه جماعة وعدّوه عيباً في القرآن الكريم، ومدحه آخرون بوجود الحسن الذي ينفي العيب، فقال الرماني: ((السجع عيب، والفواصل

---

(١) د. رمضان عبد التواب: المدخل الى علم اللغة ١٠١.

(٢) ابن منظور: لسان العرب. مادة (سجع) .

(٣) ينظر: ابن الاثير: المثل السائر في ادب الكاتب والشاعر ١٩٣/١.

(٤) السكاكي: مفتاح العلوم ٢٠٣.

بلاغة))[1]وقال الباقلاني: ((لأن السجع يتبع المعنى فيه اللفظ الذي يؤدي الى السجع، وليس كذلك ما اتفق مما هو في تقدير السجع من القرآن، لأن اللفظ يقع فيه تابعاً للمعنى))[2]فسمّى كل منهما ما ورد في القرآن على صورة السجع فواصل رغبة في تنزيهه عن الوصف بغيره من الكلام المروي عن الكهنة.

وقد ردّ ابن سنان الخفاجي (ت ٤٦٦هـ) على رأي المخالفين، وتفريقهم بين الأسجاع والفواصل بأن تقصد لذاتها وتخضع للفظ، والثانية تتبع المعاني ولا تكون مقصودة في نفسها، ثم فرّق بين الفواصل والأسجاع، فقرر أن الأسجاع حروف متماثلة في مقاطع الفصول، وإنّ الفواصل منها ما يكون متماثل الحروف فيكون سجعاً، ومنها ما يكون متقارباً لا متماثلاً فلا يكون سجعاً، والقرآن الكريم ورد فيه النوعان- المتماثل والمتقارب- وكلاهما محمود[3]

ولما كانت الفاصلة في القرآن بديلة السجع أخذت مكانه من حيث الوزن العروضي الذي نلاحظ فيه مقابلة المتحرّك بالمتحرّك والساكن بالساكن، مما يؤدي الى إحداث إيقاع صوتي مسموع، فانطبقت عليها تقسيمات السجع من حيث الوزن، وهي على النحو الآتي:

١- المطرّف أو المعطوف:

وهو أن يأتي المتكلم في أجزاء كلامه أو بعضها بأسجاع (فواصل) غير موزونة بزنة عروضية، ولا محصورة في عدد معين، بشرط أن يكون روي الأسجاع روي القافية، أو هو اتفاق في حروف الروي لا في الوزن، نحو قوله تعالى حكاية عن نوح (عليه السلام): ﴿ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴾.[4]

٢- المتوازي:

وهو أن تتفق اللفظة الأخيرة من القرينة (الفاصلة) مع نظيراتها في الوزن والروي. كقوله تعالى: ﴿ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴾.[5]

(١) السيوطي: الاتقان ٩٧/٢.
(٢) الباقلاني: اعجاز القران ٨٨.
(٣) ينظر: ابن سنان الخفاجي: سر الفصاحة ١٦٥-١٦٧.
(٤) نوح ٨-١٠.
(٥) القارعة ٩-١١.

فحرف الروي التاء التي تقلب عند الوقف الى الهاء الساكنة، وأما الوزن فإن الفواصل (هاوية، ماهية، حامية) على وزن واحد. وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾.[1]

فحرف الروي الدال والفاصلتان (لشهيد. لشديد) على وزن واحد.

٣- المتوازن:

وهو ما يراعى في مقاطع الكلام (الفواصل) الوزن وحده دون الروي. كقوله تعالى في وصف الجنة: ﴿ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ۝١٣ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ۝١٤ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ۝١٥ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴾.[2]

الفواصل (مرفوعة. موضوعة. مصفوفة. مبثوثة) على وزن واحد، وفيها حروف الروي متقاربة.

٤- المرّصع:

وهو مقابلة كل لفظة بلفظة على وزنها ورويّها، ولا يريد تكرارها. وقيل مجيء هذا القسم في القرآن الكريم قليل لما فيه من التكلّف. ومن المرصّع قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝١٣ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴾.[3]

إنّ اتفاق اللفظين (إنّ) و(لفي) في الفقرتين مخالف لشرط الترصيع، لأن من شروطه اختلاف الكلمات المتقابلة، ولذا يعد من الترصيع الناقص. ومن الترصيع الكامل قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ۝٣٣ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴾.[4]

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ۝٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴾.[5]

٥- الإلتزام:

وقد يسمو التكرار في حروف الفواصل الى أن تلتزم أكثر من حرف قبل حرف الروي، وهو ما يسميه العروضيون (لزوم ما لا يلزم) ويسميه البلاغيون في النثر

---

(١) العاديات ٧-٨.
(٢) الغاشية ١٣-١٦.
(٣) الانفطار ١٣-١٤.
(٤) المدثر ٣٣-٣٤.
(٥) الغاشية ٢٥-٢٦.

(الإلتزام). ومن ذلك التزام حرف واحد قبل حرف الروي، وبشرط عدم التكلف، كقوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴾.[(١)]

فالتزم الهاء قبل الروي الراء. وقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾.[(٢)]

فالتزم الراء قبل الروي الكاف. ومثال التزام حرفين قبل الروي لتحقيق أكبر قدر من التنغيم قوله تعالى: ﴿ وَٱلطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ﴾.[(٣)]

التزام الطاء والواو قبل الروي الراء. وقوله تعالى: ﴿ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴾.[(٤)]

فالتزم النون والواو قبل الروي النون. ومثال التزام ثلاثة أحرف قبل الروي قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ۝٢٠١ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴾[(٥)] وهو التزام الصاد والراء والواو قبل الروي النون.

وتنقسم الفاصلة من حيث طول الفقرة وقصرها على قسمين، قصير الفقرات وطويلها. ويرى آخرون أنها ثلاثة أقسام، قصير موجز، ومتوسط معجز، وطويل مفصح مبيّن للمعنى مبرّز.[(٦)]

الأول: القصير: إنّ أقصر الفقرات التي تشكل فاصلة بذاتها ما تكون من عدد من الحروف، أو من لفظ واحد أو أكثر بحيث لا تزيد عن الخمسة، وكلما أمعنت في القلّة كانت أفضل. ومن ذلك قوله تعالى في افتتاحيات السور: (ألم) و(حم) و(طسم) وقوله تعالى: (الرحمن) و(الحاقة) و(القارعة). ومن الفقرات ما يتكوّن من لفظين مثل قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴾.[(٧)]وقوله تعالى: ﴿ وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا ۝١ فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا ۝٢ فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا ﴾[(٨)].

والفواصل ذات السجع القصير ((يدل على قوّة المُنشئ، وتمكنه في الصناعة،

---

(١) الضحى ٩-١٠.
(٢) الشرح ١-٤.
(٣) الطور ١-٢.
(٤) القلم ٢-٣.
(٥) الاعراف ٢٠١ -٢٠٢.
(٦) ينظر: احمد خيري: فوائد قرانية ٢٢٧.
(٧) المدثر ١-٥.
(٨) الذاريات ١-٣.

لصعوبة إدراكه، وعزّة اتفاقه، ووعورة مذهبه، وبُعد تناوله، ثم هو أجمل صورة، وأحلى موقعاً لقرب توارد الفاصلتين على السمع، ولا خفاء في أن تواليهما بسرعة في أزمنة متساوية يُشعر أننا بانسجام حاضر دائماً))(١)

الثاني: المتوسط: وهو الذي تزيد مقدار فقراته على خمسة ألفاظ ولا تتجاوز العشرة، كقوله تعالى: ﴿ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴾.(٢)

الثالث: الطويل: وهو ما يزيد على عشرة ألفاظ، والسجع الطويل أسهل تداولاً من السجع القصير، لأن طول تأليفه يجعل رصفه أخف مؤونة على مؤلّفه، وكلما طالت الفقرات زاد بيانها ومن ذلك ما ورد من احدى عشرة لفظة قوله تعالى: ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ۝ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴾.(٣)

ومما ورد من ثلاثة عشر لفظاً قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾(٤)ومما يصل الى عشرين لفظة، وهو غاية ما يصل اليه السجع من طول، مثل قوله تعالى: ﴿ إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴾(٥)

ومما يلاحظ في نظام الفواصل والقوافي أن تنوّعه يختلف بالقياس الى طول الفواصل، وهو أشبه باختلاف بحور الشعر في الديوان الواحد، وقصارى ما يقال فيه إن الفواصل تقصر غالباً في السور القصار، وإنها تتوسّط أو تطول في السور المتوسطة

---

(١) د. عبد الفتاح لاشين: البديع في ضوء اساليب القران ١٢٨.
(٢) القمر ٢-٣.
(٣) هود ٩-١٠.
(٤) التوبة ١٢٩.
(٥) الانفال ٤٣-٤٤.

والطوال، وبالقياس الى حروف الفاصلة يشتد التماثل والتشابه في السور القصيرة، ويقل غالباً في السور الطويلة.

وأما العلاقة بين الفاصلة والقرينة فإنها تحقق إيقاعاً صوتياً واضحاً والقرين الصاحب الملازم لصاحبه، والقرينة هنا الفقرة المتصلة بالفاصلة، والفواصل مع قرائنها أنواع، وهي على النحو الآتي:

أ- أن تكون القرائن متساوية في عدد الكلمات لا يزيد بعضها على بعض، ولا تضرّ الزيادة في عدد الحروف، لأن التساوي فيها غير مشروط، وقد جاء هذا في الخطاب القرآني كثيراً كقوله تعالى: ﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴾.(١)

وقوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴾.(٢)

ب- أن تكون القرائن مختلفة في الطول وعدد الكلمات، وهي على أنواع:

١- أن تكون القرينة الثانية أطول من الأولى، مثل قوله تعالى:

﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴾.(٣)

يلاحظ هنا أنّ القرينة الأولى مكوّنة من ثماني كلمات، والثانية من تسع كلمات، والثالثة من تسع كلمات أيضاً. وقوله تعالى: ﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴾.(٤)

نلاحظ أن القرينة الأولى تتكوّن من ثلاث كلمات، والثانية من خمس كلمات.

وإذا كان طول قرينة قياساً لأخرى يخرج عن حد الاعتدال فإنه غير مرغوب فيه، وقدّروا هذا الطول بمقدار الثلث، وقد علل العلماء طول القرينة الثانية على الأولى بتعليل نفسي، وهو أنّ ((دقات الساعة المتوالية حين تبدأ أو تتكرر يعيها السامع، ولما كان تكرار الدقات يتبع نظاماً معيّناً فإنّ السامع يتوقع أن تتكرر الدقات بذلك النظام نفسه في المستقبل، وقد يكون هذا التوقع أو الانتظار شعورياً، وقد يحتل شبه الشعور، دليل ذلك أنه إذا توقفت الساعة عن العمل كان توقفها سبباً في لفت نظرك اليها، والبحث عن أسباب توقفها، ومعنى

(١) الواقعة ٢٧-٣٠.
(٢) الضحى ٩-١٠.
(٣) الفرقان ١١-١٢.
(٤) النجم ١-٢.

ذلك ان حدوث الأشياء بنظام مخالف لما نتوقع يحدث في أنفسنا شيئاً من الدهشة والاضطراب))[1]

٢- **أن تكون القرينة الثانية أقصر من الأولى، كقوله تعالى:**

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴾.[2]

فالقرينة الأولى سبع كلمات، والثانية خمس كلمات، وهذا غير مضر. وقوله تعالى:

﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴾.[3]

وقد عاب البلاغيون المبالغة في قصر القرينة الثانية، وعللوا ذلك بـ((أنّ السجع قد استوفى أمده بطوله، فإذا جاء الثاني أقصر منه كثيراً يبقى الإنسان عند سماعه كمن يريد الانتهاء إلى غاية فيعثر دونها))[4]

٣- **أن تكون القرينة الأولى أقصر والقرينة الثانية والثالثة متساويتان، وهو حسن كقوله تعالى:** ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴾.[5]

فالقرينة الأولى من ثماني كلمات، والثانية والثالثة من تسع كلمات.

٤- **أن تكون القرينة الأولى والثانية متساويتان، والثالثة زائدة عليهما، كقوله تعالى:**

﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴾.[6]

فالقرينة الأولى (خذوه فغلوه) والقرينة الثانية (ثم الجحيم صلوه) متساويتان بوجود الفاء وثم للعطف والترتيب، وقد تحقق فيهما المطلوب، والثالثة (ثم في سلسلة...) لبيان الزيادة في العذاب. والله أعلم. وقد اختلف علماء البلاغة حول جمالية هذه الأقسام والأنواع، ولاسيما النوع الذي قصرت قرينته الثانية.[7]

---

(١) د. عبد الفتاح لاشين: البديع في ضوء اساليب القران ١٣١-١٣٢ نقلا عن حامد عبد القادر: دراسات في علم النفس الادبي ٨٩.
(٢) الفيل ١-٢.
(٣) الغاشية ١٧-١٨.
(٤) ابن الاثير: المثل السائر ٣٣٥/١.
(٥) الفرقان ١١-١٣.
(٦) الحاقة ٣٠-٣٢.
(٧) ينظر: علي الجندي: صور البديع – فن الاسجاع ٢١٦/١ -٢١٧.

الفواصل الداخلية:

ويسمى هذا النوع (التشريع)[١]زعم قوم اختصاصه بالشعر، وقال آخرون لا يكون الاّ في النثر، ويكون مبنياً على سجعتين، لو اقتصر على الأولى منهما كان الكلام تاماً مفيداً، وإن ألحقت به السجعة الثانية كان في التمام والإفادة على حاله مع زيادة معنى ما زاد على اللفظ. قال السيوطي: ((ويصح ذلك أن يمثل بالآيات التي في إثباتها ما يصح (أن يكون فاصلة. كقوله تعالى: ﴿ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴾[٢]وأشباه ذلك))[٣]ومن الجدير بالذكر أن الفاصلة الداخلية ظاهرة من ظواهر القرائن والفقرات الطويلة، لأنها تقوم مقام المرتكزات والمحطات النفسية صوتاً ودلالة أو موسيقى ومعنى.

وإذا تأملنا الفواصل الداخلية وجدناها تنقسم انقسام الفواصل الأصلية، أي الى فواصل متماثلة، وفواصل متقاربة، وفواصل متباعدة، وللفواصل الداخلية المتماثلة شواهد كثيرة تكاد تغلب عليها التقفية بالواو والنون، نتيجة انتشار هذه التقفية الواسعة في الفواصل الأصلية. كقوله تعالى: ((فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون))[٤]

ومن هذا القسم ما يتفرّع داخلياً الى فرع آخر مثل قوله تعالى: ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴾[٥] نلاحظ الفواصل المتماثلة (يسرون. يعلنون. المستكبرين) جاء رويها على حرف النون.ومن الفواصل المتماثلة ما جاء رويها على حرف الراء مثل قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا فَتَحُوا۟ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ۖ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى ۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ۖ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ۖ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴾[٦]ومما ورد على حرف اللام قوله تعالى: ﴿ ...فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾[٧]

---

(١) ينظر: السيوطي: الاتقان في علوم القران ١٠٤/٢.
(٢) الطلاق ١٢.
(٣) السيوطي: الاتقان في علوم القران ١٠٤/٢.
(٤) الروم ١٧ وينظر: الاعراف ١٦٨، ١٩٤ والانفال ٣٤ والشعراء ٧٣ والعنكبوت ٣٧ والروم ٤ ويس ٧٦ والمائدة ١٠٢.
(٥) النحل ٢٣.
(٦) يوسف ٦٥.
(٧) فاطر ٤٣.

ومن الفواصل المتقاربة من هذا النوع أقل مثل قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾[1] فالفواصل (واتبعون، مستقيم) على حرفي النون والميم وهما متقاربان. وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾[2]فالفواصل (حميم. أليم. يكفرون) على حرفي الميم والنون وهي متقاربة.

ومن الفواصل المتباعدة وهي أقل من القسمين الأولين مثل قوله تعالى: ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[3]وقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[4] فنلاحظ الفواصل (العذاب. العقاب. رحيم) متباعدة لتباعد رويّها.

إنّ العناصر المكوّنة للإيقاع في الخطاب القرآني تتجلى في الحركة الصوتية والدلالية الناجمة عن تفاعل الحروف داخل الكلمات، وتفاعل الكلمات داخل العبارات، وتفاعل العبارات داخل التراكيب. وتتجلى أيضاً في حركة الفواصل داخل التراكيب من خلال زيادة حروفها أو حذفها، أو تقديمها وتأخيرها، أو عدول عن لفظ، أو تغيّر حركاتها الإعرابية لغرض تساوقها أو تقاطعها أو تداخلها لتنتج معنى يحمل شحنة صوتية ودلالية تعمل على توسيع أفق السامع، فيزداد تعلقا بقيمة النص، ويزداد إيمانا بعظمة المنشئ.

ولحرص القرآن الكريم على تحقيق الإيقاع الصوتي والدلالي بين الفواصل التيتتنوّع حروفها وتختلف حركاتها، وذلك بالتزام أحكام[5] أو أساليب تتوخى توحيد حروفها وحركاتها، مما يعني احتفاظ الفاصلة بإحدى صور التوافق الصوتي مع الفواصل السابقة واللاحقة مراعية لمناسبتها، وهي على النحو الآتي:

١- الوقف على السكون:

ويتجلى هذا النظام في مظهرين، الأول: التزام الوقف على السكون وله أكثر من فائدة، منها استراحة للقارئ، وتدبّر ما يقرأ، وإفهام السامع، وإحداث إيقاع موسيقي من خلال توحيد الحركة الصوتية، وهو الغرض المطلوب هنا، فقد جاز مقابلة اللفظ المرفوع

---

(١) الزخرف ٦١.
(٢) الانعام ٧٠.
(٣) المائدة ١٠١.
(٤) الاعراف ١٦٦.
(٥) ينظر: الزركشي: البرهان ١/٦٠-٦٧.

بالمنصوب أو المجرور وبالعكس، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ۝٨ دُحُورًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴾.[1] يلاحظ اختلاف حركة الفاصلتين (جانب) بالكسر و(واصب) بالرفع ويكون الوقف عليهما لازماً بالسكون. وقوله تعالى: ﴿ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ۝١٣ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴾.[2] فالفاصلتان مختلفتا الحركة، وهما الكسر والفتح والوقف عليهما بالسكون لازم، وهكذا فالوقف على السكون يعمل على توحيد الحركة الصوتية والانسجام الصوتي.

إنّ مألوف الوقف في فواصل القرآن أن يكون أكثر ما يكون على حرف النون مردوفاً بحرف المد واللين، ولاسيما الواو فالياء فالألف، وهذا الشكل من الوقف يخالف الشائع في روي القوافي المطلقة، ويوافقها من حيث الأثر الصوتي، بالاعتماد على الإكثار من ردف المد، مما يؤكد تميّز التشكيل الموسيقي لفواصل القرآن، لذا كان من السهل على الإنسان العادي أن يفرّق بسهولة بين الفواصل وبين قوافي الشعر وسجع النثر. قال الزركشي: ((وقد كثر في القرآن ختم كلمة المقطع من الفاصلة بحروف المد واللين وإلحاق النون، وحكمته وجود التمكن من التطريب بذلك... وجاء القرآن على أعذب مقطع، وأسهل موقف))[3]

والوقف على السكون أنواع ومن أشهرها المردوف بواو أو ياء مختوماً بنون، ولاسيما في الآيات المدنية، والمعروف أن جمع المذكر السالم وثلاثة من الأفعال الخمسة تنطوي على هذه الصيغة. لذا كانت دلالة هذا النوع من الوقف معبّرة عن غاية القرآن في خطابه عن الجماعة مؤمنين ومشركين ومنافقين. ومن ذلك خطابه تعالى للمنافقين: ﴿ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ۝١ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[4] ثم تتوالى الفواصل (يفقهون. يؤفكون. مستكبرون) فيلاحظ الوقف على الأفعال الخمسة وعلى جمع المذكر السالم. إنّ دلالة الجمع تشمل المفرد أيضاً، كما أن صيغة الجمع لها دلالة مفخمة ذات إيقاع جزل.

وهناك الوقف على جمع التكسير ومنه ما كان على وزن فُعُول بضمتين من جموع الكثرة، ومنه ما كان على وزن أفعال من جموع القلة وغير ذلك من الجموع. إن ظاهرة

---

(١) الصافات ٨-٩.

(٢) القمر ١٣-١٤.

(٣) الزركشي: البرهان ١/٦٨-٦٩.

(٤) النافقون ١-٢.

الوقف على ما دلالته الجمع تستحق العناية، وهناك فواصل وقفت على ضمائر الجمع مثل قوله تعالى: ﴿ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴾.[1]

والمظهر الثاني للنظام اطّراد الفاصلة، ولعلماء الجمال والنقد جولات في ذلك. ((فالنسيج الذي يتألف من التوقعات والاشباعات، أو خيبة الظن أو المفاجآت التي يولّدها سياق المقاطع هو الإيقاع))[2]ونظام الاطراد يثير التوقعات أولاً ثم يشبعها ثانياً. فحين تلتزم فاصلة أو أكثر مثل (الواو والنون) يتوقع المرتل تكرر هذه الفاصلة من جديد، وحين يتحقق توقعه يحدث لديه الإشباع، فيتطلع مرّة ثانية، وهكذا دواليك.

إنّ التوقع وإشباع التوقع أو النظام ليست وحدها تكفي العمل الفني، لأن استمرارها أو انفرادها ينشآن الرتابة والملل ((ومن الواضح أنه لا توجد مفاجأة أو خيبة ظن لو لم يوجد التوقع، وربما كانت معظم ضروب الإيقاع تتألف من عدد من المفاجآت، ومشاعر التسويف، وخيبة الظن لا يقل عن عدد الاشباعات البسيطة المباشرة، وهذا يفسّر لنا لماذا سرعان ما يصبح الإيقاع المسرف في البساطة شيئاً مملاً تمجّه النفس خالياً من الإيقاع والتأثير، ما لم تتدخل فيها حالات من التخدير، كما نجد في الكثير من الرقص والموسيقى البدائيين، وكما الحال في الوزن))[3]

أمّا دلالة اطّراد الفاصلة في القرآن فهي جزء من اطّراد النظام كلّه، وهي تنهض بالدور الذي ينهض به النظام في كلّ شيء فني، فهي مثلاً ركن أساس من أركان الآية لفظاً ومعنى، وهي كذلك شارة تميّز القرآن من الشعر والنثر مسجوعاً أو مرسلاً، يفطن اليها القارئ، ويأخذ بسحرها السامع.

ومن دلالات هذا الاطّراد التأكيد على أهمية التقفية أو التوقيع في القرآن، وفي أي أثر أدبي يطمح إلى خطب ود الجمال في التعبير، وهناك دور آخر للفواصل في تسهيل عدّ آي القرآن وحفظه ودرسه، ولنتخيّل كيف يكون حال هذا الكتاب المعجز لو لم تنجّمه هذه الفواصل عبر أجيال من القرّاء والكتّاب والدارسين، فضلاً عن معاول الأعداء التي تتكسّر في كل وقت وحين، فنتأكد أن هذه الفواصل تطرق سمع المسلم منذ ولادته حتى وفاته، وهي باقية هكذا الى يوم الدين.

٢- الزيادة والحذف:

وقد يزيد القرآن حرفاً على الفاصلة لغرض توحيد رويّها، وانسجام أصواتها مثل زيادة حرف الألف كقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ

(١) الغاشية ٢٥-٢٦.
(٢) إ. رتشاردز: مبادئ النقد الادبي ١٩٢.
(٣) المرجع نفسه ١٩٢.

﴿ ٱلظُّنُونَا۠ ﴾[1]وأصلها الظنون دون ألف مد لأنها معرفة بالألف واللام، وزيدت ألف لتوافق فواصل السورة، وأكثرها حرف ألف مد، ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴾[2]وقوله تعالى: ﴿ يَقُولُونَ يَٰلَيۡتَنَآ أَطَعۡنَا ٱللَّهَ وَأَطَعۡنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴾[3]

ومثل هذه الزيادة هاء السكت في قوله تعالى: ﴿ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُوتَ كِتَٰبِيَهۡ ﴿٢٥﴾ وَلَمۡ أَدۡرِ مَا حِسَابِيَهۡ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيۡتَهَا كَانَتِ ٱلۡقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ ﴾.[4]وذلك لتوافق الهاء إيقاعياً مع التاء المربوطة التي تصير هاء بالوقف، بل ان القرآن قد يغيّر من بنية الكلمة لأجل الإيقاع كما في قوله تعالى: ﴿ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ ﴾[5]ولفظ سنين هو طور سيناء المذكور في قوله تعالى ﴿ وَشَجَرَةٗ تَخۡرُجُ مِن طُورِ سَيۡنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهۡنِ وَصِبۡغٖ لِّلۡأٓكِلِينَ ﴾[6]ومثل هذه الزيادة أيضاً قوله تعالى ﴿ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾[7]واصل اللفظ (دسسها) فزيدت الألف حتى يتوافق مع فواصل السورة بالصيغة المذكورة. وكل ذلك يؤكد حرص القرآن على إيقاع الألفاظ التي جبل الناس حبها مع الحرص على جانب الدلالة أيضاً.

ومن مظاهر البلاغة في الفواصل حذف بعض الألفاظ منها، والحذف ظاهرة لغوية عامة، والعربية لغة إيجاز يكثر فيها الحذف، ولا غرو ان سماه ابن جني (شجاعة العربية) وقال: ((قد حذفت العرب الجملة والمفرد والحرف والحركة، وليس شيء من ذلك الا عن دليل عليه، وإلاّ كان فيه ضرب من تكليف علم الغيب في معرفته))[8]ويرجع في معرفة المحذوف الى السياق بقرائنه المتنوعة، وفي بلاغة الحذف وجماله يقول عبد القاهر الجرجاني: ((هو باب دقيق المسلك، لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر، فأنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة أزيد من الإفادة))[9].

ومن صوره حذف بعض الحروف من الفاصلة لتحقيق الانسجام الصوتي كما في قوله تعالى: ﴿ وَٱلۡفَجۡرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشۡرٖ ﴿٢﴾ وَٱلشَّفۡعِ وَٱلۡوَتۡرِ ﴿٣﴾ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ ﴾[10] فاللفظ (يسر) أصله

---

(١) الاحزاب ١٠.
(٢) الاحزاب ٦٧.
(٣) الاحزاب ٦٦.
(٤) الحاقة ٢٥-٢٩.
(٥) التين ٢-٣.
(٦) المؤمنون ٢٠.
(٧) الشمس ١٠.
(٨) ابن جني: الخصائص ٢/٣٦٢.
(٩) الجرجاني: دلائل الاعجاز ١٠٦.
(١٠) الفجر ١-٤.

يسري بالياء، حذفت لتساوي صوتياً ما سبقها وما تلاها من الفواصل، وكذلك حذف المفعول به قوله تعالى: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾[1]وأصلها وأطيعوني، حذفت ياء المتكلم المفعول به، وغيرها مثل (يعلمون، ويفعلون، ويعملون) فيحذف منها المفعول كثيراً في الفاصلة لدواع سياقية كالتهديد في قوله تعالى: ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾[2]ويحذف للمواساة والتخفيف كقوله تعالى: ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ﴾[3]أي قلاك فحذفت الكاف مفعول به مراعاة للفاصلة، ولعدم ذكر الضمير العائد للنبي(صلى الله عليه وسلم) مع لفظ القلى الدال على البغض، وحقق ذلك إيقاعاً جميلاً يتوافق مع الفواصل، ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ﴾.[4]والمحذوف أي أعطى خيراً وأتقى الله والمحرمات والشبهات...، ولو ذكر المفعول المفعول صريحاً لصرف الذهن إلى شيء واحد فقط.

٣- التقديم والتأخير:

يرتبط التقديم والتأخير بفن القول، أي بالكلام ذي الطبيعة الفنية كالشعر والنثر الفني في ألوانه المتعددة، والضابط للتقديم والتأخير هو الإعراب الذي يحفظ لكل لفظ موقعه في بناء الجملة، سواء ورد اللفظ مقدماً أم مؤخراً، وفي جملة (ضرب عبد الله زيداً) قال سيبويه: ((فأن قدمت المفعول وأخرت الفاعل جرى اللفظ كما جرى في الأول، وذلك قولك ضرب زيداً عبد الله، لأنك إنما أردت به مقدماً ما أردت به مؤخراً، ولم ترد أن تشغل الفعل بأول منه، وإن كان مؤخراً في اللفظ، فمن كان حد اللفظ أن يكون مقدماً، وهو عربي جيد كثير، كأنهم يقدمون الذي بيانه لهم أهم، وهم ببيانه أعنى، وإن كان جميعاً يهمانهم ويعنيانهم))[5]

ويحدث كثيراً في الفواصل القرآنية، وله بلاغته الخاصة وجماله وإيقاعه المؤثر، وهو في كلامنا عملية فنية معقدة تحتاج الى خبرة عالية بفن القول، وترتبط بالمستويات العليا للغة، ويذكره الجرجاني بقوله: ((هو باب كثير الفوائد، جم المحاسن، واسع التصرف، بعيد الغاية..)).[6].

---

(١) آل عمران ٥١.
(٢) التكاثر ٣.
(٣) الضحى ٣.
(٤) الليل ٥.
(٥) سيبويه: الكتاب ٣٤/١.
(٦) الجرجاني: دلائل الاعجاز ١٨٥.

ومن صور تقديم المفعول به على الفاعل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾[1]قدم المفعول به (آل فرعون) وأخر الفاعل (النذر) وذلك لأن فواصل السورة رائية، فيتحقق بذلك الإيقاع المنتظم، وقوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[2]فقد قدم المفعول به (أنفسهم) وأخر الفعل (يظلمون) لتحقيق غرضين، الأول إيقاعي وهو إجراء الفاصلة بالنون لتتوافق إيقاعياً مع الفواصل السابقة واللاحقة، والثاني بلاغي وهو اختصاصهم بظلم أنفسهم. ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ﴾[3] حيث قدم الجار والمجرور (في نفسه) وأخر الفاعل (موسى) لرعاية الإيقاع في الفاصلة.

٤- الإفراد والجمع:

ومن مظاهر التنسيق الإيقاعي بين الفواصل وهو إفراد ما أصله أن يجمع كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ﴾[4] فاللفظ (نهر) مفرد وأصله جمع (انهار) تناسقاً مع الجنات، وقد أفرد لمقابلته الفواصل السابقة واللاحقة له، وقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾[5]فاللفظ (عضداً) مفرد وجمعه أعضاد، وقد افرد ليُجانس الفواصل السابقة له (موعداً، أحداً).

وجمع ما أصله مفرداً كقوله تعالى: ﴿قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ﴾[6]فاللفظ (خلال) جمع ومفرده خلّة، وهي معطوفة على مفرد بدليل الآية ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ﴾[7]ولكن القرآن آثر جمعها (خلال) تناسقاً مع الفواصل السابقة.

٥- التذكير والتأنيث:

---

(١) القمر ٤١-٤٢.
(٢) البقرة ٥٧.
(٣) طه ٦٧.
(٤) القمر ٥٤-٥٥.
(٥) الكهف ٥١.
(٦) ابراهيم ٣١.
(٧) البقرة ٢٥٤.

ومن أجل تناسب اللفظ مع الفواصل يؤنث ما هو مذكر أصلاً كقوله تعالى: ﴿ كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ ۝١١ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴾ [1] فاللفظ (تذكرة) مؤنث والأصل تذكرّ وقد عدل اليها لتناسي الفاصلة. والدليل على ذلك الفاصلة اللاحقة التي تدل على التذكير وليس التأنيث.

٦- صرف ما لا يصرف:

وبقصد تناسق الفواصل الصوتي عمد القرآن الكريم الى صرف ما لا ينصرف كقوله تعالى: ﴿ وَيُطَافُ عَلَيۡهِم بِـَٔانِيَةٖ مِّن فِضَّةٖ وَأَكۡوَابٖ كَانَتۡ قَوَارِيرَا۠ ۝١٥ قَوَارِيرَاْ مِن فِضَّةٖ قَدَّرُوهَا تَقۡدِيرٗا ﴾ [2] فاللفظ الأول (قواريرا) على زنة (فواعل) لا ينصرف، وقد صرفه القرآن وجعله منوناً وقلب تنوينه ألفاً تجانساً مع الفواصل الأخرى، وصرف الثاني بالتنوين ليتناسب مع بقية الآية.
وتصريف (قوارير) الثانية وإن لم تكن فاصلة، فأنها جاءت للتناسب كما جاءت لفظة (سلاسل) في قوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَاْ وَأَغۡلَٰلٗا وَسَعِيرًا ﴾ [3] فأن اللفظ(سلاسلاً) صرّف ونوّن ليتناسب مع اللفظ المجاور له (أغلالاً) وإن لم يكن من الفواصل. وإنما جاء ليحقق تناسقاً موسيقياً داخل النص.

٧- إحلال لفظ محل لفظ أخر:

ويتم ذلك بإحلال لفظ محل آخر لدلالة بلاغية، وحاجة السياق الى عناصره المتنوعة، وصوره كثيرة في الفواصل، نذكر منها إحلال صيغة فاعل محل مفعول. مثل قوله تعالى: ﴿ فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٖ دَافِقٖ ﴾ [4] فاللفظ (دافق) على صيغة فاعل، ويذكر البلاغيون أن الماء هنا مدفوق على صيغة مفعول. ولكن صيغة (دافق) توافق الفواصل المنتهية بحرف القاف المسبوق بألف مد مثل (الطارق)، ولا توافقها لفظة (مدفوق) لأن حرف المد الواو لا يتجانس مع الألف بل مع الياء.
وأما إحلال مفعول محل فاعل فأنه يتم أيضاً لخلق تناسق صوتي مع الفواصل الأخرى مثل قوله تعالى: ﴿ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا ﴾ [5] فاللفظ (مأتياً) أصله آتياً كما يذكر، وكأن اللفظ (مأتياً) جعل الوعد يؤتى اليه ويتوافد الناس عليه،

---

(١) عبس ١١-١٢.
(٢) الانسان ١٥-١٦.
(٣) الانسان ٤.
(٤) الطارق ٥-٦.
(٥) مريم ٦١.

وذلك أبلغ في الدلالة. وكل ذلك يدل على بلاغة عالية، وأسلوب بديع يمتع العقل والروح معاً لمن يتدبر ويتذوق.

٨- الإستغناء بلفظ عن آخر:

وظاهرة الاستغناء بلفظ عن أخر لدواع سياقية معروفة في القرآن الكريم، إذ يختار اللفظ بدقة متناهية، ومن ذلك استعماله صيغة (مفعول) مثل غفور في الفواصل، ولكنه يستغني عنها بصيغة (فعّال) غفّار لتتوافق مع الفواصل مثل قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴾[١] فالفواصل جهارا، إسراراً تتفق معها غفاراً، أما غفور وغفار في حق الله تعالى فهما صيغة مبالغة، ولا تفاضل بينهما دلالياً، ولكن حاجة السياق تحدد المختار منهما. ومثل هذه الصيغة قوله تعالى: ﴿ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا ﴾[٢] حيث أوثرت صيغة (كبّار) على كبير لإبداء المبالغة، وتحقيق التناسق في الإيقاع.

٩- العدول عن صيغة إلى أخرى:

يتم في الفواصل العدول من صيغة الماضي الى صيغة الاستقبال كقوله تعالى: ﴿ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾[٣] فاللفظ (كذبتم) بصيغة الماضي واللفظ (تقتلون) بصيغة المستقبل وينبغي أن يماثل ما سبقه لأنه معطوف عليه ولكنه آثر العدول إلى صيغة المستقبل لينسجم مع الفواصل السابقة واللاحقة. وفي آية أخرى ساوى بين الصيغتين كما في سورة الأحزاب ﴿ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴾[٤] وكذلك قوله تعالى: ﴿ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴾[٥] أي عدول الفعل (يقتلون) إلى صيغة المستقبل التي تخالف ما سبقه مراعاة للفاصلة ولم يقل (قتلوا).

١٠ –إئتلاف الفاصلة مع المضمون:

---

(١) نوح ٨-١٠.
(٢) نوح ٢٢.
(٣) البقرة ٨٧.
(٤) الاحزاب ٢٦.
(٥) المائدة ٧٠.

اتفق نقاد الأدب على وجوب أن تكون القافية وآخر السجعة مطابقة لمضمون البيت أو الجملة، فإن جاءت مجتلبة للتوافق الصوتي دون حاجة السياق اليها عد ذلك من العيوب، وذلك لأن الفاصلة والقافية والسجعة تأتي في أخر الجملة، ولا بد أن تحمل مضموناً مطابقاً لمضمون ما قبلها، ليكون الكلام متناسقاً غير متنافر. وقد جاءت الفواصل القرآنية متآلفة تمام التآلف مع آياتها، مؤدية دورها في إتمام المعنى، وإيصاله على نحو بديع، حتى لو تكلف متكلف ان يستبدل الفاصلة بغيرها ما أستطاع، وما وجد غيرها يؤدي المعنى والايقاع معاً. وقال الزركشي: ((أعلم إن من المواضع التي يتأكد فيها إيقاع المناسبة مقاطع الكلام أولاً، وإلا خرج بعض الكلام عن بعض، وفواصل القرآن العظيم لا تخرج عن ذلك، لكن منه ما يظهر، ومنه ما يستخرج بالتأمل اللبيب))[١].

ونستدل على ذلك التلاؤم بين الفاصلة ومضمون الآية من جهة الدلالة والصوت، حتى أن السامع إذا كان ذا فهم ثاقب بفن الكلام وسمع الفاصلة أدرك موقعها من الكلام. وقد روي ((ان إعرابياً سمع قارئاً يقرأ قوله تعالى: ﴿ فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[٢]فقرأ (إن الله غفور رحيم) ولم يكن الاعرابي يقرأ القرآن، فقال: إن كان هذا كلام الله فلا يقول كذا، الحكيم لا يذكر الغفران عند الزلل لأنه إغراء عليه))[٣]ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾[٤]ختمت الآية الأولى بالاستفهام الإنكاري (أفلا يسمعون) لمناسبة ذلك لمضمون ألآية، ذلك ان أخبار القرون الأولى تناقلتها ألألسن والأسماع على مدار الزمن، وتسجيلها كتابة إنما هو لحفظها من الضياع. وختمت ألآية الثانية (أفلا يبصرون) موافقة لمضمون الآية كذلك، إذ أنهم يرون الماء ينزل من السماء ويساق الى الأرض الجرداء، فيخرج الله به الزرع أمام أعينهم فيأكلون وتأكل منه أنعامهم، أفلا يبصرون تلك النعمة كيف تتحقق أمام أعينهم.

١١- الفاصلة والإعراب:

لا ننظر الى الإعراب على انه آثر جالب للحركة الإعرابية في أواخر الألفاظ فحسب، بل بوصفه خبرة بالنظم والتركيب، وهو ما أسماه عبد القاهر بالنظم وبنى نظريته عليه في البلاغة العربية. والمعنى دائماً للحالة الإعرابية وقديماً قالوا: ان الإعراب فرع

---

(١) الزركشي: البرهان في علوم القران ١٠٧/١.
(٢) البقرة ٢٠٩.
(٣) السيوطي: الاتقان في علوم القران ١٢٩/٢.
(٤) السجدة ٢٦-٢٧.

المعنى، وتغيره يؤدي الى تغيرّ المعنى، ولا شك أن الفاصلة القرآنية بإعرابها وأصواتها تأتي نتيجة التركيب اللغوي للجملة، وانه ليجعلها على صورة ما توافق الايقاع وتراعي دورها في التركيب. والقرآن الكريم يطوع اللغة لاستعمالاته فيأتي بالمعجز البديع من البيان ومنه الفواصل. ومن ذلك ما يبين علاقة الإعراب بالفاصلة وأثرها في صياغتها ودلالته، فإن كانت الفواصل جميعها مرفوعة، فإن الإعراب يمهد لفاصلته لكي تنسجم مع الفواصل الأخرى، لكي تكون في حالة الرفع. فمثلاً الأفعال الخمسة المسندة الى واو الجماعة بصيغة (يفعلون وتفعلون) ولكي يتحقق الإيقاع بالمد والترنم ينبغي أن يبقى الفعل مرفوعاً بثبوت النون، وحين تأتي الفاصلة في حالة النصب، فأن الإعراب يعمل على توطئة تمنع الفاصلة الفعل من النصب مثل قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾[1] ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾[2] ﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[3]ولو رفعت (لعل) لأصبحت الأفعال الفواصل (ليتقوا، ليفقهوا، ليتفكروا) لانتصب الفعل وذهب الإيقاع ولذا وطىء بـ (لعل) وهي تفيد الرجاء، وتمنع الفعل من النصب بجعله مع فاعله في محل رفع خبر لها، وبذلك يتجانس صوتياً وأعرابياً ودلالياً مع الفواصل الأخرى، وبعد مراجعة مواضع استعمال (لعل) بهذه الصورة وردت كثيرة. فأصبحت شائعة في القرآن الكريم.

وإذا كانت الفواصل مرفوعة مهد لهذه الفاصلة بما يعمل الرفع، وإذا كانت الفواصل منصوبة مهد لهذه الفاصلة بما يعمل النصب، مع ان التركيب اللغوي قد يكون واحداً في الفاصلة. مثل (غفور رحيم) بالرفع أو (غفوراً رحيماً) بالنصب فالمعنى فيها واحد، ولكن الإيقاع مختلف، فالرفع حالة سكون، والنصب تنوين ثم وقف عليه فيصير حرف مد، وحين تكون فواصل السورة ساكنة مثل النون والميم يأتي الرفع مثل قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[4] ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[5]وحين تكون الفواصل منصوبة يستعمل القرآن إمكانات النصب المتعددة لتحقيق النصب في الفاصلة مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[6] ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[7]والفعل المساعد (كان) يفيد في السياق الاستمرار، الاستمرار، وادخل في التركيب لتغيير حركة الفاصلة بحيث تراعي الفواصل الأخرى المنصوبة. وتستأثر (كان) بالنصيب الأكبر في تغيير الفاصلة في القرآن. ووجدنا أثرها

---

(١) البقرة ١٨٧.
(٢) الانعام ١٢٨.
(٣) الاعراف ١٧٦.
(٤) البقرة ١٩٢.
(٥) الانفال ٧٠.
(٦) النساء ٤٣.
(٧) الاحزاب ٥٩.

الواضح في سورة النساء. وفي فواصل أخرى في السور الكهف، ومريم، والأحزاب، والفرقان، والفتح وغيرها.

١٢- الفاصلة والصورة:

في القرآن الكريم صور متعددة، وفي كل صورة مشاهد عدة، ناطقة معبرة عن جمالية فائقة، والمشهد القرآني قد يضم عدة آيات متتابعة في موضوع واحد، يؤدي دوره في التأثير والتأثر، ويعرف طريقه إلى الفطرة الإنسانية، فيعمل على تحفيزها لتلقي كلمات الله تعالى. هذه المشاهد حية متحركة نابضة بالحياة، ترضي العقل، وتشبع الذوق، وتحرك الوجدان، وتؤدي دورها في السياق والفاصلة القرآنية عنصر أساس من عناصر هذه المشاهد المتنوعة، وقد حتمت تلك المشاهد أن يكون لكل مشهد فاصلة مختلفة عن فاصلة المشهد الآخر، يكون لكل مشهد إيقاع خاص به ينسجم وموضوع ذلك المشهد، فيحدث التوافق بين أحداث ذلك المشهد وفاصلته، حتى اذا تمت الصورة أو السورة فأننا سنجد فواصل متنوعة متقاربة يتغير فيها الإيقاع بحسب كل مشهد من تلك المشاهد.

ويتضح ذلك التنوّع في السور المكية القصار، إذ تتوضح فيها تلك النقلات الصوتية والدلالية والموضوعية، ومن تلك الصور والمشاهد ما ورد في سورة نوح، إذ تبدأ بإرسال نوح (عليه السلام) الى قومه، ثم يذكر خطابه اليهم كما في قوله تعالى: ﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ۝٢ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرۡكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۚ لَوۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾[1]وفواصل هذا المشهد (مبين، وأطيعون، تعلمون).

ويتغيّر المشهد إذ لم يجد إجابة منهم لدعوته، فيتوجّه الى ربّه يشكو اليه حاله مع قومه، فيتغيّر إيقاع الفواصل ويتحوّل الى الراء المنتهي بألف مد، فكأنه مرفوع الى السماء، مما يناسب جو الشكوى والحزن، ويساعد الإيقاع في رسم جو المشهد، ونقل الصورة كاملة، وهذا بلا شك لون من ألوان الإعجاز. قال تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوۡتُ قَوۡمِي لَيۡلٗا وَنَهَارٗا ۝٥ فَلَمۡ يَزِدۡهُمۡ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارٗا ﴾[2] وتستمر الفواصل (استكبارا، جهارا، إسرارا، غفّارا...) وتستمر الألف المنصوبة المنوّنة التي تتحوّل الى حرف مد بالوقف على التنوين الى نهاية السورة

ونجد مثل هذه المشاهد وتلك الفواصل المتغيّرة بحسب تغيّر تلك المشاهد في سورة المدّثر وسورة القيامة وغيرها من السور القصار، مما يعني وجود ذلك التوافق الحتمي بين إيقاع الفاصلة الذي ينسجم وحركة المشهد، وتفاعل شخوصه وأحداثه، والتعبير عنه بتلك الأصوات المنسجمة مع أحداثها، وهذا كله بلا شك من صور الإعجاز التصويري والصوتي الذي يضفي على المشهد الحياة والحيوية.

---

(١) نوح ٢-٤.
(٢) نوح ٥-٦.

ثانياً: نظام التكرار:

لعل من أبرز صور التناسق الجمالي في ظواهر الحياة هو تكرار الجزئيات المكوّنة لها. والتكرار: هو تناوب الألفاظ في سياق التعبير على أبعاد متساوية بحيث تشكل تردداً نغمياً يحقق انجذاباً شعورياً نحو النص في لحظة زمنية معينة. و((التكرار يسلط الضوء على نقطة حساسة في العبارة، ويكشف عن اهتمام المتكلم بها، وهو بهذا المعنى ذو دلالة نفسية قيمة تفيد الناقد الأدبي الذي يدرس الأثر ويحلل نفسية كاتبه))(١)ولأهمية هذا النظام في الإيقاع يجعله بعض الدارسين قسيماً لنظم الإيقاع الأخرى.

والتكرار في الطبيعة كثير الشيوع يظهر في دقات القلب، وفي حركته انقباضاً وانبساطاً، وفي حركة الأمواج والمد والجزر، وتناوب الليل والنهار، والشهيق والزفير، والنوم واليقظة، لأن الجسم يحتاج الى الراحة بين الحركتين، والحركة الدائمة دون توقف غير ممكنة.

ولنتأمل مجالات التكرار في الخطاب القرآني الذي يدل وروده على قيمة أدائه في التعبير البياني، فالقرآن الكريم خاطب العرب بما يألفون من الأساليب، وبكلام يدركون مواقعه ومراميه، والتكرار يشمل كل وحدة لغوية في هذا الخطاب، الحروف والكلمات والجمل، وبذلك يشكل إيقاعاً صوتياً ودلالياً مقصوداً لذاته.

أ- تكرار الحروف:

وهو أحد أنواع التكرار وأصغرها مساحة، كان ينظر اليه من خلال الألفاظ التي تتميّز من غيرها بصوتها ونغمها، فعمدوا الى تحليل حروفها، وقد جرّهم ذلك الى البحث في جرس كلّ حرف من أحرفها، ولأن مفاد أجراس الحروف في الكلام إفادة نغمية، واختلاف أصوات هذه الحروف تبعاً لاختلاف ألفاظها، فقد ((شبّه بعضهم الحلق والفم بالناي، فإنّ الصوت يخرج منه مستطيلاً أملس ساذجاً... فإذا وضع الزامر أنامله على خروق الناي المنسوقة، وراح بين أنامله اختلفت الأصوات، وسمع لكل حرف منها صوت لا يشبه صاحبه، فكذلك إذا قطع الصوت في الحلق والفم باعتماده على جهات مختلفة كان سبب استماعنا هذه الأصوات المختلفة))(٢)

وقد نظر العلماء في جرس هذه الحروف ووقعها في الأذن، وقسموها من حيث جرسها الى مجهورة ومهموسة، وشديدة ورخوة ولينة، ومنطبقة ومنفتحة، وقلقلة وغنّة، واستعلاء وانخفاض، وصفيرية وشفوية. وكذلك قسموها الى حلقية ولسانية وشفوية، ولكن ((تردد بعض الحروف يكسب الشطر لوناً من الموسيقى تستريح اليه الآذان وتقبل عليه، ومثل هذا مثل الموسيقى حيث يتردد فيها أنغام بعينها في مواضع خاصة في اللحن، فيزيدها

---

(١) نازك الملائكة: قضايا الشعر المعاصر ٢٤٢.
(٢) ابن جني: سر صناعة الاعراب ٩. وابن سنان: سر الفصاحة ١٦.

هذا التردد جمالاً وحسناً، فليس تكرار الحروف قبيحاً الاّ حين يبالغ فيه... فالمهارة هنا في حسن توزيع الحرف حين يتكرر كما يوزع الموسيقي الماهر النغمات في نوتته))(١)

ونتبيّن تكرار الحروف في الخطاب القرآني إذ تطغى بعض الحروف على غيرها وتنسجم مع دلالة ذلك الخطاب. ومن ذلك ما ورد في وحدانية الله تعالى، وفي صفاته الكريمة حيث تتشابك الأصوات معبّرة عن ذلك القانون الإلهي الخالد. قال تعالى: ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴾ (٢)

تكررت اللام ثماني مرّات، وتكررت الهاء أربع مرّات، وتكررت كل من الحاء والميم ثلاث مرّات، فاللام حرف مرقق، وهو متوسط مجهور يتوسط بين الشدّة والرخاوة، فالشدّة فيه عن ذلك تعبّر عن ثبات القول في الألوهية والوحدانية، والرقة تعبّر عن صفات الرحمة في خلقه والهاء والحاء صوتان رخويان مهموسان، ويسمع لهما حفيف، فالهاء تتعلق بالألوهية والحاء تتعلق بالوحدانية وبالرحمة. ويقابل هذا النسيج الصوتي الذي تألفه الأذن صوت الميم وهو صوت مجهور، يصدر عن التجويف الأنفي محدثاً غنّة صوتية(٣) تتناسق مع تلك التشكيلة النادرة.

ومن ذلك التكرار ما ورد في قوله تعالى عن امرأة العزيز ومراودتها ليوسف (عليه السلام): ﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ ۖ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ۖ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾(٤)

تكررت اللام عشر مرّات، والهاء ثماني مرّات، والواو سبع مرّات، وكل من النون والتاء ست مرّات، واللام صوت رقيق، والهاء صوت رخو مهموس وفيه حفيف، والواو صوت ضعيف وفيه حفيف، والنون يتميز صوته بغنّة وفيه حفيف(٥)ومثل هذا التكرار خلق جوّاً أمام امرأة العزيز أشبه ما يكون بالرومانسي الذي يدفعها الى الرغبة ومراودة الفتى يوسف (عليه السلام) وقد زاد من اندفاعها تكرار صوت التاء الشديد المهموس المتقطّع الذي يعبّر عن مقدار جهدها في الإسراع وهي تلهث الى إغلاق الأبواب لتخلو به، وصوت أنفاسها يعلو على حركتها، ولكن هيهات فقد باءت محاولاتها بالفشل.

ويوحي تناغم الأصوات وتضافرها داخل فضاء النص بانسجامها مع ما تحمله رحلة النبي موسى (عليه السلام) عائداً الى مصر مع أهله، وقد ضلّ طريقه في الليل البهيم، واستبدّت نفسه بالقلق والحيرة، فآنس من جانب الطور ناراً. قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى

---

(١) د. ابراهيم انيس: موسيقى الشعر ٣٠.
(٢) البقرة ١٦٣.
(٣) ينظر: د. ابراهيم انيس: الاصوات اللغوية ٦٥، ٨٩.
(٤) يوسف ٢٣.
(٥) ينظر: د. ابراهيم انيس: الاصوات اللغوية ٤٢، ٦٢، ٦٥، ٦٧، ٨٩.

﴿ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾[1]

تكررت اللام تسع مرّات، والنون ثماني مرّات، والميم سبع مرّات، فاللام والنون من الأصوات الذلقية التي تشترك في تقارب مخارجها، وفي نسبة وضوحها الصوتي، فهي ليست شديدة الانفجار وليست رخوة، وإذا ما اجتمعت الميم مع النون فإنها تتناسق وتشكل غنّة صوتية في جو الوحشة والمجهول في ذلك السير البهيم، ولعل هذا السكون أوضح له السمع ورؤية نار الهدى والنجاة.

ونجد في تكرار أصوات بعض الحروف انسجاماً يتوافق ودلالة الحدث أو الموقف كما يتضح ذلك في تبليغ النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) بالرسالة والدعوة الى الإسلام، فاشتد خوفه وهرع الى بيته طالباً أن يزملوه ويغطوه بدثار سميك. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ (١) قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (٢) نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا (٣) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا (٤) إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا (٥) إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴾.[2]

فتكرار اللام عشرون مرّة، والقاف عشر مرّات، والياء تسع مرّات، والنون ثماني مرّات والواو سبع مرّات، مما يدل على التناسق بينها، فاللام صوت رقيق وهو متوسط بين الشدّة والرخاوة. والقاف صوت شديد مهموس يتكوّن من إنحباس الهواء وانفجاره. والياء والواو حرفان ليّنان فيهما حفيف خفيف. والنون أيضاً صوت مجهور بين الشدّة والرخاوة وفيه حفيف وغنّة[3] ويستدل من هذا التآلف الصوتي أن الدعوة تعد بحد ذاتها ثقيلة لما فيها من التكليف واتخاذ الحزم والتجلد، وكذا نزول القرآن وما فيه من الجهد والحفظ والتدبر، وقد مثّل القاف بصوته ذلك الجهد، ولكن توجيه الدعوة وأسلوبها يتسم بالتوسّط بين الشدّة واللين، وقد مثلتها أصوات الحروف اللام والياء والواو والنون.

ويأتي تكرار حرفي الكاف والميم وهما ضمير المخاطب للجمع (كم) بحيث يتساوق مع السياق، وينتظم بشكل تصاعدي مع مساحة النص، كما هو مبيّن في قوله تعالى: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ۚ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴾[4]

تكررت الكاف والميم (كم) أربع مرّات، فحرف الكاف صوت شديد انفجاري مهموس، والميم صوت مجهور متوسط يخرج من الأنف فيحدث حفيفاً خفيفاً[1] وقد توزّع الحرفان على مساحة النص بانتظام كما هو في الشكل:

---

(١) القصص ٢٩.
(٢) المزّمل ١-٦.
(٣) ينظر: د. ابراهيم انيس: الاصوات اللغوية ٤٢، ٤٥، ٦٥، ٦٧، ٨٧.
(٤) الاسراء ٥٤.

(ـــــــ-. ـــــ-.. ـــــ-... ـــــ-)

نتبيّن من الشكل تباطؤ حرفا الخطاب (كم) وتزايد كلمات الحشو تصاعدياً، وذلك انسجاماً مع الدلالة أو المعنى، ففي هذا الخطاب يتقدم علم الله أولاً ثم تليه الرحمة ثم يليه العذاب، ومثل هذا التدرج يتسق وخطاب الله تعالى للناس كافة.

ب- تكرار الألفاظ:

يمتد تكرار الألفاظ الى مساحة صوتية أكبر من امتداده في مساحة الحروف، وذلك بالإلحاح على تردد ألفاظ بعينها، وهو ((التكرار الذي يقرع الأسماع بكلمة مثيرة يؤدي بها الشاعر معاني أكثر اتصالاً بخلجات النفس والحواس))(٢)ولكن نجاح التكرار وإبعاده عن الرتابة وفقدان قيمته الفنية يعتمد على إيجاد قيمة تسهم في رفد معنى النص وموسيقاه. وعملية التكرار هي أكثر من عملية جمع ألفاظ تتناوب في النص، بل هي وليدة ضرورات لغوية أو دلالية أو توازن صوتي. وتكرار الألفاظ في الخطاب القرآني على أنواع وهو على النحو الآتي:

١- تكرار الأسماء:

يحقق تكرار الأسماء وهي جزء من الألفاظ إيقاعاً يتناسق مع المعنى ويسايره، ونستدل على ذلك في تكرار لفظ (المُلك) بضم الميم وهو من الأسماء فنجد دلالته واحدة في الأسماء المكررة وتكراره حقق تناسقاً صوتياً ينسجم والدلالة التي يراد من تكرارها. قال تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ.. ﴾.(٣)

فتكرار لفظ (المُلك) ثلاث مرّات قد أثبت أحقية صاحبه بالتصرّف به، ولاسيما قد بيّن اللفظ الأول من هو المالك وهو الله سبحانه وتعالى، ودلالة المُلك ثابتة في كل لفظ مكرر، فمن حقه أن يعطيه لمن يشاء، ويخلعه ممن يشاء، ولا يُسأل عن ذلك الحق، ولو تغيّرت دلالة الألفاظ المكررة لأصبح ذلك التصرف محدوداً في جزء من المُلك، وهذا غير ممكن.

ومن التكرار الذي يأتي لضرورة لغوية تفيد المعنى وتوضحه، كقوله تعالى مخبراً عن موقف اليهود من كتابهم التوراة: ﴿نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ

=

(١) ينظر: د. ابراهيم انيس: الاصوات اللغوية ٧٤، ٨٤، ٨٥.

(٢) نازك الملائكة: قضايا الشعر المعاصر ٢٤٧.

(٣) آل عمران ٢٦.

﴿ظُهُورِهِمْ﴾.[١] فتكرار لفظ (الكتاب) يفيد في بيان أن ليس كتاباً من الكتب بل هو كتاب الله، ويريد به (التوراة) وليس أي كتاب، ولكنهم تركوه وراء ظهورهم، ولم يقرؤوه، ولم يأخذوا ما به من الحكمة والموعظة الحسنة.

ومن الأسماء التي تحمل صفة المدح والتقدير قوله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (١٠) أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾[٢] فالتكرار هنا وإن حقق تنغيماً، ولكنه يحمل دلالة التأكيد على صدق الكلام الذي يبشر السابقين بالقرب من رحمة الله تعالى، ورضاه عن سبقهم الى الإيمان وأعمال الخير.

ومن الألفاظ المكررة التي تدل على الوعيد والتهديد قوله تعالى: ﴿الْحَاقَّةُ (١) مَا الْحَاقَّةُ (٢) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ﴾[٣]وقوله تعالى: ﴿الْقَارِعَةُ (١) مَا الْقَارِعَةُ (٢) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ﴾[٤] فتكرار اللفظ ثلاث مرّات في كل نص، موزعاً بتنسيق صوتي على مساحة أفقية يثير السامع للإصغاء الى دلالتها المعلنة، فقد كان تكرارها توكيداً لأهميتها، ونفي الإدراك في اللفظ الثالث يثير التعظيم والتهويل لجسامتها، وما يتقرر فيها من حساب وعقاب وثواب، فهذه الأمور تحق الإنسان وتقرع سمعه.

ومن التكرار الذي يفيد في تقوية المعنى، وزيادة في الإيقاع الصوتي، وتنبيه لما سيحدث عند قيام الساعة من هول عظيم قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا (٢١) وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾[٥] فتكرار اللفظ (دكا دكا) و(صفا صفا) جاء في الفاصلة وهو أبلغ من اللفظ الأول، وقد حقق ذلك التكرار تناسقاً صوتياً بانسجامه مع الفاصلة، ودلالة هذا التكرار تثير العجب، وتجسم أمام السامع مقدار الهول والفزع الذي يحدث في ذلك اليوم.

٢- تكرار الأفعال:

وتكرار الفعل يعبّر عن حركة تعطي النص الحيوية وتنفخ فيه الحياة، وعملية تكرار الأفعال تعني إعادة لتلك الحركة أو الحيوية اللتين تقويان الدلالة، فتجعل السامع في حالة تعجب واستغراب، ومثل هذا التكرار لا يخلو من إيقاع ينسجم وتلك الحالة المستغربة.

---

(١) البقرة ١٠١.
(٢) الواقعة ١٠-١١.
(٣) الحاقة ١-٣.
(٤) القارعة ١-٣.
(٥) الفجر ٢١-٢٢.

ويأتي تكرار الفعل الذي يعني تكرار الحدث بعد إطالته، وكأنّ تلك الإعادة تجديد وتطرية له كما في قوله تعالى حكاية عن يوسف (عليه السلام): ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾[١]

فتكرار الفعل (رأيت، رأيتهم) إعادة للحدث وتذكير به، والتكرار هنا قرّب بين موقفين، الأول الرؤيا في المنام، والثاني السجود تشريفاً له، ولو ترك اللفظ المكرر (رأيتهم) لأصبحت المساحة بين الرؤيا والسجود بعيدة، ومن الناحية الصوتية جعل اللفظ المكرر مرتكزاً صوتياً في عملية توزيع الإيقاع على تلك المساحة.

ويأتي تكرار الفعل في حال التقرير، وتتضح بلاغته في إيراد قصة أصحاب الكهف التي يراد منها بيان قدرة الله تعالى على الإحياء بعد الموت، وذكر من يقول فيهم وما يقال، وهو خوض في القول دون معرفة الحقيقة التي لا يعلمها الاّ الله سبحانه وتعالى، وهو علام الغيوب. قال تعالى: ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم ﴾.[٢]

فتكرار (يقولون) ثلاث مرّات وهو من الأفعال الخمسة فكأنما هو إعادة لما يقولونه في حقهم، وفي عددهم، وفي مدّة نومهم، وماذا سيفعلون بهم وغير ذلك، وكأن ذلك التكرار مجرد تخمين بعيد عن الحقيقة الغائبة عنهم، وكأن اللفظ المكرر نقاط ارتكاز صوتية تقصّر من طول المساحة المقررة للنص، ويمكن تأمل تلك الارتكازات في الشكل الآتي:

(ـــــ-... ـــــ ـــــ-..... ـــــ ـــــ-.......)

نجد من خلال الشكل أنّ الفضاء الذي يقع بين الأصوات المكررة يتزايد بالتدريج كلما توغلنا في النص، أي الفراغ الأول وفيه ثلاثة ألفاظ، وفي الثاني خمسة، وفي الثالث سبعة، مما يعني أن الرد على آراء القائلين جاء بعد إيرادها في نهاية التكرار لينهي تلك الآراء التي يتخبطون بها.

ويأتي التكرار لزيادة التنبيه في بعض الأحكام التي يريد المسلم أن يتثبّت منها، ومن ذلك معرفة الحلال والحرام في الطعام والشراب، ويأتي ذلك عن طريق سؤال النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) فنزل قوله تعالى في ذلك: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ ﴾.[٣]

فتكرار الفعل (أُحلّ) زيادة في التنبيه الى الحلال وهو الطيبات من الطعام، وتكرار الفعل من حيث الصوت وإن كان المكرر قريباً من اللفظ الأول فإنه أحدث صوتاً ينسجم وصوت الفعل الأول.

---

(١) يوسف ٤.
(٢) الكهف ٢٢.
(٣) المائدة ٤.

وننتقل في تكرار الفعل الى يوم القيامة حيث الحساب والسؤال والجواب، ويوجّه السؤال الى كلّ أمة من الأمم، ثم يوجّه السؤال الى رسولهم أيضاً، كما في قوله تعالى: ﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾[1]

فتكرار الفعل (لنسألنّ) مع التوكيد باللام والنون، تثبتان أن هذا السؤال حق، وإنه يوجّه أولاً للناس الذين أرسل اليهم الرسل، ماذا كان موقفهم من الرسول والرسالة، ويكرر ذلك السؤال للرسل، والله تعالى أعلم بموقف الناس وموقف الرسل منهم، ولكنه التقرير الذي ينبغي أن يعرض أمام الله تعالى أولاً، وأمام الرسل ثانياً، وأمام الناس الذين يقرّون به أو ينكرونه ثالثاً، وفي ذلك التكرار تأكيد للسؤال وتحقيق للتنغيم الصوتي.

وهاهم المنافقون يحلفون بالله كذباً للنبي محمد (صلى الله عليه وسلم) وللمؤمنين عن صدق إيمانهم، ويكررون حلفهم يوم القيامة لله تعالى، وكان ذلك التكرار لحلفهم جزءاً من طبعهم الذي اعتادوا عليه، وأصبح لازماً لهم في حياتهم وآخرتهم. قال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴾[2]

إن تكرار الفعل (يحلفون) زيادة في التنبيه الى الفعل المتكرر، وثبات العادة التي اعتادوا عليها في الدنيا يعيدونها في الآخرة، ومن المثير للعجب إنهم يظنون في حلفهم أنهم على حق وصواب، وأن المتلقي يصدّق ما يقولون، ولكنهم مهما أقسموا بالله فإنهم كاذبون، لأنهم منافقون يظهرون غير ما يبطنون. وتكرار الفعل حقق تنغيماً موسيقياً، وإن كان الصوت المكرر قريباً من اللفظ الأول.

٣- التكرار الاشتقاقي:

يعتمد هذا التكرار على جذر اللفظ المكرر، فقد نجد لفظين أو عدّة ألفاظ مشتقة من الجذر نفسه، ويشكل هذا اللون من التكرار نسبة كبيرة في الخطاب القرآني، وطبيعة هذا التكرار هو توالي ألفاظ مكررة لها جذر واحد قد يكون ضمن المكرر، ولهذا التكرار قدرة على جذب انتباه المتلقي الى الأصل، كما يعمل على تركيز الدلالة في ذهن المتلقي أيضاً.

ومن أمثلة التكرار الاشتقاقي اللفظ (سخر) كما في قوله تعالى عن نوح (عليه السلام) وهو يصنع الفلك: ﴿ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴾[3]

---

(١) الاعراف ٦

(٢) المجادلة ١٨.

(٣) هود ٣٨.

فتكرار اللفظ المشتق (سخروا. تسخروا. نسخر. تسخرون) أربع مرّات يجعله منتشراً بكثافة صوتية على مساحة النص، ونلاحظ ذلك في تركيز الأصوات كلما توغلنا في تلك المساحة، إذ تبدأ بالاتساع ثم تتناقص حتى تصل الى وجود لفظين بين كل صوت مكرر. وجذر الألفاظ المشتقة (سخر) أي استهزأ، وتردده على طول مساحة النص جذب الانتباه الى أن تلك السخرية متبادلة، فالملأ من قومه الكفار استهزؤا منه لصنعه سفينة على اليابسة، وحاولوا أن يسفهوا أفكاره، وبالمقابل كان صنع السفينة نتيجة لوحي من الله تعالى، وتدبّر عقلي من النبي نوح (عليه السلام) ولاسيما في تقدير سعتها، وضبط متانتها وقوتها أمام الطوفان الجارف، وحين يحل ذلك الطوفان ستكون السخرية ممن لم يستمع الى صوت الحق والعقل، ويدخل في جماعة الإيمان بالله، وعندئذ ستكون سخرية مقابل سخرية.

ومن التكرار الاشتقاقي ما يأتي في موقف التحدي، وتكراره إعادة لذلك الثبات على الحق، واللامبالاة لما سيترتب عليه، كما هو الحال في موقف السحرة حينما رأوا معجزة العصا الإلهية التي وضعت بيد موسى (عليه السلام) وراحت تلقف ما صنعوا من إفك وكذب، سجدوا لتلك المعجزة، وآمنوا بالله ربّ العالمين. قال تعالى: ﴿ قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴾[١]

فتكرار اللفظ (فاقض. قاض. تقضي) وهي قريبة من بعضها، يخلق ذلك تناسقاً صوتياً في مركز النص، وكأنّ ذلك التركيز ارتفاع في مستوى الصوت نتيجة للرفض الصريح لأوامر فرعون وتهديده ووعيده. والأفعال المكررة مشتقة من الفعل (قضى) أي حكم أو أمر بالمضي في الأمر، فاللفظ الأول فعل الأمر طلب السحرة من فرعون أن يحكم بما يريد، وأن يفعل ما يريد فعله من التهديد والوعيد، واللفظ الثاني على زنة فاعل أي قاض أو حاكم بما يحكم، والثالث فعل مضارع يبين أنه يستطيع أن يقضي أو يأمر بما يريد في هذه الدنيا فحسب، أما في الآخرة فإن الأمر غير ذلك. ودلالة ذلك الاشتقاق قد بينت تنوّع ذلك التصريف، وما فيه من سخرية وتهكم ولامبالاة بمن تعددت قدراته في العقاب والعذاب تنوّع ذلك الاشتقاق وتعدده.

وتكرار تلك الألفاظ المشتقة وإعادتها الى جذر واحد لم يمنع من اختلاف دلالاتها، فهؤلاء كفار مكة لم يفتأوا يكيدون المكائد للقضاء على الإسلام، ولم يتوانوا في استخدام كل الوسائل للقضاء على النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) ورسالته. قال تعالى: ﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴾.[٢]

فالألفاظ (يكيدون كيداً. وأكيد كيداً. فمهّل أمهلهم) مشتقات تكررت أصواتها بانتظام على طول مساحة النص، وتناسقت حروفها ولاسيما الكاف والياء والدال، ثم الميم والهاء واللام. وهذه الألفاظ تعود الى جذرين (كاد ومهل) فالكيد هو المكر، ودلالة اللفظ (يكيدون)

---

(١) طه ٧٢.
(٢) الطارق ١٥-١٧.

أن هؤلاء الكفار يخططون لعمل السوء، ويعملون الخديعة للإيقاع بالنبي (صلى الله عليه وسلم) ودعوته الى الإسلام، والدلالة الثانية (وأكيد) أي أن الله تعالى وحاشاه أن يقابلهم بالكيد نفسه، والمقابلة هنا لفظية، بل يستدرجهم الى فعلتهم الشنعاء، ويبطلها حفاظاً على رسوله ورسالته، ودلالة الفعل (مهّل) بالتشديد وفيه إبطاء، وهو خطاب لرسوله أن يصبر على أذاهم، ولا يستعجل بالدعاء عليهم للانتقام منهم، بل يمهلهم إمهالاً حتى يأتيهم العذاب.

وتتكرر الألفاظ المشتقة، وتتوالى في النص مع اختلاف دلالتها المعبّرة عن إرادة الله تعالى في تثبيت ما يريده للمؤمنين وما لا يريده للكافرين. قال تعالى: ﴿ ...وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾[١]

فتكرار (يحق الحق. ويبطل الباطل) ما يشبه المعادلة بين طرفين، الأول طرف الحق، والثاني طرف الباطل، وتكرار اللفظ ومشتقه يعطي امتداداً صوتياً، وهذا الامتداد يقوي الدلالة وينوّعها. فاللفظان (يحق الحق) جذرهما (حق) واللفظان (يبطل الباطل) جذرهما (بطل)، فإحقاق الحق لا يكون الاّ بانتصار المؤمنين على الكفار، ورفع راية الإسلام، وإبطال الباطل لا يكون الاّ بخسارة الكفار في معركة بدر الحاسمة، لتضعف شوكة الكفر والشرك، وهكذا كانت إرادة الله تعالى في اللفظ (يريد).

وتتخذ الألفاظ المشتقه المكررة وسيلة للتخفيف من الإحساس بالألم، وتمس شفافية النفس لتطمينها بأن ذلك الإحساس مشترك مع العدو، ويعطي بذلك صفة التعميم لا التخصيص. كما في قوله تعالى: ﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[٢]

إنّ تكرار اللفظ المشتق (يمسسكم. مسّ) وتكرار اللفظ (قرح) يشيع نغمة إيقاعية ًبانفتاحها على فضاء النص، وتكرار السين والميم خلق جوّا من صوت صفيري مصحوب بغنّة خيشومية، يعبّر عن حالة الألم بعد معركة أحد وسقوط عدد من الشهداء، وإصابة كثير من المسلمين بالجراح، ولتخفيف هذا الإحساس بالألم كان تكرار اللفظ (مسّ) أي أصاب القوم وهم الكفار من قريش الإحساس بالألم نفسه بعد القتل والأسر والإصابة بالجروح في معركة بدر. وهكذا يبيّن الله تعالى وهو المتصرّف بالأمر إرادته في مداولة الأيام بين الفريقين.

وننتقل إلى الأحكام وما فيها من أوامر ونواهي لتعليم المسلم وتربيته، والألفاظ المشتقة المتكررة تؤدي الغرض بتأكيد الأمر وتوضيحه، كما في قوله تعالى عن التوسعة

---

(١) الانفال ٧-٨.
(٢) آل عمران ١٤٠.

في المجالس: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴾[1]

فالألفاظ المشتقة المتكررة (تفسّحوا. فافسحوا. يفسح) توزّعت على مساحة النص بجرسها الصوتي الذي يصدح فيه صوتا السين والحاء، فالسين صوت صفيري مهموس، والحاء صوت رخو مهموس مصحوب بحفيف[2] وهما يعبّران عن الحركة الخفيفة الهادئة مثل التوسعة في المجلس لرجل يبحث عن مكان ليجلس فيه ويستريح، وفي النص (انشزوا. فانشزوا) من الجذر (نشز) أي نهض وقام من مكانه، والشين صوت رخو مهموس وهو انتشاري، والزاي صوت يناظر السين الصفيري، وهما يعبّران عن الحركة الظاهرة، وهي النهوض من المكان لغرض التوسعة مع حفظ مقام المؤمنين وأهل العلم في ذلك المجلس.

ويتوجّه الخطاب لأهل الكتاب وهم اليهود والنصارى، وينهض التكرار من الألفاظ المشتقة الى تحقيق ما يتطلبه من توضيح للأدلة، وتأكيد للثابت الصحيح منها، وترك الضلال والباطل الذي يبعده عن الطريق السوي. قال تعالى: ﴿ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴾[3]

الألفاظ المتكررة (ضلّوا. وأضلّوا. وضلّوا) قد توزّعت على مساحة النص، وخلقت توازناً صوتياً ولاسيما صوت الضاد. وهو صوت شديد مجهور، يترتب عليه انطباق اللسان على الحنك الأعلى، فإذا انفصل اللسان خرج الهواء فيسمع صوت انفجاري وهو الضاد[4]فيعبر ذلك الصوت عن انفصال أهل الكتاب عن دينهم، بعد أن تجاوزوا الحد، وزادوا عليه ما ليس فيه بالباطل مدّعين غير ما أنزل الله، متبعين أهواء أو شهوات رؤسائهم السابقين الضالين الذين أضلوا كثيراً من الناس وأضاعوا دينهم، فضلوا بذلك عن الطريق السليم، وبذلك فإن دلالة الألفاظ واحدة، ولكنها اختلفت وظيفتها بحسب الجهة التي تستعملها.

ويوم القيامة يتجلى الخطاب الإلهي أمام الذين وجبت عليهم الحجة من المشركين فاستحقوا العذاب، دعوا الناس إلى الغي والضلال فاستجابوا كما استجابوا هم من قبل لمن أضلهم، فالآن يتبرّؤون من إتباعهم لهم. قال تعالى: ﴿ وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ

---

(١) المجادلة ١١.
(٢) ينظر: د. ابراهيم انيس: الاصوات اللغوية ٧٦، ٨٩.
(٣) المائدة ٧٧.
(٤) ينظر: د. ابراهيم انيس: الاصوات اللغوية ٤٨.

﴿تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾[1]

فتكرار الألفاظ المشتقة (أغوينا. أغويناهم. غوينا) يظهر لنا تناسقاً موسيقياً، وتنوّعاً في التنغيم المتقارب، مما يشي ببروز الغين والياء والنون، وهذه الألفاظ تعود الى الفعل (غوى) أي أضل، فالدلالة واحدة في تلك الألفاظ، ولكنها تتوزّع بين طرفين، الأول وهم الذين قاموا بالغواية والضلال من قبل، والثاني وهم الذين تعرّضوا للغواية من الذين سبقوهم، ولكنهم قاموا أيضاً بإغواء غيرهم بعد ذلك، وهاهم يتبرّؤون من الذين تبعوهم، وهم إذن يحملون أوزارهم وأوزار غيرهم.

٤- تكرار الصدارة:

ويدعى بـ (تشابه الأطراف) ويعتمد على تكنيك معيّن، وهو في الشعر ((أن يجعل الشاعر قافية بيته الأول أول بيته الثاني))[2]وفي القرآن الكريم وجدنا اللفظ يقع في آية ثم يتصدّر اللفظ المكرر الآية التي تليها، وقد حقق هذا اللون من التكرار نسبة لا بأس بها في الخطاب القرآني، وقد لوحظ أن هذا الأسلوب من التكرار قد ورد أغلبه في السور المكية، تلك السور التي تحتاج بعض ألفاظها أو مصطلحاتها الى التفسير والتوضيح للمتلقي الذي يسمعها أول مرّة، كان هذا التكرار توضيحاً وتفهيماً له.

ومن أمثلته ما ورد في خطاب الله تعالى للإنسان ودعوته للإيمان به، لينظر أولاً في دليل خلقه قبل الدلائل الأخرى، وهذا الدليل أقرب ما يكون اليه، فهو يراه ماثلاً أمامه في الحمل والولادة. قال تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾.[3] ورد اللفظ (خُلق) في نهاية الآية السابقة، وتكرر في بداية الآية اللاحقة كما في الشكل الآتي:

(... ـــ- ـــ-...)

فمثل هذه الهندسة الصوتية تبيّن حالة الانسجام والربط بين الآيتين، وتماثل الألفاظ غير المكررة بالعدد نفسه في الآيتين، ومثل هذا التشكيل المكاني لهاتين المفردتين يعكس قيمة النص القائمة على توضيح اللفظة الأولى أو تفصيلها، وكانت الثانية هنا جواباً لسؤال قائم في الآية الأولى عن مادة خلق الإنسان، فالجواب خلق من ماء الرجل المتدفق، والمتكوّن من عظام فقراته وأضلاعه. وكأنه يريد القول إن هذا الكائن الذي يرى نفسه فوق كلّ شيء خلق من الماء المهين.

---

(١) القصص ٦٢-٦٣.
(٢) شهاب الدين محمود الحلبي: حسن التوسل في صناعة الترسل ٣٢٠.
(٣) الطارق ٥-٧.

وننتقل الى فرعون الذي تكبّر وتعالى عن قبول الحق وادّعى الالوهية، وحين أبلغه موسى (عليه السلام) بأن الله هو الإله الواحد الذي لا شريك له سخر منه، وطلب من وزيره هامان أن يبني له صرحا عالياً ليتقرّب من السماء، وينظر الى الإله الذي ذكره موسى (عليه السلام) هل هو حقيقة أم ادّعاء، ويرجّح ظنه أنه ادّعاء. قال تعالى: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰهَـٰمَـٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَـٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَـٰبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَـٰذِبًا ﴾.[1]

تكرر اللفظ (الأسباب. أسباب) على وفق هندسة مكانية لا تختلف عن هندسة المثال السابق وهي اجتماع الصوتين في نهاية الآية السابقة وبداية الآية اللاحقة، مما يخلق تركيزاً صوتياً في وسط النص، ومن حيث دلالة اللفظ المكرر فإنه يوضح معنى الأسباب، وهي الوسائل أو السبل التي توصل الى ما يريد، وكان يظن أن هذه السبل توصله الى الله تعالى، وقد نظر الى الأمر نظرة مكانية قاصرة.

ويخاطب الله تعالى نبيه الكريم محمد (صلى الله عليه وسلم) أن يسبّحه ويمجده، وأنه سيُقرئه القرآن فلا ينساه، لامتلاكه قوة الذاكرة بإرادة الله، وأن يذكّر الناس بالجنة والنار، وسيجد الأشقى الذي يهمل التذكرة، ويجد المؤمن الذي يطهّر نفسه من الشرك بالإيمان، وإن هذه الأمور وردت في الصحف الأولى أيضاً. قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَـٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴾.[2]

إنّ تكرار لفظ (الصحف. صحف) بهذا التوزيع الصوتي يخلق تناسقاً بين صوت اللفظين والأصوات الأخرى. ونجد في هذا التكرار إلحاحاً للإصغاء الى هذه اللفظة وما تحويه من دلائل عميقة بعد سبر غورها، فاللفظة المكررة التي تقع في صدر الآية الثانية تفسّر اللفظ المجرّد وهو الصحف الموصوفة بالأولى أي القدم، ولا نعلم أي صحف هذه الاّ بعد تكرارها، وهي صحف إبراهيم وتوراة موسى (عليهما السلام) وبذلك أكسبت اللفظة المكررة دلالة مضافة.

ويأتي تكرار الصدارة لبيان قيمة دلالة اللفظ الأول، وذلك من خلال الاستفهام الذي يثير التعجب. كما في بيان قيمة ليلة القدر التي نزل فيها القرآن الكريم من اللوح المحفوظ الى السماء الدنيا، ليتنزّل به الروح الأمين جبريل (عليه السلام) على نبينا محمد (صلى الله عليه وسلم). قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾.[3]

توزّع لفظا (ليلة القدر) في نهاية آية وبداية آية تالية لها، فخلقا حلقة صوتية ارتكزت على دعامتين، ربطت بين الآيتين، وسبقتها لفظة (القدر) وحدها، فشكلت مثلثاً صوتياً رأسه

---

(١) غافر ٣٦-٣٧.
(٢) الأعلى ١٨-١٩.
(٣) القدر ٢-٣.

اللفظ المفرد وقاعدتاه (ليلة القدر) مع تكرارها الذي يبيّن تعظيمها وتقديرها المعادل لألف ليلة من الليالي، وليلة نزول القرآن لا تقدّر بعدد من الشهور، ولكن الرقم ألف نفسه يمتلك دلالة الكثرة الفائقة.

ونتبيّن من خلال تكرار الصدارة أن اللفظ المكرر يخبرنا عن حدث تاريخي، وهو تآلف قبيلة قريش بفروعها، ولاسيما بعد حادث أصحاب الفيل، وكذا تآلفهم في رحلتي الشتاء الى اليمن، والصيف الى الشام. قال تعالى: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ ﴾[1] فاللفظ المكرر صدارة (إيلاف. إيلافهم) قد وقع الأول في بداية الآية، والثاني وقع في بداية الثانية، وبذلك تحقق التناسق الصوتي بين الآيتين، والتكرار يعني هنا ترديد اللفظ لغرض التركيز على وحدة القبيلة واجتماعها في المواقف التي تهمها، وعبادة ربّ البيت الذي يرزقهم ويحميهم أولى بهذا الجمع من كلّ مهمة.

ويأتي تكرار الصدارة أيضاً للوصف وتقرير حال الموصوف كما هو في وصف ناصية أو مقدمة رأس أبي جهل الذي وقف بوجه الدعوة الى الإسلام، وكذّب الرسالة، وأبعد الناس عن الاستماع الى النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) ونزل التهديد إن لم يتوقف عن ذلك، يقبض شعر رأسه ويجرّ إذلالاً بين قومه. قال تعالى: ﴿ كَلَّا لَئِن لَّمۡ يَنتَهِ لَنَسۡفَعَۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ۝١٥ نَاصِيَةٖ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٖ ﴾.[2]

فتكرار الصدارة للفظ (الناصية. ناصية) حقق تركيزاً صوتياً بين الآيتين، وكان اللفظ المكرر وصفاً لناصية أبي جهل، إذ كيف يتحقق سفعها، أي الإمساك بشعرها وجرّه إذلالاً وتحقيراً له، لا يتحقق ذلك ما لم تكن هذه الناصية التي تختزن الأكاذيب ضد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ورسالته، وتبتدع الأضاليل والأباطيل لإبعاد الناس عن الاستماع لكلام الله تعالى، إنها ناصية خاطئة وصاحبها كاذب.

وها هو الخبر المنتظر الذي يمثله اللفظ المكرر صدارة ليكون جواباً بعد توجيه الله تعالى الاستفهام للمؤمنين عن رغبتهم في معرفة على من تتنزّل الشياطين. قال تعالى: ﴿ هَلۡ أُنَبِّئُكُمۡ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ۝٢٢١ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ ﴾[3]

فاللفظ المكرر (تتنزّل) وفيه الحرفان التاء والزاي قد تكررا أربع مرّات، فخلقا بذلك توزيعاً صوتياً، فالتاء صوت شديد مهموس، والزاي صوت رخو مهموس[4]واجتماعهما يشكل حركة صوتية متموّجة بين الرخاوة والشدّة، تعبّران عن حركة نزول الشياطين

---

(١) قريش ١-٢.

(٢) العلق ١٥-١٦.

(٣) الشعراء ٢٢١-٢٢٢.

(٤) د. ابراهيم انيس: الاصوات اللغوية ٦٢، ٧٧.

وصعودها ،وكان اللفظ المكرر يعطي الجواب على من تتنزّل الشياطين، تتنزّل على كل كاذب بالدعوة الى الإيمان بالله واحداً لا شريك له.

٥- تكرار الفاصلة:

الفاصلة لفظة تقع في نهاية كل آية، فبعض هذه الفواصل متماثلة في حروف الروي، وبعضها متقاربة الحروف، وتكرار الفاصلة يختلف عن ذلك، فهو تكرار الحروف جميعاً تكراراً صوتياً ودلالياً. والتكرار هنا يقع بين الفاصلة والفواصل التي تليها مباشرة في الآيات اللاحقة. وقد يقع التكرار بين الفواصل المتباعدة في السورة الواحدة، ولكن دلالة هذا التكرار قد تكون بعيدة لاختلاف توظيفها.

وتكرار الفاصلة في الخطاب القرآني يرتبط بمنظومة الآية لا من الناحية الصوتية وحسب، بل من الناحية الدلالية، وسنبيّن ذلك التكرار في التأكيد على لفظ (الإسلام) لرب العالمين عند الأنبياء، فالنبي إبراهيم (عليه السلام) وصّى بها بنيه، وكذا يعقوب (عليه السلام) وصّى بها بنيه في حياته وعند موته. قال تعالى: ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ إِذۡ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِي قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾[١]

فتكرار الفاصلة (مسلمون) يحقق تماثلاً صوتياً يثير الانتباه من خلال السمع الى ترديد الصوت موسيقياً لنتبيّن دلالة اللفظ المرتبط بقرينته. ودلالة التكرار هنا لتأكيد اللفظ وتثبيته في العقل والوجدان، لأن التكرار عملية أساسية في آلية عمل المخ والذاكرة ((فنحن إذ نتذكر ما حدث من قبل نستطيع أن نتعرّف على التكرار في مجالات متعددة للعمل، ولو لم نفعل ذلك لبدا كل شيء جديداً تماماً بلا رابطة تجمع بين أجزائه، وعندئذ يكون انتباهنا حائراً مشتتاً))[٢]ولم يكتف يعقوب (عليه السلام) بوصيته في حياته لأبنائه بالتمسّك بالإسلام، بل راح يسألهم عند موته عن الدين الذي يبقى في عقولهم وقلوبهم وأنفسهم، فكان جوابهم إنهم لا يعبدون الاّ إله واحداً وهو الله تعالى، ولا يموتون الاّ وهم له مسلمون.

وتكرار اللفظ يساعد على الإمساك بالفكرة المسيطرة على الوجدان، ويكشف عن الحالة الشعورية الطاغية على مضمون النص، وينبه الى أبرز الخصائص اللغوية التي يتميّز بها مثل هذا الأسلوب، ويتضح ذلك في إثارة الفكر لدى قوم النبي صالح (عليه السلام) وهم ثمود، كيف يتبعون بشراً منهم يأكل ويشرب ويمشي بينهم، فاستنتجوا أنهم على

---

(١) البقرة ١٣٢-١٣٣.

(٢) جيروز ستولنتيز: النقد الفني – دراسة جمالية فلسفية – ١٠٠.

ضلال، وأقنعوا أنفسهم بأنه كذاب وشديد البطر والتكبر عليهم (وحاشاه) قال تعالى: ﴿ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٗا مِّنَّا وَٰحِدٗا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلۡقِيَ ٱلذِّكۡرُ عَلَيۡهِ مِنۢ بَيۡنِنَا بَلۡ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٞ ﴾.[1]

فتكرار اللفظة الفاصلة (أشر. الأشر) يؤشر الى ما يمتاز به ذلك التكرار من نظام إيقاعي شكلي ودلالي يساهم في حركة السياق القائم على التساؤل الذي لا يصل الى يقين، بل الى الظن فتتوافق تلك الحركة مع غاية العمل المرتبط أصلاً بالنفس الإنسانية وانفعالاتها. ولذا كان جوابهم الظني إن رسولهم بشر مثلهم، ولذا فإنه كذاب بطر، فكان التكرار ردّاً على ظنهم، وهو إنهم سيعلمون في الآخرة من الكذاب الأشر، وهو يقصدهم بهذه الصفة.

وقد يؤدي التكرار الى تراكم الصيغ المتكررة مما قد يولّد إيقاعاً رتيباً يضيق أفق الحركة، ويحد من امتدادها، لذا فإن فاعليته في فهم أبعاد اللفظ المكرر صوتياً ودلالياً يعمل على جذب الأسماع اليه، كجزء فعّال في حركة النص، ولا يمكن التغاضي عنه لأنه يخلق نوعاً من التوقّع ينتظره المتلقي، وهذا ما وجدناه في أعمال الكافرين الذين نتوقعها ضالة لضلالة أصحابها. قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ وَأَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴿٨﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴾[2]

فتكرار اللفظ (أعمالهم) صوتياً مجرّداً قد يتصوّره المرء رتيباً، ولكن ارتباطه بالنص المتصل به يشير الى فاعليته، فدلالة ارتباطه بالفعل (أضل) نتيجة طبيعية، فالعمل السيء الذي أساسه الكفر بالله يجعل من الفاعل هالكاً مبعداً عن رحمة الله، واللفظ المكرر الثاني المرتبط بالفعل (أحبط) هو تعليل لما سبقه، فكل عمل يقوم به الكافر باطل سواء كان منه النافع وغير النافع.

وبعد إطالة النص، وخشية تناسي ما فيه من دلالات متعددة يُعمد الى تكرار اللفظ وترديده ليكون حاضراً أمام الذهن، وختاماً لتلك الدلالات في مساحة النص الواسعة، وهذا ما وجدناه في وصف حال الكافرين الذين انغمسوا في أضاليل الباطل لهواً ولعباً، وتكلموا على غير هدى في الدعوة الى الإيمان حتى يروا ما وعدوا بالقيامة والحساب. قال تعالى: ﴿ فَذَرۡهُمۡ يَخُوضُواْ وَيَلۡعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوۡمَ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ سِرَاعٗا كَأَنَّهُمۡ إِلَىٰ نُصُبٖ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۚ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴾[3]

تكرر اللفظ (يوعدون) وذلك لارتباطه دلالياً بالنص، ولكنه حقق تنغيماً متناوباً يجذب الانتباه الي دلالته العميقة، ولم يأت التكرار متتالياً لانقطاعه بلفظ مختلف، ولكن صلة الربط بين المتكررين كانت قوية، ولم يؤثر هذا التتابع المنقطع لأن دلالة اللفظين العامة واحدة،

---

(١) القمر ٢٤-٢٦.
(٢) محمد ٨-٩.
(٣) المعارج ٤٢-٤٤.

ففي اللفظ الأول كانت وعيداً وتنبيهاً للكافرين، وفي اللفظ المكرر كانت حقيقة يرونها بأعينهم.

ويتم سياق الحس الإيقاعي للنص الذي يسعى الى خلق عالم جديد من خلال فعالية الأشكال الإيقاعية، وتتناسب المسموعات والمفهومات تناسباً محكماً، فإذا انعدم الإيقاع نتيجة لتشتت العلاقات تولّد النشاز، وانعدم التلاؤم بين اللفظ وتكراره. ولذا نجد في لوم الكفار لأنفسهم يوم القيامة انقلاباً ذهنياً، كيف أنهم لم يسمعوا الدعوة، وكيف أنهم لم يعقلوها، والنتيجة أنهم من أصحاب النار. قال تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ١٠ فَٱعۡتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمۡ فَسُحۡقٗا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾[1]

فتكرار (أصحاب السعير) خلق تردداً نغمياً يثير التهويل، وهذا المد في حرف الياء فكأنه يعبّر عن امتداد حركي يتوجه نحو النار، وهم لا يستطيعون التخلص منه أو الانحراف عنه، ويعبّر اللفظ الأول عن الندم ولوم النفس، فبدؤوا بالسمع وكيف أنهم أغلقوه عن سماع آيات القرآن الكريم، ثم انتقلوا الى العقل الذي لم يردعهم عن ذلك، ويوجههم الى السمع ولو مرّة واحدة، وينتهي الفكر بهم الى أن يكونوا من أصحاب النار، وكان اللفظ المكرر تقرير من الله تعالى بعد ذلك الاعتراف أن يكونوا مبعدين عن رحمته لأنهم صاروا من أصحاب النار.

وهناك تكرار فواصل متفرقة لا تقع بين آية وأخرى تليها، ومن ذلك ما ورد في سورة البقرة مثل (يعملون. يعلمون. تتقون. مسلمون. قدير. عليم. رحيم) وغيرها من الألفاظ المتكررة المتفرقة في سور أخرى.

٦- التجنيس:

ويدعى أيضاً الجناس والمجانسة، ويقوم على التكرار أو المماثلة والمشابهة، وهو عبارة عن ((اتفاق اللفظين في وجه من الوجوه مع اختلاف معانيهما))[2] أي تتشابه اللفظتان في النطق وتختلفان في المعنى. وهو ((ضرب من ضروب التكرار المؤكد للنغم من خلال التشابه الكلي أو الجزئي في تركيب الألفاظ، فهذا التشابه في الجرس يدفع الذهن الى التماس معنى تنصرف اليه اللفظتان بما يثيره من انسجام بين نغم التشابه اللفظي ومدلوله على المعنى في سياق البيت))[3] لذا فإن الجناس يحقق غايتين ((الأولى: صوتية، وهو توفير نوع خاص من الانسجام في النغم والتقارب في الأصوات، والثانية: معنوية، وهي سرعة الاستدعاء اللفظي للمعنى المراد التعبير عنه))[4]

---

(١) الملك ١٠-١١.
(٢) العلوي: الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق التنزيل ٣٠١/٣.
(٣) د. ماهر مهدي هلال: جرس الالفاظ ودلالتها في البحث البلاغي والنقدي عند العرب ٢٨٤.
(٤) د. محمد زغلول سلام: أثر القران في تطور النقد الادبي ٧٤٤.

والجناس من أكثر المظاهر البديعية موسيقية ((وذلك لما يمتاز به من خاصية التكرار والترجيع يسمحان بتكثيف جرس الأصوات وإبرازها، مما يغذي الترجيع الإيقاعي الذي تتحدد ملامحه وفقاً لما يمتاز به السياق الحالي والمقالي من حركة ونشاط، ووفقاً لموقعه من هذا السياق، ولمدى تماثل الأطراف ومواصفاتها الإيقاعية الخاصة))[1]

والجناس قسمان، الأول: الجناس التام: وهو أن تأتي اللفظتان متفقتين أو متماثلتين في الحروف وعددها وحركاتها وترتيبها، وكأنهما مكررتان، ولكنهما يختلفان من جهة المعنى، وقد ورد الجناس التام في الخطاب القرآني لتحقيق أكبر قدر من التشابه الصوتي الذي يحمل مدلولات مختلفة، وقيمة فنية عالية، مما يجعلنا أن نشير الى أن التجنيس لا يكون مقبولاً الاّ إذا كان غير متكلف، وجيء به لدور جمالي. كما يتضح ذلك قوله تعالى في إخبارنا عن يوم القيامة وموقف المجرمين منها: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾[2]

فالتجانس حصل بين اللفظتين (الساعة. ساعة) في تكرار حروفهما وترتيبها، وتحقيق توازن صوتي من حيث اللفظ، وكذلك جيء بهما للفرق الدلالي، فاللفظ الأول يريد به يوم القيامة، واللفظ الثاني يريد به الزمن أو الوقت المحدد بمقدار ساعة، ولذا نجد أن خاصية الترجيع الصوتي لا يمكن أن تتم بمعزل عن المعنى. ولهذا أكده عبد القاهر الجرجاني بقوله: ((إنّ ما يعطي التجنيس من الفضيلة أمر لم يتم الاّ بنصرة المعنى، إذ لو كان باللفظ وحده لما كان فيه الاّ مستحسن، ولما وجد فيه معيب مستهجن، ولذلك ذم الإكثار منه، والولوع به))[3]

ونتبين حسن التجنيس في عرض الله تعالى الآيات ليتدبّر بها الخلق، كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾.[4]

لقد حقق التجانس التام بين لفظتي الأبصار في النص توزيعاً صوتياً، وكأن اللفظ الثاني ترجيعا صوتياً لها، فضلاً عن تكرار (ثم) في أول النص، مما خلق انسجاماً بين التكرار والجناس، ولم يهمل ذلك الانسجام دور المدلول الذي يفرّق بين اللفظين، فالأبصار الأولى جمع بصر وهو النظر، والأبصار الثانية جمع بصيرة وهي العقل، ولا يخفى ما بين اللفظين من صلة، فالبصر أحد الأبواب المؤدية الى الإدراك العقلي، أو أحد الحواس التي تؤكد الحقيقة المعنوية.

---

(١) د. ابتسام احمد حمدان: الاسس الجمالية للايقاع البلاغي في العصر العباسي ٣٠٢.
(٢) الروم ٥٥.
(٣) الجرجاني: اسرار البلاغة ٨.
(٤) النور ٤٣-٤٤.

والقسم الثاني: الجناس غير التام: وهو أن يختلف اللفظان في نوع الحروف وعددها وترتيبها وضبطها، والنقص قد يقع في أول اللفظ أو وسطه أو آخره[1]

ولم يقتصر الترجيع الموسيقي في الخطاب القرآني على الصادر عن الجناس التام الذي يقوم على تشابه الألفاظ أو تماثلها تماثلاً تاماً وهو قليل، بل تعدّاه الى الترجيع الصادر عن الجناس الناقص الذي يقوم على تقارب الألفاظ، فتسمعه الأذن، وتهتز له أوتار القلوب، وتطرب له النفس، والتوزيع الموسيقي بين الألفاظ المتجانسة التامة والناقصة بمثابة ضربات إيقاعية تعمل على إيهام السامع بتكرارها وترددها، وبتضافرها مع الفواصل تعمل على إبعاد تطويل الوحدات الباعث على السأمة والملل، وتقصير المدة الزمنية بين فقرة وأخرى.

ويأخذ الجناس المصحّف- الذي يتماثل فيه اللفظان في الحروف ويختلفان في النقط- مداه في التعبير القرآني الذي ينقل حكاية عن إبراهيم (عليه السلام) في تفنيده عبادة قومه الأصنام، وإيراده صفات الله تعالى إزاء ما يعبدون. قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾.[2]

تحقق الجناس بين اللفظين (يسقين. يشفين) وهو جناس مصحّف، إذ تماثل اللفظان في الحروف وتخالفا في النقط، واختلفا في المعنى، وهذا التماثل اللفظي حقق تردداً صوتياً ارتكز في الفواصل لقصر طول الفقرات، فجذب اليه الأسماع، ويمكننا أن نتبيّن ذلك من الشكل:

(... ——- ... ——-)

فنرى أن المساحة المتاحة لكل لفظة متساوية، مما يعني أن التوزيع الموسيقي منتظم بينهما.

ويقودنا الجناس المصحّف الى خطاب آخر ينقل الينا أحوال الكافرين الذين خسروا أعمالهم في الحياة الدنيا، وكانوا يظنون أنها من محاسن الأعمال. قال تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴾.[3]

فالجناس الحاصل بين اللفظين (يحسبون. يحسنون) جناس مصحّف، فقد تماثل اللفظان في الحروف وتخالفا في النقط، واختلفا في المعنى أيضاً، وقد حقق التماثل اللفظي توزيعاً موسيقياً متقارباً عجّل في زيادة نوبة الاستراحة على اللفظين، وكأن ذلك التريث هو تنبيه لهؤلاء السادرين في الظن بحسن أعمالهم الدنيوية التي سرعان ما تحبط وتزول.

---

(١) ينظر: القزويني: الايضاح في علوم البلاغة ٣٨٥/٢.
(٢) الشعراء ٧٨-٨٠.
(٣) الكهف ١٠٣-١٠٥.

إنّ خاصية الجناس التي تقوم على التكرار والترجيع تسمح باستعمال جميع المقاربات بين الألفاظ لتحقيق تلك الخاصية، ولا يمكن أن يتم ذلك بمعزل عن المعنى، وتقودنا تلك الخاصية الى الجناس المحرّف الذي نراه ونسمعه في الخطاب القرآني، فيخبرنا عن مواقف الكافرين إزاء الرسل الذين ينذرونهم سوء العاقبة. قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾.[1]

فالتجانس بين اللفظين (مُنذرين. المنذَرين) يتحقق باتفاقهما في الحروف، ولكنه يختلف في الحركات التي تؤدي الى اختلاف المعنى، فاللفظ الأول رباعي بكسر الذال على زنة مفعِل أي فاعل، والثاني رباعي بفتح الذال على زنة مفعَل أي مفعول. وقد أدى ذلك التماثل في حروفهما الى التقارب الصوتي لتحقيق تردد إيقاعي بين الفقرتين، يثير الانتباه الى الفعل ورد الفعل الذي يتضمنه معنى الفقرتين.

وقد يحقق الجناس الناقص- الذي يختلف في عدد حروفه- تردداً نغمياً كالذي يحققه التام، إذ أن النقص قد يضيع في أثناء تكرار اللفظ، ويتضح ذلك في الخطاب الذي يخبرنا عن أحوال أصحاب النار يوم القيامة. قال تعالى: ﴿ وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ ﴾.[2] فالجناس بين اللفظين (الساق. المساق) مختلف في عدد الحروف والمعنى، إذ أن لكل منهما دلالته الخاصة، فالأول يعني الأرجل، والثاني يعني السوق أي التوجه الى الله تعالى، ولكن اللفظين اتفقا في التقارب الصوتي، فازدادت الضربات الإيقاعية لتتزامن مع الحدث المهول يوم القيامة، ولننظر في الشكل لمعرفة ذلك الاتفاق الصوتي:

(.. ـــــ- ... ـــــ-)

فيبين الشكل أن المساحة المتاحة للف الساق هي أقصر من المساحة المتاحة للسوق نحو الحساب، وكما يعبر عنه هذا التردد الصوتي.

والجناس المضارع الذي يجمع بين اللفظين تماثل حروفهما مع اختلاف نوع حرف واحد منهما، يحقق ذلك التماثل تناسقا صوتياً يتوزّع على طرفي الفقرتين، ولن يؤثر ذلك الاختلاف في طبيعة التردد أو الترجيع الصوتي كما يتضح ذلك في الخطاب الإلهي الموجّه الى الأرض والسماء إعلاناً بانتهاء طوفان نوح (عليه السلام) الذي حقق الهدف بإغراق الكافرين. قال تعالى: ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾[3]

فالتجنيس حدث بين اللفظين (ابلعي. أقلعي) لتماثل الحروف عدا حرف الباء ويقابله حرف القاف، وهما غير متقاربين لاختلاف مخرجيهما، فاختلفا في المعنى، فالأول خطاب

---

(١) الصافات ٧٢-٧٤.

(٢) القيامة ٢٩-٣٠.

(٣) هود ٤٤.

من الله تعالى للأرض أن تبلع الماء فتسمح له أن يتسرّب الى جوفها، والثاني خطاب للسماء أن تفرّق السحب، وتمسك عن إنزال المطر، وبذلك ينتهي الطوفان بعد حقق ما أراد الله تعالى وهو إهلاك الكافرين.

ويتحقق الجناس المضارع بين اللفظين مع اختلاف حرفين متقاربين فيهما، وذلك بقصد إحداث إيقاع صوتي يتناسق والخطاب الإلهي الموجّه للنبي إبراهيم وإسماعيل (عليهما السلام) لتطهير البيت الحرام من الأصنام والأوثان، ليكون مثابة لمن يقصده للحج والطواف حول الكعبة الشريفة، وللمقيمين فيه على الصلاة والذكر لله تعالى. قال تعالى: ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴾[1]

فالتجانس قد تحقق بين اللفظين (للطائفين. والعاكفين) لتماثل حروفهما، باستثناء (الطاء والهمزة) ويقابلهما (العين والكاف) فاختلفا في المعنى، فهناك فرق بين الطواف والإقامة، وحقق تماثلهما تردداً صوتياً يثير الانتباه الى ذلك التباين في المعنى.

ويرفع التجانس المضارع القيمة النغمية في الخطاب الذي يخبرنا عن موقف الكافرين من القرآن الكريم الذي يعدونه من أساطير الأولين، وهم دائبون في النهي عن سماعه، وتحاشي من يتلوه. قال تعالى: ﴿ ...حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَـٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ ۖ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾[2]

فالتجانس يحصل بين اللفظين (ينهون. وينأون) وقد تماثلت الحروف عدا حرف الهاء وتقابله الهمزة، وهما من الأصوات الحلقية، يتقاربان في التنسيق الإيقاعي، ولكنهما يختلفان في المعنى، فالأول يعني المنع عن سماع القرآن الكريم، والثاني يعني الابتعاد عمن يتلوه، وبذلك تتحقق إرادتهم، ولكنها تضرّهم من حيث لا يشعرون.

ويأتي الجناس المضارع بفواصل زمنية وأبعاد متقاربة ليحقق إيقاعاً صوتياً متناسقاً في الخطاب الموجّه للكافرين يوم القيامة بعد أن كانوا يفرحون بمتاع الحياة الدنيا الزائل، والبطر والاختيال بها. قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾.[3]

فالتجانس حاصل بين اللفظين (تفرحون. تمرحون) وهما متماثلان في جميع الحروف عدا حرف الفاء ويقابله الميم، وهما مختلفان في المخرج، ولكن ترددهما الصوتي يكاد يكون منتظماً على مساحة النص. وكذلك مختلفان في الدلالة، فالأول فرح دنيوي يؤدي

---

(١) البقرة ١٢٥.
(٢) الانعام ٢٥-٢٦.
(٣) غافر ٧٥-٧٦.

الى المعصية، والثاني توسّع في الفرح وتفاخر يؤدي الى بطر. ودلالة اللفظين هو التوسّع بالمعصية، وتتعلق بالعقوبة وهي اتخاذ جهنم مأوى بحيث يقابل ذلك البطر والاختيال.

ونجد في الجناس المضارع الذي يعمل على تنسيق الخطاب الموجّه للمنافقين يوم القيامة تنسيقاً إيقاعياً، مع دلالة توحي بالسخرية منهم. قال تعالى: ﴿ فَٱلۡيَوۡمَ لَا يُؤۡخَذُ مِنكُمۡ فِدۡيَةٞ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ مَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُۖ هِيَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾.[1]

حدث تجانس بين اللفظين (مأواكم. مولاكم) وذلك لتماثل الحروف عدا الهمزة والواو ويقابلهما الواو واللام، وتقارب الصوتين على مساحة النص له دلالة الإسراع باستقبال المنافقين والتعجّل بالحساب، فاللفظ الأول المأوى أي المكان الذي يأوي اليه المنافقون والكفار وهو النار، والثاني: المولى أي الذي يتولاهم بالرعاية والمناصرة، وفيه سخرية لأن النار هي مولاهم، وهي تعرف كيف تتولاهم بطريقتها الخاصة.

والأصل في الجناس المشتق أن يرجع اللفظان الى أصل واحد في الاشتقاق مع اختلاف في المعنى، وكأن تلك الاشتقاقات تولّد تنغيماً يزيد من موسيقية النص، ويجذب السمع والسامع اليها ومن ذلك الخطاب الموجّه للنبي محمد (صلى الله عليه وسلم) في كيفية أداء الصلاة والعدو قريب منهم. قال تعالى: ﴿ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمۡ فَأَقَمۡتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلۡتَقُمۡ طَآئِفَةٞ مِّنۡهُم مَّعَكَ وَلۡيَأۡخُذُوٓاْ أَسۡلِحَتَهُمۡۖ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلۡيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمۡ .. ﴾.[2]

والجناس المشتق حاصل بين اللفظين (فأقمت. فلتقم) وهما يعودان الى أصل واحد (قَوَم) وتقارب الصوتين على مساحة النص يدل على تركيز صوتي كما في الشكل:

(... ـــ-.. ـــ-..........)

ونستدل من تقارب اللفظين على أن التردد الصوتي بينهما قصير، إذ يعبر عن المدة الزمنية بين توجيه الأمر وتنفيذه، نظراً لخطورة الموقف، وهو مباغتة العدو للمصلين. وتختلف دلالة اللفظين، فالأولى تعني إقامة الصلاة، والثانية تعني القيام أو الوقوف خلف المصلين لحمايتهم.

ونجد مثل هذا الدور للجناس المشتق في الخطاب الذي يخبرنا الله تعالى به عن موقف المنافقين حين تنزل سورة على النبي (صلى الله عليه وسلم) تراهم في وجل وخوف بحيث يخشون أن يراهم أحد على هذه الحال، وخوفهم ناشئ من أن تنزل آية تكشف عن نفاقهم. قال تعالى: ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ نَّظَرَ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ هَلۡ يَرَىٰكُم مِّنۡ أَحَدٖ ثُمَّ ٱنصَرَفُواْۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ ﴾[3]

(١) الحديد ١٥.
(٢) النساء ١٠٢.
(٣) التوبة ١٢٧.

والتجانس المشتق هنا بين اللفظين (انصرفوا. صرف) يعود الى أصل واحد (صرف) وهما متجاوران في النص، ومثل هذا التردد الصوتي المتتابع لا يعطي فسحة للتراخي، ففي حال انصرافهم تغيّرت قلوبهم. ويختلف اللفظان في الدلالة، فالأول يدل على الابتعاد عن الجماعة خفية، والثاني يعني تغيّر القلب بإرادة الله من حال الى حال، لئلا تتأثر بالذكر عقاباً لانصرافهم عن الجماعة.

إنّ الترجيع الصوتي الذي يحدثه الجناس المشتق وإن كان ضعيفاً فإن له دور في تقطيع العبارة صوتياً، ليتملاّها السمع، ويطلبها الذوق، وقد وجدنا ما يعبّر عن ذلك في الخطاب الذي يخبرنا عن ظن الكافرين أن الله تعالى لا يراهم حين يفعلون المنكرات، فأوقعهم ذلك الظن في الهلاك. قال تعالى: ﴿ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴾[1]

الجناس المشتق بين اللفظين (يستعتبوا. المعتبين) يرجعان الى أصل واحد (عتب) وقد حققا تردداً صوتياً يدل رد الطلب وعدم قبوله، ويختلف اللفظان في الدلالة، فالأول طلب الكفار إلغاء سبب العتب يوم القيامة بما يرضي الله، والثاني نفي الإجابة الى طلبهم لأن التكليف انتهى.

ويعمل الجناس المشتق على التنسيق الصوتي حتى في آيات الأحكام التي يفترض خلوّها من الإيقاع، ومن ذلك ما ورد في الخطاب الإلهي حول الربا الذي يُذهب المال الداخل، فتزول بركته، ويُنمّي المال الذي أخرج منه الى الصدقات. قال تعالى: ﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴾[2]

فالتجنيس الحاصل بين اللفظين (الربا. يُربي) يعودان الى أصل واحد (ربو) أي زاد، وتقارب الصوتين يدل على أن الحلال والحرام لا يفصل بينهما سوى خط ضعيف، وذلك لأن الربا زيادة تؤخذ من بيع المال وليس البضاعة، واللفظ يربي أي يزيد المال الذي يؤخذ منه للفقراء، والدلالة الجامعة لهما الزيادة، ولكن في الأولى حرام وفي الثانية حلال.

وبهذا يمكننا القول إن التجنيس بنوعيه التام وغير التام قد حقق تردداً صوتياً ينسجم ودلالة الألفاظ، ويحقق في الوقت نفسه جذباً للسامع ليتأمل الخطاب القرآني، ويتدبّر معانيه، ويزداد وضوحاً وفهما.

٧- التصدير:

ويسمى أيضاً (رد العجز على الصدر) وهو ((أن يردّ أعجاز الكلام على صدره، فيدل بعضه على بعض، ويسهل استخراج قوافي الشعر إذا كان كذلك وتقتضيها

---

(١) فصلت ٢٣-٢٤.
(٢) البقرة ٢٧٦.

الصنعة))[١]أو هو شكل من أشكال التكرار اللفظي إذ ((يرد اللفظ في الكلام ثم ينمو بعده المعنى وصولاً الى خاتمة يتكرر فيها هذا اللفظ سواء اتحد اللفظان في المعنى أو اختلفا فيه))[٢]

ولا يقتصر التصدير على الشعر بل يرد في النثر أيضاً، وهو ((جعل أحد اللفظين المكررين أو المتجانسين أو الملحقين بهما في أول الفقرة والآخر في آخرها))[٣]وتبرز أهمية التصدير في تماسك الفقرة، وتوحيد نغمته من خلال تكرارة لألفاظ معينة مشتركة تقوم على نوع من التناظر أو المحاذاة، فاللفظة المكررة إذن ضمن هذا الفن تكتسب إيقاعها الموسيقي ودلالتها المعنوية من بعدها المكاني بين الدالين المكررين.

وقد وجدنا التصدير في الخطاب القرآني يقع في ثلاثة مواضع أو أضرب:

الأول: اللفظ الأول في بداية الفقرة أو الآية بحيث يوافق اللفظ في آخرها وهو الفاصلة، وهو على الشكل الآتي:

×————————————————×

ويمكن أن نسمي هذا النوع بـ (تصدير الطرفين) وقد ورد فيه قوله تعالى حكاية عن لوط (عليه السلام) مع قومه: ﴿ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴾[٤] فتكرار اللفظين وإن لم يكونا من أصل اشتقاقي واحد فقد حققا ترددا موسيقياً وهو المطلوب في التصدير أكثر من الدلالة. واللفظ (قال) مشتق من (قوَل) أي القول، والثاني (قالين) مشتق من (قلا) أي أبغض، والمعنى أن لوط (عليه السلام) كان كارها مبغضاً لعملهم الشاذ، وهو إتيان الذكور دون الإناث.

وها هو التصدير يعبّر عن الإرادة الإلهية، وتأكيدها بتكرار اللفظ في إقرار العذاب على أصحاب القرية الذين كذّبوا الرسل، ورجموا الرجل المؤمن الذي نصحهم بإتباع الرسل، والإيمان بما أنزل عليهم. قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴾[٥]

وتكرار اللفظ المشتق قد أحكم مساحة النص، وولّد ترديداً صوتياً ينسجم وتلك الإرادة الإلهية الثابتة في حكمها، واللفظان (أنزلنا. منزلين) يعودان الى أصل لغوي واحد (نزل) وإنزال الملائكة من السماء يتم بأمر الله تعالى.

ويعبّر الخطاب الإلهي للنبي محمد (صلى الله عليه وسلم) عن إخبار عما جرى للرسل من قبله، وهو في الوقت نفسه تخفيف نفسي، لأن هذا الأذى وهذه السخرية جرت في

---

(١) ابن رشيق القيرواني: العمدة ٣/٢.
(٢) محمد عبد المطلب: البلاغة والاسلوبية ٢٢٣.
(٣) عبد الفتاح لاشين: البديع في ضوء اساليب القران ١٦٩.
(٤) الشعراء ١٦٨.
(٥) يس ٢٨.

طبع الكافرين والمكذبين منذ القدم. قال تعالى: ﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾[1]

ويمثل اللفظان (استهزئ. يستهزئون) اطارين صوتيين يحكمان إغلاق النص، ويولّدان تردداً صوتياً يتناسب والمعنى الذي يعبّران عنه، ويعودان الى أصل لفظي واحد (هزئ) أي سخر، وهؤلاء الأقوام الذين سخروا من رسلهم أحاط بهم العذاب جزاء سخريتهم وتكذيبهم.

ونجد في التصدير ما يعبّر عن التأكيد في التكذيب والعناد، مثل ما وجدناه لدى الطغاة من الكافرين الذين صارت جهنم مأوى لهم يلبثون فيها دهوراً متتابعة لتكذيبهم آيات الله. قال تعالى: ﴿ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا ﴾[2]واللفظان (وكذبوا. كذابا) قد أحكما الطوق على النص، وقد عبّر عن ذلك بتشديد الذال الذي يعبّر عن تردد صوتي شديد، ويرجع اللفظان الى أصل لغوي واحد (كذب) أي أنكروا آيات الله البيّنات، ولم يؤمنوا بمن وضعها، وكذبوا رسله ورسالاته.

الثاني: اللفظ الأول في وسط الآية أو حشوها، واللفظ الثاني هو الفاصلة، وورد هذا النوع كثيراً في القرآن الكريم، وهو على الشكل الآتي:

×——————×——————

ويمكن أن نسمّي هذا النوع من التصدير بـ (تصدير الحشو) وتمثل فيه الآية وحدة منفتحة في بدايتها، ومنغلقة في موطنين الوسط والنهاية.

ومن تصدير الحشو ما ورد فيه اللفظان متقاربان، ولكنهما مختلفان في دلالتهما كما في قوله تعالى حكاية عن يونس (عليه السلام): ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[3]

فاللفظان (الظلمات. الظالمين) قد حققا تنغيماً إيقاعياً متنوّعاً يتمثل في انفتاح بداية الفقرة، وحرية حركة النبي في دعوته، ثم انغلاق النص بهاتين اللفظتين اللتين تمثلان حبسه في بطن الحوت، ويعود اللفظان الى الأصل (ظلم) مع اختلاف الدلالتين، فالأول (ظلمات) جمع ظلمة، والثاني (ظالمين) جمع ظالم، أي أن النبي يونس (عليه السلام) حين غضب على قومه لكفرهم تركهم وظن أن ذلك مباح له، فابتلعه الحوت فأحس بوحدته في ظلمات مثل ظلمة الليل وظلمة البحر وظلمة بطن الحوت، وندم على ظلمه لنفسه.

ويطّرد هذا النوع من التصدير، ويتكرر الدال والمدلول في اللفظ، كما في تبيان حقيقة الآلهة الأصنام التي يعبدها المشركون، لا تستطيع أن تحميهم أو تحمي نفسها من

---

(١) الانعام ١٠.
(٢) النبأ ٢٨.
(٣) الانبياء ٨٧.

الضـــــرر. قـــــال تعـــــالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَكُمۡ وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ ﴾[1]وقد حقق اللفظان (نصركم. ينصرون) ترديداً صوتياً في وسط النص ونهايته، ويعودان في اللغة الى أصل واحد (نصر) أي دافع عنه وحماه، واختلاف التصريف لا يغيّر من دلالتهما، فالأول (نصر) مصدر مضاف للجماعة، وهو منفي لتعطيل قدرته على النصر، والثاني (ينصرون) من الأفعال الخمسة، وفيه حيوية وديمومة للدفاع عن نفسه، ولكنه منفي أيضاً مما عطّل تلك الخاصية فيه.

ويتطرّق الخالق الى طبيعة الإنسان الذي خلقه، فإذا أنعم عليه بطر وانصرف عن شكر المنعم والنعمة، وإذا أصابه الحيف والنقص رفع يديه الى الله بدعاء كثير ومستمر. قال تعالى: ﴿ وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٖ ﴾[2]يتناوب اللفظان (أعرض. عريض) في زيادة مساحة التنغيم الذي ينسجم وحالة الدعاء تعطّف وخشية، واللفظان يعودان الى أصل واحد (عرض) ولكنهما يختلفان في الدلالة، فالأول (أعرض) أي انصرف عن المعطي أو المنعم دون أن يشكره، والثاني (عريض) أي واسع وكثير، ومثل هذا الدعاء الذي يلح فيه على المنعم كان نتيجة للإحساس بالنقص والأذى.

وهاهم الكفار يضعون أوصافاً وشروطاً للنبوة بحسب تصوّرهم لا بحسب إرادة الله واختياره، وهي أوصاف دنيوية مثل أن تكون له جنة أو مزرعة كبيرة من النخيل والأعناب، وأن يؤشر بيده فتتفجّر في وسطها انهاراً فيّاضة. قال تعالى: ﴿ أَوۡ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَعِنَبٖ فَتُفَجِّرَ ٱلۡأَنۡهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفۡجِيرًا ﴾[3]ويؤشر اللفظان (فتفجّر. تفجيرا) الى الشدّة والتشدد في الأصوات المعبّرة عن الانفجار في مساحة صوتية متقاربة، واللفظان يعودان الى أصل واحد، ودلالته واحدة (فجّر) فالفعل الأول (تفجّر) فعل مضارع، والثاني (تفجيرا) توكيد له، ويدل ذلك على أن طلب الكافرين فيه تعجيز، ففي سكون الجنة يتفجّر النهر بمائه وخريره ليقطع ذلك السكون، كما أن الطلب لتكون الجنة ذات أنهار فيه تعجيز أيضاً، لأن الجنة أو المزرعة في أرض الجزيرة العربية كما يعلمون تعتمد على مياه العيون والآبار وليس الأنهار.

ويعبّر دعاء المؤمنين عن نيّة صادقة نحو ربّهم، فهم يطلبون ثبات القلوب قبل النفوس، وأن يهبهم رحمة منه لأنه الوهّاب. قال تعالى: ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ﴾[4]

---

(١) الاعراف ١٩٧.
(٢) فصلت ٥١.
(٣) الاسراء ٩١.
(٤) آل عمران ٨.

واللفظان (هب. الوهّاب) يعبران عن تردد صوتي متنوّع بين الرخاوة والشدّة، بحيث ينسجم كل منهما مع السياق والدلالة، فقد بدأ السياق بالدعاء الرقيق ثم انتهى بتأكيد القدرة على العطاء. واللفظان يعودان الى أصل واحد (وهب) أي أعطى، فاللفظ الأول (هب) طلب المؤمنين أو دعاؤهم ليعطيهم الله رحمة، وهي قمة العطاء، وقد سبقه تذلل وتعطف أن لا يغيّر قلوبهم عن الحق، والثاني (الوهّاب) على زنة فعّال، أي كثير الهبات والعطاء، وهذه الصفة تستحق المعطي الذي لا ينفد عطاؤه، وكأنه اعتراف بعظمة المعطي، وتأكيد على دوام عطائه.

وتعبّر ألفاظ التصدير عن حال المنافقين الذين تراخوا عن الخروج للقتال، ولم يعدّوا له العدّة، من مال أو زاد أو سلاح أو خيل أو إرادة صادقة، ولكن الله لم يرد خروجهم، لأنهم إن خرجوا أثاروا الفتنة وثبطوا همة المسلمين، وأشاعوا الخوف والرهبة والرغبة في التراجع، وكان الإيحاء أن يقعدوا مع القاعدين من المرضى والعاجزين. قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَـٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ ﴾[1]

ارتكز اللفظان (اقعدوا. القاعدين) في آخر الآية، وقد تركز التردد الصوتي في نهاية المساحة المخصصة له، وكأنه يعبّر عن ضيق مساحته بمكان قعود المنافقين. ويعود اللفظان الى الأصل اللغوي (قعد) أي تراخى وفتر أو انقطع عن العمل، ودلالة اللفظين واحدة، ولكنهما يختلفان في التصريف، فالأول (اقعدوا) أمر إلهي إيحائي للمنافقين لتثبط همتهم، ويتراجعوا عن الخروج للقتال، فعبّر عن ذلك بدلالة القعود، والثاني (القاعدين) أي الذين لا يقدرون على الحركة والعمل بسبب العجز والمرض، وكأنّ هؤلاء المنافقين يتساوون مع القاعدين في العجز عن الحركة مع اختلاف النوايا.

الثالث: اللفظ الأول يكون في آخر الآية بحيث يجاور الفاصلة تماماً، وقد ورد هذا النوع في القرآن الكريم أقل مما سبقه، وهو على الشكل الآتي:

××ـــــــــــــــــــــــــــ

وقد دعي هذا النوع من التصدير بـ (تصدير الفاصلة) لا تصدير التقفية كما يدعونه، لأن المقطع الأخير في الآية فاصلة، وليست قافية من الشعر. ونجد في الفقرة انفتاحاً واسعاً في بدايتها ووسطها، وانغلاقاً تاماً في آخرها.

ويعبّر هذا التصدير عن القدرة الإلهية في حالات العرض والتعليل والتأكيد، ومن دلائل هذه القدرة مثل الليل والنهار تعرض لبيان فائدتها للبشر، وتعليل تعاقبهما دليل على هذه القدرة، وتوكيد ذلك بالتفصيل وسيلة للإقناع. قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ

---

(١) التوبة ٤٦.

ءَايَةَ ٱلَّيۡلِ وَجَعَلۡنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبۡصِرَةٗ لِّتَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡ وَلِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ وَكُلَّ شَيۡءٖ فَصَّلۡنَٰهُ تَفۡصِيلٗا ﴾[1]

هذا الانفتاح الواسع في النص وتركيز اللفظين (فصلناه. تفصيلا) في نهاية الآية تركيز للتنغيم الذي هو بمثابة ختام للضربات الإيقاعية التي تسبقه، وكأن ذلك التركيز خلاصة ما سبق والثاني هو الفاصلة يعد توكيداً للأول.

ونجد مثل توكيد الفعل هذا في عناد قوم نوح (عليه السلام) على الكفر، وإصرارهم عليه مع تعاقب محاولاته في دعوتهم لمغفرة الله تعالى، ولكنهم جعلوا أصابعهم في آذانهم لئلا يسمعوا دعوته، وجعلوا ثيابهم على رؤوسهم لئلا يروه، وفي عملهم هذا دلالة على الإصرار والاستكبار قال تعالى: ﴿ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوۡتُهُمۡ لِتَغۡفِرَ لَهُمۡ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ وَأَصَرُّواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ ٱسۡتِكۡبَارٗا ﴾[2]

يقابل هذه الساحة من محاولات النبي نوح (عليه السلام) مع قومه مساحة ضيقة يجتمع فيها اللفظان (واستكبروا. استكبارا) ويعني أن التردد الصوتي في تلك المساحة الصغيرة هو اختزال لكل الترددات الصوتية التي تعبّر عن المحاولات مع هؤلاء القوم ولكن دون جدوى. ويرجع اللفظان الى أصل لغوي واحد (كبر) ودلالة واحدة تجمعهما، وهي الاستكبار أي التعالي، فكان الأول فعلاً ماضياً يعبّر عن تعاليهم، والثاني توكيد لهذا التعالي.

وننتقل الى المرأة الطاهرة مريم (عليها السلام) وهي تشعر بحالة الحمل، وما تتركه هذه الحالة من ألم وقلق وعذاب نفسي، يتجلى في كيفية مواجهة قومها وهي على تلك الحالة دون زوج تحمل منه حملاً طبيعياً. قال تعالى: ﴿ فَأَجَآءَهَا ٱلۡمَخَاضُ إِلَىٰ جِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ قَالَتۡ يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا ﴾[3]

ويعبّر اللفظان (نسياً منسيا) عن تردد نغمي ينسجم وحالات الحزن والقلق والتفكير الذي يعتريها في حالة الوضع، وكأنّ ذلك التراكم حمل ثقيل يستدعي إنزاله. واللفظان يعودان الى أصل لغوي واحد (نسي) أي لم يذكر أو يحفظ، فالأول مصدر نسي أو نسيان، والثاني منسياً صفة للنسيان، وفي ذلك النسيان المنسي دلالة على إرادتها في إلغاء حتى المنسي نهائياً من ذاكرتها. أي انتفاء وجودها في الخلق قبل هذا الحمل، وهذا قمة العفة والطهر.

وهذا النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) يذكره الله تعالى في الملأ الأعلى، فيثني وملائكته على شرفه وعظيم شأنه، ثم يأمر المؤمنين أن يثنوا عليه أيضاً، ويسلمون عليه

---

(١) الاسراء ١٢.
(٢) نوح ٧.
(٣) مريم ٢٣.

سلاماً غير منقطع. قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴾[1]

تزخر الآية بتكرار صوتي (يصلون، صلوا) وكذلك بالتصدير (وسلموا. تسليما) وكأنّ ذلك الترديد الصوتي ترنيمة موسيقية تعبّر عن امتداد المشاعر تجاه نبي الرحمة، وعلى طول مساحة النص المتاحة لذلك. ويعود لفظا التكرار الى أصل لغوي (صلّى) أي دعا من الدعاء أو الثناء، وكذلك يعود لفظا التصدير الى أصل لغوي (سلّم) أي حيّا تحية. ودلالة اللفظين واحدة، وقد جاء اللفظ الثاني توكيداً للأول، ومثل هذا التوكيد يعني تحية دائمة غير منقطعة، تكافئ ذلك العناء الذي تحمله من أجل إيصال رسالته.

وبهذا يحقق التصدير تنغيماً موسيقيا في داخل النصّ ينسجم ودلالة اللفظين الموحية التي يراد لها التأثير وجذب الانتباه، والتفكر في دلالته، وتدبر معناه.

٨- الترديد:

وهو ((أن يعلّق المتكلم لفظة من الكلام بمعنى، ثم يرددها بعينها، ويعلّقها بمعنى آخر))[2] أو هو ((إعادة اللفظ بعينه ولكن بفارق دلالي جزئي في استعماله ثانياً ليس موجوداً في استعماله أولاً))[3]وهذا الفارق الدلالي في استعمال اللفظ ناتج عن استعمال خاص بالسياق، وليس وليد الاستعمال اللغوي المشترك بين اللفظين، ولم يكن الترديد من باب التكرار المجرد، بل يلعب دوراً مهماً في التنسيق بين الصوت والدلالة معا.

والترديد تكرار للأسماء المفردة، والجمل المؤتلفة، والحروف المجردة، واللفظة المرددة تفيد في إضافة معنى آخر فضلاً عن معنى اللفظ الأول، ولذا يمكن القول إن الترديد مظهر من مظاهر تجديد الطاقات الدلالية التي تضيف مفاهيم عدة للمعنى، وعلى العكس مما يوحي به الظاهر. إننا بذلك نستطيع أن نحدد الفرق بين التكرار والتصدير والترديد، فالتكرار يفيد في إعادة اللفظ ودلالته، والتصدير يفيد في تفسير أو توضيح المعنى الأول، والترديد يفيد في إضافة معنى آخر أو جزئي الى المعنى الأول.

ورد الترديد في الخطاب القرآني في أغلب سور القرآن الكريم، وعلى أنواعه الثلاثة، ترديد الأسماء، وترديد الحروف، وترديد العبارات. ويأتي ترديد الألفاظ في الآيات التي يراد منها أن تبيّن دلائل قدرة الله تعالى في تدبير الكون لمنفعة الخلق، واللفظ المردد يضيف معنى آخر الى معنى اللفظ الأول. قال تعالى: ﴿ تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۖ وَتُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَتُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّۖ وَتَرۡزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴾[4]

---

(١) الاحزاب ٥٦.
(٢) ابن ابي الاصبع: تحرير التحبير ٢٥٣.
(٣) محمد الهادي الطرابلسي: خصائص الاسلوب في الشوقيات ٦٠.
(٤) آل عمران ٢٧.

وترديد الألفاظ وترتيب مواقعها ليس له هندسة ثابتة على مساحة النص، ولكننا نجد هنا اللفظين (تولج. وتولج) قد وقع ترتيبهما على الشكل الآتي:

(تولج- - - وتولج - - -)

(وتخرج- - - وتخرج- - -)

ومثل هذه الهندسة الإيقاعية قد جعلت التردد الصوتي ينتظم بحيث ينسجم وسياق حركة المعنى في الإيلاج والإخراج، وهما حركتان متساويتان في الترديد. والإيلاج معناه إدخال شيء في آخر، فاللفظ الأول يعني إدخال الليل في النهار، فيزيد وقت الليل على النهار، واللفظ الثاني ومعناه على العكس إدخال النهار في الليل، فيزيد وقت النهار، وكذلك اللفظان (وتخرج. وتخرج) مرددان، ومعناهما عكس الإيلاج وهو الإخراج، فالأول يعني إخراج النبات الحي من الأرض الميتة، والثاني إخراج النطفة وهي ميتة بنظر العرب من الإنسان الحي. وفي ذلك أمثلة كثيرة.

واللفظ المردد يعمل على إضافة معنى قد يكون مجهولاً للمخاطب، كما في قوله تعالى للتمييز بين علم الله وعلم الإنسان المقتصر على ظواهر الحياة الدنيا: ﴿ وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴾[1]

وترتيب اللفظين (لا يعلمون. يعلمون) في مساحة الصوت نتبينها من خلال موقعهما على الشكل الآتي:

(- - - - - -- لا يعلمون. يعلمون - - - - - - - - - -)

فتقارب الصوتين في مركز المساحة يعني خلق ثلاثة ترددات منخفض وعال ومنخفض، ينسجم ذلك والمضمون بين عدم المعرفة ثم فاصل ثم المعرفة الظاهرية لدلالات الكون. فاللفظ الأول (لا يعلمون) أي خفي على الناس علم الله وإرادته وهذا من علم الغيب، واللفظ الثاني (يعلمون) أي علمهم القليل الذي يقتصر على معرفة ظواهر الحياة الدنيا بعد خوض التجارب، ولكنهم غافلون عن علم الآخرة وما يجري فيها من أمور لولا القرآن الكريم الذي أخبرنا عنها.

ويفيد الترديد في مقابلة اللفظ باللفظ مع فارق الدلالتين. كما في خطاب الله تعالى للناس كافة أن يذكروا الله في كل زمان ومكان، فإنه يذكرهم أيضاً كما ذكروه. قال تعالى: ﴿ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾[2]

هذه المقابلة الصوتية التي تبدأ في بداية النص فتعبّر عن تردد سريع يدل على سرعة العمل وسرعة مقابلته أو سرعة مجازاته، واللفظان المرددان (فاذكروني. أذكركم) وإن اتفقا في الدلالة فإن دلالة الأول تعني ذكر الله أي تسبيحه وتحميده سواء كان الفرد لوحده أم في محفل من الجماعة، واللفظ الثاني وهو ذكر الله تعالى لهذا الفرد مع الملائكة، والثناء على عمله، وتحبيب الخلق جميعاً به، وبذلك أضاف اللفظ الثاني معرفة لا نعلمها لولاه.

---

(١) الروم ٦-٧.

(٢) البقرة ١٥٢.

ويدخل اللفظ المردد الى الدعاء، فيعبّر عن طلب الإنسان من الله تعالى أن يعطيه في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة، وبذا فقد وازن بين حياته الدنيا وحياته الآخرة. قال تعالى:

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾[(١)]

إنّ ترديد اللفظ (حسنة) يؤشر الى تناسق في التنظيم الصوتي خلال مساحة النص، ينسجم والتوازن الدلالي بين اللفظين. فالحسنة في الدنيا هي: النعمة والعافية والأمان، ورضى الله. والحسنة في الآخرة هي: الرحمة والإحسان والنجاة من النار ودخول الجنة.

ويوجّه الله تعالى خطابه للنبي محمد (صلى الله عليه وسلم) أن يعرض عن الكافرين حين يتعرّضون لآيات الله بالسخرية والاستهزاء، والطعن في القرآن الكريم حتى ينتقلوا الى حديث آخر يهمهم. قال تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[(٢)]

فترديد اللفظين (يخوضون. يخوضوا) يعبّر عن تردد صوتي خليط بحركة دائرية تنسجم والخوض في الحديث، وكأن الحديث بُركة ماء ساكنة، وحين تحرّك يختلط ما فيها من مواد. فاللفظ الأول يعبّر عن الخوض في آيات الله الواضحة النقية، فيحاول أن يخلطها بسخريته واستهزائه، واللفظ الثاني دعوة الى الخوض في غير آيات الله، وهي متاع الحياة الدنيا الذي يهمهم ويغريهم بزينته.

وها هو كتاب الله القرآن الكريم فيه آيات واضحات لا احتمال فيها ولا اشتباه، يمكن الرجوع اليها مباشرة دون عناء تفكير. وفيه آيات أخر متشابهات خفيّات استأثر الله تعالى بعلمها. فالمنافقون الذين في قلوبهم مرض يبغون إثارة الفتن، يتجهون نحو تلك الآيات ليفسّرونها بحسب أهوائهم. قال تعالى: ﴿ ...فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ .. ﴾.[(٣)]

فترديد اللفظ (ابتغاء. وابتغاء) له تأثير واضح في الإيقاع بحيث يتناسب وحقيقة الإلحاح في طلب إثارة الفتنة. وذلك لأن اللفظ الأول يدل على طلب إثارة الفتنة. والثاني هو مضاف للمعنى الأول، أي أن هذه الفتنة تتم من خلال تأويل آياته المتشابهات، فيحدث الخلاف ليتطوّر الى التفرّق والقتال.

---

(١) البقرة ٢٠١.
(٢) الانعام ٦٨.
(٣) آل عمران ٧.

ويتوجّه خطاب الله تعالى الى بني إسرائيل أن يتذكّروا نعمته عليهم وهي كثيرة، وأن يوفوا بعهده حتى يفي بعهدهم، وأن يتقوه. قال تعالى: ﴿ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّـٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴾[1]

فاللفظان المرددان (وأوفوا. أوفِ) يعبّران عن تقابل صوتي تكاد تنعدم بينهما نوبة استراحة، وذلك التنسيق يكاد ينسجم مع دلالتهما، وكأن الأمر واحد بواحد بعد إهمال ذكر نعمة الله عليهم، لذا يتطلب اللفظ الأول منهم الوفاء بعهد الله لهم، وهو يتكون من عشر كلمات منها: عدم الشرك بالله تعالى، والإحسان بالوالدين، وعدم قتل النفس، والحرص على مال اليتيم، والوفاء بالكيل والميزان، والعدل، والوفاء بعهد الله.[2]ويقابل ذلك اللفظ الثاني (أوفِ) أي أن الله تعالى يوفي بعهده لهم، فهو يثيبهم على عملهم، ويدخلهم الجنة بعد وفائهم بعهد الله.

ويعلم الله تعالى ما يخفي اليهود من الظغائن للمسلمين، وحين جاء الأمر الإلهي بتحويل القبلة من بيت المقدس الى مكة المكرّمة انتهزها اليهود فرصة للنيل من النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) ولم تنفع معهم الحجج والبراهين لإثبات صدق التوجّه لله. قال تعالى:

﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ .. ﴾.[3]

فاللفظان المرددان (ما تبعوا. بتابع) يعبّران عن التقابل الصوتي الذي ينسجم مع الدلالة. فاللفظ الأول يدل على انقطاع التبعية لليهود من خلال توحّد التوجه سابقاً لقبلتهم في بيت المقدس والثاني يدل على إصرار اليهود على عدم تغيير قبلتهم والتوجّه الى الكعبة المشرّفة، وتأكيد ذلك في تكرار الامتناع عن الإتباع (وما بعضهم بتابع قبلة بعض).

وهاهم اليهود يتجرّؤون على الله فيحرّفون كتاب الله وهو التوراة يحذفون منه ما لا يريدون، ويضيفون اليه ما يناسب أهواءهم، ويوهمون عامتهم أنه من التوراة، وكان وعيد الله لهم العذاب والخزي يوم القيامة. قال تعالى: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَـٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾[4]

في الآية تكرار وترديد، فالتكرار (فويل. فويل. وويل) حقق ترجيعاً صوتياً على طول مساحة النص، وكان ذلك التكرار ضربات تتناسق ودلالة السياق، وكأنها دقات على

(١) البقرة ٤٠.
(٢) ينظر: سورة الانعام ١٥١-١٥٣.
(٣) البقرة ١٤٥.
(٤) البقرة ٧٩.

الرأس، وإزاء كلّ سيئة ضربة تنزله الى ويل، وهو واد في جهنم. والترديد يقع بين اللفظين الأخيرين (فويل. وويل) فالويل الأول كان بسبب كتابة ألفاظ التحريف، والويل الثاني كان بسبب ما يكسبون من مكاسب دنيوية كالمال والجاه والسلطة، بسبب استئثارهم بالتوراة دون عامة اليهود.

ويضيف الترديد معان في آيات الأحكام الشرعية، تتناسب والمراحل التطبيقية لتلك الأحكام. فمن ذلك مثلاً اعتزال النساء في أثناء المحيض، ولا يأتي الرجل المرأة حتى تطهر منه وقد بيّن معاني الطهر كما في قوله تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾(1)

يتضافر التكرار مع الترديد للألفاظ (يطهرن. تطهّرن. المتطهّرين) على إشاعة تردد صوتي يتوزّع بانتظام على مساحة النص، وكأنه علامات صوتية لتنبيه المسلم لئلا يقع في الخطأ، وعليه التزام الطهر أولاً وآخراً. والترديد يبرز في اللفظين الأولين (يطهرن. تطهّرن) والفرق بينهما تشديد الهاء، ومن حيث الدلالة فإن اللفظ الأول يعني انقطاع الدم من النزول، ويمكن أن نسميه الطهارة الأولى، واللفظ الثاني يعني الاغتسال بالماء بعد انقطاع المحيض، ويمكن أن نسميه الطهارة الثانية، وبعدها يكون التقرّب من المرأة. والدليل على ذلك أن الله تعالى قد ذكر أنه يحب (المتطهّرين) بتشديد الهاء. أي اللآئي يغتسلن بالماء بعد المحيض من النساء، ومن الرجال من يمتنع حتى اغتسال المرأة.

ويدخل المجاز والحقيقة من الألفاظ المرددة في بعض الأحكام الشرعية، ومن ذلك مثلاً مال اليتيم الذي يودع عند من يكفله في الرعاية، وصيانة ماله من الضياع حتى يكبر، ولكن بعض ضعاف النفوس يتصرّف بذلك المال، ويأخذ منه ما يشاء دون خوف من الله، أو وازع ديني وأخلاقي. قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾(2)

فاللفظان المرددان (يأكلون. يأكلون) قد تناسقا في إشاعة تنغيم صوتي متناوب، كما هو في الشكل الآتي:

- - يأكلون - - - - يأكلون - - - - -

وكأن الترجيع الصوتي تحذير من أكل النار. فاللفظ الأول يأكلون أموال اليتيم، وهو لفظ مجازي، فالأموال لا تؤكل حقيقة ولكنها تصرف فتؤدي الى الأكل والشرب والإنفاق بغير حق، واللفظ الثاني حقيقي لأنهم سيأكلون في بطونهم النار بدلاً من المال في الآخرة، أي أن هذه الأموال المأكولة هي نار مؤجلة، تشتعل في بطونهم عند الجزاء.

---

(1) البقرة ٢٢٢.
(2) النساء ١٠.

وفي جزاء الآخرة ينال الذين أمنوا وعملوا الأعمال الصالحة الجزاء الأوفى عند الله تعالى، وهو جنات عدن خالدين فيها، ويتحقق بعدها الرضى المتبادل بين الرب والعبد. قال تعالى: ﴿ جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ ﴾[1]

فاللفظان المرددان (رضي. ورضوا) يحققان ترددا موسيقياً ينسجم وختام كل عمل ينجز. فهي موسيقى تعبيرية تشي بالراحة والاطمئنان بعد الكد والكدح. ويتفق اللفظان من حيث الدلالة العامة وهي الرضى، وتعني القبول بالشيء، ويختلفان في الدلالة الدقيقة. فالأول يعني رضى الله تعالى عن عباده المؤمنين نتيجة لأعمالهم فجزاهم بنعيم الجنة. والثاني رضى العبد عن ربّه أي إبداء السرور وقبول ما أعطاه بالثناء والشكر.

ومن ترديد الحروف ما يسمى بالترديد المتعدد، وهو الذي يتغيّر فيه مفهوم المسمى لتغيّر الاسم، إما لتغاير الاتصال أو تغاير ما يتعلق بالاسم[2]ومن ذلك خطاب الله تعالى للمؤمنين أن لا يتخذوا أهل الكتاب أولياء عليهم، ومن يتخذهم فهو منهم. قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[3]

فالحرفان (منكم. منهم) باتصال حرف الجر (من) بضمير المخاطبين الغائبين في الموضعين مع تضمن أداة الشرط (مَن) من معنى الشرط، أصارت المؤمنين غير مسلمين عند وقوع الشرط. ويتضمن ترديد الحرفين تنغيماً صوتياً متقطعاً يعبر عن الانفصال والاتصال، انفصال بعض المؤمنين الموالين لأهل الكتاب، واتصالهم بمن يواليهم. مع وجود الشرط أي لا يحدث ذلك الاّ في حال الموالاة.

ومن ذلك الترديد ما يبيّن أحقية القيام بالصلاة في مسجد أسس على تقوى الله، ورجاله يحبون أن يتطهّروا عند الصلاة فيه. قال تعالى: ﴿ لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ فِيهِ رِجَالٞ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُطَّهِّرِينَ ﴾[4]

ترديد الحرفين (فيه. فيه) أي حرفا الجر المتصلان بالهاء الضمير العائد الى المسجد قد حققا ترجيعاً صوتياً في منصف مساحة النص، وكأن تلك الأصوات تشير الى مركز العبادة وهو المسجد، وهذا المسجد هو مسجد (قباء) الذي بني خالصاً لله تعالى، ورجاله

---

(١) البينة ٨.
(٢) ينظر: ابن ابي الاصبع: تحرير التحبير ٢٥٣.
(٣) المائدة ٥١.
(٤) التوبة ١٠٨.

يبالغون في طهارة البدن وطهارة الروح. فالحرف الأول يعود الى إقامة الصلاة، والحرف الثاني يعود الى المصلين.

ومن ترديد العبارات والجمل ما يعني اختلاف معنيين، فالمعنى الثاني هو مضاف الى المعنى الأول، والمعنيان يؤديان الى فكرة متكاملة، تعبّر عن تفجّر الطاقات الكامنة فيها. ومن ذلك الترديد ما يؤدي الى تصحيح المواقف التي يراها اليهود أن الأنبياء إبراهيم (عليه السلام) ومن جاء بعده كانوا يهوداً، أي مدّوا اليهودية الى ما قبل النبي موسى (عليه السلام)، فجاء الترديد لتصحيح ذلك الموقف. قال تعالى: ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[1]

فترديد العبارتين (لها ما كسبت. ولكم ما كسبتم) ترديداً إيقاعياً يتناسب وسياق الآية في الكف عن التشبث بما سبق لضمه الى الحاضر، والعبارة الأولى وفيها إنّ ما قامت به تلك الأمة الماضية من أعمال حسنة أو سيئة يعود اليها، والعبارة الثانية إنّ ما تقوم به هذه الأمة الحاضرة من أعمال حسنة أو سيئة أيضاً يعود اليها وليس لغيرها، ويوم القيامة تسأل كل أمة عن أعمالها.

وبذلك نقول إن الترديد وإن أفاد إفادة جزئية من المعنى ولكنه أضاف اليه معنى يزيد من تأكيده وتثبيته في الذهن، ويدفع الى التنبه اليه من خلال ذلك الترديد، فهو إغراء للقيام به، أو تحذير من الوقوع فيه.

٩- التذييل:

وهو ((أن يذيّل المتكلم كلامه بجملة يتحقق فيها ما قبلها من الكلام، وتلك الجملة على قسمين، قسم لا يزيد على المعنى الأول وإنما يؤتى به للتوكيد والتحقيق، وقسم يخرجه المتكلم مخرج المثل السائر ليحقق به ما قبله، وأما أن يكتفي بما يتضمن من زيادة المعنى))[2]ويمكن أن ((نطلق لفظ التذييل على نوع من ترديد اللفظ خاص، يتمثل في استعمال اللفظ في صدارة البيت وتكراره في حشوه))[3]

وقد ورد التذييل في الخطاب القرآني لتأكيد المعنى الأول، وتثبيته في ذهن المتلقي، ومقابلة المعنيين لغرض الموازنة بينهما، وبيان حكمة الله تعالى في ذلك التذييل، وكأن المعنى الثاني أو الزائد هو تحقيق أو تسويغ للمعنى الأول، ومثل هذا التذييل الذي تتكرر فيه الألفاظ والعبارات، وتتخذ مواقع الصدارة والحشو، أو الحشو وحده إنما يعمل على ضبط الدلالة، ويلفت الانتباه الى دوره الإيقاعي الذي يزداد لوقوعه في الصدارة أكثر من وقوعه في الحشو.

---

(١) البقرة ١٤١.
(٢) ابن ابي الاصبع: تحرير التحبير ٣٨٧.
(٣) محمد الهادي الطرابلسي: خصائص اسلوب الشوقيات ٩٢.

ويأتي التذييل للنهي أو التحذير من اتباع ما دون الله من آلهة أو أولياء يبعدونهم عن اتباع الرسل، وما أنزل عليهم من الله تعالى: ﴿ اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾[1] استوفت العبارة (اتبعوا ما أنزل...) المعنى، وفيها أمر وتوجيه، وجاءت العبارة الثانية تذييل لها (ولا تتبعوا من دونه...) وفيها تحذير، وقد تكرر اللفظان (اتبعوا. ولا تتبعوا) لتحقيق ترجيع صوتي منتظم على المساحة الصوتية، كما في الشكل الآتي:

(ـــــ- - - - - - ـــــــ- - - - - -)

نتبين من الشكل أن التناوب بين التصويت والسكت منتظم، وكأن العبارتين متقابلتان في الإتباع وعدم الإتباع.

ويبدو التقابل واضحاً بين المعنى الأول ومعنى التذييل في الموازنة بين علم الله وحكمته التي لا تنتهي أبداً وبين علم البشر المكتسب الذي سرعان ما ينتهي. قال تعالى: ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ .. ﴾.[2]

وقع التذييل هنا للتقابل بين معنيين، الأول (ما عنكم ينفد) والثاني التذييل (وما عند الله باق) وكأن التذييل جاء لتحقيق المعنى الأول، وتثبيته بما يخالفه أو يعاكسه، ولعل ترديد اللفظ (ما عند) الذي يضاف اليه مرّة ضمير الجماعة المخاطبين، ومرّة اسم الجلالة الله، وقد حقق تنغيماً متوازناً بين الفقرتين.

ولا تقتصر العبارة الأولى على اتخاذ موقع الطالع أو الصدارة في الكلام بل ترد العبارتان في حشو الكلام، كما في اعتراف امرأة العزيز بمراودتها يوسف (عليه السلام) وتلك المراودة كانت مجرّدة ولم تصل الى الخيانة، وكانت بسبب النفس الأمّارة بالسوء. قال تعالى حكاية عنها. ﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي ۚ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[3]

فالعبارة الأولى (وما أبرّئ نفسي) اعتراف صريح بالمراودة، وعندها ينتهي المعنى، والعبارة الثانية وهي تذييل (إنّ النفس لأمارة بالسوء) وذلك لغرض توكيد المعنى الأول، أي أن الأمر ليس بيدها بل كان بدافع نفسي خارج عن إرادتها، ولقد حقق ترديد اللفظين (نفسي. النفس) إيقاعاً صوتياً يتناسب وسياق الآية في التركيز على اتهام النفس.

ويقف التذييل في موقف الدفاع عن المبدأ، وتحمّل المسؤولية إزاء ما يصدر من أفكار وآراء كما نجد ذلك في اتهام الكفار النبي نوح (عليه السلام) بأن ما جاء به من أمر

---

(١) الاعراف ٣.
(٢) النحل ٩٦.
(٣) يوسف ٥٣.

ونهي إنما هو من عند نفسه، ونسبه الى الله كذباً وحاشاه. قال تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴾(١)

العبارة الأولى (أم يقولون افتراه) ادعاء الكفار بأن ما جاء به نوح (عليه السلام) اختلاق من عند نفسه، وهذا يعني أنهم غير ملزمين بإتباع ما يأتي به. والعبارة الثانية (قل إن افتريته فعليّ إجرامي) وهي تذييل للأولى، وتحقيق لمضمونها في تحدي ما يفترونه، وهو تحمل عقوبة ما يدعيه، أي تقع عليه العقوبة لو افترى ذلك ولا تقع عليهم، وترديد اللفظين (افتراه. افتريته) يخلق تنغيماً موسيقياً يتسق ومعنى الافتراء.

ويتصدّر نزول القرآن الكريم طالع الآية، فيتبعه التذييل لتحقيق صدق القول وتثبيته، فلم يكن النازل كلام بشر، بل كلام نزل بالحق على النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) ليبشربه وينذر. قال تعالى: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾(٢)

فالعبارة الأولى (وبالحق أنزلناه) وعبارة التذييل (وبالحق نزل) تأكيداً للأولى وتثبيتاً للحق، وليبشّر وينذر به، وتكرار لفظ (وبالحق) وترديد (أنزلناه. نزل) قد حقق إيقاعاً متناسقاً مع معنى النزول من السماء بالحق، وليس كلاماً متداولاً في الأرض.

ويقع التذييل لتأكيد دلالة العبارة الأولى كما في بيان وصف المؤمنين الذين تطمئن قلوبهم للإيمان بذكر الله، لأن ذكر الله يطمئن القلوب. قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾(٣)

فالعبارة الأولى (الذين آمنوا...) وعبارة التذييل (ألا بذكر الله تطمئن القلوب) جاءت مؤكدة لما قبلها، وقد تكررت الألفاظ (بذكر الله) مرتين، وترديدها (تطمئن قلوبهم. تطمئن القلوب) قد حققت تردداً موسيقياً انتظم على طول المساحة المخصصة للإيقاع، لغرض جذب السامع إلى ذكر الله.

وهؤلاء المؤمنون الذين يجازيهم الله تعالى بالجنة قد أرشدوا إلى القول الطيب، القول الحق الذي يهديهم إلى الصراط المستقيم. قال تعالى: ﴿وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴾(٤)

فالعبارة الأولى (وهدوا إلى الطيب من القول) أي هداهم الله تعالى الى الإيمان، وقولهم لا إله إلا الله. وعبارة التذييل (وهدوا إلى صراط الحميد) أي الطريق السليم، فقد

---

(١) هود ٣٥.
(٢) الكهف ١٠٥.
(٣) الرعد ٢٨.
(٤) الحج ٢٤.

أضيف هذا المعنى لما سبقه، وكأنه منحة من الله تعالى لمن آمن به، وقد تكرر اللفظ (وهدوا. وهدوا) محققاً تردداً صوتياً ينتظم على مساحة النص كما يأتي:

(ـــــ- - - - - - ـــــ- - - - -)

وهذا يعني أن هناك تنظيماً في توزيع الإيقاع الذي يتناسب وهداية المؤمن الى القول الطيب (لا إله الاّ الله) والى الصراط المستقيم.

وترتقي مبايعة المؤمنين لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) الى مبايعة الله تعالى من خلال رسوله، فقد وضع الله نصرته وقوته فوق أيديهم. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾.(١)

فالعبارة الأولى (إنّ الذين يبايعونك...) أي إن الذين آمنوا وبايعوا الرسول على نصرته، وتمّت المبايعة بوضع أيديهم على يد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) والله تعالى يراهم فكأنما يبايعونه. والعبارة المذيلة (يد الله فوق أيديهم) أي نصر الله وقوته ونعمته فوق أيديهم، وبذلك أضافت هذه العبارة الى ما قبلها معنى جديدا. وقد تكرر اللفظ (يبايعون) مرّتين في الحشو مما أعطى تركيزاً صوتياً للبيعة وأهميتها للنبي محمد (صلى الله عليه وسلم) وللمؤمنين، وتأييدها من الله تعالى.

ولعل من أهم صفات الكفار المكر والخديعة والمراوغة، وكانوا يمكرون على الله ورسوله، ويدبرون المكائد في الخفاء لإبطال الحق، والله تعالى أعلم بمكرهم، وهو قادر على إبطاله، وإن كان هذا المكر شديداً. قال تعالى: ﴿ وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴾(٢)

فالعبارة الأولى تصدّرت الآية (وقد مكروا مكرهم) أي قاموا بوضع المكائد والحيل للإيقاع بالنبي ورسالته، والعبارة الثانية للتذييل (وعند الله مكرهم) أي أن الله تعالى يعلم بما يمكرون فيبطله، والعبارة الثالثة للتذييل (وإن كان مكرهم لتزول من الجبال) أي لشدته وقوته بحيث يستطيع مجازاً أن يحرّك الجبال، وقد تكرر اللفظ (مكرهم) ثلاث مرّات متناوبة على مساحة النص، فحقق إيقاعاً ينسجم وشدّة المكر وانتشاره. وقد وردت آيات تؤكد مثل هذا المكر وتذيّل عليه، كما في قوله تعالى:

﴿ وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا ﴾(٣)

﴿ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾(٤)

---

(١) الفتح ١٠.
(٢) ابراهيم ٤٦.
(٣) الرعد ٤٢.
(٤) النمل ٥٠.

﴿ٱسْتِكْبَارًا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ﴾[1]

وهؤلاء الكافرون يسمّون الملائكة بأسماء إناث على أنها بنات الله وحاشاه، وليس لهم علم بذلك، بل يتبعون الظن المجرد الذي لا يصل الى الحقيقة. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴾[2]

فالعبارة الأولى (إن يتّبعون الاّ الظن) وقعت هذه العبارة في حشو الآية، وتعني أن هؤلاء الكفار في تسميتهم الملائكة- وهم لا جنس لهم- أنهم بنات الله وحاشاه، وعبارة التذييل (وإنّ الظنّ لا يُغني من الحق شيئاً) أفادت المعنى وأضافت اليه حقيقة ثابتة، وهي أن الظن لوحده لا يصل الى يقين، وقد وقف الكفار عند حد الظن، ولم يتجاوزوه الى الإيمان بالله ورسوله، وقد تم معرفة ذلك الأمر نقلاً عن كتاب الله تعالى، وتكرار لفظ (الظن) فضلاً عن التذييل خلق إيقاعاً متناسقاً مع السياق الظني.

وينتقل التذييل الى دحض اعتذار المنافقين في تخلّفهم عن الجهاد في سبيل الله، وهي أعذار كاذبة. قال تعالى: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ۚ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ﴾.[3]

فالعبارة الأولى قد تصدّرت الآية (يعتذرون اليكم...) يقدم المنافقون أعذاراً واهية كاذبة لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) وللمؤمنين بعد رجوعهم من القتال. والعبارة المذيّلة (قل لا تعتذروا لن نؤمن لكم) أي لا تنفع الأعذار لن نصدقكم، لأنهم يتخلفون دائماً عن القتال، ويقدمون الأعذار تلو الأعذار، والتذييل الثالث (قد نبأنا الله من أخباركم) فهذان التذييلان قد حققا المعنى الأول، وثبتا حقيقة واحدة وهي أن الكذب صفة ثابتة للمنافقين، وترديد اللفظين (يعتذرون. تعتذروا) حقق تنغيماً ينسجم وسياق العذر والأعذار.

ويدخل التذييل الى الأحكام، ومن ذلك الإنفاق في سبيل الله، ومن الناس من ينفق في سبيل الله، ومنهم من يبخل فيمتنع عن النفقة. قال تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ﴾.[4]

فالعبارة الأولى (فمنكم من يبخل) أي يمتنع عن دفع النفقة للفقراء، وذلك لأن خصلة البخل متأصلة في طبعه. والعبارة الثانية وهي تذييل (ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه) أي إن يمنع الخير عن غيره فإنه يمنع الخير عن نفسه أيضاً بسبب بخله، وقد أضاف التذييل

---

(١) فاطر ٤٣.
(٢) النجم ٢٧-٢٨.
(٣) التوبة ٩٤.
(٤) محمد ٣٨.

معنى آخر يتعلق بالمعنى الأول بسبب من الأسباب، وقد أفاد ترديد اللفظ (يبخل) ثلاث مرّات في تحقيق تنغيم يتناسق والتركيز على صفة البخل المقيتة.

وينقلنا التذييل الى جو الآخرة فنجده يعنى في تقريب المعنى وزيادة عليه، فالكافرون الذين أصاب العمى بصيرتهم عن رؤية آيات الله، فإنه في الآخرة يصيبهم العمى عن رؤية ثواب الآخرة، ونعيم الجنة. قال تعالى: ﴿ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ﴾[1]

فالعبارة الأولى (من كان في هذه أعمى...) أي في هذه الدنيا أعمى نفسه عن رؤية آيات الله البيّنات، وفي الآخرة أعمي عن رؤية رحمة الله ونعيم الجنة. وعبارة التذييل (وأضل سبيلا) فهي إعادة لمعنى العبارة الأولى لأن الأعمى يضل طريقه، يضل الطريق السليم ويتجه الى الطريق الخطأ لأنه أعمى، وتكرار اللفظ (أعمى) مرّتين يخلق صوتاً مردداً يركز على جانب عدم الرؤية وانغلاق البصيرة، وكأن العمى شبح يلاحقه في الدنيا والآخرة.

ثم ينتقل التذييل الى وصف عذاب الساعة مضيفاً إياه الى خزي الحياة الدنيا الذي يناله الكفار، مما يزيد ذلك من ثقل الإحساس بالعذاب قبل أوانه. قال تعالى: ﴿ سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوۡعِدُهُمۡ وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ ﴾[2]

فالعبارة الأولى (بل الساعة موعدهم) أي قيام الساعة وما فيها من أهوال، ومجمله انتهاء الكون وخراب الأرض، وتدمير ما عليها من بناء وجبال وأنهار، وبذلك تنتهي الحياة، لتبدأ بعدها القيامة والحساب. وعبارة التذييل (والساعة أدهى وأمر) أي ما يحدث في قيام الساعة أعظم من الخزي والهزيمة للكفار في الحياة الدنيا. وتكرار لفظ (الساعة) يؤدي الى ترجيع صوتي يتسق ودلالة الساعة، وكأن ذلك الصوت ضربات مؤلمة على الرأس تؤدي الى تصدعه.

وها نحن أمام حال الندم والحسرة إذ يعض الكافر على يديه لأنه لم يؤمن بما جاء به الرسول (صلى الله عليه وسلم)، ولم يكن من صحابته المقرّبين، بل اتخذ فلاناً وفلاناً من الكافرين فأضاعوا طريقه الى الهدى والنجاة. قال تعالى: ﴿ وَيَوۡمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيۡهِ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا ﴾[3]

فالعبارة الأولى (يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا) يتمنى الكافر مع ندم وحسرة كيف أنه لم يتخذ طريق الهدى مع الرسول (صلى الله عليه وسلم) وعبارة التذييل (يا ويلتى ليتني لم اتخذ فلاناً خليلا) يعبّر عن إحساسه بالهلاك والثبور والندم على اتخاذه فلاناً من

---

(١) الاسراء ٧٢.

(٢) القمر ٤٥-٤٦.

(٣) الفرقان ٢٧-٢٨.

الكافرين خليلاً أضله عن طريق الهداية، وهذا المعنى يضاف الى ما قبله فيزيده حسرة وألماً، ولعل تكرار (يا ليتني. ليتني) و(اتخذتُ. لم اتخذ) قد حقق تنغيماً صوتياً ينسجم والحسرات التي تملأ مساحة ذلك الإحساس.

ونتحوّل الى مرحلة الحساب في الآخرة، وإذا بالأمم مجتمعة، وكل منها باركة على ركبها، خاشعة خاضعة تترقب الحساب، وتدعى كلّ أمة أو يدعى كلّ فرد من تلك الأمة لأخذ صحيفة أعماله بيمينه أو شماله بحسب أعماله. قال تعالى: ﴿ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾(١)

العبارة الأولى (وترى كل أمة جاثية) أي كل أمة من الأمم تبرك على ركبتها منتظرة الحساب. وعبارة التذييل (كل أمة تدعى الى كتابها) أضافت معنى آخر مكملاً لما سبق، فجثو تلك الأمة هو لانتظار تسلّم كتاب الأعمال باليمين أو الشمال، وتكرار (كل أمة) فيه تردد صوتي توزّع بانتظام على مساحة النص، وكان ذلك يشير الى دقة تنظيم الحساب الذي يقوم على أساس العدل، وانتفاء الظلم عن جميع الخلق.

ج- تكرار العبارة والفقرة:

إنّ هذا التكرار هو أوسع الأنواع امتداداً صوتياً ودلالياً، ويحدث ذلك عندما يكون التوتر الوجداني قد وصل الى غايته القصوى، ولم يعد سوى ترديد عبارات بعينها في ثنايا النص، بحيث تتهيّأ لها الفرصة لأن تكون لازمة له، فتكسب بذلك صبغة إيحائية تثير الانتباه الى طبيعة العبارة المكررة، ومقدار تأثيرها في المتلقي.

وتأتي قيمة العبارة المكررة إيقاعياً ودلالياً ((لأنها ذات طابع جمالي تأثري الى جانب طبيعتها المعنوية والعلاقية))(٢) ولا نبعد كثيراً إذا قلنا إن هذا النوع من التكرار يكثر في الموضوعات التي تقدم فكرة أساسية يمكن تقسيمها على أجزاء، يتناول كل منها معنى محدداً من تلك الفكرة أو الموضوع.

ورد تكرار العبارة في الخطاب القرآني لحكمة بالغة يراها الدارسون أنها جاءت لغرض التقرير وثبات الأمر وتأكيده، وذلك تطرية للسمع، وتسهيلاً لحفظه في الذهن أو الذاكرة، كما لا يُخفى أن للجانب الإيقاعي نصيب في التخفيف من الجهد المبذول استيعابه، وتأمل المعنى أو الحكمة التي تتضمنه. والتكرار قد يأتي في أول الآية، وقد يأتي في وسطها، وقد يأتي في آخرها، وقد تتكرر الآية جميعها، ولكل من ذلك أسلوبه الخاص، ودلالته المقصودة.

ومن تكرار العبارة الذي يأتي في أول الآية مثل (هو الله الذي لا إله إلاّ هو...) ويأتي بعدها أسماء الله وصفاته الأخرى. قال تعالى: ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ۖ

---

(١) الجاثية ٢٨.

(٢) محمد مفتاح: تحليل الخطاب الشعري ٢٦-٢٧.

﴿ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ۝٢٢ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلۡمُؤۡمِنُ ٱلۡمُهَيۡمِنُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡجَبَّارُ ٱلۡمُتَكَبِّرُ ﴾.(1) وتكرار هذه العبارة التي تسبق أسماء الله الحسنى قد حققت تردداً نغمياً ينسجم وتوحيد الله، وقد سبقت التكرار أسماء الله تعالى لغرض التعظيم، وتثبيت الوحدانية قبل هذه الأسماء في الآيتين، وكأن هذه الوحدانية هي رأس هذه الأسماء التي ترد بعد هذه العبارة، وتكرارها جاء بعد آيات تميّز بين المؤمن والكافر، ولو يعي الكافر أن جبلاً هائلاً حين يسمع كلام الله تعالى يتصدّع خشية منه، فكيف بهذا الآدمي الضعيف المتكبّر على الله.

وها هو تكرار العبارة يكن على رأس الخطاب الموجّه للناس كافّة، ولمن لا يؤمن بآيات الله تعالى والدلائل والأمثال التي تضرب لتحريك الفكر، وتأمل الحكمة وراء ذلك. كما في تكرار (قل أرأيتم إن جعل عليكم-) فيأتي هنا مرّة الليل ومرّة النهار. كقوله تعالى:

﴿ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلَّيۡلَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِضِيَآءٍۚ أَفَلَا تَسۡمَعُونَ ۝٧١ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِلَيۡلٖ تَسۡكُنُونَ فِيهِۖ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴾.(2)

وتكرار هذه العبارة في بداية الآيتين هو طلب للتنبيه والتأمل في تلك المعجزتين، وقد افترضتا افتراضاً ممكناً لو كان الوقت كله ليلاً فماذا سيكون الكون والخلق فيه، وكيف ستكون الحياة في ليل دائم، وجاءت الآية الثانية لتقابل الأولى، كيف سيكون الكون في نهار دائم لا ليل فيه للراحة والسكون. وقد سبق ذلك آيات تبيّن قدرة الله في تصرّفه بالكون وجميع خلقه. وقد جاءت العبارة المكررة بمثابة صوت منبه حتى يسمعه السامعون، أو قبس من ضوء حتى يراه الرائون. والتكرار على العموم حقق تردداً نغمياً يجذب السامع الى تأمل هذين الدليلين على قدرة الله تعالى، وحكمته في خلقه.

ومن تكرار العبارة الذي يأتي في أول الآية مثل (ومن آياته...) فقد تكررت ست مرّات، لتأتي بعدها آيات الله كما في قوله تعالى: ﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ... ۝٢٠ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ ... ۝٢١ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ... ۝٢٢ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ ... ۝٢٣ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا ... ۝٢٤ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ بِأَمۡرِهِۦ ... ﴾.(3)

---

(1) الحشر ٢٢-٢٣.
(2) القصص ٧١-٧٢.
(3) الروم ٢٠-٢٥.

إنّ تكرار العبارة التي تقع قبل ذكر الآيات إنما هو تأكيد لما جاء من آيات يرونها بأعينهم، ويسمعون بها، أو تقع تحت حواسهم جميعاً، هي آيات الله وحده، وضعها لحكمة يراها في خلقه، وقد حقق ذلك التكرار في بداية كلّ آية تريداً نغمياً يثير الانتباه الى عظمة كل آية منها.

وتكرار العبارة نراه في القصص القرآني لبيان العبرة، وتكرارها لتثبيتها في الأذهان، ومن ذلك وردت العبارة في أول كل آية تتضمن قصة أحد الأنبياء (وأذكر في الكتاب) الخطاب موجّه للنبي محمد (صلى الله عليه وسلم) والكتاب هو القرآن الكريم، وقد ورد فيه ذكر أحد الأنبياء ومن يتصل بهم. قال تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا﴾

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا﴾.

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا﴾.

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيّٗا﴾.(١)

إنّ هذه العبارات المكررة في طالع كل آية هي للتنبيه والتوجيه، وكأنما يريد الله تعالى أن يُتخذ من العبرة التي تخص كل نبي نبراساً يعينه على إبلاغ رسالته، تلك العبرة التي تخفف مما يجده من قومه من تكذيب وسخرية ومنع، وتعذيب لمن يؤمن. وقد حقق ذلك التكرار ترددا صوتياً يصل صداه الى المعاني والغايات التي يراد ذكرها، وإحضارها أمام ذاكرته.

وقد يأتي تكرار العبارة في وسط الآية والقصة ليكون مرتكزاً حاضراً لا تنساه الذاكرة قبل انتهاء القصة، كما في تكرار العبارة التي تكون على لسان أحد الأنبياء. مثل (قال يا قوم أرأيتم إن كنتُ على بيّنة من ربي) أي أخبروني يا قوم إن كنت على بصيرة أو برهان من ربي، وقد وردت هذه العبارة في سورة هود وتكررت ثلاث مرّات مع أسماء الأنبياء نوح وصالح وشعيب (عليهم السلام) وكأنما هي حجة ترمى في وجوه الكافرين. كقوله تعالى حكاية عن نوح (عليه السلام):

((قال يا قوم أرأيتم إن كنتُ على بيّنة من ربي وآتاني رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون)).

وقوله تعالى حكاية عن صالح (عليه السلام):

((قال يا قوم أرأيتم إن كنتُ على بيّنة من ربي وآتاني منه رحمة فمن ينصرني من الله إن عصيته فما تزيدونني غير تخسير)).

وقوله تعالى عن شعيب (عليه السلام):

---

(١) مريم ١٦، ٤١، ٥٤، ٥٦.

﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴾[١]

وقد يأتي تكرار العبارة في وسط كل جزء من أجزاء القصة الواحدة، وذلك ليكون رابطاً بين تلك الأجزاء، موصلاً لتفاصيلها، ولتكون متكاملة غير مقطعة، يستطيع السامع أو القارئ أن يفهم مغزاها بسهولة ويسر، كما في قصة العبد الصالح (الخضر) مع النبي موسى (عليه السلام) في سورة الكهف، وتكرار عبارة ﴿ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ﴾[٢]وتكرارها ثلاث مرّات يؤدي الغرض المطلوب وهو إيصال معنى أن العبد الصالح يملك علماً من الله، يعرف به بواطن الأمور التي تبدو مخالفة لظاهرها. وتكرار العبارة قد ربط بين أحداث قصة العبد الصالح وطلب موسى (عليه السلام) منه أن يعلمه، فخرق السفينة دون عيب، وقتل الغلام دون ذنب، وأقام الجدار دون أجر، هكذا يبدو ظاهر الأمر، ولكن باطنه لا يعلمه الاّ الله، وأخبر به العبد الصالح، وقام بتنفيذ ما أمره الله به، فأثار حفيظة النبي موسى، وجاءت العبارة المكررة لتنبيهه على ذلك، وقد أحدث تكرارها تنغيماً صوتياً يعمل على التأمل في الحكمة من امتلاك العبد الصالح علماً غيبياً من الله وليس من الأنبياء.

ونجد مثل هذا الربط بين أجزاء القصة في سورة الكهف نفسها مع ذي القرنين الذي طاف مشارق الأرض ومغاربها. وقد تكررت العبارة (اتبع سببا) ثلاث مرّات، كما في قوله تعالى:

((إنا مكنّا له في الأرض وآتيناه من كلّ شيء سببا. فاتبع سببا. حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب في عين حمئة..)).

((وأما من آمن وعمل صالحاً فله جزاء الحسنى وسنقول له من أمرنا يسرى. ثم أتبع سببا. حتى إذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع..)).

﴿ كَذَٰلِكَۖ وَقَدۡ أَحَطۡنَا بِمَا لَدَيۡهِ خُبۡرٗا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتۡبَعَ سَبَبًا ﴾.[٣]

ويأتي تكرار العبارة أيضاً في وسط القصة للرد على من يعجب من الأنبياء أو غيرهم من حدوث المعجزة الإلهية، لأن النظرة البشرية تجد في حدوثها نوعاً من المستحيل، ولكن المعجزة هي المعجزة، فالله تعالى قادر على حدوثها وإن خالفت قوانين الطبيعة، ومن ذلك تكرار العبارة في سورة مريم (قال ربك هو عليّ هيّن) مرتين. قال تعالى حكاية عن النبي زكريا (عليه السلام) حين طلب من الله تعالى أن يرزقه ذرية، وكانت زوجته عجوز عقيم، فحدثت المعجزة قال تعالى:

---

(١) هود ٢٨، ٦٣، ٨٨.
(٢) الكهف ٦٧، ٧٢، ٧٥.
(٣) الكهف ٨٥، ٨٩، ٩٢.

﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا ٨ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ وَقَدۡ خَلَقۡتُكَ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ تَكُ شَيۡـٔٗا ﴾[1]

وقوله تعالى حكاية عن مريم (عليها السلام): ﴿ قَالَتۡ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا ٢٠ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞۖ وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِ وَرَحۡمَةٗ مِّنَّاۚ وَكَانَ أَمۡرٗا مَّقۡضِيّٗا ﴾[2]

فتكرار العبارة هو رد حاسم لكل قول غير متثبت فيه، وهو ربط بين أجزائها في الوقت نفسه، وكذلك ترديده يحقق تنغيماً يتناسق وسياق الآية لإزالة الشك، والإيمان بقدرة الخالق.

وتكرار العبارة في موقف التهديد والوعيد يكاد يتفق الدارسون على ما في دلالته نوع من الخطابة، ولكن يشترط أن يكون فيها نوع من التأكيد، والتقرير أبلغ من التأكيد ((لأنه وقع في تكرار التأسيس))[3]ولهذا قال الزمخشري في قوله تعالى: ﴿ كَلَّا سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ٣ ثُمَّ كَلَّا سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴾[4] إنّ الثانية تأسيس لا تأكيد، لأنه جعل الثانية أبلغ في الإنشاء... وفي (ثم) تنبيه على أن الإنذار الثاني أبلغ من الأول.[5]

ومثل ذلك في سورة النبأ: ﴿كَلَّا سَيَعۡلَمُونَ ٤ ثُمَّ كَلَّا سَيَعۡلَمُونَ﴾[6]وفيه تهديد ووعيد للكافرين في يوم القيامة والحساب. ومن التعظيم والتهويل قوله تعالى:

﴿ فَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ ٨ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ ﴾[7]﴿ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ ﴾[8]

فتكرار أصحاب الميمنة أو أصحاب اليمين الذين يتسلمون كتبهم بيدهم اليمنى دلالة على الفوز والنجاح في الآخرة، والتكرار هنا للتعظيم والتنبيه الى الإقتداء بهم، وأما تكرار أصحاب المشأمة أو الشمال أي الذين يتسلمون كتبهم بيدهم اليسرى دلالة على الخسران،

---

(١) مريم ٨-٩.
(٢) مريم ٢٠-٢١.
(٣) الزركشي: البرهان في علوم القران ١١/٣.
(٤) التكاثر ٣-٤.
(٥) الزركشي: البرهان في علوم القران ١١/٣.
(٦) النبأ ٤-٥.
(٧) الواقعة ٨-٩.
(٨) الواقعة ٢٧.

والتكرار هنا للتهويل لما سينالهم من عذاب جهنم. وقد حقق التكرار تنغيماً ينسجم وحالة تسلم الكتب.

ومن التهويل أيضاً قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ۝١٧ ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ﴾.[1] ويوم الدين هو يوم الحساب، وتكراره يعني أهوال كثيرة فيه، وحساب دقيق لا يظلم فيه أحد، بل ينال كل إنسان جزاءه، وتكراره لتحقيق صدى صوتي يعبّر عن مقدار الفكر التصوّري لذلك اليوم العصيب.

وقوله تعالى في ذلك الكافر المكذّب لآيات الله، المتبختر في مشيته تعالياً على رسول الله(صلى الله عليه وسلم) فإن وليه ما يكره في الآخرة، أو يصحبه الهلاك والويل والثبور: ﴿ أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰ ۝٣٤ ثُمَّ أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰٓ ﴾[2]وتكرار العبارة قد حقق تردداً صوتياً يتناسب والوعيد بالويل والهلاك والثبور.

ويأتي تكرار العبارة في نهاية الآية، فيكون بمثابة لازمة لها، ويدعى هذا التكرار الذي يختص بخواتم المقاطع بتكرار (التقسيم) وهو ((تكرار كلمة أو عبارة في ختام كل مقطوعة... والغرض الأساس من هذا الصنف من التكرار إجمالاً أن يقوم بعمل النقطة في ختام المقطوعة))[3]وهو ينطبق على ما يطلق عليه في القرآن الكريم (اللازمات).

ومن تكرار العبارة ما يأتي لبيان دلائل قدرة الله تعالى في آية كاملة تتكرر لتكون لازمة ثابتة مثل (فبأيّ آلاء ربكما تكذبان) فقد تكررت إحدى وثلاثون مرّة في سورة الرحمن، والخطاب في هذه العبارة المكررة موجّه الى الثقلين الجن والإنس، وكأنها تعجيز لهم بعد إيراد نعم الله التي لا تعد ولا تحصى. وتكرار العبارة هنا جاء للتنبيه والتأكيد، وقد حقق تردداً موسيقياً شاملاً بحيث يتوزّع على جميع مفاصل السورة التي تحوّلت الى قطعة صوتية يتردد صداها فيملأ آفاق السماوات والأرض، وكأن كل جزء منها يردد العبارة المكررة نفسها، ثم يتوالى بعدها ذكر هذه النعم الوفيرة.

وفي سورة القمر وردت لازمتان خاتمتان في نهاية كل قصة، ومن هذه قصص الأنبياء وأقوامهم: نوح (عليه السلام)، وعاد، وثمود، ولوط (عليه السلام)، وفرعون. وهاتان اللازمتان ﴿ وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ۝١٧ كَذَّبَتۡ عَادٞ فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾[4]وهما خطاب من الله تعالى يبيّن فيه كيف يكون عذابه وانذاره لمن يكذب رسله، وقد ورد ذكر ذلك كله في القرآن الكريم، فهل من متذكر أو متعظ بما ورد فيه. وتكرار هذه اللازمات بمثابة تنبيه وتذكير بما آلت اليه الأقوام الكافرة، وقد حقق ترددها تنغيماً صوتياً يتصف بالحدّة والعلو، وكأنه يعبّر عن هلاك تلك الأقوام.

---

(١) الانفطار ١٧-١٨.
(٢) القيامة ٣٤-٣٥.
(٣) نازك الملائكة: قضايا الشعر المعاصر ٢٥٠.
(٤) القمر ١٦، ١٧، ٢١، ٢٢، ٣٠، ٣٢، ٣٩، ٤٠.

وفي سورة الشعراء وردت لازمتان خاتمتان مكررتان بعد نهاية كل قصة من القصص الموجودة في السورة، وهما ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾[1] وقد وردت هاتان الخاتمتان وهما بمثابة قفل لكل قصة من قصص الأنبياء موسى، وإبراهيم، ونوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب (عليهم السلام)، وعبّرت هاتان الخاتمتان عن نهاية كل قوم كذبوا رسولهم، وإن عذاب الله لهم في الدنيا آية أو علامة لغيرهم من الأمم، وكانوا أكثرهم لا يؤمنون بالله تعالى وبما نزل على رسلهم، ويبقى سبحانه وتعالى هو العزيز الرحيم، يعذب من يشاء من عباده، ويرحم من يشاء منهم. وقد حقق تكرار اللازمات ترددا منتظماً توزّع على جميع أنحاء السورة، وأخذ صداه يملأ الآفاق معبّراً عن نهاية مخزية لهذه الأقوام الكافرة.

وقد تأتي اللازمة لا لتعلن عن نهاية القصة بل لتربط بينها وبين قصة تليها، وكأنّ هذه اللازمة سلسلة ربط بين قصتين، ومن ذلك اللازمة ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴾[2] وتأتي مرّة أخرى (قروناً)، وقد ربطت بين قصتي نوح وعاد، وبين عاد ورسل آخرين جاؤوا من بعدهم. وتكرار هذه اللازمات يحقق وحدة قصصية متماسكة، ويحقق تردداً صوتياً ينسجم وأحداث تلك القصص، ومواقف الأنبياء من القوم الكافرين.

وتكرار العبارة الخاتمة (اللازمة) في كل موقف أو حادث تعد بمثابة إنذار أو تبشير بالويل والثبور للمكذبين بآيات الله، ودلائل خلقه يوم القيامة، من ذلك ما ورد في سورة المرسلات قوله ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾[3] فقد وردت تسع مرّات بعد نهاية كل موقف أو دليل أو برهان لآيات الله، ومنها مثلاً بيان خلق الإنسان من ماء مهين، وخلق الأرض وتمهيدها له، ووصف موقف الحساب، ووصف نعيم الجنة وعذاب النار، ثم تختتم بطلب الركوع والسجود لهذا الخالق الذي خلق الكون كله، وما ذكره جزء من ذلك، والويل لمن يكذب بهذه الآيات. وقد حققت العبارات المكررة تردداً صوتياً منتظماً يتوزّع على أنحاء السورة، فينتج عنها صدى يملأ الأسماع، ويثير الانتباه الى آيات الله البيّنات.

وأما تكرار الفقرات فإن الفقرة تتألف من عدّة عبارات، وهذه العبارات تتكرر مرّة واحدة، فتشكل بذلك فقرة موحّدة متلاحمة الأجزاء، وفي كل تكرار يحدث تغيير طفيف، وهو تغيير اسم النبي مثل النبي نوح، وإبراهيم، وموسى (عليهم السلام) وهكذا. والتغيير هنا لم يكن لكسر الرتابة وحسب بل جاء موافقاً للسياق من قصة لأخرى.

ومن تكرار الفقرة أو المقطع قوله تعالى في قصة نوح (عليه السلام): ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ

---

(١) الشعراء ٦٧، ٦٨، ١٠٣، ١٠٤، ١٢١، ١٢٢، ١٣٩، ١٤٠، ١٥٨، ١٥٩، ١٧٤، ١٧٥، ١٩٠، ١٩١.
(٢) المؤمنون ٣١، ٤٢.
(٣) المرسلات ١٥، ١٩، ٢٤، ٢٨، ٣٤، ٤٠، ٤٥، ٤٧، ٤٩.

﴿ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾.[(١)]

ويلـي مثـل هـذا التكـرار فـي قصــة عـاد، وثمـود، ولـوط، وأصـحاب الأيكـة قـوم شعيب[(٢)]ومن تكرار الفقرات أيضاً ما ورد في سورة الصافات قوله تعالى: ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾.[(٣)]

وقد تكرر المقطع مع النبي موسى وهارون، والنبي إلياس، أي بتبديل اسم النبي نوح ليحل محله أحد الأنبياء الآخرين. وقد حقق تكرار الفقرة أو المقطع تردداً نغمياً يتناسق وسياق الفقرة.

وإذا أردنا أن نتساءل في أي الموضوعات ينجح مثل هذا اللون من التكرار أي تكرار الفقرات أو المقاطع، فإن نازك الملائكة تجيب ((وأكثر ما تنجح هذه القصائد في الموضوعات التي تقدم فكرة أساسية يمكن تقسيمها الى فقرات، يتناول كل منها حلقة صغيرة جديدة من المعنى))[(٤)]

ثالثاً:نظام التغيّر:

إنّ العامل الذي يقوم عليه قانون التغيّر هو إحداث الصدمة للتوقع عند ظهور المفاجأة السارة أو المحزنة أو الجديدة ((فإنّ كان ما يُحدث هذه الصدمة هو ظهور شيء جديد يثير الاهتمام على نحو مؤكد، فإن الأثر الذي يتولد في نفوسنا هو أثر الشيء الطريف، أما إذا لم يوجد ما يعوّض هذه الصدمة فحينئذ نحس بما في الموضوع من قبح ونقص))[(٥)]

وتلعب المفاجأة دوراً لا يقل عن دور الإشباع في النظام، والفرق كبير بين تغيّر فجائي وآخر يبعث على الضيق والسأم، ويقضي على جمالية الإيقاع، ولكن يمكن القول ((إنّ التأثير الذي تولده المفاجأة يعتمد على ما إذا كان العنصر الجديد يمكن استيعابه في الاستجابة الكليّة عند وصول هذا العنصر الجديد، وبعبارة مألوفة نقول: إنّ التأثير يعتمد على ما إذا كان هناك ما يربط بين الأجزاء التي تؤلف الكل))[(٦)]

ولنتأمل نماذج التغيّر في الفاصلة، وأول ما يسترعي التنبّه عدم اقتصار فواصل القرآن الكريم على حروف الروي المتماثلة، أو ما يسمّى وحدة القافية بل تجاوزتها الى الحروف المتقاربة، ثم الى الفواصل المنفردة التي تحدث الصدمات السارة أو المُرضية. قال تعالى في خطابه عن يوم الدين كما ورد في سورة الانفطار: ﴿ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ﴿٩﴾ وَإِنَّ

---

(١) الشعراء ١٠٥-١٠٩.
(٢) الشعراء ١٢٣-١٢٧، ١٤١-١٤٥، ١٦٠-١٦٤، ١٧٦-١٨٠.
(٣) الصافات ٧٨-٨٠، ١١٩-١٢١، ١٢٩-١٣١.
(٤) نازك الملائكة: قضايا الشعر المعاصر ٢٥٠.
(٥) جورج سانتيانا: الاحساس بالجمال ١١٦.
(٦) أ. رتشاردز: مبادئ النقد الادبي ١٩٣.

عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ ﴿١٢﴾ إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلۡفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٖ ﴿١٤﴾
يَصۡلَوۡنَهَا يَوۡمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمۡ عَنۡهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوۡمَ لَا
تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ ﴾.[1]

الفواصل (بالدين. لحافظين. كاتبين. تفعلون) بالياء والنون والواو والنون تتماثل مع نفسها، وتتقارب مع فواصل الياء والميم (نعيم. جحيم) وقد انتظمت على السواء في حالة الوقف على السكون، أما الفاصلة الأخيرة (لله) فقد انفردت بحرف الروي (الهاء) كما انفردت بنوع المد الذي سبق الهاء، وإن لم تخرج عن نظام الوقف على السكون.

جاءت الفواصل على وتيرة واحدة، وما كدنا ننتهي منها حتى فوجئنا بصدمة الفاصلة الأخيرة (لله) تلك الفاصلة التي تجذب الانتباه الى إنفرادها، واختلافها، وانتهاء النص عندها، وكل ذلك يحدث لغاية بلاغية دينية تهدف الى رد الأمر كله لله تعالى وحده، وكأن النص بشكله ومضمونه يمهد لهذه الخاتمة، وإقرار هذا القرار بالوقف على السكون بعد ألف المد.

يثير قانون التغيّر مسائل عدّة، منها ما يتعلق بالشعر، فقد أثارت وحدة القافية معركة نقدية بين الالتزام بها أو التحرر منها، وإزاء ذلك نجد تنوّع الفواصل في القرآن الكريم لم تخدش شيئاً من جماليته وهو المثل الأعلى في جمال أسلوبه، بل زاده حسنا وجمالاً، ولعل ذلك يسوّغ نظرية تلوين قوافي الشعر أيضاً. ومن هذه المسائل التي تثير الانتباه إعادة النظر في أسباب ظهور الموشحات الأندلسية، وقيل في نشأتها آراء يعود بعضها الى تطوّر الشعر العربي، وبعضها يعود الى تأثير البيئة الأندلسية، فهل كانت هذه الأسباب وحدها ساعدت على ظهورها أم كان لنظام الفواصل وتغيّرها متماثلة أو متقاربة أو منفردة أثر بارز في تلك النشأة؟ ولعل ما يلفت الانتباه الى أن الفاصلة المنفردة تشبه الى حد ما قافية الخرجة في الموشحات، مع فارق كبير أن تلك الخرجة يجب أن تكون عامية أو سوقية، بينما الفاصلة المنفردة بليغة بحيث تحدث الصدمة لاختلافها عن الفواصل الأخرى.

ومما يلاحظ في قانون التغيّر أن أغلب سور القرآن ولاسيما الطوال منها أخذت بنموذج التغيّر في الفواصل، ولم ترد الفواصل المنفردة في أواخر السور فحسب، بل وردت في بداية السياق أو في ثناياه، كما في قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴾.[2]

---

(١) الانفطار ٩-١٩.
(٢) عبس ٣٣-٣٦.

فالفاصلة المنفردة (فإذا جاءت الصاخة) وردت في بداية السياق. وقوله تعالى: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾.[1]

فالفاصلة المنفردة (ربّ المشرقين...) وردت في وسط السياق.

والتغيّر في روي الفواصل قسمان، قسم يتغيّر مقطعاً مقطعاً، وقسم يتغيّر من دون مقاطع، وإذا تأملنا القسم الأول الذي يتغيّر مقطعا مقطعا وجدناه ألواناً وأنماطاً، والمراد بالمقطع فقرة موسيقية مؤلفة من عدّة آيات، وقد يكون التغيّر محدوداً في مقطعين أو ثلاثة أو أربعة، كما يكون في مقاطع كثيرة قد تصل الى عشرة مقاطع أو أكثر، ومعظم سور هذا القسم مكية، وهناك سورة واحدة ذات ثلاثة مقاطع وهي سورة (الكافرون) يمكن تأملها على الشكل الآتي:

قل يا أيها الكافرون. لا أعبد ما تعبدون.	(١)
ولا أنتم عابدون ما أعبد.	(٢)
ولا أنا عابد ما عبدتم.	(٣)
ولا أنتم عابدون ما أعبد.	(٢)
لكم دينكم ولي دين.	(١)

فالمقطع الأول (الكافرون. تعبدون. دين) وفواصله متماثلة، والمقطع الثاني (ما أعبد، ما أعبد) مكررة، والمقطع الثالث (ما عبدتم) وفاصلته منفردة. وهكذا نجد التغيّر يحدث في كل مقطع بعد آخر.

والقسم الثاني للتغيّر في الفاصلة اختلاف طول القرينة من فاصلة الى فاصلة، أو من مقطع فواصل الى مقطع آخر، ومما يتضمن النوعين في سورة الانفطار قوله تعالى:

القرينة	**عدد الألفاظ**
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴾	٧
﴿ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴾	٤
﴿ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾	٦
﴿ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ﴾	٤
﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴾	٣
﴿ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴾	٢

(١) الرحمن ١٦-١٨.

﴿ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ ٣

﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴾ ٤

﴿ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴾ ٤

﴿ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴾ ٣

﴿ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴾ ٤

﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴾ ٥

﴿ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴾ ٦

﴿ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴾.[(١)] ٩

إنّ تحليل الطول في قرائن هذا النص يثير عدداً من القضايا الجمالية، فقد ذهب البلاغيون القائلون بوجود السجع في القرآن الى أن تكون القرينة الثانية أطول من الأولى، فإن كان الطول يسيراً لم يذم، وأمّا إذا كان الطول كبيراً بحيث يخرج عن حد الاعتدال فإنه لديهم غير مرغوب، وقد قدّروا الطول بمقدار الثلث، على أن تقع الطويلة بعد فقرة واحدة، أما إذا وقعت بعد فقرتين أو أكثر فلا يقبح، لأن الأوّليتين تعدّان بمثابة فقرة واحدة.

ولو تأمّلنا القرائن أعلاه فكل قرينة بالنسبة لما سبقتها أما أن تكون أقل منها أو أكبر بقليل، ويستثنى من ذلك القرينة الأخيرة المنفردة التي حدث فيها التغيّر، فاختلفت فاصلتها ورويّها وطولها أيضاً. واشتراطهم أن يكون طول القرينة الثانية على الأولى بمقدار الثلث وإن كان مستمداً من فواصل القرآن غير صحيح من وجهين، الأول: ورود عدد غير قليل من القرائن الثواني مخالفاً شرطهم، كقوله تعالى: ﴿ طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴾[(٢)]وقوله تعالى: ﴿ طسٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴾[(٣)]وغيرها. والوجه الثاني: في هذا الشرط تضييق لمجال (التغيّر) الذي هو أحد قوانين علم الجمال، حيث تتوافر له الدواعي، وكما ورد في سورة (الانفطار) المارة الذكر.

وأما القائلون بضرورة تساوي الأشطر مستندين الى قانون التساوي من قوانين الإيقاع لا يحق لهم أن يرفضوا قانون التغيّر الذي يستدعيه السياق، وتسوّغه الصدمة السارة، فالتساوي له- كالنظام- جمالية التوحيد وإشباع التوقع، على أن لا يتحوّل الى

---

(١) الانفطار ٦-١٩.
(٢) طه ١-٢.
(٣) الشعراء ١-٢.

الرتابة، والتغيّر له جمالية الدهشة والتلوين، وفي القرآن الكريم نجد مثل هذه الجمالية التي تحافظ على تساوي القرائن تقريباً، وعلى إحداث التغيّر فيها.

وقد رفض كثير من البلاغيين أن تكون القرينة الثانية أقصر من الأولى، وفي ذلك تضييق لقانون التغيّر الجمالي، مما حمّل بعض البلاغيين كالقلقشندي والعسكري على الاعتراض محتجين بالقرآن الكريم والحديث الشريف، وتخطئة قولهم أنه حين يفقد التساوي في القرائن ينبغي أن تكون كل واحدة أطول مما قبلها، ولابد من الزيادة في آخر القرائن، وهذا مردود أيضاً.

ولقانون التغيّر دلالات مختلفة نذكر منها على سبيل التمثيل لا الحصر: الدلالات الجمالية والفكرية والفنية والعقدية، وهذه الدلالات من حيث التقسيم قد تتقارب مع بعضها، ومن هذه الدلالات الدلالة الجمالية التي تتوخى الصدمة السارة، وقد مرّ ذكرها. أما الدلالة الفكرية وتعني التزام الفواصل المتماثلة الذي هو بقدر ما قيد للمنشئ يوحي بالقيد للقارئ، والله تعالى الذي خلق الوجود من العدم قادر على أن ينزّل القرآن كله متماثل الفواصل، ولكنه لم يشأ ذلك لأسرار يسّر لنا معرفة بعضها، فلو انطلقنا نتأمل مقدار التشابه والاختلاف في مخلوقاته وفي آياته وكلها تدل على عظمته، لوجدنا ما نعجز عن حصره، فمن ذلك المتشابه وغير المتشابه قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾[(1)]وقوله تعالى في المحكم والمتشابه:

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾.[(2)] إنه درس في حرية المُنشئ ليس من شأننا التبسّط فيه، تلك الحرية التي لا تحدها إلاّ حدود الفوضى والزيغ، وكل منها عدو للجمال البديع.

وأما الدلالة الفنية الموضعية فلكل تغيّر فاصلة فاصلة أو مقطعاً مقطعاً دلالته، ويرى سيد قطب: أنّ تنوّع الإيقاع ((في السور يختلف بالقياس الى الفواصل (القرائن) بين الطول والتوسّط والقصر، وهو أشبه باختلاف بحور الشعر في الديوان الواحد، وقصارى ما يقال فيه إنّ الفواصل (القرائن) تقصر غالباً في السور القصار، وأنها تتوسّط أو تطول في السور المتوسّطة والطوال. وبالقياس الى حرف القافية (الفاصلة) يشتد التماثل والتشابه في السور القصيرة، ويقل غالباً في السور الطويلة))[(3)]

---

(١) الانعام ١٤١.

(٢) آل عمران ٧.

(٣) سيد قطب: التصوير الفني في القران ٩٠-٩١.

وقد لاحظ سيد قطب في بعض المواضع أن تغيّر نظام الفاصلة والقرينة يعني شيئاً خاصاً، من ذلك ما جاء في سورة (مريم)، فالسورة تبدأ بقصة زكريا ويحيى (عليهما السلام) وتليها قصة مريم وعيسى (عليهما السلام) وتسير الفاصلة والقرينة هكذا:

((ذكر رحمة ربّكَ عبده زكريا.

إذ نادى ربّه نداء خفيا.

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴾.[1]

وتستمر الفواصل والقرائن الى تنتهي القصتان وهما على روي واحد، وفجأة يتغيّر النسق في آخر فقرة من قصة عيسى (عليه السلام) على النحو الآتي:

﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾.[2]

وهكذا يتغيّر نظام القرينة فتطول، ويتغيّر نظام الفاصلة فتصبح بحرف النون أو بحرف الميم وقبلها مد طويل، وكأنما هو في هذه الآيات الأخيرة يُصدر حكماً بعد نهاية القصة مستمداً منها، ولهجة الحكم تقتضي أسلوباً موسيقياً غير أسلوب العرض القصصي. وتقتضي إيقاعاً قوياً رصيناً بدل إيقاع القصة الرخي المسترسل، وكأنما لهذا السبب كان التغيّر.[3]

ويمكن الاستئناس بهذا الاستنباط بملاحظة أخرى ذلك أنه بمجرد الانتباه من اصدار هذا الحكم والقاء ذلك القرار، عاد السياق الى النظام الأول في القرينة والفاصلة، لأنه عاد الى قصص جديد على النحو الآتي:

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا ﴾.[4]

وهذه سورة (النبأ) بدأت بفاصلة النون والميم، ولما انتقل السياق من تقرير التساؤل والاختلاف في يوم القيامة، وبدأ نسقاً معنوياً جديداً نسق الجدل بدل التقرير، تغيّر النظام هكذا:

﴿ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴿٦﴾ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴾.[5]

---

(١) مريم ١-٣.
(٢) مريم ٣٠-٣٤.
(٣) ينظر: سيد قطب: التصوير الفني في القران ٩١-٩٢.
(٤) مريم ٤٠-٤٢.
(٥) النبأ ٤-٧.

وفي سورة النازعات اسلوبان موسيقيان، وإيقاعان ينسجمان مع جوّين فيها تمام الانسجام نتيجة تنوّ ع القرائن فضلاً عن الفواصل. الأول: يظهر في هذه المقطوعة السريعة الحركة، القصيرة الموجة، القوية المبنى، تنسجم مع جو مكهرب، سريع النبض، شديد الارتجاف على النحو الآتي:

﴿ وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا ١ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا ٢ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا ٣ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا ٤ فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا ٥ يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ٦ تَتۡبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ﴾.[1]

والثاني: يظهر في هذه المقطوعة الوانية الحركة، الرخية الموجة، المتوسطة الطول، تنسجم مع الجو القصصي الذي يلي مباشرة في السورة حديث (الكرّة الخاسرة) و (الزجرة الواحدة) وحديث (الساهرة) على النحو الآتي:

﴿ هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ١٥ إِذۡ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوًى ١٦ ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ١٧ فَقُلۡ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ١٨ وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخۡشَىٰ ﴾.[2]

أما الدلالة العقدية فإنها تعني عدم خضوع القرآن الكريم الى ما يخضع اليه كلام البشر، كضرورات الشعر من زيادة أو نقص أو إشباع أو تقديم أو تأخير مما يخرج عن مألوف كلام العرب الفصحاء، ذلك أن تنويع الفواصل أو القرائن لم يكن ضرباً من تحاشي الضرورة التي يحوج اليها التزام روي بعينه كما هو في الشعر والسجع، أو التزام نسق القرائن محدد، بل رأينا (التغيّر) قانوناً جمالياً بقدر ما نرى (الالتزام) في قانوني (التلازم) و(التكرار) ولاسيما النوع الذي أطلق عليه (لزوم ما لا يلزم) وهذا بالتأكيد لون من ألوان الإعجاز.

رابعاً:نظام التساوي:

وهو القانون الرابع من قوانين الإيقاع، وهو يشبه قانون النظام الذي عرضنا له من حيث توفير وحدة النص، أو إثارة التوقع فالإشباع، وهو على أشكال. قال تعالى: ﴿ وَٱلۡعَٰدِيَٰتِ ضَبۡحٗا ١ فَٱلۡمُورِيَٰتِ قَدۡحٗا ٢ فَٱلۡمُغِيرَٰتِ صُبۡحٗا ٣ فَأَثَرۡنَ بِهِۦ نَقۡعٗا ٤ فَوَسَطۡنَ بِهِۦ جَمۡعًا ٥ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٞ ٦ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٞ ٧ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ لَشَدِيدٌ ٨ ۞ أَفَلَا يَعۡلَمُ إِذَا بُعۡثِرَ مَا فِي ٱلۡقُبُورِ ٩ وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ ١٠ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّخَبِيرُۢ ﴾.[3]

---

(١) النازعات ١-٧.
(٢) النازعات ١٥-١٩.
(٣) العاديات ١-١١.

في هذا النص عدد من أشكال التساوي، أولها: تساوي عدد كلمات المقاطع الأول والثاني والثالث في كل شطر أو قرينة (٢، ٣، ٤) وثانيها: تساوي الفواصل في كل مقطع. وهناك شكل آخر وهو التساوي أو التشابه في بدايات القرائن، كما جاء في سورة (التكوير) قوله تعالى: ﴿ إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ سُيِّرَتۡ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلۡعِشَارُ عُطِّلَتۡ ﴿٤﴾ وَإِذَا ٱلۡوُحُوشُ حُشِرَتۡ ﴿٥﴾ وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ سُجِّرَتۡ ﴿٦﴾ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتۡ ﴿٧﴾ وَإِذَا ٱلۡمَوۡءُۥدَةُ سُئِلَتۡ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنۢبٖ قُتِلَتۡ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتۡ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتۡ ﴿١١﴾ وَإِذَا ٱلۡجَحِيمُ سُعِّرَتۡ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ٱلۡجَنَّةُ أُزۡلِفَتۡ ﴿١٣﴾ عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّآ أَحۡضَرَتۡ ﴾.[١]

يظهر التساوي جلياً في جميع القرائن، في عدد كلمات القرينة الواحدة وطولها، ونرى التشابه في بنية التراكيب، فضلاً عن قانون (النظام) أو وحدة الروي في الفواصل جميعاً، ونجد كلّ قرينة من القرائن مبدوءة بأداة الشرط (إذا)، وكذلك نفاجأ بقانون التغيّر في قرينتين كانتا خاتمتي المقطعين، وهما (بأي ذنب قتلت) تغيّر في بداية القرينة من الشرط الى الاستفهام و (علمت نفس ما أحضرت) تغيّر في بدايتها بالفعل الماضي (علمَ) وتغيّر في بنيتها قياساً لما قبلها من القرائن، فتلتقي في هذا النص عدد من قوانين الإيقاع كالتساوي والنظام والتغيّر على صعيد واحد، لتتضافر على إطلاق جمال الفواصل.

ويبدو لنا قانون التساوي من خلال القرائن مثل غيره من القوانين، والقرائن فرع من بحث الفاصلة، ودلالة التساوي في سورة العاديات المارة الذكر في عدد الفواصل مقطعاً مقطعاً، وفي طول القرائن، تكشف عن ذلك الجو الذي تصوّره موسيقا التساوي وهو جو المُغيرات في المقطعين الأول والثاني، وجو الهدوء النفسي في المقطع الثالث، وجو القيامة والحساب في المقطع الأخير. إنّ ذلك ((يشعر المرتل لهذه الآيات أن لها طابعاً موسيقياً واضحاً، وإذا قرأها قراءة فنية- وذلك هو الترتيل- لاحظ انقسامها الى عدّة نغمات متناسبة مع أقسام النص من الوجهة الفكرية والنحوية، فالقسم الأول يتألف من خمس فقرات موسيقية ذات نغمة واحدة يقل فيها الممدود، وكل فقرة منها تتألف من كلمتين، أولاهما تحتوي على بعض المدود الطويلة، وثانيهما وهي فاصلة الآية، كلمة ثلاثية لا مد إلاّ في آخرها (ضبحاً. قدحاً. صبحاً. نقعاً. جمعاً) وهذه الفقرات تمثّل بقلة مدودها، وتوالي حروفها المتحركة حركة الخيل في عدوها، ووقع حوافرها، ثم ارتفاعها..)).[٢]

وفي القسم الثاني لوحظ طول النفَس وزيادة المدود، واختلاف الفاصلة مما يلائم التأمل الطويل، وهكذا في الأقسام الباقية نجد تلاؤماً مع جو كل منها[٣]ويقاس على ذلك الجو الذي أطلقته مقاطع سورة التكوير (إذا الشمس كوّرت...) تلك التي تجاوز فيها التساوي عدد الكلمات، وطول القرائن، ووحدة الروي الى تساوي بدايات القرائن، والتشابه في بنية

(١) التكوير ١-١٤.
(٢) محمد المبارك: دراسة ادبية لنصوص من القران ١٨.
(٣) ينظر: المرجع نفسه ١٨-١٩.

التركيب، الاّ في خاتمتي المقطعين. وهكذا استحضرت الى المخيلة جو القيامة بجزئياته: الشمس والنجوم والجبال والوحوش والبشر، واستحضرت لجو الحساب الصحف والنفوس والجنة والنار.

خامساً: نظام التوازي:

وهو القانون الخامس من قوانين الإيقاع- كقانون التساوي- شبيه بقانون النظام، ويمكن أن نجده في القرائن ذوات الصيغة التركيبية الواحدة، كما مرّ في سورتي العاديات والتكوير، ومنه قوله تعالى في سورة الشمس: ﴿ وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ۝٤ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦ وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ۝٨ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾.(١)

إذا تأملنا قرائن النص لرصد ظاهرة التوازي سنجد ابتداء تلك القرائن في حالة توازٍ داخلي بين كل قرينتين على حدة مثل (الشمس والقمر، والنهار والليل، والسماء والأرض، وفجورها وتقواها، وأفلح وزكاها، وخاب ودساها) وهو تواز في التضاد.

أما القرينتان الأولى والثامنة من هذا النص (والشمس وضحاها. فألهمها فجورها وتقواها) تنسجمان مع السياق بقانون التغيّر، وأما ما بعدهما مقطعان يتغايران في أمور، ويتشابهان في أمور أخرى، وما يهمنا فيهما توازي القرائن في كل مقطع على حدة. فالمقطع الأول: (والقمر إذا تلاها... ونفس وما سوّاها) فقد توازت قرائنه في الابتداء بالقسم والانتهاء بالفعل مع ضميره وهو مكوّن من ست قرائن، وينقسم الى وحدتين، في كل وحدة ثلاث قرائن، الأولى: تفتتح بجملة القسم، فجملة الشرط (إذا)، والثانية: تبدأ بجملة القسم، وتليها جملة معطوفة عليها.

وإذا تأملنا جزئيات المقطع الأول وجدنا التوازي الدقيق في كل وحدة، فالوحدة الأولى (والقمر إذا تلاها...) تتوازى قرائنها كما يأتي: أداة القسم، فالمقسم به، فأداة الشرط، ففعل الشرط، فالضمير (ها). بينما تتوازى جزئيات الوحدة الثانية (والسماء وما بناها..) كما يأتي: أداة القسم، فالمقسم به، فأداة العطف، فالاسم الموصول (ما)، فالفعل، فضمير الفعل (ها).

أما المقطع الثاني (قد أفلح من زكّاها...) فتتوازى جزئياته على الشكل الآتي: حرف التحقيق (قد)، فالفعل الماضي، فالأسم الموصول (من)، فالفعل الماضي، فضميره (ها)، وهكذا فإن هذا التنوّع من التوازي يشيع في السور القصار.

وفي السور الطوال نجد أنواع أخرى من التوازي، منها توازي جزئيات قليلة في بدايات القرائن مثل قوله تعالى في سورة (الجن): ﴿ وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةٗ وَلَا وَلَدٗا ۝٣

---

(١) الشمس ١-١٠.

وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾.[1]

فهذه القرائن التي تستمر على النسق نفسه تبدأ بحرف (الواو) فحرف التوكيد (أنّ)، والضمير الهاء، وخبره المؤلف من جملة فعلية.

وقد يقع التوازي في وسط القرائن كما وقع في البدايات، ويقع حتى في آيات الأحكام التي يكون احتفالها بالناحية الجمالية أقل من غيرها. ومن ذلك سورة النساء التي يمكن ملاحظة (إن) في أحد آيات الأحكام فيها:

﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَـٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ۖ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ ۚ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ ﴾.[2]

ومن التوازي ما يرد في أواخر القرائن على شكل تعقيب أو تذييل كقوله تعالى في سورة البقرة: ﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَـٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ...أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَـٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴾.[3]

وتثير دلالة التوازي الانتباه الى ما في القرآن الكريم من موسيقى رفيعة منذ القدم، وراح الدارسون يستقصونها في الحروف والكلمات وصيغ التركيب والفواصل، ثم اختلفوا في التعليل والتصنيف، والذي يهمنا قرائن الفواصل المتقاربة في الوزن التي تغني عن التفاعيل، يقودنا ذلك الى التصريح بأنّ موسيقى القرآن تصدر عن أمور عدّة، منها تقارب القرائن في الوزن، وهذه القرائن أشبه بالتفاعيل في الشعر، ومن الممكن أن نستنبط منها أوزان موسيقية للتعبير القرآني.

وحسبنا أن نشير الى أن مقاطع من سورة (الشمس) تتضافر فيها عناصر التوازي لإطلاق جو من الموسيقى التصويرية لمشاهد الكون على نهج الموسيقى، وتوازي جزئيات في بدايات القرائن كما في سورة (الجن) فيدل على اطّراد الخبر المحكي على لسان الجن بعد سماعهم قرآناً عجباً يهدي الى الرشد، اطّراداً في نسق التعبير، يوحي باطّراد نسق التصوير. كما يمكن أن يكون لأنواع من التوازي، كتوازي عبارات متباعدة، دلالة الربط عن طريق الإيقاع الموسيقي، من قبيل الرجع للصوت المردد أو المعنى المرجّع أو الاثنين معاً.

أما المثال الأخير من أمثلة التوازي وهو التوازي في التعقيب فإنه مثال خصب من حيث الدلالات، وذلك لأنه:

أولا: يكاد يكون لكل تعقيب دلالته الخاصة، فمثلاً التعقيب في قوله تعالى ﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ

---

(١) الجن ٣-٦.

(٢) النساء ١٠.

(٣) البقرة ١٢-١٣.

﴿ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ [١] يفيد السخرية، بينما التعقيب في قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴾ [٢]يفيد في الترغيب بثواب الآخرة، وهكذا.

ثانياً: التوازي بين تعقيب وآخر متقاربين أو متباعدين يفيد التوكيد، كما يفيد التنبيه أو التصوير بالإيقاع.

ثالثاً: نسق التوازي قرينة فتعقيباً، قرينة فتعقيباً يوحي بإيقاع ذي شطرين من خلال المعنى الأول والتعقيب عليه، وهو في الظاهر يذكرنا بشطري البيت في الشعر، ولكنه في الحقيقة أبعد غوراً، لأنه تقسيم نابع من المعنى وتابع له، وليس المعنى فيه تابعاً للتقسيم كما في الشعر العربي أو في كثير منه، ولقد أفاد الشعراء من هذا اللون فضمّنوه في أشعارهم[٣]وتنبّه له البلاغيون فوضعوا له اصطلاحات منها (التذييل): ((وهو أن يذيّل الناظم أو الناثر كلاماً بعد تمامه وحسن السكوت عليه بجملة تحقق ما قبلها من الكلام وتزيده توكيداً وتجري مجرى المثل بزيادة التحقيق))[٤]وفرّقوا بينه وبين التكميل فقالوا: ((التكميل يرد على معنى يحتاج الى الكمال، والتذييل لم يُفد غير تحقيق الكلام الأول وتوكيده))[٥]

سادساً:نظام التوازن (الموازنة):

يراعي هذا القانون من قوانين الإيقاع فاصلتي القرينتين الوزن مع اختلاف الحرف الأخير منهما كقوله تعالى: ﴿ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ۝١٥ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴾ [٦]وأدنى شروط التوازن كون الفواصل على وزن واحد، فإن توافر الوزن في كلمات القرائن جميعاً أو في أكثرها، وتقابلت الكلمة مع ما يعادلها وزناً كان ذلك أجمل.[٧]مثل قوله تعالى: ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ۝١١٧ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾.[٨]

---

(١) البقرة ١٢.
(٢) آل عمران ١٩٥.
(٣) التعضيب محصور بين قوسين: قال النابغة الذبياني:
ولست بمستبق أخاً لا تلمّه ... على شعث (ايّ الرجال المهذّبُ)
وقال ابو فراس الحمداني: سيذكرني قومي إذا جدّ جدهم ... (وفي الليلة الظلماء يفتقد البدرُ)
وقال المتنبي: من يهن يسهل الهوان عليه ... (مالجرح بميّتٍ إيلامُ)
(٤) ابن حجه الحموي: خزانة الادب وغاية الارب ١١٠.
(٥) المصدر نفسه ١١٠.
(٦) الغاشية ١٥-١٦.
(٧) د. عز الدين اسماعيل: الأسس الجمالية في النقد العربي ٢٢٣.
(٨) الصافات ١١٧-١١٨.

ويطلق على هذا اللون في الشعر (الموازنة). والموازنة أو التوازن في القرآن الكريم كثير حتى ليرى ابن الأثير: (((أن معظم آياته جاء على منهجها، وأنه لا تخلو منها سورة من السور))[1]. وتسمى الموازنة التي اتفقت كلمات قرينتها أو أكثرها في الوزن لا التقفية بالمماثلة[2] وهي عند البلاغيين أحسن من الموازنة العادية، وأعلى درجة منها.

ويرى الأستاذ احمد الطيّب في كتابه (المرشد الى فهم أشعار العرب وصناعتها)[3] في دراسة الموازنة أو التوازن أنها تنقسم الى قسمين:

الأول: الموازنة الكليّة: وهي ما ينظر فيها الى أقسام الكلام من حيث أن كلّ واحد منها هو(كل) وسبيلها مؤاخاة الأقسام، ومكافأتها أن توجد بينها أحد هذه العناصر، مثل: التوافق، كقوله تعالى: ﴿ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴾[4] والتضاد مثل قوله تعالى: ﴿ فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا ﴾[5] والتكامل في قوله تعالى: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴾[6] والإجمال والتفصيل أو ما يسمى (التقسيم)، كقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾[7]

وهناك نوع آخر يمكن أن ندرجه هنا وهو ما يسمّيه البلاغيون (الجمع مع التفريق) كما في قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً ﴾[8] والتدرّج كقوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ ﴾.[9].

والثاني: الموازنة الجزئية: وهي التي تنظر في تفاصيل الأقسام نفسها، فتكافئ بينها، وتؤاخي في واحد من الأنواع الآتية: التكرار، وستأتي دراسته، والتجنيس الازدواجي، وهو أن ينظر الى ناحية الزمان من بنية الكلمات، فيقارب بينها في الوزن، كما في الازدواج الذي يعتمد المقاربة بين الفقرات والجمل في الوزن دون الروي، وهو على أشكال، ومن

---

(١) ابن الاثير: المثل السائد ١١١-١١٢.
(٢) ينظر: المصدر نفسه ٤٤/٢.
(٣) ينظر: د. عبد الله الطيب المجذوب: المرشد الى فهم اشعار العرب وصناعتها ٣٠٨/٢.
(٤) الفرقان ٣٩.
(٥) التوبة ٨٣.
(٦) عبس ١-٢.
(٧) فاطر ٣٢.
(٨) الاسراء ١٢.
(٩) النور ٣٥.

الازدواج المحض قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴾.[1]

بين أضحك وأبكى، وأظلم وأطغى، وأمات وأحيا، توازن صرفي، فعلاً أو اسم تفضيل، وبين أغنى وأقنى توازن من حيث الصرف والعروض ،يمكن أن نسميه توازناً كاملاً.

ومن ذلك قوله في الازدواج السجعي: ﴿ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾[2] فبين (اذكروني) و(اشكروا لي) توازن عروضي (فاعلاتن) وتكرار ثلاث حروف هي: الكاف والراء والواو على الأقل. ومنه الازدواج المقسّم قوله تعالى: ﴿ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴾[3] فالقسيم (ربّ المشرقين) يزدوج ويتوازن مع القسيم (ربّ المغربين) في الوزنين الوزنين الصرفي والعروضي. ومنه الازدواج المطابق: وهو ما روعي فيه موازنة الأضداد نحو قوله تعالى: ﴿ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾.[4] فالبر يوازن البحر عروضياً، ويطابقه في المعنى، فضلاً عن تجانسهما في حرفي الباء والراء. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ﴾.[5]وقد بلغ التوازن في هذه الآية حد التناظر، وهو من أنواع التوازن لتقابل الأجزاء المتساوية في الحجم والشكل.[6]

والإيقاع الموسيقي الذي وافق العروض أم لم يوافقه حاصل من التوازن، ودلالته هي الجمع بين قانوني التساوي والتوازي، مضافاً اليهما الوزن في جزء أو أكثر، ونعني بالوزن هنا تشابه الألفاظ أو العبارات أو القرائن فيما بينها من حيث وزنها العروضي هي لا من حيث الوزن العروضي المعروف في الشعر من تفعيلات وبحور.

ويرى الدكتور الحسناوي: ((هاهنا مسألة لا تقل خطورة عن المسائل التي أثارها حول موسيقى الشعر العربي، وقد لخّص أبعادها في إمكانية ابتكار أوزان جديدة لا على

---

(١) النجم ٤٢-٥٢.
(٢) البقرة ١٥٢.
(٣) الرحمن ١٧.
(٤) النمل ٦٣.
(٥) الرعد ١٧.
(٦) روز غريب: النقد الجمالي واثره في النقد العربي ٢٦.

الهوى، بل على ما تقدّم موسيقى القرآن الكريم مثلاً من المعطيات، وشدّة تعلّق الإيقاع بالمعاني مما يعدد الأوزان وينوّعها كثيراً من تساوٍ وتوازٍ وتوازنٍ بقدر تنوّع المعاني... يضاف إلى ذلك من قصور التفاعيل في العروض عن رصد خفايا الموسيقى)).[١]

سابعاً:نظام التلازم:

ونجد هذا القانون السابع من قوانين الإيقاع في النوع الأول من أنواع التطريز الثلاثة التي استنبطها البلاغيون المتأخرون[٢]ويمكن أن نجده في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْعَـٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾.[٣]

العلم الأول (ومن آياته...) يطّرد في بدايات القرائن كاطّراد العلم الثاني (إنّ في ذلك لآيات...) في أواخرها. وفي ذلك توحيد للإيقاع الموسيقي في الوحدات (الآيات) وتلوينها بما يشبه ترجيع الإيقاع والصدى في البداية والنهاية، وإذا تأملنا في أجزاء القرائن لوجدنا ألواناً أخرى من التلازم الخفي الذي لا يقل جمالاً عن الظاهر المطّرد في الوحدات. ومن ذلك التلازم في وحدات الطباق:

(من أنفسكم أزواجا) و(خلق السماوات والأرض) و(منامكم بالليل والنهار) و(يُريكم البرق خوفاً وطمعاً). وهذا يحدث في تتابع القرائن والفواصل آية آية. وفي ترتيل الآية الواحدة تظهر لنا جلياً وحدات من الطباق أشدّ خفاء وألطف أثراً. ففي الآية الأولى: أنفسكم أزواجاً، ومودّة ورحمة. وفي الثانية: السماوات والأرض، وألسنتكم وألوانكم. وفي الثالثة: بالليل والنهار، ومنامكم وابتغاؤكم. وفي الرابعة: خوفاً وطمعاً، والسماء والأرض، فيحيي الأرض بعد موتها.

ويبرز وضوح التدرّج في التزام الوحدات، وفي شدّة الطباق من الضعف الى القوة، ومن القلّة الى الكثرة، أو التعدد في الأمثلة، أو في كلمات الفاصلة، مثل: (يتفكرون، للعالمين) و(يسمعون، يعقلون). فالتفكّر غير العلم أو بعضه، والسمع غير العقل إن لم يكن

---

(١) د. محمد الحسناوي: الفاصلة في القران ٢٥٣.

(٢) التطريز هو ان تاتي قبل القافية بسجعات متناسبة، فيبقى في الابيات اواخر الكلام كالطراز في الثوب. والنوع الثاني من التطريز (ماله علم من اوله) والنوع الثالث (ماله علم من اخره) .

(٣) الروم ٢١-٢٤.

مطابقه. فضلاً عن التزام المد بنوعيه المفخّم- الواو- أو المرقق- الياء- قبل النون في فواصل هذا المقطع.

وللتلازم دلالات عامة ودلالات خاصة، وهذه الأخيرة تتنوّع بحسب تنوّع النماذج التي لا حدّ لها. أما دلالة التلازم العامة فهي الإيحاء بالمعنى العام، أو الجو من خلال الموسيقى التصويرية، أي تصوير الحياة الدنيا والحياة الآخرة، مثل أجواء القيامة والحساب، وأجواء الجنة والنار. ولنتأمل ما جاء في سورة (الأعراف) من موسيقى تصويرية تقوم على التلازم:

﴿ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ ... وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٞ يَعۡرِفُونَ كُلَّۢا بِسِيمَىٰهُمۡۚ وَنَادَوۡاْ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ ...وَإِذَا صُرِفَتۡ أَبۡصَٰرُهُمۡ تِلۡقَآءَ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ ... وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا يَعۡرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمۡ ... وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ ... ﴾.(١)

إنّ تلازم لفظ (أصحاب) سبع مرّات أعطى الجو تناسقاً موسيقياً متجانساً، ولم يضعف معناها أو مدلولها مرّة واحدة، لأنها تكتسب مدلولاً جديداً كلّ مرّة من المضاف اليه (أصحاب النار، أصحاب الجنة، أصحاب الأعراف) ومن حركة الإعراب (أصحابُ، أصحابَ). ثم نلاحظ التلازم الذي لا يخضع لضرورة التجانس التام في قوله تعالى (ما وعدنا ربّنا حقاً) و (ما وعدكم ربّكم حقاً) وهنا نكتة بلاغية في (وعدنا ربّنا) نحن المؤمنون، أما أنتم (وعدكم ربّكم) وعداً عاماً، لأن الكافرين لا يستحقون الوعد الخاص بل الوعيد.

أما دلالة التلازم الخاصة في المثال قوله ((ومن آياته... إنّ في ذلك لآيات.)).. فهي على النحو الآتي: الدلالة الأولى لنسق هذا التلازم هي اطّراد كثرة النعم التي أنعم الله تعالى على عباده نتيجة اطّراد التلازم في سياق التعبير. والدلالة الثانية هي الإيحاء بوحدانية الخالق وعظمته من خلال اطّراد التلازم في تعداد النعم وآيات الخلق الكثيرة على نسق واحد. والدلالة الثالثة وهي أهم الدلالات وأبعدها غوراً، تلك هي قضية الإقناع الفكرية والوجدانية في آن واحد، ذلك الإقناع الناشئ من عرض آيات الله في الخلق، ثم الدعوة الى التفكّر فيها. وتنوّع الآيات المعروضة أمام الفكر والنظر، ثم وحدة الدعوة الى التأمل، وتوافق الأسلوب في التعبير عن المعاني قرينة فتعقيباً في المرّة المرّة الواحدة، واطّراد هذا التلازم مرّة بعد أخرى، ومهمة التلازم هنا بعد رسم الجو تسهيل التفكر في الآيات والنعم المتعددة من خلال السياق الموحّد الذي يلفت الانتباه، ويعمّق مجرى الإحساس في النفس.

ومن الدلالات الأخرى في هذا النص أن القرينة في الآية الواحدة أطول من التعقيب عليها، مما يوحي بأنّ التقسيم الموسيقي الى شطرين متساويين ليس فرضاً، لأن الموسيقى تنبع من المعنى ومن النفس. وهناك تلازم خفي غير النسق الذي مرّ ذكره ألا وهو اختلاف المفردات التي تكمل القرينة أو التعقيب في كلّ آية مع اطّراد النسق العام ووحدة المدلول في كلّ تعقيب. وهذا يوحي بأنّ النسق أو القانون الجمالي ليس قيداً مطلقاً يعمل بشكل آلي، بل

(١) الاعراف ٤٣-٤٩.

التعقيب نفسه يشكل ظاهرة في التعبير القرآني تستحق الدراسة، وهناك من الدلالات التي تغني هذه الظاهرة، والنكت الفنية في أنواع التعقيب شائعة في السور المدنية، ومن الأمثلة في سورة البقرة:

﴿ قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾(١)تسليم لله.

﴿ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾(٢)تخويف.

﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَـٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ -فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴾(٣)تعجب.

﴿ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾(٤) تحذير.

﴿ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴾(٥)بشارة.

ولا يخفى ما لهذه التعقيبات من تأثير ناشئ عن صيغ التركيب، وصلة واضحة بالإيقاع الموسيقي وغير ذلك.

وبهذا فإن للإيقاع في الخطاب القرآني دوراً كبيراً في تأدية وظائف عقلية تؤكد أن هناك نظاماً دقيقاً وهدفاً نبيلاً يتسم به التعبير القرآني، ووظيفة جمالية تخلق حالة من التأمل والتدبر لدى المتلقي لهذا التعبير، ووظيفة نفسية تؤدي الى حالة من التوازن والاستقرار بعد فهمه وتطبيقه، وقد تحقق الإيقاع صوتاً ودلالة من خلال نظم ثابتة سار عليها، فالفاصلة التي تقابل القافية والسجع إذ تتماثل فيها حروف الروي وتتقارب لتحقق نغماً يجذب الأسماع اليه، والتكرار الذي تتناوب فيه الحروف وتتناسق بحسب مخارجها، وتتكرر الألفاظ بحسب تماثلها أو اشتقاقها أو اختلاف مواقعها في التركيب. والتغيّر الذي يكسر رتابة التكرار الآلي بإحداث الصدمة، والتساوي الذي يتساوى فيه عدد مقاطع الفقرات وفواصلها، والتوازي في القرائن ذات الصيغة التركيبية الواحدة، والتوازن أو الموازنة اتفاق الفواصل في الوزن لا التقفية، والتلازم الذي هو نوع من التطريز يقع في صدر العبارات، وهذه النظم جميعاً تتناسق ودلالات التعبير لتؤدي وظيفة تفاعلية بين الخطاب والمتلقي.

---

(١) البقرة ٣٢.
(٢) البقرة ٥٧.
(٣) البقرة ١٧٥.
(٤) البقرة ١٩٧.
(٥) البقرة ٢١٤.

الخاتمة

بعد نهاية المطاف في أروقة الخطاب القرآني، والانبهار بهندسة بنائه، فلم أجد تفاوتاً بين لبناته أو موضوعاته، وكلها تدور حول فلك واحد، أو محور يعبّر عن ذلك التناسب بين مكوّناته فالخطاب لم يصدر عن بشر، بل عن الذات الإلهية التي تدعى بأسماء حسنى تتوافق والخطاب الصادر عنها، رحمة بالخلق، ورأفة بالمتلقي لوضعه على الصراط المستقيم.

وكانت لغة الخطاب اللغة العربية، لغة المتلقي، فقد استعملت استعمالاً فاق قدرتها التعبيرية في اختيار الألفاظ ذات الدلالات المتعددة، وقدرة على سبك الألفاظ في قالب التركيب، أذهلت المتلقي نفسه صاحب اللغة، وكانت طريقة إيصال الخطاب اليه على وفق أساليب عدّة تتناسب وعقليته وتفكيره واعتقاده، وإدراكه لمضمون الخطاب وردّة فعله، هذه الأساليب وضعت تبعاً لتعدد المتلقين واختلاف أهوائهم، وطريقة فهمهم لنص الخطاب ومضمونه وأهدافه ومراميه. ونزول الخطاب بسياق يتوافق وزمان نزوله، ومكان تلقيه.

وبعد جهد في استقصاء مكوّنات الخطاب القرآني، وأساليب عرضه وإيصاله للمتلقين، وبيان أهدافه النبيلة، أراني في حاجة الى الوقوف على بعض النتائج المهمة التي وصلت اليها وهي على النحو الآتي:

تعد السورة في القرآن الكريم لبنة من بناء محكم، تتلاحم أجزاؤه وتتناسب، فلا نجد اختلافاً أو تفاوتاً بينها، وتتشكّل السورة من مكوّنات تعبّر عن ذاتها، وهي: الافتتاحية، والموضوعات، والمحور، والخاتمة، والوحدة الموضوعية التي تربط بين هذه المكونات.

وتراعي الافتتاحيات الجانب النفسي للمتلقي، فتأتي مثيرة للانتباه، والتأمل في آيات الله، وتتضمّن تسبيح الله وتحميده وتبريكه وتمجيده، وفيها أمر ونهي وزجر عن أمور شائنة، وفيها ترهيب وترغيب. وقسَم بمظاهر الكون لعظمة خلقها، وفرض للأحكام الشرعية، وإخبار عن بعض الأمور الغيبية.

أما موضوعات السور فإن المكية منها تخاطب العقل قبل العاطفة، لأنها تخاطب العقول المشركة بالله، وتدعوها الى الإيمان بالله وملائكته ورسله وكتبه واليوم الآخر والقضاء والقدر، مع الأدلة والبراهين العقلية. وأما السور المدنية فإنها تبيّن موقف المؤمنين في الإسلام من خلال الخطاب الموجّه إليهم مباشرة، ومن خلال الأوامر والنواهي لتهذيبهم. وموقف الكفار والمشركين تجاه الدعوة، ولا يخاطبهم الله مباشرة بل من خلال الرسول (صلى الله عليه وسلم) وموقف المنافقين الذين لا يقلّون عداوة للإسلام عن الكفار، وقد نأى الله بخطابه المباشر عنهم الى النبي (صلى الله عليه وسلم) أيضاً. وموقف أهل الكتاب الذين يخاطبهم الله ويذكّرهم بنعمته عليهم، وقد اصطفوا مع الكفار والمنافقين للقضاء على الإسلام. ومن الموضوعات تحديد فرائض الإسلام كالعبادات مثل الصلاة والزكاة والصوم والحج والدعوة الى الجهاد، وفرض الأحكام الشرعية التي تنظم حياة لفرد والمجتمع، مع تحديد العقوبات للقصاص من المذنب.

وتدور كل سورة حول محور لها يعد الهدف أو الغرض الأساس الذي قامت عليه، وقد يكون في بداية السورة أو في وسطها أو في آخرها، وقد يشكل المحور سورة كاملة كما في السور القصار المكية، وقد يتعدى الى السور الطوال كما في سورة يوسف ونوح (عليهما السلام). وتتعلق خواتيم السور بفواتحها، وتدور أيضاً حول تعظيم الله وتسبيحه وتحميده وتذكير بوعده ووعيده، واتعاظ وإرشاد، وبيان للعبرة مما سبق، والدعوة للصبر والدعاء.

وتسود القرآن الكريم وحدة موضوعية تعبّر عن بنية متكاملة، ولا يجوز النظر اليها مجزّأة وإن نزلت الآيات متباعدة أحياناً زمنياً، ولكن الإعجاز نراه في ترابطها، وتناسب مكوناتها، ويتضح ذلك في تناسب الألفاظ مع بعضها، وكذلك الترابط بين موضوعات السورة نفسها، ووجود الصلة بين فاتحتها وخاتمتها، مما يعني النظر الى القرآن الكريم على أنه نص متكامل، ويتجلى ذلك من النظر الى آياته ذات الموضوع الواحد على أنه موضوع متكامل ولكنه موزّع على الآيات والسور، ولا خلاف عليه، ولذا نجد التناسب بين سوره مع تعدد موضوعاتها، وليس هناك تكرار وإنما هو تفصيل وتوضيح يقتضيه السياق.

وتعد اللغة أداة حيّة للتعبير عن المعاني، ولها دور كبير في توجيه أفكار المخاطب والتأثير فيه، وقد امتازت لغة الخطاب القرآني باستخدامها أساليب معينة جعلت بلغاء العرب تشهد لها بالبلاغة والفصاحة، ومن تلك الأساليب اختيار صيغة لفظ مفردة تعبّر عن دلالات عدّة موافقة للسياق والتركيب، وبالعكس اختيار صيغ عدّة تجتمع دلالاتها في معنى واحد.

ويمتلك معجم ألفاظ الخطاب القرآني ثراء لغوياً لا مثيل له، فقد حدد المعجم ألفاظ الخطاب الموجهة الى الخلق، فألفاظ خطاب الملائكة تختلف عن ألفاظ خطاب الجن، وألفاظ خطاب الإنس تختلف عن ألفاظ خطاب الجماد، وذلك لتعدد الخلق وتنوع الأسلوب المتّبع، ودرجة تلقيه وإدراكه. ولم يخاطب الله تعالى الكفار والمنافقين خطاباً مباشراً وذلك لأنه تعالى لا يريد أن يكلمهم، وكان الخطاب غير مباشر لهم، أي عن طريق النبي (صلى الله عليه وسلم) أو حكاية عنهم، أما خطابه للجماد كالسماوات والأرض والجبال والنار وغيرها فإنها تتلقى الخطاب وترد عليه، وهو على عكس الخطاب البشري الذي لا يوجّه الى الجماد لأنه لا يرد عليهم، ولا يتأثرون بما يقال لهم، وذلك لانعدام الإحساس والإدراك، وبذا امتاز الخطاب القرآني بهذه الميزة عن الخطاب البشري.

وتتضمن أساليب الخطاب القرآني تراكيب لغوية تتألف من ألفاظ ومعان خبرية وإنشائية، بحيث تعبّر عن الإرادة الإلهية، وتؤثر في المتلقي ليتفاعل مع النص تفاعلاً تاماً، وقد اختلف الناس في انحصار الخبر في الصدق والكذب، ويخرج الخبر في القرآن الكريم عن هذه القاعدة بامتياز الخبر بالصدق فحسب، وذلك بإيراده الأخبار والقصص والحقائق العلمية الثابتة والبديهيات المعروفة. والخبر على نوعين ابتدائي وطلبي بحسب السياق، ويكشف الخبر عن حالات الإنسان في الضعف وطلب الاسترحام والوعد والوعيد وغيرها، والخبر الإنشائي لا يحتمل الصدق والكذب، ومنه الطلبي كالأمر والنهي والاستفهام والتمني والنداء، وغير الطلبي في المدح والذم والقسم والتعجب والرجاء والعقود.

وتتمثل الجملة في التعبير القرآني بأحوال متعددة أو أساليب منوّعة في التعريف والتنكير، والذكر والحذف، والتقديم والتأخير، والفصل والوصل، ليكتسب التعبير حرية الاختيار بحسب ما يقتضيه المعنى المطلوب.

التصوير في القرآن الكريم وسيلة أو أسلوب فني لنقل الفكرة والعاطفة الى المتلقي في آن واحد، وقد ورد فيه اللفظ (صوّر، صوّركم، صوّرناكم، صورة، صوركم)، واعتمد التصوير على أساليب عدّة، منها التشبيه أي وصف الشيء بما يشاكله أو يقاربه من الصور الأخرى المعروفة، لتقريب الفكرة الى الذهن، وقد صوّر التشبيه حال المؤمنين والكفار في الدنيا والآخرة. واعتمد التصوير على أسلوب التمثيل أي التماثل أو المساواة بين شيئين، وذلك بخلق صور متخيلة أو حقيقية للترغيب في الإيمان بالله تعالى، والترهيب من الكفر وعقاب النار.

واستخدم التصوير أسلوب الاستعارة، وهو أن يجيء الى المشبه به فيعيره الى المشبه ويجريه عليه، وهذا الأسلوب له قدرة على الإيحاء والتخيّل، يعطي كثيراً من المعاني بقليل من الألفاظ، وينفث في الجماد روحاً فيتحرّك، ويجسّم ويجسّد المعاني العقلية. وقد صوّرت الاستعارة الإيمان بالله قرّبته الى العقول، وصوّرت الآلهة ونفّرتها من النفوس، ورسمت صورة لعجائب خلق الله في الكون، وحال الأنبياء مع أقوامهم، وحال المؤمنين والكفار في الدنيا والآخرة. واستخدمت الكناية في التصوير، وهي إيراد معنى لا يذكر باللفظ الموضوع له، ولكن يؤتى بمعنى هو تاليه أو ردفه فيومئ اليه، فيبعث ذلك على التأمل والتفكّر، وقد تعرّضت الكناية الى أسماء الله الحسنى، والإيمان بالله تعالى، ومظاهر الكون وحركته، وقصص الأنبياء، والنهي عن بعض العادات السيئة، وحال المؤمنين والكافرين في الآخرة.

وتقوم القصة القرآنية بمهام التصوير ولاسيما بعض عناصرها كالسرد الوصفي والحوار، وهما أسلوبان يدعوان الى التصوير الخلاّق في قصص الأنبياء والمرسلين، والمؤمنين والكافرين والمنافقين في الدنيا والآخرة.

والصور التي يرسمها الخطاب فردية تنقل جزءاً من الحدث مثل البراهين والدلائل على الإيمان بالله وملائكته ورسله وكتبه وقضائه وقدره واليوم الآخر، مثل القيامة والحساب والجنة والنار، وهي صور بصرية وسمعية وذوقية وشمية ولمسية، أي تقع تحت الحواس فلا يمكن نفيها أو تكذيبها. وتستخدم الصور الخيالية لغرض الموازنة بينها وبين الحسية، والصور الكلية التي هي مجموع الصور الجزئية كانت لغرض إثبات وحدانية الله وقدرته على تدبير الكون على وفق نظام دقيق.

الإيقاع الصوتي والدلالي في الخطاب القرآني أسلوب مؤثر، يقوم على التنظيم المتناسق للحروف والألفاظ والعبارات، تضع المتلقي في حالة من الشعور النفسي والوجداني حيث يجد نفسه تحت سلطة النص، وتأثيره الغريزي في الفطرة الإنسانية التي جبلت على حب الجميل من الأصوات والصور وغيرها من المحسوسات التي تخلق حالة من التفكّر والتدبّر في الخالق والمخلوق.

اتخذ الإيقاع أساليب ووسائل لإيصاله الى المتلقي، ومن هذه الوسائل نظام الفاصلة التي تقع في نهاية الآية، وتقابل القافية في الشعر والسجع في النثر، إذ تتماثل فيها حروف

الروي أي الحروف الأخيرة، وتتقارب لتحقيق نغم يجذب الأسماع اليه، فيجد المتلقي حلاوة في التذوّق، وطلاوة في السمع.

ومن هذه النظم نظام التكرار الذي تتناوب فيه الحروف، وتتناسق بحسب مخارجها من الفم وتتكرر الألفاظ بحسب تماثلها أو اشتقاقها أو اختلاف مواقعها في تركيب الآية، وقد وظف التكرار لتحقيق تنغيم صوتي، والتوكيد أو التركيز على حدث ما، أو موقف من المواقف الحاسمة مثل الإيمان بالله، والتحدي أمام الطغيان، أو تثبيت حكم شرعي نافذ، أو عرض مواقف الحساب والعقاب والثواب في الآخرة. وتكرار العبارة الذي يفيد في الإمتداد الصوتي الى مساحة واسعة من الخطاب، وجيء لغرض التقرير وثبات الأمر، وتأكيده تطرية للسمع، ودافعاً لحفظه في الذهن، وقد ورد هذا التكرار في أسماء الله الحسنى، وفي بيان آياته ودلائل خلقه، وفي قصص الأنبياء والمرسلين، وبيان معجزات الله على أيديهم.

ويفيد نظام التغيّر في كسر رتابة التكرار الآلي بإحداث صدمة تفيق العقل، وتبعد الغفلة لغرض التفكّر في آيات الله، والانقياد الى قضائه وقدره، وإرجاع الأمور اليه، وفي أسلوب هذا النظام دلالات فكرية وجمالية وفنية، في عرض دلائل خلقه، وبيان جمال هندسة الكون وتدبره وبيان قدرة الله على الخلق والعدم.

ويقوم نظام التساوي على المساواة بين مقاطع النص من حيث عدد الألفاظ، وتساوي الفواصل في التماثل والتقارب، وكأن النص قد وضع بشكل هندسي بحيث يجذب المتلقي الى مثل هذا الترتيب في الألفاظ والمقاطع، ويعمل هذا النظام على عرض الدلائل على خلق الكون. ويمتاز نظام التوازي بالعمل في القرائن والعبارات ذات الصيغة التركيبية الواحدة، فلا تذكر السماوات إلاّ وتذكر قرينتها الأرض، أو الشمس والقمر، أو الليل والنهار، وغير ذلك من بدائع الخلق الذي يثير العجب والدهشة والانسجام الصوتي.

ويراعي نظام التوازن أو الموازنة بين فاصلتي القرينتين في الوزن مع اختلاف الروي أي الحرف الأخير فيهما، وجيء به لغرض تحقيق تنغيم صوتي يتناسق وأقسام الكلام، أو يعمل على مؤاخاتها في الحث على التدبر والتفكر. ويأتي نظام التلازم وهو نوع من التطريز في نسيج النص، وذلك لغرض الإيحاء بالجو العام من خلال الموسيقى التصويرية التي تصوّر مظاهر الكون، وأجواء الحياة الدنيا والحياة الآخرة كالحساب والجنة والنار. وهذه النظم جميعاً بتناسقها الصوتي والدلالي تؤدي وظيفة تفاعلية بين الخطاب ومتلقيه.

المصادر والمراجع

أ- المصادر:

١- القرآن الكريم.
٢- ابن أبي الإصبع المصري (- ٦٥٤هـ)
تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، تحقيق د. حفني محمد شرف، القاهرة ١٣٨٣هـ.
٣- ابن الأثير: ضياء الدين أبو الحسن علي بن محمد (- ٦٣٧هـ)
المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة ١٩٣٩هـ.
٤- ابن جنّي: أبو الفتح عثمان بن جني (- ٣٩٢هـ)
أ- الخصائص، ط الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٦م.
ب- سر صناعة الأعراب، تحقيق لجنة من الأساتذة، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة ١٩٥٤م.
ج- المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها، تحقيق علي الجندي وآخرين ط مؤسسة دار التحرير، القاهرة ١٣٨٦هـ.
٥- ابن حجّة الحموي: تقي الدين أبو بكر بن علي (- ٨٣٧هـ) خزانة الأدب وغاية الإرب، المطبعة الخيرية، القاهرة ١٣٠٤هـ.
٦- ابن حزم: أبو محمد علي بن أحمد (- ٤٥٦هـ) الأخلاق والسِير في مداواة النفوس، مطبعة منير، بغداد ١٩٨٩م.
٧- ابن رشيق القيرواني: أبو علي الحسن بن رشيق (- ٤٦٣هـ)
العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ط دار الجيل بيروت ١٩٧٢م.
٨- ابن الزبير الغرناطي: أبو جعفر أحمد بن إبراهيم (- ٧٠٨هـ)
ا- البرهان في ترتيب سور القرآن، تحقيق محمد شعباني، ط وزارة الأوقاف، المغرب ١٩٩٠م.
ب- ملاك التأويل، تحقيق محمود كامل أحمد، ط دار النهضة العربية، بيروت ١٩٨٥م.
٩- ابن سنان الخفاجي: أبو محمد عبد الله بن محمد (- ٤٦٦هـ)
سر الفصاحة، شرح عبد المتعال الصعيدي، مطبعة محمد علي صبيح، القاهرة ١٩٦٩م.
١٠- ابن عبد البر: أبو عمر يوسف النمري (- ٤٦٣هـ)
الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تحقيق علي محمد البجاوي، ط دار الجيل، بيروت ١٩٩٢م.

١١- ابن عطية: أبو محمد عبد الحق بن غالب (- ٥٤١هـ) المحرر الوجيز، تحقيق علي عوض وزميله، ط دار الكتب العلمية، بيروت.
١٢- ابن عقيل: بهاء الدين عبد الله بن عبد الرحمن القرشي (-٧٦٩هـ)
شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ط المكتبة التجارية، القاهرة ١٩٦١م.
١٣- ابن قتيبة: أبو محمد عبد الله بن مسلم (- ٢٧٦هـ)
أدب الكاتب، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، القاهرة ١٩٦٣م.
١٤- ابن قيّم الجوزية: شمس الدين أبو عبد الله محمد (- ٧٥١هـ)
زاد المعاد في هدى خير العباد، المطبعة المصرية، القاهرة ١٣٧٩هـ.
١٥- ابن كثير: أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي (- ٧٧٤هـ)
أ- البداية والنهاية، مراجعة عبد القادر الأرناؤوط ود. بشار عواد معروف، ط دار ابن كثير، دمشق - بيروت ٢٠٠٧م.
ب- تفسير القرآن العظيم، ط دار الفكر، بيروت ١٤٠١هـ.
ج- قصص الأنبياء. ط مكتبة النهضة، بغداد ١٩٨٨م.
١٦- ابن منظور: جمال الدين محمد بن مكرم (- ٧١١هـ) لسان العرب، ط دار المعارف، مصر (د. ت)
١٧- ابن هشام: جمال الدين أبو محمد عبد الله بن يوسف الأنصاري (- ٧٦١هـ)
أ- السيرة النبوية، مطبعة الجمالية، القاهرة ١٩١٤م.
ب- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ط دار الفكر بيروت.
١٨- أبو حيّان الأندلسي: محمد بن يوسف (- ٧٤٥هـ)
أ- البحر المحيط، مطبعة السعادة، القاهرة ١٣٢٨هـ.
ب- النهر الماد من البحر المحيط، تحقيق عمر الأسعد، ط دار الجيل، بيروت ١٩٩٥م.
١٩- أبو السعود: محمد بن محمد العمادي (- ٩٨٢هـ)
إرشاد العقل السليم الى مزايا الكتاب الكريم، تحقيق عبد القادر احمد عطا، ط مكتبة الرياض الحديثة، الرياض.
٢٠- أبو عبيدة: معمر بن المثنى (- ٢٠٩هـ)
مجاز القرآن، تحقيق محمد فؤاد سزكين، ط مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٨١م.
٢١- أبو هلال العسكري: الحسن بن عبد الله (- ٣٩٥هـ)
الصناعتين، تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، ط عيسى البابي الحلبي القاهرة (د. ت)
٢٢- الآلوسي: شهاب الدين محمود بن عبد الله (- ١٢٧١هـ)
روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني، ط دار إحياء التراث.
٢٣- الباقلاني: أبو بكر محمد بن الطيب (- ٤٠٣هـ)
إعجاز القرآن (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن) تحقيق محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام، ط دار المعارف، القاهرة (د. ت)

٢٤- البخاري: أبو عبد الله محمد بن إسماعيل الجعفي (- ٢٥٦هـ)
صحيح البخاري، ط دار صادر، بيروت.
٢٥- البقاعي: برهان الدين إبراهيم بن عمر (- ٨٨٥هـ)
أ- مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور، تحقيق عبد السميع محمد أحمد، ط مكتبة المعارف، الرياض ١٩٨٧م.
ب- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، تحقيق عبد الرزاق غالب المهدي، ط دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩٥م.
وطبع أيضاً في دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن.
٢٦- البيضاوي: القاضي ناصر الدين عبد الله بن عمر (- ٧٩١هـ)
تفسيره (أنوار التنزيل وأسرار التأويل) مطبعة الحلبي، القاهرة.
٢٧- التهانوي: محمد علي بن علي (- ١١٥٨هـ)
كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، مطبعة الأوفسيت، طهران ١٩٦٧م.
٢٨- الثعلبي: أبو إسحاق أحمد بن محمد (- ٤٢٧هـ)
قصص الأنبياء (العرائس) مطبعة عاطف، مصر (د. ت)
٢٩- الجاحظ: أبو عثمان عمرو بن بحر (-٢٥٥هـ)
البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٦٠م.
٣٠- حازم القرطاجني: حازم بن محمد الأنصاري (- ٦٨٤هـ)
منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة، ط دار الكتب الشرقية، تونس ١٩٦٦م.
٣١- الحلبي: شهاب الدين أبو الثناء محمود بن سليمان (- ٧٢٥هـ)
حسن التوسّل إلى صناعة الترسّل، تحقيق ودراسة أكرم عثمان يوسف، ط دار الرشيد للنشر بغداد ١٩٨٠م.
٣٢- دائرة المعارف الإسلامية (النسخة العربية) ط كتاب الشعب، القاهرة.
٣٣- الرازي: فخر الدين محمد بن عمر (- ٦٠٦هـ)
أ- التفسير الكبير (مفاتيح الغيب) تحقيق خليل الميس، ط دار الفكر، بيروت ١٩٩٥م.
ب- من غرائب آي التنزيل، ط مصطفى البابي الحلبي، القاهرة.
وطبع أيضاً في دار الغد العربي.
ج- نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، ط القاهرة ١٣١٧هـ.
٣٤- الراغب الأصفهاني: أبو القاسم الحسين بن محمد (- ٥٠٢هـ)
المفردات في غريب القرآن، ط دار المعرفة، بيروت.
٣٥- الرماني: أبو الحسن علي بن عيسى (- ٣٨٤هـ)
النكت في إعجاز القرآن (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن) تحقيق محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام، ط دار المعارف، القاهرة (د. ت).
٣٦- الزركشي: بدر الدين محمد بن عبد الله (- ٧٩٤هـ)

البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط دار إحياء الكتب العربية، القاهرة ١٩٥٧م.
وطبع أيضاً بتحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الفكر، بيروت ١٩٨٨م.
٣٧- الزمخشري: جار الله محمود بن عمر (- ٥٣٨هـ)
الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، ط دار الكتاب العربي، بيروت.
وطبع أيضاً بدار الكتب العلمية، بيروت.
٣٨- السبكي: بهاء الدين أحمد بن علي (- ٧٧٣هـ)
أ- شروح التلخيص، ط القاهرة ١٩٣٧م.
ب- عروس الأفراح (مطبوع ضمن شروح التلخيص) ط دار السرور، بيروت (د. ت)
٣٩- السكاكي: أبو يعقوب يوسف بن محمد (- ٦٢٦هـ)
مفتاح العلوم، ط مصطفى البابي الحلبي، القاهرة ١٩٩٠م.
٤٠- السمين الحلبي: شهاب الدين أبو العباس أحمد بن يوسف (- ٧٥٦هـ)
الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، تحقيق عادل عبد الموجود، ط دار الكتب العلمية، بيروت.
٤١- سيبويه: أبو بشر عمرو بن عثمان (- ١٨٠هـ)
الكتاب، تحقيق عبد السلام هارون، ط مكتبة الخانجي، القاهرة ١٩٨٨م.
وطبع أيضاً في المطبعة الأميرية، بولاق ١٣١٧هـ.
٤٢- السيوطي: جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (- ٩١١هـ)
أ- الإتقان في علوم القرآن، تحقيق مصطفى البغا، ط دار ابن كثير، بيروت ١٩٩٣م.
وطبع أيضاً بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة المشهد الحسيني، القاهرة ١٩٦٧م.
ب- تناسق الدرر في تناسب السور، تحقيق عبد الله محمد درويش، ط دار الكتاب العربي، دمشق.
ج- الدر المنثور في التفسير بالمأثور، ط دار الفكر، بيروت ١٩٩٣م.
د- لباب النقول في أسباب النزول، المطبعة الهاشمية، دمشق ١٣٥٨هـ.
٤٣- الشاطبي: أبو إسحاق إبراهيم بن موسى (- ٧٩٠هـ)
الموافقات، ط دار الفكر العربي ودار المعرفة، بيروت ١٩٧٥م.
٤٤- الطبري: أبو جعفر محمد بن جرير (- ٣١٠هـ)
جامع البيان في تفسير القرآن، المطبعة الأميرية، مصر بولاق ١٣٢٣هـ.
٤٥- عبد القاهر الجرجاني: أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن (- ٤٧١هـ)
أ- أسرار البلاغة، تحقيق هـ. ريتز، مطبعة وزارة المعارف، استانبول ١٩٥٤م.
ب- دلائل الإعجاز، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي، ط مكتبة القاهرة، القاهرة ١٩٧٦. وطبع أيضاً بتحقيق محمود شاكر، دار المدني. وتحقيق محمد رشيد رضا، ط مكتبة القاهرة ١٩٦١م. وتحقيق فايز الداية ومحمد رضوان الداية، ط مكتبة سعد الدين، دمشق ١٩٨٧م.

٤٦- العلوي: يحيى بن حمزة اليمني (- ٧٤٩هـ)
الطراز المتضمّن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، مطبعة المقتطف، القاهرة١٩١٤م
٤٧- الغزالي: أبو حامد محمد بن محمد (- ٥٠٥هـ)
إحياء علوم الدين، ط مصطفى البابي الحلبي، القاهرة ١٣٤٧هـ.
٤٨- الفرّاء: أبو زكريا يحيى بن زياد (- ٢٠٧هـ)
معاني القرآن، تحقيق أحمد يوسف نجاتي ومحمد علي النجار، ط دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٥٥، ١٩٦٥م.
٤٩- الفيروز آبادي: مجد الدين محمد بن يعقوب (- ٨١٧هـ)
القاموس المحيط، ط مصطفى البابي الحلبي، القاهرة (د. ت)
٥٠- قُدامة بن جعفر: أبو الفرج (- ٣٣٧هـ)
نقد الشعر، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي، ط دار الكتب العلمية، بيروت (د. ت).
٥١- القرطبي: أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري (- ٦٧١هـ)
الجامع لأحكام القرآن، ط دار الشعب، القاهرة (د. ت) وطبع أيضاً في دار الريان.
٥٢- القزويني: الخطيب جلال الدين محمد بن عبد الرحمن (- ٧٣٩هـ)
الإيضاح في علوم البلاغة، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد وآخرين، ط القاهرة.
وطبع أيضاً بتحقيق لجنة من الأساتذة في مطبعة السنة المحمدية، القاهرة (د. ت).
٥٣- مسلم: أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري (- ٢٦١هـ)
صحيح مسلم، ط دار صادر، بيروت.
٥٤- المنذري: الحافظ عبد العظيم بن عبد القوي الشامي (- ٦٥٦هـ)
مختصر سنن أبي داود، ط دار المعرفة، بيروت (د. ت)

ب- المراجع:

١- د. ابتسام أحمد حمدان:
الأسس الجمالية للإيقاع البلاغي في العصر العباسي، ط دار القلم العربي، حلب ١٩٩٧م.
٢- د. إبراهيم أنيس:
أ- الأصوات اللغوية، المطبعة الفنية الحديثة، القاهرة ١٩٦١م.
ب- من أسرار اللغة، ط مكتبة الأنكلوالمصرية، القاهرة ١٩٦٦، ١٩٧٢م.
ج- موسيقى الشعر، ط مكتبة الأنكلوالمصرية، القاهرة ١٩٦٥م.
٣- د. إبراهيم مدكور:
معجم ألفاظ القرآن الكريم، ط مجمع اللغة العربية، القاهرة ١٩٨٨م.
٤- أحمد أبو زيد:
التناسب البياني في القرآن، منشورات كلية الآداب ـ جامعة محمد الخامس، الرباط

١٩٩٠م
٥- د. أحمد حاجم الربيعي:
القصص القرآني في الشعر الأندلسي، ط دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد ٢٠٠١م.
٦- أحمد خيري:
فوائد قرآنية، ط دار الثقافة، الإسكندرية ١٣٨٥هـ.
٧- إ. رتشاردز:
مبادئ النقد الأدبي، ترجمة د. مصطفى بدوي، ط المؤسسة المصرية العامة، القاهرة ١٩٦٣م.
٨- د. أحمد الشرباصي:
أخلاق القرآن، ط دار الرائد العربي، بيروت ١٩٧١م.
٩- أحمد فتحي بهنسي:
الحدود في الإسلام، مؤسسة المطبوعات الحديثة، القاهرة (د. ت)
١٠- أحمد محمد الشرقاوي:
نظرية الوحدة الموضوعية للقرآن الكريم من خلال كتاب الأساس في التفسير (بحث في الإنترنيت).
١١- د. أحمد مطلوب:
أ- البلاغة العربية، ط وزارة التعليم العالي، بغداد ١٩٨٠م.
ب- معجم المصطلحات البلاغية، مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد
١٢- د. جابر عصفور:
الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي، ط دار الثقافة، القاهرة ١٩٧٤م.
١٣- جان لاكوست:
فلسفة الفن، ترجمة ريم الأمين وتحقيق انطوان الهاشم، ط عويدات للنشر والطباعة، ٢٠٠١م.
١٤- جورج سانتيانا:
الإحساس بالجمال، ترجمة د. مصطفى بدوي، ط مكتبة الإنكلوالمصرية، القاهرة.
١٥- جيروز ستولنتيز:
النقد الفني- دراسة جمالية فلسفية- ترجمة فؤاد زكريا، ط المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
١٦- د. حسن إبراهيم:
تاريخ الإسلام السياسي والثقافي والاجتماعي، القاهرة ١٩٤٨م.
١٧- د. رمضان عبد التوّاب:
المدخل إلى علم اللغة، ط مكتبة الخانجي، القاهرة ١٩٨٠م.
١٨- روز غريب:
النقد الجمالي وأثره في النقد العربي، ط دار العلم للملايين، بيروت ١٩٥١م.
١٩- د. سامي الدروبي:
علم النفس والأدب، ط دار المعارف، القاهرة ١٩٧٢م.

٢٠- ستيفن أولمان:
دور الكلمة في اللغة، ترجمة د. كمال بشر، ط مكتبة الشباب، ١٩٧٥م.
٢١- سلوى محمد العوّا:
الوجوه والنظائر في القرآن الكريم، ط دار الشروق، القاهرة ١٩٩٨م.
٢٢- سيّد قطب:
أ- التصوير الفني في القرآن، ط دار الشروق، القاهرة ٢٠٠٢م.
ب- في ظلال القرآن، ط دار إحياء التراث العربي، بيروت ١٩٧١م.
ج- مشاهد القيامة في القرآن، ط بيروت (د. ت).
٢٣- سيسل دي لويس:
الصورة الشعرية، ترجمة د. أحمد نصيف الجنابي وآخرين، ط دار الرشيد للنشر، بغداد ١٩٨٢م.
٢٤- صفي الرحمن المباركفوري:
روضة الأنوار في سيرة المختار، ط وكالة وزارة الأوقاف، الرياض ١٤٢٧هـ.
٢٥- طه جابر العلواني:
الوحدة البنائية للقرآن المجيد، ط مكتبة الشروق، القاهرة ٢٠٠٦م.
٢٦- عباس محمود العقاد:
حقائق الإسلام وأباطيل خصومه، ط دار القلم ١٩٦٦م.
٢٧- د. عبد الله الطيب المجذوب:
المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها، ط مصطفى البابي الحلبي، القاهرة ١٩٥٥م.
٢٨- عبد الله محمود شحاته:
فقه العبادات، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ٢٩٧٥م.
٢٩- د. عبد الحميد أحمد هنداوي:
الإعجاز الصرفي في القرآن الكريم، ط المكتبة العصرية، بيروت ٢٠٠١م.
٣٠- عبد العزيز المقالح:
الشعر بين الرؤيا والتشكيل، ط دار العودة، بيروت ١٩٨١م.
٣١- د. عبد الفتاح عاشور:
منهج القرآن في تربية المجتمع، دار الجيل للطباعة، القاهرة ١٩٧٩م.
٣٢- د. عبد الفتاح لاشين:
البديع في ضوء أساليب القرآن، دار التضامن للطباعة، القاهرة ١٩٧٩م.
٣٣- د. عز الدين إسماعيل:
أ- الأسس الجمالية في النقد، ط دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد ١٩٨٦م.
ب- التفسير النفسي للأدب، القاهرة.
٣٤- د. علي الجندي:
صور البديع- فن الأسجاع- ط دار الفكر العربي، ١٩٥١م.
٣٥- د. علي عباس علوان:

تطوّر الشعر العراقي الحديث، ط وزارة الثقافة والإعلام، بغداد ١٩٧٥م.
٣٦- فاضل السامرائي:
بلاغة الكلمة في التعبير القرآني، ط دار عمّار، الأردن عمان ٢٠٠١م.
٣٧- د. ماهر مهدي هلال:
جرس الألفاظ ودلالتها في البحث البلاغي والنقدي عند العرب، ط دار الحرية، بغداد ١٩٨٠م.
٣٨- محمد أبو زهرة:
تنظيم الإسلام للمجتمع، ط دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٦٥م.
٣٩- د. محمد جابر الفيّاض:
الأمثال في القرآن الكريم، ط دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد ١٩٨٨م.
٤٠- محمد الحسناوي:
الفاصلة في القرآن، ط دار عمّار للنشر والتوزيع، الأردن عمان ٢٠٠٠م.
٤١- محمد حسنين هيكل:
حياة محمد، مطبعة بولاق، القاهرة ١٩٤٧م.
٤٢- د. محمد حسين الصغير:
الصورة الفنية في المثل القرآني، اطروحة دكتوراه، جامعة بغداد ١٩٧٨م.
٤٣- محمد رضا مبارك:
اللغة الشعرية في الخطاب النقدي العربي- تلازم التراث والمعاصرة- ط دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد ١٩٩٣م.
٤٤- د. محمد زغلول سلام:
أثر القرآن في تطوّر النقد الأدبي، ط دار المعارف بمصر ١٩٦١م.
٤٥- محمد عبد المطلب:
البلاغة والأسلوبية، ط الشركة المصرية العالمية للكتاب، القاهرة ١٩٨٤م.
٤٦- د. محمد غنيمي هلال:
النقد الأدبي الحديث، ط دار الثقافة، بيروت ١٩٧٣م.
٤٧- محمد كرد علي:
رسائل البلغاء، ط دار الكتب العربية الكبرى، القاهرة ١٩١٣م.
٤٨- محمد المبارك:
دراسة أدبية لنصوص من القرآن، ط دار الفكر، بيروت ١٩٦٤م.
٤٩- محمد متولي شعراوي:
أ- القرآن الكريم معجزة ومنهج، ط دار الندوة الجديدة، بيروت ١٩٨٤م.
ب- المنتخب من تفسير القرآن الكريم، دار النصر للطباعة والنشر، القاهرة.
٥٠- محمد مصطفى بدوي:
سلسلة نوابغ الفكر الغربي- كولردج- ط دار المعارف، القاهرة ١٩٥٨م.
٥١- محمد مفتاح:
تحليل الخطاب الشعري، ط المركز الثقافي ،الدار البيضاء ١٩٨٥م.

٥٢- محمد الهادي الطرابلسي:
خصائص الأسلوب في الشوقيات، منشورات الجامعة التونسية، تونس ١٩٨١م.
٥٣- د. محمود أمين الخضري:
الإعجاز البياني في صيغ الألفاظ- دراسة تحليلية للإفراد والجمع في القرآن- مطبعة الحسين الإسلامية، القاهرة.
٥٤- محمود شلتوت:
منهج القرآن في بناء المجتمع، دار الهلال للطباعة، القاهرة ١٩٨١م.
٥٥- د. مصطفى مسلم:
مباحث في التفسير الموضوعي، ط دار القلم، دمشق ١٩٩٨م.
٥٦- نازك الملائكة:
أ- ديوان شظايا ورماد، ط ١٩٤٩م.
ب- قضايا الشعر المعاصر، ط مكتبة النهضة، بغداد ١٩٦٧م.
٥٧- د. يحيى الدرديري:
أركان الإسلام الخمسة أثرها في الأفراد والجماعات، المطبعة السلفية، القاهرة ١٩٥١م.
٥٨- د. يوسف أبو العدوس:
المجاز المرسل والكناية- الأبعاد المعرفية والجمالية- ط الدار الأهلية، ١٩٩٨.
٥٩- د. يوسف القرضاوي:
العبادة في الإسلام، ط مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٧٩م.
٦٠- يوسف اليوسف:
مقالات في الشعر الجاهلي، ط دار الحقائق، الجزائر ١٩٨٠م.

ج- الدوريات:

١- مجلة المعرفة، العدد (٣٥) لسنة ٢٠٠٤م/عبد الرحمن حللي: المفاهيم والمصطلحات القرآنية، مقاربة منهجية.
٢- مجلة التجديد، الجامعة الإسلامية العالمية، ماليزيا، العدد (١٩) السنة العاشرة ٢٠٠٦م
عبد الرحمن حللي: الأسماء والكلمات، دراسة مفاهيمية قرآنية.
٣- مجلة آداب الرافدين، كلية الآداب- جامعة الموصل، العدد (٩) لسنة ١٩٧٨م/ د. كاصد ياسر حسين: الجرس والإيقاع في تعبير القرآن.